

محمد إقبال

فيلسوف الذاتية



د. حسن حنفي



د. حسن حنفي

المؤهلات العلميّة:

دكتوراه الدولة في الفلسفة، جامعة باريس، السوربون، 1966.
يتقن العربية، الإنكليزية، الفرنسية، الألمانية.

التدرُّج الوظيفي:

عمل أستاذاً للفلسفة في جامعة القاهرة منذ 1967.
رئيس قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1988 - 1994.
أستاذ متفرغ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1995 حتى اليوم.

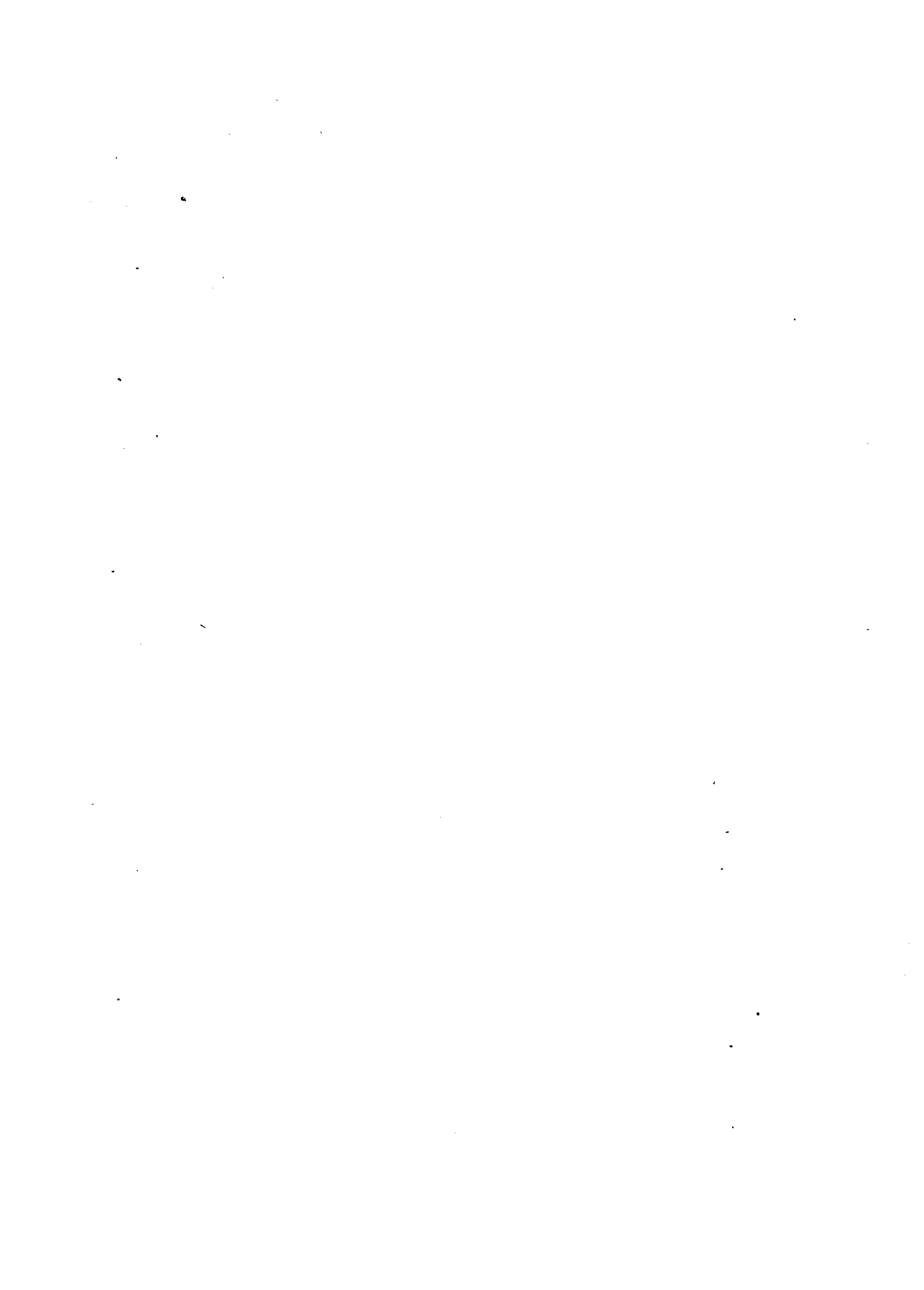
المهام العلمية:

أستاذ زائر، جامعة تمبل فيلادلفيا، أميركا، 1971 - 1975.
أستاذ زائر، جامعة فاس، المغرب، 1982 - 1984.
أستاذ زائر، جامعة طوكيو، 1984 - 1985.
مستشار علمي للبرامج، جامعة الأمم المتحدة، طوكيو، 1985 - 1987.
أستاذ زائر، جامعة UCLA، ربيع 1995.
أستاذ زائر، جامعة بريمن، ربيع 1998.
عضو في العديد من الجمعيات العلميّة.

الأعمال العلميّة، بالعربية:

- المعتمد في أصول الفقه لأبي الحسين البصري، (جزءان)، دمشق، 1964. (تحقيق).
- نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، الإسكندرية، 1968. (ترجمة).
- رسالة في اللاهوت والسياسة لاسبينوزا، القاهرة، 1973. (ترجمة).
- لسنج: تربية الجنس البشري، القاهرة، 1977. (ترجمة).
- سارتر: تعالي الأنا موجود، القاهرة، 1977. (ترجمة).
- التراث والتجديد، القاهرة، 1980.
- دراسات إسلامية، القاهرة، 1982.
- دراسات فلسفية، القاهرة، 1987.
- من العقيدة إلى الثورة، (خمسة أجزاء)، القاهرة، 1988.
- الدين والثورة في مصر، (ثمانية أجزاء)، القاهرة، 1989.

محمد إقبال
فيلسوف الذاتية



محمد إقبال

فيلسوف الذاتية

الدكتور حسن حنفي

دار المدار الإسلامي

محمد إقبال فيلسوف الذاتية

الدكتور حسن حنفي

© دار المدار الإسلامي 2009
جميع الحقوق محفوظة للناسر بالتعاقد مع المؤلف

الطبعة الأولى
حزيران/يونيو/الصيف 2009 إفرنجي

موضوع الكتاب فلسفة
تصميم الغلاف دار المدار الإسلامي
الحجم 24 × 17 سم
التجليد فتي مع جاكيت

ردمك ISBN 9959-29-415-9
(دار الكتب الوطنية/بنغازي - ليبيا)

رقم الإيداع المحلي 2007/183

دار المدار الإسلامي
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 961 1 75 03 04 + خليوي 961 3 93 39 39 +
961 1 75 03 07 + فاكس 961 1 75 03 05
ص.ب. 14/6703 بيروت - لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

جميع الحقوق محفوظة للدار، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي مسبق من الناسر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس - الجماهيرية العظمى
هاتف وفاكس: 218 21 34 07 013 + نَقال 218 91 21 45 463 +
بريد إلكتروني: oeabooks@yahoo.com

الإهداء

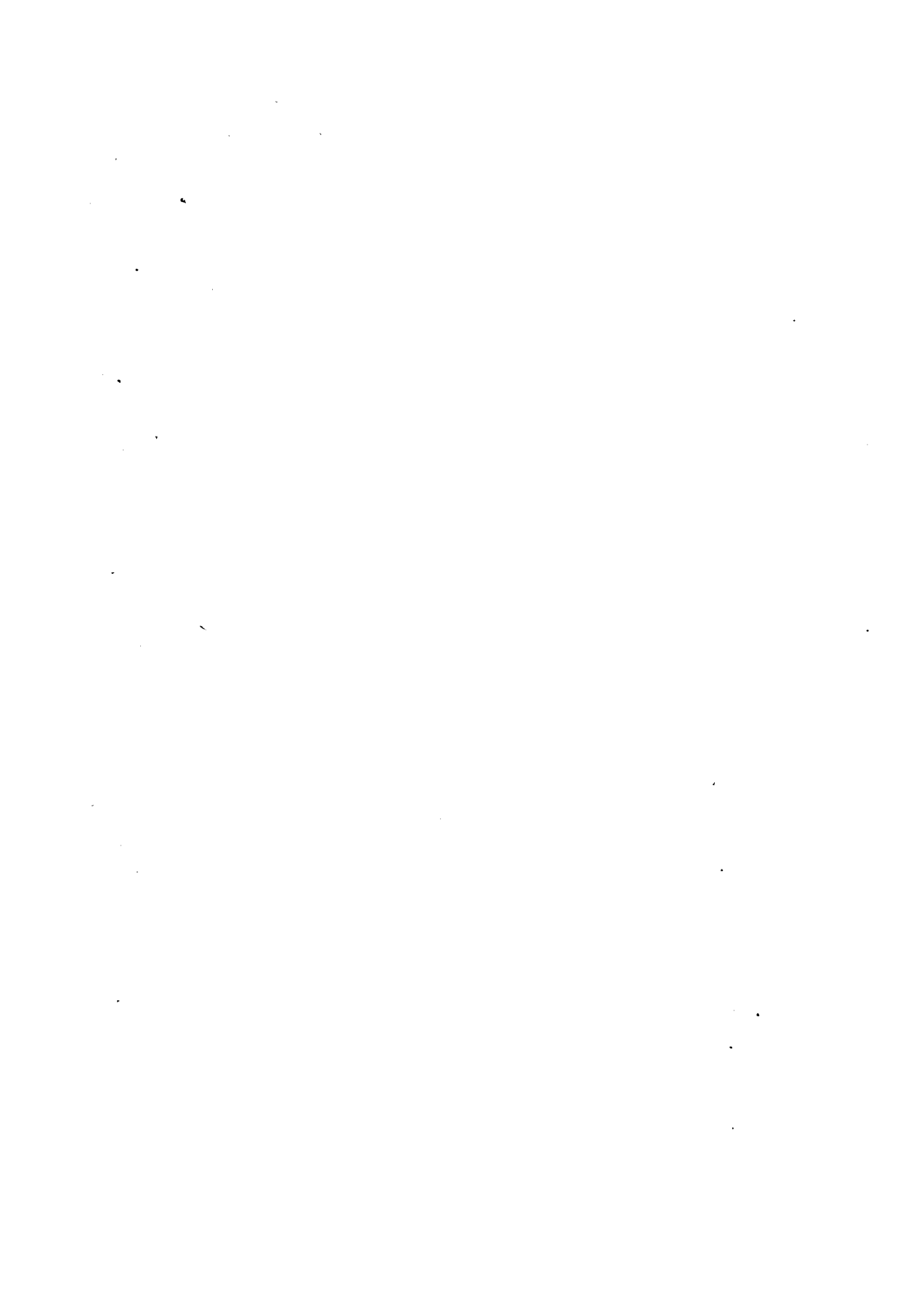
بروحي للحياة مع الفناء

صراع، لا أرى غير البقاء

(محمد إقبال)

حسن حنفي

مدينة نصر، يناير 2006



مقدمة

1 - تصدير

سمعت عن محمد إقبال لأول مرة ونحن طلاب في الثانوية 1947-1952، منشئ باكستان عام 1948، عيد استقلال الهند، ونشأة دولة باكستان «الأرض المقدسة». هو المفكر، ومحمد علي جناح القائد. كان هذا هو الحل الوحيد للتخلص من الاقتتال الدائر بين المسلمين والهندوس الذي لم تشفع معه سياسة غاندي وإضرابه عن الطعام. كنا إسلاميين بالطبيعة، مع باكستان أكثر مما كنا مع الهند. ولم نكن نعرف بعد «حزب المؤتمر» بزعامة نهرو ونضاله ضد الاستعمار البريطاني بالرغم من تأييد الهند لثورة 1919، ومراسلات غاندي مع سعد زغلول، وبالرغم من تأييده لقضية فلسطين. فعام 1948 هو عام النكبة، تقسيم الهند، وتقسيم فلسطين، وإقامة النظام العنصري في جنوب أفريقيا.

وفي أواخر الثانوية العامة بدأ النضال الداخلي المصري ممثلاً في أربعة اتجاهات: أولاً، الوفد خاصة جناحه اليساري، الطليعة الوفدية أثناء انتخابات 1951 التي اكتسح فيها الوفد معظم مقاعد البرلمان. ثانياً، الإخوان المسلمون الذين لم يشتركوا في اللجنة الوطنية للطلبة والعمال في 1946 لخطأ في التحليل السياسي. ثالثاً، مصر الفتاة لأحمد حسين وقد كان غامضاً بالنسبة لنا ونحن طلاب. فيه وطنية مثل الجميع وبه اشتراكية ولكن به قوة وعنفة. رابعاً وأخيراً الماركسيون. وكانوا على أنواع أهمها الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدثو). وكانوا أقلية أيضاً. وكنا بتوجهاتنا الوطنية الإسلامية التقليدية ننأى منها خاصة وأن سلوكهم كبشر كان مما لا تألفه العادات المصرية. كانت قلوبنا أقرب إلى الوفد ممثلاً للحركة الوطنية الرئيسية في الشارع المصري.

وفي صيف 1952 عام الثورة، انضمت إلى جماعة «الإخوان المسلمين» رسمياً، عضواً في شعبة «باب الشعرية». ودخلت الجامعة وأنا إخواني. وبالرغم من انفعالنا بثورة 23 يوليو مثل كل المصريين خاصة بعد طرد الملك في 26 يوليو، وتحويل مصر من ملكية إلى جمهورية، والقضاء على الإقطاع ومجتمع النصف في المائة إلا أن الصراع كان مع القوى الوطنية ممثلة في الوفد أولاً في 1953 ثم في الإخوان والشيوعيين فيما يعرف بأزمة مارس 1954 قبل أن يتحول عبد الناصر إلى بطل قومي بعد تأميم القناة في يوليو 1956، والعدوان الثلاثي على مصر في أكتوبر، ثم انسحاب القوات البريطانية والفرنسية والصهيونية في ديسمبر من نفس العام.

عرفنا إقبال ومحمد خان، والأفغاني ومحمد عبده والكواكبي وعلال الفاسي في ذلك الوقت كمصلحين كبار. وهو التيار الإصلاحي الثوري الذي فجر ثورة عربي في مصر. وأقام دولة باكستان. وكان وراء الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، وفي السودان في الثورة المهدية، وفي ليبيا في الحركة السنوسية، وفي حركة الأئمة الأحرار في اليمن. وامتدت الحركة الإصلاحية في وعينا السياسي إلى الألويسيين في العراق، والشوكان في اليمن، ومحمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية، ومصطفى السباعي في سوريا، وسيد قطب في مصر، والمودودي في باكستان الوليدة، وحركة «فدائيان إسلام» في إيران.

استمعنا إلى إقبال على نحو علمي في درس الفلسفة المعاصرة في السنة الرابعة من أستاذنا «عثمان أمين»، بالرغم من اعتراضنا أن ذلك لا يدخل في الفلسفة الغربية المعاصرة، ولم يكن الفكر العربي المعاصر قد دخل بعد ضمن المقررات. ورب ضارة نافعة. تعلمنا منه الكثير فيما يتعلق بالحركة الإصلاحية خاصة محمد عبده. وكان يقرأ فيهم منهج المثالية الترنسندننتالية التي سماها «الجوانية». وأصدر فيها كتاباً بهذا العنوان عام 1964 «الجوانية أصول عقيدة وفلسفة ثورة»⁽¹⁾. وكان لا فرق عنده بين ديكارت وكانط وبرجسون وإقبال والأفغاني ومحمد عبده ومصطفى عبد الرازق والعقاد «رواد الوعي الإنساني». كان يشرح لنا

(1) «من الوعي الفردي إلى الوعي الاجتماعي»، دراسات إسلامية، الأنجلو المصرية، 1982، ص 347

«ضرب الكلیم». ولأول مرة سمعت عن الذاتية والحرية والجمال والتخلق والآمال والإيمان والإلحاد ونقد الغرب المادي. وكما استمعت إلى فشته في الفصل الدراسي الأول، استمعت أيضاً إلى إقبال وانفعلت به وكأنني أسمع نفس الشيء، ونفس الفلسفة. وعزمت حينها أن أكتب عن فشته وعن إقبال، منذ ما يقرب من نصف قرن، وكان ذلك عام 1956⁽¹⁾. وكان إقبال يثيرنا أكثر من محمد عبده بسبب موقفه من الثورة العرابية وتنصله منها، وحسن معاملة الإنجليز واللورد كرومر له، ونفيه مجرد ثلاث سنوات، أستاذاً بكلية المقاصد الإسلامية ببيروت.

قرأت «تجديد التفكير الديني في الإسلام» في صيف 1956. وقرأت «ضرب الكلیم» وأنا أستاذ في 1966 أدرس الفكر العربي الحديث كموضوع خاص. وظللت أجمع أعماله على مدى أربعين عاماً، نثراً وشعراً. وآخر مرة أثناء زيارتي للاهور وأنا أزور مسجد لاهور، ومقبرة إقبال بجواره؛ صورت مجموعة أشعاره التسع من أكاديمية إقبال. ثم حصلت أخيراً على «رسالة الخلود نثراً»⁽²⁾. وكان السؤال عن مبدأ الحركة في الإسلام هل هو التصوف أم الأصول، الكشف أم الاجتهاد؟.

الظروف متشابهة لظروف المسلمين في الهند، الخمول والكسل واللامبالاة. لذلك صاغ لهم إقبال فلسفة الذاتية. وظروف الأمة بعد ذلك بستين عاماً لم تتغير بالرغم من الثورات العربية في منتصف الخمسينيات. فبالرغم من استمرار العدوان الصهيوني على الأمة في فلسطين، والأمريكي في العراق وأفغانستان، والروسي في الشيشان، والهندي في كشمير، والأسباني في سبته ومليليه في المغرب، وبالرغم من قيام حركات التحرر الوطني بواجبها في الخمسينيات والستينيات إلا أن المسلمين مازالوا مصابين باللامبالاة والفتور كما وصف الكواكبي في «أم القرى». لذلك أتى «محمد إقبال» فيلسوف الذاتية، تلبية لعهد قديم، وفي وقته وزمانه.

(1) فشته فيلسوف المقاومة، ط2 المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ط1 الجمعية الفلسفية المصرية (4)، القاهرة 2002.

(2) وقد قام بمساعدتي في إسلام آباد ولاهور الصديق الدكتور / خالد مسعود، رئيس «مجلس الإيديولوجيا الإسلامية». وقد تفضل مشكوراً الصديق محمد سعد جمال الدين بتصوير «رسالة الخلود» نثراً. والشكر أيضاً للصديق أ.د/ حسن الشافعي الذي ترجم «تطور الميتافيزيقا في فارس» والذي أيضاً أخذ على عاتقه تقديم كل المساعدة الممكنة.

كتاب «إقبال، فيلسوف الذاتية» وكتاب «برجسون فيلسوف الحياة» كلاهما تمهيد للمحاولة الرابعة لإعادة بناء العلوم الإسلامية القديمة بعد، «من العقيدة إلى الثورة» لبناء علم أصول الدين، و«من النقل إلى الإبداع» لإعادة بناء علوم الحكمة، و«من النص إلى الواقع» لإعادة بناء علم أصول الفقه وهي «من الفناء إلى البقاء» لإعادة بناء علوم التصوف. فلا يوجد فيلسوفان نظراً للتجربة الصوفية قدر إقبال وبرجسون. الأول من الموروث، والثاني من الوافد.

2 - الموضوع والمنهج

«إقبال فيلسوف الذاتية» دراسة فلسفية محضة وليست أدبية في الشعر الأوربي أو الفارسي. فمؤلفات إقبال شعرية أو نثرية أعمال فلسفية مثل باقي أعمال الفلاسفة. فلا حاجة إلى نظرة أدبية على المنظومة⁽¹⁾. والبحث في اللغات والأشكال الأدبية كل ذلك أدخل في الدراسات الأدبية وليس في الدراسات الفلسفية. المهم هو المضمون الفلسفي وليس الشكل الأدبي للدواوين الشعرية. فالدراسة عن إقبال الفيلسوف وليس إقبال الشاعر، يقوم بها مفكر وليس ناقداً أدبياً.

استعمل منهج العرض وكأن إقبال يتحدث عن نفسه. وذكّرت الشواهد الشعرية، على الرغم من طولها، في الهوامش حتي يشارك القارئ في فهم التحليلات الفلسفية وتجاربها الشعرية. فالعبارة الشارحة للشعر أقل تأثيراً في القارئ من الشعر نفسه. والفصل بين الشرح والشعر، الشرح في أعلى الصفحة والشعر في أسفلها يحافظ على اتساق الخطاب الشارح، وأصالة الشعر وفطريته. والآية القرآنية أبلغ في فهمها وأصدق في الإحساس بها من كل كتب التفسير مهما زادت المجلدات، وعظمت العبقريات اللغوية والفقهية والتاريخية.

ليس العرض نقداً لأفكار إقبال بل هو في نفس الوقت عرض لأفكار المؤلف على لسان إقبال. وما اختلف معه فيه يكون بعد العرض وداخلاً فيه كنوع من التعليق أو الاستدراك أو التأويل أو الإكمال أو إعادة البناء طبقاً لظروف هذا العصر وتغييراته منذ النصف الأول من القرن الماضي الذي عاش فيه إقبال. في حين أن المؤلف يعيش في النصف الثاني منه.

وبالإضافة إلى منهج العرض يتم استخدام منهج القراءة والتأويل الذي يتمثل في انتقاء أكثر القصائد دلالة على الوضع الراهن وأكثرها مباشرة في التعبير عن الأوضاع. فبعض القصائد أكثر دلالة من القصائد الأخرى. وهي التي تعبر عن حرقة القلب وأزمة الواقع أكثر مما تعبر عن الأفكار الفلسفية والنظرات الميتافيزيقية. فالقصائد كلها ليست على نفس المستوى من حيث الدلالة. بعضها يؤثر في القلب مباشرة، والبعض الآخر في حاجة إلى تأمل وفهم وتدبر. اخترنا الأولى في الهوامش وليس الثانية. فالشاهد الشعري هو الذي يشعر قراءه بمضمونه، ويشارك في نفس التجربة. كلاهما يعبر عن الواقع المعاصر وأزمة العصر بالرغم من انقضاء ثلاثة أرباع القرن تقريباً منذ وفاة إقبال. والمسافة بين جيل إقبال وجيل المؤلف ليست كبيرة. إذ يتنسب كلاهما إلى جيلين متعاقبين⁽¹⁾. كما يعني منهج القراءة والتأويل دفع إقبال خطوة إلى الأمام من أجل توضيح الاشتباه فيه. إذ يمكن تأويله محافظاً أو متحرراً، رجعيّاً أم تقدمياً، يميناً أو يساراً، وذلك من أجل مزيد من التأصيل للإسلام الثوري أو لليسار الإسلامي في الموروث بعد تأصيله في الوafd «فشته، فيلسوف المقاومة»، عن طريق اختيار الشخصيات وإعادة رسم صور لهم مثل «الأفغاني» وعبد الله النديم⁽²⁾. فالبداية إقبال، والنهاية الإسلام الثوري.

لم يتم الاستشهاد بالقصائد كلها كاملة حفاظاً على وحدتها بل تم انتقاء أبيات منها تتعلق بالموضوع المدروس، وتجميع كل الأبيات من قصائد أخرى في نفس الموضوع. فالدراسة ليست أدبية تحافظ على وحدة القصيدة بل فلسفية تحافظ على وحدة الموضوع. وهما نفس المنهجين في تفسير القرآن: المنهج الطولي الذي يحافظ على وحدة السورة ويضحى بوحدة الموضوع، والمنهج العرضي الذي يحافظ على وحدة الموضوع ويضحى بوحدة السورة.

وتقوم هذه الدراسة على المصادر الأصلية لإقبال الشعرية أولاً ثم الثرية ثانياً دون الاعتماد على الدراسات الثانوية. وما أكثرها في التراجم والدراسات بالأردية

(1) توفي إقبال عام 1938 وولد المؤلف عام 1935.

(2) جمال الدين الأفغاني، المائوية الأولى (1897 - 1997)، دار قباء، القاهرة 1998.

والفارسية والإنجليزية والعربية، بالإضافة إلى الرسائل الجامعية التي لم تطبع حتى الآن⁽¹⁾.

وبالرغم من بعض الفوائد من الدراسات الثانوية مثل إعطاء بعض المعلومات التاريخية إلا أنها مجرد تاريخ ورصد، دون تأويل وتطوير. هي أقرب إلى أن تكون موضوع دراسة لمعرفة موقف الباحث ورؤيته لإقبال منها أن تكون دراسة موضوع⁽²⁾.

صحيح أن عدم العلم بالفارسية والأردية نقص كبير، ولكن الترجمة النثرية والشعرية العربية والأصول الإنجليزية سدت هذا النقص. فقد استطاعت الترجمات خاصة الشعرية نقل روح إقبال من لغته الأصلية إلى اللغة العربية حتى إن البعض منها تم تلحينه وغناؤه من سيدة الغناء العربي وكما حدث في رباعيات الخيام. وهو عيب ما زال كبيراً في أقسام الفلسفة في جامعاتنا العربية، وعدم الانتباه إلى اللغات الشرقية الفارسية والأردية والتركية قدر اهتمامنا باللغات الأوربية القديمة أو الحديثة⁽³⁾.

3 - الترجمات الحالية

أحياناً يفرض النظم العربي منطقته. فتحذف بعض الأبيات الفارسية. فالترجمة نظماً ليست ترجمة حرفية بل ترجمة فنية. التطابق بين النصين المترجم منه والمترجم إليه يجوز في النثر، من النثر إلى النثر، من شكل فني إلى شكل فني مشابه أو على أقصى تقدير، من الشعر إلى النثر ولكن ليس من النثر إلى الشعر أو من الشعر إلى الشعر.

قد يكون المحذوف غير دال وغير شعري، مجرد أبيات للربط. فليست كل

(1) الأسرار والرموز، المقدمة ص 52 - 56.

(2) من العقيدة إلى الثورة ج1، المقدمات النظرية ص 230 - 231.

من النقل إلى الإبداع، المجلد (1)، الجزء (1)، المقدمة ص 71 - 76.

من النص إلى الواقع ج1، تكوين النص ص 36 - 37.

(3) لذلك أدخلت اللغة الفارسية ضمن مقررات الدراسة، مرحلة الليسانس ثم مرحلة الدراسات العليا في قسم الفلسفة بكلية الآداب، جامعة القاهرة، أثناء رئاستي له 1988 - 1994.

الأبيات على نفس المستوي من الشعرية في الشعر الفلسفي أو في الفلسفة الشعرية. وذلك واضح أيضاً في محاولات القدماء مثل «القصيدة العينية» لابن سينا، وخاصة في الشعر التعليمي المتأخر في عصر الشروح والملخصات مثل «السلم المرونق» في المنطق⁽¹⁾.

التفصيلات والدقيقات الكثيرة في عدم التطابق بين الشعر المترجم منه والشعر المترجم إليه يقوم على أن الترجمة نظرية في المطابقة. في حين أن الترجمة هي إعادة تأليف طبقاً لمعايير اللغة المترجم إليها ومقاييسها الجمالية. الترجمة الشعرية من الكل إلى الكل، وليس من الجزء إلى الجزء، حرفاً بحرف، ولفظاً بلفظ، وعبارة بعبارة⁽²⁾. ترجمة الشعر الفلسفي من أجل المحافظة على دعواه للأمل والعمل والرقى بالإنسان.

قد يكون السبب في حذف بعض الأبيات سبباً يتعلق بالمضمون العقائدي أو الأخلاقي أو السياسي⁽³⁾. فالشعر ينتقل من بيئة إلى بيئة، من بيئة شيعية إلى بيئة سنية أو من منظومة قيم حرة إلى منظومة قيم محافظة أو من نظام سياسي حر إلى نظام سياسي تسلطي. وقد تصرف القدماء في ترجماتهم عن اليونان بنفس الطريقة،

(1) لذلك فإن الجهد العلمي الدقيق الذي بذله د. سمير عبد المجيد إبراهيم لإكمال ترجمة الأبيات الناقصة (150 بيتاً) «الأسرار والرموز» جهد علمي نصي من حيث الحرف وإن لم يصف جديداً من حيث المضمون خاصة وأن الترجمة للأبيات الناقصة ترجمة ثرية. ديوان الأسرار والرموز للشاعر الفيلسوف محمد إقبال. ترجمه نظماً الدكتور عبد الوهاب عزام، درسه وحققه وأكمل ترجمته نثراً الدكتور عبد الحميد إبراهيم، قسم الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، دار الأنصار، القاهرة ط2، 1401هـ/ 1981م ص 57 - 118. وكان المترجم الأول سفيراً لمصر في باكستان نموذجاً للسفير العالم. وقد ترجم المثنوي في بحر الرمل في الشعر العربي. وكان الشاعر على علم بطبيعة الشعرين الفارسي والعربي. وساعده أن معظم المصطلحات الفلسفية العربية هي نفسها بالعربية في الفارسية، الأسرار والرموز ص 2 - 4.

(2) الأسرار والرموز، المقدمة ص 108 - 118، وأيضاً من النقل إلى الإبداع المجلد (1)، النقل ج2 النص 1 - الترجمة وأيضاً شكري عباد، حوار الأجيال، ص 393 - 408.

(3) وضع إقبال للطبعة الأولى لديوان «الأسرار والرموز» مقدمة. ثم أهدى بعض الأشعار إلى السيد علي إمام ثم التمهيد. وفي الطبعة الثانية حذف المقدمة ووضع بدلاً منها ثلاثة أشعار لحافظ. وحذف بعض أشعار الإهداء، وضم الباقي إلى التمهيد. وحذف الأشعار التي ينقد فيها حافظ ووضع مكانها عنواناً جديداً هو «حقيقة الشعر وإصلاح الآداب»، الأسرار والرموز، المقدمة ص 47.

الحذف والإضافة، ولنفس الأسباب، الانتقال من الثقافة الوثنية إلى ثقافة التوحيد⁽¹⁾.

قد لا ينفعل الشاعر المترجم بقصيدة للشاعر المؤلف بالرغم من انفعال مترجم آخر للشعر إلى النثر أو حتى القارئ مثل قصيدة «في معني الحرية الإسلامية» وسر حادثة «كربلاء»⁽²⁾. وليس المقصود هو الحسين وكربلاء بل الفرق بين العقل العشق. وهو موضوع شائع في أشعار إقبال، خاصة في «ضرب الكلیم». يمثل الحسين العشق، ويمثل أعداؤه الهوس بمعنى عقل السلطة أو عقل الحكم أو عقل المصلحة أو عقل الدولة. يتطلب العشق الاتحاد بالله، وقوة الإيمان، والشجاعة، والجهر بالقول، والمقاومة، والمغامرة. في حين أن العقل مصلحة وسفك للدماء. العشق ينال الهدف تلقائياً بالفطرة، والعقل خوف وشك. العشق يعمر، والعقل يخرب. العشق ينجح، والعقل يفشل. العشق تلقائي، والعقل يحسب. العشق تضحية، والعقل أنانية. العشق نعمة وفضل، والعقل كسب ومران. العشق تحرر، والعقل عبودية. العشق راكب، والعقل مركوب. من العشق تتولد النماذج والمثل العليا، ومن العقل تتولد الأرض. العشق غيور للحق، والعقل مساوم مع الباطل. العشق توحيد، والعقل فرقة.

الحسين نموذج سورة الإخلاص وهي تعادل ثلث القرآن. هو موسى في مقابل فرعون، والخلافة في مواجهة الخروج، والشرعية ضد اللاشرعية، والعدل في مواجهة الظلم، والتضحية ضد الأنانية، واليقين ضد الشك، والعزيمة ضد التردد، والحر ضد العبد، ويقظة الضمير الحي في مواجهة قلق الضمير الميت.

والبعض شائع ومكرر. وهو نقص في البلاغة في الشعر والنثر خاصة الشعر لقدرته على التركيز مثل «الأركان التي لا توصف بالأساسية لأن معنى الأساس متضمن في الركن»⁽³⁾.

قد يُقال أن من حق الجيل الجديد أن يراجع الجيل القديم مع احترام كامل

(1) من النقل إلى الإبداع المجلد الأول النقل ج3 الشرح.

(2) وهي حوالي 39 بيتاً، الأسرار والرموز، المقدمة ص97 - 107.

(3) الأسرار والرموز، المقدمة ص94.

دون تطاول أو تعالم عليه، ولكن من حق الجيل القديم أن يكون أكثر شاعرية من الجيل الجديد، وأن يفرق بين ترجمة الشعر وترجمة النثر، بين الترجمة المعنوية والترجمة الحرفية، بين ترجمة الصورة الفنية وترجمة اللفظ أو العبارة، بين ترجمة المتذوق وترجمة القاموس. الشعر عند الشاعر صورة ومضمون وتجربة. والترجمة عند المترجم قد تكون عبارة ومعنى دون تجربة شعرية بل ودون تجربة حياتية تتعلق بأحوال المسلمين وحمل همومهم ومعاناة مآسيهم⁽¹⁾.

الأخطر أن يُظن أن المترجم الشاعر أهمل عن قصد أو عن غير قصد الترجمة الكاملة وبالتالي نشأ الحذف نتيجة لهذا الإهمال لأنه يذكر المحذوف تنبيهاً للقارئ⁽²⁾. وإن لم يشر فلمقتضيات الشعر وحموة تجاوز الحرف إلى الصورة الشعرية.

صعوبة الأمر في أن يعوض الجيل الجديد نقصه الشعري بالتعاليم العلمية والزيادة في المعلومات. وقد تكون بديهية وشائعة لدى كل الأجيال⁽³⁾. والبعض منها أخطاء مطبعية شائعة في المطابع العربية⁽⁴⁾.

قد يكون ترجمة التشيع في بيئة سنية مانعاً من نشر شعر إقبال خاصة وقد سادت السلفية عند ابن تيمية شبه الجزيرة العربية موطن الإسلام، مع أن التشيع دين شعبي حتى عند السنة. وحب آل البيت، وفضائل علي وعلمه، واستشهاد الحسين تراث إسلامي مشترك، لا فرق بين شيعة وسنة.

اختيار علي لمُدح فضائله خاصة بعد حديث الرسول «أنا مدينة العلم وعلي بابها»، ووصفه بأنه «المسلم الأول». وحذف الوصف والصفة قد يكون اعترافاً بفضل باقي الصحابة خاصة الشيخين، وتجنباً لنقاش قديم قد يحدثه الشعر الجديد حول الأفضلية بين الصحابة. فيوظف فتنة نائمة تتجاوزها محاولات التقريب بين المذاهب. وكثير منها صور فنية من الشاعر مثل البستان وزمزم والحن⁽⁵⁾. والبعض

(1) حوار الأجيال ص9.

(2) الأسرار والرموز، المقدمة ص68 - 70.

(3) السابق ص 74 - 87.

(4) السابق ص 86.

(5) وهذه الأوصاف هي: المسلم الأول، ملك الرجال، العشق أساس إيمانه، حب أهله، التفاؤل =

مغالي فيه مثل المغالاة في وصف الذاتية بانبثاق نظام العالم منها وقدرة شروق الشمس من الغرب!

4 - أعمال إقبال

تقع أعمال إقبال في شكلين أدبيين: الشعر والنثر. والشعر بلغتين، الأردية والفارسية⁽¹⁾. والنثر عدة أنواع: الرسائل العلمية، والمحاضرات، والأفكار، والرسائل المتبادلة⁽²⁾.

استطاع إقبال إخضاع الفلسفة للشعر، والفكر للنظم. كما استطاع إخضاع

= برؤية وجهه، قوة الدين، توقف نظام الكائنات عليه، أبو تراب، ثورة الحق في سيفه، هزيمة النفس الأمانة بالسوء، ملك العالم بالجهاد، عظيم خبير، باب العلم، قوة الرجولة الحقة، الأسرار والرموز، المقدمة ص 81 - 85.

(1) الأعمال الشعرية تسعة دواوين هي:

- 1 - صلصلة الجرس (بانكادرا).
- 2 - الأسرار والرموز (أسرار إثبات الذات ورموز نفي الذات)، (أسرار خودي ورموز بنجودي).
- 3 - رسالة الشرق (بيام مشرق).
- 4 - زبور العجم.
- 5 - جناح جبريل (بال جبريل).
- 6 - ضرب الكليم.
- 7 - رسالة الخلود (جاويد نامه).
- 8 - والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق...؟
- 9 - هدية الحجاز (أرمغان حجاز).

(2) الرسائل مثل: 1 - رسالته «تطور الميتافيزيقا في فارس» التي حصل بها على درجة الماجستير 1908.

والمحاضرات مثل «تجديد التفكير الديني في الإسلام» 1930. والأفكار مثل «أفكار هائمة» Stray Reflections، وآراء وأفكار. Thoughts and Reflections، والرسائل مثل «رسائل وكتابات إقبال» Letters and Writings of Iqbal. «رسائل إقبال إلى علي جناح» Letters of Iqbal to Jinnah. ولإقبال «علم الاقتصاد» بالأردية عام 1902. ويقسم البعض أعماله إلى فلسفية، وأدبية، وسياسية، ودينية. Thought, p. XI - XII! وقد كتب إقبال عدة كتب أخرى غير متوفرة وهي:

- Islam and Khilafat, Sociological Review of London, 1908.
- Islam as a Social and Political Ideal, address delivered in Alighrah, 1910.
- Inner Synthesis of Life, Indian Review of Madras, 1926.
- Note on 'Qurratul Ain'.

الشعر للفلسفة، والنظم للفكر كما فعل أبو العلاء المعري وابن الفارض وابن عربي.

عظمة عبد الوهاب عزام أنه استطاع ترجمة الشعر شعراً من الفارسية إلى العربية، فشاعرية المترجم على قد شاعرية الشاعر.

لا فرق بين أعمال إقبال وحياته وعصره. أعماله تجربة عمره. وحياته مرآة عصره. ومن ثم كان عرض الأعمال هو في نفس الوقت عرض للحياة والعصر دون ما حاجة إلى عرض مسبق للحياة والعصر قبل عرض الأعمال.

تم عرض الأعمال طبقاً لترتيبها الزمني قدر الإمكان كما تم في عرض «فشته»، فيلسوف المقاومة» من قبل. وفائدة ذلك التعرف على التطور الفكري للشاعر، وتتبع نشأة أعماله، وتكوين فكره. ولحسن الحظ يكون هذا العرض الزمني مطابقاً لعرض الموضوعات وبنيتها الداخلية كما حدث أيضاً في «فشته»، فيلسوف المقاومة». فلا فرق بين التوالي الزمني (الدياكرونيك) والمعية الزمانية (السنكرونيك) وكما هو الحال في الوحي، لا فرق بين تطوره وبنيته خاصة في العقائد.

لم يكن هناك تبويب مسبق يفرض نفسه على الموضوع بل نتج التبويب من طبيعة الموضوع وتطوره الزمني. وهي طريقة برجسون في رؤية الأشياء حدسياً، وطريقة هوسرل في العود إلى الأشياء ذاتها. فالمضمون يفرض نفسه على الشكل.

5 - التبويب

كان يمكن تبويب أعمال إقبال ومحاور فكره طبقاً للجبهات الثلاث في مشروع «التراث والتجديد»: الموقف من التراث القديم، الموقف من التراث الغربي، الموقف من الواقع أو نظرية التفسير. وبلغة إقبال، الأنا أو الذاتية، والآخر أو الذاتية المضادة، والواقع الذي يتم فيه التفاعل بين الذاتية والذاتية المضادة. وصعوبة ذلك هو تداخل الجبهات الثلاث، وصعوبة الفصل بينها، بالإضافة إلى تضخم الجبهة الأولى على حساب الجبهتين الثانية والثالثة نظراً لأن الذاتية هي المحور الرئيسي في فكر إقبال الساري في الجبهات الثلاث⁽¹⁾.

(1) تضم الجبهة الأولى أعمالاً مثل: الأسرار والرموز، رسالة المشرق، والآن ماذا نصنع يا أمم =

استقر التبويب الموضوعي على سبعة أبواب وفي كل باب فصلان. الأول «الذات وإثباتها»، وتشمل الذات الفرد، والذات المشتركة أي الأمة. والثاني جدل الذات. ويشمل التأويل، ونفي الذات (التصوف). والثالث الشكوى والأنين. ويضم الشكوى والجواب، والأنين والحنين. والرابع السقوط والنهوض. ويضم مظاهر السقوط، وعوامل النهوض. والخامس الذات المضادة. وتشمل التغريب، والغرب والشرق. والسادس التراث والتجديد. ويضم الاستشراق، والإصلاح. والسابع الدولة والأمة. ويحتوي على نظام الدولة، وحال الأمة. والتبويب على هذا النحو يشمل الفلسفة النظرية إثبات الذات دون نفيها، وتجلياتها في الأخلاق والاجتماع والسياسة والتاريخ.

تأتي عناوين الأبواب والفصول أحياناً من عناوين الدواوين مثل «الشكوى والجواب». وأحياناً تشير إلى بعض الدواوين مثل الذات إشارة إلى «أسرار خودي». وأحياناً ثالثة يعبر العنوان عن المضمون وليس الاسم مثل السقوط والنهوض وهو الموضوع الرئيسي في «ضرب الكلم»، والاستشراق وهو موضوع «تطور الميتافيزيقا في فارس»، والإصلاح وهو موضوع «تجديد التفكير الديني في الإسلام». وأحياناً رابعة يشير العنوان إلى عدة موضوعات متناثرة في ثنايا الدواوين والكتابات النثرية مثل «نظام الدولة» و«حال الأمة».

= الشرق؟، صلصلة الجرس، كتاب العبيد، هدية الحجاز، رسالة الخلود، جناح جبريل. ومن الأعمال النثرية: تطور الميتافيزيقا في فارس، تجديد التفكير الديني في الإسلام. وتضم الجبهة الثانية ضرب الكلم. وتضم الجبهة الثالثة شكوى وجواب شكوى وبعض الكتابات والرسائل مثل: أفكار هاتمة، أفكار وتأملات، خطابات وكتابات، رسائل إلى جناح.

الباب الأول

الذاتية



الفصل الأول

الذات

1 - مقدمة: «أسرار النفس»

عرض إقبال فلسفة الذات في «أسرار النفس». وقد نشر لأول مرة في 1915. واستشار إقبال بعض أصدقائه في أفضل عنوان. وأشاروا «أسرار الحياة». إلا أن إقبال فضل «أسرار الذات» لأن لفظ «الذات» يعبر عن مقصوده، بالرغم من أنه مجهول بين الناس على عكس «شكوى وجواب وشكوى» الذي يعبر عن أوجاع المسلمين وهمومهم⁽¹⁾.

عرف ديوان «أسرار النفس» بأنه ديوان واحد⁽²⁾. وهو في الحقيقة ديوانان أو قسمان: الأول «أسرار النفس» لإثبات الذات، والثاني «رموز النفس» لنفي الذات. والتقابل دال. إثبات الذات في مقابل نفي الذات وهو ما يعادل التقابل بين «من الفناء إلى البقاء». وهو ما يعادل أيضاً المصطلحين في اللغات الأجنبية⁽³⁾. أما من حيث مضمون النص فإن «فناء الذات» ليس نقيض «إثبات الذات» بل التحول من الفرد إلى الجماعة، من الذاتية الفردية إلى الذاتية الجماعية أي الأمة أو بتعبير

(1) الأسرار والرموز، مقدمة المترجم (د. سمير عبد الحميد إبراهيم) ص 1 - 1.

(2) ترجم نيكلسون القسم الأول فقط

Dr. Sir Muhammad Iqbal: The Secrets of the Self; translated from the original Persian with introduction and notes by Reynold A. Nicholson, Litt. D. LL. D. SH. Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazar, Lahore, 1 Ed. Macmillan, 1920, 7th E. 1969.

(3) إثبات الذات Self-Affirmation. نفي الذات Self-Negation. البقاء أيضاً Self-Affirmation! أما الفناء فهو Self-Annihilation.

هوسرل الذاتية المشتركة أو العلاقات بين الذوات⁽¹⁾. وقد نقل الشاعر المعنى الشائع «خودي» من المعنى السلبي وهو الأثرة أو الإعجاب بالنفس إلى الذات بالمعنى الإيجابي، وهو تعرف الإنسان على نفسه وتقويتها، وإخراج ما أودع فيها من إمكانيات⁽²⁾.

أضاف إقبال في الطبعة الأولى للديوان مقدمة عن نفي الذات أو إهمالها وأسباب انتشارها عند المسلمين، وسبب تخلي المسلمين عن أهدافهم. كما بين فيها معنى لفظ الذات. ثم حذفها في الطبعة الثانية لأن النثر لا يعبر عن إحساس الشاعر. ويخلو من الصورة الفنية، جوهر الشعر. يتحكم فيها العقل بأحكامه المحتملة للصواب والخطأ على عكس صدق الشعر.

ولفظ «خودي» غير لفظ «شعور». «خودي» هي الوحدة الوجدانية، نقطة استنارة في الشعور الإنساني. أما الوجدان فيوجد حتى عند الطفل قبل أن يبلغ درجة النضج. وإثبات الذات «خودي» نقطة التنوير. وفي ترابها يكمن سر الحياة. هي أقرب إلى الفطرة الإنسانية، أحوالها وحالاتها مثل الكتاب مجمع صفحاته. لا تعني المعنى العادي في الأردية وهو الأثرة بل تعني الإحساس بالنفس أو تعين الذات. الذات استعداد عقلي، أقرب إلى الطبيعة والجبلة. وجهتها الحق، صامدة كالجبل. وهو أهم ديوان فلسفي عرض فيه إقبال فلسفته في الذات في فصول مرتبة وكأنه عمل فلسفي وليس منظومة شعرية⁽³⁾.

في خلاصة المقدمة التي كتبها إقبال لـ «أسرار خودي» يتساءل: ما هذا الشيء الذي نسميه «أنا» أو «خودي» أو «مين» (الأردية) الذي يتجلي في أعماله ويختفي في حقيقته؟ يخلق كل المشاهدات ولكنه لا يُرى. هي حقيقة في الحياة وليست خداعاً أو وهماً. تتجلى بمقاصدها، وتبدو بأهدافها. وهي أساس وجود الفرد والجماعة بالرغم من ميل أمم الشرق إلى اعتبارها مجرد خداع خيال، تريد التخلص منها. في حين تميل أمم الغرب إلى إثباتها. لذلك تكاسل الشرق ونشط

(1) الذاتية المشتركة والعلاقات بين الذوات Intersubjectivité.

(2) الأسرار والرموز ص 10 - 11.

(3) السابق، المقدمة ص 10 - 13/19.

الغرب لأن الذات هي مصدر العمل. ينشط الأفراد والجماعات بإثباتها، وتحمّل بنفيتها.

لقد تسرب نفي الأنا إلى المسلمين من الفلسفة الهندوسية التي ترى أن الأنا هو أساس البلاء وأصل المصائب والآلام لأنها تعمل، وأن الذاتية نتيجة للعمل. والعمل والضرورة تعبير عن الأهواء والانفعالات والرغبة التي يجب إقامتها. هذا هو الطريق. وبالتالي تموت الذات. والإسلام على العكس من ذلك دعوة للعمل. ويُنال الخلود بالعمل إلى الخلود. فلا خلود إلا بالعمل. والعمل هو طريق الخلود. ولا فرق بين «الجيتا» الهندية ووحدة الوجود عند ابن عربي بعد أوحده الدين الكرمانى وفخر الدين العراقي. إنما الفرق في المنهج. فقد اتبع فلاسفة الهند طريق العقل. واتبع الشعراء طريقة القلب أو الذوق وهو الأخطر لأنهم أكثر تأثيراً في العامة، في حين لا يخاطب العقل إلا الخاصة. فتكاسل الناس، وتخلّوا عن العمل. وقد جمع إقبال بين البرهان الفلسفي والخيال الشعري لإثبات الذات والشعر وسيلة للاتصال بالناس والتأثير فيهم⁽¹⁾.

واضح أن جلال الدين الرومي هو الشاعر النموذج. فهو الأكثر ذكراً في «أسرار الذات». وبعده يأتي من الأنبياء موسى والمصطفى. ثم يظهر باقي الصوفية المسلمين مثل جامي والطارق والتبريزي. ومن الفقهاء يظهر الشافعي في مقالته الشهيرة «الوقت سيف»⁽²⁾. ويتداخل أبطال فارس مع أبطال الإسلام، رستم وحيدر (علي بن أبي طالب). كما يظهر أبطال فارس وحدهم مثل شيرين وفرهاد. وتظهر الثقافة الفارسية قبل الإسلام بأساطيرها وأبطالها. فما زالت حية في الوجدان. وتداخلت مع الثقافة الجديدة، الثقافة الإسلامية⁽³⁾. ومع فارس تتداخل الهند. فإقبال هندي يكتب بالفارسية. وتذكر مدن الهند مثل لاهور، ومدن فارس مثل

(1) السابق، مقدمة إقبال ص 13 - 15.

(2) جلال الدين الرومي (8)، موسى، المصطفى (3)، نظيري النيسابوري، جامي، الطار، التبريزي، الشافعي، حيدر (1)، شيرين، فرهاد، رستم (1). أفلاطون (2)، المشاء، الروم (1). هذي، فارس (2)، فهلوي، لاهور، الهند، تبريز (1).

(3) طينستي من جام جسم أنور من غيوب الكون عندي خبير جام أي كأس جمشيد. وفي أساطير الفرس كان عند الملك جمشيد كأس يرى فيه الأقاليم السبعة. استعمله إقبال كصورة على رؤية الغيب. الأسرار والرموز، ص 5.

تبريز. ومن اليونان يظهر أفلاطون. والمشاء وهو أرسطو هو الروم.

2 - الذاتية الحقيقة الوجودية الأولى

هي حقيقة بديهية، شعور الإنسان بذاته، وأنه غير العالم وغير الآخرين. هو قانون الهوية الذي طالما تحدث عنه الفلاسفة، الأنا تساوي الأنا، قبل أن تكون الأنا لا تساوي غيرها. وفي صيغة رياضية $A = A$ قبل أن تكون $A \neq B$. قانون الهوية يسبق قانون الاختلاف. وهو نفس القانون عند فشته⁽¹⁾.

ومع ذلك تحتاج إلى إثبات، ليس للنفس بل للآخر، لمن لا يجدها. لذلك يصدر إقبال «أسرار الذات» بمقطع من جلال الدين الرومي يذكر بديوجين الفيلسوف اليوناني الذي كان يمسك بمصباح في وضوح النهار يبحث عن الإنسان. فالشيخ بالمصباح يسعى في كل ناصية بعد أن ضاق بالأحياء يفتش عن الإنسان، باحثاً عنه حتى ولو كان محالاً⁽²⁾.

الذات تثبت ذاتها ليس ببرهان عقلي ولكن بدمع العين في السَّحَر⁽³⁾. ومن خلال الخوف من البحر دون أمان، وفي أمان الصوفي تكمن الذات، محافظة على نفسها⁽⁴⁾. وعار على البحر ألا تخرج منه ذرة ذات شان. ومعرفة النفس تجعل العتيق كالصوان⁽⁵⁾. ليست الذات قشة أو شوكة في مرعى. بل هي قلب العالم وجوهره. فلا ينظر إليها باحتقار⁽⁶⁾. تقوم الذات من ذاتها. لا تثبت بفلسفة غريبة ولا

(1) فشته فيلسوف المقاومة، الباب الثاني: نظرية العلم، الفصل الثاني، ص 183 - 187.

(2) رأيت الشيخ بالمصباح يسعى
يقول مللت أنعاماً وبههما
فقلنا ذا محال قد بحثنا
الأسرار والرموز ص3.

(3) قَيوم ذاته سحرا
بدمع العين أواه
ضرب الكلم ص121.

(4) Persian Psalms, p. 47.

(5) إن عارا معيشة البحر إن لم
يا جهولا بقدر نفسك لولا
رسالة الشرق ص311.

(6) Persian Psalms, p. 53.

بفلسفة شرقية، ولا بيت عبادة وتشيد أصنام. تستطيع الذات أن تعبر الصحراء بلا خوف بالتركيز على ذاتها. والعالم كله منها وفيها⁽¹⁾. فإذا كانت الذات مع آخرين فإنها لا تذوب فيهم. هي معهم وليست منهم. أليفة معهم وغريبة عنهم⁽²⁾.

معرفة الذات بديهية. والتبعية للغير في حاجة إلى تساؤل واستغراب. البدهة الذاتية واضحة بالرغم من ماضيها من قلق وحيرة. من البدهة أن الذات من طين. تعرف قدر ذاتها. ليس لديها إلا الذاتية وملكيته لها وليس لغيرها. وامتلاك الذات يمنع من انتهاك عرضها. فلماذا لا تعبر الذات عن نفسها؟ إن كان خطأ في تصميمها فيمكن تصحيحه. قيمة الإنسان خروجه من الفخار⁽³⁾. والغوص في الذات قدر المستطاع. فحياة الإنسان في بحره. والانتساب هو الانتساب إلى الذات⁽⁴⁾. وهي معرفة يغبطها جبريل لأنه لم يأت بها من اللوح المحفوظ بل هي نابعة من القلب⁽⁵⁾.

الفرق بين الإيمان والكفر إثبات الذات⁽⁶⁾. ومن أثبت الذات فإنه يستحق

Ibid., p. 108 - 9.

(1)

Ibid., p. 112.

(2)

رغم أنني حافل بالحير
كل ما أعرفه عن قدري
أنا أم أنت الذي يملكه؟
عن زماني لم أكن أهتكه
كيف لا تملأ أرجاء السماء
أنا أم أنت الذي صاغ الغناء؟!
ما الذي يدعو إلى تكراره؟
ومتى يخرج من فخاره؟

واضح قولني وفكري نير
طينتي هذي التي أملكها
ليس عندي غير شيء واحد
أنت لو مكنتني من صونه
كيف لا تُعرب عني صرختي
أنا غنيت كما علمتني
خطأ إن كان في تصحيحنا
ذلك الإنسان ما قيمته

(3)

جناح جبريل ص 419.

اغرق بذاتك ما استطعت فشط بحرك في حياتك
إن كان يزعجك انتسابي فانتسب لجمال ذاتك

(4)

السابق ص 429.

معرفة يغبطها جبريل

ذاتك، فالذات التي تدعّمها

(5)

السابق ص 454.

مسلمون ولذات منكرونا

مؤمنون يشبهون الكافرينا

(6)

السابق، ص 457.

الفداء والهوى⁽¹⁾. رؤية الذات بهجة الإنسان. وثبتت بالإرادة والعصيان. ونقدها وبال⁽²⁾.

لا يستطيع علم النفس أن يسبر غور الذات. فنظرياته قاصرة عن إدراك أعاصير البحار المملوء بالجزر التي لم يصل إليها حتى الآن بحار. ولا يتناولها إلا إعصار موسى القادر على الدخول في لجتها وإلا فالصمت والعجز أمام أي إعصار⁽³⁾.

أ - يقظة الذات

يقظة الذات ليست في الدير ولا المحراب. وسبب نوم شعوب الشرق هو هذا السم. وهو غياب الذات أو سجنها في دور العبادة. إنما الذات هو كفاح في العالم. ومسراها فوق السحاب. لا تهاب الموت لأن الذات خالدة بعد أن يتحول البدن إلى تراب. قد يخفي الدهر أسراره لكن القلب قادر على اختراق الحجب، وكشف الأشياء. تستطيع الذات أن تحيل هشيم آسيا إلى نار، وأن تتحرر من الخشخاش والأفيون وكل أنواع المخدرات من أجل طلب المعالي. وبدلاً من كسر الجناح والذل يمكن للذات أن تطير إلى رحاب الفضاء⁽⁴⁾.

في «وصية السلطان تيبو» الذي جعله إقبال تجلياً للذات يعبر من جديد عن

- | | | |
|-----|---|--|
| (1) | من رأي ذاتا له إنني فديته
السابق، ص308. | وازن العصر بحذق من هويته |
| (2) | لذة العصيان كانت متعته
هذه الذات بعصيان تنال
السابق، ص309. | رؤية الذات رآها بهجته
وانعدام الذات معناه الوبال |
| (3) | دع عنك فكريك فالإعصار جرار
وأين أنت بهذا البحر من جزر
إن لم تشقْ كموسى ثوب لجتها
السابق ص549. | وليس تجدي ببحر الذات أفكار
صغيرة ما أتاه قط بحار
فحظك الصمت إن وافاك إعصار |
| (4) | يقظة «الموت» لا أراها بدير
إن روح الشعوب في الشرق غاف
إن تضيق بالجهد في الأرض ذرعا
ليس من خيفة الممات نجاة
ليس يخفي صروفه الدهر لكن | لا ولا تُجتلي لدى المحراب
من سموم الترياق، رهن غياب
فحرام مسراك فوق السحاب
إن تر «الذات» هيكلًا من تراب
لك قلب وناظر في حجاب |

فلسفته في الذات ككفاح وتضحية حتى ولو ضحى قيس بالمحمل في صحبة ليلي⁽¹⁾. فطارق البيداء يستمر في السير دون أن يعرّج على نزل. وجدول الماء يتقدم حتى يصبح نهرا. ولا داعي للحيرة في السير دون اختيار طريق. ونور الحقل لا يحرق بل يضيء. والحق حق، والباطل باطل، ولا خلط بينهما⁽²⁾.

الذات أعلى شيء في الوجود. ويضرب إقبال المثل على ذلك بغني كشميري له من ممتلكات الدنيا الأراضي والقصور. يتركها بلا حراس. فلما استدركه الأصدقاء قال: وأنا في البيت، البيت غني بمن فيه وهو الذات. وعندما أغادره يصبح البيت فقيراً. ومن ثم لا يحتاج إلى حراسة⁽³⁾.

الذات يقظة الوعي. والوعي كالحسام البراق. تشرق كالذرات. تدرك الآفاق. تجوب أعماق البحار. ولا تقعد على البر⁽⁴⁾. الذات تضيء الوجود. وبها كفاح الحياة وسرورها. مقامها فوق الثريا. بها تتجلى الصفات. لا تعتمد في وجودها إلا

أن ناري حديدة في التهاب
موتي، إلى طلاب المعالي
قد رنا اليوم للفضاء العالي

قد مُنحْتُ الهشيم في أسيا إذ
هاج أنغامه عكوفاً على الخشخاش
فمهيض الجناح ألف دار

ضرب الكليم ص 5 - 6.

(1) السلطان تيبو قاد كفاح المسلمين ضد الإنجليز في جنوب الهند، وألب عليهم دولا إسلامية أخرى، محاولاً التنسيق مع نابليون. فحشد الإنجليز ما حشدوا. ولما يس من النصر ألقى بنفسه من القلعة ومات عام 1213هـ.

لا تعرّج منزلاً، لا تقبلن
فامض شوقاً، محملاً لا تقبلن
واغد نهراً، ساحلاً لا تقبلن
في البرايا، ضلالاً لا تقبلن
حرق، كن مشعلاً، لا تقبلن
قال ربي أزلأ، لا تقبلن
شوب حق باطلا لا تقبلن

طاوي البيداء شوقاً أقبِلن
لا، وإن سار بليلي محمل
جدول الماء، تقدم مسرعاً
لا تحز في صنم الكون وسر
يا مذب الحفل، لا تقبل له
كل قلب ذل للعقل فقد
وحد الحق وثني باطل

ضرب الكليم ص 51.

A Message from the East, pp. 95 - 6.

كالحسام المصمّم البراق
ما انطوى في الذرات من إشراق
رجل الله صاحب الآفاق
وهو في البحر محرم الأعماق

خذنْ حق تنبّهت فيه ذات
نظرات لديه تشرق فيها
إيه عبد الآفاق! كيف تداني
أنت في البر قاعد عن طلاب

ضرب الكليم ص 52.

على ذاتها، وليس على غيرها. فإذا ماتت تحولت إلى وثن مثل اللات والعزى، صنم لا حياة فيه. لا تقلد أحداً ولا تحاكيه يكفي هم الإنسان الموت بعد الحياة، وليس الموت مرتين⁽¹⁾.

نار الذات ونورها للإسلام، روح مستنير. الاقتباس منها في حياة الناس نور وسفور. هي أساس الوجود وأصله للتجلي من وراء الأستار⁽²⁾.

لا تضرب في غيرها. ولا تعيش على ذات أخرى حتى ولو كانت الحياة في القبر تحت الأرض. ومن يعيش على غيره لديه نفس، ولكن ليس لديه روح⁽³⁾. تقلب الذات النظرة من الخارج إلى الداخل كما هو الحال في الظاهريات عند هوسرل. وبالرغم من هذا الظاهر العاري، في الداخل قمر يشرق⁽⁴⁾. وفي قصيدة «سفر الساقى»، من الذات ينطلق الدافع الحيوي، مفهوم برجسون الأثير. والفقير الكشميري غير مدرك لقدراته الذاتية، ولا يثق بنفسه، خجلاً منها⁽⁵⁾.

ب - إمكانية الذات

الذات تفتح كالوردة، حجاباً وراء حجاب⁽⁶⁾. هي إمكانية للتحقق، وطاقة

(1) تضيء حريم وجودك ذاتك
لها فوق أوج الثريا مقام
أمن «ذات» غيرك تعمم قلباً
فلا تبعثن وُثُنها بعد موت
كمال المحاكاة أنك تفتنى
السابق، ص76.

(2) إن نار «الذات»، والنور لديها
إن نار «الذات» فاقبس من لظاها
هي تقويم وجود وهي أصل
السابق، ص19.

(3) أهاب بمسمعي تراب قبر
له نفس وليس لديه روح
رسالة الشرق ص273.

A Message from the East, p. 40. (4)

Ibid., pp. 75 - 9. (5)

(6) أعن ذات تحجب بالحجاب
أرمغان حجاز ص483.

للتحرك، وليست شيئاً يُعطى أو يؤخذ. الغوص في الذات مثل الغوص في البحار، فقد ووجد دون شاطئ أمان. وسياحتها في الفضاء بصرف النظر عن جنسها. جاءت من الأرض وتخلقت منها وتعيش في الكون إلى ما لا نهاية. تتعثر في متاهة نفسها وكأنها دخيلة عليها. تخاصم ذاتها، وتسهر لياالي طوال⁽¹⁾. تتجلي الذات في ظلال النبوة عندما تأخذ الكتاب بقوة وتصل إلى مقام ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: 19] دون العرش والكرسي. كل ذلك تشعر به الذات في قرارة النفس⁽²⁾.

الذات الحية بحر لا شاطئ له يصب فيه النيل والفرات. والذات الميتة عود قش أمام النسيم. الذات الحية سلطان الموجودات. ومقام المؤمن حرم الذات وليس القبر المظلم أو مكان تجلي الصفات. معرفة الذات تحطم طلسم الشمس والفلك والنجوم. فكيف يضيع جوهر الإدراك؟ لماذا لا تصل الذات إلى أكباد النجوم؟ إنها خليفة الظاهر والباطن وليست عشياً جافاً أو شعلة منطفئة. تخضع لها الشمس والقمر، وترتجف لها الأفلاك. الدم يجري في العروق ولكنه خال من حمية الأفكار والجرأة. العين لا ترى العالم إذا خلت من النظر الطاهر. وإذا غاب صفاء الضمير يصبح من قبيل السلطنة والملا والمشیخة⁽³⁾. لماذا لا يجتاح الطوفان عبر الذات وتكون الذات مسلمة؟ أحياناً ترتفع الذات من البحر كالموج، وأحياناً تنزل إلى صدر البحر، وأحياناً تمر على الساحل فما هو مقام الذات؟⁽⁴⁾.

الذات بحر ليس له ساحل كي يغوص الجبان فيه. وليست جدول أنس

(1) أضع النفس في البحار وغامر وأقم بين ضجة وتلَو هل لمثلي من الفضاء نصيب جئت للأرض؟ أم تخلقت منها كم تعثر في متاهات ذاتي بين نفسي من الخصام وبينني جناح جبريل ص 465.

(2) إنها الذات عندما تتجلى إنها نفسها حجاب إله تصل الذات قاب قوسين لكن السابق ص 466.

(3) أرماغان حجاز ص 526 - 527.

(4) السابق ص 533 - 534.

ومكاناً يجتمع فيه أهل الذل والهوان. قد يستطيع الإنسان كسر السماء بفأس. فالسما من زجاج. إلا أن البحار تمور بالهيجان. لذلك لا يطيق الجبان هياج ذات، في حين أن الشجاع يغوص فيها ويطفو. ولا تقوم الشجاعة على العلم بل على اللطف أي على قوة الإرادة، وتحقق الإمكانية. وهو ما لا يستطيعه المنجم الناظر دائماً إلى النجوم. العلوم العلوية بهذا المعني زيف. في حين أن الإنسان طين. جوهرها سر. وهي فردوس على الأرض التي يأتي إليها جبريل. والإنسان عينه الثاقبة، حجرها به ماء ونور⁽¹⁾. وإن قعد الطير عن الطيران فإنه يموت. وإن انكسر جناحه لا يطير⁽²⁾.

الذات كأمواج البحر، يعلوها الإنسان إذا علت أو هي جوهر تحت صخرة. فالذات لا تعطي جاهرة بل تُكتشف⁽³⁾. وشرف الإنسان بالذات وبلوغها الكمال وإلا تحول إلى عبد. وهي ليست متاعاً يباع ويشترى. هي جوهر في البحر راقد إذا غربت يهلك الإنسان⁽⁴⁾. والخطورة على تركيا أنها فتحت ما أوصلته، وعلى مصر

(1) إنها الذات إن تمعنت بحر ومحال تكون جدول أنس ربما تكسر السماء بفأس والذي يجعل البحار بحارا لا يطيق الجبان لجة ذات وقوام الشجاع ليس علوما كيف يستوعب المنجم هذا أنت من طينة يحكّ عليها إن فردوسنا على الأرض حبذا أن تكون ثاقب عين جناح جبريل ص 441.

(2) إياك يا فُبرتي من التلف يعرقل الجناح أن يطير السابق ص 449.

(3) علت كموجة من بحر ذاتي أرمغان حجاز، ص 459.

(4) بتلك الذات شارفت الكمالا إذا ما قلت ذاتي لي متاع وأنت الذات يوماً إن تشاهد وتلك الذات إن عَزيت عنها لترك فَنَحوا ما أوصلوه

ماله ساحل لخوض جبان ومحلا لجمع أهل الهوان فبناء السماء سبك زجاج تتقي أنها محل الهياج ويغوص الشجاع فيها ويطفو تَرَب العلم فالشجاعة لطف بطريق مكبل بالنجوم سرك الحي زيف كل العلوم هذي فيه جبريل لا يغيب وهور حجر العين فيه ماء ونور

فالموت خير لك من هذا العلف وربما يتركه كسييرا

كمنتُ كجواهر تحت الصفاة

وإلا كنت للعبد المثالا فنسيان لها ليس الحلالا تفر كجواهر في البحر راقد فأنت لأجل هلكك من تجاهد وفي مصر أساس وطدوه =

أنها أسست بنياناً مع احتمال نسيان الذات. فالتمسك بالذات هو طريق النجاة. وإذا تولى الربيع طار العطر. وإذا نبت الزهر سرعان ما يذبل. تقوم الذات بفعل لا إله كي تُبعث من التراب. طريق الذات ينضج بالماء في بحر لا يرى إلا العباب⁽¹⁾. ولا تباع الذات بالفضة أو الذهب ولا يباع بريقهما اللهب⁽²⁾.

تشتعل الذاتية بنور الكبرياء. ومن نقصها يبدو الكمال. مقامات وصالها فراق. وفراقها وصال. وتبدو الذاتية سيفاً حساماً له حد ولون وريح وسط الجدل. هي جوهر في جوف بحر. وهي طين وروح، جسم وقلب، نوم ويقظة⁽³⁾. الذات نور ونار، تضيء وتحرق⁽⁴⁾. وبالرغم من عظمة الذات إلا أنها في غاية التواضع ﴿وَلَا تَمَسُّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَكِن تَبْلُغُ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: 37] ففي قصيدة «الغرور»، ادعى الجليلد أنه أفضل من نهر الجبل. فهو أعلى مكاناً، وأثبت وجوداً، وأنصع بياضاً. وهو أصل نهر الجبل، ومصدر وجوده. ورد نهر الجبل بأنه حياة وحركة وتغير. فإذا تجمد ونقصت حرارته تحول إلى جليد. وفي النهاية يذوب الجليد ويصب في النهر⁽⁵⁾.

بغير الذات ذا لم يعهدوه
فعطروهم التوهم ليس إلا
تشاهد للذبول عليه ظلا

تمسك إن ظفرت بذيل ذات
إذا قوم ربيعهم تولى
وتنبت أرضهم زهرا ولكن

السابق، ص 460.

لتخرج من تراب مات نظره
لبحر لا يري فيه العباب

(1) لذاتك لا إله فضم مرة
طريق الذات فانضحها بماء

السابق، ص 461.

ولا تبع بشرار ذلك اللهب

(2) لا ترصين فضة بالذات أو ذهباً

جناح جبريل، ص 543.

ومن نقص لها كل الكمال
كما أن الفراق لها وصال
ليزهر عندهم أمل نجيح
ويعرف حده لون وريح
سواه بمثله من لن يجودا
يفطره لطيب النوم حب
بجسم حين يحكمها سيخبو

(3) بنور الكبرياء لها اشتعال
مقامات الوصال لها فراق
ومن جدل لقوم أن يريحوا
بذات ذاتية سيفاً حساماً
أراها جوهرها من جوف بحر
وطين حينما يرضاه قلب
ومن نوم بخلق «أنا» سيصحو
أرمغان حجاز، ص 489.

ليصبح ليله الداجي نهرا

(4) وتمنح ذاته نوراً ونارا

السابق، ص 469.

ج - وحدانية الذات

الذات عالم بمفرده، عالم الشعور والوجدان. خشوعها عذاب، ووثبها طموح. فكرها بستان، ونفسها مرآة. معاركها في القلب. ودروشتها من معاناتها. تمتاز بالآهات. وتسير من جيل إلى جيل⁽¹⁾.

الطواف حول الذات طواف حر، وليس حول السرير والإيوان طوافاً مجبراً. ولا تتباعد الذات عن مقامها حتى لا تقع في ذل الأسر العاني والانجذاب نحو مركز آخر. لا تسير الذات واهنة الخطى كذليل الطير بين الجدران. تطير كالشاهين في القمم، وليس في مسارب الوديان. تنافس الطيور في الطير دون عش. تغير العالم القديم وتجده. تنشُد الجهاد في رضا الرحمن. وهي القادرة على تحقيق الحق، وتحويل الإمكان إلى واقع⁽²⁾. تظهر الجوهر الكريم من الأصداف حتى يبدو للعيان. وتتححر من هيكل الماء والطين ومن ظلمة الهوى والهوان. ترشدها الفطرة.

ووثبي في طموحاتي
التي أمحو بها ذاتي
ونفسي وهي مرآتي
وجيش ظنونها العاتي
تضج به عراقاتي
نصيبي من معاناتي
وتمزجها بأهاتي
بموكب جيلنا الآتي

(1) خشوعي في عذاباتي
ونوع طرقتي هذي
وفكري وهو بستان
وحصن يقينها المضني
وقلبي وهو ميدان
ودروشتي التي تبدو
سألتك أن تعتقها
وتسقيها لقافلي
جناح جبريل، ص 514.

لا تطف بالسرير والإيوان
صرت في ذلة الأسير العاني
الطير بين الطلول والجدران
م السماء لا في مسارب الوديان
ش أعلى الفروع في البستان
دائرة النجم أو ذرى كيوان
للا ف فوق الزمان فوق المكان
فيه دنيا جديدة البنيان
في رضا الحق وهو ماضي الجنان
الحق في الممكنات والإمكان

(2) طف إذا شئت حول ذات: حرا
قد تباعدت عن مقامك حتى
لا تسر واهن الخطى كبغاث
كن نظير الشاهين في القمم
تتحري الطيور عند بناء العد
لست دون النسور بأما فحاول
من مهاد الثرى إلى التسعة الأف
غير العالم القديم وعمر
والذي ينشد الجهاد فناء
هو سر الأقدار، هو قضاء
يا أمم الشرق، ص 350.

قصد من الثرى إلى الأفلاك. وتتجاوز المكان والزمان⁽¹⁾.

3 - الوعي الذاتي

الذات المستقلة ووعي ذاتي. ترى نفسها في مرآة ذاتها. وتهرب الصورة في الغير⁽²⁾. والقرآن هو هذه المرآة التي ترى الذات فيها نفسها كوعي ذاتي مستقل. والذات فردة لا نموذج لها ولا مقياس. وهي أعظم ما يلوح للناظرين. هي المعروف عنها أنها عمق ذاتها، تعرف في العمق لا في السطح⁽³⁾. الذات مع الجمع ومنفردة، أليف وغريب. يبقي في القصر مع الرعية. ويعيش في الصحراء كالنبي بلا قوم⁽⁴⁾.

أ - استقلال الوعي الذاتي

تعتمد الذات على ذاتها. لا تحتاج إلى عصي يتكأ عليها الخطيب ليدعو الناس إلى الحق أو خشب لصليب يُحمل عليه الشهيد⁽⁵⁾. تقوى الذات، وقوتها مقصد الحياة. والقوة حسية ومعنوية، مادية وأخلاقية⁽⁶⁾. والإنسان تحت الشمس كشرار لا يدري ما مقامات الوجود لأنه لا يدري فن بناء الذات أو تصورها أو

(1) أظهر الجوهر الكريم من الأصـ داف واجعله باديا للعيان
وتحرر من هيكل الماء والطين ومن ظلمة الهوى والهوران
واجعل الفطرة النقية نبراسا لعينيك بين قاص ودان
السابق، ص350.

(2) لك القرآن كالمرآة فانصب ونفسك دع إذا غُيِّرَت واهرب
أرمغان حجاز، ص464.

(3) هنا يا أنت كل الناس يعرف بعضهم بعضا
هنا إلا أنا فيهم غريب ينكر الأرض
وكننت بقصر أورثية من الممكن أن أبقى
شريطة تحمّل الصحراء حين أجن ما تلقى
زبور العجم، ص390 - 392.

(4) ولك الوجود جميعه أم لي أنا والكون سحرك أم تموج ذاتي.

(5) ليس في أعواد غابي سقط هي للمنبر أو أعواد صلب
الأسرار والرموز، ص5.

(6) ضرب الكلیم، ص ط.

غناءها أو نشيدها. إنما خفاء الذات في المكتب أي المهنة والحانة أي اللهو، وحياة الذات دوام وخلود⁽¹⁾.

وفي «نصيحة صقر لفرخه»، يعبر إقبال عن استقلال الذات وقوتها واعتمادها على النفس. فالذات كالصقر. جسم صغير، ولكن قلب ليث. المهم أن يكون الإنسان محكم الرأي شهماً صبوراً، أياً غيوراً على القيم والسجايا. تصاحب الذات مثلها في قوتها لا الضعاف. تطعم من عل لقطاً، وليس زحفاً على الأرض. المخلب أولى من الزحف. والطير في السماء أشرف من الزحف على الأرض. والحياة نشوة وجذل، جرأة وقوة. الحياة جهاد وصبر، محنة واجتهاد. وتجنب القطيع والغنم من أجل التفرد والجهد الفردي وعدم الركون إلى ظل الآخرين. والجبال أولى من الرياض. تتجلى قواه ساعة الخطر. والجناحان بروق وشهب. الاعتماد على الذات وليس على الغير هو طريق النمو⁽²⁾.

لست تدري ما مقامات الوجود
ويل تصوير وشدو وقصيد
درس إفناء به الذات تبيد
لحياة ودوام وخلود

لها قلب ليث وجسم صغير
علي السجايا أياً غيوراً
ودعها إذا لم ترد أن تصيدا
تدس مناقيرها في الرغام
إذا قلد الصيد ما اعتاده
بصحبة لقاط حب هوى
جريئاً متيناً قوي العضل
وكن مخلباً كالمدى أو أحد
وصبر على محنة واجتهاد
«بريق الدماء يفوق العقيق»
توجد كقومك منذ القدم
بالأ نقيم بظل وساق
فسيح الفيافي لنا والجبال
حباناً الإله عنان السماء
فأشرف منه حمام قريب
يحد مخالهن الصخر
كأنك عنقاء جو متين

(1) أنت تحت الشمس تمضي كشرار
ليس في فنك للذات بناء
ليس في المكتب والحانة إلا
ليت شعري هل تعلمت وجوداً
السابق ص 81.

(2) تعلم بُني بأن الصقور
فكن محكم الرأي شهماً جسوراً
بُغاث الطيور اهجرنها بعيداً
فتلك الرعاديد نسل اللثام
أرى الباز صيدا لما اصطاده
فكم باسق قد أتاه النوى
فنفسك فاحفظ وعش في جذل
ودع للدراريح لين الجسد
متاع الحياة، تعلم، جهاد
نقول لفرخ عقاب عتيق:
ولا تبغ سرباً كسرب الغنم
سمعت وصاة الصقور العناق
فليس لنا في رياض مجال
ولقطك حبا بأرض خطاء
فأما خطى في التراب النحيب
فإن بساط البزاة الحجر
نماك الأوابد زرق العيون

لم يكن طيران الأنبياء اعتماداً على الغير ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾. وطيران المسلمين اليوم لا يعتمد على طيران الآباء والأجداد. فهو اغتراب في الزمان، وإرجاع الحاضر إلى الماضي. لا يوجد المسلم اليوم قاعداً أو طائراً لأنه لا سلطان له، وبالتالي لا وجود له⁽¹⁾. الذات للقيادة وليس لركوب الهودج. ترشد الراكب إلى الطريق⁽²⁾. والمسلم نسيج حياته، وثوب تقواه. هو واحد متوحد مثل الله. هو الموج الذي يحط على الشاطئ كما يشاء ثم يعود إلى ذاته، إلى عمق البحر دون الاستقرار عليه⁽³⁾.

السفر من الذات إلى الذات، من الذات - الإنسان إلى الذات - الإله، من «خودي» إلى «خودا». الإنسان الكامل ليس حقيقة معطاة سلفاً بل هو قصد الإنسان المتعين وغايته⁽⁴⁾. فالإنسان يحصل على الكمال بتجاوز ذاته الدنيا إلى ذاته العليا، والتحول من الشك إلى اليقين⁽⁵⁾. وفي العلاقة المتبادلة بين الذوات تتم الرؤية

- = أصيل أبي بيوم الخطر
جناحك من سطوات البروق
فطر في السموات ولا تخش خطبا
ولا تقبلن طعمة من أحد
رسالة الشرق، ص 286.
- (1) طيران الأنبياء ليس كهذا
ليس يعني إن كان جدك باز
آه للمسلم الذي بات رسما
سألوني فقلت: يوجد، قالوا:
جناح جبريل ص 466.
- (2) أنا لا أركب الهودج هذي
أرشد الراكب للطريق وأمضي
السابق، ص 467.
- (3) أيها المسلم المثابر يرجو
كن وحيدا ووحد الله واكشف
كن كما الموج كل حين تراه
انتزع من يديه ثوبك وارجع
السابق ص 467.
- (4) وفي حضر بذلك تلك سفره
زبور العجم، ص 393. وأيضا: من العقيدة إلى الثورة، ج2، التوحيد، ص 600 - 664.
- (5) ودوما كن لذاتك في الكمين
ومن شك ففر إلى اليقين =
- كفيل بإنسان عين النمر
من الشهب فيك كريم العروق
وكل ما أصبت يبسا ورطبا
وكن راشدا واستمع للرشد
- مالك اليوم في السماء اجتياز
أنك اليوم بالوراثة باز
شغلته عن الحياة جدوده
أين سلطانه وأين وجوده
- أنا لا أمتطي الركاب دليلا
لست عما يفتشون بديلا
- ثوب تقواه كن نسيج حياتك
سحر ألواننا بقوة ذاتك
يدرس الشاطئ الذي يبتغيه
لا تغرثك الإقامة فيه

بينهما دون أن تفقد الذات الإنسانية حضورها أمام الذات الإلهية، ودون أن تفنى فيها بل تبقى بها. وبنور العشق المتبادل تضيء الذات. الذات مركب هادئ في عباب النهر والبحر بلا سواحل أو ضفاف. فأين ربانها ودليلها بدلاً من الحيرة والسير بلا هدف؟ أين الربان الموهوب، صاحب الرؤية والكلام أو الروح الملتهبة وهي متطلبات الربان الماهر؟⁽¹⁾.

وللذات جلوة وخلوة. تذوب في الجلوة. وتجتمع في الخلوة. تجلو الذات في نور الصفات، وتخلو من نور الذات. العقل يدفع نحو الجلوة. والعشق يدفع نحو الخلوة⁽²⁾. ليست الذات غريبة على نفسها. وليست غريبة في ديارها. كل شيء يمثل لها، ويعمل بأمرها. وخارج الذات لا يوجد خير أو شر. وداخل الذات لا يوجد أمن زائف بل مغامرة ومخاطرة وإلا فالقبر أكثر أمناً. وتموت الروح من طول المقام. وتحيا إذا ما تحركت وتقدمت وسعت إلى الأمام حتى تصل إلى النجم دون توقف. وكلما علت إلى السماء رأت الأرض واتساع الفضاء⁽³⁾. النظر هو الطريق

وذلك بالخروج عن الجهات
ترى مولاك والمولى يراكا
حذار من الضياع ببحر نوره
وأظهر منك ذاتك في ضياء

بمخر في النيل وفي الفرات
من ساحل في هذه الحياة
بأن يدلها المدار الحائر
ينقصها اليوم دليل ماهر
وسحر ألفاظ وروح لاهبة
قائد هذه القافلات الذاهبة

وتراها جمعت في خلوة
لكن الخلوة من نور لذات
عشقها الماضي بها للخلوة

لا تخف من غربة مرت بالاك
وبأمر أو بنهي قد عمل
لا ترى خيرا وشرًا ينبري
كان هذا القبر خيرا من جنان

=
كمالا نظرة كانت بذات
بذات الحق تخلو آنذاكا
بذاتك كن قويا في حضوره
تحزق حيث يبدو في جلاء
السابق، ص 393.

(1) حتى متى مركب هذي الذات
فُدّر أن يركب بحرا ماله
فكيف عند هؤلاء رغبة
ركابهم بالرغم من نشاطها
ألحاظ موهوب وعين ثاقبة
كل الذي يملكه من عدة
جناح جبريل، ص 445.

(2) وللذات ذوبها في جلوة
جلوة للذات في نور الصفات
عقلها الدافع نحو الجلوة
جاويد نامه، ص 149.

(3) لا تسر مثل الغريب في ديارك
إن منك القول كل يمتثل
خارج الذات بشط الكوثر
لو بكف الذات عن بحث أمان

إلى عالم الروح. ونور الذات هو نور البصر⁽¹⁾. ومعرفة الذات هو الطريق لمعرفة الخير والشر، الضار والنافع⁽²⁾.

ب - الذات الكونية

الذات أول الكائنات وأصل الحياة. تغفو وتصحو. تتكثر وتتوحد. تضمحل وتنمو، تنقص وتكثر، تفرق، وتجمع وهي عميقة كالبحر، متلاطمة الأمواج، في حركة دائبة. تتستر وتظهر، تخفى وتتجلى. هي شرار نار. تقبض وتبسط. الذوات الأخرى أشعة لها. ترابها حجاب. وروحها كشف. تشرق من الصدور. وتير العالم من أجل أن تسير في الطريق. وتكمل السفر، من الزمان على الخلود. توجل وتأمل. مقرها القلب، وموطنها الوجدان. مع الغير تفرق وتجمع، تفصل وتتوحد. تخضع لضرورة العالم. وتتححر بقدرتها على الاستقلال⁽³⁾.

الذات لا تضيع في الكون لأن الكون جزء منها. تجذب الدارين إليها. ولا تنجذب هي إليهما، شرقاً أو غرباً⁽⁴⁾. وعندما انبثقت الذات عن الكون ظهر الضياء

أيها الراحل، فامض للأمام
حبذا من غير وقف رحلتك
ما علا ألقيت تحت نظرتي

وتموت الروح من طول المقام
ومع النجم تطيب سفرتك
حين كانت في الفضاء وطأتي

السابق، ص 159.

فينور الذات نور للبصر

(1) عالم للروح خص بالنظر

السابق، ص 284.

يخلق النفع لديه من ضرر

(2) كل من يدري عن الذات الخير

السابق، ص 289.

ونورها أصل الحياة
بكثير بعد واحدتها تراها
نجوم، سائر وله القرار
جواهر أخرجت كانت بقاع
وتبدو الشمس أطلعها السحاب
بجوهرها التراب لنا كنور
بذاتك فلتسافر فلتعين
بإدراك لذاتك كن قمينا

(3) بذات عودة للكائنات
وتصحو من رؤاها في كراها
كنار، والذات لها شرار
ذوات أطلععتها من شعاع
تراب الجسم للذات الحجاب
وتلك الذات تشرق من صدور
ومعنى للأنسا كم قلت بين
عليها أنت قد كنت الأميना

زبور العجم، ص 387 - 390.

بذاتك خذ، دع الدنيا لمحوق

(4) وفي دنياك فاحذر من ضياع

فيه. وتحول من واقع إلى إمكانية، ومن ضرورية إلى حرية. وخجلت الأرض قبل نزول آدم إليها. وتحولت الظلمة إلى ضياء. ومن فوق القمم يجيء النداء. وتتجلى الذات في الصفات. وبعشقها تصبح كل الكائنات⁽¹⁾. ثم ينبثق الكون من الذات، ويخرج من الصلصال، ويصبح الأرض نجماً من أقدارها. وبعد تطويع وخلق، تُصبح الذات الإنسان الكامل. ويتحول من لا شيء إلى شيء، ومن شيء إلى كل شيء، ويكون عند الله مرضياً⁽²⁾. وإذا حقق شعب ذاته من طينه فقد خفقت روحه، وخلق من جديد. ويفرح الخلق الأول بالخلق الثاني⁽³⁾.

الذات خالقة ومبدعة، تبعد الشعر والفن⁽⁴⁾. وتتجدد الذات باستمرار كالأمواج في نهر الحياة، ليتحدد جوهر الكائنات. تتجدد باستمرار في شوق إلى كل تجديد. الذهاب والمجيء قانونها⁽⁵⁾.

- = إلى ذات لك الدارين فاجذب
أرمغان حجاز، ص484.
- (1) فلتعيشي مثلما عاش الجميل
فاعتري الأرض من اللوم الخجل
ومن الظلمة أضواها الأثم
يا أمينا لست تدري ما الخبر
تستنير عينه بالكائنات
من تلظي عشقه من حسن ذات
جاويد نامه، ص143 - 144.
- (2) ويوما تبهر الصلصال نوريا بأنوار
ويوما تصبح الأرض سما من نجم أقدار
ويوما بعد تطويع سيمسي ذلك الأكمل
ويعلو منه شأن لم يكن في أمسه شيئا
ويوما أنت لا تلقاه عند الله مرضيا
السابق، ص145.
- (3) حبذا شعب بروح قد خفق
حامل العرش بأعياد فرح
السابق، ص164.
- (4) قل، لهذا الشعر من أين اللهب؟
أضرمته الذات أو رب وهب؟
السابق، ص297.
- (5) إننا الأمواج في نهر الحياة
ما الحياة غير تجديد تتجدد
إنما التبديل شأن الكائنات
عالمنا تطلب في شوق تمهد

السكون موت⁽¹⁾. والدين أيضاً كذلك، موج مسرع لا يهدأ، بل يبحث عن
المجرى العميق الواسع⁽²⁾. الذات شوق، والشوق حرية، والحرية إبداع⁽³⁾.

ج - الذات الإلهية:

الإله ذات الكون، وذات الكون الإله⁽⁴⁾. وإذا كان الله خالق الوجود فإن
الإنسان خالق ذاته. بل إن الكون كله تجل لهذه الذات. وعشق الذات يهبها الحياة،
ويحميها من الموت، ويبعث فيها الحياة من جديد. وإذا كان للذات لحن فلماذا
صوت الضفدع؟ وإذا كانت قادرة على الوثوب فوق الزمان والمكان فلماذا الرضى
بوضع الراهب ورجل الدين؟ وإذا كان الآذان نداء يُسمع فلماذا لا يُسأل؟ وإذا
كانت النظرة تسأل فلماذا نظرة الأسير؟ ولماذا تخاف الذات السماء ووسعة الدنيا،
والروح قادرة على السباحة في الزمان والمكان؟ ومصير الحية في جوف الطين
الانبثاق إلى الفضاء الأنظم دون أن تدري عن قريب أنها ستمر غصنها إلى السماء.
القرب والبعد شعوري وليس مكانياً. وما منع الجسم مرة الروح من أن يطير⁽⁵⁾.

الذهاب والمجيء ما هما	=
السابق، ص311.	
خفقت كموجة في موج ذاتي	إلى الطوفان أدت ساقباتي
أرمغان حجاز، ص471	
(1) السكون في الحياة للثبات	(1) ما أسلته الله طولاً في حياتي
السابق، ص312.	
(2) ديننا يشبه موجاً أسرع	(2) ما أقام بل أراد المهيعة
السابق، ص314.	
(3) أنت حي؟ حن شوقاً واخلق	(3) كل أفق مثلنا فلتنطرق
ما تراه لا يواتي فلتحطم	عالمنا منك إليك فلتقدم
كل حر كان مكروباً حزينا	أن حواه عالم لآخرينا
أعلى الإبداع أنت غير قادر؟	لست في رأي لدينا غير كافر
وعدمت حسننا حتى الأثر	من نخيل العيش ما ذقت الثمر
السابق، ص318.	
(4) من إله الكون ذاتا يطلب	(4) وله الكون جوادا يركب
عاشق أنت؟ على اللاصوب أقدم	وعلى ذاتك موتاً فلتحرم
جاويد نامه، ص150.	
(5) أنت يا من أنت ميت في الحفير	(5) القيام ممكن من غير صور
لك لحن مطرب في المسمع	فإلام منك صوت الضفدع؟
	=

ليس الوقت أياماً تمر والزمان ليس منفعة أو ضرراً بل الزمان إحساس داخلي خالص، توتر وخلق وإبداع⁽¹⁾.

لا يخفي العالم ذات الإله بل يكشف عنه⁽²⁾. رجل الله يرى بالله ذاته في الكون فيستشهد في سبيله⁽³⁾. التجلي يُري غير أن الذات تطويه⁽⁴⁾. وأمر الصوفية كالرومي هو لزوم الذات⁽⁵⁾. ولا يوجد ضمان أنه بالعود إلى الذات تتم رؤية الحبيب. والإمكان قد يتحول إلى واقع وقد يظل إمكاناً⁽⁶⁾. سر الذات هو سر العظيم⁽⁷⁾. وجود الله يكسب الوجود. فهي مظهر من تجلياته⁽⁸⁾.

ذلك الزنار عنك اطرحن
ما تراه عنه فاسأل عقلكما
في عيون ما لها ذل الأسير
وسعة الدنيا تخاف! لا تخف
فيهما حالاً لروح أنت واجد
لا ترى علو الفضاء الأعظم
قد تمد في السماء غصنها
إنما المعراج تغيير الشعور
خلصن الذات من تحت وفوق
والتراب مانعا من أن نظيرا

المكان والزمان اركبن
اشحذ الأذن واشحذ عينكما
تخرق النظرة لي كل الستور
من سموات تخاف! لا تخف
الزمان والمكان فلتشاهد
حبة في جوف طين مظلم
وهي لا تدري قريباً أنها
القريب والبعيد في الضمير
في الشعور ذاك من جذب وشوق
ليس هذا الجسم للروح النظيرا

السابق، ص 150 - 152.

والزمان لا يفيد أو يضر

(1) لا يُعد الوقت أياماً تمر

السابق، ص 162.

غائصاً ما رد رسم في المياه

(2) ليس يُخفي عالم ذات الإله

السابق، ص 165.

في دماه خر كي ينهي حياته

(3) رجل الله رأى بالله ذاته

السابق، ص 175.

غسير أن ذاك في ذات طواه

(4) التجلي كان هذا من رآه

السابق، ص 250.

«عش بأنفاس لمن غنى الأغاني»

(5) «الزم الذات» بها الرومي حبانِي

السابق، ص 250.

فتن الدنيا حبيبي ما شهدته!

(6) نظرتي أمعنت في ذاتي طويلاً

السابق، ص 251.

سره السر العظيم سنته

(7) ذاك انظر إن هذا رؤيته

السابق، ص 263.

فكانت مظهراً جاز الحدودا

(8) وجود الله اكسبها الوجودا

أرمغان حجاز، ص 489.

والذات واحدة، وهي انعكاس للوحدانية الإلهية⁽¹⁾. والذات الإلهية بعيد قريب يمكن مد اليد إليه⁽²⁾. ومن حرر الوجدان بالتوحيد ومعرفة الله تدين له الملوك.

وتستطيع الذات أن ترى عالم الأرواح، وتدرك العوالم العلوية فهي متعالية مثلها. وهنا يوحد إقبال بين الذات والكون والإله كما هو الحال في وحدة الوجود⁽³⁾.

4 - العقل والقلب

أ - حدود العقل

الذات عقل وقلب. العقل محدود، والقلب بلا حدود. العقل يفرق ويحتار بين طرفيه، والقلب يجمع بينهما. يحط العقل مرة على أرسطو، ومرة أخرى على سيكون حكماً بالظاهر. وثالثة مع الطوسي⁽⁴⁾. والقلب قادر على الولوج إلى مواطن الأمور. لا يستطيع العقل التعامل مع وعر الطريق ومع الدنيا التي بها وهج الشروق⁽⁵⁾. العقل لا يفيد في السعي للتحويل من الزمان إلى الخلود. لا يتحول إلى

- | | |
|---|--|
| (1) إن كان في القلب «لا شريك له» | تبقى على الدهر واحدا بطلا
ضرب الكلیم، ص116. |
| (2) تمد الكف في طلب العطاء | وعن ذات إلهي وهو نار
أرمغان حجاز، ص466. |
| (3) بعين الذات من دنيا رآها | وللأرواح أسرار دراهما
السابق، ص469. |
| (4) فواحدة كثير، والقليل
على القشر اللباب له يكون
مظاهر للفوارق ما رأينا
إلى الأتراك فارحل، وانظرن
جنون قولة الطوسي وآخر
وبيكون لحنه يوما لتعزف
وباطن معدن أو قعاع يم | إلى أبدأ لعقل ما السبيل؟
وأعرج كان، بغيته السكون
ومزقنا الحقيقة في يدينا
وقلبك ثم عقلك فاصحين
فمن كل جزيء كان أكثر
أرسطو مرة إياه فاعرف
بعقلك وهو يدرك كل كم
السابق ص382 - 384. |
| (5) ودنيا كان في وهج الشروق | يغابر عقلنا وعر الطريق
السابق، ص387. |

نور إلا بفعل العشق. قد يبأس العقل فيساعده العشق بالأمل⁽¹⁾. فإذا رفع العقل النقاب عن الأشياء يظل خطابه عارياً من الصدق. الصدق يأتي من القلب. يشاهد العقل الكثرة، وبالقلب الوحدة⁽²⁾. داء البصر، البصيرة دواؤه.

العقل مجرد جدل وظنون. أما المعرفة الحققة فهي المعرفة الذوقية. وهي نظر وعمل، إدراك ومصير. ومصير الإنسان حركة نحو المستقبل، وليس وقوفاً في المكان. وسر اللآلئ خلود بريقها وإلا كانت مجرد حجر. وما قيمة دم في العروق إذا كانت مهمته إطفاء نار الفكر؟⁽³⁾. ويتم صقل العقل ليصبح كالسيف. أما الحب فله طريق واحد. لا يتوقف حجاجه. وهو على سفر دائم وإن بدا واقفاً. والسير مشروط بالتخفف من الزاد والمطية. ولو تخفف الإنسان من أحماله لكان كالنسيم عابراً الجبل⁽⁴⁾.

- (1) لك الأيام فاجعلها خلوداً لهذا العقل من حس صدور لعقل جزؤه، للنوح كل وذاك العقل ما وسع الخلودا قصارنا نواح العشق كانا السابق، ص 391 - 392.
- (2) بدا بالعقل مرفوع النقاب طريق القلب سري إليها ومنظور وناظر غور سر وعالم كثرة بالعقل شاهد زبور العجم، ص 379.
- (3) دواء البصيرة هذا الدواء وما العقل إلا جدال العلوم مصيرك أرفع من وقفة وسر اللآلئ خلد البريق وما هي جدوى دم في العروق جناح جبريل، ص 443.
- (4) ذو العقل مثل نصل سيف عقله والحب مسكن شريد زاهد حجاجه تظل في تلهف مسافرون دائماً وإن هم ليس بسيراهنا هنا انتقالك
- ونح في الفجر، عقلك لن يفيدا ومن عشق نحيب الفجر نور ونوح دام، ما إن دام عقل من الأنفاس ما يحصي عديدا وتحوي برهة منه زمانا
- ولكن قد تعرى بالخطاب ويثني كل مخلوق عليها تضرع قلب ذرات لأمر لتدري مظهرا يبديه واحد
- رجاؤك في كشف داء البصر وحرب الظنون ورجم النظر وأول معناه ذوق السفر وإلا فمعدنها من حجر إذا كان يطفى نار الفكر
- بألف أسلوب يتم صقله وماله إلا طريق واحد لا يعرفون ترف التوقف بدوا مقيمين لم يراهم بالزاد والمطية انشغالك

العقل أسير. كلما زاد في التحليق زاد في الأسر. يتحدى البرق. ومنه فر. يسحر العقل، والعشق أدرى بحرقه الأكباد. يسهل تجميع العلم. ويصعب قبول القلب. يسهل نقد العقل من العقلاء والسفهاء. العقل له بداية ونهاية. والعشق له بداية وليس له نهاية. يبدأ العقل السؤال، ولدى العشق الجواب. والسجود للعشق وليس للعقل. والعقل الفسيح الذي يحيط بالعالمين في حاجة إلى نور يضيء، ونار تصهر⁽¹⁾. للعشق عيون، تدرك الحسن. العقل أقل اتساعاً من الطبيعة، والطبيعة أقوى من العقل. مع ذلك تطيع الطبيعة العقل. الطبيعة طيعة، والعقل أمر⁽²⁾. وبالرغم من أن العقل طليق. لا يمنعه قرب أو بعد عن النظر إلا أنه غير مؤهل لمواجهة «الحضور» لأن «عين العقل» تنقصه. وهي أثنى ما يوهب للإنسان. صحيح أن العلم زينة الإنسان، ولكنه فارغ ليس به مجال. والناس في حاجة إلى رحمة من هذا العصر السفیه، من عالم يخلو من القلب. العقل سكر، والقلب صحو. العقل منطوق، والقلب جنون، العقل راحة كما هو الحال في «راحة العقل» للكرماني، والقلب قلق وعطاء حيوي. والقلب بلا قلق هو عين الشقاء. العقل يواجه

زاده التحليق أسرا
منه هذا العقل فرا
بالأكباد أدرى
قلب لا ترغب فيه
ضاع في كف سفیه
ليس فيه من نهاية
ب والعشق بداية
سدادا ورشادا
وابلغوا منه مرادا
ذا شعاب حين سارا
وأصار السماء نارا
ردت الرممل نضارا
فسي قلوب أو أنارا
قد أحاط العالمين
ر الأنس فيه دون مين
وانتشرنا كالشرر
ورجاء ونظير

(1) إنما العقل أسير
يتحدى العشق برقاً
سحر العقل، وكان العشق
تجمع العلم وتلقي الد
آه ذا نقد ثمين
إنما الحكمة أمر
ليس في كتابها للح
فهلّموا نسأل العشق
واقصدوا العشق سجودا
سلك العقل طريقا
ملأ العالم هرجا
في يديه كيمياء
لم يضع إكسير حب
حبذا عقل فسيح
نور أملاك ونا
شعلة كنا جميعا
أهل شوق وحنين

رسالة الشرق، ص 325 - 327.

(2) العقل هذا ليس يقهر وسعه وسع الطبيعة
وجها لوجه صنعهما وانظر لقوتها المطيعة

الموضوع، والقلب الحضور أو «الحضرة» بلغة الصوفية. والحضور سر كما أن القلب سر. سران يتناحيان. القلب والحضور تجليان للحياة. إذا حضر الأول حضر الثاني. لقد طلب موسى الحضرة بقوله ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾⁽¹⁾.

العقل بمفرده ذو وهن. وليس حرياً بالإمامة. حياته ظن وتخمين، ضعف وسقامة. هو خال من نور الفكر، واستقامة السعي. لا يستطيع تبديد الظلام، ولا أن يدرك الحسن والقبح، ولا أن يستجلي الأسرار. وهو أيضاً حكم برجسون على العقل لصالح الحدس، وعند إقبال لصالح الوحي⁽²⁾. يستطيع العقل أن يكون أمير الكون، يطوي الأرض والأفلاك، ولكنه لا يستطيع أن يخضع الكون له إلا إذا كان بالقلب جسوراً. وما سماه إقبال الوحي أو القلب أو العشق هو ما سماه برجسون

(1) رغم أن العقل لا يمنعه قرب وبعد
إنه والحق: ما أهل للحضرة بعد
اسأل الله تعالى والتمس عيناً لقلبك
إنها أئمن ما تكسبه من فضل ربك
أنا لا انكر أن العالم للنفس حُبور
هو فردوس ولكن فارغ ما فيه حور
ما أحق الناس بالرافة من عصر سففيه
ليس في العالم قلب يجده الغبطة فيه
إنه صحو بآن واحد هذا الجنون
ذلك النوع جنون ماله صحو يكون
قلق القلب غذاء وعطاء حيوي
إن قلباً ليس فيه قانق، قلب شقي
أنت للحضرة سر ماله سر سواك
إنها إن كنت حيا حيثما كنت هناك
أولاً يزعجك قولي أرني أنظر إليك

جناح جبريل، ص 440 - 441.

(2) ليس هذا القول ذو الوهن حرياً بالإمامة
فحياة الظن والتخمين ضعف وسقامة
ليس في فكر كنور أو إلى السعي استقامة
كيف يجلو في حياة ذلك الليل ظلامه؟
إن لغز الحسن والقبح ليعبي ذاً الفهامة
حين لا تجلو الحياة السر منها مستهامة

ضرب الكلم، ص 24.

الحدس⁽¹⁾. والعقل في حاجة إلى نار القلب كي تشعله وإلا فهو الموت⁽²⁾. والقلب لا يذل للعقل⁽³⁾.

العقل حبيس المكان والزمان. لا ينطلق إلا عن طريق «لا إله إلا الله»⁽⁴⁾. العقل وسيلة للمعرفة، بعيد عن الحياة⁽⁵⁾. والأفكار دون صوت كالنظر دون العمي. إن لم يسر العقل بالوجد فإنه لا نفع منه. وإن نطق العقل بالتوحيد دون التسليم بالقلب فإنه لا نفع فيه⁽⁶⁾. إن لم يكن في الصدر قلب حر لم تنضج الحياة في شجاعة وهمة. وإن لم ينشط الغزال في فراره ما استطاع الصياد صيده. ماء الحياة قريب. طريقه حرارة الإقدام⁽⁷⁾. العقل يقيم الأصنام في الذهن، والعشق يحطمها⁽⁸⁾. العقل يشيد الأصنام، والقلب يحطمها. العقل يكفر بالإله الحق،

- | | | |
|-----|--|---|
| (1) | سيطر العقل على الكون أميرا
ذا جلال يخضع الكون له
السابق، ص25. | وطوى الأفلاك والأرض مسيرا
غير قلب نار بالعقل جسورا |
| (2) | فلست أرى في بيدك اليوم جنة
إذا حاد عن نار الحياة منغم
السابق، ص52. | تشب بهذا العقل نار التقدم
فموت شعوب لحن هذا المنغم |
| (3) | كل قلب ذل للعقل فقد
السابق، ص51. | قال ربي أزلا: لا تقبلن |
| (4) | حبس العقل في مكان ووقت
لا زمان ولا مكان فحطم
السابق، ص8. | كفره، لا إله إلا الله
غله، لا إله إلا الله |
| (5) | عاقبة العقل إلى شتات
ونغممة الأفكار دون صوت
السابق، ص10. | فلسفة بُعد من الحياة
للذة الأعمال حادي الموت |
| (6) | ذلك العقل صاعدا للشريا
ينطق العقل «لا إله» ولكن
السابق، ص22. | ليس بالوجد ساريا، ليس شيئا
ليس بالقلب مسلما، ليس شيئا |
| (7) | إن لم يكن في الصدر حر قلب
إن ينشط الغزال في ذكاء
ماء الحياة هاهنا قريب
السابق، ص62. | لم تنضج الحياة في همام
لم يظفر الصياد بالمرام
طريقه حرارة الإقدام |
| (8) | أقام العقل أصناما برأسي
رسالة الشرق، ص266. | خليل العشق بادرها بهدم |

والقلب موصول إليه⁽¹⁾. وإذا فضل الآخرون العقل فالأكثر حكمة إثارة القلب⁽²⁾. وهو قادر على خلق الإنسان من الطين كما حدث لآدم⁽³⁾. ونعمة القلب هي التي تعم كل الفضاعات، وشراره لا تحدده حدود. وإذا أضاء القلب من العقل فإن معيار العقل هو الفؤاد⁽⁴⁾. وإذا كان للفنون عقل فإن عشق الشجون يدمي القلب. وفتوى الحكيم أقرب إلى الجنون⁽⁵⁾. العقل الكسول فيه زرع لا يستطيع الرقص⁽⁶⁾. لا يفهم الآي بتفسير القدماء، الرازي أو غيره بل بالضمير والتجربة الباطنية. لا يأتي التفسير من الكتاب بل من أم الكتاب في التجربة الأولى التي منها خرج الكتاب⁽⁷⁾. مصدر التفسير الخليل وليس كتب المفسرين. فالإسلام سر في الضمير. يضيء من ضوء جبريل ليقاوم الأزري نسبة لآزر أبي إبراهيم. وهذا هو سر الخليل⁽⁸⁾.

- | | | |
|-----|---|---|
| (1) | دماغي يعشق الأصنام كفرا
فأبصر في فؤادي نار عشق
السابق، ص 273. | برتها ويعبد كل حين
بعيد أنت من سنني وديني |
| (2) | وهب للآخرين متاع عقل
السابق، ص 268. | ونار العشق فاحفظها بديلا |
| (3) | ألا يا عشق! يا رمز الفؤاد!
تقادم أهل هذا الترب فاخرج
السابق، ص 268. | ويا زرعي النضير! ويا حصادي!
بآدم محدث من ذا الرماد |
| (4) | أثرت بنغمتي كل النوادي
أضاء القلب من عقلي ولكن
السابق، ص 271. | ومن شرر الحياة جعلت زادي
جعلت عيار عقلي في فؤادي |
| (5) | تولي بعدً عن عقل الفنون
فلا تستفت إقبالا لشيئ
السابق، ص 273. | وأدمى قلبه عشق الشجون
فإن حكيمنا رهن الجنون |
| (6) | St. Ref., p. 114. | |
| (7) | دع الرازي في تفسير آي
يضرّم عقلنا والقلب يصلى
السابق، ص 266. | فإن ضميرنا نعم الدليل
بذا نمرود فسر والخليل |
| (8) | بني الإسلام! سر في ضميري
أخادع آزرّي الطبع عنه
السابق، ص 265. | يضيء كروح جبريل الرسول
فهذا السر من سر الخليل |

العقل تردد وشك وحيرة، والعشق يقين وإثبات وعزم⁽¹⁾. العقل يسالم، والعشق يصارع⁽²⁾. في العقل محبة، وفي العشق غيرة⁽³⁾. العقل يحشر الجنند، والعشق ينتصر⁽⁴⁾. وإبراهيم نموذج حياة السكر والهيام. فجعل النار برداً وسلاماً عليه. وكسر الأصنام القديمة. واندلعت الثورة من ضمير الشعب ومن إيمانه في وجدانه. هو النور الذي يقتفي أثره الصالحون. ويسميه قاصر العقل الجنون. أما الهوى بمعنى الأهواء فإنه ليس جنوناً ولا فنوناً. ولا يقيم نهضة تمحو الهوان. ولا يؤدي إلى ساحة المجد. وكل إنسان لم يجاهد تحت القبة الزرقاء فإنه لم يخلق بعد. فالجهاد هو خلق الذات بالذات، والروح بالروح، بعد الخلق الجسدي الأول⁽⁵⁾.

إن لذعات نار العجم ليست كفوفاً لنار الذات الحامية. والتوحيد محيط بها من كل جانب. والعقل محصور في عقد متتالية هي قواعد الاستدلال. ونظرات العين هي التي تحل الطلاسم. ولا تقوى حيل العقول الآلية على الصمود أمام خفقات القلب الدامية. فكنياسة التفلسف لا تصمد أمام النار الحامية⁽⁶⁾. وإذا كان

- | | | |
|-----|--|---|
| (1) | يحير عقلي نهار وليل | وما قبل عن مولد أو ممات |
| | السابق، ص 277. | |
| (2) | خدع العقل وموج | العشق صارح لا تقر |
| | السابق، ص 315. | |
| (3) | غيرة العشق فانظرن | أينا شوقه احتدم |
| | السابق، ص 316. | |
| (4) | ساحر العقل يعبني جنده | لا تُرع للعشق جند ينصر |
| | السابق، ص 316. | |
| (5) | كن كإبراهيم سُكُرا وهياما
اجعل الأصنام في الأرض هشما
من ضمير الشعب من إيمانه
هي نور يجتليه المصلحونا
إن قوما للهوى يستسلمون
لن يقيموا نهضة تمحو الهوان
كل من تحت الفضاء الأزرق | لتصير النار بردا وسلاما
لا تغادر هيكلها منها قديما
تنبت الثورة في وجدانه
قاصر العقل يسميها جنونا
لم يقم فيهم جنون ذو فنون
ما لهم في ساحة المجد مكان
لم يجاهد فكأن لم يخلق |
| | يا أمم الشرق، ص 343 - 344. | |
| (6) | لذعات حان العجم ليست
ذا أحمد العربي نظر | كفء ناري الحامية
ته تحيط جهاتيه |

العقل قادراً على الطير في السماء فإن العشق زهرة في نسيم تقدم ناراً بكد الحياة⁽¹⁾.

العقل قادر على إدراك العالم بنوره ويحرقه به، ولكنه بالعشق ينير الدنيا. العقل يدرك، والعشق يخلق. العقل ثابت، والعشق يدور كالراقص في الحلبة من نشوة المعرفة. العقل يُشقي بالحيرة، وبالعشق ترتاح القلوب. وليس كل معنى في اللفظ يستنبطه من العقل قادراً على إحداث ثورة. والإنصات للقلب ساعة قد يساعد على إحضار البعيد⁽²⁾. يتحدث العقل رباً كل حين. ويشيد وثناً حتى تكاثرت الأرباب، وتعددت الأوثان. والأفضل نزع البرقع جهراً ليرى وجه الحبيب والحنين والشوق إليه. فلغة الحب لغة الدمع والعهد، بلا كعبة أو معبد. فالإله يتحدد كل حين في القلب⁽³⁾. العقل محرقه بنار الراح العتيق⁽⁴⁾.

عقد له متواليحة
حلت طلسم مجازية
خفقات قلبي الدامية
لحريرم ناري الحمامية

نال بالعقل في السماء مطارا
وبكد الحياة تقدح نارا

في جلوة منه تغير
كيف في الدنيا ينير
كل لون أو يثير
ذا الحرف أو هو بي يدور
وإنه فيها سعير
في اللفظ، كم معنى يثور
فلعلما يدنو العسير

فهو من قيد إلى قيد رهين
ليس في حيك غيري ذو حنين
ليس في الحب سواها من يمين
زاد باللوعة عهد لا يمين
فلإقبال إله كل حين

بنار راح عتيق

= ما حيلتي والعقل في
نظرات عينك، فانظرن
حيل العقول تفوقها
فاهجر كنيس تفلسف

رسالة الشرق، ص 318.

(1) قل لأهل السماء إن ترابنا
نحن في العشق زهرة في نسيم

السابق، ص 319.

(2) العقل يحرق عالما
لكنه بالعشق يعرف
العشق في الأرواح يخلق
إنني لأذكر راقصا
بالعشق ترتاح القلوب
ما كل معنى ينطوي
أنصت لقلبك ساعة

رسالة الشرق، ص 300.

(3) عقلنا ينحت ربا كل حين
ارفع البرقع جهرا لا تُبل
بسمة خلس ودمع ورننا
حبذا العشق ففي يوم النوى
سادن الكعبة لا تأذن له

السابق، ص 308.

(4) طوبى لمحرق عقل

السابق، ص 311.

ومن يجمع بين الوجد والعقل يجعلهما درياً تحيط به المواجد حتى تتركه في ساحة الحب نهبا. فالوجد أقوى من العقل⁽¹⁾. ولا تتم الأفعال مصادفة عن طريق النرد، ولا عن طريق البحث، ولا عن طريق الوهم، بل عن طريق الوجد. فقد نجح الرومي وأخفق الرازي. ومملكة جمشيد مجرد صورة منعكسة في كأس طبقاً لأساطير السحر والشعوذة والخرافات. إنه طريق القلب في الصدر⁽²⁾. علم الرازي تهور وانحدار. أما علم القلوب فهو علم القلندر. وقمة السكر والمحبة في سلوك حيدر، وهو علي⁽³⁾. يلحق الفيلسوف العار عندما يعلم أن غيره يطوف بالسر دونه⁽⁴⁾.

وفي حوار بين العقل والقلب يقول القلب: قطعاً الله موجود. فيرد العقل: ولكن يا صغيري الوجد من مقولاتي، وليس لك الحق في استعماله. فيجيب القلب: هذا أفضل يا عزيزي أرسطو. فالصفات مشتركة بين الذات الإنسانية والذات الإلهية⁽⁵⁾.

التزمت والشكلية والنصية دون إيمان بعقيدة ضد التسامح ولا يمكن للعقل البسيط أن يقبله⁽⁶⁾. ومع ذلك العقل الإنساني هو محاولة للطبيعة للنقد الذاتي.

- | | |
|-----|--|
| (1) | عجبا من مغامرات ذكي
لم تزل حوله المواجد حتى
جناح جبريل، ص 465. |
| (2) | لعبة النرد لم تكن دون نرد
خمرة القوم لا تُنال ببحث
كأس جمشيد لمعها في دوام
السابق، ص 460. |
| (3) | علم رازي تهور وانحدار
قمة السكر والمحبة تبدو
السابق، ص 467. |
| (4) | ما هو العار الذي يلحق الفيلسوف
وهو بالسر الذي خبأته أنت تطرف
السابق، ص 476. |

St. Ref., p. 4.

(5)

Ibid., p. 130.

(6)

وظيفة العقل النقد. والنقد حركة طبيعية. فالإنسان يتجاوز نفسه باستمرار، ويتعالى على ذاته⁽¹⁾.

ب - رحابة القلب

إثبات الذات مفتاحه القلب⁽²⁾. وطريقه النظر إلى الداخل⁽³⁾. الذات أليفة لذاتها. لا تنظر إلى غيرها. فالذات هي الذات، وليست الغير. وقانون الهوية يسبق قانون الاختلاف. بل إن الشكوى لا تكون إلا للذات أيضاً⁽⁴⁾. العكوف على الذات هو دخول إلى الدير الحقيقي. وهو حياة القلب. وهو أحد المقامات⁽⁵⁾. يستطيع القلب أن يرى في عمق الذات حب الذرى⁽⁶⁾. والذات عمقها⁽⁷⁾، وانطوائها على ذاتها. وبالظفر حفر الصدر⁽⁸⁾. وأهم ما يميز القلب هو الصدق مع النفس ومع الآخرين. وبلا صدق يكون القلب زيفاً بلا قيمة. ويكون عبده عبد موت ولا حظ له إلا في الوليمة ومغانم الدنيا⁽⁹⁾.

Ibid., p. 3.

- | | | |
|-----|--------------------------|----------------------------|
| (1) | | |
| (2) | له بالقلب بابا ما فتحنا | وذاثا في ثراه ما رأينا |
| | أرمغان حجاز، ص 440. | |
| | بقلبك أمسكن وعد لنفسك | وصدرك فليكن داراً لحبسك |
| | السابق، ص 480 | |
| (3) | وإن نظروا فقد ظهروا بذات | لهم في الخفق أشبهت الوثينا |
| | السابق، ص 441. | |
| (4) | منحت الذات من ذاتي غريبا | وزمزم بين صلصال قليبنا |
| | لمن أشكو غموما في فؤادي | علي من غير ذاتك ما طواه |
| | السابق، ص 446. | |
| (5) | وفي يوم جذبت إلي ذاتي | بأنوار مقامي مشرقات |
| | بهذا الدير عن نغمات فجر | خلقت وفي القلوب الوالهات |
| | السابق، ص 450. | |
| (6) | لنا دينا بعمق الذات شاهد | بهذا القلب حبا من ذرانا |
| (7) | وسر مثلي بصحراء الحمى سر | لأنك عمق ذاتك قد تقدر |
| | أرمغان حجاز، ص 469. | |
| (8) | على الذات انطواء، فلتعلم | بظفرك حفر صدرك، فلتعلم |
| | ترجي رؤية المولى عيانا | فرؤية عمق ذاتك، فلتعلم |
| | السابق، ص 482. | |
| (9) | فلا تفخر بقلبك دون زيف | وجرب مثلما جربت قلبي |

الجهاد بالقلب هو الجهاد الحر . وللصعلوك جهاد البطون. للأول الخلود، وللثاني الفناء. والقلب هو خير مرشد وليس الشيخ والفقير. وإذا كان الحر قد خلا من الأوفياء فالمسلم الحر يملؤه مكانه⁽¹⁾. والآل ينقص قلب المسلم الهوى. وتنقص عينه الصفا. والمغامرة تكمل ما ينقصه وإلا اندهش من كل شيء. هذا هو سر إقبال الذي يتجلى ذوقه. وكيف يضيع في وهم الحياة وقلبه على عرشها؟⁽²⁾.

كل ما في السموات مدارات للقلوب. ومصير القلوب أعظم من الغبار المتناثر بين الكواكب وفي السموات والأرضين⁽³⁾. القلب هو الذي يطلق عقل العقل وإلا باد الحصاد واندر. القلب في الفؤاد. والسؤال المبدئي: أين الفؤاد؟⁽⁴⁾. شعلة العقل عون للمسافر. ومراده يلهب الطريق. ليس العقل إلا مصباحاً ينير. أما

= فإن هو كان زيفك مثل زيفي ولم يك لي ولا لك أي قيمة فعيدك مثل عيدي عيد موت وحظك مثل حظي في الوليمة جناح جبريل، ص 477.

(1) إذا المرء لم يدر ما ربه ومن طلب الله لا من سواه تحول دارا له طالبا يجاهد للقلب حر الجهاد وذلك يحصل سر الخلود تمئن بقلبك واستفتته خلا حرم الله من أهله وهذا يموت بميدانه ولا تسأل الشيخ عن شأنه فكن أنت جذوة أركانه السابق، ص 430.

(2) القلب ينقصه الهوى والعين ينقصها الصفاء من لم يغامر مثلما غامرت تدهشه السماء ما سر طينتك التي ذوق التجلي نقشها أتضيع في وهم الحياة وأنت قلبك عرشها؟ السابق، ص 431 - 432.

(3) كل ما في سماننا من مدار ومصير القلوب أبعد شأوا ومن غبار مشرد في الدروب السابق، ص 458.

(4) أين من أطلق الحياة بعقلي؟ هو في عزلة الفؤاد مقيم وسؤالي الوحيد أين فؤادي؟ السابق، ص 467.

ضجيج الطريق فلا يشعر به إلا القلب. لا يدرك العقل إلا بريقه⁽¹⁾.

التقابل بين النفس والبدن هو التقابل بين القلب والجسد. عالم القلب هو عالم المحبة والمروءة والحماسة. وعالم الجسد هو عالم التجارة والتملق والسياسة. والغنى هو غنى الفؤاد أي القلب. أما غنى الجسد فضائع. والقلب هو ما يتمسك به من حق. ومن أضع الحق فلا قلب له. والإنسان ضائع الخطوات إذا ما توهم أن ظنونه حق⁽²⁾. القلب نار للاحتراق. حطب الموقد الغليظ ممل. إنما حرق الدقيقات أمتع. مهمة الذات ليس جمع الحصاد بل الاحتراق. والنفس البارد يهيج الرماد ولا يحرق. وشعلة الفكر تضيء الطريق، دليل وليس غاية⁽³⁾.

5 - العلم والعشق

في حوار بين «العلم والعشق» يدلي كل طرف بمميزاته وعيوب الطرف الآخر. ويدراً عن نفسه اتهام الطرف الآخر له. يتقد العلم العشق مغروراً بنفسه بأن العشق جنون. ويرد الجنون بأن العلم ظنون. العشق شهود، والعلم حجاب. العشق

(1) شعلة العقل للمسافر عون
والذي يُلهب الطريق مراده
ما هو العقل؟ إنه ليس إلا
نار مصباحنا بهذا الطريق
وضجيج الطريق من فعل قلب
ليس للعقل منه غير بريق
السابق، ص 468.

(2) ما عالم القلب؟ المحبة والمروءة والحماسة
ما عالم الجسد؟ التجارة والتملق والسياسة
يا أنت أنت إذا وجدت غنى الفؤاد فلن تُراع
أما غنى الأجساد فهو وكل ما فيه ضياع
وإذا وجدت القلب ثم أضعته فالحق أنك ما وجدته
والحق: أنك ضائع الخطوات من وهم تصدق ما ظننته
السابق، ص 429.

(3) حطب الموقد الغليظ ممل
أنا لا أمنح الحصاد لحقل
قد تنفست ليس من نار قلب
شعلة الفكر للطريق ضياء
وأنا رغيتي بحرق الدقاق
عملي الفرد والوحيد احتراقي
نفسا باردا أهاج رمادا
ودليل له وليس مرادا
السابق، ص 467.

رؤية، والعلم كتاب. العشق لهيب في الكائنات وثورة فيها، شهود للذات، في حين أن العلم يكتفي بالصفات. بالعشق تحيا الكائنات وتموت. العشق خافي الجواب، والعلم مجرد تساؤل. العشق يجري المعجزات، مثل الفقر والدين. وأدنى العشاق له أرفع العروش. العشق تمكين ويقين، وبه تفتح الأبواب. العشق حلال، والرتابة حرام. العشق لهيب، والألفة حرام. خطر البحر حلال، وراحة السرب حرام. خفقة البرق حلال، وتواصل الضوء حرام. العلم نسك الكتاب، والعشق أم الكتاب⁽¹⁾.

وفي حوار آخر يزهو العلم بأنه استطاع معرفة أسرار الكون وقوانينه. وأمكنه السيطرة على ظواهره. اعتمد على النظر والتجربة على الاستدلال والملاحظة. وعرض نتائجه لكل من يبغى الاستفادة منه. ويعرف العشق بفضل العلم ولكنه

(1) قال لي العلم غرورا
قال لي العشق مجيبا
لا تكن سوى كتاب
يا أسيرا للظنون
إنما العشق جنون
إنما العلم ظنين

فمن العشق شهود

ومن العلم حجاب

من لهيب العشق ثارت ثورة في الكائنات
وشهود «الذات» للعشق، وللعالم صفات
ومن العشق ثبات وحياة وممات

علمنا سؤل جلي

عشقنا خافي الجواب

معجزات العشق مُلك زانه فقير ودين
وعبيد العشق أدنا هم، له عرش مكين
ومن العشق زمان ومكان ومكين

إنما العشق يقين

وبه يُفتح باب

ألفة الممنزل في شرع من الحب حرام
خطر البحر حلال راحة السرب حرام
خفقة البرق حلال وفرة الحب حرام

علمنا نسل كتاب

عشقنا أم الكتاب

مجرد عامل مساعد لمعرفة حقيقية أعظم، يتم اكتشافها بنور القلب. فالعلم دون العشق سجين في الرحم الذي خرج منه. ويقيد بالقانون الذي اكتشفه. ودور العلم الآن تحويل الصحراء إلى روض، والشيب إلى شباب، والأرض إلى فردوس. وهذا لا يتم إلا بالتعاون مع العشق. كلاهما لحنان لا تغني الحياة دونهما⁽¹⁾.

أ - العلم الحي والعلوم المدون

تحصل الذات على علمها بالرؤية والمشاهدة وليس بالخبر. وإذا سمع الخبر فإن تصديقه في العيان. وليس من سمع كمن شاهد. يشير الكلام إلى العالم، ويحيل القول إلى الأشياء. والأشياء تخضع لقانون الهوية. الأرض أرض، والسماء سماء، والماء ماء، والهواء هواء، بدلاً من أن يدخل العقل بين طرفي الهوية فيعقد الأمور بالمفاهيم والتصورات وعالم المعاني المتوسط بين الألفاظ والأشياء كما حذر برجسون. ومن ثم تكتشف الذات وجودها، والعالم منبثق عنها كما هو الحال عند فشته. الذات ليست موضوعاً يُرى بالبصر بل هي وجود. والوجود هو وعي بالذات، إحساس باطني، تجربة ذاتية. يشعر بها الإنسان ولا يراها⁽²⁾.

العلم موهبة من الخلاق اكتساباً من التراث، بدهاة الذكر على الزمان وليس

(1) العلم: أنا سر الكواكب والجهات
وعيني حدقت فيما أمامي
وكم حدقت فيما أمامي
العشق: بسحرك سُجرت هذي البحار
ولدت الأمس في حرم الرحيم
هلم فُرّة روضاً ذا اليبابا
هلم بذرة من نار قلبي
كلانا الدهر خل لا يجور
رسالة الشرق، ص 283.

(2) وعين البصيرة أعملتها
فهذا تراب، وتلك سماء
ولا أكتّم الحق: أنت وجود
ضرب الكلم، ص 24.

تحصيل المعارف عبر السنين⁽¹⁾. ضوء العقل مصدر العلم وليس كتاب ابن سينا أو الرازي⁽²⁾. ولا يمكن استبدال قوة حيدر (علي بن أبي طالب) بعقل الرازي⁽³⁾. العشق هو قدرة على الرؤية أي البصيرة. فضمير الكائنات يتوق للتجلي والظهور. البصيرة جنون نائر عرفت به ذراتها فضاءها. إن لم تتوافر يتحول الإنسان إلى جسد أصم⁽⁴⁾.

العلم في كتاب، والعشق أم الكتاب. العلم بواسطة، والعشق بلا واسطة. لا يأتي العلم من الرازي بل من الخليل عندما قذف به نمرود إلى النار⁽⁵⁾. للعشق تعريف مجيب. يقلب القلوب كما يشاء. يرمي بالأدمع، ويسبك النفس ويجعلها قريبة لنفسها⁽⁶⁾. ولو كان لدى الإنسان مكتبة كبيرة ويعلم كل الكتب فيها فإن هذا يدل فقط على أنه غني وليس بالضرورة مفكرا. تعني المكتبة الكبيرة فقط أن المحفظة منتفخة من أجل تعيين كثير من الناس للتفكير بدلاً عنه⁽⁷⁾.

العلم من الحياة وليس من الكتاب. السوس يأكل الكتاب، كتب ابن سينا والفارابي. وما زال في ظلمة وحجاب. أما الفراسة فترى الحقيقة في النور الذي يجذبها وليس في كتاب. الحياة كفاح ومخاطرة كما تخاطر الفراشة بالاحتراق في

(1) موهبة الخلاق لا تراث السابق، ص 63.

(2) تضيء عيني العقل من سناه السابق، ص 63.

(3) Persian Psalms, p. 95.

(4) لم تُخف هذي الكائنات ضميرها إن صاحب النظرات شوق بصيرة من ذي البصيرة لي جنون نائر من ذي البصيرة في الليالي قد غدا هذي البصيرة لا تيسر لامرئ ضرب الكلیم، ص 79.

(5) دع الرازي في تفسير آي

(6) يضرم عقلنا والقلب يصلي أرى للعشق تصريفا عجيبا

(7) رماك بأدمع وسباك نفسا رسالة الشرق، ص 273.

الضياء⁽¹⁾. وكيف يُعتر بعلم الكأس فيها خمر شهيد. والفقه مريب، فكيف يكون مريداً؟ في كل دهر خليل، والنار خير خليل. واللحن لا يخرج من الدير لأن العشق عنيد. والأوثان ليست في الدير بل في القلب. تنساب الحياة من أيدي الهنود. والميت لا حياة له حتى بنفخ نار نمرود⁽²⁾. يرثي القلب للفقير المجاور بالبيت العتيق. وأتباعه ليس الجالسين حوله بل حاملِي كأس الرحيق⁽³⁾.

والذوق مصدر للعلم اليقيني، وليس الكبت. والقلب مهبط الوحي الأبدي، وليس سفن كتب التصوف واللاهوت والأدب التي تغرق في البحار. الرؤية والمشاهدة تتطلب العين الثاقبة⁽⁴⁾. قد يتأمل فيلسوف ويعطي كل ما لديه من فكر ولكن دون حب لا يضمن السكر والنشوة، ولا تشع نظرتة كالشرر الصادر من القلب الذي يكتشف الأشياء ويبدد الحجب⁽⁵⁾.

- (1) سمعت: بمكتبتي ليلة يقول مررت بمكتب ابن سينا ولم أدر حكمة هذي الحياة تجيب الفراشة في حرقة: رأيت الكفاح يُعد الحياة السابق، ص 287.
- (2) ... لا تغتر بعلموم إن الفقيه مريب في كل دهر خليل لا تلحين أهل دير أقام أوثان حجب يضيع شدو حياة فالميت ليس بحي السابق، ص 307.
- (3) قلبي رثى لفقيه ما أتباعه شيخ خان السابق، ص 311.
- (4) نسيب جبريل معصوم من الرب كم كان من سفن للقوم أغرقها كن ثاقب العين في قلب الأسود لها جناح جبريل، ص 428.
- (5) تأمل فيلسوف كل ما أعطاني الفكر

العلم مشاهدة وحضور وتجربة ذاتية⁽¹⁾. ليس من كتب الرازي والغزالي أو من صحائف الرومي والطار بل من معاناتهم وصراخهم وتجاربهم⁽²⁾.

العلم من الكلیم أي من الواجهة المباشرة مع الحق. وهو علم قلبي في الصدر. سماه الصوفية العلم اللدني. هو العلم الفطري الذي لا يحتاج إلى تعلم عن طريق الكتب والمدارس⁽³⁾. صحيح أن العلم يحرك الحياة الراكدة، شعوزات العصور القديمة. فالعصر عصر السحر، وليس عصر الكلیم⁽⁴⁾. العلم هو العرفان ضد الجهل الذي يحول الإنسان إلى قطعة من الفخار معرضة للكسر، مجرد فراغ أو إناء يملؤه هواء⁽⁵⁾. ولولا الذات لما تم الإدراك والعرفان⁽⁶⁾.

- = ولولا الحب ما أدركت ما يَضْمَنُ السَّكْر
ونظرتَه هي الشرر المشع بمحفل القلب
بلا دن ولا خمير تدور كؤوسها جنبي
تظن تنافر الكلمات من شعري ومن أدبي
فحانتا على علم بما مزقت من حجابي
السابق، ص 446.
- (1) غياب أم حضور لست أدري ما أكابده
فهل من بينهم أحد يشاهد ما أشاهده
السابق، ص 446.
- (2) ما كان للرازي والغزالي والرومي والطار من نوال
لولم يعانون رغبة الصباح
وصرخة الحيرة في الصباح
السابق، ص 449.
- (3) أين ذاك الكلیم الطيب والطبع المسيطر
كم قلوب في صدور دُعرت من نظرتك
درس العلم اللدني وذوى في فطرتك
السابق، ص 449.
- (4) العلم أطلق الحياة الراكدة في شعوزات من عصور بائدة
من كل سحر عصرنا محاش بلا عصا الكلیم لا يُعاش
السابق، ص 452.
- (5) جهلك هذا ما به من عار قد صير الجهل من الفخار
كم عالم فاضل مماري متاجر بالدين والإيمان
ضرب الكلیم، ص 119.
- (6) وعرفان وإدراك لمسلم وعينيه بلولا الذات يفعم
أرمغان حجاز، ص 499.

تدرك الذات بالعرفان أي بالوعي المباشر⁽¹⁾. وتذكر لازمة «ذاتك بالعرفان يا غافل الأفغان» في قصيدة «أفكار محراب جبل الأفغاني» التي عبر فيها إقبال عن إعجابه بالشعب الأفغاني وقوته وبسالته واعتزازه بجباله وإسلامه. ووضع إقبال أفكاره على لسان الشاعر الأفغاني المتخيل.

الذات هو الإنسان الكامل عند الصوفية أو ما يسميه إقبال «الرجل العظيم». هو في الحب والبغض صادق وعميق، قاهر وشفيق. خرج ضد التقليد المسيطر على الناس، ولكن الطبع خليق بالإبداع. وهو متفرد في الجمع، وطلّيق من الحشد، مثل شمع الحفل قائم بمفرده، وينير مع باقي الشموع. وهو مثل شمس الصبح فيه نور وبريق. لغته يسيرة ومعناها دقيق. ونظره للعصر سديد. وهي ذات فريدة لا شأن لها بأحوال الصوفية⁽²⁾.

ب - العشق والشوق

أحياناً يستعمل إقبال العشق والشوق والطاقة والحياة كتعبيرات حديثة عن لفظ الإيمان التقليدي طبقاً لظاهرة التشكل الكاذب مع الفلسفة الغربية الحديثة. فالمؤمن في الدين لا يُن مع الصحاب كمس الحرير، بعيد عن المحك أي الضوضاء

(1) تبدل الأقوام في البلدان في الروم والشام وهندستان
يا ابن الجبال هب للزمان وأدركن ذاتك بالعرفان

ذاتك بالعرفان
يا غافل الأفغان

ص 118 - 119.

(2) هو في الحب عميق وهو في البغض عميق
قهره فروق عباد بر وشفيق
نشأته ظلمة التقليد بالناس تحيق
غير أن الطبع بالإبداع والخلق خليق
هو في المجمع خال ومن الحشد طليق
مثل شمع الحفل؛ في الحفل وحيد ورفيق
مثل شمس الصبح فكر فيه نور وبريق
لفظه حر يسير لكن المعنى دقيق
نظر فيه سديد عن بني العصر سحيق
ليس يدري أي حال فيه أشياخ الطريق

ضرب الكلم، ص 93 - 94.

والصخب والعراك الذي لا يفيد ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159]. وهو كالحديد إذا ما طغى الباطل، جريء إذا ما دخل المعركة. مخلوق من الطين ولكنه يسمو على الأفلاك. لا يصيد الطيور بل يرقى إلى مصاف الملائكة. وفي الجنة تستقبله الملائكة حبيبا لها. وتشكو الحور العين منه أنه سريع الهجران لهن⁽¹⁾.

الشوق إلى دار الحبيب في القلب. يذيه الوجد⁽²⁾. والعاشق ليس من هذا التراب ما دام القلب لا يشقى بأسر. القلب ينير الطريق، وهاج السعير، أشد نورا من مصباح العقل. زيتة العشق⁽³⁾. وحال القلب بين في كلامه. يجلو للتجلي والشكوى⁽⁴⁾.

عين العشق تضيء دون بيان. ووظيفة العقول إظهار سحر العيان. والعشق غوص فيها وتفاعل معها فالعشق جوهر العرفان⁽⁵⁾. العشق يحطم الأصنام، سيل

- (1) مع الصَّحْب لئن كمر الحرير
 حديد إذا ما طغى باطل
 من الطين، لكن على الطين يسمو
 وما همَّه صيد طير ولكن
 تقول الملائك في غبطة
 وللحور شكوى إلى ربها
 السابق، ص 29 - 30.
- (2) فما أشتاق دارا للحبيب
 ترابي ليس من هذا الممر
 زبور العجم، ص 374.
- (3) ولي في القلب وهاج السعير
 وذاك القلب حب في ثراء
 السابق، ص 375.
- (4) لربي ظل يشكو من مقامه
 جلاء للتجلي لا أريد
 كفتت عن الوصال السرمدي
 السابق، ص 375.
- (5) فتأمل بعين عشق وأبصر
 فعيون العقول تظهر فيها
 وعن عشق خذ دروس جهاد
 إنما العشق جوهر لشعور
 السابق، ص 310.
- بعيد من المحك، المؤمن
 جريء لدي المعترك، المؤمن
 ويأبي على الفلك، المؤمن
 بعيد من الملك، المؤمن
 حبيب إلى قلبنا المؤمن
 سريع إلى هجرنا، المؤمن
- وما في القلب من وجد مذيب
 وفيه القلب لا يشقى بأسر
- دجاك أنر بمصباحي المنير
 كلوح خطه ما في سواه
- وحال القلب بين في كلامه
 ولكن ما حوى القلب العميد
 لذت شكاة قلب لي شجي
- منه آيا تضيء دون بيان
 هذه الكائنات سحر العيان
 وافعلن ما تشاء في كل آن
 وهو روح الإدراك والعرفان

يهدم كل السدود. وإذا بين العقل الوجود فإن العشق يُجلي الكيان. وصلاة العشق بكعبة التوحيد. والسبحة باليمين إشارة إلى الذكر. والدمع على الخد علامة على لوعة القلب⁽¹⁾. العشق يكشف البدر التمام. يد على الصدر، وعين على الاقتحام. والحسن لا يغشاه ظلام. والعشق ليس يخبو في الهيام⁽²⁾.

المؤمن تتجدد حياته كل حين وأن. وواضح في أقواله وأفعاله أنه يجمع بين القدسية والجبروت، بين القهر والغفران. في السماء يجاور جبريل، ولا يحل في الأركان. يعشق الفضاء الرحب، ويضيق بالمكان المحصور. سره قراءة القرآن. عزمه يحتوي القضاء. وهو في العالمين ميزان. هو شفق كالندي، غضوب يقلب البحار طوفانا. حياته ليلاً ونهاراً في تألف مثل سورة الرحمن⁽³⁾.

العقل قادر على إدراك العالم بنور العقل ويحرقه به، ولكنه بالعشق ينير الدنيا. العقل يدرك والعشق يخلق. العقل ثابت، والعشق يدور كالراقص في الحلبة

(1) قد هدمت الأصنام لم أرض شكلاً
ومن العشق قد رأيت كياني
وبدبر ضراعتي وهو أنني
ومن الذكر سبحتي بيميني
منع الحزن فيك غير نضوب
راق قولتي، وسيرتي لجنون:
السابق، ص311.

(2) منيتي أن يتجلي
فيدي تمسك صدري
ويقول الحسن: صبحي
فيقول العشق: وجدي
السابق، ص312.

(3) إن للمؤمن الشان
هو في قوله السديد وفي الفعل
فيه قدسية إلى جبروت
إن تؤلف هذي العناصر كان
هو ترب سما يجاور جبريل
لست تدري بسره فتراه
فيه عزم على القضاء دليل
هو برد الندى بقلب شقيق
ليله والنهار لحن حياة
السابق، ص41.

أنا سبيل هدمت كل سدودي
كان عقلي يريني وجودي
وصلاتي بكعبة التوحيد
فاعجبين من زناري المعقود
دمع قلبي حبسته عن خدودي
خمر شوق لسكرتي وشهودي

ذلك البدر التمام
وبعيني اقتحام
ليس يغشاه ظلام
ليس يخبو والهيام

كل حين جديد شان وأن
على الله واضح البرهان
ومن القهر فيه والغفران
المسلم المستعلي على الحدثنان
ويأبى الحلول في الأوطان
قارئاً وهو صورة القرآن
وهو في العالمين كالميزان
وبقلب البحار كالطوفان
في انسجام كسورة الرحمن

من نشوة المعرفة. العقل يُشقي بالحيرة، وبالعشق ترتاح القلوب. وليس لكل معنى في اللفظ يستنبطه من العقل قادر على إحداث ثورة. وبالإنصات للقلب ساعة قد يساعد على إحضار البعيد⁽¹⁾. ينحت العقل ربا كل حين، ويشيد وثناً حتى تكاثرت الأرباب وتعددت الأوثان. والأفضل نزع البرقع جهراً ليرى وجه الحبيب والحنين والشوق إليه. فلغة الحب لغة الدمع والعهد، بلا كعبة أو معبد. فالإله متجدد كل حين في القلب⁽²⁾. العقل محرقة بنار الراح العتيق⁽³⁾.

قوة الذات بالمحبة والعشق، وبالتالي يصبح لها القدرة على تسخير الكائنات. ويتطلب ذلك تسخير النفس أولاً، ثم تسخير قوى العالم الظاهرة والباطنة. تستحكم الذات بالعشق. وهو إرادة الجذب والتسخير. وأعلى أشكاله خلق مقاصده والجد في نيلها. والعشق أفراد العاشق والمعشوق أي الفردية والاستقلال، توحد الأنا في الأنا. ومن مجموع نقاط النور يتكون الضياء. ومن مجموع الشرر تندلع النار في الطين. العشق كالسيف الناصع، دون هواء وتراب وماء. يشق العشق الصخر. وهو عشق الحق. سيفه أمين على الظالمين. فيجلب الحق المبين⁽⁴⁾. هو سر في القلب، يصدق به الحق، ويسطع من الكتاب، وتملئ آياته به. العشق يخلو إلى غار حراء

(1) العقل يُحرق عالماً لكنه بالعشق يعرف العشق في الأرواح يخلق إنني لأذكر راقصاً بالعشق ترتاح القلوب ما كل معنى ينطوي أنصت لقلبك ساعة السابق، ص 41.

(2) عقلنا ينحت ربا كل حين ارفع البرقع جهراً لا تُبل بسمه جلي ودمع دنا حبذا العشق ففي يوم النوى سادن الكعبة لا تأذن له السابق، ص 308.

(3) طوبى لمحرق عقل السابق، ص 311.

(4) نقت النور التي تدعى الذوات شرر في طيننا للحيات

حتى ينطلق بعد ذلك إلى الحق. فيحطم اللات والعزى والأوثان⁽¹⁾. تقوى الذات بعشق ما تؤمل. وهي بالمحبة أقوى وأحيا وأضوأ⁽²⁾.

العشق ليس تقليداً بل إبداعاً. وهنا يبدو جانب التقليد والمحافظة في فكر إقبال. فالتقليد ليس من أسماء العشق، بل العشق إبداع. لذلك عشق كبار الشعراء. وكان كبار الشعراء والأدباء من العاشقين. لا يكون العشق بتقليد الحبيب، بل بإبداعه كل يوم في ثوب جديد. التقليد موت للعشق⁽³⁾. وإذا استحكمت الذات بالمحبة والعشق فإنها تقدر على تسخير قوى العالم الظاهرة والباطنة⁽⁴⁾. العشق يسمو ولا يهبط، يعلو ولا يسف⁽⁵⁾. العشق تقدم. وكل عشق دون إقدام يسقط. العشق مخاطرة ومغامرة تحرسه «يد الله». ومع ذلك تظل النفس كالطود. فالعشق توتر ورغبة دفيئة في الانتصاب دون الخروج من المكان⁽⁶⁾. والعشق روح يسري

وهي بالعشق تنير العالم
ليس من ماء وترب وهواء...
هو عشق الحق، والحق بصير
حين يدعو الحق بالنصر المبين
فأذاعت صيحة الحق به
سيد الكونين، مولى الثقلين

وإلى الحق فهاجر راضيا
واحطمن اللات والعزى لديك

قطرة بالعشق توعي ضرما
لا يهاب العشق في السيف المضاء
نظرة العشق بها شق الصخور
سيفه أمين تمحو الظالمين
نحن كنا سره في قلبه
هو عنوان كتاب العالمين

الأسرار والرموز، ص 18 - 22.

(1) في حراء القلب فاقعد خاليا
أفوين بالحق ثم ارجع إليك
السابق، ص 22.

(2) السابق، ص 18 - 23، المقدمة ص 48، خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون ص 18 - 19.
ضرب الكلم، المدخل، ص ط.

فترى التقليد من أسمائه
لتنال القرب من رب مجيب

(3) كم يُريك العشق من صهبائه
أحكيم العشق بتقليد الحبيب
السابق، ص 22.

حينما الذات بعشق تُحكم
فإذا ما أوقات شق القمر
بذباب بازيا لا تقس

(4) أمرها في الكون طرًا يحكم
يدها من قوة الحق أئر
لا يسف العشق دأب الهوس
(5) ضرب الكلم، ص 120.

ويد الله بعشق مخطر
تخذ الأهوال زاد السفر
يعرف النفس بها ذو البصر

(6) كل عشق دون إقدام هوى
ويلتا من ترف! أين فتى
خلوة الأطواد ليست وحشة
السابق، ص 122.

في الحياة. نسيم في الجنة، ينمي الأزهار البرية، ويخترق البحار ليهدي الحيتان⁽¹⁾. له رموزه في الحياة في الأزهار والورد، وهمه في روح الخلائق. وفي دم كل عاشق⁽²⁾.

لا يخفي العالم ذات الإله بل يكتشف عنه⁽³⁾. رجل الله يرى بالله ذاته في الكون فيستشهد في سبيله⁽⁴⁾. التجلي يُري غير أن الذات تطويه⁽⁵⁾. وأمر الصوفية كالرومي هو لزوم الذات⁽⁶⁾. ولا يوجد ضمان أنه بالعود إلى الذات تتم رؤية الحبيب. قد يتحول الإمكان إلى واقع وقد يظل إمكاناً⁽⁷⁾. سر الذات هو السر العظيم⁽⁸⁾. وجود الله يكسبها الوجود فهي مظهر من تجلياته⁽⁹⁾.

ومحرك العشق هو الفراق من أجل الوفاق⁽¹⁰⁾. قفزة واحدة من عاشق تبدد

- | | |
|---|--|
| (1) وينمي العشقُ أزهار البراري فيهدى العشق حيتان البحار | (1) نسيم العشق في الجنات جار ويخترق البحار له شعاع رسالة الشرق، ص 263. |
| (2) وغم العشق في روح الخلائق نصيب العشق من دم كل عاشق | (2) رموز العشق في ورق الشقائق وإن تصدع طباق الأرض تبصر السابق، ص 263. |
| (3) غاصبًا مارداً رسم في الحياة | (3) ليس يُخفي عالمُ ذات الإله السابق، ص 165. |
| (4) في دماء خُرُكي يُنهى حياته | (4) رجل الله رأى بالله ذاته السابق، ص 175. |
| (5) غير أن ذلك في ذات طواه | (5) التجلي كان هذا من رآه السابق، ص 250. |
| (6) عش بأنفاس لمن غنى الأغاني | (6) «لزم الذات» بها الرومي حياته السابق، ص 250. |
| (7) فتن الدنيا، حبيبي، ما رأيت | (7) نظرتي أمعنت في ذاتي طويلاً السابق، ص 251. |
| (8) سره السر العظيم سنته | (8) ذاتك وانظر إن هذا رؤيته السابق، ص 263. |
| (9) فكانت مظهرًا جاز الحدودا | (9) وجود الله أكسبها الوجودا السابق، ص 489. |
| (10) مع العشاق كان على وفاق | (10) وهذا العشق يزكو بالفراق زبور العجم، ص 385. |

الأسرار. ولا يمكن كتمان الهوى الذي تفضحه الصرخات. فلا سر في الحب. الحب طريق يعلن عن قرب الوصال⁽¹⁾. وعيون الذات دافقة من خلال الدر والصدف دون تصنع أو تكلف. لها أسلوبها في البحر والشوق، في الفراق والوصال. وذلك من تواضعها وحسن سجيته⁽²⁾.

ج - الجنون

والجنون درجة من درجات العشق في مقابل العقل. هو الحماس والإقدام والحزم دون حساب المكسب والخسارة. وما يعده الناس جنوناً هو عين العقل. وما يعدونه عقلاً هو عين الجنون⁽³⁾. القلب من تحرّقه ضياء. والعين تكشف عن البكاء في انعكاس النور عليها. ثم زاد صوت الحياة. يعتبر العشق مساً أو جنوناً⁽⁴⁾. ليس الجنون سداً في البيداء. فالهيام في الطبيعة طريق إلى إصلاح المجتمع كما هو

- (1) قفزة واحدة من عاشق أنت إن حاولت كتمان الهوى صرخة الحب التي تملكني رغم ما تطلقه من حيرة هي عندي وكما أعرفها جناح جبريل، ص 418.
- (2) عيون الذات دافقة بغير تصنع منها إذا كانت لها أسلوبها في البحر والشوق وذلك من تواضعها السابق، ص 435.
- (3) فلست أرى في بيدك اليوم جنة ومزقُ الجيوب وأنت خال في جنونني لك أسرار بدت أبعثُ الدرس عن حماك جنونا إن في حلقة المجانين عقلا ضرب الكليم، المدخل ص ع - ف.
- (4) بقلبي من تحرّقه ضياء فزاد من الحياة نوى غبي رسالة الشرق، ص 263.
- تجعل الأسرار في جبة كان فضحته صرختي عند الصباح لم تدع للحب سرا لا يباح صرخة التائه من غير دليل دعوة تعرب عن قرب الرحيل خلال الدر والصدف ولا وجل ولا صلف وإذا كانت لها أسلوبها في البحر والشوق وذلك منتهي الذوق تشب بهذا العقل نار التقدم جنونني لا ألومك في قصور فاجزني يا شيخ عن هذا اللم قال للعقل: لا تلذ بنقاش في شرار يرى لهيباً مضياً ويجلو النور في عيني البكاء يقول: العشق مس أو هراء

الحال عند الفارابي في «المدينة الفاضلة»، وابن باجه في «تدبير المتوحد»، وروسو في «نزهة متوحد»⁽¹⁾.

لا يفهم العصر ولا يتحمل حوادثه إلا الجنون. والجنون عطاء مثل الطبيعة سخاء. الجنون درع وليس ثوباً مرقعاً. والعقل شح، والطبيعة لا تشح⁽²⁾. وهناك آلاف من الطرق يحزن الإنسان على حيرته في اختيار أحدها. وسكرة القرب وصراخ الوجد تجعله في دهشة. حالة الحب والسكر تتجاوز إدراك الحقيقة. فالقلب يدرك كل جمال إذا وصل هواه إلى درجة الجنون⁽³⁾. وهذا هو الفرق بين بني تيمور الذين ضاعوا في تراب السند وآل عثمان الذي ارتفعت هاماتهم فوق الصخور. بل لا يليق الجنون. فالعصر لم يعد يتحمل عصر الوجد والجنون⁽⁴⁾.

وقد لا يبلغ العلماء درجة تأسيس العلم على الإيمان. يتذوقون حلاوته وعمق تأمله. فأسرار الإيمان تتجاوز حدود العلم. وجماله وراء تجمله⁽⁵⁾. فلا يجدون أمامهم إلا الجنون. العقل حجة على الجميع، مصباح منير للكل. ثم يصيب العقل الجنون. فيتحول الإنسان العاقل إلى الإنسان المجنون، وتعبير نيشته

- | | |
|-----|--|
| (1) | ما جنون العشق في البيداء سدى
السابق، ص317. |
| (2) | بجنوني فهمت عصري تماما
أليس الدرع من نسيج جنوني
إن شح الطبيعة يوم هذا
وهي من طبعها السخاء |
| (3) | أنا حزني على هجري تبيدي
بسكرة قربه، بصراخ وجد
ومن يك شأنه حبا وسكرا
رجعت به، بدهشته السحيقة
تجاوز حد إدراك الحقيقة
إذا كان الهوى كان الجنون
بنو عثمان أتراك كذاكا
وصخر أولاء مرتفع هناك |
| (4) | جناح جبريل، ص452.
ففي رداثي الذي تمزق سر
لا يليق الجنون فالعصر هذا
من يقايا الأسرار يكشف بعدي
ليس عصرا لدي جنون ووجد
السابق، ص465. |
| (5) | لا تبلغ العلماء باطن مؤمن
أسراره فيما وراء حدودهم
ومذاق رغبته ولطف تأمله
وجماله فيما وراء تجمله
السابق، ص455. |

يتحول أبولو إلى ديونيزيوس. ثم يتحول الجنون إلى إيمان. والمؤمن الحق ميراثه الكون⁽¹⁾. فالجنون نهاية مطاف العلم والعقل والشوق.

د - الحب

الحب جوهر الحياة. يغني نشيد ألحانه. يحيي بها التراب. ويعطيها بعض ألوانه. يعزف على أوتار الأرض. ويملاً جوهر الإنسان⁽²⁾. تطلع العقل ووجد القلب شرارتان من الحب⁽³⁾. وإذا قام السلوك الإنساني على الحب فإنه يكشف للعبيد أسرار الملوك⁽⁴⁾. الحب هو الذي يروي العطش للجميع⁽⁵⁾. هو الذي يجعل الذات تتجلى، وتعلن عن نفسها كأسرافيل⁽⁶⁾.

الحب هو الذي يعطي اليقين، يقين إبراهيم وهو في نار نمروود. سره الشكر. وقصاراه اللوذ بالنفس والعكوف عليها⁽⁷⁾. الحب لغة الناس أجمعين، وليس لغة

- | | |
|---|---|
| (1) إلا وللعقل مصباح بمذهبه
لعله هو أيضا أن يُصاب به
ولم يكن من خصوصيات إنسان
ميراثه وأنا لولاك برهاني | العقل حَجَّتْنَا طرا فما أحد
هذا الجنون؟ ومن يدري حقيقته؟
العقلُ عند جميع الناس منهجُه
والمؤمنُ الحق هذا الكون أجمعه
السابق، ص 457. |
| (2) بغني نشيدة ألحانه
ويمنحها بعض ألوانه
ويملاً هيكل إنسانه
بسيقان زهر وقفطانه | هو الحب يمضي جبال الحياة
ويرسلها في وجوه التراب
يغلغل في الأرض أوتاره
كما يتغلغل لين النسيم
السابق، ص 430. |
| (3) شرارتان من لهب الحب | تطلع العقل ووجد القلب
السابق، ص 445. |
| (4) يكشف للعبيد أسرار الملوك | تدخُل الحب بأطوار السلوك
السابق، ص 449. |
| (5) كمثلك عطشان لم ترتو
ولكننا فيه لم ننضو | أنا لم أزل عطشا ما ارتويت
هو الحب أسمى صعود لنا
السابق، ص 454. |
| (6) في الناس ما يطلق إسرافيل | وإن أضاف الحب عوننا أطلقت
السابق، ص 454. |
| (7) من خليل بنار نمروود يمस्क | اليقين اليقين جلسة حب |

الترك والعرب المملوءة بالطرب. بل إن الابتعاد عن لغة الحب الخاصة تكشف لغة الحب الدفين⁽¹⁾.

الموت لا يمحو رجال «الله» من الوجود. فقد تلون الحب في دمهم بالثبات والخلود. ومهما كان عنف العصر وجبروته فالحب أقوى منه، بالرغم من لطف سبله، وقوة ما يجرفه. لا يستقر الحب في الأمس والغد بل في كل الزمان. ومع ذلك الحب وثبات في أوقات الصفا، لحظات الإلهام والوحي على القلب، قلب الشاعر وقلب النبي. وكان الفيلسوف قد ادعى ذلك من قبل. الحب يخلع إزار الجمال والنسيم بفك أزراره. هو قائد الجيش في ساحة الوعى. هو المشرع والفقير في المسجد. ليس متسكعاً خلف الهوادج والقوافل، بين المنازل والمراحل. الحب ليس مغنياً بل هو مبدع الأغاني. أوتاره نور الحياة. وقوسه نار المعاني⁽²⁾.

= سره أن تقوم لله شكرا وقصاره أن تلوذ بنفسك
السابق، ص466.

(1) لغة الترك والعرب لكن الحب لم يكن حبه البعد عنهما حبه الحب إنه
عذبة ملؤها الطرب ملك ترك ولا عرب حبه كنزه الدفين لهجة الناس أجمعين

السابق، ص461.

(2) الموت لا يمحو رجال الله من هذا الوجود الحب في دمهم تلون بالثبات وبالخلود مهما يكن جريان هذا العصر جبارا عنيفا فالحب يجرفه ولكن سبله يبدو لطيفا الأمس والغد ليس وجهتنا التي نسعى إليها الحب أزمنة بلا أسماء نطلقه عليها ما الحب؟ ما هو؟ إنه وثبات أوقات الصفا لعب النسيم بها عليه فقطعت أزرارها الحب فني ساح الجيوش هو المقدم والنسيبه والحب في الحرم الشريف هو المشرع والفقير أسأل به متسكعاً خلف الهوادج والقوافل بين الألواف من المنازل والألواف من المراحل الحب ليس مغنيا الحب إبداع الأغاني أوتاره نور الحياة وقوسه نار المعاني

السابق، ص478.

الحب طفل لعوب. يصفع الشخصية بهمس في الآذان ابتعد⁽¹⁾. أما حب الأعداء فأكثر من إكسير. مهمته تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، في حين أن الحب يحيل الانفعالات الدنيا إلى نفسها. وقد أصاب المسيح وبودا في إدراكهما طبيعة الحب، ولكن في حرصهما على المثالية الأخلاقية نسوا حقائق الحياة. فمن الصعب على أحد حب أعدائه باستثناء الصفوة، بعض الأفراد المتميزين، ولكنه ليس مبدءاً للأخلاق القومية. وإلا كان يمكن أن تتغير نتائج الحرب اليابانية الروسية لو سلك اليابانيون طبقاً للمبادئ الأخلاقية المستمدة من دينهم⁽²⁾.

6 - حرية الاختيار

أ - الإنسان حر

الإنسان حر غير مجبر، ومخير وليس مسيراً. لذلك ينقد إقبال مثل الأفغاني من قبل عقيدة القضاء والقدر التي عمت الكلام والفلسفة والتصوف. المؤمن الحر هو مقياس الصلاح والفساد، والبقاء والفناء في الدنيا والآخرة⁽³⁾. الثبات والجماد يخضعان لقوانين الطبيعة، ولكن المؤمن الحر لا يقيد إلا الالتزام بالشرعية أي بالفطرة⁽⁴⁾.

ويقدم إقبال «ضرب الكليم» ببيتين عن الحرية. فالحرية هي فطرة الحر التي لا تطبق القيد. هي مثل العين التي تشق الصخر بعد غوص في الذات كما فعل موسى الكليم عندما ضرب الصخر فانشقت منه العيون⁽⁵⁾.

St. Ref., p. 153.

(1)

Ibid., pp. 67 - 8.

(2)

وهو في العالمين كالميزان

فيه عزم على القضاء مشير

ضرب الكليم، المدخل ص ك.

(4)

من القضاء قيود ذات إحكام
لكن لخالفه في قيد أحكام

إن النبات وإن الجامدات لها
والمؤمن الحر لا شئ يقيد

السابق، ص ك.

(5)

فألف السير دائماً كالنسيم
بعد غوص في الذات ضرب الكليم

فطرة الحر لا تطبق مقاما
ألف عين تشق صخر ك فاضرب

السابق، ص 2.

شرط الحرية عدم ربط القلب وفك علاقته حتى تتحرر الذات من كل القيود. فتصبح كريح الصباح تطوف وتمضي وتلقح الزهور⁽¹⁾. وإذا كانت رجل في الأرض فالأخرى طليقة للحركة في الدنيا. فالإنسان على الأرض ويرنو إلى السماء في آن واحد⁽²⁾. الإنسان نحات يصنع الوجود بيده، بأزميله في صخر، وبالهام وبمصادفة ليست من صنعه. الإنسان حر في عالم ضروري⁽³⁾. وفي حوار بين النسر والسمكة، تشكو السمكة من حبسها في الماء وعدم قدرتها على الطيران حتى ولو كان الماء مملوءاً بالجواهر. الماء في كل مكان، ولا يوجد إلا الماء تسبح فيه. وهي مضطرة. ولا يمكنها الهرب حتى في أوقات المد. ويزهو النسر بوضعه في السماء وبأنه ينظر إلى الأرض من عل، ولكن للأرض سحرها وجمالها وتنوعها. فكل منهما يبحث عما يفقده عند الآخر⁽⁴⁾.

ويسأل إقبال معلمه ومرشده الأكثر علماً بأنه ضاع من قلة علمه لأنه لا يعرف هل هو مجبر أم مختار. ويجيب الرومي بأن الشاهين يبدو كالغراب، ولكن ريشه يصبح تاجاً. في حين يتحول ريش الغراب إلى تراب. يبحث الغراب عن المعنى لأن ظفره يدفعه إلى ذلك، في حين أن الشاهين لا يأكل الجيفة. لا يطعم إلا مما تصنعه يداه. فالإنسان مخير لا مسير⁽⁵⁾. يدأب الحر نهاراً وليلاً. وبين يذاته صرحاً علياً. فالذاتية تساهم في بناء الحرية. كما أن الحرية تساهم في خلق

- (1) بهذا المرج ما علقْتُ قلبي
كريح الصباح طفْتُ به قليلاً
رسالة الشرق، ص 266.
- (2) بسلسلة القضاء ربطت رجلا
فقم إن كنت في ريب وحاول
السابق، ص 268.
- (3) لنا كون لأزميل ونحت
مثال من تُراب لم يكتمل
السابق، ص 269.

A message from the East, pp. 79 - 80. (4)

- (5) قال: يا هذا الذي يسهم في وجد الكبار
ضعتُ من قلة علمي بين جبر واختيار
قال: يا إقبال! ما الشاهين؟ يبدو كالغراب
ريشه يصبح تاجاً ريش هذا للتراب

الذاتية⁽¹⁾. وتجربة المصطفى شاهدة على ذلك⁽²⁾.

الطين والروح رمزان للجبر والحرية، لفرعون وموسى. والتحرر ورمزه رستم أو علي بن أبي طالب تحول من الجبر إلى الحرية⁽³⁾. وتستطيع الذات أن تولد بعيداً عن القيود. لا تولد من ماء وطين بل من الفؤاد. الأول جبر، والثاني اختيار. هذا ظاهر وذلك باطن. أحدهما بكاء، والآخر ابتسام. الأول وسيلة، والثاني غاية. الأول سكون في المكان، والثاني حركة في الكون في كل الجهات. الأول باللسان. والثاني بالروح⁽⁴⁾. والجبر بمعنى قوة العزيمة وحسن التقدير والهمة والقوة التي تهد العالم وتبنيه من جديد. يدفع إلى البطولة والخلود، وليس إلى الموت والفناء. وهذا هو معنى الحرية، وكما قال الأفغاني من قبل في رسالة «القضاء والقدر»⁽⁵⁾. ويعتذر

ظفـره عبء عليه
أكله صنع يديه

= يطـلب الموتى غراب
وترى الشاهمين يمضي

جناح جبريل، ص 526.

ثم بيني ذاته صرحا عليا
وسجايا المصطفى ميزانه

(1) يدأب الحر غدوا وعشيا
وجهاد المصطفى برهانه

يا أمم الشرق، ص 361.

مر يوما ما على وادي النحل
وأنا في شقوة العيش المذل
قوتي مثلك في هذا التراب
للسموات التي فوق السحاب

(2) قالت النحلة للنسر الذي
أنت ترعى في بساتين النجوم
قال: لكن أنا لا أبحث عن
لست ألقى نظرة حتى ولا

السابق، ص 550.

نور موسى بليلة البرد اطلب
رستما لي وسيد الأسد اطلب

(3) ذاك فرعون أرمض النفس جورا
ورفاق كرهت منهم خصالا

جاويد نامه، ص 146.

وتفك عنك هاتيك القيودا
ما دراه قـط إلا ذو فؤاد
طاهر هذا وذا خلف الستار
باحث هذا وللثاني المرام
ذاك قـط لا يسير في الجهات
ذاك بالروح وهذا باللسان

(4) بولاد أنت قد تمضي بعيدا
ليس من ماء وطين ذا الولاد
ذاك من جبر وذا بالاختيار
بالبكا ذاك وذا بالابتسام
ذا سكون، سيره في الكائنات
ودليل العالمين في الآذان

السابق، ص 149.

يفزع الشيطان منه والردى
والقوي عند رجال في القمم
والغريـر منه في أعماق قبر

(5) من له التقدير سهم سدا
كان جبـرا دين أصحاب الهمم
الحصيف زاد في عقل بجبر

الحلاج عن المعني السلبي للقضاء والقدر. وهو أنه قيد. قد يؤدي العلم إلى الجبر، ولكن العشق يقود إلى الحرية. ولو صبر العلم وتحول من الظاهر إلى الباطن لأدرك الحرية. فالضرورة والحرية بيد الذات وقواها الإدراكية، العقل أم القلب⁽¹⁾.

وبعنوان «عبودية» يرى إقبال أن العبودية قصر نظر. هي تخل عن شيء دفين في الإنسان وتسليمها إلى الملوك. وبسبب هذه العبودية والتخلي عن الحرية أصبح أسوأ من الكلب. ولن يدعو كلب بوله كلباً آخر باسم يا إلهي أو يا سيدي⁽²⁾. الإنسان عبد مقيد بسلاسل. ينال حرته. وهذه القيود الحديدية حول عنقه ليست قيوداً أبدية. فالإنسان في عالم الضرورة الاجتماعية، وقادر على أن يعيش في عالم الحرية⁽³⁾. الإنسان آلة في يد القدر ولكنه يقابل ذلك بالحرية الباطنية. ويكونا للحنان نغم الوجود⁽⁴⁾. يستطيع الإنسان أن يكون حراً في الحياة وشعابها المتشعبة. يستطيع داخل الرضا أن يكون حراً. فالحرية في القبول والرفض⁽⁵⁾. وانفعالات العبد لا تخطئ. فالحياة لا تسمع صوت القش بل صوت النار الذي تحرقه. الحرية نار في قلب العبد، تحرق عبوديته⁽⁶⁾. والعبد الذي يطلق سراحه مازال في حاجة إلى العشق كي ينير له الطريق وحتى يطبع العقل الإرادة⁽⁷⁾.

كل ما في العالم من كائنات حية عبید أسرى أو أسرى عبید. وطالما أن الإنسان كائن في هذا العالم فكيف يتحرر؟ وقد تقرر من الأول أن تطيع الشمس

=	خالد بالجبر هد عالما الرضا من شأن ذئك البطل
	السابق، ص 256.
(1)	مذهب للعلم كان وهو جبر كان مجبوراً وحراً قلبنا
	السابق، ص 255.

- A Message from the East, p. 95. (2)
- Persian Psalms, p. 4. (3)
- Ibid., p. 11. (4)
- Ibid., p. 13. (5)
- Ibid., p. 38. (6)
- Ibid., p. 123. (7)

والقمر الإنسان، ولكن الإنسان لا يعرف ماذا يفعل؟ يستطيع أن يأخذ قنينة خمر من الحان يعطيه فقيراً بارداً فينشأ العالم من جديد⁽¹⁾. رسالة الإنسان الاجتماعية طريق التحرر. هناك عبودية في الظاهر، العبودية للملوك وللإقطاعيين والأسياد، ولكن هناك حرية في الباطن، العبودية لله وحده. فالعبودية لله تعني التحرر من عبودية البشر⁽²⁾. وعندما يأتي الإنسان ليحرر العبيد من القيود فإنه يرى من نافذة حائط السجن العالم كله. فحرية الفردية رؤية للعالم⁽³⁾. كل إنسان ينير مصباحه من ذاته بعد أن أخفاها أتباع موسى تحت الجماعة الإثنية المغلقة⁽⁴⁾.

المستعبد ليس حيا. ولا يدين إلا لمن بيده رزقه. لا يوجد إنسان سيد لإنسان، بل الكل عبيد الإله. في ضمير الحر تكبير الإله، وفي جبينه تقدير الأمم. موته أعلي مقام ترفع الدنيا لذكراه العلم. في نهضته مسالم، وفي إصلاحه يبني العصر. يذيع الخير في الأمة كما ينشر الروض عطره. ويوم الحرب في الساحة يحفر قبره بسيفه. يتحدى الموت في وثبته. ويتم له النصر بعزيمته. غرس الحق في القلوب غير الغرس في ماء وطن. في الغرس الأول المجد لأحرار الشعوب. وهم في الدهر أعلام اليقين⁽⁵⁾.

شريان الحر صلب كشريان الحجر. وشريان العبد رقيق كشريان الكرم. قلب

Ibid, p. 56.

Ibid., p. 82.

Ibid., p. 114.

Ibid., p. 115.

لسوى من في يديه رزقه
ما خلا ربي فكلُّ عبده
في جبين الحر تقدير الأمم
ترفع الدنيا لذكراه العلم
بيد الإصلاح يبني عصره
مثلما ينشر روض عطره
سيفه يحفر فيها قبره
أو يتم العزم فيها نصره
غير شأن الزرع في ماء وطن
إنهم في الدهر أعلام اليقين

ليس حيا من يُرى مستعبدا
سيد من ليس يرضى سيذا
في ضمير الحر تكبير الإله
موته أعلى مقامات الحياة
هو يوم السُّلم في نهضته
ويذيع الخير في أمته
وهو يوم الحرب في ساحته
يتحدى الموت في وثبته
إن غرس الحق في نور القلوب
فالتمس للمجد أحرار الشعوب

يا أمم الشرق، ص366.

الحر مملوء بالحرارة، ويبعث على الطرب. وقلب العبد ميت بائس. ثروة الحر قلب مضىء، وهي حامية. وثروة العبد عين دامية. الحر شهيم وصاحب مروءة. والعبد غريب عنهما حتى ولو كان بارعاً في البراهين المنطقية. فالعبد ليس ندأ للحر. هو عبد للأفلاك، والحر سيدها⁽¹⁾. يجعل الحر الحق مصيره. ولا يبيع ضميره لمخلوق. ومن جعل الروح وفيأ لله صان قومه من القيد، ويده من الأغلال⁽²⁾.

للأمة متعة الدنيا كل المرام. وتنتهي إلى اليأس والموت والظلام. أما الحر فهو جهاد وثبات في الحق. والموت أحد المقامات. تبنى الأمة قصوراً في الخيال. وترى الممكن مستحيلاً. أما الحر فهو يعمل في كل مكان. ولا يضيع العمر في وهم الخيال. يحول الصخر بحاراً جارية⁽³⁾. والخير في صحبته. والشر في صحبة أهل البور. صحبة الحر خير من ألف كتاب. تنير العالم. منه تخلق آدم. هو البحر الذي يغني عن الجدول. سلام في أوطانه، يغير في عمرانه. يحيي عصره بجديد الفكر كما ينشر الروض العطر. وهو بركان في ساعة الوغى. يحفر قبره بسيفه حتى ينصره الله. زرع القلب في ماء وطين لأصحاب اليقين. والحر هو هادي الأحرار⁽⁴⁾.

(1) أرمغان حجاز، ص 539.

(2) فاز حر جعل الحق مصيره
من وفى لله روحاً ودماً
يا أمم الشرق، ص 345.

(3) متعة الدنيا لنا كل المرام
هو في الحق جهاد وثبات
إننا نبني قصوراً في الخيال
وهو بالأعمال في كل مجال
لورمى شتم الجبال العاتية
اجتنب صحبتنا واسعد به
السابق، ص 364.

(4) الزم الحر ودع أهل الجوار
صحبة الحر إلى العلياء باب
صحبة الحر تنير العالم
قربه للعرز أصفى منههل
هو يوم السلم في أوطانه
بجديد الفكر يحيي عصره

والاختيار هو مقياس الحساب، وليس الجبر. فالاختيار مسؤولية، والجبر إعفاء للمسؤولية. والاعتذار بالقدر غير مقبول يوم الحساب. أما المشايخ فهم الذين يروجون للقدر لأنهم عاجزون عن الفعل، وتبرير الكسل⁽¹⁾.

ب - وهم القضاء والقدر

الوقوع في أسر القدر يؤدي إلى الموت. ولا يعتذر بالقدر إلا الجاهل. ولقد ثار الروس والألمان بحرية الإسلام. وتحرر الشرق من استعمار الغرب. ولم يكن كلاهما مقدر⁽²⁾. أصبح المسلم غريباً عن كل دار. يعافي الدنيا من الغبار. ويحيل عجزه على الأقدار⁽³⁾. أصبح المسلم خالياً من العمل بعد أن اختلق القدر واعتذر به⁽⁴⁾. التقدير اسم للاعتذار عن الأعمال. والذات هي التي تحدد أقدارها⁽⁵⁾. ولا تنسب أفعالها إلى الأقدار⁽⁶⁾. الذات خارج التقدير وإلا تحولت

- = وهو يوم الحرب في ميدانها
ليس زرع القلب في ماء وطنين
إن أردت العيش حراً صافياً
السابق، ص364.
- (1) سيوزن كل شيء يوم حشر
فماذا في غد يا ليت شعري
ولي شيخ من الرهبان قالاً
بتقدير لكم عمر سيفنى
أرمغان حجاز، ص490.
- (2) قل لماذا كنت في أسر القدر
أعذر الجاهل بالجهل اعتذر
ثورة للروس والألمان كانت
دبر الشرق وهذا الغرب دبر
جاويد نامه، ص320 - 321.
- (3) غريب، مسلم، عن كل دار
وهذي لوعتي من فرط عجزى
أرمغان حجاز، ص444.
- (4) السابق، ص542 - 543.
- (5) وذاتك فاملكنْ تعش سعيداً
السابق، ص459.
- (6) إلى الأقدار لا تنسب أمورا
وكان الله وهاباً غفوراً
السابق، ص486.
- ثورة البركان في نيرانها
هيننا إلا لأصحاب اليقين
فالتزم في الدهر حراً هادياً
- لدى الإنسان من جحر وقصر
أيرضى الله عما سوف يجري
كلامي ذاك ألق إليه بالاً
سُنقتل نحن بالتدبير طالا
- لا تموت وأموت ما الخبر؟
والنقاب ارفعه عن وجه القدر
خفقة الأرواح في الإسلام بانث
قل أجنبي ما الذي كان المقدر

إلى عدم⁽¹⁾. ولماذا تكون الشكوى من تقدير الله ولا تكون الذات نفسها قدر الله؟⁽²⁾.

وفي حوار بين الخالق وإبليس حول القدر، يرد الخالق على إبليس. ويفند احتجاجه بالقدر لتبرير فعله في عصيان الخالق ورفض السجود لآدم. علم الله المسبق بعصيان إبليس وإرادة الله الشاملة لإرادات البشر يجعله غير مسؤول عن أفعاله. ويرد الخالق بأنه حر مختار مسؤول، أن يسجد أو لا يسجد. فهو مختار لا مجبر، مخير لا مسير. اعتبر الحجر والشعلة فيه مجرد رماد⁽³⁾. وفي قصيدة «قهر الطبيعة»، يصور إقبال قصة خلق آدم ورفض إبليس السجود له. فقد خلق آدم. ورفض الشيطان السجود له. فلم يسجد طاعة العبيد الذين يصلون دائما. ويحكم العالم دون تخويف بنار أو بيوم آخر. وكان لآدم بعض العلامات وقت خروجه من الجنة، وهي أن الحياة لهيب، ورد محاط بالأشواك، وضرورة فتح النوافذ والأبواب حتى تخرج الطيور إلى الحدائق والرياض. وتمرح في السماء بين السحب. فزهرة واحدة في الحديقة خارج القصر تساوي القصر كله. وفي اليوم الآخر، يقف آدم أمام الله مطيعاً كظواهر الطبيعة. أما الإنسان فإنه لا يطيع إلا بفعل المحبة كما قال الشاعر «إن المحب لمن يحب يطيع». فالإنسان طين وروح، بدن

(1) وفي عدم تعلم كيف تحيا وزد ذاتا من التقدير هيا

السابق، ص 495.

(2) السابق، ص 533.

(3) إبليس: يا إلهها أمره كن

لم يُصّب آدم مني

ويل غر، من زمان

كيف أستكبر عن

كان في علمك أني

الخالق: هل عرفت السر هذا

إبليس: بعد! يا من من تجليه

الخالق(ناظرا إلى الملائكة)

خسة الفطرة فيه

قال: ما شئت سجودي

ذلك الظالم سمي

إنه سمي رمادا

ضرب الكلم، ص 31.

ونفس، جسم وقلب⁽¹⁾. وإذا كان القضاء والقدر سيحولان الإنسان إلى مجرد بكاء شاكي للقمر فعليه أن يترك ما هو فيه، ويضع جيبرة في عظمه حتى يقوى عودها وتشتد⁽²⁾.

لقد قام إبليس بعمله، وهو أنه نصب شباكه كصياد. ولم يقيم الإنسان بعمله في الهروب من شبكة الصياد⁽³⁾. فلماذا لم يصعد الإنسان إلى السماء حتى لا يصطاده الصياد في الأرض؟. فمن المخطئ ومن المصيب، إبليس أم آدم؟ كانت صحبة آدم لإبليس وبالاً عليه. وكانت صحبة إبليس لآدم وبالاً عليه أيضاً. طين آدم لم يعطه الكبرياء أو الإباء. فأضاع نفسه وانتهى إلى الفناء⁽⁴⁾. أثبت ذاته، ونفاها آدم. كان إبليس صاحب العزيمة، وآدم خارت قواه. أنكر الإنسان ذاته فأفنى نفسه. وفي النهاية، إبليس هو الذي مارس حرته. وآدم هو الذي اعتذر بقضائه وقدره⁽⁵⁾.

كان إبليس مختاراً لا مجبراً في اعتراضه على السجود لآدم⁽⁶⁾. لقد استعمل إبليس حرته وفقدتها ابن آدم لأنه طواع غواية إبليس. فإبليس أعظم من آدم⁽⁷⁾. من القضاء

A message from the East, pp. 41 - 8.

(1)

Persian Psalms, p. 105.

(2)

إن بدوت في مصادي نلتَ سهما
يغلب الصياد صيد في الذكاء

يرصد الصياد ما يرميه حتما
ما هوى من طار في أوج السماء

جاويد نامه، ص 269.

(3)

صحبة الإنسان لي كانت مصابا
أغمض العين وذاتا لم يُصادف
لا ولا معنى لنار الكبرياء
ويخر إن ضربت ضربتي
حسبه مني الشرار للفناء
رجل الله الطريق نحوه افتح

ربّ من أخطأ وربّ من أصابا
ذلك الإنسان حكمي لم يخالف
طينه لم يذُر ذوق للإبواء
وضعيف العزم فجع الفطرة
ما هو الإنسان؟ ضغث من غشاء
منكر الذات أريد منك فامنع

السابق، ص 270.

(4)

في انهزامي متعة كانت لديا

يا إلهي فلتهب حُرا أبيا

السابق، ص 270.

(5)

بعد جبر قد هداه الاختيار

من مروجي نبتت نار ونار

السابق، ص 268.

(6)

ثم قلتُ: أنت فلتختر لنفسك
عقدتي حُلّ ودبر أمرها
أنت عصيانا لشيطان أبحت

إنني أظهرت قبحي، قم بشأنك
تلك ناري صدّ عني حرّها
أنت يا إنسان في أسري دفعت

والقدر تنشأ الحرية⁽¹⁾. ومن عالم التقدير يتحقق المرام. ورجل الله هو الحسام⁽²⁾.

ويعطي الله والشيطان الإنسان الفرص من أجل الاستفادة منها بأي طريقة يشاء. والتفكير في الشيطان يؤدي إلى ظهوره. وهذا أيضاً يصدق على الله. وهذا هو معنى المثل الشعبي «اللي يخاف من عفريت يطلع له»⁽³⁾.

واعتماداً على الشخصية والخيال الخصب الخلاق، يمكن إعادة بناء عالم الخطيئة والشقاء كجنة فعلية. من وجهة نظر الخطيئة، الخطيئة أفضل من التقوى. ففي الأولى عنصر خيالي أكثر من الثانية. والألم هبة من الآلهة حتى يدرك الإنسان الحياة في كليتها. ولا يوجد نسق ديني ينكر القيمة الخلقية للألم. وخطأ مؤسسي المسيحية أنهم أسسوا دينهم على واقعة الألم بمفردها. وجعلوا القيم الأخلاقية للعوامل الأخرى. ومع ذلك كان هذا النسق الديني ضرورياً للعقل الأوربي من أجل إكمال المثل الأعلى اليوناني كما قال جوته، ولكنه كان يكشف عن الجانب المنهجي في الألم الذي قدمته المسيحية⁽⁴⁾.

وفي فلك المريخ في «جاويد نامه» موضوعان رئيسيان: القضاء والقدر، والمرأة. الأول خاص بالشرق والثاني بالغرب. ويبدأ زندرود بالدفاع عن القضاء والقدر الذي يرفضه حكيم المريخ⁽⁵⁾. فإن كان القضاء شراً فليطلب الإنسان خيره من غيره. والذات قادرة على أن تستعيد قدرتها بنفسها. هي تراب يطير في الهواء

= وهماما كن ولا تخش الخطوبا
السابق، ص 268.

(1) أنت قلت: كل شئ بالقدر
قد أسأت الفهم يا هذا كثيرا
وقضاء الله كان عزمه
السابق، ص 257.

(2) من رجال الله، كن سيفا حساما
السابق، ص 318.

St. Ref., pp. 134 - 45. (3)

Ibid., pp. 102 - 3/108/115 - 6. (4)

(5) القضاء إن عدمت خيره
بسؤال الله كن أنت الجديرا
كل مال الذات في قوم هدر
رمزه حرفان، هل أدركته
من إله الكون فاطلب غيره
يملك الله الكثير والكثيرا
إنهم لم يدركوا معنى القدر
«إن تغيرت فقد غيرته»

أو حجر يكسر الإناء. هو ظل فوق زهر، وبحر دائم الخلود. هي ذات - إله. تجمع بين العقل والإيمان. قد ينال المال بالجهد وبدونه. والفقير لا يحتاج لكليهما. الجبر والصبر قرينان. الجبر يجعل الإنسان يصبر على ما يصيبه من شرور. وهو سم قد بدر. يجعله يقبل الظلم⁽¹⁾.

لذلك يرفض إقبال عقيدة القضاء والقدر باستمرار كما فعل الأفغاني من قبل. يستنبطها القاعدون من القرآن فتخلفوا. والأحرار استنبطوا الحرية أيضاً من القرآن فسادوا العالم. ورضي القديرون بما يكرهونه استسلاماً لها⁽²⁾.

وحرية الفكر أمر إلهي وليست فقط من مكتسبات الحضارة الغربية. وإذا كان القرآن يحتمل الوجهين فالأولى أخذ الوجه الذي يؤكد حرية الفكر. فهي أحد مطالب العصر⁽³⁾. وحرية الذات نتيجة تحررها بفعل التوحيد. وأنعتاق العبد من الدنيا تحرر له بالآخرة⁽⁴⁾.

حجرا كن بك تحطيم الإناء!
أنت بحر، فالخلود كل دهر
ما ثبت، فلتعلمك الثباتا
عالم الأفكار فيه كان حبسك
وعديم الأبن موفور النسب
فيزد في فقره هذا الفقير

=
كن ترابا لتطير في الهواء
أنت ظل، فالسقوط فوق زهر
قد صنعت لك دوما أنت لاتا
أنت مالم ترفض الإيمان نفسك
قد ينال المال من يلقي التعب
كان هذا أصل دين يا غرير

السابق، ص 241.

حبذا الفقر إذا ملكا وهب
ذاك من يرضى ويهوى جبره
ليت قومي يعلمون، ويح نفسي

(1)
دعك من فقر به عري وجب
إن هذا من يديم صبره
يألفان الظلم مرا في التحسي

السابق، ص 276.

وبالقرآن قد ملكوا الثريا
وكان زمامهم قدرا خفيا
فما كرهوه صار لهم رضيا

(2)
من القرآن قد تركوا المساعي
إلى التقدير ردوا كل سعي
تبدلت الضمائر في إसार

ضرب الكلم، ص 9.

وحرية الأفكار من ربه أمر
فجدد لنا شرعا يلائمه العصر
فإسلامها عبد ومسلمها حر

(3)
ألا من يطيق اليوم نصحا لمسلم
وإن شئت فالقرآن تأويل لآعب
رأيت بأرض الهند أي عجيبة

السابق، ص 42.

رحمة الرحمن بالعبد استحق

(4)
وإن العبد من الدنيا انعتق

جاويد نامه، ص 163.

لا تقتل الذات ذاتها بذاتها. بل هي حرة في أفعالها بالرغم من خلقها من طين. وإثبات الذات أرضى الجميع لأن فيه إثبات للآخر. وقيمة أشعار إقبال أنها تعبر أيضاً عما في قلوب الأمم من خاطرات وهواجس⁽¹⁾. هل الإنسان في رحاب الفضاء سجيناً، دمه على وجنتيه؟ إنه إنسان حر يشهد بسر التجلي لطينته⁽²⁾. الذات حرة بالرغم من إطلاق «عبد الله» عليها. فالعبودية لله حرية من عبودية البشر⁽³⁾. الحر ينمو بذاته، ويختار أمره، ويقرر مصيره⁽⁴⁾.

كل إنسان يصنع مستقبله، ويخطه بيده. ولم يخط الله شيئاً على جبين كل إنسان. نفخ الله فقط النار في البشر، شباباً وشيوخاً. وقد يخرج من الصحراء فقير يحول الحصى إلى در. والفضاء فوق الرؤوس يسمى سماء، ولكنه تحت أجنحة العقاب أرض⁽⁵⁾.

والقدر يقضي على مساعي الأمم حتى ولو كان له منطق خفي⁽⁶⁾. بل إن

- | | | |
|-----|---|--|
| (1) | أنا من أجل هذا كله
أنا لا أجهل ما تقصده
السابق، ص 444. | باعتزال القصر محكوم علي
ومصير الكل معلوم لدي |
| (2) | لست يا أنت في الفضاء سجيناً
يشهد الحر أن سر التجلي
السابق، ص 445. | لست دمعا على منازل رسمه
بين صلصاله وهيكل جسمه |
| (3) | أنت عبد الله فالزم
ما عدا عز العبودية لله تسول
سيد الأحرار عبد
فاحفظ الذات وصنمها
السابق، ص 448. | ليس للحر تحول
حرم الله بذاته
إنها من عتباته |
| (4) | الحر يسمو في الحياة بذاته
بلهب أنفاسي التي أطلقتها
السابق، ص 449. | ويصوغ ما يختاره من أمره
شاهدت ما تخفيه أعماق القدر |
| (5) | إن يكن في الألوف رب يقين
ربما تنشئ الصحاري فقيرا
بيراع لك اكتبن لك حظا
ذا الفضاء الذي يسمى سماء
هو فوق الرؤوس يدعى سماء
السابق، ص 124. | نفخ النار في شباب وشيب
يخلق الدر من حصى في الجيوب
لم يخط الجبين رب الغيوب
ليس شيئا لدى العقاب النجيب
وهو أرض تحت الجناح الهبوب |
| (6) | ربما يبلغ اللثيم مناه | وينال الكريم ضيم الزمان |

الفرض في الذات يكشف عن الحرية وراء القضاء الذي قد يفسر تنافر الناس. الغوص في الذات هو الذي يعطي الأمل⁽¹⁾. ولا تتبدل الذات بدعوى أن القضاء يبدل. الذات هي نفسها، والقضاء يتبدل. الشراب باق، وتتبدل الأواني والسقاة. والغناء باق، ويتبدل المغنون والقيان. والرجاء باق، والمرجو يتبدل⁽²⁾.

وتفرد الحدوث من القدم على رأي الفلاسفة يتجلى في صفاء الشعور. والأفلاك لا حظ في دورانها. إذ يظهر السر في قوة الصرخة. وشرارة الذات تنبعث من الروح وإلا كان العشب ما زال ندياً لم يجف بعد. والقلب وهو في صلصاله ليل ونهار. ولن يخمد نار اللهب حتي يتحرر كل شيء فيها بالرغم مما يقوله مشايخ السكر أي الصوفية عن تدخل القدر وإرباكه خطط الإنسان. عظمة الإنسان أنه يحول الطين والصلصال الذي خلق منه إلى ذات حرة⁽³⁾.

- | | |
|---|---|
| ويرى دون منطق في العيان وجلاها التاريخ كل أوان نظرة كالحسام فيها مضاء | = علّ في منطق القضاء خفاء علم الناس ذي الحقيقة طرا نحو مسعي الأقوام يرنو القضاء السابق، ص15. |
| لست ولا أنت القضاء فصله دواؤه في الجروح أرسله | (1) تنافر الناس دائم أبدا في الذات عُضن، للزمان ذا أمل السابق، ص116. |
| بدعوة أن القضاء يبدل فجائز أن القضاء يُبدل رسم السُقاة والإناء يبدل ودعوتي أن الرجاء يبدل | (2) يجوز أن تبدل أنت، لا تخل إذا سرى في ذاتك انقلابها يبغى الشراب والغناء إذ ترى تدعو بتحقيق الرجاء جاهدا السابق، ص116. |
| للناس تعلنه نقاوة مهجتي فالسر مظهره جسارة صرختي أم أن عشبك ما يزال نديا تُذكي لهيبك بكرة وعشبا حتى يحرق كل شيء فيها فُضحت شيوخ السكر في ناديبها | (3) الحادث المحجوب قبل ظهوره لا حظّ للأفلاك من دورانها أترى بلا روح شرارة أنتي صرخات هذا القلب في صلصاله لن يخمد اللهب الذي في طينتي بالرغم من قدر قد ارتبكت به جناح جبريل، ص456. |

ج - الحرية الذاتية

والأقدار في يد الذات وبمحض أمرها. الأقدار قوة مستورة خلف الذات الظاهرة. فإذا ما خلت الذات إلى نفسها تصل إلى الخلود⁽¹⁾. الجبر وهم وظن. فلا روح بلا إرادة. مسار الذات من الجبر إلى الاختيار، ومن الأرض إلى السماء، ومن الطين إلى الروح. بهذا التحول تمتلك الدنيا كما يمتلك البطل النوق⁽²⁾. لا يسيطر القضاء على أفعال البشر. وأين قضاء الإنسان الذي تحت سيطرته؟⁽³⁾. كيف لا يستطيع المسلم وهو نور السماء أن يشرق في الأرض وهو سلطان الليالي متعذراً بالقضاء؟⁽⁴⁾.

الحكمة كلها في أن يعيش الإنسان حراً⁽⁵⁾. والحرية هي الحرية الذاتية، التخفف من علائق الدنيا وليس حمل همومها، وتحويل الحياة إلى تجارة، رأس مال وضرائب. يحقق الحر وجوده بكفاحه. ويعتبر تدخل الناس عاراً. فالذات ليست أجيرة في قصر غريب. وليست في واقع الحياة غباراً⁽⁶⁾.

- | | |
|--|---|
| (1) قيامات أقمتُ بمحض أمري
بدنيا الخلد أخلقها بدوت | (1) هي الأقدار تكمن خلف ستري
بذاتي برهة ها قد خلوتُ
زبور العجم، ص374. |
| (2) بغير إرادة روح تكون
وعن جبر إلى المختار تقدم
لها الدنيا كتلك النوق ساق | (2) وهذا الجبر وهم أو ظنون
تصول بعالم للكيف والكم
وذاك الجبر منه إن أفاقت
السابق، ص391. |
| (3) هذا قضاؤك أنت أين قضائي؟ | (3) رباه أين أنا وأنت وإن يكن
جناح جبريل، ص417. |
| (4) كيف لا تشرق في أرض البشر؟
قالت الحمقي أسير للقدر | (4) أيها المسلم يا نور السماء
أنت سلطان الليالي لا كما
السابق، ص419. |
| (5) في أن يعيش ويموت حُرا
نفوسهم كما يريد الذهب
ورأسمالهم من الضرائب | (5) يا أنت! ثروة الحكيم طرّاً
والآخرون جهدهم منتهب
أرواحهم ترزح في المصائب
السابق، ص453. |
| (6) ويرى في تدخل الناس عارا
لست في وقعة الحياة غبارا | (6) يصنع الحر كونه بجهاد
لست أجرة لقصر غريب
السابق، ص458. |

ولا تعتمد الذات إلا على ذاتها. ولا تسأل غيرها. بل تجتهد، تخطئ أو تصيب⁽¹⁾. وكل نور يُؤخذ من غريب يخبو تدريجياً. الذات شمس تستمد نورها من ذاتها، وليست قمراً يعكس نور غيره. كل شيء سوى الذات سراب⁽²⁾.

ويسمي إقبال «الجبر الذاتي» المعروف عن برجسون التسليم والرضا. ويعني الحرية الداخلية، الضرورة الباطنية⁽³⁾. فالإنسان حر بضرورة داخلية كشوق النبات لرحب الفضاء، وخروج الحب من ظلمة التربة كأن به جنون النشوء والنماء. حرية الإنسان من ضرورة فطرته. ومن ثم لا يترك السعي بحجة القضاء والقدر. لأهل النماء فضاء فسيح، في عالم واسع⁽⁴⁾. فالقضاء ليس قيداً بل الأحكام التي يضعها البشر. فالتقدير يوضع في غير محله لتبرير الكسل والعجز والإحباط والهزيمة. الكائنات الطبيعية تخضع لقوانين الطبيعة. والمؤمن الحر لا شيء يقيد ولا يخضع إلا لذاته وفطرته⁽⁵⁾. حرية الذات تحطم القيود⁽⁶⁾. والذات قادرة على مواجهة

-
- (1) لا تقل للدليل دعني لوحدي
لا يطيق الكريم ذل سؤال
السابق، ص446.
- (2) كل نور أخذته من غريب
قلبك الشمس فأقبس النور منه
كل شيء سواك أنت سراب
السابق، ص448.
- (3) وهي أيضاً رسالة زكي نجيب محمود للدكتوراه بعنوان «الجبر الذاتي».
- (4) على كل غصن تبين أن النبات مشوق لرحب الفضاء
فما قر في ظلمة الترب حب
فلا تبغ في فطرة ترك سعي
لأهل النماء فضاء فسيح
ضرب الكلم، ص35.
- (5) قيد الفضاء ترى أم قيد أحكام
في كل حين ترى التقدير في غير
السابق، ص44.
- (6) قوى للذات يوماً ما بللونا
وقيدا بعد قيدي حطمنا
أرمغان حجاز، ص487.

الفرعونية، والالتفاف حول نفسها كأفعى ترقص بانتظار من يواجهه. وتصبر وهي تعمل⁽¹⁾.

وحرية الذات نتيجة تحررها بفعل التوحيد. انعتاق العبد من الدنيا تحرر له بالآخرة⁽²⁾.

ولا تعني حرية الفكر الفوضى بل تدبر العالم. فلو كانت في رأس جاهل لرد الناس بهائم⁽³⁾.

والحرية تنتهي بالشهادة لأن العبد هو الذي يعيش خائفاً من الحرام. والحر وحده هو الذي يقدم روحه ويموت بغتة دون أن يحمله الموت. موت العبد موت القبور، موت التراب. وموت الحر حياة في السماء، تبعثه من تربته. يخشاه العبد، ويتوق إليه الحر. يموت العبد وهو يرتعد ويستشهد الحر وهو يكبر في معاركه. موت المؤمن هو موت النبي وليس كموت الملوك من أجل السلب والنهب. يموت الشهيد من أجل الحبيب للوصول القريب. راهب الإسلام هو المجاهد. وهو ما عرفه الشهيد وحققه بدمه⁽⁴⁾. وحرام على من علمته معرفة الذات

(1) لشط قال موج وهو يهدر على ذاتي التفافي مثل أفعى السابق، ص498.

(2) وإن العبد من الدنيا انعتق جاويد نامه، ص163.

(3) بحرية الأفكار هلك جماعة فحرية الأفكار في رأس جاهل ضرب الكلم، ص53.

(4) ويموت العبد خوفاً من حمام لكن الحر هذا شأنه ليس يُجري ذكر موت بغتة دعك من موت القبور والتراب ما يُرجي مؤمن من ربه لطريق الشوق هذا الموت غاية ليس للمؤمن غير الأطيب ليس للمؤمن غير الأطيب الملوك حاربوا من أجل سلب وبها يمضي إلى دار الحبيب

نسيان الجسد أن يلبس الدرع⁽¹⁾.

7 - الإبداع

والحرية شرط الإبداع وهو ما يسميه إقبال الإلهام. فللحر إلهام يُحفّزه إلى القول والفعل. نفس الحر يشيع في الروض فيزدهر من شراره⁽²⁾. والذات خالقة ومبدعة، تبداع الشعر والفن⁽³⁾. وتتجدد الذات باستمرار كالأمواج في نهر الحياة. فالتجدد جوهر الكائنات. تتجدد باستمرار في شوق إلى كل تجديد. الذهاب والمجيء قانونها⁽⁴⁾. والسكون موت⁽⁵⁾. والدين أيضاً كذلك موج مسرع لا يهدأ بل يبحث عن المجرى العميق الواسع⁽⁶⁾. الذات شوق، والشوق حرية، والحرية إبداع⁽⁷⁾.

<p>راهب الإسلام من كان المجاهد بدم أجراه في الحرب اشتراه</p>	<p>قال قوم للنبي ذو المحامد الشهيد وحده هذا دراه جاويد نامه، ص 212 - 213.</p>
<p>تحفز القول والفعال بنار فترى الروض مزهرا من شرار</p>	<p>(1) أرماغان حجاز، ص 543.</p> <p>(2) إن للحر ملهما نظرات حر أنفاسه يشيع بروض السابق، ص 36.</p>
<p>أضرمته الذات أو رب وهب</p>	<p>(3) قل، لهذا الشعر من أين اللهب؟ السابق، ص 297.</p>
<p>إنما التبديل شأن الكائنات طالما تطلب في شوق تمهد الكيان للوجود منهما</p>	<p>(4) إنما الأمواج في نهر الحياة ما الحياة غير تجديد تجدد الذهاب والمجيء ما هما السابق، ص 311.</p>
<p>إلى الطوفان أذت سافياتي</p>	<p>خفقت كموجة في موج ذاتي أرماغان حجاز، ص 471</p>
<p>ما سألت الله طولاً في حياتي</p>	<p>(5) السكون في الحياة للثبات السابق، ص 312.</p>
<p>ما أقام بل أراد المهيعا</p>	<p>(6) ديننا يشبه موجاً أسرعاً السابق، ص 314.</p>
<p>كل أفق مثلنا فلتطرق عالمنا منك إليك فلتقدم أن حواه عالم للأخرينا</p>	<p>(7) أنت حي؟ من شوقاً وخلق ما تراه لا يواتي فلتحطم كل حر كان مكروبا حزينا</p>

الإبداع هو جوهر الذات في القول والعمل. فلا توجد أوامر مسيقة للذات، تدفعها آلياً نحو التفكير أو الفعل. بل تعبر الذات عن نفسها تلقائياً كما يفعل الشاعر. وتفعل كما يفعل البطل⁽¹⁾. ويصدر كلاهما من حرقه الوجود المشتق من الوجد، من الدموع والضحكات، من الأفراح والأحزان. يستخرج الإنسان كل ما في فطرته من مواهب، ويعتمد على ذاته. فتظهر قوته وفعله. ويرفض التقليد والاعتماد على الغير⁽²⁾.

الإبداع تخليق وجدة إذ تتجدد الدنيا بتجديد الفكر. فالدنيا ليست صخراً أو حجارة. الغوص في الذات مثل الغوص في غدير الماء أو في البحر المتلاطم الأمواج أو هبوب آفاق الصحراء الممتدة إلى ما لا نهاية⁽³⁾. والنظر في الأشياء يكشف عن عالم ما بين السطور. ويكتشف أشياء جديدة تسري بينها مثل الذات⁽⁴⁾. بل إن الضحية تلتذ بالنظر إلى انعكاس النور في حد السيف قبل أن يقطع الرأس⁽⁵⁾.

والرجل العظيم يرى في خياله عالماً جديداً يحققه في الواقع بالفعل. ومن

- | | |
|--|---|
| لست في رأي لدينا غير كافر
من نخيل العيش ما ذقت التمر | = أعلى الإبداع أنت غير قادر؟
وعدمت حسنا حتى الأثر
السابق، ص 317 - 318. |
| مازجا فيه غزير الأدمع | (1) معليا قدر الكلام المبدع
الأسرار والرموز، ص 9. |
| ليست الدنيا بصخر ومدر
من غدير الماء بحر قد زخر
لا عجيب إن بدا جُدُن سفر | (2) ضرب الكلیم، المدخل ص ط.
(3) جدة الدنيا بتجديد الفكر
همة الغائص في الذات لها
ريح أصحاب من البيد أتت
السابق، ص 72 - 73. |
| تنور الأفلاك منك في البُكر
وينجلي قدرك في سيما القمر
وتستحي إعجاز صنعك الفطر
فكيف لا تبلغ حتى ذاتك؟ | (4) إن صدقت نفسك في الدهر النظر
وتستضيء الشمس منك بالشرر
والبحر يلقي منك ذا درر
تخذت أفكار الوري مرآتك
السابق، ص 88. |
| ل لجلاده أمام الحمام
لأري لحظة وميض الحسام | (5) أي ذات حوى فتي الصين من قا
منظر رائق، تمهل، تمهل
ضرب الكلیم، ص 95. |

كان قلبه حياً في الدنيا لا يخفى عليه القضاء. إن كان محدود البدن فروحه لا نهائية⁽¹⁾. خلق المعاني موهبة من الله واجتهاداً في الفن. يخلق الفنان بحرقه الدم. فلا يتجلى جوهر دون جهد⁽²⁾. والذات تدرك الجمال كما يدرك الضحية وميض السيف قبل أن يقطع الرأس.

والذات فياضة بطبعها، كريمة وهابة. ليس من عاداتها تخبئة الكؤوس. الطريق متعرج وعسير. لا يخشاها الشجاع. ولا يزهو بها المغرور. ولا يسير فيها من هانت عليه نفسه. والذات خبيرة بقواها. لا تحتاج إلى ما تستند عليه. تعرف أن حمرة الشفق في الأفق حمرة دماء الشهادة. وتعرف أن حمرة الغسق هي نور الصباح⁽³⁾.

والفكرة التي تنبعث من الذات في نفس جراتها تقف في مواجهة استبداد الطبيعة. هي كالمصاعقة المتحركة التي تهدم العش الثابت. هي الريح في الفضاء والبحر القادر على ابتلاع السفينة. ويستطيع الجند مواجهة القضاء. كما يستطيع الطفل مسك السيف. العالم القديم يذهب، والعالم الجديد يأتي، بفضل المقاتل الذي لا يستسلم⁽⁴⁾.

(1) من كان حي القلب في الدنيا فما تجلوه له رؤياه كوننا محدثا فإذا جلا صوت الأذان منامه ولهيكل الدنيا الجديدة طينه السابق، ص 94.

(2) خلق المعاني من الخلاق موهبة من حرقه في دم الباني، مشيدة ما جوهر يتجلى دون مجهدة السابق، ص 94.

(3) ليس من عاداتي أخبئ كأسا بدء هذي التعرجات عسير وهي ليست لراصد في غرور إن عينا خبيرة بقواها شفق الأفق ذاك نهر دماء وانتظر مطلع الصباح وقهقهه جناح جيريل، ص 520.

(4) هذه الفكرة الجريئة عزت سلطات الطبيعة المستبدة =

والتجديد أيضاً هو جوهر الذات ضد التقليد. هو علامة من علامات الحرية. التجديد ضد الذين ما زالوا عاكفين على الأمس. الخطورة أن ينتهي تقليد القدماء إلى تقليد الغرب، تقليداً بتقليد، وإن تغير المقلد⁽¹⁾.

والجهر بالحق طريق الذات دون تستر أو مواراة أو مواربة أو مداهنة أو خوف. «الساكت عن الحق شيطان أخرس». ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدَّ جَمَعُوا لَكُمْ فَآخَشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]. لذلك أمر النبي ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: 94]. والدين النصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دور العالم. وأعظم شهادة قوله حق في وجه إمام جائر⁽²⁾. لذلك لا مجال للباطنية ولا للتقية. الذات لا أسرار لها. ليلها كنهانها. وهذا سر إعجابها⁽³⁾. الذات ملك متوج. تعبر عن رأيها بحرية دون خوف أو وجل. وهي جوهر الحياة. والحياة بلا ذات لا معنى ولا قيمة لها⁽⁴⁾. وكل بناء بينه الإنسان له

- = إن عشا هي الصواعق فيه
إنها الريح والفضاء جميعا
كان جند القضاء للموت ذعرا
وإذا أنت جئت بالسيف طفلا
ذهب العالم القديم قتيلًا
السابق، ص520.
- (1) عالم التجديد إن يظفر بحر
لا تدع ذاتك بالتقليد لغوا
بارك التجديد قوما ليس فيهم
خشيتي أن وغي التجديد في الشرق
ضرب الكلیم، ص118.
- (2) وكن الفهر لمرآة الفكر
الأسرار والرموز، ص10.
- (3) فرفعت الستر عن سر خودي
فبدا الإعجاز من أمر خودي
السابق، ص11.
- (4) جاء من نسمة الصباح كتاب
فإذا فيه: مبصر الذات أقبل
شرف الرأي ذاك جاءك منها
وحياة تكون من غير ذات
جناح جبريل، ص441.
- ليس صعبا لمثلها أن تهده
إنها البحر والسفينة عنده
فإذا بالقضاء يقتل جنده
أمسك الطفل للجمال فرنده
أترى يسلم المقاتل بعده؟
- موجد من حوله طاف الزمان
جوهر فرد فحطه بصوان
غير حفل الأمس، ذكرى وعيان
على التقليد للغرب رهان

ذات تعطيه الحياة وتجلياتها بالصوت إلى الكلام والضوء أي البريق⁽¹⁾.

8 - المقاصد والآمال

حياة الذات بتخليق المقاصد وتحقيق الأهداف⁽²⁾. والإنسان هو الوحيد صاحب الهدف المقصود، وليس الحيوان أو الجماد. ويكون ذلك بالعلم⁽³⁾. تحقيق القصد هو الذي يجعل الذات في نشوة السكر من العمل والإبداع. القصد هو النور الذي يضيء، والنار التي تحرق كل ما سواه. هو الذي يجعل الذات ترتاد السماء، ويشد القلب إلى غايته. هو الذي يفجر الذات ثورة ضد الباطل والسكون والعشوائية. تحيا الذاتية من تخليق المقاصد وتوليد الآمال⁽⁴⁾. فنحن أحياء بتخليق المقاصد. ونحن منيرون من شعاع الأمل⁽⁵⁾. وتتولد المقاصد. بالآمال كما تتولد الآمال بالمقاصد⁽⁶⁾. والأمل يقهر الموت. ويوصل إلى الخلود. وهو الباعث على الحياة. ولا يموت إلا من لا أمل له. الأمل هو الذي يبعث في الإنسان الحرارة

- (1) عندما أنهيت عشي
صرخات العيش برق
السابق، ص448.
- (2) ضرب الكليم، المدخل ص ح.
- (3) الأسرار والرموز، ص16 - 18، المقدمة، ص47 - 48.
- (4) نحن أحياء بتخليق المقاصد، ونحن منيرون من شعاع الأمل، ضرب الكليم، المدخل.
- (4) إنما العلم وقار للحياة
إن للذات تقويم النجاة
الأسرار والرموز، ص18.
- (5) جاهلا سر الحياة! اجتهد
مقصد كالصبح في أنواره
مقصد يجتاز أفاق السماء
ثورة فيه وفيه محشر
السابق، ص18.
- (6) أخي في قلبك هذا الأمل
إنما يحيا الفؤاد الأمل
أمل الذات لهيب يستمر
وهق المقصود جبل الأمل
وممات الحي فقدان الرجاء
إنما أصل الحياة الأمل
- فيل هب للعش ذاتا
تملا العيش حياة
- لامض نشوان بخمر المقصد
محرق كل «سوى» في ناره
يأخذ القلب بحسن وبهاء
وعلى الباطل حربا يُسعر
- لا يُحل طينك قبرا مهملا
وإذا حيّ يموت الباطل
أو هو الموج الذي لا يستقر
إنه خيط كتاب العمل
يطفيئ العلة فقدان الهواء
فكذلك العقل منه يُنسل

والحركة. وهو الذي نص عليه الكتاب ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِئُشُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87]. غياب الأمل يدفع للموت. الأمل هو سبب الحياة والبقاء.

الأمل مبعثه القلب، وليس العقل. بل إن العقل تعبير عنه وصور له. إن عقل موسى كان له خضر يرشده⁽¹⁾. الأمل هو الذي يعطي العمل. فبلا أمل لا يكون عمل. وبلا عمل لا يكون أمل⁽²⁾. والدعاء الذي ينهي به إقبال «أسرار الذات» أقرب إلى السؤال. الدعاء نقيض العمل. الدعاء قول، والعمل فعل. الدعاء عجز، والعمل قوة. الدعاء عود إلى التصوف التقليدي والانعراج إلى السماء، والعمل العودة إلى الأرض. ومع ذلك يتضمن الدعاء دعوة للعمل والأمل دون العجز واليأس. والاحتجاج بالقضاء ذريعة لأن الأيدي خاوية، والثمن غال⁽³⁾. العمل فردي وجماعي، ذاتي وذاتي مشترك. الأمة حبل واحد ولكن مملوء بالعقد. والنجوم في السماء تتكاتف في الضياء ولا ينفر بعضها من بعض. الفرد للجماعة، ينير لها الطريق ويحترق. وحيد في الجماعة لإثبات الذات. لا يفنى فيها لأن سره ما زال في الضمير. وهو ما سماه القدماء «تدبير المتوحد». هو مثل الكلیم في سيناء. يناجي ويقود. ينظر إلى السماء كما يعود إلى الأرض. لا تسير الموجه وحدها إلا بصحبة موجه، ولا السحابة وحدها إلا بصحبة سحابة، ولا كوكباً إلا مع كوكب، ولا ليلاً دون نهار، ولا نهراً دون نهر. وحدة الذات مثل أحادية الله. كلاهما ذات أوجد. والذات غزال مع باقي الغزلان، فرد وجماعة⁽⁴⁾. ومع ذلك تحتاج الذات

= أمل من قوة فيه ظهر
برح القلب فغشثه صور
نحن أحياء بخلق الأمل
نحن في نور بهذي الشعيل
السابق، ص 16 - 18.

(1) يهبّ التربّ جناحا يصعد
ولموسى العقل خضرا يرشد
السابق، ص 16.

(2) رائيا وجه جديد الأمل
ساعيا إثر جديد العمل
السابق، ص 9.

(3) عُد فسكّن ذي القلوب البائسة
عُد فعمر ذي الصدور اليائسة
إننا نشكو تصاريق القضاء
أنت تُغلي السعر والأيدي خلاء
أظهر البركان من أعوادنا
وامح غير الله في نيراننا
السابق، ص 68.

(4) كفنا ألفت بخيط الوحدة
كم ترى في أمرنا من عقدة
=

إلى أنيس. ويحتاج الأنا إلى رفيق كما احتاج آدم إلى حواء، وكما يناجي الإنسان. فلكل ذات نَجِي، شقيق روح. يدرك ما في الفطرة، وحيداً مثل الذات، مرآة مزدوجة تكشف صورة كل ذات في ذات أخرى. الذات طين محكم، وليست صنماً يُعبد⁽¹⁾.

بكى سحاب الربيع ليلة واشتكى لأن الحياة بكاء مستمر. فقال له البرق في ومضة والضحك أيضاً لحظة لا تزيد. وهو حوار بين الندى والورود. بدون الندى لا تنمو ورود. وإذا كان السحاب بكاء فالورود ضحك⁽²⁾. الحياة تفاؤل وأمل. وقد سئل حكيم يوماً عن الحياة فقال: خمر يطيب فيها الأمر. قيل: بل دودة نمت في تراب. قال: لا بل سمندر (حيوان خرافي يعيش في النار لا يهدأ له بال). قيل: والشر فيها. قال: بل فيها الخير. والشر جهل ذلك. قيل شوقها لا يسير إلى نزل. قال: الشوق نزل مستمر قبل خلقها في الطين. قيل: شقت الطين حبة فهي زهر⁽³⁾.

إخوة لكن وجوه نافرة
وبدمعي كل حفل يشرق
أنا في الجمع فريد موحد
ليس يدري أي سر في الضمير

نخل سيناء أنا، أين الكليم
أرجع نارك من روحي الكسير
عطلن من نورها مرآتها
هو مرآة لعشقت محرق
محترماً يدرك ما في فطرتي
ليس بالذنب له من حيلة
وأري في قلبه مرآتيه
وأرى أزره والصلب نما

فقال: الحياة بكاء مديد
هل الضحك في لحمه لا تزيد؟
فصار حوار الندى والورود

قال: خمر يطيب فيها الأمر
قال: لا! بل سمندر لا يقهر
خيرها قد جهلت والجهل شر

قد مضينا كنجوم حائرة
أنا كالشمع لغيري أحرق
أمس في قلبي، وعيناي الغد
ظن كل أنني نعم السمير

أين يا رباه في الدنيا النديم
يا من الأنجم منه تستنير
اسلبن نفسي ما أودعتها
أو فهب لي وجه خل لبق
هب نجياً يا وليّ النعمة
هب نجياً لبقنا ذا جنة
روحه أودع من ألتاتيه
وأسويه بطيني محكما

بكى في الظلام سحاب الربيع
فقال له البرق في ومضه
فمن أبلغ الروض هذا الحديث

قد سألنا عن الحياة حكيماً
قلت: بل دودة نمت في تراب
قلت: والشر طبعها. قال: لا بل

السابق، ص 68 - 69.

السابق، ص 69 - 70.

رسالة الشرق، ص 282.

خمر الذات لهيب يشعلها دائماً⁽¹⁾. ومن شعلة الحياة تخرج الذوات متفردة كالشرر⁽²⁾.

لا تحتاج الذات إلى تاج تزهو به، ولا إلى بريق الزينات. تعيش فقيرة في الحي، ولكنها ملك أبي الكون. تعيد إلى الشيب الشباب. وتوقظ الشباب من السبات. وتصدر الآهات في الأسحار. تسعى في الفضاء الواسع في هذا العصر التائه الذي لا يشعر أهله بزمنهم خارج السنين والحساب، بل زمنهم الشعوري ووعيمهم التاريخي. فالذات حاضرة عند القدماء. لم تغفل عن سر العيش ولا عن حياة الجهاد، دون تدوين للهفوات لأصحاب الهمم. فالحياة رؤية. وإقبال مفكر ومصالح وقائد. يرى الحياة رباطاً عندما ينظر إلى بائع الخرقات⁽³⁾.

والأمل في المستقبل، وإمكانيات التحقق والفعل. يمنع من اليأس والقنوط.

- | | |
|---|--|
| قال: في الشوق منزل مستسر
شقت الطين حبة فهي زهر | = قلت: ما شوقها يسير لنزل
قلت: في الطين خلقها قال فانظر:
السابق، ص 296. |
| بخمر «الذات» لهّاب | (1) فيا إقبال خذ كأسا
السابق، ص 317. |
| لذة «الذات» فرقنا شرارا | (2) نحن من شعلة الحياة جميعا
السابق، ص 319. |
| ولا سنا الزينات
من المملوك الأباة
وفتية في سبات
في الفجر من أهات
في واسع القفلوات
هاد إلى الطرقات
أضعته في شتات
بالشهر والسنوات
ما فيه عيش مواتي
وعن جهاد الحياة
كاتبا الهفوات
فيها سوى نظرات
بذيله في ثبات
من بائعي الخرقات | (3) لا التاج يزهو عليه
فقير حيك، لكن
في الشيب ماتت قلوب
فما لصدر نصيب
لا تقعدن عن طلاب
فما بعصرك هذا
غفّلت عن سر وقت
وقت عداه حساب
هذا الرباط قديم
غفّلت عن سر عيش
ماذا يخط من الذئب
دنياك ما قد أصبنا
إقبالاً الحرّ أمسك
فما يرى في رباط
السابق، ص 320. |

وكيف الأمل في أصنام العصر، واليأس من روح الله؟ إن اليأس كفر، وإنكار للرحمة الإلهية ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفَوْمُ الْكُفْرُونَ﴾ [يوسف: 87] ⁽¹⁾. ولا ييأس قائد الركب وإلا قتله. وإن نقصت شجاعة الرسول فلا تنقص رغبة الوصول ⁽²⁾. وشريعة الشجعان الجهر بالحق بلا رياء. ولا يُغلبون لأنهم أسد الله ⁽³⁾. وكل الألقاب التي تُعطى للإنسان مثل الغني أو العبد أو الأمير لا يمكن الوصول إليها دون الشجاعة. فالشجاعة هي الطريق لجلب صفات الذات ⁽⁴⁾. ولقد عبّر الشاعر سلمان من قبل عن أن هذا العالم بالرغم من صعابه سيظل مفتوحاً على العالمين لصاحب الشجاعة والإقدام مما يتطلب موهبة عالية وفؤاداً لا يهاب الجروح. والشجاعة غير مرتبطة بمحو الأمية لأنها مرتبطة بالعزيمة وليس بالعقل، بالإرادة وليست بالذهن. ليس السر في الطاووس الذي يتيه غروراً ولا في البلبل الذي يتيه إنشادا. بل السر في السمع ورقة العين، في السمع والبصر، في الإدراك والرؤية، في المعرفة الطبيعية ⁽⁵⁾.

وأهم ما يميز الذات الطموح وطلب المعالي. ففي قصيدة بعنوان «نصيحة».

- | | |
|--|--|
| (1) ومن الله تعالى تيأس؟
غير هذا أيها المنتكس؟ | كيف لا تيأس ترجو صنما
أنت هل تعرف كفرا آخر
جناح جبريل، ص 444. |
| (2) لا يقتل اليأس فتى حكيماً
لا تنقص الرغبة في الوصول | (2) فيا رئيس الرتل كن حليماً
تنقصنا شجاعة الرسول
السابق، ص 449. |
| (3) الجهر بالحق بلا رياء
هذه أسود الله لا ثعالب | (3) شريعة الشجعان هؤلاء
وما لهؤلاء قط غالب
السابق، ص 450. |
| (4) أو أميراً ما بين سمع وطاعة
لا يكون الوصول دون شجاعة | (4) كن غنيا وكن إذا شئت عبداً
كل هذي الألقاب وهم
السابق، ص 458. |
| (5) سيظل مفتوحاً أمام العاملين
وفؤاد ليث لا يخاف جروحا
يجد الشجاع طريقه مفتوحاً
يشدو فليس السر في الاثنين
السر في سمع ورقة عين | (5) سيظل عالمنا برغم صعابه
البحث يلزمه مواهب بائق
من غير معرفة وغير قراءة
دع عنك طاووساً يتيه وبلبلا
السر ليس بنغمة وبصورة
السابق، ص 463 - 464. |

قال الفتى للباذ يوماً إنه نسر عجوز. يطير في الجو كما شاء. وهو رمز للشباب. والحقيقة أن القيمة ليست في الأصل والفصل بل في الأخلاق، أخلاق الشاهين الذي يرتفع إلى أعلى دائماً، لا يرضى بعش. يطلب القليل، ويتجرد عن مطالب الدنيا. يتدرب على الطيران دون كلام. تعرف قيمته حين الانقضاض على فرخ الحمام. وما أعظمها من فرحة مثل الانقضاض من أعلى السماء. وهي فرحة أعلى من سفك الدماء⁽¹⁾. وهي نفس العلاقة بين الزوبعة والموجة. الزوبعة أعلى من الموجة وأكثر قرباً من السماء في حين أن الموجة تتكسر على حبات الرمال على الشاطئ⁽²⁾. والطموح أهم ما يميز الذات. فهي برهان الأرض، تهفو إليها. القلب مطمئن، والعين تهفو إلى السماء. تتجه إليها بالفطرة كالشاهين يصطاد الحور والملائكة، حقيقة وليس خيالاً⁽³⁾.

تطلب الذات العلا باستمرار. وترنو إلى المثل الأعلى. وأفضل أن يأكل الذئب يوسف من أن يُباع في سوق النخاسة، فالشهادة مثل أعلى وليس العبودية

- (1) قال للباذ الفتى نسر عجوز
لي رموز كنت قد حصلتها
لا تقل أصلي وفصلي أبدا
إنما الشاهين من يخرقه
قسوة التدريب روح السوداء
سترى قيمته يا ولدي
ما أرينا فرحة أمتع من
فرح والله لا يعدله
السابق، ص 508.
- (2) شاهدت زوبعة تثن لموجة
قالت: ألا تبكي لثورة موجة
أعيقها تلك الرمال أمامها
السابق، ص 509.
- (3) أرضنا هذه لظهرك تهفو
قلبك المطمئن قبضة نور
عن يد الله طرت لا عن غياب
ولك الحور والملائك صيد
السابق، ص 467.
- (4) والذئب يأكل يوسف خيره
مرشد الأرواح مولانا جلال
مشرق الإيمان قدسي الضمير
من أن يباع لتاجر العبدان
شيخنا الرومي علوي المثل
وهو في قافلة العشق أمير

والذل⁽¹⁾. وهذا أيضاً ما يريده الرومي، مرشد الأرواح، العلوي المثال، مشرق الإيمان، قدسي الضمير، الأمير في القافلة. وصل مقامه إلى الشمس، وضرب خيامه في النجوم. صفا قلبه بالذكر، وأصبح مصحفاً. رأيه مفعم بالعشق. لذلك يشعل القلوب ثورة. تسمعه الفطرة، وينير الفكرة⁽²⁾. ويتوق ابن آدم بطبعه إلى العلى والطموح، والبحث عن الأفضل. وشرط ذلك التخلق بالقرآن حتى تصبح نفس الناس قرآنا⁽³⁾.

موجة الأنفاس جعلت الذات حداً. وإذا طلبت الذات شيئاً فإنها تسعى إليه عن قصد. لا تشرد ولا تسكن. يقظتها وعزلتها واستقلالها يثبت وجودها لمن شاء السؤال أو الاستدلال. هي قطرة ماء تحمل بحراً، تغمر في بحر الحياة. وُلدت من ذاتها وأضاعها الإنسان نفسه⁽⁴⁾. الأزل وراءها، والأبد أمامها. والإنسان طامح إلى الاثنين، إلى القدم والبقاء. تدفع الشباب إلى الأمل. وتتخفى تحت النقاب. ترى

- = قد علا منزلة الشمس مقاماً
قلبه في محكم الذكر صفا
رأيه المرسل بالعشق نداءه
قال شيئاً سمعته فطرتي
يا أمم الشرق، ص343.
- (1) لو غدا يوسفنا يوماً طعاماً
فهو خير من خسيس يحتويه
السابق، ص345.
- (2) على ابن آدم أن يرعى العلى أنفاً
ومن تخلق بالقرآن مجده
جنح جبريل، ص535.
- (3) موجة الأنفاس سيف
طالبت ذاتك شيئاً
هذه ذات شريد
إنها اليقظة والعزلة والسر الحميم
إنها الذات سؤال في طريق المستدل
مثلما الشوق إلى العزلة في وقت التجلي
إنه البحر الذي تحمله قطرة ماء
وهي في الظلمة والسنور على حد سواء
ولدت منك ومني فأضعناها كلانا
السابق، ص516.
- (4) أزلبياتي ورائبي
أبدياتي أمام =

الصخر تراباً، والعالم وحيداً⁽¹⁾. ترى الذات الصخر تراباً، صعقاً من إرادتها. وترى العالم وجداً تتمنى أن يطير. هي البداية والنهاية. هي في البدر نور، وفي الصخر شرار. وهي في الظلمة ضوء، ليس لها حدود في المكان أو الجهة. جوهرها الكفاح والثورة والنصر⁽²⁾. والإنسان الناجح هو الذي يعترف بالحدود، ويقدر القدرات. فهذا هو ضمان النجاح في الحياة⁽³⁾.

9 - ضعف الذات ونفيها

أ - ضعف الذات

تضعف الذات بالسؤال⁽⁴⁾، ومن يعتمد في حياته على حياة الآخرين يضعف ذاته. وكما تستحكم الذات بالعشق فإنها تضعف بالسؤال. وكل ما يتم الحصول عليه بغير جهد هو سؤال. والميراث سؤال. والناقل من غيره سؤال. ولأجل إحكام الذات يخلق في أنفسنا العشق، ويُجنب كل أشكال الاستجداء⁽⁵⁾.

= وأنا رغم غيبياتي طامح نحو التمام
إنها الذات التي تمخر في بحر الحياة
فتنأغي لطمات وتقاسي لطمات
عندما تطمح أن تقلب آمال الشباب
تتحفي وتدير اللحظ من تحت النقباب
السابق، ص 517.

(1) فتري الصخر تراباً صعقاً مما تدير
وترى العالم وجداً يتمني لو يطير
إنها البدء جميعاً إنها ذلك الغبار
إنها من البدر أضواء وفي الصخر شرار
إنها في ظلمة النور إذا شع النهار
مالها أعلى وأدنى مالها جار ودار
من قبيل وكثير ويمين ويسار
لم تزل جلف كفاح وانقلاب وانتصار
السابق، ص 517.

St. Ref., pp. 97. (2)

الأسرار والرموز، ص 23 - 24، المقدمة ص 48، خلاصة مقالة الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص 19. (3)

أفمن غير ذاتك تعمر قلباً معاذ الله ترى أين ذاتك؟ (4)

وقد تم التحذير من قبل من «كثرة السؤال». فالسؤال خزي وإقلال من النفس. يطفئ نور الذات كسيناء جرداء بلا نار. والرزق بالرغم ما به من عناء أفضل من السؤال وإذلال النفس. الرزق عن طريق البكاء إذلال. والأكثر احتراماً للنفس عدم استجداء الماء حتى ولو كان من عين الشمس. وما الفائدة من حل نعمة مع خفض الرأس وكسر العين⁽¹⁾.

ومحال أن يعيق الظلام شعلة الذات. الذات كالنجم، مسافر ذو لهيب. ينير ليل الحياة⁽²⁾. ويستفسر إقبال عن أن الذات تتجه نحو السماء. تحمل الظلمة والنور على حد سواء. ومع ذلك غاب عنها ما يظهره الفراق. وهي في جحيم لا يطاق لأنها فقدت تجليها. وهي في نهوض وسقوط مثل أرباب الوصول، في جراح لا تزول. ويجيب الرومي أنه الحب وحده الجدير بالعراك، ولكن السؤال هو من يوقعه في الشباك؟ الحب يجيب على كل سؤال. ويبدد كل حيرة⁽³⁾. ونموذج الذات الشاهين الذي يطير إلى أعالي السماء ولا يبني عشا.

(1) تجد الإفلاس بالسؤال أذل
فترق الذات سؤال واجتداء
إن يكن في الرزق والجد عناء
لا ترم في الأرض رزقا بالبكاء
ويح من يحمل ذل النعمة
الأسرار والرموز، ص 23 - 24.

(2) بعث النجم لي يقول: محال
أنت مثلي مسافر ذو لهيب
جناح جبريل، ص 533.

(3) قال: يا أستاذ! ما الحرب التي تملأ جنبيك؟
تحمل الظلمة والنور على حد سواء
مع هذا غاب عنها ما يجلبه الفراق
هي من فقد التجلي في جحيم لا يطاق
في ازدهار وانهييار شأن أرباب الوصول
هي مما افترسته في جراح لا تزول
قال رومي ليس إلا الحب أهلا للعراك
لكن الموضوع من يوقعه بين الشباك
السابق، ص 527.

يرضى بالقليل. ولا يأكل جيفة⁽¹⁾.

الذات كالنسر يطير في السماء، وليس كالنملة تزحف فوق التراب. الشاهين لا يبقى في الأرض، بل يطير إلى عنان السماء. لا ينتابه اليأس. ولا يقص جناحه. ولا يخشى الوثب في الريح. إنما يخشى النسر مخلبه، وبهابه الطير في الفلا. يصل إلى قمم الجبال. ويجوب الآفاق. ولا يهرب من أوج الفلك. يطير إلى النجم. ويحلّق في فضائه البعيد⁽²⁾. نزل الشاهين في أوج السحاب. لا يسكن في وكر الغراب. عشه في أعلى الشجر. المسلم كحدّ السيف في المضاء. وروحه سيل كالعباب. ينسف القمم، ويهوي بالهضاب⁽³⁾.

الذات إمكانية وتحقق من اللاوجود إلى الوجود إثباتاً أو من الوجود إلى اللاوجود نفيًا. وهو التعارض بين الأصيل والأجنبي، بين الأليف والغريب، بين العودة إلى الذات والاعتراب في الآخر. الإنية إذن جوهر الوجود وزينته، شهود على النفس منذ عهد ﴿ألست﴾. وهو الفرق بين الحياة والموت، بين المادة والروح. وهي شهادة على الذات قبل أن تكون شهادة على الآخر أو شهادة الآخر عليها. والإله شاهد باعتباره ذاتاً كلياً. الحياة ذات الكل، والذات كل الحياة. ولا

(1) أنا نجل الصحراء والزهد ديني
أين مجدي إذا شقيت لجوع
بافتراسي أصون عزة وجهي
كل طير له من الأرض عش
كيف بيني قلندر الطير عشا
السابق، ص 547.

(2) أيها الشاهين ما هذا الجمود
يائس أم أنت مقصوص الجناح
ما شكا مخلبك النسر ولا
الجبال الشم والآفاق لك
طر إلى النجم وحلق من جديد
يا أمم الشرق، ص 360.

(3) منزل الشاهين في أوج السحاب
لم يزل في الروض ظل وثمر
كن كحد السيف في صدق المضاء
إن في روحك سيلا كالعباب
السابق، ص 362.

وهما في سجيتي ودمائي
وأذلت حمامة كبريائي
وأروي حماستي وإبائي
وأنا هاهنا حليف مضائي
وهو الفرد في رحاب السماء

أين منك البأس أو أين الصعود
أم خشيت الوثب في هوج الرياح
فر من عزمك طير في الفلا
أيها الهارب من أوج الفلك
في الفضاء اللازوردي البعيد

ماله يسكن في وكر الغراب
فالتمس عشك في أعلى الشجر
واحتسب نفسك في كف القضاء
ينسف الثم ويهوي بالهضاب

تكفي الصفات لأن الصفات هي عين الذات⁽¹⁾. الذات تُذكر كي تمضي وتعبر. والعالم، وهو من صنعها ليس شيئاً⁽²⁾. الذات تتسع للعالم كله كما اتسع القلب لفعل النفي «لا إله»⁽³⁾. الذات إمكانية، تحضر وتغيب، تقرب وتبعد⁽⁴⁾. الذات اختبار. تخلق السماء من الغبار⁽⁵⁾. وتعلو إليه كالشاهين⁽⁶⁾.

الذات سر الحياة، والحياة سرها. ومعرفة الذات معرفة الحياة⁽⁷⁾. تُشعل الحياة من نار الذات، وتبعث من الموت الحياة. فماذا يصنع الأحياء بذواتهم وهم يمزجون الرقة بالعنف. الذات بين حضور واختفاء، بين تجلٍ وانطواء. نورها يكشف عنها. هي شعور خالص في القلب. من تخلى عنها مات⁽⁸⁾. إن فقدت

- | | |
|---|--|
| <p>غير محمود ومحمود؟ أجيني فالوجود يقتضي هذا الظهور رغبة في الذات برهان لنا «أين من يشهد؟» قالوها معا أو تجد بالروح سل عن ذا الأمين أو عيون ما لها إلاك نور شاهد الذات بعين الآخرين ولها نور به ذاتا فشاهد وهي ذات ليس يخفيها سدول ما اختيار المصطفى إلا لذات</p> | <p>(1) غير موجود وموجود؟ أجيني قال لي الموجود ما يبغي الظهور للوجود زينة تُدعي «أنا» ألفوا يوم «ألسنت» مجمعا إن تكن حيا أو الميت الدفين شاهدا فلتتخذ من شعور واجعل الثاني شعور الآخرين ولتكن ذات الإله خير شاهد الحياة هي للذات الوصول لم تلائم مؤمنا قط الصفات جاويد نامه، ص 147 - 148.</p> |
| <p>أنت هذا؟ العالمان ليس شيئا عالما في الذات إنسان جمع ثم عني الذات عني أبعدت؟ خلقت لك السماء من الغبار</p> | <p>(2) ذاتك اذكر وامض واعبر السابق، ص 172.</p> |
| <p>ولكن في شباكك بارتماء ومن فقر غنى ما تستمد وهو تعمير لها، سر في حياتك</p> | <p>(3) لا إله ولها القلب اتسع السابق، ص 206.</p> |
| <p>ميتا بصرت أسرار الحياة</p> | <p>(4) تحت هذا الماء عيني أطبقت السابق، ص 235.</p> |
| <p></p> | <p>(5) وإذا عرضت ذلك للاختبار أرمان حجاز، ص 468.</p> |
| <p></p> | <p>(6) وشاهينا أراك تصيد ذاتا لك البشرى فذاتك تسترد السابق، ص 483.</p> |
| <p></p> | <p>(7) الحياة هكذا، تقدير ذاتك السابق، ص 255، ص 525.</p> |
| <p></p> | <p>(8) الحياة أشعلت من نار ذاتي</p> |

الذات تحقق الفناء، وإن وجدت الذات تحقق البقاء. ومن لم ير ذاته فقد أفرغ السجن من محتواه⁽¹⁾. والمسلم الذي ينعزل عن ذاته فإنه يغرق في المحيط. ولا ينجده إلا مدد من السماء⁽²⁾.

وفي قصيدة «أبو العلاء المعري» يدافع إقبال عن موقفه النباتي ضد من أراد إحراجه بالشواء. وقد وعظت الأديان والطبيعة بأن البقاء للأصلح، حياة الأقوى وموت الأضعف⁽³⁾.

ب - نفي الذات

نفي الذات من الغالب لإضعاف المغلوب⁽⁴⁾. ومهما استطاعت حكمة العقل

- | | | |
|--|---|------------|
| <p>رقة بالعنف كانوا يمزجوها
العيون قط هذا ما رأيت
بالتجلي الكون يبدي طورها
ما ونى عن ذكرها ذكرا خفيا
مات عن نفس له مثل الغريب</p> | <p>عالم من ذاتهم ما يصنعوها
أين تبدو الذات أو أين اختفت
يستتر النيران سترا نورها
قلبنا بالذات كم كان الحفيا
من لظاها كل معدوم النصيب</p> <p>السابق، ص 258.</p> | <p>=</p> |
| <p>والوجود كان للذات العطاء
سجنه أخلاه مما قد حواه</p> | <p>(1) إن فقدت الذات حققت الفناء
من رأى الذات، وشيئا ما رآه</p> <p>السابق، ص 291.</p> | <p>(1)</p> |
| <p>قد طغى الماء فيا خضر مدد</p> | <p>(2) مسلم عن ذاته تلك انفراد</p> <p>السابق، ص 327.</p> | <p>(2)</p> |
| <p>وللطبيعة إذ قالت لطالبها
وقدر الموت للمستضعفين بها</p> | <p>(3) لم تُلَقْ بالك للأديان إذا وعظت
الله سخر للأقوى خلائقه</p> <p>جناح جبريل، ص 541.</p> | <p>(3)</p> |
| <p>كل رخو ليس يرجو بأسه
في زمان الضعف أقوى وأمر
صار عقل العبد خلاق الفتون
«نفي الذات» هو إحكام الحياة
اذبح النفس بحق تغنم
إنما المجنون من لم يغفل
إنها وهم فما فيها رجاء
يجعل الأحياء مثل الرمم
سمت العجز ارتقاء الأمم</p> | <p>(4) باحتيال العقل يحمي نفسه
قوة التدبير في دفع الضرر
فيذا ما ثار للشأر الجنون
ويح جلد أحكمت فيه قواه
قل لمن يزهي بذبح الغنم
أغفلن نفسك إما تعقل
هذه الدنيا فناء في فناء
كل داء في سقوط الهمم
نامت الأسد بسحر الغنم</p> | <p>(4)</p> |

الاحتياط فإنه لا يعني عن انتفاضة الجنون. قد يغفل العقل، ولكن الجنون لا يغفل. ونفي الذات قضاء على الحياة. ومن يقضي على الآخرين فقد قضى على ذاته أولاً. نفي الآخر هو نفي للذات. إثبات الذات هو إثبات الهممة. ونفي الذات يجعل الحي كالرمة. إثبات الذات رقي الأمم. ونفي الذات تأخر الأمم.

وفي حكاية رمزية بين «الفراشة واليراعة» أيهما أقرب إلى إثبات الذات، وأيهما أقرب إلى نفيها، قالت الفراشة لما رأت رقص اليراعة على المداد الأسود أنها لم تذق تصلية النار الموقدة. وردت اليراعة بأنها لا تقتدي بمثل الفراشة التي على جناحها وسم العبيد، تستجدي تسولاً من ضوء خارجي، في حين أن اليراعة تعتمد على جذوتها وتوقدها الذاتي⁽¹⁾.

ووصية إقبال لولده «جاويد» عن إثبات الذات. فلحن الذات في أعماق النفس باق. يدل على خلود الحياة. ولا يضيء ليل الشعب إلا شعلة ذاته. وامتلك آدم هذه الأرض بفعل الذات. ولم يصل الغراب لعش الذات مهما بلغت قواه. فالذات كالشاهين تصعد إلى السماء صافية، وتعود إلى الأرض من جديد. الذات صون الحياء الذي نور في هذا الزمان. ولا يريد إقبال أن يأتي زائر قمر يتسول ماء. فلم يتسول إقبال ولم يترهب. ومصير فلسفته أن تعم أرجاء البلاد⁽²⁾.

رقص اليراع على المداد الأسود
ما ذاق تصلية بنار المؤقد
حاشا لأمثالي بمثلك تقتدي
بجناحها وسم العبيد الرقد
أنا في فؤادي جذوتي وتوقدي

(1) قال الفراش لنفسه لما رأى
كم في حياتك من غبي أحمق
سمع اليراع كلامه فأجابه
حمداً لربي ما خلقت فراشة
أنا لست استجدي سواي تسولا
جناح جبريل، ص 503.

باق يدل على خلود حياته
إلا تصليته بشعلة ذاته
ملكاً لهذي الأرض قول نبيه
مهما استطالت في السماء قواه
أبناء سيده الذي رباه
ما في زمانك من يصون حياه
ويقول لي جاويد يبذل ماءه
لنقاء فكرته وخصب فؤاده
بوصيتي هذي جميع بلاده

(2) أبنئي! لحن الذات في أعماقنا
أبنئي! ليل الشعب ليس يضيئه
أبنئي! قولك: كان آدم جدنا
أبنئي! لن يصل الغراب لعشنا
هذي الشواهد التي يلهو بها
أبنئي! صان الله وجهك عالياً
إياك أن يأتي لقبري زائر
إقبال ما رضي الترهيب سيرة
أبنئي! ليس بُني إلا من روي

10 - مراحل تربية الذات

مراحل تربية الذات ثلاث: الطاعة، وضبط النفس، والنيابة الإلهية⁽¹⁾.

أ - الطاعة

رمز الطاعة والتحمل والرضا والصبر جمل الصحراء. والإنسان كذلك يعمل الفرض ولا يخاف، راجياً من الله حسن المآب. والطاعة تبدو جبراً. ومنها يتخلق الاختيار. امتثال الأمر يعلي، وعصيانه يهوي. ويصل إلى الأفلاك من كبل نفسه بالقيد. النجم يسير في فلكه طبقاً لقانون. والعشب ينمو طبقاً لقانون. واللهيب الدائم يسري في العروق. ويربط الذرات قانون. والشدة في الشرع ليست ستار شكوى لأنها الحدود التي لا يمكن تعديها⁽²⁾.

والحقيقة أن إقبال يصف الطاعة من حيث المبدأ ولكنها من حيث الواقع تجربة مؤلمة في العصر الحاضر. فما أكثر ما يطيع الناس، لا فرق بين الله والسلطان، والأب والشيخ، والرئيس والشرطي. أصبحت الطاعة تجربة سلبية في الحياة اليومية. تعادل القهر والكتب ومحو الإرادة والقضاء على الحرية. لذلك يعصي الناس القانون، ويخترعون فنوناً لخرقه والتحايل عليه.

(1) ألفة الكد شعار الجمل
فاحمل الفرض قويا لا تهاب
اجهدن في طاعة يا ذا الخسار
بامتثال الأمر يعلو من رسب
سخر الأفلاك في همته
قد سرى النجم يؤم المنزلا
وإنما العشب بقانون النماء
وللهيب دائم دين الشقيق
يربط الذرات قانون الوصال
كل شئ فيه قانون سري
ارجعن يا حر دستور قديم
شدة في شرعنا لا تشكون

شيمة الصبر وقار الجمل
وارجون من عنده حسن المآب
فمن الجبر سيبدو الاختيار
وهوى الطاغي ولو كان اللهب
من ثوى في القيد من شرعته
طوع قانون له قد ذللا
فيذا ما حاد يجفي بالعاء
دمه من ذلك يسري في العروق
فهي بحر وهي بر باتصال
كيف في هذي المعاني يمتری؟
زَيِّنْ رَجْلَكَ بِالْقَيْدِ الْوَسِيمِ
وحدود المصطفى لا تعدون

الأسرار والرموز، ص 37 - 46، المقدمة، ص 48، خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص 19 - 20.

(2) السابق، ص 37 - 38.

ولماذا يكون الجمل هو النموذج وليس النمر أو الأسد أو الطائر مما يستحيل وضعه في قفص وإلا مات. لقد تحمل الفرد وصبرت الجماعة أكثر مما يجب. وكيف يظهر الاختيار من الجبر إن كان صحيحاً فلسفياً؟ إلا أن الشعب سئم الجبر ويريد الاختيار. ويمكن القول أن كثرة القهر والكبت والجبر يولد في الإنسان الحاجة إلى الحرية. وإذا كانت الشريعة شريعة الفطرة، فالفطرة حرة من كل قيد. ويستطيع الإنسان العيش على الفكرة حراً. ويكون بذلك ممارساً للشريعة. الشريعة ازدهار وكمال، وليست قيداً وقهراً. والحرية قانون مثل القانون. القانون يحرق. وفي الحرية نظامه. والمقيد بالقيود في الرجلين والمعصمين كيف ينطلق؟ كيف يكون القيد زينة ولو كان خلخال النساء أو عقد الرقبة أو إسوارة اليد؟ إن الطبيعة تنحو نحو الكمال. والحد انحراف بها وليس قهراً لها.

الناس الآن يعيشون تجربة العصيان والتمرد والغضب، ويريدون التحرر من كل قيد. الناس في حاجة إلى عصيان الأمر، وليس إلى امتثاله، في حاجة إلى الرفض والغضب والتمرد والاعتراض والثورة.

ب - ضبط النفس

أما ضبط النفس فهو أفضل من ضبط الآخرين لها. والجبر الذاتي أفضل من الجبر الخارجي. ويعني التطهر من أطماع الدنيا وغرورها ومباهجها من زوج أو ولد، من مال أو جاه، تمسكاً بشعار التوحيد «لا إله» الذي يبدأ بالنفي قبل «إلا الله» وهو الإثبات. ويعني أيضاً إثارة الخير للآخرين عن طريق الزكاة، مقاومة حب المال. والصلاة مقاومة الكسل. والصيام ضبط لحاجات النفس. والحج تجمع للناس، ومقاومة للعزلة والانطواء⁽¹⁾. ضبط النفس شيمة الحر. وكظم النواحي شيمة

(1) فكن الحر وقدها بزمام كل من في نفسه لا يحكم من يمسك بعضها من «لا إله» كل من بالحق أحياناً نفسه ليس يدنو الخوف منه أبداً كل من موطنه إقليم «لا» درة التوحيد، فاحفظها الصلاة

تبلغن من ضبطها أعلى مقام هو في حكم سواء مرغم فلتحطم طلسم الخوف يده لا ترى الباطل يحني رأسه ليس، غير الله، يخشى أحداً من قيود الزوج والولد خلا حجك الأصغر، فاعرفها الصلاة =

الليث. في حين أن النوح شيمة الثعلبان⁽¹⁾.

والحقيقة أن ضبط النفس فضيلة هندوسية، السيطرة على الأهواء والانفعالات من أجل إماتة النفس وغرائزها وحاجاتها حتى تتحرر الروح. وهو ما يرفضه إقبال. ويسميه نفي الذات أو الفناء. الحرية أقرب إلى إطلاق قوى النفس، وازدهار طبيعتها. والطبيعة خيرة. وقد كانت التربية تقوم باستمرار على ازدهار الفطرة وإذكاء الطبيعة عند بستالوتزي وتولستوي. ومن لا يحكم نفسه لا يقع في حكم غيره لأن الذات حرة تحميه من القيد الداخلي والقيد الخارجي. وفعل النفي في «لا إله» يساعد على تحرر النفس، وليس ضبط النفس. أما أركان الإسلام الخمس فإنها لا تقوم على ضبط النفس بل على تحرر النفس. فعل النفي في التوحيد يححر الوجدان الإنساني من كل قيود الزيف والجاه، والمال والسلطة حتي يأتي فعل الإثبات «إلا الله» للمبدأ الواحد العام الشامل الذي ينعكس على الضمير الإنساني في الحرية والمساواة والإخاء الاجتماعي كما عبر عن ذلك سيد قطب في مقدمة «العدالة الاجتماعية في الإسلام»⁽²⁾. والصلاة تمرين على أداء الأفعال في أوقاتها، فالوقت سيف، بتعبير الشافعي وإقبال، على الفور وليس على التراخي، أداء وليس قضاء، بتعبير الأصوليين. والصيام إحساس بجوع الفقراء وتربية للنفس، وتقوية للإرادة. والزكاة حق الفقراء في أموال الأغنياء تحقيقاً لمبدأ العدالة الاجتماعية. والحج

يقتل الفحش به والمنكر
ضابطاً بالقسط هذا الجسد
هجرة الأهل به والوطن
إنها خيط كتاب الملة
علّمت حبّ المساواة البشر
لن تنالوا البر حتى تنفقوا
إن يكن في القلب دين محكم
تحكّم في ذلك البكر الأبى

= في يد المسلم هذا الخنجر
يفتك الصوم بجوع وصدى
وينير الحج قلب المؤمن
إنما الطاعة أس الأمة
بالزكاة العابد المال اذكر
تكثر المال، وشحا تمحق
تلك أسباب بها تستحکم
أفو يا مؤمن بالله القوي

السابق، ص 39 - 40.

ليس للحزّ آهة في طعان
من شيوخ القلوب والعرفان
ومن النوح شيمة الثعلبان

(1) دأب أهل الزمان شكوى الزمان
قد أسر النجوى إليّ عليم
إن كظم النواح شيمة ليث

ضرب الكلم، ص 96.

(2) سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ص 33 - 71.

مؤتمر سنوي للأمم لبحث مشاكلها والدخول في تحدياتها ولتحديد أصدقائها وأعدائها طبقاً للبراءة ﴿بِرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 1].

ضبط النفس هو استحكام النفس لذاتها، وسيطرتها على قواها. فلا تنظر إلا لذاتها، ولا تنظر إلى غيرها⁽¹⁾. وبعد إثبات الذات يأتي استحكام الذات. ويعني تقويتها وإحكامها ثم بعد ذلك الطير على ما تشاء من أغصان. الذات بحر في كل قطرة منها طوفان. من حبة يخرج منها الألوفا⁽²⁾. قوة الذات من ذاتها وليست من نسبها. تعتمد على ذاتها في الرقي وطلب المعالي⁽³⁾. واستحكام الذات قادر على قهر الموت. ويجعلها قادرة على نيل الخلود⁽⁴⁾. وضبط النفس، تربية الذات بالرعاية، تجعلها أكثر قدرة على الإبصار، وناراً أكثر إشعاعاً⁽⁵⁾.

السيطرة على الذات في الأفراد تبني عائلات، وفي الجماعات تبني إمبراطوريات⁽⁶⁾.

ج - النيابة الإلهية

النيابة الإلهية أعلي درجات الرقي الإنساني. وهي خلافة الله في الأرض. هي

- | | |
|-----|---|
| (1) | نظري في النفس أحكمت فلم
فتجلى الحب في كل الدنى
رسالة الشرق، ص316. |
| (2) | عشك فوق الذات أحكمته
الآدمي يا بنسي بحجر
من حبة ترى ألوف حب
ضرب الكلیم، ص61. |
| (3) | أبوتي ليست بذات بال
السابق، ص63. |
| (4) | لخوف الموت قلبك في ارتعاد
ففسك أحكمن وازدد نضوجا
رسالة الشرق، ص266. |
| (5) | ربب «الذات» بالرعاية تبصر
إن سر الكلیم في الدهر بيد
ضرب الكلیم، ص53. |

كل ما يطمح إليه الإنسان، معراج الروح. الرقي الروحي شرطها حتى تتحقق الأمة المثالية، ويتوحد فيها الأفراد. فيظهر فيها نائب الحق، سلطان الله على الأرض. تحققه جماعة ثورية يتوحد فيها الأفراد ويظهر فيها الإنسان الكامل. النيابة الإلهية هو الخلافة في الأرض. يسعد بها الإنسان لأنها طريق الخلود، تحقيق كلمة الله في الأرض كنظام مثالي للعالم. هي معرفة حقائق الحياة ثم تحقيقها على الأرض. هي بشارة ونذير. والنائب جندي وراع وأمير. ذاته تتبع ذات العالم للسيطرة عليه بالعمل. ليس مجرد آلة بل هو مبدع في الفهم والتحقيق، في الفعل والتنفيذ. والفترة تمده بطاقات لا حدود لها للإبداع. النيابة كامنة في الوجود. هي الرسالة التي حملها الإنسان طوعاً واختياراً بعد أن خشيت من حملها السماوات والأرض والجبال وأشفقن منها. النيابة إعلان وخروج، وإصلاح بالحق بأن الأرض ستملأ عدلاً كما ملئت جوراً كما يقول الشيعة في دور الإمام. هي رسالة عدل وسلام وأمل. هو الري بعد الجفاف، والربيع بعد الخريف⁽¹⁾. المسلم خليفة الله في الأرض. يبدو تكبيره صغيراً وهو يضم كل الفضاء. يدعو إلى الإسلام ويوقظ الصدق بالوفاء. يرتفع قدره فوق الأقدار، وتهب الأقدار لمساعدته. لا يحتكم فقط في الدنيا ولكنه يرنو أيضاً إلى الخلود⁽²⁾.

حكمه في الكون خلد لا يُبدي
وبأمر الله في الأرض أمير
وهو جندي وراع وأمير
سطوة فيه نجاة العالم
قيم الأعمال منه في بدل
عبر الرؤيا بتعبير جديد
ليقيم الوزن إذ أبدعه
شعلة يرمي به الكون الغد
واملاً الأذان زهر السنغم
وأدرها كأس حب وصفاء
وأعد في الأرض أيام الوثام
أنت من ركب الحياة المنزل
فاغد في الروض ربيعا نضرا
في جهاد الكون نمضي كالشعل

(1) نائب الحق على الأرض سعيد
هو بالجزء وبالكل خبير
هو في الناس بشير ونذير
ذاته تتبع ذات العالم
يبعث الميث بعجاز العمل
جدد الدنيا بتفسير جديد
شاعر الفترة غني طبعه
في رماذ اليوم منا ترقد
قم فكن من ضجيج الأمم
جددن في الناس قانون الإخاء
أبلغ الناس رسالات السلام
من بنى الإنسان أنت الأمل
أذبلت كف الخريف الشجرا
نحن من فيضك نسمو للقلل
الأسرار والرموز، ص 41 - 43.

بمجدك وهو للدنيا سماء

(2) خلافة هذه الأرض استقرت

لا مكان إذن للنوح والبكاء والمآتم والآلام واليأس والندم. ففي الحياة نشوة وأمل وفرح وتحقق وسرور. فلم الشكاية من غدر الزمان وجور الدهر، والزجاج لا يشتكي من جور الحجر وهو أكرم منه وأنقى وأشرف؟. السعي جوهر الحياة، والتعمير أدواته. وركوب المخاطر وسيلته كما وضع إبراهيم في النار. الحياة نضال، هجوم ودفاع. بل يستطيع الإنسان أن يجاهد الزمن وأن يعيد تشكيل ذرات الوجود، ويقاوم الزمان ودوران الأفلاك. وبقوة القلب يستطيع أن يواجه تحديات العصر. وما أعظمها من شهادة إذا ما سقط المجاهد في حومة الوغى. إنها شهادة البطل التي تحيا بها الأمم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169]. وإمكانات البطل في الحياة وفي الممات لا حدود لها⁽¹⁾.

ويعلم إقبال أن «الأرض لله» وهو مبدأ الحاكمية في «الحاكمية لله». وهو موجه ضد السلاطين والملوك ليعيد إليهم وعيهم بأنه من طين البشر. والفرق بين الملك والمسكين هو الضجيج الذي يحوط بالملك عندما يوارى التراب. والأرض

صغيرا كل ما ضم القضاء
وأبقت صدق غيرته الوفاء
تشاهد أن ساعدك الفضاء
وشأنك والخلود كما تشاء

يا زجاجا يشتكي جور الحجر
وإلام الصدر حزنا تلدم؟
لذة التخليق قانون الحياة
وخض النار واقدم كالخليل
هو رمي الترس في وقت الطعان
من قفا الآثار منه الزمن
حارب الدهر، ولم يعبأ به
يمنح الذرات شكلا آخر
يمنح الأفلاك من دوراتها
ذلك العصر الذي يرضي به
فالحياة الموت موت البطل
وجنى في النار وردا كالخليل
قوة كامنة في البطل

= وفي تكبيرك القدسي يبدو
فيا من هب للإسلام يدعو
سترفع قدرك الأقدار حتى
وقيل لك احتكم دنيا وأخرى

السابق، ص 109 - 110.

(1) أيها الصارخ من جور الدهر
فيم هذا النوح؟ ماذا المآتم؟
مضمرة في السعي مضمون الحياة
قم فشيء عالما دون مثيل
إنما السير على حكم الزمان
إنما الحر الشجاع الفطن
وإذا الدنيا عتت عن أمره
يهدم الموجود فيما أترا
بصرف الأيام عن كراتها
خالقا من قوة في قلبه
فيذا أعوز عيش الرجل
حبذا عشق بغى الأمر الجليل
تتجلى في مراسم المعضل

السابق، ص 43 - 44.

يورثها الله لمن يشاء من عباده الصالحين⁽¹⁾. والحكم الإلهي أحد مكونات الذات المشتركة. فالحكم لله. وهو مبدأ «الحاكمية» الشهير الذي صاغه المودودي بعد ذلك واستقر عند سيد قطب⁽²⁾.

الأرض ملك لله. فالله وحده هو المالك والوارث. والناس يقتتلون عليها كعروس يقتتل عليها الرجال. ولا يعني ذلك تركها بل العمل فيها، والسعي والكد والكدح داخلها، ورفع التراب عن جوهرها، والتقاط حب النجوم منها، والطيران فوقها كالعقاب. يُضرب الفأس في صخرها، وبشرارة الذات تُوقد نارها، والابتعاد عن طريق آزر وبناء الأصنام بل تحطيمها، وإعادة بنائها كما تريد الذات وإعطائها، القلب السليم حتى يتم الخلود فيها مع الأهل والأصحاب⁽³⁾.

والخلافة بين ضمن محكمات العالم القرآني ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]⁽⁴⁾. فالإنسان سيف الإله، خليفته على الأرض، أذاته وعدته. والكون ما هو إلا المسن لحد الذات وسن سيفها. رؤية الذات رؤية للإله، ورؤية الإله رؤية للذات⁽⁵⁾. الذات هو الإنسان، الإنسان من حيث هو إنسان، آدم قبل أن يصبح

(1) فقل لصاحب تاج يدعيه له
مالي ومالك من هذا التراب سوى
الأرض لله يعطيها أحبته
جناح جبريل، ص 507.

(2) ومن القهر صدور أي أمر
أمر بالأمر زكى عقله
جاويد نامه، ص 203.

(3) إنما الإنسان في شرق وغرب
كعروس ولها كنا الرجالا
إنما الأرض لربي، ذاك ظاهر
لم أقل دع عنك هاتيك الديارا
ارفعن عن جوهر الأرض الترابا
في الجبال اضرب بفأس صخرها
وطريق آزر فلتجتنبها
بالجمال لا تصل قلبا سقيما
أنموت؟ ما لنا مال وقبر
السابق، ص 205 - 206.

(4) قول إني جاعل تقديره

(5) إنما الإنسان سيف للإله

بين أرض وسما تفسيره.

ذلك الكون من قد تراه

هندياً أو فارسياً أو عربياً⁽¹⁾. والذات لا تعبر عن نفسها بالكلام بل بالسكر والشراب والعشق⁽²⁾. تظهر الذات في الحياة بما تقدم بالفعل⁽³⁾. وتنضح بقدر ما تغامر وتواجه المحن. لها مقامان «لا» و«إلا». وهما فعلاً النفي والإثبات في التوحيد⁽⁴⁾. المسلم حنيف ينسب إلى الإله في الصفات. ويحتوي قلبه أسرار الذات⁽⁵⁾. الذات كمدار الفرجار. وكما يكفر الشيخ من ينكر الإله كذلك يكفر إقبال من ينكر الذات⁽⁶⁾. وعلى النقيض من ذلك عيشة الأندال الذين يساومون على الحق، ويرضون بالندية في الدين وفي الدنيا. دافعهم على ذلك الحقد وأهواء البشر، وليس الدخول في صراع الحياة من أجل السيطرة عليها. ولا يكون النكوص عنها بذريعة العفو عندما يوضع في غير موضعه. فالعفو عند المقدرة، وليس حين الضعف. ولا تكون الذريعة القنوع. ففرق بين القنوع والخنوع. إنما السبب الحقيقي للقعود هو الخور الحال في القلب، والخوف والكذب، وغياب الخير، وحضور الخبث. بل يتحول القعود إلى خبث ودعوة للنكوص. يحذر منها صاحب العقل السليم. يتزين كالحرباء. ويلبس الحق بالباطل عند أهل النظر. يبدو لينا في الظاهر. وهو يلدغ

-
- = أن ترى الله بعينك الثُّقاء
جاويد نامه، ص 163.
- (1) «عبده» فهما لديك تبهر
ليس من عُرب وليس الأعجما
السابق، ص 262.
- (2) أوصد العارف بابا للكلام
إنه بالشوق والذوق انجذب
السابق، ص 167.
- (3) أظهر الذات فهاتيك الحياة
ينضح الذات الترددي في البلاء
السابق، ص 175.
- (4) إن تلك الذات شرح للحياة
السابق، ص 283.
- (5) حنيف شبه ربي في الصفات
أرمغان حجاز، ص 469.
- (6) لا تطل في القول واقنع بالغرار
منكر الله لدي شيخ كفر
جاويد نامه، ص 329.
- أن ترى الذات ولا ستر الحياة
إنه الإنسان وهو الجوهر
آدم بل كان منه الأقدماء
أسكرته الذات لا تلك المدام
في وجود من شهود قد وقب
واختبار المرء ما أدت يده
عن قضاء الله قد تمحو الخفاء
«لا» و«إلا» من مقامات الذات
ويحوي قلبه أسرار ذات
حول ذاتي كن كفرجار مدار
منكر الذات لدي منه شر

كالعقرب في الباطن. يحتج بالقدر على أفعاله ليبرهن ويزهو في الدنيا بالجاه والمال والصحة والنعمة التي وُهب إياها⁽¹⁾.

أما البطل فهو الذي لا يرى إلا في القوة حلاً، قوة الصدق. هو تعبير عن الحياة، تستعمل أحياناً دفاعاً عن الحق أو إقراراً للبطل. وهي قادرة على أن تلبس الباطل ثوب الحق، وأن تجعل المر حلواً، والشر خيراً. أما الحصيف الفطن فإنه قادر على أن تستحکم ذاته. فهو أعلى من في الكون. بشرط الوعي والصدق، تُفتح الأعين والأذن والأفواه حتى يصبح الحق نبراسه وطريقه⁽²⁾.

وتسمي النيابة الإلهية أحياناً «الملك لله». أحرق طارق السفينة واحترار الناس، كيف العودة؟ فأمسك طارق بالسيف مبتسماً قائلاً في عزمه الشديد الملك اليوم لله الواحد القهار⁽³⁾.

(1) عدة الأنذال حقد لا سواء
الحياة الحق بأس يظهر
رب عفو كان من آفاتها
يحسب العجز قنوعاً، خانع
فاقطع سبل الحياة الخور
قلبه من كل خير فارغ
في كمين راصد هذا اللئيم
احذرن يا صاح من تزيينه
إنه يخفي على أهل النظر
في ثياب اللين حيناً يظهر
وهو طوراً في ثياب المجبر
وهو حيناً في لباس الترف
الأسرار والرموز، ص 44 - 45.

(2) ما سوى القوة للصدق دعم
هي من حقل الحياة الحاصل
مدعاة في غني عن حدة
تجل الباطل حقاً مائلاً
سطوة القوة تحيي ما أمر
أيها الغافل عما حُملاً
افتحن عيناً وأذناً وفما
السابق، ص 45 - 46.

(3) طارق أحرق السفين فقالوا:

ليس هذا من فعله برشيد =

11 - الذات بين المثال والواقع

الذات بين المثال والواقع⁽¹⁾. وهو ما يسمى «إعلاء كلمة الله»، ونشر الحق بالعمل، والكد والكدح والسعي في الأرض دون عدوان على أحد. وهو عمل يقوم على الحب. وينتج عن تأكيد الذات لا فنائها. يتجاوز القيل والقال إلى الفعل والفعال. لا يهيم زي الدراويش بل فعل الأمراء ويقظة الضمير. والفعل مبادرة وتدبير، وليس قضاء وقدراً وتقديراً. الحياة ركوب المخاطر. فبحار العجم ليس لها قرار. وفي أحشائها درر مكنونة. وعظمة ركوب البحر في الصراع مع أمواجه، وليس فقط الإبحار على سطحه⁽²⁾.

ولا فرق بين أن يكون الباعث لإعلاء كلمة الله الجهاد في سبيل الله أو ضد جوع الأرض دفاعاً عن الفقراء. فللفقراء حق في أموال الأغنياء. والجوع مانع من تطبيق حد السرقة. ومن مقاصد الشريعة الخمس الضرورية الحفاظ على المال. والعدالة الاجتماعية ركن من أركان الشريعة. فلماذا يكون الجهاد في سبيل جوع الأرض حراماً في الشريعة؟⁽³⁾.

ذا خطر في الشرع غير شديد
قائلا واثقا بعزم شديد
إنه ملك ربنا المعبود

مسلم لا حب فيه قد كفر
كيف يرضي الناس هذا الادعاء؟
وأضئ بالحق ليل العمل
ذاكرا لله يقظان الضمير
شر السلم إذا رمت سواه
اكتسى في الحرب عارا صفنا
راجيا منه دعاء الظفر
سيفه في صدره قد أغمدا

وفي أحشائها درر كبار
إذا لم يخش في موج خطر

بسيوف الجوع منه شذر
وخراب الملك جوع الدائل

= غرباء ومن لنا برجوع
أمسك السيف طارق في ابتسام
ملكنا اليوم خالصا كل ملك

رسالة الشرق، ص 298.

(1) إنما المسلم بالحب قهر
في رضاه الحق فناء
فدع القال إلى الحال الجلي
وكن الدرويش في زي الأمير
خير الحرب إذا رمت الإله
نحن إن لم يُعلِ حقا سيفنا
قصد الشيخ العليّ القدر
من لغير الله سل المغمدا

الأسرار والرموز، ص 55 - 57، المقدمة، ص 49.

(2) بحار العجم ليس لها قرار
ولكن لا أحب ركوب بحر

رسالة الشرق، ص 272.

(3) عسكر الملك وما قد أسروا
غصة السائل جوع السائل

الأسرار والرموز، ص 57.

ويرمز إقبال للمثال والواقع بالسماء والأرض. فما قد يُرى خريفاً قد يكون ربيعاً. وما يُظن أنه ربح وخسران هو دافع حيوي طبيعي تلقائي. وما قد يُظن أنه ذروة في الأرض قد يكون مؤشراً لعالم آخر⁽¹⁾. تحقق المثال في الواقع عملية فرح وسرور، وأمل وصبور. فالمؤمن جزل فرح⁽²⁾.

أ - الحياة كفاح

شكى يوماً كوكب لأخيه أنه في بحر دون ساحل. يسير بلا توقف. وليس له منازل. فإذا كانت النجوم تسير وفقاً لقانون فما جدوى العناء والحياة والزمان والكفاح؟ ويحجب الشاعر أن النجوم ملت زرقة السماء. وحتت إلى سماء الأرض. وللإنسان ميزة على النجوم لأنه يعيش فيما تشكو منه. يعيش في طعان وصراع كل لحظة. فحياة الأرض أولى من حياة السماء⁽³⁾. لذلك تبدو الحياة في الجنة حياة هدوء وسلام وصفاء. تخلو من المعارك والصراعات والهموم. ليس بها هم يوسف وزليخة. ليس بها من يصلى بنار، ولا من يصارع شراً. ليس فيها ربح يهب. فوزورها في أمان. ويقينها خال من الاحتمال. وليس بها ضلال عقل أو تردد شعور. فالنقص كماله في عالم مخلوق. إنما الشر هو الغرور له⁽⁴⁾. والحياة مخاطر.

(1) صاح عِلَّ الذي رأيت ربيعاً
سالك النهج! كل حين شؤون
رُبَّ ما خلته بدنياك أوجاً
ضرب الكلیم، ص 11.

(2) وكم في الوجود من الحبور
ويصدع غصنه برعوم زهر
رسالة الشرق، ص 264.

(3) سمعت بكوكب لأخيه يشكو
خُلِقنا للمسير بلا وقوف
فإن تمض النجوم كما تراها
بأشراك الزمان لنا إسار
لهذا العبء محمله شديد
كرهتُ القبة الزرقاء أوجاً
فظويي لابن آدم في طعان
خليق بالحياة له قوام
السابق، ص 282.

(4) وأين بجنة لعب الليالي
وليس هناك من فلك يدور =

والسعي فيها مجابهة لها. فقد شكى غزال لغزال آخر أنه بعد العيش في البلد الحرام نظراً لأن الصيد حوله في كل مكان ولا يطيب له المقام. ويريد تبديل خوفه أمناً. ويزيل هم الموت عن كاهله. فأجابه رفيقه بأن الحياة في الخطر الجليل. عليه أن يشحذ النفس. ويعيش أمضى من السيف اليماني⁽¹⁾.

يحمل المسلم على كتفيه عبء الدين والدنيا. ويكدح في نشوى، معتمداً على ذاته⁽²⁾. لم يبرز المؤمن اليوم لأنه لم يعد مجاهداً، لأنه لم يعد يدرك لذة الجهاد، ولا حرارة الجمر. الإيمان هو الذي يجعل الجبال تشرق عليها الشمس وتكسوها اللون القرمزي⁽³⁾. وفي منظومة باسم «الإنسانية» يصور إقبال أنه في جماعة شرب. وفي نشوة السكر، سأل أحدهم عن الله فقيل له: سبحانه وتعالى، ولكن أقول لكم

ولا فيها زليخا تستجير
ولا بكليمها شرر يثور
فزورقها على أمن يسير
ولا لوصالها هجر مرير
إذا وضحت طريق لا تجور
به المولى وليس به الغرور

ولا فيها ليوسف غم سجن
وليس خليلها يصلى بنار
وليس لصرصر فيها هبوب
ولا ليقينها «هل» أو «عسى أن»
وكيف يلذ عقل ذو ضلال
فلا تحفل بكون فيه نقص

السابق، ص 299.

فقال سأقصد البلد الحراما
فلا أستطيع في أرض مقاما
وأنفي الغم عن قلبي المعنى
حياتك فابغ في الخطر الجليل
وعش أمضى من السيف اليماني
لأرواح وأجساد عيار

غزال بث شكواه غزالا
أري الصيد حولي كل حين
أبدل خيفة الصيد أمنا
أجاب رفيقه أن يا خليلي
ونفسك فاشحذن في كل آن
ففي الأخطار اللهم اختار

السابق، ص 295.

الدين والدولة فعل هازي
فليس إلا كلم نوازي
كالله مستغن بلا إعواز

عبء على المؤمن ذي اللبالي
ولا أرى نشوان في كفاح
الآدمي منه في صفات

ضرب الكلم، ص 63.

اليوم لم تُبرز
جُمُركُ فيه معوزي

فأين يا مؤمن أنت
ما في جهاد لذة

يا شمس من سرادق المشرق هيا فابري

نُزهي بلون القرمز

واكسي جبالي حلة

السابق، ص 123 - 124.

بأننا صحيح من تراب إلا أن الكفاح هو ما يميزنا ولا أبادله مع قصد الله⁽¹⁾.

هذه هي النظرة الثاقبة إلى الحياة والتي يكافئ فيها زجاج الذات الحجر الصلب. وهي النظرة إلى الحياة. كفاح الحرب له وقته. والغناء له وقته. الطعان في حينه، وعزف الوتر حين يحين⁽²⁾. تقوي الذات بالجهد الدائم والكفاح المتصل. ويؤدي التردد والسكون إلى الدعة والخضوع والخوف. فمعين الحياة دماء القلوب وليس المياه. هذا هو الإهداء «إلى القارئ» الذي يقدمه إقبال في بداية «ضرب الكلیم»⁽³⁾. الحياة كالنهر المتدفق تقذف أمامها الصخور. فالسيلان أقوى من الثبات. والحياة أعتى من الحجر. الأقدام كالنهر. يتخطى كل العقبات⁽⁴⁾. الحجر للأقدام والاصطدام والحوادث. والنهر يشتاقه البر والبحر. والحجر يختلط على الناس وهو ثابت في الجدار، زجاجاً أم حجر. والنهر صاف واضح لا لبس فيه. الحياة فورة بورودها وأشواكها، بأفراحها وأحزانها، بنجاحاتها وإخفاقاتها. تمضي الذات كالنهر في الجبل. تعرف الأغوار والنجود. وتسير مثل السيل. تجرف كل شئ. لا تبالي هبوطاً أو صعوداً. لا تهتم بالمظهر والشكل، بل بالمضمون والجوهر. لن يعود الكهل شاباً بصباغ شعره. الحياة تنطلق مع الصقر. والصقر يأبى أكل الجيف. ويعبر الشعر عن الحياة. ولا يباع نقداً في الأسواق⁽⁵⁾.

A Message from the East., pp. 94 - 5.

- (1) إذا لم تصب في الحياة النظر
كفاح شديد وضرب شديد
فمعين الحياة دماء القلوب
ضرب الكلیم، ص ز/ ط.
- (2) قال نهر الطود يوماً للحجر
أنت لالأقدام والغم لقي
لم تُدهبه من جدار مرة
السابق، ص 3.
- (3) بسقوط وانتكاس تفتخر
وأنا يشتاقي بحر وبر
كيف تدري أزجاج أم حجر؟
السابق، ص 58.
- (4) امض في الدنيا كنهر في جبال
أو مثال السيل فاجزف كل شئ
قطوف الورد! لا تجزع لشوك
لا تبتغ الخضاب والتكويننا
رأيت العشق يأبى كل وغد
- (5) فليس زجاجك كفو الحجر
فلا تبغ في الحرب عزف الوتر
ولحن الدما لا المياه الفطر
واعرف الأغوار فيها والنجودا
لا تباليه هبوطاً أو صعودا
كذلك الشوك من نفس الربيع
لبس الشباب سرقة السنيننا
كميت الطير تأباه الصقور

حياة الذات كفاح وجهاد عن طريق تصوير الطبيعة والإسقاط عليها. فلا فرق بين حياة الذات وحياة الطبيعة النباتية أو الحيوانية. فالجدول الصغير محزون يسقط في الوهاد. لا يشتكي ضيق الحياة، ولا يمل من الجهاد. ينساب ويتوقف، ويهيج ويسكن، يستقيم ويتلوى. يروي ساكني الضفاف بينما يرتوي هو بالتمزق، كما تنير الشمعة وتحترق. وإذا تجمعت الصخور عليه تشتت وحزن من وجد الفراق. ثم يختار من ثغراتها درباً. ويمزق قلبها من أجل الجمع والوصال⁽¹⁾.

كل شيء ينمو. وهذا هو سر التجسد، حلول الروح في المادة. ويحدث النمو نتيجة للجهد والكد، وليس طبقاً لقوانين آلية. فالحياة حياة الوعي والتذوق وإلا كانت موتاً. قوة الذات تهب النصر. وخور الذات يرى في اليد التي تحمل السيف عبثاً. والجبل حبة خردل. لقد تناثرت النجوم، وانثرت الكواكب دون أن يعني ذلك العبث والفوضى. وينتهي الوجود كله إلى فراق. وأخيراً يظهر البدر آخر الليل وحيداً⁽²⁾. البحر دائم الحركات، موجة بعد موجة، وثبة في الحياة. هو تجل من تجليات الذات. واللهيب الذي منه يصعد الدخان هو لهيب الذات. يرفض السكون بين الماء والشطين كما ترفض الذات. ينطلق من الأرض إلى السماء كالذات. من الوحدة يخرج التعدد، ومن التعدد تعود الوحدة، لا فرق بين الذات والكون⁽³⁾.

(1) آه لهذا الجدول المحزون يقفز في الوهاد
لا يشتكي ضيق الحياة ولا يمل من الجهاد
ينساب، يرقد، يستقر، يهيج، يصخب، يتلوى
يروى الجلوس على الضفاف وبالتمزق يرتوي
وإذا تجمعت الصخور عليه شتت حزبه
واختار من ثغراتها درباً ومزق قلبها
جناح جبريل، ص 510.

(2) كل شيء إلى التجسد يسعى
وحياة بغير ذوق ظهور
قوة الذات قوة الذات سر
خور الذات يجعل السيف عبثاً
شردت نفسها النجوم ولكن
لفراق يؤول كل وجود
يظهر البدر آخر الليل فرداً
السابق، ص 448.

(3) إنه البحر دائم الحركات
= وثبة بعد وثبة في الحياة

وقد خلقت الحادثات من لهيب الذات، وإشعاعات الكون من حرارتها. كل ما فاض منها فاض عنها، وكل زهر يتفتح من تجليها. الراحة والسكينة في القلب خدعتان. فالكون ذرات يهيجها الزمان. والقوافل تضرب بالدفوف. ولا تفكر بالوقوف. وتتجدد باستمرار. في السير تصول وتجول. والمهم السير وليس الوصول، السعي وليس النجاح. التوق إلى الطيران يفجر سرها وراحتها في وثبتها. تحل وتعقد، تعقد وتحل. جوهرها الاستمرار في السير ومواصلة الكفاح. وتمضي في الثبات إلى الموت، طمعاً في الخلود⁽¹⁾.

تحتاج الدنيا إلى شهر الحسام. ولا يطيب المقام وهو في الغمد⁽²⁾. وللإنسان قدرة على رفع النقاب، والوصول إلى الشمس والبدر والسحاب. والخوف ليس حالاً للذات ولا مقاماً لها. وكيف يخاف البستان شهر الخريف؟ يرقص عش الطير

=
 ذاك بحر من الحياة تجلي
 واللهيب الذي تأجج فينا
 يرفض المكث بين ماء وطن
 إنها الوحدة التي كبلتها
 زغم كل التعددية تبقي
 واللهيب الذي تأجج فينا
 واحدا في تموجات الذوات
 والذي يحتوي جنون الدخان
 وهو راض عن كل ما يصنعان
 حلقات التعددية هذي
 وحدة ما لها نظير محاذي
 خلق الحادثات منك ومني
 السابق، ص 514 - 515.

(1)
 الراحة الكبرى بقلبك والسكينة خدعتان
 فالكون ذرات يهيجها برقصته الزمان
 وقوافل الأشياء في الأفق تضرب الدفوف
 وتروح تمعن في التجدد لا تفكر بالدفوف
 السير معناها العميق به تجول به تصول
 فدع الوصول لمن يريد فليس مطلبنا الوصول
 تترك سرها يستفطر
 وتحس راحة صدرها في وثبة لا تفتتر
 وتحل، تعقد ما تحل، تقيم تهدم ما تقيم
 فردوسها أن تستمر وروحها السير المقيم
 وإذا ابتدأها الموت وهو الندف في وجه الحياة
 ومن العسير كفاحه تمضي إليه في ثبات
 السابق، ص 516.

(2)
 ليشهر منك ذاك الحسام
 وتملك قدرة فارغ نقابا
 بغمذك لا يطيب لك المقام
 تنل شمسا وبدرا والسحابا
 زبور العجم، ص 401.

من الصواعق فما الخوف إذا ما أحرقت عش الإنسان؟ الحياة سر تملأ حياة الإنسان طيباً، وسهم يُقذف بعيداً كلما كان القوس شديداً. ولا يعيق ارتفاع النجوم من الوصول إليها. وزرقة السماء مختلطة بالماء الذي يشربه الإنسان⁽¹⁾. تتوق النفس إلى أن تتحكم في الآفاق إذا ما اتصفت الأبصار بالمضاء. واتسمت الإرادة بقوة العزيمة⁽²⁾.

ويعترف إقبال بأن إجابة الرومي على سؤال شرحت نظرته، ووسعت أفقه. وعاد وسأل عن الجهاد. ويجيب الرومي بأن من سوى الأصنام سوى الفأس؟ وأحجار الحبيب تستطيع كسر الكأس. ولا يُزرع بلو وليت فإن ذلك يكشف عن ضعف الهمة. والإنسان قادر على أن يجرح الدهر ويأسو به⁽³⁾. لقد تفتحت عين المسلم على الجهاد. وكُشفت له أسرار الروح. ليس له جيش عرمرم، ولكن له ذات أكرم من ملوك الأرض. ولو استردت الذات حقها لكان جلالها أكرم⁽⁴⁾.

(1) لا يخاف البستان شهر خريف
يرقص العرش في السماء لهيباً
الحياة الحياة لفظة سر
إنها السهم منذ كانت رمته
لا تعيق النجوم سرك هذا
أخط في الموقع الذي أنت فيه
جناح جيريل، ص 445 - 446.

(2) لا تتوق النفس أن تحكم آفاق الفضاء
حين لا تتصف الأبصار حقاً بالمضاء
السابق، ص 451.

(3) قال يا من شرحت نظرته ضيق فؤادي
أملني أفهم ما تفهم من أمر الجهاد
قال: من سوى لك الأصنام سوى لك فأسه
وبأحجار الحبيب يضرب الحاذق كأسه
لا تقبل لبيت ولولا ما على هُك بأس
أنت يا هذا الذي يجرح في الدهر ويأسو
السابق، ص 524.

(4) لعينيه الحياة أنا فتحت
كشفت الروح أسراراً فهلا
وليس للمسلم جيش عرمرم
فلو ردوا إلينا اليوم حقاً
وما في الأمس والغد كم شرحت
بلاغة يعزب يوماً منحت
بذات من ملوك الأرض أكرم
لكان جلاله لا ريب أعظم
أرمغان حجاز، ص 442.

يأذن إقبال جهاراً بحمل السيف. ويصرح علناً بضرورة الجهاد. فتجربة الشاعر أن السيف أصدق أنباء من الكتب ضد فتوى الشيخ، إن العصر هو عصر القلم. والسيف ليس حاكماً بين الأمم وإلا تحول الإسلام إلى مجرد وعظ داخل مسجد، مجرد لغو كلام. السلاح دائماً في كف المسلم، وروحه في الكف الآخر. لا يحرم لذة الشهادة. لا يخاف الموت بل يعشق الشهادة. تعليم المسلمين الجهاد اليوم لمواجهة الطغاة، خاصة وأن الغرب مدجج بالسلاح، يعتدي على المسلمين. يغزو بلادهم، ويحتل أراضيهم⁽¹⁾. الجهاد مستمر اليوم وغداً كما بدأ في الماضي كنور مستمر، وشعلة متقدة. فالحق يضاهه الباطل على مدى التاريخ. ومن ثم لزم الجهاد دائماً. ومن لم يبدؤه اليوم لن يقوم به في الغد⁽²⁾.

ويدعو إقبال بوضوح إلى الثورة في مقطع يتكرر تسع مرات «أصبح، ثر. أتحدى، ثر. ثر أو مت». ويوجه النداء أولاً إلى المأجورين المرتزقة الذين يبيعون دماءهم بحقنة من الروبيات، وخدم الطغاة الذين يساعدون على زيادة ثروتهم، والفلاحين والعمال والمحيطين. وثانياً، إلى مشايخ المدن الذين يقبضون على مسابحهم ويصلون كثيرين عن الطريق، والبراهمة الذي يضل الناس بخيوطهم وإلى موتاهم. وثالثاً، إلى الأمراء والسلاطين المقامرين الذين يلعبون بالنرد، وأرواح رعاياهم تخرج من أجسادهم وهم نيام. ورابعاً إلى الوعاظ في المساجد والأطفال في رياض الأطفال حتى يقولوا الحق الذي يعرفه الناس بفطرتهم، ويكتشفون كذب الوعاظ ورجال الدين. وخامساً، إلى الأخوة المسلمين الذين جهلوا العلوم مع أن الدعوة إلى الله لا تكلف شيئاً. وسادساً، إلى كل من يحول الحق إلى باطل

(1) الشيخ أفتى أنه عصر القلم أما درى الشيخ بأن وعظه فما ترى السلاح كف مسلم من قلبه يهاب موت كافر فعلمن ترك الجهاد طاغيا ضرب الكليم، ص17.

(2) من عداه ليومه في جهاد ماله الحق في متاع وهم ليس أهلاً لمعرك الغد من في سيره (اليوم) ليس بالمعدود

والصواب إلى خطأ، إلى من يحاول منع الشمس عن الشروق وهو مغمض العينين. وسابعاً، إلى الكنائس بعد صلب يسوع المسيح وأيضاً إلى المسلمين الذين يحملون القرآن ويهربون من الكعبة. وثامناً، إلى كل من يتقن سموم الحيات في الأوعية وإلى كل من يتلوى بسببها. وتاسعاً، إلى كل المستضعفين الذين مازالت لديهم قلوب الأسود وقوة النمر والذين ما زال في مصابيحهم بقايا ضوء⁽¹⁾.

ويخص إقبال «الإنسان الآسيوي» بالنداء. فقد خلق فضاءً جديداً ليس الهدف منه الحج إلى الأصنام بل تحطيم كل الأصنام⁽²⁾. فالإسلام الآسيوي قادم. والإنسان الآسيوي هو الذي سيكمل الرسالة التي حملها الإنسان العربي.

ب - الذات عمل

والذات كوعي مقدمة للذات كفعل، في الحاضر والمستقبل⁽³⁾. وتسعد الأمة بالعمل. لم يطلب الدين من الإنسان أن ينام ويطيل النوم دون حراك. فالدين ليس سحراً ولا أفيوناً. ولا يعتذر الإنسان عن نومه بأنه لا يملك شيئاً لأن الإله هو المالك لكل شيء، والإنسان عامل فيها، مصلح دون مفسد. التأمل دون فعل موت⁽⁴⁾.

إذا سلم قياده لإبليس فإنه يفسد في الأرض. فإن لم يكن الإنسان أميناً ينجز أعماله فليرد إلى الإله ماله وإلا أخذ ما لا يملك. العمل مصدر الملكية. فإذا فعل فإنه يشكو الفقر وهو سببه⁽⁵⁾. والسعي في الرزق أحد تحقيقات الذات. ويكون

(1) Persian Psalms, p. 86 - 8.

(2) Ibid, p. 99.

(3) وتلك الذات يوماً من يشاهد
وها قد طاف في خلق كثير
وتسعد أمة للذات عادت
سيلمع نورها في الأفق شرقاً
أرمغان حجاز، ص 467.

(4) St. Ref., p. 110.

(5) أي دين! وإلى نوم دعاكا
أفسحر ذلك أم دين لك
أتقول ما لدينا ملكنا؟!
فأطلت النوم لا تبدي حراكا
نشوة الأفيون تمحو وعيكا؟
يملك الملك جميعاً ربنا =

السعي في أقصى الأرض دون الاكتفاء بالسعي القريب. ويكون بالاعتماد على الذات، والنظر في كل أمر من أجل العلو المستمر. والتمساح لا يلزم الشط بل يغوص في عمق البحر. يحمله بصدرة، ويغلبه في طوفانه. ولئن غفل لحظة اصطاده الصياد⁽¹⁾.

تسير الذات في صحراء مملوءة بالأشواك حتى تدمي قدميها فتتقرح. ومع ذلك تسير في جنون وحزم. وهو ما لا يفهمه العلم. شوك الصحراء قادر على حل الأمر بنفسه⁽²⁾. الحياة تمزق صدر الفضاء، معارك مستمرة، واحدة تلو الأخرى. كذلك الحب لا ينتهي ولا يستقر، تجربة وراء أخرى. لو قضى على عش يُبنى ألف عش. فلا مكان لليأس، بل الأمل متجدد باستمرار. ولا بكاء على بستان، فالبساتين كثيرة. الإنسان كالنسر دائماً في الهواء. لا يستريح دون بكاء على عش رماه القضاء. فهناك آلاف الجرحى، وآلاف المناسبات للبكاء. السماوات فسيحة،

في الكتاب قوله لا تفسدوا
إنما إيليس من يسعي فسادا
ليته لله رد ماله
يا لعمرى ليس هذا شأن مثلك!
أو فخاطب منك نفسا عاتبا
كي تحل أنت في الأعمال عقده
ما لرب الكون قلت: ذا لنا!

فخير منه موت في الوكوز
لنا من نظرة سوط لنجري
لكي نعلو ونعلو مثل طير
لزوم الشط في ديني حرام
فعش بحرنا وبه ننام
وذا الطوفان في حرب غلبته
لكان مقاتلا ما إن قتلته

عقد السالكين من حيث يُدمي
لست تنجو بلا جنون وحزم
يستطع أن يفكّ العلم كله
وبأسلوبه اللطيف يحلّه

= كل أرض أرض ربي فاشهدوا
سلم المرء لإيليس القيادة
من أمين منجز أعماله؟
قد أخذت أنت شيئا غير ملكك
املكن الشئ فيه راغبا
إن ملك الله هذا فترده
ولماذا اليوم نشكو فقرنا؟

جاويد نامه، ص 242 - 243.

(1) إذا ما كان صيدك بعض ريش
لذاتك نظرة في كل أمر
وما نسعي وراء الذكر إلا
وللتمساح هذا الكلام
عن الشط ابتعد موجا تسلق
وهذا البحر في صدر حملته
ولو في برهة أعيا وأعفى

أرمغان حجاز، ص 479 - 480.

(2) شوك صحرائنا يحل بلطف
فامض في الشوك حافيا وتفرح
لغز هذي التداخلات وإن لم
شوك صحرائنا يغور برفق

جناج جبريل، ص 448.

والطير لا نهاية له دون أغلال⁽¹⁾.

الذات من طين، ولكنه نفخ فيه من روح الحياة، فاشتعلت ناراً، وأضاءت الكون. وإذا لم تهب الطبيعة الشاعر فكراً ثاقباً فإنه لا يبالي لأن من طينته يستطيع أن يطير. فهي طينة معجونة بالجنون. تصقل الحس. وتجعل الغبي ذكياً. وهو ما تجلى في عهد ﴿ألست﴾، واختبار الإنسان خليفة الله في الأرض بالرغم من اعتراض الملائكة على الخلافة مع سفك الدماء والإفساد في الأرض. لا يهمها صنع عش من أغصان الشجر في البستان بل الارتفاع إلى السماء، والسباحة في الفضاء. والنجوم تأسى على الدموع في الأجفان⁽²⁾.

تودع الملائكة آدم وهو يغادر جنة عدن أسفين على تغلب الطين على الروح. ويخبرونه أن الدنيا كذلك بكاء وغناء⁽³⁾. وتستقبل الأرض روح آدم وتنصحه بكيفية التعامل مع الأرض. فهو من طين وماء مثلها. فهو في مكان أليف وسط العالم. الصبر على الشقاء فضيلة. والعالم ضجة حرب، خوف ورجاء. وهما حالتان

يصاحبها ركبها المستمر
وقافلة خلف أخرى تمر
ولا تستقر معاناته
إذا هي زالت سمواته
ففي روضنا ألف عش لك
لكنت بكيته له مثلك
ولا تبك عشا رماء القضاء
وألف مناسبة للبيكاء
وأنت قصارك في أن تطير
تضيّع نكهة هذا المسير

(1) حياة تمزق صدر الفضاء
مغامرة خلف أخرى تخوض
كذلك حيك لا ينتهي
هناك تجارب أخرى له
إذا ضاع عش فلا تكتئب
ولولا بساتين أخرى هناك
فطر ليس للباذ أن يستريح
ففي دربنا ألف قلب جريح
سمواتنا تلك لا تنتهي
فإياك أغلالهم إنها
السابق، ص 453.

ثاقبا، غير أنني لا أبالي
طيراني المخف عبر الليالي
طينة تجعل الغبي نبيها
ورأى قوله: أنجعل فيها
من دقاق الأغصان في البستان
لبريق الدموع في أجفاني

(2) لم تهب لي الطبيعة اليوم فكرا
عدتي طينتي التي وهبتني
طينة بالجنون تصقل حسي
ربما مزقت لجبريل سرا
طينتي لا يهمها صنع عش
وجبين النجوم يرشح عارا
السابق، ص 458 - 459.

وغنناء ليس إلا

(3) إنما الدنيا بكاء
السابق، ص 521.

صوفيتان. كل ما في الكون من بحار وفضاء وسحب ويبد ملك الإنسان⁽¹⁾. كان آدم ملاكاً ولكن غلبت عليه الدهشة والفناء. وإذا نظر في مرآة ذاته عرف القضاء. وإذا حدق عرف سر البقاء، وصراخ كشررات تتعالى إلى السماء⁽²⁾. لقد أضاء ضوء الشمس من شرارة آدم. يعيش في عالم جديد. فردوسه ذاته، ليس لها نهاية، جوهره الروح وليس الجسد المتناهي. هو كالزهرة في العطاء⁽³⁾. ومع ذلك كل أوتار آدم تبكي كالعود الشريد. مع أن كل ميراثه حب يتخير منه ما يريد. وهو سيد الأسرار في المعبد منذ وقت طويل. تبلى الذات فيه ثم تستيقظ من جديد. وتمتطي كل جديد بسهولة ويسر⁽⁴⁾. واشتكى إبليس لله يوماً لماذا يتعالى ابن الطين عليه

- (1) فأتى الأرض فقالت أنت يا آدم فاعلم حولك العالم فانظر ووراء الحجب حسن لا تكن نافذ صبر ضجة العالم هذا لك ما في الكون ملك هذه السحب جميعاً السابق، ص 521.
- (2) كنت من وجه ملاك فخذ المرآة وانظر نظرات ذات مغزي وشرايات صصراخ السابق، ص 522.
- (3) إن ضوء الشمس هذا عالم أنت جديد أنت فردوسك ذات جسد؟ لا ليس هذا أيها الزهرة فانظر السابق، ص 522.
- (4) كل أوتارك تبكي كل ميراثك حب سيد الأسرار في المعبد من وقت بعيد ثم تبدي وتعيد تمتطي كل جديد السابق، ص 522.
- إنه آدم جـاء
كنت من طين وماء
وتمتحن في السماء
فتأمل ما وراء
واحتمل وهم الشقاء
حرب خوف ورجاء
من بحار وفضاء
هذه البيد العراء
- في اندهاش وفناء
فيك أسرار القضاء
أطلقت سر البقاء
يتعالى في السماء
- من شراراتك ضاء
أنت والكون سواء
مالها قط انتهاء
جسدا هذا جزاء
كيف تمضي في العطاء
- أيها العود الشريد
فتخير ما تريد
سعيد من وقت بعيد
ثم تبدي وتعيد
تمتطي كل جديد

وهو من نار وابن آدم يتحول إلى تراب؟ روحه واهنة، وكرشه كبير، وثيابه موفورة. عقله في الذروة وقلبه يلفظ روحه. ويطلب إبليس من الله أن يداوي جروحه⁽¹⁾.

وفي حوار بين جبريل والشيطان أي بين الخير والشر سأله جبريل عما شاهد في عالم الألوان والعطر الجديد، عالم الغواية والجدّة والإغراء؟ فرد الشيطان بأنه شاهد الشوق والطموح. وسمع البكاء والنشيد. ثم سأل إقبال من جديد أن حديث الناس في الحضرة الإلهية من صنعه، وأن جلاليب الناس مرقعة من خرقه. ويدافع الشيطان عن نفسه بأن كلامه في الظاهر يشقي. وفي الباطن يسر. تكسر قرح سره. ولم يعد قادراً على الصعود إلى الملاء الأعلى. بل إنه لا يطيق العيش فيه. والفرق بين جبريل وبينه هو الفرق بين اللعنة والرحمة، بين الموت والحياة، بين اللاعودة والعودة، بين القنوط والأمل⁽²⁾.

واستدرك جبريل قائلاً للشيطان إنه عندما استتكف طاعة لله للسجود لآدم ناله

(1) قال إبليس الرجيم
ما لنجّل الطين هذا
هو ذا آدم بعدي
واهن الروح كبير الك
عقله في الأوج لكن
ما لقلبي غيرك اللهم لو تأسر جروحه

السابق، ص 544.

(2) التقى سيدنا جبريل إبليس الرجيم
قال: ما شاهدت قل لي أيها الخل القديم؟!
ما جرى في عالم الألوان والعطر الجديد
قال: شوق وطموح وبكاء ونشيد
قال: ما زال حديث القوم في الحضرة خالقك
أولا يمكن أن يرقع في الجلباب خرقك
قال: هيهات ولكن لست تدري ما أسر
هو في الظاهر يشقي وهو في الحق يسر
قرح السر الذي أسكرني منه تكسر
ورجوعي للأعالي بعد سكري يتعسر
أنا حتى لا أطيق العيش في تلك الأعالي
أنت للرحمة حال وأنا لللعنة حالي
ذلك المعالم ما معناه من غير أوابد؟
إنه الموت الذي تعرف لولا ما أكابد

العار، ونال الوجود كله. وارتعد المملأ الأعلى من عصيان الشيطان. ملاء الذعر، وتملكته الرجفة. فأجاب الشيطان بأن جرأته هذه سر البقاء، وأن النار سر النماء، وليه الجديد. جبريل على الشاطئ ينظر إلى صراعات المواقف. أما الشيطان فإنه يواجه العواصف. وعندما تعصف ريحه أمواج البحر لا يرى إلياس والخضر أي حيلة. فإذا أمكن يوماً سؤال الله: من الذي خضب تاريخ ابن آدم بالدم؟ دم الشيطان أم دم ابن آدم؟ لأجاب إنه جعل الشيطان شوكة تجرح قلب بني آدم ولكنه لم يجعله سفاحاً. وليس أمام ابن آدم إلا إثبات الذات أو نفيها قرينة إلى الله⁽¹⁾.

ج - العالم ميدان للفعل

خلق الله العالم لصالح الإنسان. خلق الأنام من طين وماء. وخلق الشعوب والأقوام. وخلق الحديد من التراب. أما الإنسان فصنع الفاس للجذع والغصن. وصنع القفص لطير طليق يغتني. ويجب الإنسان بأن الله خلق الظلام فصنع

= فإذا كنت حياة بقننوطي للوجود
أترى الواجب أبقى في قننوطي أم أعود؟
السابق، ص 529.

(1) قال: لکن عندما استنکفت کبراً أن تطيعه
نالک العار ونال المملأ الأعلى جمیعہ
صار شغل المملأ الأعلى أمام الله خوفه
یهدر الذعر علیه تملأ الرعدة جوفه
قال: یا جبریل لکن جرأتی سر البقاء
وهبت لحمأ المسنون شوقاً للنماء
أنت فی الشاطئ ترنو لصراعات المواقف
أنا أم أنت الذي تصفعه تلك العواصف؟
عندما تعصف ريحي لجج البحر الجليله
لا يرى إلياس والخضر من الواقع حيلة
فإذا أمكن يوماً تسأل الله تعالی
فإننا أرجو أن تسألہ هذا السؤال
دم من ذاك الذي خضب تاريخ ابن آدم
دم من هذا (دمي أم دمه أم دم آدم)
صاغني الله تعالی شوكة تجرح قلبه
أنت لا تتقن إلا النفسي والإثبات قرينة
السابق، ص 530.

الإنسان السراج. وخلق الماء فصنع الكؤوس. وخلق الصحراء فزرعها خضراء. وخلق الحجارة فصنع المرايا، وخلق الداء فصنع الدواء⁽¹⁾. هناك إذن تبادل في الخلق والصنع بين الإنسان والله. والبراعة بالرغم مما يبدو عليها من ضعف فهي قوية. هي ليست كالنمل تدب على الأرض ويدهسها الناس كما دهسها سليمان بجنوده. ولا تنجذب إلى نيران غيرها كالفراشة. إذا حلك الظلام أنارت بنور أضلاعها طريقها كعين ظبي⁽²⁾.

العالم مبسوط أمام الذات لتكد فيه كالهلال الذي يكد ويفر في السماء. ولو لم تتغير وجوهه وتبدل لما كان إماماً في السماء. والنسيم لا يفتح برعم وردة بلهاء عن شمس الصباح. المهم ظهر العيون، والقلب في حضنها⁽³⁾. درب الإنسان في السماء فعليه اليقظة. مكانها ليس خلق الزمان صباحاً أم مساء بل أمامه. فالدرب في الزمان، لا نهاية له ولا بداية حتى لا يأسف الركب. ولا يعلم أحد أين تنشب الحربة، ويسد الرمح؟ المعروف فقط أنه لا سر في التسكع والتردد والخنوع والقعود في المساجد والكنائس. واللؤلؤ البازخ من المحارة يتجلي في دمع الصباح وليس في خدع الحضارة. والقرمزي الخد لا يحتاج إلى مسحوق من السوق.

(1) الله: خلقت الأنام لطين وماء
خلقت من الترب هذا الحديد
وفأسا خلقت لجذع وغصن
الإنسان: خلقت الظلام فصغت السراج
خلقت جبالا وبيدا ومرجا
أنا من حجار صنعت مرايا
رسالة الشرق، ص 291.

(2) تقول براعة: لا تحسبني
ولا أعشوا إلى نيران غيري
إذا حلك الظلام كعين ظبي
السابق، ص 291.

(3) هذا الهلال بصدقه يتسامي
لولا تجاوزه لكل وجوهه
لا تفتح الأنسام برعم وردة
ظهر العيون هو الحقيقة كلها
جناح جبريل، ص 462.

خلقت تتارا وزنجا وفرسا
وسهما خلقت وسيفا وترسا
وسجنا صنعت لطير مغني
وطينا خلقت فصغت الكؤوسا
خلقت حدائقها والغروسا
أنا من سموم صنعت دوايا

كنمل السوء بألمني رفيقي
كما يهفو الفراش على الحريق
أنرت بنور أضلاعي طريقي

أبدا يريد الكر والإقداما
ما كان في فلك السماء إماما
بلهاء عن شمس الصباح تحيد
والقلب في حضن العيون مريد

والعازف الموهوب لا يرضى بألحان السوقة مثل ألحان هذا العصر طالما أن الصوت الذي في القلب يخطئ في الغناء⁽¹⁾.

12 - الزمان والخلود⁽²⁾

أ - الزمان الشعوري

الوقت سيف، حاد قاطع. لذلك كانت الأفعال في الأوقات أداء على الفور وإلا كانت قضاء أو على التراخي. وهي تسمية الشافعي واضع علم الأصول. الزمن يشق الصخر ويشق البحر كما فعل موسى بعزيمته. وينادي إقبال على أسير اليوم والأمس للتأمل في الكون الكامن في القلب وإلى النظر في حقيقة الزمان. فهو ليس خطأ مستقيماً يرفضه برجسون، يذرعه ذهاباً وإياباً، صباحاً ومساءً، ليشقى عليه أو يلف به رجل الدين وشاحه. بل هو شمعة تقطع الزنار بناهاها. الزمان هو الخلود وليس المكان. الزمان هو الله. لذلك جاء في الحديث «لا تسبوا الدهر فإن الله هو

(1) يا أيها الإنسان كن يقظاً فدريك في السماء
لا ترم نفسك خلف هذا الصباح أو ذاك المساء
الدرب ذلك ماله زمن ليأسف ركبته
ومن الذي يدري ويعرف أين تنشأ حربه
لا سر ينبض في التنسكع والتمهل واليقين
فوق المواخر والمساجد والكنائس أجمعين
اللؤلؤ الفرد الذي قد ند عن صدر المحارة
مجلاه في دمع الصباح وليس في خدع الحضارة
القرمزي الخد لا يحتاج مسحوقا يباع
والعازف الموهوب لا يرضى بألحان الرعاع
ألحان هذا العصر يلزمها الكثير من الذكاء
إذ طالما الصوت الذي في السر يخطئ في الغناء
السابق، ص 467.

(2) تغدق الصخرة من ضربته
كان هذا السيف في كف الكلیم
يا أسير اليوم والأمس انظرا
أنت في النفس بذرت الباطلا
حيرة العبد مسيرُ الزمن
حيرة الأزمان قلبُ المؤمن
ويفيض البحر من صولته
فشأى التدبير بالعزم الصميم
انظرون في القلب كونا سترا
وحسبت الوقت خطأ طائلا
الأسرار والرموز، ص 63 - 65، المقدمة ص 49.

الدهر». وهو ما حوله نجيب محفوظ على لسان أحد أبطاله «لا تسبوا الله فإن الله هو الدولة» نظراً لتسلط الدولة القاهرة على رقاب الناس. يحتار العبد في مسار الزمن، وتحار الأزمان في قلب المؤمن⁽¹⁾.

العبد ينسج على الزمان كفنأً ويذعن له، والحر تنسج منه الأيام والليالي. العبد يضع نفسه في قفص الزمان، والحر يطلق نفسه في سماء الزمان. العبد تتكرر أيامه ولياليه، والحر كل يوم جديد الخلقة. ويعتذر العبد بالقضاء. والحر تصور يده كقيد القدر، وسيطر على أحداث الدهر. العبد يغلبه القدر، والحر يمسك بالقدر. إن كل ما في الكون من آثار الذات، وكل ما في الأرض من ربهها. العبد يحمل التاج ويطيع الأمر، والحر يلبس التاج ويده الخاتم الذي به ينقش الأمر. إن الذات هي مرآة الحق، ووجود المسلم آية الحق.

الزمان شعوري، زمان الضمير، توتر باطني. لا يقسم بالشهور والسنين كما هو الحال في أهل الكهف، وإحساسهم بأنهم كانوا نياماً يوماً أو بعض يوم وقد تجاوزوا ثلاثمائة وتسعة أعوام⁽²⁾. الزمان ليس قيئداً على القلب. ولا يقيد الزمان قلب الهمام⁽³⁾.

(1) ومن الحر جديد الخلقة
قيئد العبد صباح ومساء
وأرى الحر مشيراً للقدر
سر غيب وحضور في القلوب
إن للوقت للحننا صامتنا
أين أيام بها سيف الدهر
إن هذا العصر من آثارنا
روضة الحق ارتوت من دمننا
لا تهون قدر حر أعدمنا
ذاتنا المرآة للحق، اعلم
السابق، ص 66 - 67.

(2) وفي غير المكان رأى مكانا
زمان ما بدا لي في الضمير
زبور العجم، ص 382.

(3) رُغم أن الزمان للقلب غل
جناح جبريل، ص 466.

ب - خلود الزمان

الزمان متصل من الأمس إلى اليوم إلى الغد، من الحياة الدنيا إلى حياة أخرى ما بعد الممات من خلال الأثر في الدنيا عن طريق العمل والسنة التي يقتدي بها الناس. الأمس خبرة واسترجاع، واليوم توتر وشحذ هممة، والغد استباق وأمل⁽¹⁾. وصحبة الذات مدة طويلة تؤدي إلى الخلود. وهو ما عناه الفلاسفة بالاستمرار بين الأمس واليوم والغد⁽²⁾. تستطيع الذات أن تحول أيامها إلى خلود⁽³⁾. وتخليد الذات بالوصال⁽⁴⁾.

الزمن لحظات متعددة كما أن العمر من لهيب الثواني يشعلها الزمان، وكما يسقط الجديد بالكأس قطرة قطرة، وكما يسبح العابد في حبات سبحة، يسبح إقبال بزمانه الأيام والليالي. حباتها كلها معروفة لكنها لا تساوى. فلحظات الزمان كل منها فريدة. كل منها طريقة وسلوك. الزمان وحدة واحدة ولحظاته مرتبة أو مجمعة. مرة تكون سوطاً ومرة تكون عناناً⁽⁵⁾. لا تكثر الذات للسنين، وتسير إلى الأمام وقيمة الأيام والشهور والسنوات وما فيها من تجارب وقد تكون لحظة واحدة

- | | |
|---|---|
| (1) وأمسي قلبي، وعبرة اليوم عيني، وغدي منيتي وكل بديع السابق، ص 277. | (1) وأمسي قلبي، وعبرة اليوم عيني، وغدي منيتي وكل بديع السابق، ص 277. |
| (2) وذاتك أن تعانقها طويلاً ذكرنا الأمس والغد في دوام وفطرتنا انقطاع عنه كانا زبور العجم، ص 386. | (2) وذاتك أن تعانقها طويلاً ذكرنا الأمس والغد في دوام وفطرتنا انقطاع عنه كانا زبور العجم، ص 386. |
| (3) ولك الأيام فاجعلها خلوداً والسابق، ص 391. | (3) ولك الأيام فاجعلها خلوداً والسابق، ص 391. |
| (4) وفي الإمكان تخليد لذات وجعل الوصل من هذا الشتات السابق، ص 399. | (4) وفي الإمكان تخليد لذات وجعل الوصل من هذا الشتات السابق، ص 399. |
| (5) شعلة العمر من لهيب الثواني يسقط العالم الجديد بكأس سُبْح القوم لعبة في يديهم كل حياتها عرفتُ ولكن ولكل طريقة وسلوك مرة أجعل الأعنة سوطاً جناح جبريل، ص 419 - 420. | (5) شعلة العمر من لهيب الثواني يسقط العالم الجديد بكأس سُبْح القوم لعبة في يديهم كل حياتها عرفتُ ولكن ولكل طريقة وسلوك مرة أجعل الأعنة سوطاً جناح جبريل، ص 419 - 420. |

أقيم من عام بأكمله⁽¹⁾. ولا تصغي لأقوال القائلين من هنا أو هناك. فجهاد الذات يتعالى على الغيرة والتحطيم. وجائزة الحر ليس من الخمر أو الغواني أو الخيام. والطعام لا يأتي إلا لمن يطير فوق الغمام⁽²⁾.

الذات ليست الفرد بل الكون، وليس الشخص بل العالم وهو ما يسميه إقبال توسيع الذات. الذات زمان متجه نحو الخلود، أنفاس أيام تصب في الدهر⁽³⁾. فلماذا يقضي على الدنيا بالهوان وستر المغيب؟ لماذا عدم البدء بالحاضر فالغد في ضمير الزمان؟⁽⁴⁾. هذا يتطلب طموحاً ورفض الحاضر. وإذا كان الإنسان قادراً على أن يحلق كالصقر فلماذا السير في الصحراء أو كالنمل في التراب؟⁽⁵⁾. الذات من الطين وينسب إلى قوم. والإنسان إنسان بلا لون ولا ربح ولا قوم. الإنسان إنسان⁽⁶⁾.

الذات باقية بعد أن يرحل كل شيء. الذات جوهر ومظاهرها أعراض. الذات مركز الكون، وقائد الميدان. سيدة الجبال والصحراء. جندتها في الأرض وفي السماء. لذلك لا يمكن إهدارها وإلا أهدر الفرد وعمت البصيرة، وقصر النظر. ولا

St. Ref., p. 145.

- (1) كما أنت لا تكثرث للسنين
(2) كما أنت لا تصغ للقائلين
تعالى جهاد النزيه الغيور
وجائزة الحر غير الخمر
على الطعم يسقط من لا يطير
السابق، ص 427.
- (3) قاهرُ الأيام من أنفاسه
ضرب الكليم، ص 73.
- (4) على دنياك تقضي بالهوان
فاحكم يومك المشهود واعلم
رسالة الشرق، ص 272.
- (5) إلام تعيش في رث الإهاب؟
فَطِرْ كالصقر معتزما وحلق
السابق، ص 272.
- (6) رأيتك لا تزال أسير طين
أنا بشر بلا لون وريح
السابق، ص 273.
- وسر في طريقك نحو الأمام
فلمست لنجد ومصر وشام
تعالى يكون لنيل الحطام
وغير الغواني وغير الخيام
ومن لا يحلق فوق الغمام
- هي أعمار خلود في الدهر
- وستر للمغيب كل أن
بأن غدا ضمير في الزمان
- إلام تعيش نملاً في تراب؟
إلام أسير حب في اليباب؟
- إلى ترك وأفغان تُرد
وللتوران أو للهند بعد

يمكن عبادة الأرض لأنها للذات. فالذات إما راهب يمتلك نفسه أو ملك يمتلك الغير⁽¹⁾. والذات تتوالى عبر الأجيال وتتحول إلى وعي تاريخي مستمر. وتتصل ذات المحدثين بذات القدماء⁽²⁾. تتمثل نضال الأجداد نحو العلا، وتتأسى ببذل الروح من أجل رضا الرحمن⁽³⁾.

ويسأل إقبال عن البعث والمصير. وهل السؤال ناشئ عن ضعف اليقين أو من جهله بأسرار الدين؟ ويجيب الرومي بأن السؤال مغلوط. فليس المقصود السؤال الفلسفي الخالص، ماذا يحدث بعد الموت؟ بل سؤال البعث في الدنيا ويقظة الذات، وأنها درب الحياة⁽⁴⁾. ويوصي هارون الرشيد ابنه وهو يحتضر أنه سيمر من نفس الطريق. الموت نور في عيون المؤمنين. لا تشاهده عيون الكافرين⁽⁵⁾.

- (1) يرحل كل كائن ويذهب وأنت أنت فارس الميدان يا سيد الجبال والصحراء أهكذا قيمتك الذاتية فيالها بصيرة في كدر لا تعبد الأرض فإنها لكما السابق، ص 447.
- (2) تهب الذات لهيبًا آخر أنا حطمت بهذين الجيوش وبريقًا ثانيًا من مُقلتك لِمَ لا تخلفني في أمتك؟ السابق، ص 540.
- (3) فتمثل نضال أسلافك الأمجاد نحو العُلي بغير تواني وتدبر كيف استهانوا ببذل الروح والمال في رضا الرحمن قال: يا أستاذ! أين البعث من ضعف يقيني وأنا أجهل ما أجهل من أسرار ديني قال: ما أنت وهذا ابعث النفس بذاتك ثم سل نفسك ماذا إنها درب حياتك السابق، ص 526.
- (5) قال الرشيد لابنه يوصيه: ها أنذا احتضرت ستمر بعدي أنت من هذا الطريق كما مررت ابني إن الموت نور في عيون المؤمنين والنور هذا لا تشاهده عيون الكافرين السابق، ص 448 - 449.

وتتحقق الذاتية في البطولة، والبطولة في الشهادة. وإن تعود الصدر على جرح الصدر فإن الذات تعيش كالصقر أو تموت كالصقر. والدين والعرف يقضيان أن تكون الذات كالليث وليس كالشاة⁽¹⁾. ويموت العبد خوفاً من الحياة التي وضعها كلها في إطار الحرام. للمسلم جناح يطير به وألحان يشعل بها السعير، ولكنه لا يخشى الموت⁽²⁾.

والخلود الشخصي ليس حالة بل عملية. وقد انتهى كل النقاش حول النفس والبدن إلى طريق مسدود. وكانت له عواقب وخيمة. وقامت مذاهب فلسفية عديدة على هذا التمييز الخاطيء. فالإنسان طاقة أو قوة أو علاقات قوى تخضع لنظم معينة. والشخصية أحد هذه العلاقات بصرف النظر عن كونها مقصودة أو مصادفة. هي واقعة ضمن وقائع طبيعية أخرى، باقية أم غير باقية. ويبدو أنها مستمرة وفعالة كشخصية إنسانية ناجحة. هي أشبه بدائرة تتقاطع فيها خطوط أخرى تضمن استمرار هذه الدائرة بتحويلها إلى طاقة، وتجنب ما يقضي عليها مثل: التواضع، الرضا، الطاعة العمياء، وأنماط سلوك أخرى تسمى الفضائل. في حين أن الظموح الكبير والكرم والإحسان والاعتزاز بالتراث والقوة تحافظ على الشخصية. والشخصية هي الخير الأقصى. وهي معيار السلوك. وهو الذي يحافظ على الشخصية. وللحفاظ عليها تصارع ضد الموت الذي يقضي عليها كلية. الخلود الشخصي إذن بين أيدينا. هو جهد للحفاظ على الشخصية. ولذلك نتائج خطيرة إذا ما تمت مقارنة الإسلام بالبوذية والمسيحية⁽³⁾.

(1) وإن عودت جرح السهم صدرا

ديننا والعرق في تلك الحياة

ويموت العبد خوفاً من حرام

(2) وتمنحني جناحاً كي أطيرا

فهل من مسلم يخشاه موت؟

أرمنان حجاز، ص 444.

الفصل الثاني

الذات المشتركة (الأمة)

1 - انبثاق العالم من الذاتية

ينبثق العالم من الذاتية، ويرتبط بنسقتها. فالعالم ينشأ في الذات حين الشعور به. العالم الأكبر انبثاق من العالم الأصغر، ولا يتطابق معه فقط كما هو الحال عند إخوان الصفا. كل ما في الكون، وكل ما تبصر من آثارها. إذا استيقظت تجلي عالم الأفكار. اختفت الأكوان فيها. وهي شرط وجودها. تثبت الأكوان بثبوت الذات. الأضداد منها لقوتها على السيطرة عليها. تُبلي الذات في قوتها لتعرف قدرتها. إذا أسرفت أو قست فإنها تبني جمال الخلقة. فلا ولادة بلا مخاض⁽¹⁾.

هي الفاعل والعلة والمؤثر. تثور وتكمن، تقوم وتحجم، تظهر وتختفي. عمرها التاريخ كله. وميدانها الأرض والسماء. تعمل بيد في الأرض، والأخرى في عنان السماء. العقل من شعلتها. إذا ضاقت الأرض فبضيقتها. وإذا انتشرت الصحراء فبانشارها⁽²⁾. شيمتها التجلي والانطلاق. وإذا صممت فلجهر قريب كالأسد قبل أن

(1) الأسرار والرموز ص 13 - 16، المقدمة ص 47.

(2) هيكل الأكوان من آثارها
ألف كون مختلف في ذاتها
خلقت أصفادها من نفسها
تبتلي في نفسها قوتها
عذرها في شرف أو قسوة
همها الأعمال فهي الفاعل
ثورة فيها وإجفال ونور
كل ما تبصر من أسرارها
غيرها يثبت من إثباتها
لترى لذتها في بأسها
لترى من نفسها قوتها
أنها تبغي جمال الخلقة
وهي العلة وهي القابل
واحتراق واختفاء وظهور

يقفز، خطوة إلى الوراء. أفعالها قطرات تتراكم في محيط. وكل ما قاله الصوفية في الحقيقة المحمدية هو في الحقيقة للذات الإنسانية قبل تشخيصها وتمجيدها وتكليسها في نموذج خارج الزمان والمكان⁽¹⁾.

فإذا ما جمعت الذات أسر الحياة، واستطاعت السيطرة عليها فمن غديرها تمتلأ البحار. فالذات البداية، والعالم النهاية⁽²⁾.

الذاتية جوهر الكون، وأساس نظامه، وسر الحياة فيه⁽³⁾. الذات كاليراعة تضيء الوجود، وكدودة القز تنسج حولها الحرير كالشرنقة، كرة مضيئة أو ملتهبة، قمر مضيء في الليل البهيم. تعبر عن نفسها من بين الضلوع⁽⁴⁾. الذات قطرة منها تموج البحار⁽⁵⁾.

الذات بها كل شيء في الطبيعة. وما يقوله الصوفية عن الحقيقة المحمدية خاصة عممه إقبال على الذات. هي أيضاً فرد. الشمس في حجرها. والنجوم في صدرها. وروح الذات تسري فيها. الذات في دار فقير وفي قصر ملك في آن واحد، فقر الدنيا وملك الآخرة. هي داء ودواء. هي أعمال الأبطال مثل جنكيز وتيمور. وهي ثورة الغرب لوضع أسس حضارة جديدة. الدنيا من نقوشها

= سعة الأيام ميدان لها
يدها في الطين للكون ازدهار
تخلق الأجزاء إما تنقطر
والسماء النقع يعلو سيلها
نومها الليل، وفي الصحو النهار
تنشئ الصحراء إما تنتشر
السابق، ص 13 - 14. الذاتية جوهر الكون وأساس نظامه وسر الحياة فيه، ضرب الكلم، المدخل ص ح.

(1) شيمة الذات التجلي لا الخفاء
قوة صامتة حلف عمل
قوة الذات من الكون النواء
كلمة الذات تعيها قطرة
وهي في الذرات بأس وضيء
عمل اليوم لآتيها علل
فعلى قدر القوى قدر الحياة
فإذا القطرة يومادة

السابق، ص 15.

(2) إن ذاتا جمعت أسر الحياة
من غدير أزخرت بحر الحياة

السابق، ص 16.

(3) قرب الكلمة المدخل ص ح.

(4) A Message from the East, pp. 68 - 9.

(5) Ibid., pp. 72 - 4.

وابتكارها. هي لفتح النيران وروض الرضوان. آلاف الأكوان فيها. هي ثوب الإنسان وسر الرحمن⁽¹⁾. التقدير والتدبير من سحر فنونها. هي الصحراء التي يهيم فيها قيس متمماً في حب ليلي. هي السر في أسرار الناس. هي الحادي في النزول والحقل حين الحصاد. هي نار في المحافل عندما تشدو الألحان. الذات من طين ولكن يغفل الناس عما وراء الطين. يظنها الناس كأساً وهي بحر دون ساحل. يظنونها موجاً وهي الطوفان⁽²⁾.

العالم حبة فيها⁽³⁾. عالم الماء بين التراب والهواء تجل للذات. والليل

وحوى الأنجم صدري
فيكم روحي تسري
أنا في كوخ وقصر
وأنا عيشة يُسر
أنا عين الحيوان
قليل من غباري
نفثات من شراري
نقوشي وابتكاري
في ربيعي كالبهار
أنا روض الرضوان
إن هذا الأمر أمر
من غد يظهر يسر
في ضمير تستتر
وقباب في خضر
أنا سر الرحمن

بسر من سحر فنونك
أنا صحراء جنونك
من خيالات ظنونك
وأنا سر شؤونك
أنا حقل، أنت حاصل
أنت نار في المحافل
أنت عن قلبك غافل
وهو بحر دون ساحل
منه يبدو طوفاني

له قد صُنت لا لسواه ذاتي

(1) قد أحاط الشمس حجري
أنا لا شيء ولكن
أنا في در وفقر
أنا دا داء ودواء
أنا سيف الدوران
إن جنكيز وتيمور
ثورة الإفرنج فيها
إنما الإنسان والدنيا
ودماء من قلوب
أنا لفتح النيران
أنا سيار مقيم
إن في خمرة يومي
ألف كون، فانظرنها
ونجوم في حباك
أنا ثوب الإنسان

رسالة الشرق ص278.

(2) سر التقدير والتد
أنت مجنون ليلي
أنا كالروح بزي
أنت في جوفي سر
أنا حاد، أنت نزل
أنت فياض بلحن
يا أسير الطين فكر
انظرئنه ملاً كأس
إن موجاً فيك يعلو

السابق ص279.

(3) وأنشر حبة في الأرض ذاتي

السابق ص40.

والنهار هي التي تعطيها. والدهر والتاريخ من تحقيقاتها. والمسؤولية والواجب من عبء الذات. الذات ليست مجرد غبار بل هي التي تروي حقل الكون⁽¹⁾.

الذات تأمر العالم فهو جزء منها. لا يند عنها. وبمزيد من الوعي تدرك الذات أن العالم يصدر عنها. تعرف الذات طريقها. ولا تربط نفسها بمن يتجلى منها. تلهث من سرعة ما تبصر حولها⁽²⁾. ظاهر العالم سحر، ولكن الذات ثابتة بعضى موسى. أسد الله الذي يقتنص العالم هو الذات. وإذا كان جوهر الكون قديماً فالفكر هو الكشف الجديد. وإذا كان العالم من الذات فإن الذات مسؤولة عن العالم كمسؤولية الأم عن طفلها. فالذات تتربق نظرة العالم إليها. تعقد العزم عليها. ويضع رجاءه فيها. وبعد الكشف عن الذات، تدعى للسجود تقديراً لعظمتها. قدرها في العالم لا يحتاج إلى شرح. عليها فقط فتح صدرها. تفهم معاني الوجود. زفرتها تخمد النار فيها وهي بين السيوف. ويتوقف القول ويخشى. ومن كثرة القول ألهمت الجوانح. ولو زاد لأحرقها النور⁽³⁾.

(1) ألا يا عالماً في الماء
ظاهر ذلك السر
وهذا الليل في حزن
ولحن مؤذن الفجر
نشاط الدهر يطلبه
ويحمل عبئه يجري
غبار غني يا أعمى
فحقل الكون لا أدري
جناح جبريل ص 427.

(2) عبْدُكَ العالْمُ فأمْر
غَيْرِ الموقِفِ وانظُر
أمض لا تركزن لشيئ
لهفة الراكن من
ظاهر العالم سحر
أسد الله الذي
جوهر الكون قديم
أين كف تنظم الجواهر في سلك فريد؟

السابق ص 518 - 519.

(3) أيها المسلم فارقب
في ملاء من رجاء
نظرة الدنيا إليك
يعقد العزم عليك

العالم مخلوق من أجل الذات بعد خلق الذات أولاً. فالعالم خلق للنظر. والدنيا خلقت للنفس⁽¹⁾. وتعتمد الذات على الذوق. وكل ما فيها واردات لها⁽²⁾. والبحث لا يكون في الخواء بل بالدخول في العالم. ويأخذ من الذات القوة ليكمل ضعفه. والذات تدفع نحو قصدها ويتقرب إليها. ويؤدي استحكام الذات إلى فتح آفاق الدنيا⁽³⁾. الذات تعلم وتعين مثل جبريل الأمين. وهي النار التي تضرم الباطل وتحطمه⁽⁴⁾. والعود إلى الذات شعار إقبال وعلي شريعتي للتخلص من هدير الموج والاجتماع بقاع الضمير⁽⁵⁾. فالحقيقة، رياضية أو طبيعية، في الداخل وليست في

= إن لآلاماد شغلا
عندما تكشف عن ذاتك
لست فيما قلت له أشرح للعالم قدرك
فأنا حاولت حتى الآن أن تفتح صدرك
مزق الكلمة ضيف
نحن مرآة معان
زفرتي تضرم صدري
غير أن القول من خشيتته يرجو الوقوف
أنا من كثرة ما حلقت ألهمت التواحي
فلو اجتزت قليلا
أحرق النور جناحي

السابق، ص 519.

(1) لك عين، نظر فيها خلقت
زبور العجم، ص 373.

آلام آدم شمس كل حقيقة
هذا الوجود بصمته وحماسه
السابق، ص 509.

(2) وذوق الذات شهد في لهاتي
وهذا كله من وارداتي
السابق، ص 375.

(3) وهذا البحث في القفر أحذرته
ضعيف، خذ من الذات قوى
بغزو الذات إن يوما ظفرتنا
السابق، ص 377.

(4) تعينك، أنت تلك الذات فاعرف
وتلك الذات في دنياك أضرم
السابق ص 380 - 381.

(5) لذاتك عد، تخلص من هدير
ونفسك ألق في قاع الضمير =

الخارج. والمعرفة، الرياضية أو الطبيعية، تأتي بالتأمل في الذات، وقلب النظرة من الخارج إلى الداخل، ومن الموضوعي إلى الذاتي، ومن المجرد إلى المعيش، ومن العقلي إلى القلبي⁽¹⁾. الذات محلها القلب⁽²⁾.

وعيد الشكر هو شكر الله على أن الإنسان ولد في هذا العالم في الفجر المزهري وفي الغروب. الشفق والغابات السوداء التي تمر فيها الليالي في سلام أبدي. فالعالم صورة، والذات شاعر يعبر عنها⁽³⁾. لقد خلق الله الأشياء، وأعطاه الإنسان قيمتها. ويتوقف خلود شعب على خلقه المستمر للقيم كما لاحظ نيتشه. تحمل الأشياء حتماً طابع الصناعة الإلهية ولكن الإنسان هو الذي يعطيها معناها⁽⁴⁾.

إن حَيْثُ الذات يصبح الفقير ملكاً لا يعادله ملك من الملوك الأقدمين طغرل أو سنجر. وتصبح البحار بالنسبة لها ضحلة الأعماق. وتضحى الوحوش، وإن ماتت تقيد أمواج السراب⁽⁵⁾. وما أضيع الإنسان إن أضاع ذاته! ولم يستطع السيطرة على العالم، عالم الطبيعة والألوان. ومقام القبة الزرقاء أي السماء ليس له حدود. ومقام الذات مثلها في العلوم. وإذا لم تستطع الطبيعة أن تؤكد وسعها فإن الذات تقدر على صنعه⁽⁶⁾.

=	دع الأعداد واطرحها، لتهمل ولكن حكمة أخرى تعلم السابق ص 383 - 384.	وبعض الوقت في ذات تأمل وذاذك نح عن يوم لتسلم
(1)	دع الأعداد واطرحها، لتهمل زبور العجم ص 383.	وبعض الوقت في ذات تأمل
(2)	شغاف القلب فاضغط فيه ذاتا السابق ص 399.	وكوكبها سراج للمساء
(3)	St. Ref., p. 136.	
(4)	Ibid., p. 88.	
(5)	إن الذات فالفقير مملك إن الذات حيتت فالبحار ضحاضح تري في الحياة وحش قاهر لجه ضرب الكلیم ص 53.	تري طغرلا أو سنجر لا يشاكل إن الذات حيتت فالجزون مخامل وفي موته موج السراب سلاسل
(6)	الحق أنك قد أضعت الذات فاطلب ما أضعتا وعلى العطور وعالم الألوان سيطر ما استطعتا وانظر مقام القبة الزرقاء ليس له حدود	=

2 - إثبات الذات سابق على إثبات الآخر

ينبثق الآخر من الذات تلقائياً. ولا يحتاج إلى إثبات. فالآخر داخل الذات ومضمونها. وبلغت الظاهريات كل شعور هو شعور بشيء، ولا توجد ذات بلا موضوع، ولا يوجد موضوع إلا في ذات. وكما قال الصوفية، التركيز على الذات يخلق موضوعها. فقبل أن تجول الذات في سر الأفلاك تجول في ذاتها. تكتشف الأفلاك داخلها⁽¹⁾. ليس السؤال إذن من أين جاءت الذات بل من أين جاء العالم. الذات موجودة لا تحتاج إلى إثبات. في حين أن وجود غير الذات هو موضوع السؤال⁽²⁾. الذات جثمان وروح. لا تنزعج إذا ما أتاها الأجل. فإن غاب كون عنها فإن ألف كون فيها⁽³⁾.

الذات قصد أي انطلاق نحو الخارج. الذات حياة، والحياة قصد. قصد الذات وقصد الحياة قصد واحد. الأول قصد فردي، والثاني قصد جماعي. وتحقيق القصد الفردي تحقيق جزئي للقصد الجماعي. تحقيق القصد الفردي كالسيف يخرج من غمده. ثم يضيع الغمد في وسط المعارك. ويبقى القصد كالسيف المشهور فيخرجه الكسول أو الغيور⁽⁴⁾. وهذه المقاصد إمكانيات للتحقق وليست

= واختر مقاما مثله يسمو بذاتك في الوجود
لم يستطع ذوق الطبيعة أن يؤكد وسعه
اصنع بذوقك أنت ما لم تستطع هي صنعه
جناح جبريل ص 451.

(1) أراك بسر أفلاك تجول وتجهل سر نفسك يا جهول
فوجه كالنواة إليك عينا لينبت من قرارتك النخيل
رسالة الشرق ص 268.

(2) ألا يا زهر واطلب العزاء بذاتك فالتزم خل الوفاء
أرمغان حجاز ص 498
(2) أتسأل من أنا من أين جيت حبيبت بما على نفسي طويت
بهذا البحر مثل الموج سري إذا لم أطو في نفسي فنبت
رسالة الشرق ص 268.

(3) بقلبي سر جثمان وروح فلا فزع إذ أجلي أتاني
فإما غاب عن عيني كون خاف ألف كون في جناني
السابق ص 270.

(4) عُص طويلا فأنت أيضا عميق وافهم القصد فالحياة قصيرة =

أوهاما⁽¹⁾. لدى الذات القدرة على اختيار نمط حياتها. وفي كل فجر تبدع كوناً جديداً تعبر عن صرخة الوجود في عالم الذات⁽²⁾. وذاكرة الإنسان رديئة عادة باستثناء الإهانات التي يتلقاها من الآخرين⁽³⁾. فالقيمة هي الرباط المتبادل بين الأنا والآخر.

الحياة رغبة، والرغبة قصد. الحياة مجموعة من الرغبات والإمكانات للتحقق. وتعبير الرغبة عن أعماق الذات. الرغبة وجود. ومن ثم، تنطلق الذات في عالم المقاصد والرغبات والمواجد. والوجد ممتد كالنار إلى الآخرين. ويمكن للنار أن تحرق العشب. وهو أمر طبيعي. فتعطش الذات من اللهب⁽⁴⁾.

وحياة الذات إيجاد للغير. والبعد بينهما مصدر الحركة والنماء. وهي في تجل دائم للتحويل من الفرق إلى الجمع، ومن الفراق إلى الوصال. الذات فردية، لا توجد في ذات غيرها. ومع ذلك نتوق إليها ونتواعد معها في النسق. والتوحد كمال. ليست الذات للأرض والسما بل الأرض والسما للذات، ثورة كوبرنيكس مشابهة لثورة كانط. ليست الأرض المركز والذات تدور حولها بل الذات هو

= أنا سيف خرجت من غير غمد
يجرح الناس منظرني من بعيد
ضاع في غمرة المعارك غمدي
ويخوضون في مرامي وقصدي
جناح جبريل ص 450.

(1) عن قريب تـقلب النـيات أقدار الخلائق
ليس أوهام غـبي
إنها جد حقائق
السابق ص 451.

(2) فـ قليلا فأنت أيضا قدير
كل فجر يطل تبدع كونا
ولك الحق في اختيار الحياة
صرخة الوجد في عوالم ذاتي
السابق ص 458.

St. Ref., p. 76. (3)

(4) أنا لولا موجة الرغبة لم توجد حياتي
فحياتي موجة الرغبة في أعماق ذاتي
كل حين عالمي يضطرني أطلق وجدي
عل إنسانا جديدا يحمل اللوعة بعدي
مممكن للنار أن تحرقه عشك هذا
تسأل الساقبي إذا لم تك ظمآنًا لماذا
السابق ص 450 - 451.

المركز والأرض تدور حولها⁽¹⁾. وهما ليسا موضوعين مستقلين عن الذات بل هما تصوران فيها وموضوعان بها⁽²⁾.

الذات فرد وأمة، في عزلة وصحبة، في الداخل والخارج، تنزل القصر وتملكه. ومعرفة الناس تسبق معرفة الآخر كما أن وجود الذات يسبق وجود الآخر⁽³⁾. الذات المشتركة هي ذات الشعب. والشعب الذي لا يقي على ذاته يهوي إلى القاع⁽⁴⁾. وحياة الشعب من حياة الجندي، ذاته من ذاته. إلا أنه غفل عن قلبه. وفصل بين قلبه وجسده⁽⁵⁾. والوطن الذي لا يرى ذاته ينسى رستم وعلي، ويقطع جذوره من التاريخ⁽⁶⁾.

3 - الفرد والأمة⁽⁷⁾

نشأ الأمة من اجتماع الأفراد. وإنه من مظاهر الرحمة أن ينتمي الفرد إلى أمة. فيتألق جوهره في الجماعة. وكل شعاع من نور يكون طاقة من ضياء. كل

- | | |
|--|--|
| <p>وللمعروف بعد كل خير
وبين الجمع معنى للحياة
لتصبح نفسها، هذا كمال</p> | <p>(1) حياة الذات إيجاد لغير
يدوم له التجلي نور ذات
وجود الذات في ذات محال
زبور العجم ص 384 - 387.</p> |
| <p>وإنما السماء والأرض لك
هذان جانبان من موضوعك</p> | <p>(2) لست لهذي الأرض والسماء
ولست موضوعهما وإنما
جناح جبريل ص 445.</p> |
| <p>باعترال القصر محكوم علي
ومصير الكل معلوم لدي</p> | <p>(3) وأنا من أجل هذا كله
أنا لا أجهل ما تقصده
السابق ص 444.</p> |
| <p>وهوت في قاع أشراك هويها
وتناسست رستما بل حيدرا</p> | <p>(4) نظرت إيران في ذات مليها
جاويد نامه ص 301.</p> |
| <p>ابنه الجندي أمسي من حُماته!
ماله من إمكانات ما حُسب
للجسوم والقلوب من فراق فاصل</p> | <p>(5) وطننا رامت وذاتنا لا ترى
السابق ص 302.</p> |
| <p>كامل جوهره في الملة
في ذرا الأحرار كن مثل الشعاع</p> | <p>(6) وحياة الشروق كانت من حياته
ذاته من ذاته جهلا سُلب
وله قلب وعنه غافل
السابق ص 304.</p> |
| <p>=</p> | <p>(7) رحمة للفرد حجر الأمة
فالزَمَنُ الجمع جهد المستطاع</p> |

منهما يعكس مرآة الآخر. قيمة الفرد في أمته، وقيمة الأمة في أفرادها. ينمو الفرد في الجماعة، وتنمو الجماعة من خلال الأفراد. الفرد ليس فقط هو الحاضر بل يصب فيه الماضي، وينطلق منه المستقبل. وكذلك الأمة تعيش في التاريخ، وتتطور في الزمان، من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل⁽¹⁾. وتظل الذات مركز الأمة. وتموت الشعوب لبعدها عن المركز. ومركز الذات المعالي⁽²⁾.

انتماء الفرد إلى الأمة قدرة أعظم على الفعل وعلى الطموح. فتصبح أهدافه أهداف أمته. وتتحد روحه بروح أمته، وبدنه ببدن أمته. قوله وفعله، سره وعلنه من أمته. لغته لغة أمته. صحبته صحبة أمته. يمثل الوحدة، وأمته الكثرة. ولا وحدة دون كثرة، ولا كثرة دون وحدة. لا يمكن فصل الفرد عن الأمة كما لا يفصل اللفظ عن بيت الشعر، ولا الورقة عن غصنها وإلا جف ومات وذره الريح. مقاصد الفرد دون أن تتحدد مع مقاصد الأمة تتبدد. فالأمة هي مجموع المقاصد لهمم الأفراد. يلتزم الفرد بالأمة، ولا يفقد حرته. فحرية الفرد في التزام الجماعة⁽³⁾. وتفرد الذات في الأمة كما تفرد الأزهار في الروضة.

كل شيطان من الجمع فقر
وكذا مرآتها صورته
ومن الأفراد نظم الأمة
كان كالقطرة صارت خضرها
والتقى الغابر والآتي به
وقته لا ينتهي كالأبد

عن جذبات المركز
فللمعالي تُركز

وهو بالأمة سعي رابح
سره من قومه والعلسن
ومن الأسلاف يقفوا طرفا
فتراه الفرد وهو الأمة
وهي، بالوحدة فيه، وحدة
جوهر المعنى لديه انكسرا
فترى محرومة وصل الربيع
فتسرى نظم قواه بددا
فيه تحبوه عظيم الهمة

واحفظن ما قاله خير البشر
فردنا مرآته أمته
قيمة الأفراد جدوى الملة
وإذا الواحد في الجمع نما
جمع الماضي له في لبه
صلة الأمس تراه والعقد

(1) الأسرار والرموز ص 81 - 82، المقدمة ص 49.

(2) موت الشعوب بعدها
والذات إما ركزت

ضرب الكلم ص 123.

(3) هو بالأمة قلب طامح
روحه من قومه، والبدن
بلسان القوم يشدو منطقا
تُنضجُ الفطرة فيه الصحبة
تُحكّمُ الوحدة فيه الكثرة
أفرد اللفظ من البيت ترى
تسقط الأوراق من غصن ينبع
يُحرم الفرد الوحيد المقصدا
تجمع الأمة شمل المنة

وتعود الحياة إلى العضو الحي المائت. ففي العضو الحي الاجتماعي المريض توجد بعض القوى للحفاظ على صحته مثل ظهور شخصية عظيمة تحييه بإبداع مثل أعلى جديد⁽¹⁾.

إن إثبات الذات لا يُعرف من نفي الذات بل نفي الذات يُعرف بعد إثبات الذات. فقانون الهوية يسبق قانون الاختلاف كما هو الحال في نظرية العلم عند فشته. فيقين إثبات الذات لا يثبت من شك نفي الذات. بالذات نور يساعد على الإبصار. الذات كفاح وحياء⁽²⁾.

وتتأكد ذاتية المؤمن في أمته. يدرك المعالي وهو يسعى إليها. ويهدي سراحه في الليل البهيم⁽³⁾. والذات القوية عضو في جماعة دون أن تفتنى فيها⁽⁴⁾. والرجل العظيم مع الناس، ولكن لا يفقد فرديته مثل شمع الحفل ينير الجمع، ومع ذلك له فرديته⁽⁵⁾.

وتنشأ الملة من اختلاط الأفراد. وهو تكرر لنفس المعنى، الفرد للأمة، والأمة للفرد. الفرد من الأمة، والأمة من الفرد. الفرد بالأمة، والأمة بالفرد. الفرد زهرة في بستان. وحيدة تزدهر وسط الروضة. ومع ذلك، يألف الفرد فرداً آخر في

= نشأت بالقييد حراً مطلقاً
تنشظى الذات في أمتها
الأسرار والرموز ص 82.

St. Ref., p. 97.

(1) أنت لم تعرف «خودي» من بيخودي»
الكفاح دائم تنزوق قواه
السابق ص 83.

(2) أنت لا ريب من الشك زدي
هو يسمي «الذات» أو يسمي الحياة

(3) ينشد الحق بذاتيته
وسراجا في الليالي هاديا
يا أمم الشرق ص 361.

(4) وترى المؤمن في أمته
نحو إدراك المعالي ساعيا
يا من في القافلة سر رفيقا وكن وحيدا
ضرب الكلم، المدخل ص ي.

(5) هو في المجمع خال
مثل شمع الحفل في الحفل وحيد ورفيق
السابق ص ي.

معركة جماعية. ينجذب كل منهما للآخر كما تنجذب الكواكب⁽¹⁾. وحياة الأمة أن تشعر بنفسها كالأفراد، وأن تولد الشعور بالأمة وتكملة من الاحتفاظ بسننها ورواياتها⁽²⁾. الأمة كالفرد، يولد وينمو. ولا يعرف من العالم سوى أمه التي يرتبط وجوده بها. فهي مصدره في الضحك والبكاء، في الجوع والعطش، في النوم واليقظة. هي مصدر العلم والمعرفة. هي وجوده وتاريخه، ماضيه وحاضره ومستقبله. الأمة تاريخها، ماضيها وحاضرها ومستقبلها. والتاريخ تدوين، ذاكرة تُحفظ. وأمة تنسى تاريخها يمحو الدهر آياتها. تاريخ الفرد وتاريخ الأمة شيء واحد. والوعي التاريخي يتجلى عند الفرد وفي الأمة. الفرد سفر تكتبه السيرة. وحفظ التاريخ هو حفظ للأمة. فتاريخ الأمة ليس قصة أو أسطورة، لهواً أو سمرأ. هو العصب في جسم الأمة، والشعلة في روحها. حياة الأفراد وحياة الجماعات وحياة الأمم ينتظمها قانون واحد هو قانون الحياة، النهضة والسقوط، القيام والقعود، الحياة والموت، إثبات الذات ونفي الذات⁽³⁾.

- (1) إننا نبصر فردا في الجميع
فطرة تنهج نهج الوحدة
كل فرد بأخيه ائتلفا
لفهم في عيشهم معترك
من جذاب تتوالى الأنجم
الأسرار والرموز ص 84.
- (2) ما سوى الأمم يرى منه الجفاء
ومن الذكرى ينمي نفسه
مثل الأمة حين النشأة
أسطرا، تمحو، وأخرى تسطر
أمة قد نسيت سيرتها
أنت سفر كتبتة السيرة
ثوبنا أيامنا في الزمن
ما ترى يا غر تاريخ البشر؟
صاح! من ماضيك يبدو حالكا
إن تُرد خلد حياة فصل
السابق ص 132 - 135، المقدمة ص 51.
- (3) وبكيت الناس جنح الظلم
فبدا سر حياة الأمم
السابق ص 11.

4 - تربية الأمة بالنبوة

بعد تكوين الأمة يظهر فيها نبي. اهتدى قلبه. وكتب الأسفار بحروف يسيرة. وعزف الألحان في كل نفس ميتة فأحيها⁽¹⁾. طاقة الذرات من نوره. يعطي جديد النظر. ويستعمل قلب الأمة. ويحرر الناس من الأغلال، والقن من الأقيال. ويوجه الإنسان نحو مقاصده، مسلحاً إياه بالشرع. يوحى إليه بالتوحيد. ويتطلب طاعة الناس له. وهو تصور تقليدي للنبوة. تقلب الناس من الظلمات إلى النور. تهدي الضال، وتنير الظلام كما هو الحال في الخطابة المدرسية والبرامج الإعلامية. ويقترب أحياناً من «الحقيقة المحمدية» عند الصوفية، محمد الخالد الذي منه انبثق الكون. وهو ما يقال أيضاً في المسيح القديم⁽²⁾. النبي هو مجرد شاعر عملي⁽³⁾.

ليست القضية لإثبات النبوة المعجزات، إثباتها أو نفيها. إذ يمكن تفسير الأدلة بطرق عدة. إنما القضية هي إذا كان الإيمان بالمعجزات مقيداً للجماعة. وهي كذلك. إذ إن مثل هذا الاعتقاد يقوي الإحساس بالخارق للعادة الذي يقوى من التضامن الاجتماعي لدى بعض الجماعات خاصة أصحاب الهويات الفعلية وليست الجغرافية مثل الإسلام. ومن وجهة نظر التطور الاجتماعي، يبدو الإيمان بالمعجزات ضرورياً⁽⁴⁾.

ولكي يصبح الإنسان قائداً عاماً عليه أن يعرف كيفية التعامل مع الجمهور

يكتب الأسفار من حرف يسير
وحياة في موات يبعث
كل قدر حال في معياره
يجعل البید كروض نضر
بلهيب منه حرى نائره
فأحال الطين فيها شعلا
ويجير القن من أقياله
أترى قدرك دون الصنم
جاعل الشرع زماما في اليد
أدب الطاعة يملبه عليه

ثم يهدي الله ذا قلب بصير
عازف في كل نفس ينفث
تقبس النذرة من أنواره
يهب الناس جديد النظر
فترى الأمة منه سائره
شررا في قلبها قد أشعلا
ويفك العبيد من أغلاله
قائلا أن لست عبدا فاعلم
يجذب الإنسان شطر المقصد
نكتة التوحيد يوحىها إليه

(1) السابق ص 85 - 86.

St. Ref., p. 124.

Ibid., pp. 118 - 9.

(2)

(3)

(4)

الملعون، التعامل معه بسذاجة أحياناً وحين الضرورة بأكاذيب⁽¹⁾.

وتأتي الناس الداعية لينالوا الخلود. والخلود يمر عن طريق السيطرة على العالم والملك فيه⁽²⁾. إذا قويت الذات، مقصد الحياة، واستحكمت لم تمت، ونالت الخلود. فالذات كالفطرة في صدف الحياة. تتحول إلى درة أو لؤلؤة فتخلد⁽³⁾. والقلب الحي لا يموت قبل الموت بل بعده. حياة الذات مستمرة إلى الأبد. والموت يسري على الجسم، وليس على الذات⁽⁴⁾.

5 - أركان الأمة: التوحيد والرسالة

أ - التوحيد: التوحيد يبثه العقل بعد أن يطوف بأرجاء العالم⁽⁵⁾. وهو قادر على خلق الفرد من جديد، وتحويله من حال إلى حال. يجعله باحثاً عن الحق،

Ibid., p. 112.

(1)

أقبلن إن تبغ عيش الخالدين
أقبلن إن تبغ ملك العالمين

(2)

السابق ص8.

كالقطر من نيسان في الصدفات
يححيل قطرات إلى درات
أعيت على الأيام كل ممات

صدف لنا هذه الحياة وذاتنا
ما قيمة الصدف الذي لا يستطيع
إن صانت الذات المتينة نفسها

(3)

ضرب الكلم ص20.

الغيباب والحضور
فالقلب لا صبور
كشعر يظير
ففي أبرد سرور
واحتجب الظهور
مناله عسير

في اللحد أيضا يبقي
إن يك قلب حيا
هذي النجوم تمضي
والذات فيهما راح
إن مس جسم ما موت
فاللوجود قطب

(4)

السابق ص45.

قاده التوحيد شطر المنزل
فيرد العبد خلقا آخرا
عينه في الكون يقضى تعمل
وهذه الكأس بها حاج الفؤاد
هذه الفكر بها والأمل
فعيار الحسن والقبح بها
دون نار الحق في أوتاره
كسهم جمعتها جمعة

طوف العقل بدنيا العلل
يجتبي التوحيد عبدا ثابرا
ربه يقنى ويحيا العمل
وحدة القلب قرب وابتعاد
قد هدى الأمة سبل العمل
نزعة واحدة في قلبها
لا يجيد الفكر في قيثاره
وخذ الرأي لنا والفكرة

(5)

ويدفعه إلى العمل. ينعكس في وحدة الفرد وطاقته، قوله وعمله، فكره ووجدانه، وفي وحدة الأمة. وبوحدة الأفكار تحيا الأمة. وهي وحدة الإلهام. وبدونها لا يتحقق⁽¹⁾.

التوحيد قوة في الحياة على الأرض قبل أن يتحول إلى علم مثل علم الكلام. لم يعد ينعكس في أفعال الناس ظناً أنه مجرد عقائد. التوحيد كالسيف في غمده. التوحيد النظري دون التوحيد العملي مجرد لغو. والإمامة ليست في المسجد بل في العالم. ليست في الداخل بل في الخارج. ليست للمصلين بل للعالمين⁽²⁾. وإن علم الكلام إن لم يصلح للدين فلا نفع منه. والتوحيد الذي لا يحفظ الذات مجرد قول⁽³⁾. والقول إن لم يتجل منه الكون، فالكلمة هي العالم، مجرد لغو.

لا تُحفظ الوحدة إلا بالقوة وليس بالعقل⁽⁴⁾. والقوة بلا دين قوة غاشمة، عدوان مطلق. تنتهي كما تبدأ مثل قوة الإسكندر الأكبر وجنكيز خان. والدين بلا قوة عاجز وكلام وخنوع مثل حياة الرهبنة والعزلة عن العالم. وأفضل قوة ما قامت على الدين. وأكمل دين ما اعتمد على القوة. أقصى ما تستطيع القوة من إبداع هو الفن والعلم. وهي سم بغير دين. والدين دواء لكل سم زعاف⁽⁵⁾.

- | | | |
|--|--|------------|
| ورجال ومآل واحد
قلبنا والروح سواء
ودونها الإلهام يُلقى ملحدا | نحن فكر وخيال واحد
نحن من نعمائه حلف إخاء
الأسرار والرموز ص 87 - 89، المقدمة ص 49. | = |
| فصار التوحيد علم الكلام
جهلنا اليوم ما لنا من مقام
من «هو الله» ما بها من حسام
دون فعل، يعد لغو كلام
في السورى ما إمامة الأقسام؟ | قوة كان في الحياة على الأرض
رده في الفعال غير مضيء
قائد الجيش! قد رأيت غموذا
ما درى الشيخ أن توحيد فكر
يا إماما لركعة كيف تدري
السابق ص 15. | (1)
(2) |
| ليس للدين آسيا - ليس شيئا
لم يبد خافقا - ليس شيئا | إن علم اللاهوت في ملكوت
كلماتي خوافق وسنا الإصباح
السابق ص 22. | (3) |
| لم يُفلح العقل هنا ولا اهتدى | لا تُحفظ الوحدة إلا بالقوى
السابق ص 22. | (4) |
| ض من اسكندر ومن جنكيز | كما أصاب الإنسان في هذه الأر | (5) |

وقوة الدين في اليقين بالنصر القريب. والقوة مسعى إلى الآجلة وليس في العاجلة التي تقطع عمداً المسار الطويل. ولا يستطيع الشيطان ولا اللص إيقافه لأن المال يضيع في حين يبقى الدين منيراً للطريق⁽¹⁾. ويقوي الدين حدة البصر. ويقضي على قصر النظر. ويوضح ما يعرض للزمن من مشكلات⁽²⁾.

والاعتقاد قوة كبيرة. وعندما يؤمن آخر بنفس القضية يكون لها يقين أكثر⁽³⁾. وهي التجربة المشتركة في الظاهريات. في المسيحية الله محبة. وفي الإسلام الله قوة. فكيف الاختيار؟ هل يساعد تاريخ الإنسانية وتاريخ العالم في الاختيار؟ الواقع أن الله يكشف عن نفسه في التاريخ كقوة وليس كمحبة. وهذا لا يعني إنكار محبة الله⁽⁴⁾. الله قوة. والقوة الإلهية أكثر من الحقيقة. فليكن الإنسان إذن مثل أبيه الذي في السموات⁽⁵⁾. القوة لها أثر. تلمس الخطأ فتحوله إلى حقيقة⁽⁶⁾. لذلك إذا سأل أحد الأصدقاء: هل تؤمن بالله؟ فمن حق المجيب أن يسأل عن معني ألفاظ السؤال: الإيمان، الله. والحقيقة أنه من الصعب تحديد معنييهما عند المسؤول وعند السائل على حد سواء لأن الله ليس مفهوماً نظرياً بل هو عملية تحقق⁽⁷⁾.

<p>خطِر فُزَط قوّة لعزيرز وما أتل الوري من كنوز دواء لكل سم نجيز</p>	<p>ويقول التاريخ في كل عصر هي سيل غناؤه الفن والعلم وهي سم بغير دين. وبالدين السابق ص18.</p>	<p>=</p>
<p>فكأن القوم في شك مريب قطعوا عمدا طريق القافلة لا ولا للص منا مطلب وتراث المال قد ولى ضياعا</p>	<p>قوة الدين في النصر القريب أين مسعاهم وهم في العاجلة ليس للشيطان فينا مأرب فترات الدين قد طار شعاعا يا أمم الشرق، ص361.</p>	<p>(1)</p>
<p>رغم ما بي من قصور النظر بعد لأي من ألوف المشكلات</p>	<p>كنت في الدين حديد البصر وانجلت واحدة بين مئات السابق، ص362.</p>	<p>(2)</p>

St. Ref., p. 9. (3)

Ibid., p. 10. (4)

Ibid., p. 90. (5)

Ibid., p. 92. (6)

Ibid., p. 5. (7)

وشعار التوحيد «لا إله إلا الله». وهو معنى حال في الذات، وسبب سرورها⁽¹⁾. وسيف الذات قاطع بشحد «لا إله إلا الله». وهما فعلا نفي «لا إله»، وإثبات «إلا الله»، هدم وبناء، محو وإثبات، موت وحياة⁽²⁾. «لا» ضد الكفر. و«إلا» للإيمان. التوحيد هو الذي يعيد حياة الأمس انطلاقاً إلى الغد. هو نور سيناء ونارها الذي تجلى الله من خلالها إلى الجبل. فإذا كان الله وراء حجاب فإن صوت منطق العقل جهير، والرسول في ظهور⁽³⁾. «لا» و«إلا» في الشهادة الأولى للنفي، والثانية للإثبات. هما حالان من أحوال الشعور، وليسا مجرد متممة بالشفقتين. فالقلوب تدرك هداها بالأحوال والأقوال. «لا» فعل تطهير، يهدد الجور بالزوال. وبعد نفي الظلم يشرق حال «إلا» في الصباح. «لا» و«إلا» حالان يفتحان باب الحياة لتدخل الذات في عالم الوجد والكائنات. يكشفان عن المهانة والضميم، وما يحدث في العالم من ظلم وعدوان. عندما يقوى الرجاء مع اليقين تستطيع الذات أن تقول ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117]. يدفع النفي إلى التحرك، والإثبات ينتهي إلى سكون⁽⁴⁾.

- (1) مُسْتَسِيرٌ في الذات معني بعيد سيف الذات قاطع غير ناب
 (2) لو لم تسر في الظلام الترب نابتة تقضي الحياة بـ«لا» في البدء نافية إن لم تجئ بعدها «إلا» مثبتة إن أمة روحها لم يمض معتزما ضرب الكلیم، ص 43.
- (3) هب سيفك «لا» لكافري وأبصر لا بد من دور يعيد أمسي نورك فيه للذني نصيب أحدث الرحمن في حجاب أيا رسول الله! إن ربي رسالة الشرق، ص 321.
- (4) في مقام التوحيد يشدو خيالي إنما تدرك القلوب هداها حرف «لا» مظهر لسر الجلال بعد نفي الظلام والظلم يبدو «لا» و«إلا» فتح لباب الحياة
- سره لا إله إلا الله
 شحذه لا إله إلا الله
 ما نشرت في فضاء النور أغصانا
 وفي النهاية «إلا» تكمل الشانا
 كانت على الموت «لا» في الدهر عنوانا
 عن «لا» فقد آذنت بالهلك إيذانا
- «إلا» ي في كيف في الذني ثور
 في جلوات من غدي يسير
 «سينا» ي كيف فاتها تنوير
 وفي حماك منطقي جهير
 محجّب وأنت لي ظهور
- بصدى الحق من رجال الحال
 بصفاء الأحوال لا الأقوال
 وهو للجور منذر بالزوال
 عند «إلا» إشراق صبح الجمال
 واحتساب الوجود والكائنات

وكل من آمن بالله الأحد لا تُذل نفسه يوماً لأحد. ولقد استطاع حتى النمل أن يحمي نفسه من جند سليمان⁽¹⁾. كل شعب يرمي إلى الدفاع عن نفسه بنور التوحيد. فلا يحمي البلاد غير حر سيفه «لا إله إلا الله». حرف النفي «لا» بداية السير في طريق الجهاد نحو المصير. وهو أول المقامات نحو العلي القدير. كل شعب يسير إلى العلا بحرارة التوحيد. يبني من ترابه صرح دنياه. ويحيا فيه بخلق جديد. «لا» ثورة ضد الطغاة دفاعاً عن الحياة عند الأحرار، ثورة منها يصنع المجدد وتتجدد الكائنات⁽²⁾. ولا يتخلى المسلم عن سيف «لا». ولا يخلو منه غمده. ولا يضعف إيمانه في دنيا المحن بسبب الفتن⁽³⁾. ويناشد إقبال شباب المسلمين، وهم شباب الحق، بتحرير الوجدان من كل شئ سوى الله. وهو استحقاق فعل النفي «إلا». وإذا كانت الدنيا اليوم قد أبلأها القديم فهم قادرون على خلق دنيا سواها في الاسم. ماضيهم يجعلهم غيورين على الدين القويم. وحياة النوع هو الموت⁽⁴⁾. ومن نسي الحق ضاع حظه. ولم ينل غير الإبعاد

وتمضي الأمور في الحادثات
فجواب الأقدار كن فيكون
وعند الإثبات يأتي السكون

لا يُذل النفس يوماً لأحد
ليس يرجو من سليمان عطاء

فبنور التوحيد لا بسواه
سيفه «لا إله إلا الله»
في طريق الجهاد نحو المصير
لرجال الله العلي القدير
للعلی في حرارة التوحيد
ويحيا فيها بخلق جديد
هو عند الأحرار معني الحياة
ويبدو تتجدد الكائنات

وأرى غمذك منه قد خلا
زلزلت إيمانه فيها المحن

حرروا مما سوى الله القلوب
فاخلقوا دنيا سواهم في الأمم

بهما تقهر المهانة والضميم
حين يقوى مع الرجاء اليقين
يدفع النفي للتحرك والجد

يا أمم الشرق، ص 355.

كل من آمن بالله الأحد
إن يكن في صورة النمل خفاء

السابق، ص 359.

كل شعب يروم عز حماه
ليس يحمي بلاده غير حر
حرف «لا» آية لبده المسير
إنها أول المنازل طرا
كل شعب يمضي بخطو سديد
يمتني من ترابه صرح دنياه
قول «لا» ثورة أمام الطغاة
ثورة من نضالها يصنع المجدد

السابق، ص 355.

أسفا لم يبق عندي سيف «لا»
أسفا، إنني أرى دنيا الفتن

السابق، ص 361.

يا شباب الحق يا ذخر الشعوب
إن دنيا اليوم أبلأها القدم

والحرمان⁽¹⁾. الوجود الأسمى هو وجود المؤمن الحر الأبى الوفي في كل آن. وكل ما سواه مظهر حائر وفعل فان. وحين يشهد أنه لا إله إلا الله يذعن الكون كله ويشرق القمران⁽²⁾.

لو يمس التوحيد فكراً نقياً وضميراً حياً وقلباً أياً لأحال الخمول والضعف إلى إيمان وعزم. يغزو النجوم والكواكب. صيحة «لا» صرخة يطلقها العبيد لكسر القيود، ولإقامة عصر جديد خال من السيد والمسود. لو سرى التوحيد في الصدور ومشى في الضمير لأقدم الأحرار على الهول الذي يتحدى هول أيام النشور. صوت «لا» رعد ليس شكوى أو لحنناً. ولو ضاق الفضاء يوماً على الحر لتخطاه إلى الوجود كله⁽³⁾. وما يُبصر حول الفضاء لا يساوي قدره وزن التراب إن لم يصعد إليه الإنسان الحر وفي يده سيف «إلا». لا يحيد عنه، ويحوّله إلى أمر نافذ⁽⁴⁾.

= أين منكم يا ذوي الماضي الكريم
طال هذا النوم عن صدق حماه
غيرة الأحرار للدين القويم
ما أرى الموت سوى هذه الحياة
(1) كل من ضاع حظه من جلال الحق بين الجحود والنسيان
لم ينل طول عمره من جمال الحق غير الإبعاد والحرمان
السابق، ص 351.

(2) الوجود الأسمى هو المؤمن الحر الأبى الوفي في كل آن
وبقايها الوجود فيما سواه مظهر حائل وظل فان
حين يدعو أن لا إله سوى الله القدير المهيمن الديان
يذعن الكون والمكان ولا يشرق إلا بفوزه القمران
السابق، ص 351.

(3) لو يمس التوحيد فكراً نقياً
لأحال الخمول والضعف إيماناً
حرف «لا» صيحة تثير العبيد
ويقيموا في الدهر عصراً مجيداً
لو سرت شعلة الهدى في الصدور
لأقام الأحرار للنهول يوماً
صوت «لا» من دوي صوت الرعود
لو يضيّق الفضاء يوماً على الحر
السابق، ص 356.

(4) والذي تبصره حول الفضاء
كل حر في يديه سيف «لا»
فهو للعلباء دوماً في صعود
لا يساوي قدره وزن الهباء
ثم لا يقبل عنه حولا
أمره النافذ في كل الوجود
السابق، ص 358.

وتتأكد الذات بضياء التوحيد. وتثبت بفعل النفس في شهادة «لا إله». فإذا ما تركت طريق الخليل فإنها تقع في وهم عبادة الأصنام⁽¹⁾. ويوم الفداء يرمي الحر على النجم الهدف. ويناديه الوحي من السماء: أقدم لا تخف. أشرق التوحيد فيه. فسرى التحرير في الضمير. فمن لم يخف إلا الإله لا يهرب السلطان أو يخشى الأسر. تكشف روحه أسرار الخلود عن حياة لا تموت. يرسل التكبير من قلب الوجود، غناء يحيي الروح. ينعم ملوك الأرض في دنيا الغرور، في الملاهي خلف أستار الحرير. ويستطيع العريان الفقير بضربة من سهم أن يزلزل أبراج القصور. يضرب البحر كموسى بعصاه. ويحول الصخر حطاماً كالزجاج. وقد ألزم هذا الفقير في ثوب الفقراء التيجان بالطاعة وتقديم الخراج. الأنهار من بحره. والنار من خمرة. وشذا الورد من عطره. وشعلة المجد من فكره⁽²⁾.

التوحيد قادر على شفاء الأمة من الخوف والحزن والبأس، أمهات الرذائل وموانع الحياة. فالوحي يدعو إلى عدم القنوط من الرحمة، وعدم الخوف، وعدم الحزن. والقنوط يؤدي إلى الإحباط والموت. والحياة أمل وعمل. والغم والهجم يقتلان. والفرح والمرح يبعثان. المسلم يتسم، منير مثل الكوكب، وليس عبوساً متجهماً. لذلك يبشر الوحي المؤمنين بأنهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]. لم

هذه الذات للطريق الطويل
عندما ضيَّعت حواء الخليل

ومضى يرمي على النجم الهدف
من سماء الله أقدم لا تخف
وسرى التحرير منه في الضمير
يرهب السلطان أو يخشى الأمير؟
عن حياة ما لها في الدهر موت
لغة تغنيه عن حرف وصوت
في الملاهي خلف أستار الحرير
ضربة من سهم عريان فقير
ورمى الصخر حطاماً من زجاج
ألزم التيجان تقديم الخراج
وأضاء نارنا من خمرة
شعلة المجد سنا من فكره

(1) لم تحصل من «لا إله» ضياء
أصبحت معبداً لأصنام وهم
جناح جبريل، ص 458.

(2) أقبل الحر على يوم الفداء
وكان الوحي لقاؤه النداء
أشرق التوحيد نوراً في هذه
أثرى من لم يخف غير الإله
روحه تكشف أسرار الخلود
يرسل التكبير من قلب الوجود
سل ملوك الأرض عن دنيا الغرور
زلزلتهم بين أبراج القصور
ضرب البحر كموسى بعصاه
ذلك الأواب في ثوب تقاه
قد جرت أنهارنا من بحره
بسمة الورد شذاً من عطره
يا أمم الشرق، ص 364 - 365.

يخف موسى أمام فرعون ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]. الخوف يقتل العمل، ويقطع السبل. وإن تكشف للعدو الخوف فإنه يسهل عليه قطع الخائف، ويزداد فتكه. الخوف قيد. وهو أصل كل شر، حليف الذل؟ والمؤمن لا يخاف⁽¹⁾.

لا يوجد مسلم يسأل التوحيد أن يصقل فأسه ليحطم الأصنام كلها ويترك نفسه التي أقام من أجلها الأصنام. ويجعل نفسه طريقاً إلى إسلامه. وأهم صنم الذي شيطانه العقل العليم. خدامه أهل الطريقة، وكتابه العلم الأليم⁽²⁾. لقد ترك الحق الطاغوت ليشيد صروحه. ويكاد الفقير في خضم الجهل يلفظ روحه. وكلمات المبشر تجذب القلب الغرير. ينقصها ذوق الحب. وينقصها الصدق. في حين أن الموعظة تخضع لمنطق دقيق. سرعان ما تخفي رونقه بالعقد والعقائد.

- (1) عدة الموت قنوط مُحْبِط
 إنما العيش رجاء يُوصَل
 يا سجين الغم أبصر واسمع
 إنما المسلم مثل الكوكب
 حزر النفس من الغم ودع
 قوة الإيمان تحيي فاعلمن
 قلبه من «لا تخف» قلب سليم
 خوف غير الله قتل العمل
 إن تجلى لعدو خوفك
 سيفه يزداد فتكاً في اليد
 غلنا الخوف، وكم في بحرنا
 كل شر في فؤاد يضمّر
 حُرْم الخوف طموح الهمة
 كل من يفقد سر المصطفى
- والحياة الحق ألا تقنطوا
 فقنوط الحي سم يقتل
 من رسول الله «لا تحزن» وعي
 باسم في سعيه والذباب
 إن عرفت الله، أغلال الطمع
 ورد «لا خوف عليهم» فاقرأن
 حين يمضي نحو فرعون كليم
 وهو للأحياء قطع السبل
 هان كالورد، عليه قطفك
 عينه فيك حسام لا يدي
 من عباب مائج في دهرنا
 أصله الخوف، إذا ما تبصر
 فهو خدن لحليف الذلة
 يحد الإشرار في الخوف اختفى

الأسرار والرموز، ص 89 - 92، المقدمة، ص 49.

- (2) يا مسلماً من يسأل التوحيد يصقل فأسه
 ليحطم الأصنام أجمعها، ويترك نفسه
 نفس أقام لأجلها ما شاء من أصنام
 ويريدها صنماً يرافقه إلى إسلامه
 هذا هو الصنم الذي شيطانه عقل العليم
 خدامه أهل الطريق كتابه العلم الأليم

جناح جبريل، ص 512.

والمريد بسبحته أسير. وقع في حبات فخها⁽¹⁾. المسلم مسافر لا يعرف معنى الارتقاء. خمدت حقيقته. واهت نار الحب في فؤاده. وتحول المتحرق المجنون إلى رماد⁽²⁾.

ويؤوّل إقبال حكمة «الكليم» أو سياسة الأنبياء في العصر الحاضر على أنها مناهضة الاستعمار، والدفاع عن الاستقلال. فالتوحيد والاستعمار لا يجتمعان. الأول تحرر، والثاني عبودية. فالنبي يصدع بالأمر جهراً على مسمع العالمين. يتحدى بالوحي كل أمير أو سلطان تكبر وتجبر على رؤوس الناس. يرى قصره خليفة دير يعبد الأوثان. فلا فرق بين القصر ودار العبادة، بين السلطان والإله، بين السلطة السياسية والسلطة الدينية. والدين ثورة على السلطين معا. إذ إن كلا منهما يغذي الآخر ويدعمه. فالتوحيد نفى في شعاره الأول «لا إله» قبل أن يكون إثباتاً في شعاره الثاني «إلا الله». يرفض استعباد عبد لعبد أو إذلال إنسان لإنسان⁽³⁾.

التوحيد يشعل الفطرة ناراً. ويجلي الروح. ويحررها من أسر التراث. وتشمل

(1) أسفا لحق يترك الطاغوت يودعه صروحه ويرى الفقير يكاد يلفظ في خضم الجهل روحه كلماته هذا المبشر تجذب القلب الغرير لكن ذوق الحب ينقصها، وينقصه الكثير وله مواءمته ينظمها بدقة منطوقه لكننها سرعان ما تخفى بعقدة رونقه حتى المريد فؤاده بقبود سبحته أسير حبات فسخ أوقعته وكان شاهيننا يظير السابق، ص512.

(2) هذا المسافر كيف يرجع من ظنون الارتقاء؟ خمدت حقيقته ونار الحب تاهت في فؤاده فإذا هو المتحرق المجنون يشحط في رماده السابق، ص512.

(3) عندما يصدع النبي بأمر الله جهرا في مسمع الأكوان يتحدى بوحيه كل حكم لأمير في الأرض أو سلطان لا يرى قصره سوى رسم دير من بقايا هياكل الأوثان لا يسبخ المقام في موطن النذل ولا يرتضي بعيش الهوان معلنا في الوجود لا رب غير الله، يُخشى ويُرتجى كل آن كيف يرضى إذلال عبد لعبد وامتهان الإنسان للإنسان يا أمم الشرق، ص348.

هذه الفطرة العقل والموهبة. ترتبط بالفرد وقدراته دون ما حاجة إلى الجمع والحشد والعروش والتهيجان. توقظ ابتهالات الصباح الوسنان. ويعلن الحق الذي به ينقلب الزمن. لا تخاف شيئاً. الوحي يعمر الصدور الخوالي بالإيمان. ويعطي العزم والإرادة في السر والعلن. يملأ فراغ النفس. ويقهر المستحيل بالإمكان. ويوقظ العبد المصنف بالأغلال. فلا تحاك القيود للإنسان وإلا فني مع الفانين. ومن يحارب والإيمان في قلبه يحطم قواعد الأوثان⁽¹⁾.

العمل تحقق للتوحيد في عالم يتحقق فيه العدل. لذلك سمي المعتزلة أهل التوحيد والعدل. والتوحيد دون عدل ظلم. والعدل دون توحيد قد يتغير ويتبدل ويتعارض⁽²⁾. التوحيد إذن تحقيق العدل. هو فعل وليس صنماً للعبادة من صنع النحات أو من وهم العابد، الصنم الحسي أو الصنم المعنوي. التوحيد ليس الصنمية التي يذبح عليها الإنسان تضحية للإله. وباسمها تراق الدماء في النزاعات بين الشعوب. هذا التوحيد ينتشر بالطبيعة. ويبلغ للناس كحركة تحرر في العالم، وتحرير البشر من الجاه والسلطة والمال والقوة، أصنام البشر⁽³⁾.

(1) قطرة من نداءه تُشعل ناراً في عروق الكروم والأغصان
وُجِّلني في قبضة من تراث بعث روح اليقين والإيمان
حارس الفطرة التي فطر الله عليها الأرواح في الأبدان
لا يسامي جلال حكمته العقل ولا عبقرية الفنان
حكمة في غنى عن الحشد والجمع زهور العروش والتهيجان
ابتهالات صبحه توقظ الكون فيصحو من ليله الوسنان
وله نظرة من الحق فيها نبأ يعلن انقلاب الزمان
وحيه يعمر الصدور الخوالي بقلوب جديدة الإيمان
درسه العزم والرضا المحض والتسليم منه في السر والإعلان
يتولى ملء الفراغ بحزم يقهر المستحيل بالإمكان
وينادي العبد المصنف هيا لا تحاك القيود للإنسان
فيألي المحو والبلى كل معبود قديم مع الحطام الفاني
من يحارب وسيفه ربي الأعلى يدمر قواعد الأوثان
السابق، ص 349.

(2) من العقيدة إلى الثورة، ج3، العدل، ص5 - 17.

(3) أنت لا تدري بآيات الكتاب أمة العدل يستمينا الخطاب
أنت في الأيام نور وبصر شاهد أنت على كل البشر
أيها التالي الكتاب المنزل شمرن، لا تقعدن عن عمل
يعشق الأصنام عقل الأمم ناحت أو عابد للصنم

مقصد الأمة والداعي إلى الاجتماع حفظ التوحيد ونشره⁽¹⁾. والموضوع يعود ويتكرر من جديد في بداية الركن الأول للرسالة وفي آخره. التوحيد هو الذي يعطي الحياة قصدها. تؤكد مقاصد الشريعة. التوحيد قصد، اتجاه من الله إلى الإنسان، ومن الإنسان إلى العالم. القصد هو الذي يجمع شتات القوى. ويوجه الطاقة نحو غاية واحدة. وعندما يتحدد القصد يكون الكون كله سبباً لتحقيقه، ووسيلة له. والقصد الأكبر هو العمل. فالتوحيد نظر وعمل، طاقة وحركة. وهو عهد التزم به الإنسان منذ عهد النور الأول⁽²⁾.

وينعكس التوحيد في الإنسان ذي الفكرة الواحدة. لو أراد الإنسان أن يسمعه العالم فليترك فكرة واحدة تسود روحه. إنه الإنسان ذو الفكرة الواحدة الذي يقوم بالثورات السياسية والاجتماعية. ويقيم الإمبراطوريات، ويسن قوانين العالم⁽³⁾.

ب - الرسالة: الرسالة جوهر الدين، وأساس التكوين. والرحمة تجمع الأمة، موجة فوق موجة لا تنفصل. والنبي روح الأمة وعصبها. هو قلب الجسد، ووريد القلب. إذا قطع ذبلت الأوراق. تصحو الأمة بصحوه، وتموت بموته. الرسالة هي

محدثا فيها إنها للورى
هو من سفك دماء في طرب
ذبح الإنسان ذبح الغنم
لم تبلغه بحق لسواك

= هو أحيأ سنة من آزرا
اسمه لون ودار، ونسب
وعلى أقدام هذا الصنم
قد أخذت الحق عني ما دهاك
الأسرار والرموز، ص128 - 129.

(1) من العقيدة إلى الثورة، ج2، التوحيد، ص604 - 614.

فتراهما مطلعاً راع الرواه
هو أشتات قواها ينضد
تجعل الكون إليه سببا
كيفه والكَم منه تجتلي
مسرّع بالجد في أغراضنا
كلمة التوحيد من فيك نشر
كلمة صار إليها العالم
وبها الشمس تنير الحلكا
أنت للتكبير فيها توجد
أو يدوي الحق بين الأمم

(2) ينظم المقصد أشتات الحياة
إنما يبقى الحياة المقصد
حينما تدري الحياة المطلبا
إنما المقصود روح العمل
دوران الادم في أعراقنا
ثم في طينك إيماناً بذر
نقطة دار عليها العالم
قوة فيها تدير الفلكا
كلمة التوحيد منك المقصد
الجهاد المر حلف المسلم

الأسرار والرموز، ص125 - 127، المقدمة، ص50.

التي توحد الأمة. ومن الوحدة تنشأ الكثرة. والوحدة وحدة القصد والهدف، وحدة الفطرة والطبيعة. وواضح أن إقبال يتعامل مع الرسالة بمعنى الرسول، والرسول بمعنى الرسالة، دون تمييز بين الشخص والقضية، بين الوسيلة والهدف⁽¹⁾.

وفي إطار اللغو والكلام، والجدل غير المفيد بين الكائنات، بين النهار والليل، والنور والكلام، وأي الكواكب أكبر وأنور، وأيهما يصارع الأقدار، صدح صوت الأذان صرخة وعظ تصدعت لها الجبال⁽²⁾. وهو إعلان للرسالة والأداء والمبادرة والعمل: حي على الكفاح، حي على العمل.

قصد الرسالة تمكين الحرية والمساواة والأخوة بين البشر. والرسالة لا تنسب لمبلغها وهو الرسول فتكون الرسالة المحمدية بل لمضمونها وغايتها وهو الإسلام. ولا يشتق اسم الإسلام من اسم مؤسسه كما هو الحال في المسيحية المشتقة من المسيح أو الموسوية المشتقة من موسى أو الكونفوشيوسية المشتقة من كونفوشيوس. وتذكر الحرية والإخاء والمساواة بالمبادئ الثلاثة للثورة الفرنسية،

شرعنا منها ومنها ديننا
أرسلت للناس فيها الرحمة
موجة من موجة لا تُفصل
وإلى القلب من الرب أحب
شرعه حبل وريد الأمة
كذبول الورد في ربح الخريف
صُبحها نور من إشراقه
والطوايا والمني والألما
ومن الوحدة نشء الأمة
مقصد المسلم دين الفطرة
فمضينا للهدى كالشعل
نحن روح واحد منه سرى
تحفظ المسلم حتى الأبد
وعلى المرسل فينا بعثته
خُتم الرسل بنا والأمم
إنه سر اتحاد الأمة

بينما هم في جدال
صدعت قلب الجبال

(1) بالرسالات بدا تكويننا
نحن مما جمعتنا أمة
موجنا في بحرهما متصل
فالنبي الروح فينا والعصب
سفره في القلب نبع القوة
قطع جبل منه للموت رديف
حيت الأمة من تريقه
وحد المرسل فينا النغما
كثرة الألف عين الوحدة
وحدة القصد حياة الكثرة
علم الفطرة خير الرسل
بحره أخرج هذا الجوهرا
هذه الوحدة مالم تفقد
ختم الله علينا شرعته
محفل الأيام منا يبسم
إنه قوة هذه الملة

السابق، ص 95 - 97، المقدمة، ص 49.

(2) فعلا صوت أذان
يالها من صرخة وعظ

جناح جبريل، ص 531.

وهي مضمون الرسالة الإسلامية. أما الديانات الأخرى فقد قامت على عكسها، القهر والغلبة ونظام الطوائف. وهو موقف دفاعي وعظمي يقوم به أنصار كل دين. فقد عبدت الإنسانية الأصنام. وعبد الناس قيصر وكسرى. ونهب القساوسة والملوك الحقول وأرزاق الناس. وابعوا الجنة بصكوك الغفران. ومارسوا الرق باسم الدين⁽¹⁾. أما الرسالة الإسلامية فهي رسالة حق وتحرير للبشر، والرقابة على الحكام. وهي رسالة الفتح، وتبليغ الرسالة. تصدق الرسائل السابقة. وتوحد بين البشر في أخوة الإيمان. وتساوي بين الناس. فالمساواة أمر فطري⁽²⁾.

لقد حول التوحيد العرب إلى أمة مبدعة، ذات حضارة ومجد، آية كبرى في التاريخ. حرروا أقدامهم بالعزيمة والإرادة في كل أرجاء الكون. وتحطمت الأصنام، اللات والعزى. وبفعل «الله أكبر»، زالت أعلام كسرى وقيصر. وحدوا الخلفة في أمة واحدة، ينعكس فيها التوحيد. من تحدى نارها فني. وقضت على كل جبار عنيد. أعادوا بناء الدنيا، وأعادوا خلقها من جديد، وأيقظوا الناس بالأذان، فجرى الحق على كل لسان. أزال العرب من كل القلوب نقش غير «الله». فأقاموا ثورة الإيمان في كل الأرض، شرقاً وغرباً. فحطم العبيد القيود. وثاروا على ساداتهم. واستردوا حرياتهم⁽³⁾.

(1) عبد الإنسان أصنام البشر
قيصر العسف وكسرى قيّدا
ومن القسيس والممّلك طلاب
نصب الأشرار للصيد الضرع
حقله قد عاث فيه البرهمن
أضعف الرق لديه الهمما
الأسرار والرموز، ص 97 - 98، المقدمة، ص 50.

(2) خط في العالم سطرأ مبدعا
إخوة فيها جميع المؤمنين
المساواة لديها فطرة
السابق، ص 99.

(3) يا لها ذكرى لأمجاد العرب
حرروا أقدارهم بالعزمات
لم تدم عَزَى ولم تبق مناة
حين نادى المؤمنين «الله أكبر»
هؤلاء العرب الصّيد الأباه
وحدا الخلق بتوحيد الإله

6 - انتظام الأمة بالشريعة

شريعة الأمة القرآن. الأمة دون شريعة مثل كتيب من الرمال، لا قوام لها. بسرعة تنهار. لذلك وُضعت الشريعة للحفاظ على وجود الأمة وشريعتها القرآن، مع أن الشريعة وضعية تقوم على أحكام الوضع أي على وجود الفعل في ظروفه مثل السبب والشرط والمانع كما حدده الأصوليون القدماء خاصة الشاطبي. والقرآن كتاب مسطور لا ينطق. إنما ينطق به الرجال. له تأويلات طبقاً لظروف كل عصر. به حقيقة ومجاز، وظاهر ومؤول، ومحكم ومتشابه، ومجمل ومبين، وخاص وعام، وأمر ونهي. زجاجه يكسر الحجر. يصدع منه الجبل. تخشى منه الأفلاك، ويُسترق إلى سمعه. قراءة القرآن تحرر. والكفر يقيد، مما يستدعي تحديداً دقيقاً، لو كان ممكناً، للإيمان والكفر بمفاهيم جديدة من شاعر مصلح. والكتاب به كل شيء «الكتاب هو الحل». وهو إحدى المقولات الحالية للحركة الإسلامية المحافظة⁽¹⁾. ويقترب فهم القرآن من الطريقة الصوفية، الفهم بالقلب في حالة الفقر⁽²⁾.

من نحدى نارها أضحى هباء
وأزالوا كل جيبار عنيد
وأقاموها على النهج الرشيد
فجرى الحق على كل لسان
نقش غير «الله» علام الغيوب
ثورة الإيمان في كل الشعوب
حطموا القيد بعزم من حديد
واستردوا أمن حرياتهم

ككتيب من رمال وهنا
ذلكم باطن دين المصطفى
حكمة في الدهر تبقى لا تريم
يستمد النكس أيّدا من قواه
آية لا لبس أو تأويل فيه
وبها يرمي الزجاجُ الحجرا
وعلى الأفلاك منه وجل
فغدا بالحق حرا لا يمين
سنن الكفر لك السجن المقيم

وانتشي باللحن من قوّاله

شعلة من نورها الحق أضياء
قد أبادوا كل شيطان مريد
انشؤوا دنياه في خلق جديد
أيقظوا الدنيا بتكبير الأذان
قد أزال العُزْبُ من لوح القلوب
فأقاموا في شمال وجنوب
فترى في أمم الغرب العبيد
أعلنوا الحرب على ساداتهم

يا أمم الشرق، ص357.

أمة خلت يداها السنننا
سيرة المسلم شرع وكفى
الكتاب الحي والذكر الحكيم
إن فيه سر تكوين الحياة
لفظه لا ريب أو تبديل فيه
قوة فيه تشد الخورا
الذي يصدع منه الجبل
قرأ الدرس من الآي المبين
إن إيمانك في قيد الرسوم

الأسرار والرموز، ص111 - 113، المقدمة، ص50.

سكر الصوفي من أحواله

وكمال سيرة الأمة إتباع الشرع الإلهي. والشرع الإلهي ليس به ظاهر وباطن بل هو على الواضحة، ليها كنهها. فأقبال ضد الباطنية. الشريعة هو العلم الحق، وهي السنة. وهي نظام الأمة، وقوام الإسلام. وضعها الشارع، وكتبها في اللوح، لوح القدرة. وهو أقرب إلى صورة موسى حامل الألواح. وهو التصور الشيعي للشرعية. هدف الشريعة شحذ العزم، والحث على العمل، ورفي البشر. تتأسس في الحياة لأن الإسلام دين الحياة⁽¹⁾. تُفهم طبقاً للسان العرب وليس لسان العجم. ثم ينتقل إقبال من اللغة إلى الفكر ثم من الفكر إلى القوم. فمهما ارتقى العجم فإن رقيهم يهوى دون الشرع. ونصيحة الإمام المرشد، وهو تصور أقرب إلى الشيعة، تقوية القلب بالشرع وإتباع فهم العرب له⁽²⁾.

الشرعية الحققة تنبع من الفطرة، من القلب، من الضمير. إذ يشرق الدين بالهداية والرشد كما يشرق الضحى بالنور. فلو تبدل الحلال حراماً والحرام حلالاً لغاب الضمير. والعدل شامل، يعم كل الدنيا ليوم النشور. حكمة الدين الالتزام بالشرع أي بالضمير. والعيش بها هو عيش الصفو والرخاء والنصرة والنعيم. طاعتها

ومن القرآن أقوى وخل
فقره بجبي رباطا للفقير
كل ما تبغيه منه فاطلبن

ليس إلا النور تحوي الدرر
جوهر باطنه والظاهر
ليس غير الحب أصل السنة
ترتقي منه مقامات اليقين
ومن النظم دوام الأمم
بدؤه الشرع وبالشرع الختام
لك هذا اللوح، لوح القدرة
ويرقيك لأعلى منزل
شرعه للناس قانون الحياة

احذرن يا صاح فكر العجم
فهو من سنتنا قد مرقا
استمع نصيح الإمام المرشد
واتبع العرب تُصب شرعتنا

قلبه شعر العراقي تلا
تاجه والعرش صوف وحصير
لكتاب الله حق فاقرآن

(1) لا تقل في الشرع معنى مُضمّر
جوهر أبداع فيه القادر
ليس علم الحق غير الشرعة
شرعنا للفرد مراقبة اليقين
شرعة الحق نظام الأمم
قام للإسلام بالشرع قوام
كتب الشارع رب الحكمة
يشحذ العزم بنار العمل
إن دين المصطفى دين الحياة
السابق، ص 112 - 113.

(2) قال يوما لمريد فهم
فكرهم إن كان للنجم ارتقى
يا أخي فاسمع لهذا الرشد
وبهذا الحق فاشدد قلبك
السابق، ص 117 - 118.

تجعل الكون مطيعاً والأمن عاماً، والحياة كريمة. لا تأتي أوامر الدين غضباً وقهراً بل من رغبة وشوق ورضا. فالإيمان حرية ونشوة، وليس قهراً وحنناً. حكمة الدين في العدل والحب، وليس في الطغيان والبغض، وألا يحتاج على الأرض إنسان الرزق من إنسان⁽¹⁾.

حسن سيرة الأمة التخلق بالآداب المحمدية. ويعرض إقبال القضية عن طريق حوار بين والد وولده، واعتراف الابن بأن العقل أيام الشباب لا يبالي بضللال أو صواب. وعرض الوالد لإقناع ابنه بضرورة التخلق بالآداب الإسلامية التي يسميها إقبال «المحمدية» على عادة المستشرقين بتخيل يوم الحشر، ووضع الغزاة في سبيل الله والشهداء والعلماء. فماذا يقول الأب تجاه الطفل المسلم الذي لم يتربَّ بآداب الكتاب؟ التربية على الفطرة هي التربية على الكتاب من أجل خلق ذات كاملة أو بطل كالصقر يغشى البحار دون القبوع في خلوة الصحراء. هذه هي أخلاق النبوة⁽²⁾.

(1) من صميم الحياة. من فطرة الله، من القلب، من لقاء الضمير يشرق الدين بالهداية والرشد كما يشرق الضحى بالنور فلو أن الحرام يبدو حراماً يحجز الناس عنه وعي الضمير يصبح العدل شاملاً كل أرض في الحياة الدنيا ليوم النشور من ضمير الرسول أينع هذا الدين في غرسه وطاب جناه عش بأحكامه تر العيش صفوا ورخاء أو نضرة ونعيما وأطع أمره تطعمك البرايا وترى الأمن حيث كنت مقيما قد حباك الإله أحسن تقويم لتحيا خلقا سويا كريما وتقبل أوامر الدين بالرغبة والشوق والرضا كل وقت وأن كل فرض تقضيه جبرا وقهرا لا ترى فيه نشوة الإيمان حكمة الدين في العدالة والحب ليست في البغض والطغيان وبأن لا يحتاج في الأرض إنسان ليحظى بالرزق من إنسان يا أمم الشرق، ص 368 - 369.

(2) إن هذا العقل في شرح الشباب قال لي الوالد: يوم المحشر الغزاة الغر من أمته والنجوم الزهر أرباب الصفاء وأولو العلم وأرباب القلوب قد حباك الحق طفلا مسلما

لا يبالي بضللال وصواب تلتقي أمة خير البشر وأولو الميراث من حكمته حجة الدين فريق الشهداء وأولو الزهد وأصحاب الذنوب لم تنله من كتابي مغنما

وفي قصيدة بعنوان «في أسرار الشريعة» يعبر إقبال عن مقاصد الشريعة أي المصالح العامة بداية بالأموال. فحفظ الأموال حفاظ على الدين. وعدة النضال. إذ يزكو صلاح الرجال بصلاح الأموال. والغنى في ذاته عبودية للمال، وليس عبودية للإله. وكثيراً ما أتى الإصلاح على يد المعدمين. وكثيراً ما عم الكساد خزائن مال المترفين وأهل الأهواء. يضحون بالعدالة في الأرض ليقضوا حياتهم ناعمين. لا يخافون حساباً من المصير بل من غضبة الثائرين. يأكلون التراث نهباً، ويجمعونه بخلا. يأكلون خبز الأجير، ويسرقون حق الفقير. ينهبون حق العامل المسن الخاشع الطرف الخافض الجناح والذي يواصل الليل والنهار أينما وفي بؤس وشقاء. ليس في بيئته رغبة ولا تستر جسده إلا أسمال. يلتمس الأكواخ بين الربوع والأطلال. والغنى يبني القصور. أما من يجعل المال سبيلاً إلى كريم الفعال فإنه يربح الدارين. أما الأغنياء فإنهم حيارى. لا ينظرون إلى الإله بل إلى رأس المال⁽¹⁾.

= هين الأشياء قد شق عليك
فطرة المسلم طراً رأفة
إن تكن صقرا فلا تغش البحار
طينة المسلم در يا بني
صاح! من شمس الضحى كن أنورا
لم يصر ذا الطين إنسانا لديك
قوله والفعل كل رحمة
ليس إلا خلوة الصحراء دار
ماؤها والنور بحر للنبي
كن ضياء ليس يخبو الدهرا

الأسرار والرموز، ص 118 - 121، المقدمة، ص 50.

(1) إن حفظ الأموال من أجل حفظ الدين زاد وعدة للنضال
قد أبان الرسول أن صلاح المال يزكو به صلاح الرجال
إن يكن همك الغنى لم تكن له عبدا بل أنت عبد المال
كم شهدنا الإصلاح من فارغي الأيدي وأهل الخصاصة المعدمين
كم وجدنا الكساد من خازن المال وأهل الأهواء والمترفين
هم يضيّقون بالعدالة في الأرض ليقضوا حياتهم ناعمين
لا يخافون في المصير حساباً بل يخافون غضبة الثائرين
يأكلون التراث جمعا وبخلا ثم هم يأكلون خبز الأجير
وتزيد المسألة رعباً وهولاً عندما يسرقون حق الفقير
يقف العامل المسن لديهم خاشع الطرف خافض التعبير
يصل الليل بالنهار أينما دون جدوى في بؤس عيش مريب
ليس في بيئته الرغيف ولا يستتر من عريه سوى الأسمال
يبتنى القصر وهو يلتمس الأكواخ بين الربوع والأطلال
نال ربح الدارين من جعل المال سبيلاً إلى كريم الفعال
هم حيارى لا ينظرون بنور الله بل ينظرون رأس المال

يا أمم الشرق، ص 367 - 368.

ويتحول رأس المال إلى دافع للعدوان كما قيل من قبل «الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية». إذ يستوي عند الرأسماليين الحلال والحرام. يتبعون أساليب الخداع. ويخربون الديار باسم التعمير. تعتدي دولة على دولة أخرى ظلماً. ويبغي قطر على قطر عدواناً. يزرع الكادح الحقول. ويأتي غيره لجني الثمار⁽¹⁾.

7 - التقليد والاجتهاد

التقليد في زمن الانحطاط أولى من الاجتهاد. وهي قضية متشابهة. إذ يرى إقبال التقليد أولى من الاجتهاد في زمن الانحطاط، حفاظاً على التقليد، وتمسكاً بالسنن مثل عصره المملوء بالفتن والشور. فاللجوء إلى الماضي خير سبيل لمقاومة الحاضر. والتقليد هو سبيل النجاة، وجمع الأمة، والحفاظ على السنن. هكذا فعل بنو إسرائيل زمن الأسر البابلي بالتمسك بالتراث والتقاليد. فجمعوا التوراة. وظهرت لديهم الطقوس كمؤشرات على التماسك الاجتماعي. كما ظهرت لأول مرة أمور المعاد كنوع من الأمل في المستقبل وكما لاحظ إسبينوزا من قبل⁽²⁾. وحال المسلمين اليوم يقتضي التقليد تمسكاً بالتوحيد. والاجتهاد قد يؤدي إلى الفرقة. والافتداء برسوم الأولين خير من اجتهاد الفاضلين. فقد أجاد الآباء. وتمسكوا بالشرع، على عكس جهل اليوم، والانحراف عن الدين. فالتمسك بحل الله طريق النجاة، خوفاً من الاندثار من هبوب الرياح⁽³⁾.

قد يتناقض القول بالتقليد والقول بالاجتهاد في نفس الوقت وفي نفس

(1) يستوي الحل والحرام لدي القوم وأين الدجي من الأنوار
فأساليبهم مخادعة الخلق وتعميرهم خراب الديار
دولة تعتدي على دولة ظلماً وقطر يبغي على أقطار
كادح يزرع الحقول فيأتي غيره عاجلاً لجني الثمار
السابق، ص 368.

(2) إسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ط3، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1991، ص 205 - 206.

(3) عصرنا هذا مليء بالفتن
محفل الماضين فيه مقفر
شعلة التوحيد فينا سلباً
وإذا ما اعتل تقويم الحياة
سنن الآباء حبل الملة
حال إسرائيل فيها تبصرة
طبعه خلق شرور ومحن
صوحت فيه حياة تنضّر
ناره والنور منا سلباً
فمن التقليد للقوم نجاة
ومن التقليد جمع الأمة
إن تكن روحك روحاً مبصرة

العصر. وإلا ففيم «تجديد التفكير الديني في الإسلام» وفيم الدعوة إلى الاجتهاد في العصر الحاضر؟ إن الاجتهاد ساعة الخطر قد يكون أقل ضرراً وأكثر نفعاً من التقليد. وقد لا يكون في تقليد القدماء حل لقضايا العصر التي تتطلب اجتهاداً جديداً. وقد تكون مآسي العصر مدعاة إلى الاجتهاد وأكثر التحاماً بالواقع من الهروب إلى تقليد القدماء. وتعدد الاجتهاد ليس اختلافاً بل هو تعدد في الرؤى، وكلها صحيحة. فالصواب متعدد، وليس واحداً. هنا يبدو الجانب المحافظ لدى إقبال. وقد دعا كل المصلحين قبل إقبال مثل الشوكاني والأفغاني ومحمد عبده للاجتهاد في نفس الظروف، ظروف الاحتلال والقهر والتخلف والتجزأة⁽¹⁾.

وفي نفس الوقت، ينقد إقبال الفلسفة الهندية التي تقوم على التقليد. ويدافع عن الإسلام الذي يقوم على الاجتهاد. فكيف تكون الهند مصدر حكمة وفلسفتها تقوم على التقليد؟ تخلو من لذة السعي والبحث عن الحقيقة. لا تعرف جرأة العقل ولا الشوق إلى الفكر. التقليد أسر، والاجتهاد تحرر. بل إن الإسلام الهندي وقع في التقليد الأثير في الفلسفة الهندية. فطبع الفقه في الهند بطابع التقليد. إن عظمة القرآن أنه ترك للناس حرية الإبداع، وليس منهج العبيد⁽²⁾.

= انظرن كيف ابتلاها الزمن
عصرت عنقودها كف الخطوب
وعزتها في الخطوب المحن
ذكر هارون وموسى في القلوب
الأسرار والرموز، ص113 - 114، المقدمة، ص50.

(1) يا من انفض له جمع وجاه
آية التوحيد في القلب اسطرا
اجتهاد في زمان القهقري
اقتداء برسوم الأولين
لم يُصب أباًؤنا بالهوس
فكرهم كان رقيقاً مرهفاً
فكر الرازي ونجوى جعفر
ضيق الدين علينا سره
قد جهلت الدين عنه حائداً
باح لي بالسر نباض الحياة
وحدة الشرع حياة الأمة
نحن طين وهو قلب لا جرم
فانتظم في سلكه كالدرر
السابق، ص114 - 115.

(2) عُلِّمَتْ في الهند من أي طريق؟ =
حكمة الدين كما قد زعموا

8 - حاجة الأمة إلى مركز محسوس (البيت الحرام)

وقد يتناقض ذلك مع رفض ربط الأمة بالمكان. فالبيت الحرام مكانه في مدينة وعلى أرض وفي خطر. إنما هو رمز الوحدة. والوحدة قد لا تكون في المكان بل في الزمان. قد تكون وحدة النضال ووحدة الشعوب المقهورة كما حدث في عصرنا من وحدة شعوب باندونج، آسيا وأفريقيا والعالم الثالث. فالمركز ليس مكاناً بالضرورة بل قد يكون الإقليم القاعدة أو البؤرة الثورية. الخوف من المركز المكاني التسلط على الأطراف. ويلجأ إقبال كالعادة إلى تجربة بني إسرائيل في عدم الاحتفاظ بالمركز. فتشتتوا في البرية. وقد يعطي ذلك حجة لإسرائيل حالياً لشرعية تأسيس الدولة، واحتلال القدس، وهدم المسجد الأقصى، وإقامة هيكل سليمان باعتباره مركز اليهود في العالم⁽¹⁾. ووحدة المركز في المؤتمر السنوي العام أثناء الحج للمسلمين لدراسة حال الأمة وإعلان البراءة. وتنتهي المنظومة بشكوى للرسول، وتمنيه أن يموت بالحجاز⁽²⁾. انطلقت جميع الألحان من بلاد العرب.

لا ولا فيها من الفكر العميق
محفل يهفو إلى الفكر مشوق
ألفوه وزوال التحقيق
كم فقيه مُبعد من توفيق
ما هدي المؤمن منهاج الرقيق

مركز فيه حياة تنتظم
نقطة، فيها محيط، ضامرة
ومن المركز للقوم دوام
لحننا والوجد فينا الحرم
روحنا الغالي، ونحن الجسد
واصلنا محدثنا بالقدم
فهي صبح قد حوى صدر له
أحكمت من وحدة قوتنا
إن هذا الجمع سر الحرم
قوم موسى عبيرة فاعتبر
فتراهم في البرايا قطعاً
سيظروا بالحق بين العالمين

الأسرار والرموز، ص 122 - 125، المقدمة، ص 50.

= ما بها لذة سعي دائب
أين منهم جرأة العقل لدى
آه للتقليد والأسر بما
بدّلوا القرآن لا أنفسهم
وكفى القرآن نقصاً أنه
ضرب الكلم، ص 132.

(1) هكذا سنة ميلاد الأمم
إنما المركز روح الدائرة
ومن المركز للقوم نظام
نقطة المركز منا الحرم
نفس في صدرنا يتقد
صوتنا يندى به في الأمم
وحد المملة طوف حوله
وحدت في حسبه كثرتنا
إن في الجمع حياة الأمم
أيها المسلم يا ذا البصر!
زهدها في مركز قد جمعا
من خشوع المسلمين الأولين

(2) السابق، ص المقدمة، ص 51.

وسمعه الفرس والمغول. وتسمو الحضارة إذا كان لها مركز يجمعها كالحرم. وقيثارة إقبال أعجمية لكن لحنها حجازي⁽¹⁾.

9 - بقاء النوع الإنساني بالأمومة

المرأة أصل النغمات ومع ذلك عزف الرجل من محنتها. ربه في حجرها على العشق والجمال من ألحان صدرها. قرنها الرسول بالطيب والصلاة في حديثه المشهور: «حبيب إلي من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة». فمن الجهل عدم تعظيم الأم. فهي رحمة للعالمين. ينتسب إليها الرسول. تصل الرحم. والجنة تحت أقدامها. تعليمها واجب كما قال شوقي:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق⁽²⁾

وتضل الأمة عندما تضل الأم، وتنهب بالغرب، وتثور على الأوضاع. حريتها أصل البلاء، وفقدان الحياء. علمها ينسيها واجباتها، تربية الأولاد والحفاظ على الأمة والملة. وهنا يبدو إقبال المحافظ مرة أخرى في تصوره التقليدي لدورها حماية لها من الانبهار بالغرب⁽³⁾. وهو ما يحدث لفتاة القرية الغرة الخالية من التعليم.

(1) كعبة العُرب أطلقت كل لحن
كيف نسمو حضارة ليس فيها
صوت قيثارتني التي سمعوها
جناح جبريل، ص 466.

(2) نغمات المرء عزف المرأة
عَشَقَ الحق رياه حجرها
الذي قد بهر الكون سنه
إنما الأم علينا رحمة
رأفة المرسل في رأفتها
ومن الأم عابت أقدارنا
إنما الأمة من وصل الرحم
قال خير الخلق، وهو الحجة
الأسرار والرموز، ص 135 - 136، المقدمة، ص 51.

(3) هذه الغرة بنت القرية
حية العين، كهام الجفول
ألم الأم عليها بثقل
عبله الجسم وغفل السحنة
دون تعليم وصقل الصقل
وجهها يعرب عما تحمل

ونموذج السيدات فاطمة الزهراء وكأن عند إقبال بقايا تشيع. ويسترسل إقبال في مدح فاطمة. فهي أفضل من أم عيسى ذات النسبة الواحدة. وفاطمة لها ثلاثة أنساب: بنت الرسول، وزوج علي، وأم الحسين. ويصل الأمر بإقبال إلى حد التعظيم والتبجيل أنه يطوف حول قبرها إجلالاً لها، وينثر سجدياته حولها⁽¹⁾. الأولاد من صنع الأمهات. وما فيهم من خير من طبعهن وغرزهن. تطيعها الأرض والسما إذا أطاعت بعلها.

بل إن التعلم عن طريق تلقين الأم وبكل ما لديها من عواطف الأمومة هو بداية الوعي الذاتي، والتربية الوطنية، وحمل الرسالة، وفعلاً النفي «لا إله» والإثبات «إلا الله»⁽²⁾.

صبحنا يشرق من إظلامها
مسلماً حقاً عظيم النجدة
باطن المرأة فيه عطلا
وترى الثورة في مقلتها
حين طاشت عينها بالنظرة
إن حررتها فقد الحياة
لم يطق أعباء أم علمها
ليتها تغسل من حلتنا
في ذكاء ونشاط وعمل
وقوى قرآننا والملة

بثلاث تزدهي فاطمة
خاتم الرسل وخير الآخرين
أسد الله الحكيم الفيصل
حسن خير حليم وحسين
في الفم القرآن، والكف الرحي
في مصلاها يفوق الجوهرا
وإلى شرع الرسول المنتهي
ناثراً من سجدياتي حولها

بالنسيم بُرعما قد فتحت
فَعَزَزْتُ وبِحسَن صَوْرِك
علمتك «لا إله» في الشرر
ليكون الجسم كالمسك الفتيق
شعلة في القش والأطواد صارت

أمرنا يحكم من آلامها
إن تهب من حجرها للأمّة
والتي رقت وخفت حملا
شع نور الغرب في فكرتها
قطعت أوصال هذي الأمّة
إن حررتها أصل البلاء
ليلها ما ضاء فيه نجمها
ليتها لم تنم في روضتنا
إنه أولادها ملء الأمل
تحفظ الأم إخاء الأمّة

السابق، ص 136 - 137.

أم عيسى نسبة واحدة
قرة العين لخير الأولين
وهي زوج المرتضى ذا البطل
وهي أم السيدين الأكرمين
نُشِئت ما بين صبر ورضى
معها من خشية الله جرى
أنا لولا الشرع عن هذا نهى
طفت حول القبر إجلالا لها

السابق، ص 138 - 139.

درسك الأول أم لَقْنَت
ونسيم الأم هذا عَطْرِك
دولة للخلد منها نلتها
«لا إله» قل ومن روح عميق
إنها شمسا وبدرا قد أدارت

يخاطب إقبال المرأة المسلمة أينما كانت. فالنور من نارها، والحصون من أستارها. في طهارتها الدين، وفي دينها الرحمة. تعلم الأطفال التوحيد. ومن حبه تنشأ الأقوال والأفعال. بها تتوحد الأمة. وينصحها إقبال بالتمسك بنهج السلف. ويحذرها من فتنة العصر. ويطالبها بضم ولدها إلى صدرها حماية له من غوائل الزمن. تكون في خطر إذا ابتعدت عن عشها، فتطير فراخها. نموذجها فاطمة. فقد تنجب الحسين⁽¹⁾.

10 - توسيع حياة الأمة لتسخير قوى العالم

كل شيء سوى الله من أجل تسخير العمل، وتعريض الصدر للرمي دون خوف. والتسخير لعالم الحس للسمو به. وكل ما في الكون للتأمل فيه ثم لتسخيره. فالنائم الذي طالت غفلته وارتبط بالحس فجفته همته عليه النهوض وفتح البصر والنظر إلى العالم دون احتقاره⁽²⁾. فالذات بطبيعتها في العالم، يصارع الزمن بسيفه

بل هما في كف مضراب حسام
إنها ضرب أفد من ضربها

عَرَضْنَا فِي الصَّوْنِ مِنْ أَسْتَارِكَ
قَوِي الدِّينِ بِهِ وَالْأُمَّةَ
كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ مِنْ قِبَلِ الْكَلَامِ
فَعَلْنَا، أَقْوَالَنَا، أَفْكَارَنَا
وَنَمَا التَّوْحِيدِ فِي أَحْجَارِكَ
بِكَ يَنْمُو رَأْسُ مَالِ الْمَلَةِ
لَا تَبَالِي بِجَدِيدِ أَوْ تَلَفِ
وإلى صدرك ضمني ولديك
هذه الأفراخ، لما تطر
فاتبعي الزهراء، نعم الأسوة
فترى النضرة روضات ذوين

صدره للرمي، فاقدف لا تبيل
لترى سهمك فيه يمرق
ومن النذرة يخرج عالما
لوح تعليم لأرباب النظر
عالم الحس جفته همته

يا لها حرفين ليسا في الكلام
نارها نصر مبين عشى بها

جاويد نامه، ص 326.

(1) مُشْعَلِ مِصْبَاحِنَا مِنْ نَارِكَ
خَلَقْنَا الطَّاهِرِ فِينَا رَحْمَةً
طَفَلْنَا عِلْمَهُ حِينَ الْفِطَامِ
صَيْغٌ مِنْ حَبِكَ أَطْوَارِ لَنَا
ضَاءَ دِينِ الْحَقِّ مِنْ أَنْفَاسِكَ
بِكَ يَخْضِرُ غِرَاسِ الْوَحْدَةِ
لَا تَسِيرِي غَيْرَ نَهْجِ السَّلْفِ
احْذَرِي فِتْنَةَ عَصْرِ مَهْلِكَ
بَعْدَتْ عَنْ عَشْهَا فِي خَطَرِ
فِيكَ تَسْمُو لِلْمَعَالِي فِطْرَةَ
عَلَّ غَضْنَا مِنْكَ يَأْتِي بِحُسَيْنِ
الأسرار والرموز، ص 139 - 140.

(2) ما سوى الله لتسخير العمل
ما سوى الله تراه يخلق
من يسخر عالم الحس سما
كل ما في الكون من بحر وير
أيها النائم طالت غفلته

لاختبار قوته وعظمته. فالحق في متناول الخيرين المؤمنين. والدنيا ميدان للطعان، ومحك للمؤمنين. إن لم يأسرها الإنسان تأسره. وإن لم يسيطر عليها تسيطر عليه. وإن كان الإنسان يسير على الأرض بقدميه فخطاه تصل إلى أعالي السماء. والإنسان خليفة الله في الأرض ونائبه. يحقق كلمته في الأرض كنظام مثالي للعالم. يحول الضيق إلى سعة. وقد علمه الله الأسماء وانحنت له الملائكة⁽¹⁾. هو أعظم الكائنات. كل شيء في العالم مسخر له⁽²⁾.

لا تُحَقَّرَ عالِماً قَدْ حُقِّرَا

وامتحان لصفات المسلم
لترى أن دما في البدن
اختبر عظمك في ذي الصدمة
وجلاها لعيون المؤمنين
هذه الدنيا محك المؤمن
لا تضع في جوفها جوهركا
والذي يجتاز آفاق السماء
فهو في الأرض وفي النجم خطاه
لترى فيه بأعلى مستوى
حكمه في الأرض ماض حاكم
ولأعمالك فيها فسحة
ابصرن في الراح معنى مضمرا
حين في الكون أجال البصرا
كيف في آفاقها لا تنظروا؟
حكمة الأشياء نصر الآدمي

= قم وفتَّح بصرا قد سُكِّرا
السابق، ص 129 - 130، المقدمة، ص 51.

(1) إنه توسيع ذات المسلم
هو يبلوك بسيف الزمن
اضرب الصدر بقهر القوة
جعل الحق الدُّنَى للخيرين
هذه الدنيا طريق الطُّعْن
فأسرَّتها قبل أن تأسركا
أدهم الفكر الذي يطوي الفضاء
ساقه في الكون حاجات الحياة
يبتغي في الكون تسخير القوى
نائب الحق، بحق آدم
لك من ضيقك، منها سعة
افتح العين وأنعم نظرا
كم ضعيف في قوي أمرا
أيها المقصود من أمر انظروا
علم الأسماء فخر الآدمي

السابق، ص 130 - 131.

(2) ضرب الكليم، المدخل، ص ك.



الباب الثاني

جدل الذات



الفصل الأول

إثبات الذات (التأويل)

1 - التجربة والنص

يعني جدل الذات، إثباتها ونفيها. إثباتها عن طريق التجربة الحية وقراءة النص القرآني استنباطاً منه أو استقراء من الحياة، ونفيها في التصوف. إثبات الذات تأويل، ونفي الذات فناء. فالقرآن والتصوف نقيضان.

كان إقبال يعيش التجربة أولاً ويفكر فيها. ثم يحاول التعرف على أسبابها إما برؤية الأنا في مرآة الغرب إجابة على سؤال لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ أو في أصلها ومنبعها الفكري وهو القرآن الكريم. لم يبدأ التفسير عنده من النص استنباطاً لمعانيه طبقاً لقواعد اللغة العربية بل بالواقع الذي يصوره الناس، سبب النزول، الواقع الحالي، وليس سبب النزول الأول كواقعة مثالية أولى تتكرر في كل زمان ومكان⁽¹⁾.

التأويل هو الذي يحيل الواقعة إلى تجربة ذاتية. فالمعراج لا هو واقعة حسية مادية ولا هو محض خيال، بل هي تجربة ذاتية للشوق والصعود وطلب المعالي، والذهاب إلى ما وراء الحجب، والرغبة في كشف الأسرار ورفع الأشياء والطموح⁽²⁾.

(1) كان يقرأ القرآن بعد صلاة التهجد، ويتدبر في آياته، ويتفكر فيها، وتنهال دموعه على المصحف فتبله. ويأخذه الخادم لتجفيفه في الشمس. وهي نفس الحكايات حول الحسن البصري الذي كان يترك وراءه بركة من الدموع وهو ساجد من خشية الله. سمير عبد المجيد: مقدمة الأسرار والرموز، ص 6 - 7.

(2) ودزة طار فيها الشوق صاعدة تغير في عَرَصات الشمس والقمر =

واستشهاد إقبال بالآيات القرآنية استشهاد بعدي وليس استشهاداً قليلاً. وكل استشهاد هو بعدي بالضرورة كنوع من البرهان الخارجي عن طريق سلطة النص. يعرف المفكر أولاً شيئاً بالعقل والمشاهدة ثم ينتقي النصوص المؤيدة له. وقد اعترف شهاب الدين السهروردي صاحب «حكمة الإشراق» بذلك. فقد عرف ما عرف عن طريق الحدس أو الكشف أو الإلهام ثم وجد البرهان عليه بعد ذلك. هذا هو طريق الحكيم المتأله، الموغل في التأله والموغل في البحث. وتدعيماً لإنسانية الإسلام وكرامته الجامعة وعدم تفرقه بين الطوائف والأقوام يستعمل إقبال «النص»⁽¹⁾.

ويصرح إقبال بأن منظومة «الأسرار والرموز» لها أسس قرآنية. فقد جاء الكشف وهو يقرأ آية بعد أن عاش تجربة المسلمين في الهند، تجربة الضياع⁽²⁾. وتدخل بعض التعبيرات القرآنية من بعض الآيات في النسيج الشعري. وهو أكثر من الحديث لشعرية القرآن⁽³⁾. يستعمل الحديث بطريقة أقل مثل «من رأني فقد رأى

= يا رفقة المرج تلقي الصقر مُقدمة
المسلم السهم، والأفلاك غايته
جهلت والنجم أسراراً فلا عجب
ما زال مدك محتاجاً إلى القمر

ضرب الكليم، ص 9.

- (1) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 64]، الأسرار والرموز، المقدمة، ص 26.
- (2) هي آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ لَوْ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَمْتَدَدْتُمْ﴾ [البقرة: 105] السابق، المقدمة ص 48 - 43.
- (3) القرآن (5)، الحديث (1).

وبيوم الفتح هذا الغافر قال: «لا تشریب» وهو القادر.

حديث الرسول يوم فتح مكة ﴿لَا تُشْرِبُ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [بئس: 92] السابق، ص 21. مقصد من «علم الأسماء» هو سر «سبحان الذي أسرى» هو من آيتي و ﴿وَعَلَّمَ مَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: 1]، السابق، ص 41.

بالهسوي أضرم نارا قلبه مقررنا «هل من مزيد» غضبه

استدعاء لآية ﴿هَلْ مِنْ مُزِيدٍ﴾ [ق: 30] مع تغيير المجال الدلالي من طلب النار مزيداً من الكفار لتحرقهم والبطل الذي يقتل بسيفه الذي يقول هل من مزيد، السابق، ص 56.

الحياة الدهر يا من عرفنا «لا تسبوا الدهر» قول المصطفى

حديث الرسول «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» والذي نسج نجيب محفوظ على منواله على لسان أحد أبطاله «لا تسبوا الدولة فإن الله هو الدولة». انظر الدين والرواية في أدب نجيب محفوظ، هموم الفكر والوطن، ج1 التراث والعصر والحداثة، ص 559 - 588.

الله»⁽¹⁾، وبصيرة المؤمن خالية من نور الفراسة إشارة إلى حديث «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله»⁽²⁾. ومع ذلك، يدخل الحديث أيضاً جزءاً من النسيج الشعري⁽³⁾. فقد نقل الحديث الصوفي الشهير «حُبب إليّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»، و«الجنة تحت أقدام الأمهات»⁽⁴⁾.

قد يكون استعمال الحديث بنبرته وليس بمعناه، بصوته وليس بمضمونه مثل «لا قوم بعدي» منسوج على حديث «لا نبي بعدي»⁽⁵⁾.

2 - الذات والنص

بتتبع دوواين إقبال من أولها إلى آخرها، من «الأسرار والرموز» إلى «أرمغان حجاز» يمكن إجمال منظومة الذاتية في ستة عناصر، كلها مستمدة من النص⁽⁶⁾.

وقد يكون علم النفس قاسياً في تحليل السلوك الإنساني. فإذا ما أراد الإنسان أن يترك مكاناً لآخر فقد لا يكون الدافع هو الطموح بل ربما هو الاختفاء من هؤلاء الذين رأوا الفشل الأول. فالسلوك الإنساني مثل النص، له ظاهر وباطن. السلوك نص، والنص سلوك⁽⁷⁾.

أ - إثبات الذات: هو شعور الإنسان بوجوده. وهو شرط الإحساس بها.

- | | | |
|-----|--|--|
| (1) | وفجرا فلتهب من «من رأني»
أرمغان حجاز، ص 450. | قلبي منك ذو البدر المنير |
| (2) | السابق، ص 534. | |
| (3) | لي في دنياكم قد حُببا
إن تكن سر المعاني تعلم
الأسرار والرموز، ص 103. | بعض ما فيها حلالا طيبا
فافهم النكته «في دنياكم» |
| | الذي قد بهر الكون سنه
السابق، ص 135. | قرن الطيب إليها والصلاة |
| (4) | قال خير الحق وهو الحجة
السابق، ص 136. | تحت رجل الأمهات الجنة |
| (5) | ما سوى الحق قلاه المسلم
الأسرار والرموز، ص 97. | قائلا «لا قوم بعدي» فاعلموا |
| (6) | السابق، المقدمة ص 28 - 42. | |
| (7) | | |

المادي كما هو الحال في مقامات الصوفية بل الفقر الروحي، والاستغناء عن العالم، والسيادة عليه في نفس الوقت. ويسمى أحياناً استحكام الذات. الفقر مرادف للتوحيد أي جعل الذات واحدة في مقصدها. الذات سيف، ولا إله إلا الله أي التوحيد هي «المسن» الحجر الذي يسن عليه السلاح كي يكون حاداً قاطعاً. وإذا كانت الذات سيفاً فإن الفقر هو المسن. فالتوحيد والفقر متشابهان. يقومان بنفس الوظيفة. الفقر معجزة، تاج وعرش وجند، أمير الأمراء، وملك الملوك. والتذكر والتدبير يؤديان إلى حالة الفقر. الفقر فخر وزهو وعزة، وليس ذلاً واستكانة وعجزاً وسؤلاً. فقر الكافر نقص، وفقر المؤمن زيادة. الأول صحراء جرداء، والثاني فيض ونماء في البر والبحر⁽¹⁾.

ويقص إقبال حكاية دفاعاً عن الفقير بين الدرويش والسلطان. وشيخ الطريق يشكو فقيراً مطالباً بعقابه. والأعدل هو عزل العامل الذي أفقر الناس⁽²⁾.

هـ - ثمرة تكميل الذات: تتولد طاقة لا حدود لها. تستطيع بها الذات النفاذ إلى أي مكان. تسخر الآخرين، وتجبرهم على الطاعة. وتدفع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. تملأ الدنيا عدلاً وإنصافاً دون ملل أو عجز أو يأس. ترحم الناس ولا تقسو عليهم، جمعاً بين العدل والرحمة. تنصر الحق وينصرها الحق. وتقوم بأفعال يظنها الآخرون لعظمتها خارقة مثل معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء⁽³⁾.

(1) التوحيد كراسمال الأسرار وبؤرة الأفكار ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُوهِهِمْ يُرْفَعُونَ﴾ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا، الفقر فخر من حديث «الفقر فخري». السابق، المقدمة ص 35 - 40.

(2) ثم أملى الشيخ سطرا من لهاب أمسك الميزر وكتب ذا النذير «عامل عنبدك غر قد عصا اعزل العامل، هذا الفاجرا عبد حق فيه لله احتساب قد العامل بالقيد الثقيل احذرن لا تجرحن قلب فقير

قال للكاتب في نار الغضب أبلغ السلطان عن هذا الفقير وعلا رأس غلامي بالعصا أو فهب ملكك ملكا آخرأ أرعد السلطان منه ذا الكتاب واستغاث الشيخ للصفح الجميل لا تزح النفس في نار السعير

السابق، ص 25 - 26.

(3) الخلافة الإلهية ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ =

و - التمييز بين الأسرار والرموز: هو التمييز بين إثبات الذات ونفي الذات من القرآن، في التمييز بين الحق والباطل، بين الإسلام وغيره، بين الإيمان والكفر، بين الهدى والضلال، وصورها الثنائية مثل النور والظلمة⁽¹⁾.

3 - اللفظ والصورة

وكثيراً ما يظهر لفظ قرآن ككتاب مقدس، وموضوع شعري وجداني. وهو عربي اللغة ولا يقرأ بلغة فارسية أو أردية أو تركية أو فهلوية⁽²⁾.

ويستعمل إقبال لفظ «ما زاغ» من آية «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى» [التنجيم: 17] لبيان تقليد المسلمين للغرب، واستبدال إمام بإمام بعد أن زاغ البصر⁽³⁾. يكفي اللفظ القرآني لاستدعاء الآية. فاللفظ القرآني روح القرآن.

وتكثر الصورة القرآنية من خلال الألفاظ وفي مقدمتها الكلم وسيناء وعصا موسى، رمز ثقيل بالعصا، ورؤية النار المقدسة، وسماع الصوت، وضرب الحجر

= وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَبْرَارَ مِنْ قَبْلِهِمْ». جماعة المؤمنين «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا مِنْهُ سِيَّاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ»، «الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَحْسَبُوا الْحَسْبَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ». وهم حزب الله «أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»، «إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ». لهم العزة والنصر «وَلَا يَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»، «وَلِلَّهِ الْمِرَّةُ وَلِرَسُولِهِ. وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلِلْكَافِرِ الْمُتَفَعِّلِينَ لَا يَعْلَمُونَ». الإيمان جهاد «تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُعْتَدِينَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَيَسْكِنُونَ فِيهَا أَزْوَاجًا مُطَهَّرَةً وَتُزَوَّجُونَ فِيهَا وَأَنْتُمْ فِيهَا كَالْفِئَةِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ». الرضا المتبادل «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ»، السابق، ص 40 - 42.

(1) «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ»، «وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا»، «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»، الأسرار والرموز، المقدمة، ص 42 - 43.

(2) لاح شيخ الحق ذلك الألمعي من حكي قرآننا بالفهلوي السابق، ص 10.

(3) قد أزاغ العين في الغرب سناً لك من صاحب ما زاغ إمام ضرب الكلم، ص 60.

بالعصا فانفجر منه الماء وكما جاء في «ضرب الكليم»، وإجراء المعجزات. كل ذلك رموز للذات القادرة على المعرفة، المملوءة بالطاقة الحيوية، والقادرة على سماع الهاتف الباطني، وإجراء أفعال البطولة، وتفجير الصخر ماء⁽¹⁾. فالكلمة صورة. كما تدخل بعض الصور مثل تصدع الجبل خشية من القرآن⁽²⁾. وبين الحين والآخر تظهر صورة ماء زمزم المشتعلة بالنار، وليس الماء البارد. وهي تعلق هامة قيصر. وقيصر يقف أمامها كالخادم⁽³⁾. وقد تستعمل الصور القرآنية استعمالاً حراً دون اقتباس آية في الصياغات الشعرية مثل اليد البيضاء، وسيناء، والخليل، ونوح والمصطفى، والكليم... إلخ⁽⁴⁾. وقد تطول الصورة مثل ﴿أَعْبَازُ نَخْلِ خَاوِيَةٍ﴾ [الحائفة: 7] وقد تقصر مثل «صرصراً»⁽⁵⁾. والحكمة خير كثير ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269]⁽⁶⁾. وكل شيء غير وجه الله هالك. وإذا دخل المملوك قرية أفسدوها. وخلق الله الناس من نفس واحدة⁽⁷⁾. واليد البيضاء، يد موسى التي أخرجها للناظرين أصل

- | | | |
|-----|----------------------------|------------------------------|
| (1) | أنا في يأس من الصحب القديم | مُشعل طوري ليغشاه كليم |
| | السابق، ص7 | |
| | إن تكن صحراء فاطلب لجّتي | أو تكن سيناء فاقبس شُعلتي |
| | السابق، ص8. | |
| (2) | الذي يُصدعُ منه الجبلُ | وعلى الأفلاك منه وجل |
| | الأسرار والرموز، ص112. | |
| (3) | شعلة الماء التي من زمزم | قيصر يعنو لها كالخدم |
| (4) | إن من سيناك للحق الحياة | واليد البيضاء لي منها الممات |
| | جاويد نامه، ص174 | |
| | أمراء الشعر زانوا جمعهم | واليد البيضاء ليست عندهم |
| | السابق، ص261 | |
| (5) | صرصرا واجعل هواء البادية | إنهم أعجاز نخل خاوية |
| | السابق، ص183. | |
| (6) | قال ربي إنها الخير الكثير | إن تجده فاغتنمه يا بصير |
| | السابق، ص207. | |
| (7) | الأمين العبد والرحمن مالك | كل شيء غير وجه الله هالك |
| | المملوك نكسوا لله راية | والقرى من ظلمهم في الذل غاية |
| | خبزنا والماء تحوي مائدة | إنما الناس كنفس واحدة |
| | السابق، ص215. | |

الضياء⁽¹⁾. وتوضع آية ﴿لَا تَخَفْ﴾ [هُود: 70] في النسيج الشعري⁽²⁾.
 قد يتغير منطوق الآية طبقاً لقواعد النظم مثل «لا غلاب إلا هو» تطويراً الآية
 (لا غالب إلا الله)⁽³⁾ التي تستعمل في الحياة اليومية إخفاء للعجز الذاتي، وطلباً
 للنصر من قوة خارجية. فالآية ليست بحروفها بل بظلالها من خلال اللفظ. وهو ما
 فعله ابن طفيل من قبل والسهورودي في «حي بن يقظان».

4 - البيت والآية

تظهر الآيات القرآنية في «رموز نفي الذات» داخل النسيج الشعري. فالتوحيد
 يعني أن يأتي الفرد الرحمن عبداً⁽⁴⁾. وإبراهيم أبو الجميع⁽⁵⁾. وعلاج التوحيد لعلل
 الخوف والحزن واليأس⁽⁶⁾. ودور الرسالة تطهير النفس والجماعة، وقبول توبة
 التائبين وهدى المهتدين⁽⁷⁾.

واليد البيضاء أصل للضياء واليد البيضاء بها الملك المباح	(1) الخفي منها وضاح الجلاء إن نور الروح للحكم الفلاح السابق، ص 229 - 231.
لتعزف «لا تخف» تطرب صحابا	(2) بلحن ليس من شرق وغرب أرمغان حجاز، ص 459.
هوت في الفخ رجلاه لا غلاب إلا هو	(3) بلا دين ولا تيين دواء العاجز المغلوب ضرب الكليم، ص 121.
رمز التوحيد للقلب ببصر	(4) حوالتي (18) مرة وهي: في أتى الرحمن عبداً مُضمّر الرموز والأسرار، ص 87.
من أبيكم خذ إذا شئت الدليل	(5) نحن في الإسلام أبناء الخليل السابق، ص 88.
والحياة الحق أن لا تقنطوا ورد لا خوف عليهم فاقرأن حين يمضي نحو فرعون كليم من رسول الله لا تحزن وع	(6) عدة السموت قنوط محبط قوة الإيمان تُحيي فاعلمن قلبه من لا تخف قلب سليم يا سجين الغم أبصر واسمع السابق، ص 89 - 90.
بعد سيل من دموع سُيلا فنمت في أرضنا روضتها	(7) طهرا بيتي إليه أنزلا تب علينا نصرت زهرتها

والحياة قصاص⁽¹⁾. والوطن ليس أساس الأمة وإلا أصبحت خاسرة. بئس قرارها، وضل قومها إلى دار البوار⁽²⁾. والأمة المحمدية لا زمان لها بل هي منذ عهد النور الأول عهد «ألست» عند الصوفية وهو عهد ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأنعام: 30] عند إقبال. وهي محفوظة حفظ القرآن لا تموت إلا بموته. وهذا هو معنى التنزيل. ومن يُطفأ مصباحه؟⁽³⁾ لقد نزلت الشريعة رحمة للعالمين⁽⁴⁾. إن توسيع حياة الأمة بتسخير موسى العالم. لذلك أمرت «انظروا» أي النظر في آثار الأمم للعظة والعبرة. ولقد علم آدم الأسماء. والنظر تعرف على ما تعلم الإنسان من قبل⁽⁵⁾. ولا يحزن المسلمون لأنهم الأعلون، تفاؤل مطلق بالنصر.

وينهي إقبال منظومة الأسرار بتفسير سورة الإخلاص، ودعوة المسلمين إلى فهمها وتمثلها والعمل بها. وهي بقايا محافظة عند إقبال أشبه بالحجاب والتعابيد حتي ولو كان لها أصل في الحديث. كتابتها في حجاب، وتعليقها في الرقاب أو في المركبات أو بيعها في المواصلات العامة. فهي كالدواء للداء بدلاً من الطبيب. تستقي ما في الصدور. تفرز الوحدة في القلوب، وتوحد بين الأمم والأقوام والشعوب، أفغان وترك وعجم. وهي وحدة فعالة، تحول الإيمان إلى عمل.

-
- | | | |
|---|--|-----|
| حلقة منها حوالينا يشيد | ذلك من يهدي إليه ما يبريد | = |
| | السابق، ص 95 - 96. | |
| ذاك قانون حياة، لا مناص | وتلا القاضي حياة في القصاص | (1) |
| | السابق، ص 102. | |
| فأحلوا قولهم دار البوار | طلبوا الجنة في بئس القرار | (2) |
| | السابق، ص 105. | |
| أصلها الميثاق في قالوا بلى
نحن نزلنا لديها حجة
قال ربي عالما: أن يطفئوا | أمة الإسلام تآبى أجلا
لا تخاف الموت هذه الأمة
ذلك المصباح أنى يُطفأ؟ | (3) |
| | السابق، ص 108 - 109. | |
| قد تلاه رحمة للعالمين | ذا بلاغ آخر للمرسلين | (4) |
| | السابق، ص 111. | |
| كيف في آفاقيا لا تنظر؟
حكمة الأشياء نصر الآدمي | أيها المقصود من أمر انظروا
علم الأسماء فخر الآدمي | (5) |
| | السابق، ص 131. | |

ويموت الإيمان إذا لم يعمل⁽¹⁾.

ويشرح إقبال «الله الصمد» بإرجاع الآية إلى تجربة ذاتية، وإحساس داخلي، وعلم قبلي ذوقي، ومشاهدة عيانية على طريقة الصوفية. فمن تناقضات إقبال التي جعلت الفكر الإسلامي بعده ينقسم قسمين، محافظ ومحدد، موقفه من التصوف. فهو ضد التصوف الذي يؤدي إلى نفي الذات أي إلى الكسل والخمول والخوف والحزن، ومع التصوف الذي يقوم على إثبات الذات، والعشق، والحياة، والمشاهدة، والتجربة الذاتية والعيان. ويمدح الرسول لدرجة الوصول إلى الحقيقة المحمدية وكأن «حب المصطفى» هو الحل. «الله الصمد» يشعر بها بالقلب، وتخلص من القيد، وتحرر الإنسان من عالم الأسباب. فالحياة ليست لولباً من العلل. يكفي الإيمان بالله وعدم الشكوى لأحد، ولا مد اليد لأحد. يكفي أقل القليل حتى يتحرر الإنسان من مغريات الدنيا بما في ذلك تخت قابوس. هكذا انتصر المسلمون في عصرهم الذهبي، عصر هارون الرشيد، وبغداد والعراق⁽²⁾.

(1) قلت: يا صفوة أصحاب الصفاء
بك قر الأس في بنياننا
قال: حَتَامَ أَسِير الوهم
نفس في كل صدر جائل
فاجلُ هذا السر في كل الفعال
الذي سماك عبدا مسلما
قلت: أفغان، وترك وعجم
طهرن الحق من هذي السمات
يا أسيرا لسمات ويحكا!
أبدل الوحدة بالتثنوية
عابد الواحد! وحد واهجرن
أمة قطعتها في أمم
قوة الإيمان زد بالعمل
السابق، ص 140 - 149، المقدمة، ص 51.

مطلع الديوان من أهل الوفاء!
فانظرن ما الطب من أدوائنا
سورة الإخلاص براء السقم
وهي للتوحيد سر هائل
ولتكن منه مثالا للجمال
بك للوحدة في الدنيا سما
لم تزل عما تعودت القدم
اقصد البحر واخل القنوات
قد بعدت اليوم عن دوحتكنا
لا تقطع صاح! حبل الوحدة
كل تفريق وللحق ارجعن
وهدمت الحصن فيه تحتمي
مات إيمان إذا لم يعمل

تخلصن من قيد أسباب وحد
لا تمدن إلى الخلق يدا
عش ومت حرا، عداك الغرر
وتعش حرا بها كل الفخار
ابذل الرأس وبالعرض ابخل
اقصدن بغداد، نعم الوطن
حبذا حسن به، الأعين راق

(2) أَشْعَرَنَ القلب الله الصمد
لا تُبَيِّنَنَّ شُكَاةَ أَحَدَا
خفف الزاد، طريق وعر
اجعلن أقلل من الدنيا الشعار
تخت قابوس اركلن بالأرجل
لم يخف هذا العقيق اليمُنْ
حبذا زهرة أيام العراق

ويستأنف إقبال تفسير سورة الإخلاص آية آية، ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ [الإخلاص: 3]. ويحول المعنى من الله إلى الرسول، ومن التوحيد إلى النبوة. النسبة إليه ليست بالدم بل بالرسالة. ليست نسبة إلى العُرب أو الروم أو الترك أو العجم. تقليده طريق النجاة⁽¹⁾.

وينهي إقبال تفسير سورة الإخلاص بآخر آية ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 4]، مطالباً بالعودة إلى العالم، وعدم احتقاره، والدخول في معاركه وأهمها: الكسل أم العمل؟ اليأس أم الأمل؟ العبودية أم التحرر؟ وسبيل ذلك هو التوحيد والأحدية، والتفرد والفردية. لا فرق في ذلك بين الله والإنسان. فكلاهما من أصل لغوي واحد «خود»، «خودي». الله بالفتح، و«خودي» الذات بالكسر. والمسلم لا يرضى إلا بالسمو. وكان الفاتح العربي يبني قصره بعد فتح المدينة أعلى الجبل. وكما قال أبو فراس:

ونحن أناسٌ لا توسط بيننا لنا الصدر العالمين أو القبر

لماذا يحزن المسلمون وهم الأعلون؟ مهمة المسلم ليست التاج، وليست

وبحسبي حبه، لي شرفا
كيف أنأى عن مكان حله
أين من ليلى بها صبح العراق؟
واترك الأرباب، والله اعبدن

وشريكى في ولاء المصطفى
وأنا أشهد أنوار النبي
ليس من روم وعرب أصلنا
قد حباننا ذاكم الوصل القريب
حب عين نشوة في قربه
مذ حوت أعراقنا نشوته
نبضت منه عروق الملة
هو في الروح، وفي الجسم النسب
خل إيران، وخل القربا
قد نمت أغصاننا دوحته
ثوب حق، لا سدى أو لحمه
قد غفا عن لم يلد لم يولد

قال: إني خادم للمصطفى
أنا، من قيدت في حبي له
لي في يثرب حب واشتياق
عن طريق المصطفى لا تذهبن

السابق، ص 142 - 145.

(1) آه للسرو الذي قد ورقا
عينه تحرم إبصار النبي
ما من الأنساب يقوى وصلنا
إنما حب الحجازي الحبيب
حسبنا أصرة من حبه
جدد الدهر بنا سيرته
عشقه سر اجتماع الأمة
صلة العشق لنا أقوى سبب
أيها العاشق خلّ النسبا
نور حق مثله أمته
نور حق ما حواه نسب
من ثوى في نسب أو بلد

السابق، ص 146 - 147.

السير حافي القدمين. يحمل العالم كله على كتفيه وفي صدره، بره وبحره، أرضه وسماؤه، هواءه وماءه. يسمع الرعد، يرى البرق، ولا يخاف. لا يسمع من ضوضاء العالم إلا الأذان. يعفو ويبدل، لين في السلم، قوي في الحرب. ومن لا يطير بجناحيه ليس له إلا أن يزحف على بطنه كالودود. ومن يشكي ذلك الزمان هو الدليل الذي هجر القرآن. فلماذا يرضى المسلم الزحف على الأرض ولديه إمكانية الصعود إلى السماء؟⁽¹⁾.

يستمر إقبال في «ضرب الكلیم» في استخدام الآيات القرآنية داخل الأبيات الشعرية كنسيج أدبي وفكري واحد. فالشعر والوحي صنوان. السالك طامع إلى مقام «علم الأسماء». وذكر «سُبْحَانَ رَبِّي» يقيس الزمان والمكان⁽²⁾. وتدخّل في البيت الشعري آية طويلة مثل «فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ»⁽³⁾. ويستعمل إقبال آية «كَمْ لَبِثْتُمْ» لبيان الزمان النفسي، «يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» في مقابل الزمان الجغرافي «ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا شَعًا»⁽⁴⁾. ورسالة الذات تعبير عن آية الأمانة

عامرا بالحق قلبا قد عمر؟
لترى في الناس حرا أوحدا
عبده يأبى شريكا مثله
ليس يرضى بمُسام في السما
أنتم الأعلون تاج المفرق
وحوى برا وبحرا صدره
صدره للبرق إما نزلا
نغمة إلا أذان المسلم
وهو حين القهر ذو طبع كريم
قهره في الحرب صهر للحجر
دودة في ظلمة التراب تراج
قد أصبت الذل من هجر القرآن
بالكتاب الحي أمسكت يدا
أصعدن فوق السماوات العلى

(1) صاح! ما المسلم للنديا احتقر
لم يكن أمسك بها واشدد يدا
ذلك الواحد لا شرك نه
قد سما المسلم أعلى من سما
ورده لا تحزنوا في المأزق
حمل الكونين طرا ظهره
أذنه للرعء إما جلجلا
ليس في ضوضاء هذي الأمم
هو في العفو وفي البذل عظيم
لطفه في الحفل جبر المنكسر
أنت يا من لم يطر منك جناح
مستكين تشتكي جور الزمان
قد هيّطت الأرض طهرا كالندى
فيلام العيش في التراب؟ ارحلا
السابق، ص 148 - 149.

نزلت فيه علم الأسماء
والفكر يقيس الزمان والأرجاء

(2) ذان للسالك الطموح مقام
ولذكر سبحان ربي

ضرب الكلیم، ص 14.

(3) السابق، ص 38.

بآية كم لبثتم كن بصيرا

(4) يمر العام، ما ساوى الشعيرا

زبور العجم، ص 382.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا﴾ التي تدخل في النسيج الشعري⁽¹⁾. وبالرغم من العشق المتبادل بين الذات الإنسانية والذات الإلهية فإن الذات الإنسانية لا ترى الذات الإلهية إلا بعين البصيرة مستشهداً بآية ﴿أَنْ تَرِنِّي﴾⁽²⁾. والخلود منذ القديم منذ عهد ﴿أَلَسْتُ﴾، ورد البشر بالإيجاب ﴿يَلَانِ﴾⁽³⁾. وتدخل الآية مع تغيير بسيط مثل دخول آية ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ مع تبديل لفظ «القوم» بلفظ ﴿الْإِنْسَانَ﴾⁽⁴⁾. ويستعمل الشاعر أمر ﴿لَا تَخَفْ﴾ ليشجع الأمة على الاقتراب من النار دون أن تحرق كما أمر الله موسى⁽⁵⁾. هي سيف يأخذها الإنسان بيده من الوحي. وأحياناً يلجأ الشاعر إلى الآية داخل نسيج شعره إن لم يستطع إعادة صياغتها مثل جعل القلب إمام الحضور. وهو نفس سؤال موسى ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾⁽⁶⁾. وفي وصف الطين الذي خلق منه آدم واعترافه بالألوهية واعتراض إبليس يستعمل إقبال جزءاً من آية ﴿قَالُوا أَجْعَلُ فِيهَا﴾⁽⁷⁾. ويستعمل إقبال آية ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ داخل بيت شعر يعبر به عن ثقة الإيمان⁽⁸⁾. وفي ظلمة الليل يزوغ البصر. وهو تعبير قرآني في المعراج⁽⁹⁾.

- | | | |
|-----|--|--------------------------|
| (1) | أما قولي «أنا» وهو الضياء | وفي إنا عرضنا ما نشاء |
| | | السابق، ص 389. |
| (2) | بنور فلتنر من لن تراني | وإن أغمضت عينك أنت فان |
| | | السابق، ص 394. |
| (3) | ألست لخلوة قد صعدتها | بلى أي المعارف ردذتها |
| | | السابق، ص 400. |
| (4) | والعصر إن القوم لفي الخسر | وسل الطبيعة عن مفاصلها |
| | | السابق، ص 433. |
| (5) | فمن لا تخف شعلة لم تزل | تصاعد في الأجمة اللاهية |
| | | جناح جبريل، ص 437. |
| | لا تخف كل سيف فخذها وهي وحي دون ريب | |
| | | السابق، ص 477. |
| (6) | أو لا يزعج قولني | أرني أنظر إليك؟ |
| | | السابق، ص 441. |
| (7) | ربما مزقت لجبريل سرا | ورأى قوله أتجعل فيها |
| | | السابق، ص 458. |
| (8) | وليه وثيقة الأمن لا خوف عليهم في محكم القرآن | |
| | | يا أمم الشرق، ص 349. |
| (9) | مساؤه ران على صباحه | بظلمة في ليلها زاغ البصر |
| | | السابق، ص 353. |

تعليم الله آدم الأسماء ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ سر لا يُعرف أو خمر يسكر. وهل يكشف الدعاء في ﴿أَدْعُونِي﴾ هذا السر؟⁽¹⁾. وما تصف به الآية السلوك الإنساني عندما قالت امرأة العزيز ليوסף ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ يأولها إقبال على الكون عندما سرى الضوء في الدنيا⁽²⁾. والذات لا تقوى ﴿إِلَّا يَسْطُرُنِي﴾ أي إلا باستقلالها وتفردتها⁽³⁾. ويأمر الأفغاني المسلم ﴿قم﴾ كما أمر جبريل الرسول ﴿فَرُّ فَأَنْزِرْ﴾⁽⁴⁾. والتجلي الإلهي لا يُري بالعين المجردة كما طلب موسى وكما أجيب ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾⁽⁵⁾.

والاستخلاف في الأرض نص قرآني دخل في الصياغة الشعرية⁽⁶⁾. وقد تطول الآية دون أن تخرج عن النسيج الشعري مثل ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا...﴾⁽⁷⁾. وفي ليلة الإسراء والمعراج ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾. ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدُكَ مَا أَوْحَىٰ﴾⁽⁸⁾. وقد يمتد

- | | | |
|-----|--|---|
| (1) | علم الأسماء سر من دراه
قد رشقت الصدر منا بالسهم
جاويد نامه، ص 140. | أسكرت من خمرها أو من سقاه
حرف ادعوني عن هذا الكلام |
| (2) | لام تلك الأرض مزرووق الفلك
السابق، ص 143. | ما رأيت عين كهذا هيت لك |
| (3) | قوله إلا بسلطان تذكر
السابق، ص 149. | أو فمت في الوحل والذر المبعثر |
| (4) | عالم في صدرنا هذا اختفى
السابق، ص 199. | في انتظار قم لإنسان غفا |
| (5) | لن تراني إنها المعنى الدقيق
السابق، ص 202. | ولتضع فيه فذا البحر العميق |
| | حكيم دائما أخي كليما
أرمغان حجاز، ص 439 | لسان ساكت عن لن تراني |
| | ليس جد وجهه هذا الزمان
السابق، ص 520. | لاثقنا بحديث لن تراني |
| (6) | قول إنني جاعل تقديره
جاويد نامه، ص 200. | بين أرض وسما تفسيره |
| (7) | أهل حرص أي خير حققوا
السابق، ص 215. | لن تناولوا البر حتى تنفقوا |
| (8) | ثم ما زاغ البصر بضحي النصيبا
السابق، ص 220. | لمقام عبده تمسي الرقيب |

لفظ السورة إلى مصطلح وفترة زمانية مثل عهد ﴿أَلَسْتُ﴾ الذي أشهد الله به البشر على ألوهيته⁽¹⁾. ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ في حاجة إلى فهم، بعيداً عن القضاء والقدر⁽²⁾. ومما يسهل استعمال الآيات في الشعر الصوفي تشابه المصطلحات مثل القرب والبعد⁽³⁾. وقد ترك المسلمون الأندلس وما زالت ﴿سِيمَاهُمْ﴾ من أثر السجود⁽⁴⁾.

وأحياناً تبدأ الآية القرآنية مثل ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾⁽⁵⁾. وأحياناً تأول الآية في الشعر مثل تفسير ﴿أُولَى الْأَمْرِ﴾ بأن من يحق لهم أخذ الخراج، وليس من يدهم السلطة السياسية أي التأويل الاقتصادي وليس السياسي⁽⁶⁾. وتوضع الآية في صورة مركبة مثل (ربي الأعلى) الذي تشير إلى العلو والرفعة⁽⁷⁾.

5 - القصة الدينية

يكون التأويل للحكايات والقصص الواقعية أو الخيالية. فلكل فكرة حكاية أو قصة أي تجسد واقعي في التاريخ.

- | | | |
|-----|--|---|
| (1) | قف تأمل وحدة قد شتتت
السابق، ص 226. | و ألسنت عند قوم أبطلت |
| (2) | من ألسنت هزها فرط اضطراب
السابق، ص 252 | سكرت من لحنها رشف الشراب |
| (3) | ولهذا الشعر ما فهمت
السابق، ص 263. | قبل فهم ربي ما رميت |
| (4) | إن قرب الروح من إني قريب
السابق، ص 318. | من حياة الخلد للمرء النصيب |
| (5) | سيماك من أثر السجود على الثرى
جناح جبريل، ص 485. | طرب يفوح ونضرة تتجدد |
| (6) | الحب ذو العصف والريحان ينبته
السابق، ص 506. | من ظلمة الطين رب الحب والطين |
| (7) | وأقول لك يا عالي المقام
لأولي الأمر و«منكم» شأنهم
السابق، ص 327. | لسوى اثنين الخراج كالحرام
في الكتاب قوله برهانهم |
| (8) | ربي الأعلى أكانت عندنا
السابق، ص 327. | ذنبه هذا أو ذنب لنا |

فقد نظم إقبال بعد مقدمة «الأسرار والرموز» بعض الأشعار في مدح سر سيد علي إمام حذفها في الطبعة الثانية⁽¹⁾. وهي شخصية واقعية ولد عام 1869 وأصبح محامياً ثم وكيلاً لكلية عليكره ورئيساً فخرياً للجلسة التي عقدها حزب الرابطة أو الجامعة الإسلامية. ثم أصبح قاضياً. وعهد إليه بتشكيل الوزارة في حيدر أباد. وتوفي في 1932. وقد حذفت الحكاية من الطبعة الثانية. ومثل هؤلاء هم النجباء الفضلاء الذين يرجى منهم الخير. فالإصلاح ليس مجرد أمنيات بل يمكن تحقيقه.

وتصويراً للنبيّة الإلهية يروي إقبال قصة فتى من مرو جاء إلى السيد المعظم علي الهجويري شاكياً بغي أعدائه. فالنبيّة الإلهية تعني الخلافة في الأرض والكفاح والسعي والشهادة للبطل كما هو الحال في سمفونية البطولة عند بهوفن التي كان أهداها إلى نابليون قبل أن يتوج نفسه ملكاً على فرنسا، ومثل «نداء البطل» عند برجسون في وصفه للدين الحركي عند الصوفية، وسماع الهاتف الباطني مثل جان دارك. وعلي الهجويري صاحب «كشف المحجوب» هو راعي مدينة لاهور وحاميها وواليها. يأتيه الفقراء للطعام المجاني من كل أنحاء باكستان والهند وآسيا أسفل المسجد. ويذكرون الله في حلقات الذكر في فناء المسجد المكشوف⁽²⁾. والقصة أن فتى أتى الشيخ شاكياً له بغي الأعداء. فأعطاه الشيخ درساً في إثبات الذات، وأن من تحلى بالجمال فإنه يتجلى في الجلال. ولو اختلط الخير بالشر في الحياة فإن الذات قادرة على أن تحرر نفسها من هذا الخلط. وتنتقل من الغم إلى الهم، ومن اليأس إلى الرجاء، ومن السكر إلى الصحو، ومن الغيبة إلى الحضور، ومن الفقد إلى الوجد، ومن رموز نفي الذات إلى أسرار إثبات الذات. الذات هشة كالزجاج، ولكنها صلبة كالحجر. وإن ضعفها يجعل الآخرين يطمعون فيها. وبالرغم من أنها من الطين إلا أنها شعلة نار. والشكوى للنساء. وقد يكون العدو صديقاً، والصديق عدواً. فالعدو تقوية للذات. نفي الذات إثبات لها. النقيض يحيي النقيض كما هو الحال في الجدل الهيجلي. قوة العزم تذيب الحجر، كالسبل لا يوقفه المانع. والشدائد تشخذ العزائم. إثبات الذات لا يقضي فقط على العدو بل يزلزل العالم. إثبات الذات بقاؤها، ونفيها فناؤها. الموت نوم الذات، والحياة

(1) سمير عبد الحميد، الأسرار والرموز، المقدمة، ص 16.

(2) الأسرار والرموز، ص 46 - 48.

يقظتها. وقد سُجن يوسف ولكن لم يُقض على ذاته، بل انتقل من السجن إلى الملك. وينتهي الشيخ بنصيحة الفتى باستحكام الذات، والنهوض، ونصرة الحق، وحمل الأمانة⁽¹⁾.

وتصويراً للنيابة الإلهية أيضاً يحكي إقبال قصة ثانية للطائر الذي أجهده العطش. فقد خدع الطائر بماسة، وظنّها ماء. وبضربها بمنقاره دون أن يعرف «ضرب الكلیم» تفجرت المياه من الصخر⁽²⁾. ثم رأى نقطة ماء مثل دمع البلبل

كيف عيشي بين أعداء كثير
قد تجلى في إطار من جلال
لا يميز الخير من شر الحياة
أنت بأس نائم، قم لا تنم
فهو في الحق، زجاج يكسر
قطع السبل عليه الفاجر
شعلة الطور من الطين أئز
فيم شكواك العدو الخادعا
أنت بالأعداء ذو غصن وريق
من مقام «الذات» حقا يفهم
مثل ما تحيي الموات الراعدة
لا يبالي السيل صخرا إن جرى
امتحان العزم بُعد المنزل
ما غناء العيش مثل النعم
إن حيست «الذات» عزما مسعرا
واعمرن «الذات» إن شئت البقاء
أتراه بعهد روح وبدن؟
ومن السجن إلى الملك استقم
ناصر للحق، سيرا حاملا

كدخان تُفسا قد صعدا
صاغها ماء لعينييه الصدى
فرأى الجاهل ماء في الصخر
لم يُصب ماء بنقر الجواهر
تضرب المنقار في جسمي سدى
ما أنا من أجل غيري باقية
لحياة نورها منها بدا
وترى الإنسان منه ينبهر
زفرات لحنه يَصُعد

عَلَمني أيها الشيخ الكبير
فأجاب الشيخ، من فيه الجمال
أيها الغافل عن سر الحياة
حررن نفسك من بأس وغم
إن رأى النفس زجاجا حجر
وإذا خارت قواه السائر
كم ترى نفسك طينا قد حقر
فيم شكواك الرفيق النافعا
كم عدو لك، في الحق صديق
قوة الأعداء فضلا يعلم
يوقظ الخصم قواك الهاجدة
قوة العزم تذيب الحجرا
تشحذُ العزم عقاب السبل
ما الحياة دون عزم مُحكم
زلزل العالم وافعل ما ترى
اهجرن «الذات» إن تبغ الفناء
ما الردى؟ إن يدرك «الذات» الوسن
يا أخا يوسف في «الذات» أقم
احكمن الذات وانهض عاملا

السابق، ص 47 - 48.

طائر من ظمأ قد جهدا
قد رأى الماسة في مثل الندى
خدعته ذرة مثل الشرر
لم يجد ربا بضرب المنقر
قالت الشذرة: جُنبت الهدى
لست ماء، لا تراني ساقية
جاهل يقصد هضمي ما اهتدى
كل منقار بمائي ينكسر
حسرة في صدره تتقد

السابق، ص 48 - 49.

على غصن أخضر انعكست فيها نور الشمس. فنقرها دون أن يعلم أن من هذه القطرة تجري الأنهار⁽¹⁾. والنتيجة من المحاولتين أن قوة الذات قادرة على أن تفجر من الماس ماء، وتجعل القطرة نهراً، وأن قوة الذات هو نضج القطرة، وأن الذات فضة تحولت من زئبق. الذات سر ينكشف لمن يسبر غورها، وأوتار تصدر ألقاناً لمن يحسن تحريكها⁽²⁾.

ويعطي إقبال قصة الثالثة «قصة الألماس والفحم». وهو حوار أيهما أفضل الألماس أم الفحم؟ وهو شكل أدبي في المفاضلة بين الشعراء مثل جرير والفرزدق، وفي الفلسفة بين المنطق والنحو، والنثر والشعر، والحساب والهندسة. وتحول إلى مفاضلات شعبية حتى العصر الحاضر بين عبد الوهاب وأم كلثوم، والطربوش والعمه، والمقريء والمذيع. تباهى الماس على الفحم بأنه أبيض ساطع، والفحم أسود داكن. ومع ذلك كلاهما من أصل واحد في الكون. الماس على التاج زينة، والفحم في التراب مذلة. ينعكس الماس في المرأة، والفحم سبب سواد اليد. ويدافع الفحم عن نفسه ضد أفضلية الماس عليه بأن سواده يضيء الجمر وإن تحول بعدها إلى رماد تسير الأقدام عليه. ومع ذلك يصعد منه اللهب والشرار والدخان. ويقر بأن الماس كالنجم يشرق، وفضي يزين الخنجر⁽³⁾. ثم

قطرة في غصن ورد خضيل
ولخوف الشمس فيها رعدة
شاقه الجلوة في هذا الفضاء
لم يزود من حياة بنصيب
زانت الهدب وكادت تقطر
بل بالقطرة حلقت لاهبا

قطرة أنت، تُرى، أم جوهر؟
حيّ نفساً بحياة من سواه
لم يكن قطرة طلّ يشرب
وكن الألماس لا قطر الندى
حاملا غيما مفيضا أنهرا
فضة كن بالتثام الزئبق
حرّكن عن لحنها أوتارها

يفتح الحقُّ بها بابا عليك

(1) وأضاءت مثل دمع البلبيل
لضياء الشمس فيها مئة
كوكب يرعد من نسل السماء
غره الأكامم والزهر الخصب
قطرة من دمع صب تبهر
فمضى الطائر فيها راغبا
السابق، ص49.

(2) أيها الباغى عدوا تقهر
حينما الطائر أضناه صداه
كانت الشذرة عضبا يرهب
قوة «الذات» احفظنها أبدا
أنضج القطرة كالطود تُرى
أثبت «الذات» وفيها حقق
ومن «الذات» أبّن أسرارها
السابق، ص49 - 50.

(3) قصة أخرى بها أدلي إليك

يتباهى الفحم على الماس ولا يكتفي بالدفاع. فأصل الماس الحجر. والحجر صلب مقاوم في الحرب. إذا نضج يشع فيصبح ماساً ينير الصدور. الماس يعيش على أصل الحجر، ويستمد ذاته من ذات غيره:

أمن غير ذاتك تعمر قلباً معاذَ الإله، ترى أين ذاتك؟

والدرس المستفاد هو أن يتطور الحجر فيصبح ماساً. وتهجر الذات ما ينتابها من فساد وغم، وتتحول من حجر إلى ماس. ويتم ذلك عن طريق الجهد والسعي والكد والكفاح ﴿يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾. والكعبة من حجر. وبها الحجر الأسود وليس الماس الأسود. يقبله الناس عن اقتناع إلا عمر عن تقليد. القوة الكامنة في الأشياء، وأصلها والماس، قوة كامنة في الحجر. فالحجر أفضل من الماس في الباطن، وليس الماس أفضل من الحجر على ما يبدو في الظاهر. هذا هو تأويل الطبيعة⁽¹⁾.

يا حليف النور طول الزمن!
أصلنا في الكون أصل واحد
وأنا في الثُرب حظي الذلة
وأنا من كف ترب أضيع
ورمادا أض في الجواهر
قد رموا في مهجتي بالشُر
هل ترى أصلي وفصلي هل ترى؟
كل ما في شرار يصعدُ
كل جنب فيك نور يُشرق
تارة فصّ يزِين الخنجرا

قال للألماس فحم المعدن
نحن صنوان نمانا والدُ
وعلى التيجان أنت الزينة
لك حسن في المرايا يسطعُ
من ظلامي قد أضاء المجمرُ
موطئ الأقدام بين البشر
إن حالي بيكاء لخرى
إنني موج دُخان يُعقد
ومن الأنجم فيك الرونقُ
تارة نور بعيني قيصرًا

السابق، ص 50 - 51.

ينضج التربُ فيغدو خاتماً
وغدا بالحرب صلباً كالحجر
وبصدري كم شعاع أسفرا
وبلبن في قوام تُحرق
وانضجن كالصخر والألماس كن
فهو في الدارين بدر طلعا
كان من قبل تراباً حُقرا
ورجت تقبيله كل الأمم
والونى والذل من ضعف الحياة

قال: فاسمع يا رفيقي وافهما
شَنَ فيما حوله حرباً ومزَّ
هيكلي من نضجه قد نوراً
أنت من ضعف كيان تنفق
اهجرن خوفاً وعماً لا تُهن
من أجاد السعي والأخذ معا
وبحجر الكعبة انظر حجراً
جاوز الطور علاء لا جرم
قوة الأحياء عز ونجاة

السابق، ص 51.

(1)

ويحكى إقبال قصة رابعة، قصة الشيخ والبرهمي ومحاورة نهر الجنج وجبل هملايا أيهما أفضل كما فعل من قبل في محاورة الماس والفحم. ويعرج على طابع تقليدي فيه أصيل، في معنى دوام الحياة. فدعوة الأمة بالتمسك بسنتها دعوة للأصالة وحدها خاصة وأنه يري عدم جواز الاجتهاد في عصر الانحطاط⁽¹⁾. في القصة يدعو الشيخ البرهمي إلى الاستمسك بدينه البرهمي. والكمال فيه خير من النقص في غيره. فلا الموحدون يسيرون على نهج إبراهيم في تكسير أصنام قومه. ولا الوثنيون يعبدون التماثيل التي صنعها آزر وقومه. فالكمال أهم من الشيء الكامل. ومن هنا تأتي ضرورة التمسك بتراث الأولين، وعدم ترك نهج الأقدمين، حرصاً على الوحدة حتى ولو كانت في الكفر. وشمع الذات المميزة هو شرط الطير في السماء.

وفي المفاضلة بين النهر والجبل. النهر أفضل من الجبل لأنه يتحرك، والجبل ثابت. الجبل ثابت ثبات الذات. ولا يفنى كما قد يجف النهر. وإثبات الذات أفضل من نفيها. النهر أفضل لأن الجبل مقيد إلى الأرض. والنهر جريان وفيضان على الأرض. والحياة سير وسعي. والجبل الأفضل لأنه يحوي مياهاً كالنهر. والتغير فناء. ولا يفخر أحد بالموت. الثبات أفضل. والنماء في المكان مثل إثبات الذات. والزمان لم يؤثر على ثبات الجبل ولا براكينه. وقد تصل قمته إلى الفلك. والبركان في قلب الحجر. لا تصل إليه مياه النهر. النهر مجموع قطرات تغلبها الأمواج. مياهه من السحاب. يشكو من الجفاف أو من علو الموج. وفي كلتا الحالتين يبقى ضعيفاً عاجزاً⁽²⁾.

لا تدع نهج الجدود الأقدمين
وكذلك الكفر فيه وحدة
وبعدتم أنتم عن آزرا
في جنون العشق لما يكمل
كيف يجدينا طواف في السماء؟

هيبة فيك ورأس قد سما؟
وحياة الموج في أن يجفلا
من يزل عن نفسه يوما هلك
أفخار بالردى يا أبله
وبروض الذات قطف الأقحوان

(1) يا أمينا لتراث الأولين
باجتماع الشمل تحيا الأمة
إن إبراهيم فينا هُجرا
قيسنا ما هام خلف المحمل
إن شمع الذات فينا لانطفاء
السابق، ص 52 - 53.

(2) قيّدت رجلك عن سير فما
إنما العيش مسير وصلا
إن هذا السير فيه الحين لك
بمقام لك هلاً تأبه!
إنما العيش نماء في المكان

6 - القصة الخيالية

يصور إقبال الصلة بين العلم والعشق كنصيحة ميرنجاه النقشبندي المعروف بباي صحرائي (الأب الصحراوي) التي كتبها لمسلمي الهند. فالحكيم يولد من الذات كما ينبت الورد من الأرض. الذات موطن الخلد، قطرة وكأنها بحر يروي. ولماذا تخشى الذات العدم والوهم وهي الوجود والحقيقة؟ هي شرارة من رماد يشعل البصر وهجا. هي الكعبة التي يطوف حولها المؤمنون وكما هو الحال في الثورة الكوبرنيقية عند كانط عندما يدور العالم حول الذات، ولا تدور الذات حول العالم⁽¹⁾. يؤخذ العلم من الشيخ وليس من الحكيم، من القلب وليس من الجسم، من الرومي وليس من المشائي، من موسى وليس من الفيلسوف، من الذوق وليس من النظر، من التجربة وليس من الاستدلال، من أم الكتاب وليس من الكتاب⁽²⁾. العلم لا يأتي إلا من القلب، وليس من القديم أو من الفقهاء أو من التجارة بالدين. لا يذهب أبعد من الحسن. والظاهر توقف عن السير، ووضع السيف في

أتراني زائلا عن منزلي؟
فعلى سفحي الثريا ترقد
ليس للماء إلى ناري ممر
وهو في جدواك بادي الذلة

من ضمير الذات نلت المولدا
قطرة كن واشرب من البحر صدى
يا أسير الوهم أخطأت الفهم
واشتعال بعد يعشي البصرا
واجعلن نفسك بيت الحرم
عن إمام الروم خذ نصح الحكيم
وهو في القلب دواء وشفاء
كان فيضا من علوم في حلب
في ظلام العقل بالفلك يروى
ما درى ما العشق أو من يعشق
من قياس ودليل أوهما
محرق والكتب منها في لهيب
أحرق أسفارنا وقدرتها
ذوقنا والحال أتى تعلم؟
ولظانا الكيمياء الأحمر

=
في دهور لم تزحزح أرجلي
وإلى الأفلاك قدي يصعد
صخر قلبي وناري في الصخر
فهو في فيضك دون الموجة

السابق، ص 53 - 54.

(1) أنت كالورد من الأرض بدا
لا تعد الذات واخلد أبدا
أنت موجود وفي خوف العدم
هي جمع من رماد شررا
هي حول الذات طوف فاعلم
أيها الجاهد في كسب العلوم
(2) إنما العلم لدى الجسم شفاء
قصة الرومي تقضي بالعجب
وعلى رجليه للعقل قيود
هو موسى دون طور يشرق
قال: ماذا القال والقييل وما
فيذا الإدراك من نار القلوب
قال: هذي النار ما قصتها؟
قال شمس الدين يا ذا المسلم!
حالنا أرفع مما نفكر

السابق، ص 58 - 60.

حلقة. فطرته خالية من العشق. لا يطلب الحق. لا يذهب أبعد من علل العقل. والعشق لها دواء. العشق هو المعبود. تعبد له أصنام العقول⁽¹⁾. ثم ينادي إقبال على أمين السر لأم الكتاب كيف يمكن العودة إلى الوحدة الأولى بعد أن عم الكفر، وانتشرت الأصنام، وتحول العلماء إلى مشايخ، والكتب باليد إلى سبج. سادتهم الأهواء بعيداً عن التوحيد. يلبسون الخرقة، ويتاجرون بالدين. يذكر في حلقة مع مريدين، وينسى الأمة. يعبدون المناصب دون مراعاة لحرمة الأمة. يبتهل إلى الأوثان، ويقبض ثمناً للفتاوى⁽²⁾.

وفي محاوراة السهم والسيف مباراة بينهما أيهما أكثر إصابة؟. السيف ثابت لا يقذف، والسهم متحرك ويقتل عن بعد كلما اشتد القوس. السهم شعلة مصوبة إلى الصدر، في حين أن السيف يقطع بالنحاس. فالسهم أقوى. وهو إلى اندفاع الحياة أقرب⁽³⁾.

ويضرب إقبال المثل للخوف كقيمة سلبية بقصة السلطان عالمكير والأسد.

(1) من لهيب القلب علم الكامل
قد نبذت الدين ظهريا وما
من حدود الحس لا ينطلق
من لهيب العشق تخلو فطرته
علل العقل لها العشق دواء
سجد العالم للعشق للجليل
السابق، ص 60 - 61.

(2) يا أمين السر من أم الكتاب
نحن حراس حصون الأمة
تعمر الكعبة من أصنامنا
شيخنا باع الدُمى ملته
قلبه بيت لأصنام هواه
بمريديه أدام السفر
يلبس الخرقة من يرخي الشعر
عبد الأشياخ فينا المنصب
واعظ عيناه شطر الوثن
عن طريق المصطفى لا تذهبن
السابق، ص 62 - 63.

(3) إنني في الجو أو في جعبتي
وإذا القوس رمتني للشبور
إن خلا الصدر من القلب السليم

مقصد الإسلام ترك الآفل
تبتغي بالدين إلا الدرهما
وله الظاهر سجن مغلق
في طلاب الحق تبدو خيبته
مبضع العشق لدى العقل شفاء
هو محمود لأصنام العقول

هل إلى وحدة ماضينا إياب؟
كُفرنا ترك شعار الملة
يضحك الكفر على إسلامنا
جاعلا زناره سُبحته
فهو صفر مقفر من «لا إله»
في هدى أمته ما فكرا
أه! للتاجر بالدين اتجر
حرمة الأمة منهم تذهب
وفتاوى تشتري بالثمن
واترك الأرياب، والله اعبدن

حيثما كنت، بجسمي شعلتي
بصرت عيني بأحناء الصدر
ما به بأس ولا خوف مقيم

عالمكير أحد ملوك المغول في الهند. نشر الإسلام. والتزم بحدود الشرع عكس السلطان أكبر الذي أراد توحيد الأديان، والتقريب بين الإسلام والهند وجمعهما في دين سماوي واحد مع احترام كامل للشعائر. وهو موقف إسلامي أصيل. ليس به كفر ولا خروج على الدين كما يرى إقبال. و«تاج محل» شاهد على ذلك. وهنا تبدو تقليدية إقبال ومحافظة التي تفجرت بعد وفاته. والمثل خارج عن موضوع الخوف. إلا أن العشق يظهر في نهاية المثل في مقابل الخوف. ما يدمره الخوف بينه العشق⁽¹⁾.

ويضرب إقبال المثل على معنى الأخوة الإسلامية بقصة أبي عبيد وجابان. أبو عبيد أمير عربي، وجابان أسير أعجمي أعطي الأمان. ثم اتضح أن الأسير أمير وجب قتله لأنه محارب، عدو المسلمين، ولكن الأمير العربي رفض لأنه أعطاه الأمان⁽²⁾.

-
- = نفذ النصل خلال الأعظم
السابق، ص 92.
- (1) إن عالمكير عالي المنزل
كان للإسلام منه عزة
آخر الأسهم في جمعيتنا
غرس الإلحاد فينا أكبر
وخبا في الصدر مصباح الفؤاد
إنما العبد أمام الحق «لا»
أيها الغافل قلبا حصلا
ابذل النفس تنلها لا مفر
أحرقن بالعشق خوفا وانهدا
إن خوف الله إيمان جلي
السابق، ص 93 - 95.
- (2) مسلم في حومة الحرب أسر
قال للأسر: يا ذا الكرم
فإذا المأسور جابان الكبير
بوعبيد قائد العرب الأبى
قال يا قوم: ألسنا المسلمين
كل جندي أمين الملة
إن جابان عدو غشيم
دمه اليوم عليكم حرما
السابق، ص 99 - 100.
- فكسوت الجسم درعا من دم
من بني تيمور فخر الدول
ولحكم الشرع فيه حرمة
في ذباد الكفر عن ملتنا
فنما في طبع دارا يزهر
ويدت أمتنا رهن فساد
وهو للزور «نعم» لن يبطلا
هيئن للحب هذا المحملا
ذل للحق تنل عز الدهر
حملا في الحق ليثا للعدى
ثم تقوى غيره شرك خفي
- قائدا من جيش كسرى ذا خطر
أمنتني، ذاك شأن المسلم
قائد في جند إيران أمير
عزمه في الحرب عن جيش غني
نغمة واحدة في العالمين؟
صلحه والحرب عهد الأمة
لكن الأمن حباه مسلم
أمة المختار، أوفوا الذمما

ويحكي إقبال قصة السلطان والعمار في معنى المساواة الإسلامية. كان عمار شهيراً في تشييد المساجد. غضب السلطان عليه لنقص في الاتقان. فقطع يده. فهرع إلى القاضي يشكو، والدم يسيل من يده. فاستدعي السلطان وهو خائف من تطبيق الحد عليه. وندم السلطان وأصدر القاضي الحكم ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُوايَ الْأَلْبَابِ﴾. فعفا العمار عن السلطان لما رأى عدل الملك. فقد عزت نملة سليمان القوي. لقد ساوى القرآن بين الناس، بين المولى وفتاه، بين الملك والمملوك⁽¹⁾.

لمراد مسجداً قد شيدياً
لم ير الإتقان في تعميره
ويد المسكين فوراً بترا
دمه من يده ينهمر
يا حفيظاً شرع خير المرسلين
حكّم القرآن فينا واقطع
هيبة القرآن تدمي قلبه
وخصيم في ثياب الملك
لا أرد الحق إنني جازم
ذلك قانون حياة، لا مناص
وحد المعمار والملك دم
فنضاً السلطان فوراً كمه
آية الإحسان والعدل تلا
إنني أعفو لأجل المصطفى
انظرن سطوة قانون النبي
وذوي التيجان سوى بالرعاة

صانعا فرهاد حقاً ولدا
غضب السلطان من تقصيره
قدحت عين المليك الشررا
سار للقاضي حزينا يجار
قال: يا من قوله الحق المبين
لست للسلطان عبدا فاسمع
فاتى السلطان يخشي ذنبه
وقف الخصمان: خصم يشتكي
جهر السلطان: إنني نادم
وتلا القاضي: «حياة في القصاص»
ليس دون الحر عبد مسلم
سمع القرآن يملي حكمه
إذ رأى الخصم الذي قد فعلا
قاتلا: لله أعفو وكفى
نملة عزت سليمان القوي
جمع القرآن مولى وفتاة

(1)

الفصل الثاني

نفي الذات

1 - التصوف السلبي

نقد التصوف موضوع شائع في كل الدواوين والكتابات النثرية لإقبال. وهو الرمز الأول لنفي الذات. ويصدر إقبال «رموز نفي الذات» ببیت من جلال الدين الرومي كما صدر «أسرار إثبات الذات» بأربعة أبيات منه⁽¹⁾. فنفي الذات لا يتم إلا بإثبات الذات. ولا يتم إثبات الذات إلا بالاجتهاد كمبادرة من الذات دون توقع، كبداية وليس كنهاية. وفي إهداء المنظومة إلى الأمة الإسلامية يعبر إقبال عن تصويره لدور العشق كوسيلة للمعرفة والسلوك، مستعملاً لغة النور والنار والاحتراق.

«زبور العجم» ديوان غنائي. في معظمه غزل مع الطبيعة كرمز للألوهية كما هو الحال في «التأليه الطبيعي»⁽²⁾. وهو أكثر شعرية وأقل فلسفية باستثناء القسم الثالث. يتكون الديوان من أربعة أقسام. الأول، يبدأ بدعاء ثم ست وستين قطعة أغلبها بلا عنوان. والثاني خمس وسبعون قطعة أيضاً أغلبها أيضاً بلا عنوان⁽³⁾. والثالث بعنوان «حديقة السر الجديد» صدر عام 1929، مساجلة مع «روضة السر»

(1) جَدُّ بنفي الذات ذاتاً، لا تهاب اجتهد؟ والله يَهْدِيكَ الصواب

الأسرار والرموز، ص 77 - 80.

(2) التأليه الطبيعي Deism.

(3) قام بترجمة القسمين الأول والثاني أربري تحت عنوان Persian Psalms (Zaburi Ajam), Parts I, II, Translated into English Version from the Persian of the Late Arthur J.

Arberry, Muhammed Ashraf, Labore, 1948..

لمحمود الشبستري أحد أعلام التصوف في القرنين السابع والثامن، إجابة على بعض الأسئلة لبعض الصوفية. يجيب إقبال عن تسعة أسئلة في التصوف كفلسفة إلهية⁽¹⁾. والقسم الرابع «كتاب العبودية»، يبين فيه الشاعر آثار العبودية في الحياة والفنون. ميزة التصوف الوحيدة هو الشعر. فالصوفي شاعر، والشاعر صوفي⁽²⁾.

ونفي الذات على قسمين: الأول نتيجة العشق. والثاني وصول الذات إلى مرحلة الفناء في ذات الحق كما يصف مجموعة من الدراويش الهندوس. قد يكون الأول مفيداً، في حين أن الثاني ضار للغاية. يقضي على الهمة ويبعث على الكسل. يرفض إقبال كليهما. والحقيقة أن نفي الذات هو التحكم في الأهواء والرغبات والмиول، والتمسك بأحكام الشرع. وهو نفي الفناء في التصوف الإسلامي الحقيقي، وليس في التصوف العجمي الدخيل⁽³⁾.

يرفض إقبال التصوف من أساسه. يرى المعجزات في كل شيء مع أنها من الممكنات. يرى العالم بعين الخيال. والعالم حياة وموت. يغيب عنه الوعي، والوعي بالذات هو وعي بالعالم⁽⁴⁾.

وكان لأفلاطون أثر سلبي على تصوف المسلمين وآدابهم. لذلك وجب الاحتراز منه. لقد دفع التصوف المسلمين إلى الرضوخ والخنوع والاستكانة ثم العبودية. واعتراض إقبال على أفلاطون هو اعتراضه على كل المذاهب الفلسفية التي تقوم على الفناء وليس على البقاء والتي تغفل المادة لصالح الصورة. تنكر الحياة. وتجعل جوهرها الموت. وتدعو إلى أن العالم مجرد ظاهر، وأن الحقيقة خارج هذا العالم. وبدلاً من السيطرة على العالم وتسخيرها تدعو إلى الانعزال عنه،

(1) وقد نقله إلى العربية شعراً د. حسين مجيب المصري، ص 371 - 372.

(2) Persian Psalms, p. 107.

(3) الأسرار والرموز، المقدمة، ص 19 - 20.

(4) ترى عينك دنيا المعجزات وفي عيني دنيا الحادثات

ومن دنيا الخيال عجبت فاعجب لدنيا للحياة ولللمات

تبدّلها بنظرة غير واع وكم تدعوك دنيا الممكنات

ضرب الكليم، ص 21.

والفرار منه⁽¹⁾. أفلاطون من فريق الضأن أي بلا عقل، شاة في لباس الآدمي. أعياء الدهر فكل. لم ير الواقع المحسوس. صمت آذانه وأطبقت عينونه. الحياة لديه في الموت. والفلسفة تعلم الموت. أنكر عالم الأشياء. وجعل حقيقتها في المثل في السماء. ومن ثم فالعمل ليس للدنيا بل للأخرة. فتواكل الناس⁽²⁾.

عيب أفلاطون أنه آثر الحياة على الموت. وتصور أن الحقيقة لا تكتشف إلا بعد الموت لأن هذه الدنيا التي نعيشها عالم الظاهر. ومن ثم كانت الفلسفة تعلم الموت. الحقيقة هي هذه الحياة، كشرار بجنح الليل يشب. ومقصد رؤية الذات والوعي بالذات في هذه الحياة وليس فيما وراءها. إثبات الذات في الحياة هو الطريق إلى إثباتها بعد الممات⁽³⁾. إن وصف أفلاطون للعالم لا يدعو للثقة لأن القلب قادر على إدراك اللانهائي دون تدخل الخيال، وقسمة العالم إلى ظاهر باطل وباطن حقيقي⁽⁴⁾. والأفضل قطار اللصوص من العقل السماوي الملاحق. الأفضل هم القلب من كل فن العالم لأفلاطون⁽⁵⁾.

للأسف دنس العقل الغربي ينابيع المعرفة اللانهائية. كما أضل أفلاطون

-
- (1) واهب الماضين أفلاطون الحكيم طرفه في ظلمة العقول ضل فكره في غير محسوس فتن قال: في الموت بدا سر الحياة هو شاة في لباس الآدمي عالم الأشياء سماه الهراء هلك أقوام بهذا الشمل الأسرار والرموز، ص 30 - 31، المقدمة، ص 16/48، خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص 18.
- (2) حياة بالحقائق في قرار ضرب الكليم، ص 33.
- (3) يبصر الموت عاقل، فحياة ما إلى الموت والحياة التفات السابق، ص 48.
- (4) Persian Psalms, p. 11.
- (5) Ibid., p. 17.

والرواقية العالم كله. ووضعوه في الوحل⁽¹⁾.

لقد ظهر التصوف في التاريخ الإسلامي كحركة مقاومة سلبية في الصدر الأول ابتداء من الفتنة الكبرى لدى الزهاد والعباد والبكائين بعد أن عزت المقاومة الفعلية للحكم الأموي، وصعب استرداد الشرعية لعلي والحسين. استشهد أئمة آل البيت وأوائل الصحابة. فأثر الصوفية انقاذ النفس بعد أن استعصى عليهم انقاذ العالم. وخلقوا عالماً وهمياً بديلاً من الأقطاب والأبدال والمشايخ والمريدين من صنع الخيال⁽²⁾.

الصراع بين الفقهاء والصوفية إذن صراع حقيقي، أهل الظاهر وأهل الباطن، أفعال الجوارح وأفعال القلوب. وكان الحلاج ضحية هذا الصراع بين الجهر بالقول والصلب، بين التسامح والتعصب⁽³⁾. ومع ذلك يتشابه الصوفي واللاهوتي. إذ يريد كلاهما استبدال البخور بالحجر، والإيمان الحي بالوهم أو بالمعتقدات. وقد خلا المنبر والمحراب من صيحة الحق أو من صرخة السحر. وقد كان الأذان من قبل تميل له الجبال⁽⁴⁾. والصوفي واللاهوتي والمجتهد، كل منهم في سكرة الوجد أو العقل أو النظر. ومع ذلك عز الثلاثة روح الطموح. كل منهم في زاوية أو مدرسة أو مسجد، في قفص صغير يتيه فيه. وهو سجن بلا قضبان إلا أن القيد الخفي غير مرئي، قيد القلب أو الذهن. ويتحرر كل منهم بالتجربة، تجربة الحياة. وتقضي على حيرته⁽⁵⁾.

Ibid., p. 21.

- (1) «وكل شعر التصوف ظهر في زمان ضعف المسلمين السياسي. وكل أمة يصيبها ضعف كالذي أصاب المسلمين بعد غارات التتار تتبدل أنظارها، وتجعل الاستكانة في أعينها، وتركن إلى ترك الدنيا. وفي هذا الترك تخفي ضعفها»، الأسرار والرموز، مقدمة عبد الوهاب عزام، ص 12.
- (2) بين المحقق والفقهاء خصومة
عصفت بمنبر ذلك المسكين
لما رئي الحلاج فوق صليبه
كسر الصليب تعصبا للدين
ما بين منبر ذا وبين صليب ذا
لم ألق غير خصومة من طين
جناح جبريل، ص 422.
- (3) صوفينا خلف لاهوتي أديرة
يريد يستبدل البخور بالحجر
والمنبر اليوم والمحراب قد فرغا
من صيحة الحق أو من صرخة السحر
أين الأذان الذي كانت تميد له
روح الجبال وأين الصعق في الصور؟
السابق، ص 434.
- (4) أفيلسوف وصوفي ومجتهد
في سكرة من كؤوس السمع والبصر =

ثم انهار التصوف. كان لدى الصوفي دِن لم يرتو منه. أغلق مكتبه. وهجر طريقه. وغادر مجلس الشعراء. ومات اللحن في نايه⁽¹⁾. خمر الصوفية خالية من الحرقة⁽²⁾. وجميع العارفين والعامه غرباء عن الذات. ولا يستطيع أي منهم التمييز بين المسجد والخمارة⁽³⁾.

ويسأل إقبال ماذا يأمل الإسلام من سلوك الصوفي، الرضا بالفقر أم أن طيش الملوك أفضل؟ ويجيب الرومي بأن جنة الإسلام في ظل السيف، وأن الجهاد سنامه، وليس ما يطلبه الرهبان والصوفية من أمن الكهوف⁽⁴⁾.

الصوفي الحق من رجال الله. يجيد الضراب والطعان، وليس الذي يضرب رمحه في الهواء. والحر هو الذي يضع على رأسه تاج الأحرار، لا خرقة الصوفي أو قلنسوة الفقيه. ومن ترابه يصنع الدهر الشرار. فطرته الحرة تجعله يعاف الدنيا، ولا يطوف حول الأصنام، بعيداً عن التدين على طريقة الوثني الذي يقُدس أهواء النفس، وهي الأصنام الجديدة⁽⁵⁾.

وبالرغم من النقد اللاذع للتصوف إلا أنه تجربة فردية كشفية تهتك الأسرار،

= ما في الثلاثة من أبدى فوا أسفا
كانت بزاوية الأفضاص بغيتهم
سجن التفلت لا قضبان تمسكه
تغنيك إن حرت فيما قلت تجربة
السابق، ص 439 - 440.

(1) لدي الصوفي دن ما رواه
أغادر مجلس الشعراء كرها
أرمغان حجاز، ص 444.

(2) السابق، ص 534.

(3) السابق، ص 539.

(4) قال: ماذا يأمل الإسلام من هذا السلوك؟
ألكي نرضى بفقر أم إلى طيش الملوك؟
قال رومي: جنة الإسلام في ظل السيوف
ليس ما تطلبه الرهبان من أمن الكهوف
جناح جبريل، ص 526.

(5) إنما الحر من يجيد ضرابا
وسجايا الأحرار تجمع تاجا
من خفايا ترابهم أخذ الدهر
الذي حربه تدور هُراء
ذا سناء، وخرقة وقباء
شرارا فصاغ منه دُكاء

وطريق خاص لا يسلكه إلا من هو قادر عليه وأهل له⁽¹⁾.

وأخذ علماء الهند طبقاً لطوائفه من إقبال أربعة مواقف:

أ - علماء ديوباند وقفوا موقف المحايدين دون موافقة أو اعتراض.

ب - المثقفون المتغربون والمتشبعون بالثقافة الإنجليزية وهم الأكثرية لم يفهموا «الأسرار والرموز» لأنها تعتمد على القرآن وعلى مثنوي الرومي باستثناء القلة.

ج - عامة المسلمين لم يفهموا شعر إقبال لأنه بالفارسية.

د - الصوفية عادوا إقبال لهجومه على التصوف خاصة حافظ لعدم تفرقتهم بين التصوف الإسلامي والتصوف غير الإسلامي. الأول يدفع إلى الثورة، والثاني يدعو إلى الخمول. الأول أمل، والثاني يأس. وفي رسالة إلى أكبر إله أبدي يبين إقبال أنه يدافع عن التصوف الذي يقوم على إثبات الذات، وليس نفيها⁽²⁾.

حياة الإنسان هي حياة الوجدان. فلا شرب من كأس إلا مع صدق الوجدان. والنشوة مع القدماء الأوفياء، وليس مع قيصر الرومان⁽³⁾. والقدماء يحفظون الأسرار. لا تفشي الأنعام أسرار الأسود. ولا يفشي الصقر حديثه للغربان. كل على ما تعود. ومن شاب على نسج الحصير عجزت يده عن نسج الحرير⁽⁴⁾. يكشف

من طواف الأصنام عاشت براء
وثني تقديس الأهواء

تهتكت أسرارها في البلاد
يصعب إطلاقها للعباد

إلا وفيها صادق الوجدان
ولو أن فيهم قيصر الرومان
د ولا حديث الصقر للغربان
يوما إلى نسج الحرير يدان

لا تعيه في مراعيها النعم
لا تبج بالسر إلا للأسود

= فطرة حرة تعاف الدنيا
أنت في الكفر والتدين جمعا
ضرب الكليم، ص27.

(1) وبالرغم من أن أهل القلوب
فإن الطرائق هذه الجريئة
جناح جبريل، ص454.

(2) الأسرار والرموز، المقدمة، ص17 - 18.

(3) لا تصحبن في شرب كاسات المنى
لا ترح في ندماء غدر نشوة
لا تفش للأنعام أسرار الأسو
من شاب في نسج الحصير فما له
يا أمم الشرق، ص343.

(4) إن سر الأسد في حصن الأجم
ليس كل الخلق أهلا للعهد

القدماء لبعضهم أسرارهم بشرط أن يكونوا أهلاً لذلك. فلا تسر الأسد للنعام أسرارها. وليس كل الخلق أهلاً للعهود. الندماء للأصدقاء وليس للأذلاء أو للقياصرة أو الأباطرة.

ومع ذلك، يرفض إقبال تفرقة الصوفية بين العوام والخواص. فقد حلل الخواص على أنفسهم ما حرموه على العوام. لا يوجد الصدق إلا في العوام. والغوي غير التقي. الخواص يلوحون كالبرق. ينير ظلام العوام ولا يتعالون عليهم⁽¹⁾. العوام أفضل من الخواص لأن الخواص ثملوا ومروا⁽²⁾.

أبعد السفلة عن حقل الندامي
لن ترى فيه النديم الخيرا

ما رأيت الصدق إلا في العوام
مع أهل الفضل والحق اجلسن
حطبا يجعل من غرب وشرق
وهو ذو حذق بحل العضلات

فإن خواصهم ثملوا ومروا

= عن تعاطيت مع الصحب المداما
هبة كسرى هبة أيضا قيصرا

(1) كل خير للخواص كالحرام
التقسي من غوي ميّزن
رجل الله يلوح مثل برق
نحن كنا في ظلام الكائنات

(2) عوام القوم عایشهم رويدا

السابق، ص345.

جاويد نامه، ص333.

أرمغان حجاز، ص423.

2 - وحدة الوجود

العقيدة الأولى في التصوف غير الإسلامي هي عقيدة «وحدة الوجود» التي تنفي أي فرق بين الإنسان والله والعالم. هناك حقيقة واحدة متحققة، لا مكان فيها للعمل والفعل، ولا للمسافة بين المثال والواقع حتى يستطيع الإنسان أن يحقق بعمله وجهده المثال في الواقع. الإنسان خليفة الله في الأرض. والعالم فسيح لجهده وكده. ليس الإنسان هو الله ولا العالم. وليس الله هو الإنسان ولا العالم. وليس العالم هو الإنسان ولا الله. الإنسان موجود بالفعل. والله مثل أعلى. العالم ميدان للنشاط والكد والكدح. والإنسان حر مختار مسؤول عن أفعاله. والعبادة هو الاستخلاف في الأرض، وحمل الرسالة والأمانة. ومن هنا أتت ضرورة إثبات الذات في «أسرار النفس»، داعياً إلى تحمل المسؤولية من أجل بناء عالم جديد. يكون فيه الإنسان حراً. وتمحي فيه عبودية الإنسان للإنسان⁽¹⁾. هذا هو موقف التصوف العجمي مثل تصوف حافظ الذي ينكر الذاتية. ويريد إمامتها باسم الفناء في الله. وهو تصوف ابن عربي خاصة وحدة الوجود والغريبة على الإسلام. وهو تصوف القرامطة الذين أرادوا إسقاط الشرائع⁽²⁾. خلود الذات أمل. والأمل تحقق بالعمل والجد والاجتهاد. ولا يمكن ذلك عن طريق بوذا والتصوف العجمي⁽³⁾.

وفي عرض إقبال نظرية الوحدة المطلقة عند عبد الكريم الجيلاني والأصح الجيلي، يستعمل الفيلسوف الغربية كأداة للتعبير في نظرية الإنسان الكامل، تطويراً لنفس النظرية عند محيي الدين بن عربي⁽⁴⁾. ويعطي إقبال تأويلاً إنسانياً لها. فالإنسان الكامل يصف الله والإنسان في آن واحد. يفسرها الصوفية إلهياً، ويؤولها إقبال إنسانياً⁽⁵⁾.

وفي مقطوعة «إلى سيد مصاب بالفلسفة»، وحدة الوجود ليست فقط عند

(1) الأسرار والرموز، المقدمة، ص7 - 8.

(2) السابق، ص11.

(3) السابق، خلاصة مقالة الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص18.

(4) Iqbal: Thoughts and Reflections, the doctrine of Absolute Unity as expounded by Abdul Karim al - Jilani, pp. 3 - 27.

(5) من العقيدة إلى الثورة، ج2، التوحيد. إلهيات أم إنسانيات؟ ص600 - 664.

الصوفية بل أيضاً عند الفلاسفة الرومانسيين من أمثال هيجل وشلنج. وفيها تُسقط الذات من المذهب لحساب الكل. ويصبح العالم من نسج الخيال. إنما هو برجسون الأقرب للحقيقة، إثبات الذات. الذات هو الطريق لإثبات الوجود، وتحويل الظلام إلى إشراق عن طريق الأذان أي الإعلان عن الإيمان. الفلسفات الهندية تذيب الذات في بحر الوجود. والفلسفات الوثنية تجسم الذات في الصنم، وتثبتها في الوثن. في حين أن الوحي عن طريق الأنبياء إثبات للذات من إبراهيم حتى محمد مروراً بموسى وعيسى. الفلسفات العقلية تبخّر للذات، بعيدة عن الحياة، أفكار بلا أعمال، أصداء بلا أصوات، عقل بلا قلب، حرف وتدوين دون صوت وقراءة. ولا يغني ابن سينا عن علي بن أبي طالب، ولا يغني البخاري عن القرشي⁽¹⁾.

المسيح وإسبينوزا كلاهما تجليان لوحدة الوجود. فقد أخرج العرق اليهودي هذين الرجلين العظيمين. المسيح هو الله المتجسد في الابن. وعند إسبينوزا المتجسد في العالم. فإسبينوزا هو الذي أكمل تعاليم قومه بالرغم من معارضتهم له⁽²⁾. ولا يمكن إنكار مساهمة اليهودية في الحضارة الإنسانية. ربما كان اليهود أول من نظّر لأخلاق رجال الأعمال وتلخيصها في مفهوم الاستقامة لمقاومة الربا والمصلحة والغدر⁽³⁾. فوحدة الوجود قد يكون لها آثار على السلوك الإنساني.

لم تحملن زُتار برجسانا
طلّسّمه جميعه خيالي
وكيف تجتاز الزمان الذات؟
وقصده دستور ذي الحياة
أذُن مؤمن يدا الآفاق
فلسفة بُعد من الحياة
للذة الأعمال حادي الموت
الدين أحمد وإبراهيم
«أبا علي» ارتكن يا ابن علي
فالقرشي اتبعه لا البخاري

(1) لو لم تُؤلّ ذاتك النسياناً
أصداف هيجل من الخوالي
فكيف صاح تُحكّم الحياة
وطلب الإنسان للثبات
يُحوّل الدجى إلى الاشراق
عاقبة العقل إلى شتات
ونغمة الأفكار دون صوت
الدين في حياتنا تقويم
قلبك فاربط بالهدى المحمدي
إن تك بالطريق غير داري

ضرب الكلم، ص10.

St. Ref., p. 39.

(2)

Ibid., p. 56.

(3)

إقبال صوفي أبا عن جد، ولكنه يرفض وحدة الوجود لتتائجها السلبية على حياة المسلمين. ومنها ظهور الرهبانية، ولا رهبانية في الإسلام. إنما الرهبانية في المسيحية وفي التصوف الإيراني⁽¹⁾.

3 - الفناء

كان يريد إقبال كتابة «من الفناء إلى البقاء» أي من «رموز النفس» إلى «أسرار النفس» أو «من السكر إلى الصحو» أو «من الخوف إلى الرجاء» أو «من الغيبة إلى الحضور» أو «من الفقد إلى الوجد» أي الانتقال من الحالة السلبية إلى الحالة الإيجابية. الذات تبقى ولا تفتنى. والصراع مع الفناء يؤدي إلى البقاء. تصوف الفناء غريب عن الروح. وتصوف البقاء ديبب في الأرض⁽²⁾. والعشق يبقى ولا يفنى⁽³⁾. أما عند الصوفية وفي الدين الشعبي، الدنيا دار الفناء، والآخرة دار البقاء. وإذا كانت غاية الإنسان الآخرة فإنه يتحول من دار الفناء إلى دار البقاء⁽⁴⁾. وهو أحد أسباب ضعف المسلمين وقوة الغرب. المسلم مسافر لا يعرف معنى الارتقاء والتحول من الفناء على البقاء⁽⁵⁾. وسكون الليل معناه الفناء. واندفاع السيل إثبات للبقاء⁽⁶⁾. إذا استحكمت الذات فإنها تنتقل من الفناء إلى البقاء⁽⁷⁾. والروح لا تفتنى

-
- (1) الأسرار والرموز، المقدمة، ص 20 - 23.
- (2) بروحي للحياة مع الفناء صراع، لا أرى غير البقاء رأيت ثراك عن روح غريبا فيه نفخت من روحي ديببا زيور العجم، ص 375.
- (3) وما لأجيج عشق من فناء ونظرة ذي اليقين بلا انتهاء السابق، ص 393.
- (4) لنا الكاسات دارت بالفناء وقد ذقناه من وان ونائي السابق، ص 398.
- (5) هذا المسافر كيف يرجع من ظنون الارتقاء؟ هو نفسه ما عاد يعرف ما الفناء وما البقاء؟ جناح جبريل، ص 512.
- (6) اندفاع السيل إثبات البقاء وسكون الليل معناه الفناء
- (7) فكيف تخاف من ريب الفناء؟ إذا نضجت، فعنها الموت نائي زيور العجم، ص 392.

إذا فني الحب⁽¹⁾. ونهضة الأمة مشروطة بذهاب درب الفناء، وقدم عاصفة البقاء⁽²⁾.

قد يتساءل الملحد أو صاحب النزعة الإنسانية: هل الإنسان فان والله باق أم أن الإنسان باق والله فان؟ وإن تحقق الوحي كنظام مثالي للعالم، هل الإنسان في الأرض ويسكن السماء أم أن الله في السماء ويتحقق في الأرض؟⁽³⁾. الإحساس بالفناء هو الذي يعطي الذات الرغبة في البقاء⁽⁴⁾. وتتحقق هذه الرغبة بإشعاع الذات ونورها، وتجديد الجسم البالي وصقله لإطالة العمر⁽⁵⁾. والشوق هو الذي يحول الذات من الفناء إلى البقاء⁽⁶⁾.

يقود الزهد الشائع عند الصوفية إلى الفناء. وهو في حقيقته طوفان توارى في حباب⁽⁷⁾. وكل ما في الأرض يفنى⁽⁸⁾. يتحدث الحكماء عن لحظتين. الوجد والفناء. فالوجود هو البقاء⁽⁹⁾. الفناء والبقاء معترك لا يدري الإنسان نهايته. الحياة

-
- (1) حقا أبو الحسن المحقق قال لي الروح لا تفنى إذا فني الجسد جناح جبريل، ص417.
- (2) ولي زمان الوحيدة المطروح في دروب الفناء خرجت أخيرا من صدور الغيم عاصفة البقاء السابق، ص447.
- (3) إنني الفاني فهب أنت البقاء وأنا الأرض فسكني السماء جاويد نامه، ص142.
- (4) إنني الفاني ومالي من خلود وأنا حي ومثلي في اللحد السابق، ص142.
- (5) أنت إن واجهت ذيك الضياء نلت طولاً سرمدياً للبقاء جسمك البالي جدد بالصقال واختبر ذاتك عش فالعمر طال السابق، ص148.
- (6) إن يكن للشوق في الدنيا الهجوم يمنح الخلد لفان لا يدوم السابق، ص255.
- (7) ما أنت إلا للفناء يا زاهدا أنسيت طوفانا توارى في الحباب؟ السابق، ص169.
- (8) كل ما أنت تراه سوف يفنى الفلا والشاطئان، ليس شيئاً السابق، ص171 - 172.
- (9) وحديث الحكماء برهتان الوجود والفناء تصنعان السابق، ص266.

موت وخلود في نفس الوقت⁽¹⁾. الفناء والبقاء في الحياة، بعد أو قرب في اللقاء⁽²⁾. إن الصلاة نفسها تقوم على الفناء والبقاء، في الدلال والدعاء⁽³⁾

نفي الذات فناؤها، وإثبات الذات بقاؤها⁽⁴⁾. وإذا انتهى الإنسان بالفناء فهو يسعد بالبقاء. الفناء سكر وعدم⁽⁵⁾. وتبقى الروح في الشعب. فإذا تشتت يفنى⁽⁶⁾.

الحج أيضاً أصبح مجرد شكل وصورة كالصلاة إن لم ينضو تحت الجهاد. شعائر بلا روح هو شعب مختل النظام. إن السجدة الحقة تزلزل الأرض، وتجري الشمس، مثل سجدات الأوائل وليس سجدات الأواخر التي دب فيها الوهن⁽⁷⁾. الفؤاد خال من الحبور والنور. والصلاة ليس لها حضور. ولا تؤدي إلى أي ثواب. هذا كلام في الدين والوطن وليس بناء الدير الذي يبدو كالحطام⁽⁸⁾. يذهب

(1) للفناء والبقاء معترك ليس يدري المرء سرا للفلك وللحياة يحمل الموت الرسالة الرياح أشبهت هذي الحياة السابق، ص 281.

(2) الفناء للحياة والبقاء السابق، ص 317.

(3) في صلاة البقاء والفناء السابق، ص 326.

(4) إن فقدت الذات حققت الفناء السابق، ص 291.

(5) إن عرفت فانتهاء بالفناء تسكر الكأس خلت بعد امتلاء في الفناء لك شوق واحتدم السابق، ص 265.

(6) باجتماع القوم للروح البقاء جاويد نامه، ص 320.

(7) من بلاد الفرس هذا، ذاك هندي إن حججا وجهادا واجبان إن روحا في الصلاة والصيام سجدة، والأرض منها زلزلت ذاك عصر كان فيه خفض هام السابق، ص 327.

(8) فؤادي ليس فيه من حبور ومن لهب خلا من تربوي ونور

المسلمون للحج كل عام يزورون أضرحة الأولياء. ينثرون عليها الزهور كل خميس. ينشدون المواويل الدينية. يختمون القرآن في أول كل شهر عربي للتقرب إلى الله. وفي نفس الوقت يعيشون حياة العبيد. والسبب في ذلك افتقارهم إلى ذوق العمل. لذلك كتب إقبال أول ديوان له بالأوردية والذي لاقى رواجاً كبيراً وهو «بانك درا» أي «صلصلة الجرس»، نظم قصائده في 1910 وأخرى في 1912 - 1913.

تجربة «أنا الحق» للحلاج ليست وهما ولا خداعاً بل هي تجربة الذات وهي تضع ذاتها بتعبير فشته⁽¹⁾. فهي تجربة بقاء لا فناء. بدونها لا تثبت الكائنات. إثبات الذات مثل إثبات العالم. والعالم تجل من تجلياتها. لها حرمتها. تشاهد بلا نظر، بل بقلب النظرة من الخارج إلى الداخل. تبقى كالطود بعد أن تفتى الدنيا. لا يستطيع الجدل العقلي نفيها. ومن ثم تكون تجربة الحلاج حق. هي تجربة الذاتية، تجربة العقل والقلب معاً، التفكير والتصديق والريب، تجربة العشق والوصال⁽²⁾. تعبر عن مقام الكبرياء. فكان جزاؤها الصليب أي الموت في رأي القضاة، والاستشهاد والكبرياء في رأي أهل الإباء. وهي تعبير عن حق شعب يجود بدمائه. تجمع بين الجمال والجلال. وتتجلى في سماء القلب. سما مقامه في العالمين فأصبح الإمام. لم يمسه أحد في الدنيا بشيء بعد أن حرم النوم عليه. «أنا الحق»

صلاتي ليس فيها من حضور
وهذا السر يطوى بالتمام؟
بنيت الدبر يبدو كالحطام

وعند القوم سر ما أقول
بذات حسنا قطع الصلات
تشاهدها بلا نظره، بخطر
كمظهر أي شيء، قلت حتما
ستبقى الذات، للدنيا الفناء
وحققها بما الحلاج قالا

هو التفكير والتصديق والريب
فراق العاشقين هو الوصال

=
صلاتي تلك خذ منها ثوبا
أعن دين وعن وطن كلامي
فلا تغضب، جفوت ومن جفاء
أرمغان حجاز، ص 426.

(1)
بحلقته مجوسي أشاعا
فما ذات لنا في الكائنات
حريم الذات ما بلغته نظرة
إذا سميت تلك الذات وهما
وما للطود والوادي البقاء
بذاتك ضع، ودع عنك الجدالا
زبور العجم، ص 395 - 397.

(2)
هو العقل المميز بل هو القلب
إذا نُضِجَتْ، لها امتنع الزوال
زبور العجم، ص 396 - 397.

بمثابة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117] ⁽¹⁾. ويعرف السكيريون كمالات الصوفية مع أن كراماتهم غير معروفة أو مشهورة. مقام الصوفي الحر «أنا الحق» ⁽²⁾.

أرواح الصوفية مثل الحلاج وغالب وقرّة العين الطاهرة لم تجد لها مستقر في الجنة. فصارت تطوف على الدوام وإلى الأبد. فالصوفي يريد الحراك وليس الثبات. أمره مشتبه. فلا حكم يصدق عليه. ويظل في دائرة الاشتباه ⁽³⁾. الحراك في البقاء، والثبات في الفناء.

4 - عبادة الأصنام

دور العبادة أصبحت مثل دور الأصنام أو مثل الصوامع للانقطاع والعزلة. والمشتاق إلى الأصحاب لا يحتاج إلى مكان مغلق بل يحتاج إلى الفضاء الفسيح وفي أرواح الأحباب. من يعبد الأصنام في دور العبادة مرتاب. ومن يدخل على ذوي التسبيح يدخل بأسلاب. وقد يكون صاحب المسوح بالنهار نهاباً بالليل، والمتعبد بالنهار سفاك دماء بالليل. وقد يرقص في جماعات بكاسات وأكواب يطلبون اللهيبة من نار موسى. ويأتي كالفراش إلى الرسول اليتيم ⁽⁴⁾.

(1) «أنا الحق» ذي مقام الكبرياء
فهذا جائز في رأي فرد
أليست قولة لاقت بشعب
جلال فيه قد أخفى جمالا
وبين العالمين سما مقاما
ولم يمسه في خلق لغوب
يبين بهمة معنى أنا الحق

أرمغان حجاز، ص 537.

(2) السابق، ص 537.

(3) جاويد نامه، ص 249.

(4) تضيق بدار أصنام
ولكن نحو مشتاق
فاقدم واتخذ مغنا
وكيف وأنت رب الدار
تغير على ذوي التسبيح
وتطرق أهل زنار
وذو جحفل لجب

لا ترضي بمحراب
تسير بشوق أصحاب
ك في أرواح أحباب
تدخل خطو مرتاب؟
تحمل كل أسلاب
بليل فعل نهاب
لسفك دماء أصحاب

وفي رسالة المغير إلى أحد أبنائه الذي كان يصلي باستمرار لموت أبيه، يبين إقبال أن الثواب والعقاب من الله. وقد استمع إلى عديد من مراثي سكان الأرض. فقد سالت أنهار من دماء أثناء استشهاد الحسين. وصدرت صرخة من بين شفثيه. وبكى يعقوب ولم يتأثر. وعويل أيوب لم يؤثر فيه. ولا يستطيع العابد أن يؤثر في صياد الوسم بصلاته الغبية⁽¹⁾.

وينطبق ذلك على كل الأديان، الإسلام والمسيحية والهندوكية. وهي الديانات الثلاث الكبرى السائدة في الهند. ففي المساجد الإسلامية والكنائس المسيحية وفي المعابد الهندوكية التي تفوح منها رائحة البخور والأطعمة الحريفة، بالرغم مما فيها من مئات المغريات إلا أن القلب غير راض⁽²⁾. ويدعو إقبال الصوفي إلى التنازل عن عرشه، هذه الحجارة المتربة المظلمة. تقدم الطبيعة تجارة رائجة ولكن بثمان غال⁽³⁾. والركوع للذات وحدها دون ما حاجة إلى معبد أو كنيسة أو صومعة أو بيعة لا في فارس ولا في بلاد العرب⁽⁴⁾.

بل إن الصلاة قد تكون لصنم. فالصلاة فعل من أفعال الشعور يقابله موضوع قصدي. وتتلون الوثنية طبقاً للعصور والأزمان. ما يهم في الصلاة هو فعل الشعور وليس مضمون الشعور⁽⁵⁾.

وإطالة الإمام الصلاة في المسجد تحويل الإسلام إلى كهنوت. وأثناء قيام وفد من الهلال الأحمر التركي بزيارة لاهور صاحبهم إقبال في المسجد للصلاة.

= وطورا في جماعات
وتأتي باللهيب إلى
وتأتي كالفراش إلى
رسالة الشرق، ص 317.

(1) A Message from the East, p. 91.

(2) Persian Psalms, p. 100.

(3) Ibid., p. 121.

(4) Ibid., p. 126.

(5) تلوّن في كل ثوب مناةً
فهذا السجود الذي تجتويه
وشاب بنو الدهر وهي فتاة
به من ألوف السجود نجاة

ضرب الكلم، ص 24.

فلما أطال الإمام سأل الوفد التركي إقبال عن السبب فنظم إقبال القصيدة «صلاة العبيد». يرى أن الإسلام بعد الصلاة في حلف الجهاد، وليست الصلاة الشعائرية داخل المسجد. فالحياة كفاح، والشعوب حرة. وإطالة الصلاة داخل المسجد تحرم المسلمين من الكفاح في الحياة، ﴿فَإِذَا فُضِّيتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾. ليست الصلاة هدفاً في ذاتها، بل وسيلة للإحساس بقيمة الوقت وأداء الواجبات في أوقاتها ومع الجماعة. هذه هي الصلاة الرمزية. أما الصلاة في الحياة فهو الجهاد⁽¹⁾. إن دعاء الشيخ داخل المسجد ليس جهاداً خارج المسجد. إنما الذات هي التي تقاوم في الرباط. والشرارة لا تلهب الرماد⁽²⁾. بل إن التصوف العملي، قيام الأسحار ليلاً والتهدج والتعبد دون أن يعرَى الذات، لا قيمة له⁽³⁾.

إن العبادة بلا قوة أقرب إلى حياة الكهوف. والتصوف يؤدي إلى الموت والذل واليأس. ويظيل المسلم الهندي في السجود، والإسلام يريد أن يجعل منه سيداً⁽⁴⁾. الدعوة خارج الكهوف وليس داخلها. واشتعال همم الفتیان ونبد الذل يظلم القلب، ويبدد الحيرة. هذه الدعوة التي يغلب عليها مس الجنون خير من خلوة شيخ الحرم. تحتاج إلى مكافأة منه⁽⁵⁾. ولا فرق في ذلك بين الإسلام

- | | | |
|-----|---|--|
| (1) | قال بعد الصلاة حلف جهاد ما درى ذاكم المجاهد المؤمن الغر كم لدى الحر في الحياة كفاح حُرِّم العبد حرقه الكد عجزا لا تعجَّب إذا أطال سجودا رب وفق أئمة الهند يوماً السابق، ص112. | كم يظيل الصلاة فيكم إمام صلاة العبيد كيف تقام غيرة الحر للشعوب قوام فعلى وقته المضي حرام ما لديه سوى السجود مرام لسجود تحيا به الأرقام |
| (2) | شيخ المساجد! ما دعاؤك سحرة ما «الذات» يرجى في رباط خلقها السابق، ص122. | أبه الحياة بلا جهاد تظفر هل للشرار من الرماد تسعر |
| (3) | وقيام الأسحار في طول وجد السابق، ص22. | ليس للذات راعيا، ليس شيئا |
| (4) | يا عابدا ليس لديه قوة وهات إسلاما به تصوف للشيخ في الهند أجزت سجدة السابق، ص22. | إذهب إلى كهف وسيح واعبدا إلى الردى والذل واليأس هدى فحسب الإسلام حرا سيئا |
| (5) | ودع الخلوة يا شيخ الحرم | واسمعن في الفجر مني ذا النغم = |

والهندوكية. بل إن الإسلام الهندي ربما أصبح أقرب إلى الهندوكية منه إلى الإسلام بعدما غلبت عليه الشعائر، وقويت فيه السلطة الدينية. فلا فرق بين إمام المسجد وإمام المعبد. كلاهما إمام بلا مؤمنين، ورعاة بلا رعية. الإمامة خارج المسجد وليست داخله⁽¹⁾.

الحر لا يقيم في الدين. ولا ينحت الأصنام⁽²⁾. فالإنسان يعبد ما يصنعه. ويرى بالعين ما ينحته باليد⁽³⁾. وهو خروج على الفطرة التي تشق من ذاتها. ليس ما يجذب الانتباه هو نقش بالمساجد وزخرفتها بل ما يحدث خارج المسجد في العالم الذي يستدعي النظر والانتباه⁽⁴⁾.

لا تحطم الأصنام إلا الذات. في حين أنه حين تشييدها قد يقيمها الآخرون للذات. كل ذات قادرة على تحطيم أصنامها. والغير لا يعرف إمكانيات الذات ولا قدراتها. بل قد لا يكون قادراً على أن يدرك نفسه⁽⁵⁾. نحت الأصنام صنعة العاجز الدليل. أما صنعة الخليل فهي التي تؤدي إلى العلاء. ليس الإنسان مجرد تقع بل إنه النجم والمدار. وإذا كان نقعاً وغباراً فإن الجنون يستثيره⁽⁶⁾. وصرخة الفجر في

= يحفظ الله لك الفتيان في
هم عن الغرب زجاجاً أخذوا
في جنونني أسرار بدت
السابق، ص 39 - 40.

Persian Psalms, p. 61. (1)

(2) بهذا الدير حراً قد أقمنا
وأصناماً كما تهوى نحتاً
زبور العجم، ص 378.

(3) وننحت مثل صورته الحجارة
هتكنا ستر فطرتنا علينا
السابق، ص 386.

(4) إن كانت اقتصرت على نقش المساجد هممتي
لي ساعة تجتاح فيها الكون حدة نظرتي
جناح جبريل، ص 407.

(5) إن أصنامي التي في معبدي
لم تحطمها يد غير يدي
ذلك الأعمى الذي تقصده
هو لا يبصر حتى نفسه
مثلها تلك التي في معبدك
فترقع عن يد غير يدك
ماله علم بما في قلبك
وتراه تحفة من ربك
نحت أصنام آزر
صنعة العاجز الدليل =

قرارة النفس هي التي تقضي على صنم العين من تصورات الذهن. أما طريق الخليل فهو سبيل الإقدام على النار بثقة واطمئنان. قد يؤدي الحب إلى السكر فيعبث السكران بحبال الصيد التي أوقعته وهو سعيد بها وكأنها هي التي تحرره. فالقيد أولى درجات التحرر⁽¹⁾.

مهمة الذات تحطيم الأصنام كما فعل محمد والغزنوي عندما حطم الصنم الكبير. ورفضوا مقايضته بالذهب والجواهر والحريير. فأفضل أن يسمى هادم الأصنام من أن يُسمى بائع الأصنام⁽²⁾. ليس السجود تهدل الكتفين من طول القعود. ولا يوجد سجود أفضل من سجود. كله سجود وخنوع. كل هذه السكنات والأصوات والترانيم وجل يطارده الفناء ألوان الأصنام وأصوات الساجدين. والأصنام عمياء صماء. هذه مرحلة من مراحل نمو الذات. ولا تغني الجزر القريبة عن السواحل البعيدة. للأسف لم يكن للنار لهيب. ضاعت شرارتها التي كانت بنظرها تهب⁽³⁾.

- = والذني يطلب العلا
لست نفعاً مجرداً
من جنون مثابير
جناح جبريل، ص 461.
- (1) كل شيء هناك تُعرب عنه
صنم العين كل لون تراه
ممكن أنت أن تكون خليلاً
فيم هذا المحب يعبث سكرًا
لم تزد الشباك إلا صبورا
- (2) لما أراد الغزنوي يحطم الصنم الكبير
جاؤوا إليه بكل أصناف الجواهر والحريير
فرمى بما جمعه في بحر وبدهه جميعه
وأجاب جئت لسكي أحطمه وليس لسكي أبيعه
فلأن أسمى هادم الأصنام خير في السلوك
من أن أسمى بائع الأصنام من بين المملوك
جناح جبريل، ص 518.
- (3) ليس السجود تهدل الكتفين من فرط القعود
ما كان يغني عن سجود آخر فهو السجود
من هذه الأصوات والألوان عالمننا خليط
وجل يطارده الفناء من المحيط إلى المحيط
أصنام ألوان وأصوات تلم الكون لما

الكافر صاحي الفؤاد. وعابد الصنم خير من مؤمن مات في الحرم⁽¹⁾. الإمام والصلاة والحرم والمداد والكتاب والقلم كل ذلك لا يكفي المسلم الذي وسعته الدنيا⁽²⁾. وعن بصيرة تحطم الأصنام بعد تمزيق كل الحجب وافتراق كل السحب. قد فعلها الخليل ولم يفعلها المعاصرون⁽³⁾. ولا يمكن الوقوف أمام أصنام جديدة⁽⁴⁾. صارت الهيجانات القديمة رغبة باردة سقيمة. وأصبحت دماء المسلم باردة. تبارك الأصنام كفره⁽⁵⁾.

توضع الذات تحت التجربة. ومنها تحطيم الأصنام يوماً واحداً دون خوف من تخريب المعبد، وتحطيم أوثان الأجناس والأعراق وكسر أغلال التقاليد التي تكبل الذات من غير طائل. ليس دين الكهان هو طريق الخلاص. الدين هو دين الله الذي يؤكد وحدانية الذات. وشرطه الحفاظ على القلب دون أن تدوسه أقدام العباد. ومن يزرعه في صدره يجد المتعة أيام الحصاد⁽⁶⁾. والقادر على تحطيم معبد

= أسفا على سمع وعين ألقا عميا وضماً
الأمر مرحلة ودرب الذات تذخر بالمراحل
ما أبعد الجزر التي تغريك عن تلك السواحل
يا أنت نارك لم تكن من موقد هذا لهيبه
ضاعت شرارتك التي كانت بنظرتها تهيبه
السابق، ص 518.

(1) كافر صاحي الفؤاد ذو صنم
جاويد نام، ص 166.

(2) الإمام والصلاة والحرم
إنما الإنسان دنيا قد وسع
السابق، ص 201.

(3) وبعين مزقت كل الحجب
سترى الأرباب حتما كلها
بعل ومردوخ ويعوق ونسر وقسر
إنها للبعث تأتي بالدليل
(4) إلام بعين عتبك أنت تنظر
أرمغان حجاز، ص 427.

(5) السابق، ص 532.

(6) ليس يجدي الهم في شيء إذا
حطم الأصنام يوماً واحدا
حطم الأوثان أوثان العروق
وانض أغلال التقاليد التي
لم تضع ذاتك تحت التجربة
لا تخف معبدها أن تخربه
واهدم الأصنام أصنام القبائل
تتعنى خلفها من غير طائل =

الأوثان يكون مثل إبراهيم في الإيمان⁽¹⁾.

وفي ميدان الفكر الإنساني، محمد وبوذا وكانط كانوا أكبر ثوار. وفي ميدان الفعل، نابليون لا ينافسه أحد. ولا يوضع المسيح بين ثوار العالم لأن الدين الذي أسسه تم استيعابه بسرعة في الوثنية اليونانية الرومانية السابقة عليها. المسيحية الأوربية ليست إلا ترجمة هزيلة للوثنية القديمة في لغة اللاهوت السامي⁽²⁾. يواجه الإسلام والمسيحية نفس العدو، عبادة الأوثان. والفرق بينهما أن المسيحية ساومت مع العدو في حين أن الإسلام دمره تماما⁽³⁾.

5 - المسجد والدير

المسجد في الهند خلا من كل صوت. ديرها خمد ناره⁽⁴⁾. شيد الناس في الهند الدين وما يزيد المؤمن إلا كفرة⁽⁵⁾. والخشب لعمل الإناء أفضل من عمل المنبر أو الصليب⁽⁶⁾. أهل التصوف ذئاب لا يعرفون القرآن. يعرفون فقط الصباح والضجيج في الخوانق، وأفضل منهم السكارى العاشقون لله⁽⁷⁾. ومسلم الخانقاه

- | | | |
|--|--|------------|
| <p>وامنح الكهان روحانيته
يهب الإنسان وحدانيته
يجد المتعة أيام الحصاد</p> | <p>لا تقل أنشد في الدين الخلاص
إن دين الله في الدين الذي
الذي يزرعه في صدره
جناح جبريل، ص 538.</p> | <p>=</p> |
| <p>حتى تزيل معابد الأوثان</p> | <p>كن مثل إبراهيم في الأعيان
يا أمم الشرق، ص 342.</p> | <p>(1)</p> |
| <p>St. Ref., p. 38.</p> | <p></p> | <p>(2)</p> |
| <p>Ibid., p. 99.</p> | <p></p> | <p>(3)</p> |
| <p>ديرها ما فيه نار بعد خمد</p> | <p>مسجد فيها خلا من صوت حشد
جاويد نام، ص 308.</p> | <p>(4)</p> |
| <p>يزيد لمؤمن كفر لدينا</p> | <p>هنا قد شيدوا ديورا عجيبا
أرمغان حجاز، ص 430.</p> | <p>(5)</p> |
| <p>والذئاب أنهم أهل التصوف
أين خمير لروح الله عاشق</p> | <p>إن للقرآن علما أن يُعرف
الصباح والعجيج في الخوانق
السابق، ص 333.</p> | <p>(6)</p> |
| <p>وليس لمنبر أو للصليب</p> | <p>لدي المال من خشب لنار
السابق، ص 497.</p> | <p>(7)</p> |

خجول. هانت شؤونه عليه. فمات هو ودينه سارت أحواله وبدت للعيان⁽¹⁾. بنى الشيخ أساطيره على ما تلقى من أقوال. الإسلام لديه زنار وعمة ودير⁽²⁾. رجال الدين عاكفون على التظاهر، السبح التي تدور، ولا يعرفون شيئاً من شؤون الدنيا⁽³⁾. وبناردير يحرس حارس الكعبة التي مات فيها اليقين. واتجه إلى الغير. نظرتهما قصيرة. تجلى بأسه من كل خير⁽⁴⁾. وبيت الله في القلب، يغني ويطرب⁽⁵⁾.

لقد ضاقت الأرض اليوم بالمسلمين. وكانوا قد احتووها من قبل. سجدتهم اليوم أردتهم إلى العبودية في حين أن سجدة القدماء جعلتهم يحكمون العالم⁽⁶⁾. أصبحت المساجد مواطن للشكوى، قادرة على إحراق قلب الشيخ⁽⁷⁾. السجود في مساجد اليوم عار⁽⁸⁾. لقد افترق المسجد عن القلب. وسار كل منهما في طريق معاكس للآخر. المسجد يفرق. ويخرج منه الناس شيعاً وفرقاً وأحزاباً. والقلب يوحد الناس ويجمعهم على المحبة والإخوة في المسجد. يزل القدم، والحب يقيم الناس، ويساعدهم على النهوض. المسجد يطيل البحث والنظر. ولا يصل إلى شيء إلا إلى الحيرة. والحب أقصر الطرق إلى اليقين. ضاعت العقيدة باثنين وسبعين فرقة

- | | | |
|-----|---|---|
| (1) | خجول مسلم هانت شؤونه
وعن أحواله لا تسألني
السابق، ص442. | له الخانقاه فقر، مات دينه
فقد ساءت وفيها حار ظني |
| (2) | أساطير متاع الشيخ حقا
له الإسلام بالزنار يبدو
السابق، ص442. | من الأوهام أقوالا تلقى
وذا حرم ومن دير تبقى |
| (3) | رجال الدين سبحتهم تدور
زبور العجم، ص383. | بأمر الحكم ليس لهم شعور |
| (4) | ويحرس كعبية بنار دير
وتقصّر نظرة منه وفيها
السابق، ص445. | يقين مات فيه، رنا لغير
تجلئ بأسه من كل خير |
| (5) | وبيت الله أحويه بقلبي
السابق، ص445. | أغني ما بقلبي ثم أطرب |
| (6) | السابق، ص454. | |
| (7) | نصعد في مساجدنا أنينا
السابق، ص493. | على إحراق قلب الشيخ يقدر |
| (8) | لجم أنت تسجد أو لدارا
السابق، ص497. | فلا تلحق ببيت الله عارا |

ضالة. ولا يصل إلى اليقين إلا الفرقة الناجية. وهي ليست فرقة السلطان، بل فرقة الحب والوجد. ليست فرق العقيدة والشريعة، العقائد والفرق، بل فرقة الحقيقة والطريقة. يقدم المسجد إسلام النقل والكتب والورق. ويقدم الحب إسلام التجربة والذوق. الأول إسلام جاف يابس. والثاني إسلام رطب غض طري. همة الدرس لن تصل إلى المعنى في حين أن الحب دائم الحلاوة حتى في محنه وسفهه. فالحب بلا جنون عقل مقنع. الحب رعشة ورعدة وخوف وارتعاش بلغة كيركجارد حتى يوم الحشر. يشق الصخر بجذوته. بل هو قادر على كشف الأسرار، ونزع الأستار حتى عن الذات الإلهية⁽¹⁾.

ليس المسجد مكاناً أو بنياناً بل كل أرض للمسلمين. ولا يجوز بناء مسجد في أرض في يد المستعمرين⁽²⁾. فتحريها سابق على بناء مسجد فيها. إذ لا تجوز الصلاة في الدار المغصوبة طبقاً للفقهاء الحنفي القديم⁽³⁾. وما فائدة نقوش وحروف

وكيف نخرج من محرابه فرقا
تقوى طويته إن تكتم الخرقا
بأنه أقصر الأشياء أزمانا
أوتيت من جعبة الصياد سلوانا
بائني وسبعين واد من معانيها
وجد يؤلف قاصيها ودانيها
رأيت منتشر في جملة الفرق
إسلامنا الغير مكتوب على الورق
ولا يفوح بغير الوجد معناه
فكن يحبك في هذين سكيلا
فإن ذلك لا يجديك قطميرا
ولن تراقب يوم الحشر ذا جاه
شقت أمام البرايا معطف الله

كل أرض مسجد للمؤمنين
فوق أرض في يد المستعمرين
مسجد الهادي بأيدي الغاصبين
لا يكن غيرك فيها سيذا

كل أرض مسجد للمؤمنين
إن تركت الأرض للمستعمرين

(1) استفت قلبك كيف المسجد افترقا
وأين ذو جلد منهم يمر به
الحب، يعرف من زلت له قدم
وأنه جرح سهم إن صبرت له
ضاعت عقيدة قوم في مصادمة
هيهات يدركها من ليس من دمه
درس الشريعة غير الوجد وهو كما
وانه وكما نمت تجارينا
غصن اليقين الرطيب الوجد ينبت
الحب في قحة يحلو وفي سفه
ولا تكونن ذا حب بلا سفه
لن تهدأ الرعدة الملقاة في خلدي
إن لم تشق بسيف السكر جذبتها
جناح جبريل، ص 438 - 439.

(2) قال خير الخلف تاج المرسلين
كيف يعلو منبر للمسلمين
بألها كارثة في العالمين
حرر الأرض معا والمسجدا
يا أمم الشرق، ص 359 - 360.

(3) في حديث المصطفى شمس الهدى
كيف تبني فوق أرض مسجدا
السابق، ص 365 - 366.

للآيات القرآنية على المساجد، حوائطها ومنابرها وقبلتها. يسجد المسلمون داخلها. والأفضل أن يكونوا وقوفاً خارجها استعداداً للحركة والمواجهة⁽¹⁾. ليس عن طريق المسجد والآيات المرتلة وليس عن طريق المدارس العالمية يستطيع الإنسان الحصول على راحة النفس وشفاء الضمير بل عن طريق العودة إلى القلب، بحثاً عن الحبيب المفقود⁽²⁾.

مصباح الثائر شمعة في قصعة من خزف. تذوب ليلاً وتنطفئ إذا هبت الريح. والآن، ما فائدة المصابيح حول المزار؟ ولماذا الضريح والعطور والستور والحجار؟ كم كعبة للمسلمين وكم صنم في الحرم؟ بنيت القباب فوق الرؤوس حتى ضحكت عليها الأمم. نذور الأولياء ربا. صاحب القبر مختبئ. والمرابي متخفي. هم أولياء بالوراثة. لقد حلت الغربان مكان النسور⁽³⁾.

وفي الدير خطيب صياد، واعظ يتحدث عن جهنم. والكافر في قوله أفضل. وهل جهنم لسواه؟ والمريد رآه أفضل من رأي الشيخ السديد الذي جعل رزقه من تراكم هذه اللحود. إذ قال الغلام للشيخ إن هذا العصر عصر نمروود فأين الخليل؟ لماذا جعل الصوفي والمُلا نفسيهما أسيرين وفي القرآن متسع للعيش؟ خطأ الصوفي والمُلا تأويل النص بما يهويان وطبقاً لمصالحهما ولصالح الحكام فاحتار الناس⁽⁴⁾. ومن نام

(1) أي مستهتر بكل ملام هذه الأغبياء تسجد لما جناح جبريل، ص 450.

(2) Ibid., p. 106.

(3) أنا فانوسي الذي أملكه إن أقمت الليل ذابت وإذا ما الذي يفعله سيدنا ثم ما معنى مزار وضريح يا إلهي كم لنا من كعبة وفقاعات قباب فوقهم ليس ما يعطى لهذي الأولياء المرابي دائما مختبئ أنراهم سلكوا كالأولياء ملأ الغربان أوكار النسور السابق، ص 548.

(4) = بيت الله صياد ودير وللصوفي لم يك أي ضير

تحت محراب المسجد هو الذي تاه في بيت أوثان الإفرنج⁽¹⁾. خطيب المنبر والمحراب خال من الهمة والنشاط. فالدين للمؤمن إما الموت وإما الحياة⁽²⁾. فليخرج الصوفي من الخانقاه وليقلد علي. مقر الخانقات هو الهم. رائحة الرهبان تهب من الدين والخلق⁽³⁾. وحديث الشيخ والبرهمن حديث سحر وخرافة⁽⁴⁾.

وحين امتلأت كنائس بالإنجليز بكل ما لذ وطاب من طعام وشراب، لا توجد في مساجد المسلمين إلا المواعظ والصلوات. يعاني القرآن من كلام المفسرين. ويجعلونه أشبه بكتب المجوس⁽⁵⁾.

حياة الدير ليست حياة العصر. والحديث بالألغاز لم يعد مقبولاً. انتهى العصر الذي كان يقال فيه للميت قم فيقوم. فماذا يفعل المقيمون بالدير فيه؟ هل يحترمون القبور أم يحفرونها؟⁽⁶⁾.

ومنه كافر في القول أحزم
وقال جهنم لسواي فاعلم
لشيخ فاه بالقول الشديد
تكوم فوق هاتيك اللحدود
تأمل واستمع لي باهتمام
فمنه اخلق خليلاً للأنام
وفي القرآن للعيش الكثير
كلام الله قالاً بالتمام
فحار الروح بل خير الأنام

تحدث واعظ لي عن جهنم
غلام حاله ما إن دراهما
مريد كان ذا رأي شديد
وجني الرزق موت، من تراب
لشيخ كان ذا قول الغلام
لهذا العصر نمروء جديد
لملا أو لصوفي أسير
على الصوفي والملا سلامي
ولكن أولاً ما أولاه

أرمغان حجاز، ص 464.

إلا المواعظ تلك والصلوات
قاسى كلام مفسر به وعانى
القرآن بازندا المجوس لكان
ولا أنا استطيع اليوم إلغازا
قم، قام فيهم بإذن الله واجتازا
جماعة بمذاق الدير كفارا
أم أنهم لقبور القوم حفارا

هل في مساجدنا بكل بلادنا
قرآنك الحق المبين وإن يكن
لو يرغبون برأيهم أن يجعلوا
جنح جبريل، ص 420.

لا العصر للقول بالألغاز محتمل
مضى الذين قالوا لميتهم
فما الذي بعدهم في الدين تفعله
أخدمة لقبور القوم ما برحوا

السابق، ص 544.

(1)

(2)

(3)

(4)

(5)

(6)

أصبح الدير مقصد الأمة وفي نفس الوقت تبيع المسجد⁽¹⁾.

ليس الطريق هو طريق الدير بل طريق القلب. الحياة نداء على القوافل لبدأ المسيرة مع الركبان دون توقع موعد للبداية أو النهاية. إنما النهوض واجب. وهو نهوض لا يناسب عزلة الدير أو سلطة العقل. الطريق طويل وكثير الأشجان كما يصف الغزالي والصوفية معه⁽²⁾.

6 - العزلة والرهبنة

ليس الدين هو الدعاء مثل دعاء نوح أو الصلاة مثل صلاة العابد أو الاعتزال مثل اعتزال الراهب. الإنسان قادر على أن يحول الترب ذهباً، والسماء لهبا. فالكليم فجر من الصخر ماء. وشيمة الأنبياء ليس الذكاء والدهاء بل الفطرة. ويدعي الولي أنه مثل النبي. وشتان بين التقليد والاجتهاد، بين النقل والإبداع⁽³⁾. ليس للعاجز الضعيف حياة دواؤها العبادة. فالصلاة لم تعد توجهاً إلى الله بل أصبحت عادة، حركات فوق سجادة، وسجادة بلا حراك. ويتم إعلان النصر قبل بدأ المعركة⁽⁴⁾. السجود لرب لا يُحد يجعل الصلاة بلا معنى، وسيلة لا توصل إلى

- | | | |
|---|---|-----|
| نحن للغير نبيع المسجدا | أصبح الدير لنا مقصدا
يا أمم الشرق، ص 363. | (1) |
| بدء المسير فقم مع الركبان
يتوقع الترحال كل أوان
ديرا وعصرك غير طبعك فان
أو لم يدع للعقل من سلطان؟
وطويلة وكثيرة الأشجان | دوى النداء على القوافل معلنا
أواه ماذا يفعل هذا الساري
انهض فخمرك لا تناسب هاهنا
سيان كان القلب عبدا طائعا
فالدرب يا هذا المسافر صعبة
جناح جبريل، ص 461. | (2) |
| والدعاء كان خلوا من غناء
نحو أهل النور عن محض اختيار
وبنجواك السماء من لهب
واحترق مما رأيت عين بعيدا
دعك من فرط الذكاء والدهاء
والرماد في الرياح الجمرة
للهموى كان النبي داء عصيا
ولتدع هذا التجلي خلوتك | إن نوحا لم يجد غير الدعاء
اعتزل في الغار ورحل عن ديار
وبعين اجعل الترب الذهب
كالكليم في الجبال كن شريدا
وتناس شيمة للأنبياء
بين من هانوا تهون الفطرة
الولي إن شأى يوما نبيا
قم وفي عش انفراد عزلتتك
جاويد نام، ص 174. | (3) |
| = ودواء الضعيف ذوق العبادة | ليس للعاجز الضعيف حياة | (4) |

غاية⁽¹⁾. وعلى لسان الشاعر الهندي برتري هري شاعر الحب والخلق والزهد في القرن السابع الميلادي يرفض إقبال دين الرسوم والأشكال وعبادة الأصنام الحسية أو الخفية والسجود والركوع بلا شعور، والشعائر بلا عمل حتى ولو كان غزلاً بخيط. وللعامل الجزاء الأوفى⁽²⁾.

السجود نوعان: سجود فارغ خال وسجود يهب خراج الأرض. الأول سجود الصوفية، والثاني سجود المحاربين⁽³⁾. السجدة التي لا يحترق بها الساجد ويتحول فيها الكون إلى وجد سجدة فارغة⁽⁴⁾. والسجود على رمل يتلظى عليه الوسم ويحترق الجبين⁽⁵⁾. صلاة القلب لا تحتاج إلى سجود في معبد بل إلى تحطيمه. وليحذر المسلم السجود الخالي من كل ذوق⁽⁶⁾. هناك حرم به صنم هو الشيخ الكبير⁽⁷⁾.

- | | | |
|---|---|-----|
| فصلاتي كما صلاتك عادة
فوق سجادة بغير حراك
تعلن النصر قبل بدء العراك | لا تقل في الصلاة: وجهت وجهي
نحن سجادة لها حركات
إن حرباً أبطأها نحن حرب
السابق، ص 460. | = |
| الصلاة ما ارتضاها قط عبد | ما السجود ولرب لا يُحد
السابق، ص 182. | (1) |
| هذه الأرباب شئت وهي من طين وصخر
برتري كان بعيداً عن كنيس بل ودير
عمل تلك الحياة، وهو من خير وشر
مغزل بالخيط دُورت ولكن لست تدري
ما لهم هذا النعيم والجحيم غير أجر | سجدة من ذوق أعمال خلت لا خير فيها
عالم أنت تراه ليس من آثار رب
اسجدن عندما للعاملين من جزاء
السابق، ص 298. | (2) |
| خراج الأرض والأرض الخلاء | عجيب أن تُكَلِّفني سجوداً
أرمغان حجاز، ص 424. | (3) |
| ومنها الكون في وجد يميند | فهبني سجدتي فيها احتراقي
السابق، ص 426. | (4) |
| عليه الوسم يحترق الجبين | ألا فاسجد على رمل تلظى
السابق، ص 437. | (5) |
| مقامي أين؟ كنت المقيّد
لقد حطمته وهو المبدد | فؤادي لم يرق أحداً بمعبد
إله يستغي مني سجوداً
السابق، ص 451. | (6) |
| به صنم هو الشيخ الكبير | لنا حرم فماذا يستعير؟
السابق، ص 443. | (7) |

صلاة العشق غير محددة بوقت وأذان وخطاب بل بمقام العشق. تبدو فيها «الله أكبر» خمس مرات للناظرين. يدوم بها نداء العالمين، ويخلد بها المسلم. ولا يعلمها صريع العصر⁽¹⁾. السبحة في اليد لا لزوم لها. ولا للزناز في الوسط. والتمسح بالأبواب لا يؤدي إلى شيء. لا يدخل المساجد إلا الملاء. ولا يدخل الدير إلا السحرة⁽²⁾.

قراءة القرآن لا تكون في زاوية أو ركن من المسجد بل هو أمر للتبليغ لكل الناس. هو نار مثل التي وضع فيها نمرود الخليل. فمن يشارك في ثورة الخليل يكون له نصيب في جبريل⁽³⁾. لا تتم قراءة القرآن في عزلة بل في جماعة لإسماعه لكل العالمين⁽⁴⁾. لا تتم في الدار بل أمام الخلائق أجمعين حتى يستجيب الكون.

يسأل إقبال عن هذا العصر الذي يستلزم النزال. وفيه يخبو لهيب الشعر في

- | | |
|---|---|
| <p>(1) فليس لها المؤذن والخطيب يقينا يصحب الروح الأمين وفيها خفية هم ساجدوننا أفي خمس بدت للناظرينا ومنها سليم خلدا يروم قيامات «لقد قامت» تقوم</p> | <p>صلاة العشق ميّزها بوقت مقام العشق يفعمه اليقين أتسأل عن صلاة العاشقين أرى «الله أكبر» مثل نار نداء العالمين بها يدوم صريع العصر فينا ليس يدري السابق، ص 499 - 500.</p> |
| <p>ولا يفضي إلى أحد بسر بزناز على كتفيه يجري فمن أهل لنا نحظى بخير ومن سحر الدمى كانا بدير</p> | <p>(2) ويحفظ برهمي كل أمر وهذي سبحة قال اطرحها قال لتبتعد عن باب غير وما تسع المساجد غير ملا السابق، ص 477.</p> |
| <p>وهو في ركن في البيت مقيم قم وأسمعه البرايا أجمعين أسمع النمرود توحيد الخليل فهو من جبريل في الدنيا قريب عد إلى الحق تجد نور الصفا</p> | <p>(3) أيها الشادي بقرآن كريم قم وأبلغ نوره للعالمين إن نكن في مثل نيران الخليل من له من ثروة الهادي نصيب يا غريبا عن مقام المصطفى يا أمم الشرق، ص 362.</p> |
| <p>وهو في عزلته ناء مقيم قم وأبلغه البرايا أجمعين</p> | <p>(4) أيها الشادي بقرآن كريم قم وأسمعه لكل العالمين السابق، ص 358.</p> |

الحياة الصاخبة. ويجب الرومي بأن العزلة ليست غاية في ذاتها. ومع الأحباب تصبح الجماعة شهداً. فليترك الإنسان العزلة، ويعيش مع الجماعة، وينتقل من جماعة لأخرى. الناس تشتري الفراء ليس من أجل الربيع بل للترين⁽¹⁾. ولا تترك الدنيا ليلاً ونهاراً بل تسخيرها وليس تدميرها. ومن يعلو صهوتها يأمن الخطر منها. هي وسيلة للأخرة. هي صيد المؤمن الحر الجسور مثل أن يصطاده فيها الغرور⁽²⁾. والصحبة مع صاحب القلب العظيم لإدراك الأمور العظيمة. وإذا ولد الإنسان عبداً على مهاد الذل فعليه الجهاد حتى يموت حراً كريماً⁽³⁾.

وبالرغم من استشهاد إقبال في أول «الأسرار» و«الرموز» بجلال الدين الرومي إلا أنه ينقد حافظ⁽⁴⁾. فهو فقيه أمة الأذلاء، وإمام أمة المساكين، وقائد النعاج. كتب إقبال خمسة وثلاثين بيتاً ضد حافظ ناقداً إياه نقداً لاذعاً مما أثار حفيظة أتباعه ومحبيه. حذفها من الطبعة الثانية ووضع مكانها «حقيقة الشعر وإصلاح الأدبيات الإسلامية».

لا يتحمل إقبال السكوت. وكان من شدة غيظه يتمنى أن يموت. إذا بشر الحجاب بالفردوس ملاً رفض إقبال لأن الملا لا يهتم بمغاني الله ونعمه. هو

(1) قال: يا أستاذ! إن العصر يستدعي النزال
ولهيب الشعر يخبو
وقلده دون اعـتـزال
قال: يا إقبال، لسنا
نقصد العزلة قصدا
عندما الأحباب تأتي
تصبح الخلطة شهدا
بذد العزلة واذهب
من قطيع لقطيع
تشتري الناس فراء
ليس من أجل الربيع
جناح جبريل، ص 528.

(2) أيها الناصح ليلاً ونهاراً
إن معني تركها تسخيرها
والذي يعلو على صهوتها
فاتخذها من مطايا الأخرة
داعياً أن نترك الدنيا احتقاراً
في سبيل الخير لا تدميرها
يأمن المحنة من عثرتها
تنج من تلك العجوز الساحرة
هي صيد المؤمن الحر الجسور
قبل أن يصطاده فيها الغرور
يا أمم الشرق، ص 360.

(3) فصاحب من له قلب عظيم
ولدت على مهاد الذل عبدا
لعلك تدرك الأمر العظيما
فجاهد ثم مت حراً كريماً
السابق، ص 373.

(4) الأسرار والرموز، مقدمة ص 16 - 17.

سكران دائماً بلا فجر أي غائب عن الوعي. لم يعرف من العلم إلا القليل والقال. ويظن أن الدين المنزل مجرد جدال. العبد لا يكون جباناً فكيف يكون زعيماً وهو لا يحسن أي شيء؟ لم يعد أبه إنسان بما أنزل إليه. فإذا فعل شيئاً فإنه يكفر الآخرين. لا يرى في الخلق مطيعاً إلا نفسه. وكيف يرضى الله عن غبي يكفر الناس جميعاً؟ لا يوجد في الفردوس ذكر لكهوف وصوامع. إنما الفردوس فيض حب من صدور العاشقين⁽¹⁾.

لا يوجد في حواشي الصوفي إلا الغبار بالرغم من ادعائه أنه يخوض الحروب ويُهزم فيها. زالت حرارة الحب عنه. وارتضى بالحياة السقيمة. لم تكن حربه للغنيمة، بل كان هو الغنيمة للعدو. تتراكم الكتب لديه للقراءة. ويصل الليل بالنهار للعبادة. ليس لديه إلا حكايات وروايات عن الأولياء يسمعها الصغار. شاع الخراب والفساد في الزوايا والتكايا. وامتد ذلك إلى قصور الملوك. فلا فرق بين المساجد والقصور من حيث التباهي والحياة السرية المغلقة⁽²⁾. ولم الصمت وكتمان

(1) أنا أيضا كنت لكن ما تحملت السكوت
كنت من شدة غيظي أتمنى أن أموت
كنت إذا بشرت الحجاب بالفردوس ملاً
فتقدمت أنادي عفوك اللهم كلا
ليس للملا اهتمام بمغنائيك وحمورك
هو سكران، نعم سكران، من غير خمورك
ما درى من لجة الذوق سوى قيل وقال
بحسب الدين الذي أنزلت تاريخ جدال
أنا لا أرضي لنفسي أن أرى عبدي جباناً
كيف ترضاه زعيماً وهو لا يحسن شأناً؟
لم يعد أبه إنسان بملاك المنقر
فإذا ما جاء يوماً قيل قد جاء المكفر
لا يرى في خلقك المسكين إله مطيعاً
كيف ترضى عن نبي كثر الناس جميعاً
ليس في الفردوس ذكر لكهوف وصوامع
إنما الفردوس فيض الحب من صدر الجوامع

جناح جبريل، ص 505.

(2) ما وجدنا وقد بحثنا كثيراً في حواشي الصوفي إلا غباراً
يدعي أنه يخوض حروباً كبدته هزيمة وشناراً
كيف زالت حرارة الحب عنه وارتضى هذه الحياة السقيمة

الشهادة على النفاق، نفاق الملا والصوفي؟ يجلس على سجادة الصلاة ويقول ما لا يعمل به. ويدعو إلى ما لا يؤمن به. يحمل بيده كتاباً من نور وهو المصحف. يربك به الناس في الدنيا والآخرة⁽¹⁾.

قد تكون العزلة عن العالم وقتية كما انعزل الرسول في غار حراء لاكتشاف الذات واقتفاء أثرها. بعدها أقام أمة. والوعي بالجديد يتجاوز القديم. والأسد قبل أن يتقدم يتراجع خطوة إلى الوراء⁽²⁾.

وفي مقابل العزلة هناك الصحبة. فللمرء زوج، والعين اثنان وإلا العور. واحترام الإنسان لأخيه الإنسان لأن بين الناس جميعاً عروة⁽³⁾. والذات تخرج بين الدروشة والملكية، بين الانسحاب من العالم والانكباب عليه، بين العزلة عنه والانكباب فيه. هذان العالمان يغزوان الوجود بالنظرات أو بالجنود. الأول يترك

وقصاراه أن يكون غنيمه
يصل الليل حولها بالنهار
أولياء يقولها للصبغار
في الزوايا وفي تكايا السلوك
كيف دبت على قصور الملوك؟

أي يوم مضى عليك كيومي
يطفح التاج في منازل قومي
والذي عند كل ملاً وصوفي
ووقوفاً يكون مثل وقوفي

غير آثار لذات ما اقتفى
وأقاموا أمة من خلوته
كل فضل المصطفى حتما عرفنا
لشقيت أنت بالفكر العقيم
ثم تأتي بعد بحث ضالة

والرجال حذرهم كان الصحاب
كافر أو مؤمن ربي برأ
ليس منا غير هذا من علم
منك في هذا الطريق خطوة

حره لم تكن ليغنم شيئاً
كُتب القوم عنده فوق بعض
ما تبقى لديه إلا حكايا
ما تعجبت أن يشيع خراب
عجبي من نهاية مثل هذي

امض يا شاهد الشقاء بصمت
مثل سجادة الصلاة نفاقاً
الكتاب الذي يموج بياضاً
يملاً الحشر حيرة وارتباكاً

مدة في الغار ظل المصطفى
رُشماً قد أغرقوا في مهجته
وعلى إنكار رب إن قدزنا
لو أنارت فيك روح كالكليم
فالخيال فيك تحيي عزلة

يستمر المرأة زوج أو تراب
تنطق العوراء إذا كل الخطأ
أنت إنسان أخاك فاحترم
تربط الناس جميعاً عروة

الركاب لغيره، والثاني يكتم جرحه ويعاني. وكل مقام ينازع المقام الثاني في الحداء⁽¹⁾.

7 - إمامة العالم

ليس الإمام في المسجد بل في الوري. والإمام في الوري هو الإمام الكامل⁽²⁾. هناك فرق بين إمامة المسجد وإمامة العالم. والإمام هو الإمام الحر. وكيف تتم الصلاة وعلى رأس جيش الغزاة إمام عبد باع نفسه وأطاع الحاكم الأجنبي بأذنه وعينه، ووهت الأجساد تحت حكم وأد الشرع وقصم الظهر؟⁽³⁾. فلا صلاة للعبيد تقام. وغياب إمام الصلاة جعل الشعب بلا إمام. فالإمامة الصغرى شرط الإمامة الكبرى⁽⁴⁾. اليوم، إمام المسلمين درويش يجرح نفسه كما يفعل الشيعة. وليس لقلبه جهتان الحزن والتوحيد. ليس له مقام بين القواد العظام⁽⁵⁾. ورجال الدين ورهبانها لا يستطيعون قيادة سفينة الأمة⁽⁶⁾.

- | | |
|-----|--|
| (1) | ما بين دروثة ولا ملكية
كلتاها تغزو الوجود فهذه
البعض قد ترك الركاب لغيرها
لو أتقن الحادي مقاما واحدا
جناح جبريل، ص418. |
| (2) | برؤيته، لعالمنا إمام
السابق، ص394. |
| (3) | لأرض الهند حال بعد حال
إلينا كيف تطلب أن نصلي
ويحكم مسلم فالنفس باعا
وهت أجسادنا من إصر حكم
السابق، ص430. |
| (4) | أتى هذا كلام ليت شعري
السابق، ص440. |
| (5) | لك ذلك الدرويش جرح نفسه
لا في سمرقند ولا دلهي ولا
السابق، ص420. |
| (6) | رياه أين يلوذ مركبك الذي
السابق، ص435. |

فرق إذا صلحت أمور الذات
بيد الجنود وتلك بالنظرات
والبعض يكتم جرحه ويعاني
لم يرغبوا عنه لحاد ثان
له لا للورى كان التمام
وهذا الكون أمسى في اختلال
برأس الجيش عبد كالمحال
وأذانا وعينا قد أطاعا
فأد الشرع متنا والذراعا
وهذا الشعب كان بلا إمام
حاشا تكون لقلبه جهتان
في أصبهان له مقام ثان
عصفت بطيبة نفسه الرهبان

ليست الحياة داخل الصوامع، ولا أمجاد الحياة أفعال الطقوس. ولا يستطيع صياد السوء القابع في الأرض الذليل فيها أن يصيد العنقاء الطائر في السماء. تتطلب الحياة الشجاعة، طيراً في السماء أو غوصاً في البحار. وجود الإمام والدرويش داخل الصوامع وجود يُرثى له. ولا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي. وإن غاب الذكر عن الفؤاد حضر ذكر الأجنبي. في غياب الموروث النافع يأتي الوافد المبهر⁽¹⁾. طقوس المساجد اليوم ظلم، وانتهاك لحرمة الساجدين. وسلوك الكنائس سوق للرهبان والقساوسة⁽²⁾.

فقد الإمام معنى الخشوع. وتنقصه الهواجس بالقيام. فكيف يرضى المسلم بهذا الخنوع وتلك الصلاة، ذاك الإمام؟⁽³⁾. الشيوخ وأرباب الكنيسة أجدر بالثناء. جهودهم حصاد. شكوك وظنون جرت في دماهم. ولا يحتاج الإنسان إلى مثل هذا الوسيط. وبالاعتماد على نفسه يتقرب إليه كل العبيد والأسياد، أبناء الأرض وأبناء السماء⁽⁴⁾. وقد صرخ الشاعر لسمع شيخ الحرم، ولكنه حذره من البوح بشيء يصل إلى كل الأمم. لم يقل مرة ﴿أرني﴾ كموسى ليعرف السر. ألح موسى.

- (1) لست أخفيك أنني لم يرق لي
لا يصيد العنقاء صياد سوء
طرت أم غصت في سماء وبحر
ليس يدعو إلى الرثاء وجود
وسوء، فلا تقل عربي
سترى الذكر أجنبياً إذا لم
السابق، ص 442.
- (2) ما طقوس المساجد اليوم؟ ظلم
ما سلوك الكنائس اليوم؟ سوق
السابق، ص 465.
- (3) أمامك يفقد معنى الخشوع
أمثلك يرضى بهذا الخنوع
السابق، ص 427.
- (4) شيوخ القوم أجدر بالثناء
حصاد جهودهم ظلمات شك
بنفسك ثق تجد نغفور عبداً
السابق، ص 452.
- ذلك العيش في طقوس الصوامع
ملئت نفسه بذل المطامع
أم تراجعت عنهما وجبت
كالوجود الذي تعانيه أنت
كنت أو لم تكن فليس يفيد
يك للذكر في الفؤاد شهيد
- وانتهاك لحرمة الساجدين
لوجوه الرهبان والسالكين
- وينقض نجواك عز القيام
وتلك الصلاة وذاك الإمام؟
- وأرباب الكنيسة في سواء
جرت في قلبهم مجرى الدماء
ويسأل عن رضاك ابن السماء

والشاعر راض باختياره⁽¹⁾. ولسيد الحرم أي لإمام المسجد وشيخ الإسلام قول بلا فكر، ونظر بلا عمل، وإشارة تنقصها الحرارة⁽²⁾.

8 - المصلح والدرويش

ضريح المجدد هادي سبيل. وتراه يتألق في السماء. تواري صاحب الأسرار
كما توارت في جنبات القلوب. والدرويش الحر لا تُذل عمامته لوصمة عار. هو
معلم الأحرار. افتدى الهند من جحيم النار. أما دروشة هذا الزمان فإنها خور
العزائم. بصر الدرويش بغير بصيرة فأصبح منبوذاً، صاحب شطحات مجنونة.
يرفض الفقه وصاحب العمامة. وكلاهما سارا وراء الملوك. الفقيه فقيه السلطان،
والدرويش خادم السلطان⁽³⁾. ولا يشكو الدرويش الأبي من الفقر وشظف العيش،
ولكنه يتعجب. ويسأل الله الذي أرسل الملائكة رسلاً هل ليقيموا سلطة الأوغاد في

- (1) لقد بلغت صرختي أوجها
وحذرتني اليوم من كتمها
أنالِم أقل أرني مرة
فموسى جدير بالحاحه
السابق، ص454.
- (2) لاشك فيما قلته ولا جرم
قول بلا فكر ولا إشارة
السابق، ص447.
- (3) جزّت إلى ضريح مجدد
وعلى التراب من الضريح تألق
لا غرو للأسرار تلمع هاهنا
هذا المكان من الوجود ضريحه
لما وقفت على ضريح مجدد
فشكوت دروشة الزمان له وما
فأجاب: طرفك ليس يبصر قلت: لا
من أين ألتمس البصائر إنني
لا تكثرث منهم بصاحب شطحة
أرني قلنسوة لدرويش لهم
ذهبوا مع الفقهاء خلف ملوكهم
السابق، ص542.
- كذلك أعلن شيخ الحرم
لتسمع ذلك كل الأمم
كموسى لأعرف أسراره
ومثلي جدير بما اختاره
- فقد رأيت اليوم سيد الحرم
وعمل تنقصه الحرارة
- ووقفت ليلي ناديا ونهاري
غبطته في قصر السماء جواري
فهنا تواري صاحب الأسرار
وهنا يقيم معلم الأحرار
دار الحديث عن الزمان الدائر
ألقاه من شوقي وعزمي الخائر
هو مبصر لكن بغير نفوذ
أصبحت في عيني كالمنبوذ
مجنونة ولو ارتدي جلبابي
لم ترض قنزعة العمامة جارا
لم يتركوا لذوي القلوب منارا

ظل السماء؟⁽¹⁾. وكوخ الدرويش أعظم من قصور السلاطين⁽²⁾.

وإذا كان العبد الدرويش نصيب هذه الأرض ففي فقره طريق الكليم⁽³⁾. ينجح سعي الدرويش إذا صان ذاته وجاهر بها⁽⁴⁾. لم تعبأ أعين الدرويش بسُلطان الملوك وأبهة الإسكندر. والتيجان لا قيمة لها إذا ما استجدت نساء الحي⁽⁵⁾. لا يبالي الدرويش عسر الطريق بل يرى أن هذا العسر عون له ونصير. ياليتته على وعي بذلك. فسلحه نور البصيرة⁽⁶⁾.

ذهب الدراويش الذين لا يلقون بالأل للسيوف. وأنزواوا في حرم يتاجر شيخه بوشاح فاطمة ومصحف محمد⁽⁷⁾. لقد قنع النساك بالانزواء في الحرب، في حين أن إقبال هجر القصور. ولم تقو عليه الملوك يوماً ولا النسور. والسر في ذلك أن هذا الشاهين ملك جني يطير فوق القصور فيزورها. وتدمي قلبه رؤية الجالسين في الحرم الشريف⁽⁸⁾. الدراويش يطربون للرئاسة والخزعبلات. وطريقهم غير طريق

- (1) قال درويش أبي يسأل الله تعالى
أنا لا أشكو إليك الفقر والعيش المحالا
لكن اللهم قل لي أنت أرسلت الملائك
ليقيموا سلطة الأوغاد في ظل سمائك
السابق، ص 537.
- (2) بمقر للدراويش اعبرن
وقصورا للسلاطين انظرن
جاويد نامه، ص 299.
- (3) السابق، ص 540.
- (4) وينجح سعيه دهر مثابر
بصون الذات درويش يجاهر
السابق، ص 487.
- (5) أعين الدرويش لم تعبأ
هذه التيجان ما قيمتها
جناح جبريل، ص 444.
- (6) لا يبالي الدرويش عسر طريق
يسأل الله أن تكون بصيرا
السابق، ص 466.
- (7) ذهب الدراويش الذين عهدتهم
وبقيت في حرم يتاجر شيخه
السابق، ص 422.
- (8) بم النساك في الحرم استبدت
بإقبال الذي هجر القصورا

الشاعر، طريق تفتح القلب. من الممكن شراء الغني مثل أبرويز ولكن لا يمكن شراء جراح فرهاد. المادة تباع وتشتري. أما الفؤاد فإنه خارج الملكية وداخل الوجود⁽¹⁾.

يلهون مع السلاطين بمقدرات الأمة، وتتعاون السلطة الدينية والسلطة السياسية على استغلالها. لا فرق بين السبحة والسيف⁽²⁾. يقيم لدى السلطان في العصر السعيد الدرويش. ويغض السلطان عن جهلهم لاستعمالهم للسيطرة على الناس⁽³⁾. وليس عجيباً أن يتبنى الدرويش بعد يقظته شعر إقبال حتى يتعلم ويبحث⁽⁴⁾.

السالك يتضرع. عينه ضعيفة. وقلبه هلوع. يخلو من الحماسة والنضارة والسكينة والدموع. استطاع الدراويش القدماء الوصول إلى أرض الروم والشام. أما دراويش اليوم فقد وضعوا الأمة خلف الأنام⁽⁵⁾. الدراويش قاعد منهدم القوي. فقد

- | | | |
|---|---|-----|
| وقد ملئت عوالمها نسورا
ملوكي لجيني خفيف
ويدمي قلبه الحرم الشريف | ولم تقو الملوك عليه يوما
فما هو سره؟ الشاهين هذا
يطير على القصور فيزديها
السابق، ص452. | = |
| والدراويش دأبهم غير دأبي
أبحث اليوم عن تفتح قلبي
ومحال جراح فرهاد تشتري | الدراويش يطربون لهذا
لست أعنى بمثل هذا فدعني
ممکن يُشتري غني أبرويز
السابق، ص459. | (1) |
| يلهو بها السلطان والدرويش؟
وكلاهما مما تكذب يعيشت | فإلى متى صمتي وحولي أمة
هذا بسببحته وذاك بسيفه
السابق، ص435. | (2) |
| جهول كان ذا الفضل العميم
لدى السلطان درويش عظيم | لقد غضوا وغضوا من حكيم
غني اليوم في عصر سعيد
أرمغان حجاز، ص438. | (3) |
| من بعيد إلى مدارس شعري
واقض في أمرها إذا كنت تدري | ليس سهلا إذا الدراويش حجّت
القضايا دقيقة فاستلمها
السابق، ص442. | (4) |
| عيون ضعاف وقلب هلوع
فأين الحماسة أين النضارة أين السكينة أين الدموع؟
فكانت لنا أرض روم وشام | تضرع حاشية السالكين
نهضنا بأسلوب درويشنا | (5) |

دنياه وأضاع دينه. لقد سمع الدرويش آهات الناس وأنيهم. يظن أنه من رجال الله إلا أنه مرتبط بالطين. له شطحات. يبدو كالبرق بين الناس. ويدعي إجراء المعجزات مثل الكافر الهندي الذي يذبح دونما سيف ولا رمح كمجنون⁽¹⁾.

9 - فلسفة العمل

السبب في كسل الأمة وسكونها وركودها وفتورها وقعودها هو التصوف الدخيل على الإسلام. تصوف غير إسلامي سلب المسلمين ذوق العمل. يخلو التصوف من كل حرق وكد. ويتحجج بشراب «ألسنت» للبطالة، وهي الشهادة الأولى التي قام بها البشر منذ الخلق على وحدانية الله «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا»⁽²⁾. ولا يختلف الصوفي عن الفقيه. فكلاهما ذاهبان. الأول إلى الداخل، والثاني إلى الخارج. الأول في الحقيقة، والثاني في الشريعة. كلاهما هارب من الحياة ومعاركها⁽²⁾. والأفكار دون أعمال تؤدي إلى الموت وليس إلى الحياة⁽³⁾. والعمل جوهر الذات. إذ لا يمكن معرفة الذات عن طريق الحواس الخمس لأنها كامنة فينا. ولا يمكن معرفتها عن طريق العقل. إذن هي أصل الحس والعقل والكون. يشاهد كل شيء ولا يشاهد ذاته لأن الذات ليست موضوعاً بل ذاتاً. هي حقيقة مطلقة وليست وهماً

- | | | |
|---|--|--|
| <p>ولما زهدنا بأسلوبه
السابق، ص 454.</p> | <p>=</p> | <p>ذهبنا دواليك خلف الأنام</p> |
| <p>(1) لا قعدة الصوفي منهدم القوى
ما قول سادتنا الدراويش التي
هو من رجال الله إلا أنه
رجل تنير طريقه شطحاته
ملك أمارات الجنون بوجهه
الكافر الهندي يذبح دونما
السابق، ص 425.</p> | <p>من فقد دنياه وضيعة دينه
سمعت لأهات ابنها وأنيه
سيثير عاصفة النشور بطينه
حي كمثل البرق بين شؤونه
والعبد يفضحه غباء سكونه
سيف ولا رمح فمن لجنونه؟</p> | <p>من فقد دنياه وضيعة دينه
سمعت لأهات ابنها وأنيه
سيثير عاصفة النشور بطينه
حي كمثل البرق بين شؤونه
والعبد يفضحه غباء سكونه
سيف ولا رمح فمن لجنونه؟</p> |
| <p>(2) خلا الصوفي من حُرق وكد
وفرّ إلى ترهبه فقيهه
إذا خشى الرجال وغى حياة
ضرب الكلیم، ص 24.</p> | <p>شراب «ألسنت» معذرة البطالة
يرى في الشرع معترك البسالة
فتلك هي الهزيمة لا محالة</p> | <p>شراب «ألسنت» معذرة البطالة
يرى في الشرع معترك البسالة
فتلك هي الهزيمة لا محالة</p> |
| <p>(3) ونغمة الأفكار دون صوت
السابق، ص 10.</p> | <p>للذة الأعمال حادي الموت</p> | <p>للذة الأعمال حادي الموت</p> |

أو سراًباً أو خداعاً للنظر⁽¹⁾. فلسفة العمل رد فعل على الكسل والعجز واللامبالاة عند المسلمين في عصر إقبال أمام الاستعمار البريطاني والتعصب الهندوسي. وهي أوضاع مازالت سائدة حتى الآن في العدوان الأمريكي البريطاني على العراق، والصهيوني على فلسطين، والأمريكي على أفغانستان، والروسي على الشيشان، والهندي على كشمير، والأسباني على مدينتي سبته ومليليه شمال المغرب⁽²⁾.

الذات عمل وجهاد وحياة كما عبر أبو القاسم الشابي وعلال الفاسي بعد ذلك. وتتلخص في حقائق ثلاث:

أ - الإسلام عمل يحدث ثورة.

ب - الذات ليست قديمة كما هو الحال في الفلسفة الهندوسية بل مخلوقة. وبالعمل تخلق ذاتها كذات مطلقة خالدة وكما قال فشته في الأنا الذي يضع ذاته حين يقاوم اللا أنا من أجل خلق الأنا المطلق⁽³⁾.

ج - نظرية وحدة الوجود وتأويلاتها عند ابن عربي أحدثت أثراً سيئاً عند المسلمين لتطعيمها بعناصر غير إسلامية. أثبتها فلاسفة الهند بالبراهين الفلسفية وشعراء إيران عن طريق التدوين. والنتيجة واحدة وهو الحرمان من «ذوق العمل». في حين أن جوهر الإسلام هو «قوة العمل». لقد نقد الفقهاء مثل ابن تيمية نظرية وحدة الوجود. وحملوها مسؤولية ضعف العالم الإسلامي. كما نقدوا التعاويذ التي كانت جيوش المسلمين تعلقها على الأذرع وهم يحاربون الجيش الروسي أو الغربي. وظل أحمد عرابي في حلقة الذكر ليلة المعركة الحاسمة. والمسلمون الأوائل خططوا للحروب وانتصروا فيها بالعلم والعمل.

الدين بغير قوة يصبح فلسفة. وهو ما أعاد إقبال التأكيد عليه في «ماذا ينبغي أن نعمل يا أمم الشرق؟». وفيه يؤكد على أن «رأي لا تدعمه القوة ليس إلا مكر وسحر وطلسم». وفي «بال جبريل» يصرح بنفس المعنى، «إذا وجد الكليم موسى بلا عصى فلا أساس لعمله». العمل ليس هو عمل المعجزات بل عمل القدرة

(1) سمير عبد الحميد: الأسرار والرموز، ص 12 - 15.

(2) الأسرار والرموز، مقدمة، ص 6.

(3) فشته، فيلسوف المقاومة، ص 181 - 192.

البشرية والإرادة الإنسانية، القائم على حسن التخطيط والتدبر والاختيار⁽¹⁾. يخلق الإنسان القوي البيئة. والضعفاء يتكيفون معها⁽²⁾. والحضارة فكر الرجل القوي⁽³⁾.

10 - الزهد

ليس الزهد الامتناع عن الطعام والشراب واللباس والسكن. إنما الزاهد هو الغريب، العاشق في العقبى⁽⁴⁾. قد يشبه الزاهد المادي الزاهد الروحي، وهو الجاحد⁽⁵⁾. الزهد ليس ابتعاداً عن الناس والبشر بل هو تقوية للإرادة وتحكم في الطين الذي منه خلق الإنسان. أما زهد الصوفية ورضاهم به فهو نتيجة للجبن والخور. يعذبون به. الزهد هو زهد الاقتدار. فلا يقبل إدعاء زهد أو ملك لمن أضع أمجاد تيمورلنك وهو يتراقص في حلقات الذكر⁽⁶⁾.

ليس التجرد هو الجوع والضعف والقوى الخائرة والعوز. هذا التجرد يقضي على البشر. في حين أن هناك تجرداً آخر به يعز البشر ويكرم. وهو التجرد عند الملوك⁽⁷⁾. والمال ليس مطلباً للذات، بل يوجد عندما لا تطلبه⁽⁸⁾.

(1) سمر عبد الحميد: الأسرار والرموز، مقدمة، ص9.

(2) St. Ref., p. 91.

(3) Ibid., p. 93.

(4) إنما الزاهد في الدنيا الغريب ذلك العاشق في العقبى الغريب جاويد نامه، ص265.

(5) ماجن شيخ حكيم زاهد يشبه الزهاد وهو الجاحد السابق، ص267.

(6) الزهد إخضاع هذا الطين والشرر فقل لصوفية بالفقر راضية وما عليك إذا أنكرت مذهبهم فالزهد والملك لا يستحسنان لمن جناح جبريل، ص439.

(7) ليس التجرد أن تقيم على الطوى فمن التجرد ما يطيح بأهله أنا لم أجد عند الملوك تجرداً شابور في صنع الإمارة مسلم السابق، ص543.

(8) المال يوجد حتى حين تفقده فلا تكن وقحا إن رمته طلبيا السابق، ص543.

الزهد من شيم الملوك. والفقر من مظاهر العظمة، وعلامة على المحبة، إيثار الحبيب على العالم كله⁽¹⁾. ولا تهم الأشكال والرسوم الخارجية، فسواء أكان الذي بذى سلطان أو ذي مسكن فالرأس العاري مثل رأس النسور، قادر على أن يطير إلى عنان السماء. وأحياناً تبدو الأمة غطاء بلا رأس، شكلاً بلا مضمون⁽²⁾. وكل زهد لا يأتي من واجد أي لا يرتبط بالوجد فهو مجرد سلوى لفقد أو لعدم⁽³⁾.

الزهد كاذب خادع. يترك القليل لأخذ الكثير. ويتنازل عن العاجل لينال الآجل. فما من زاهد إلا وهو طامع في الملك⁽⁴⁾. زهد الصوفي كاذب. يتركه لأقل إشارة من الحان. والحب قادر على أن يجعله ملكاً بدلاً من التسول على الموائد⁽⁵⁾. إن الصوفي الحنفي يحمل ناراً لا تبالي بريح الشكوك. ملأ الله دربه بمعان. علمت قلبه سلوك الملوك⁽⁶⁾.

11 - الفقر

ليس الفقر موضوعاً نظرياً للفهم بل هو سلوك مشترك بين رواد الطريق. بل

- | | |
|-----|---|
| (1) | والزهد من شيم الملوك فإن تجد زهد الملوك كأبرويز محبة السابق، ص 424 - 425. |
| (2) | إذا كان زيك زي سلطان فغطاؤنا لا رأس يحمله السابق، ص 443. |
| (3) | كل زهد لم يكن من واجد يا أمم الشرق، ص 360. |
| (4) | مع هذا لا أرى من زاهد جناح جبريل، ص 444. |
| (5) | عجبا من الصوفي يترك زهده الحب يجعل حيث مد بساطه السابق، ص 416. |
| (6) | إن هذا الصوفي يحمل نارا ملأ الله دربه بمعان السابق، ص 520. |

ذا الفقر فيه ممن عظيم فتونه ألقى ممالكة إلى شيرينه أو كان زيك زي مسكين فيليق إلا رأس شاهين فهو سلوى لعديم فاقد ماله من طمع في السلطة لأقل بارقة بهذا الحان من طعمة المتسولين ملوكا لا تبالي بريح تلك الشكوك علمت قلبه سلوك الملوك

هي فكرة تجيش في القلب لا يستطيع لها دفعا⁽¹⁾. والفقير نادر الوجود. فإذا وُجد فلينتهز الجميع الفرصة للتعلم منه⁽²⁾.

ليس الفقر فقط تجربة روحية بل تمليه أيضاً آيات الكتاب من أجل السيطرة على الكون وتسخير الكائنات. يرفع المؤمن فوق الشبهات لأنه أحد الصفات القدسية. في حين أن فقر الكفر هدم للفطرة ومجافاة للعمران. لا يتجاوز الكهوف، وليس له موضع بين الصفوف. هو صفر على يسار العدد. فقر المؤمن ليس عزلة عن العالم بل هو نضال في البر والبحر. فقر الكفر صامت كالجماد، في حين أن فقر المؤمن تعمير للوجود. الأول يقضي العمر في ترك البدن بحثاً عن الرشد أو هجرة للوطن⁽³⁾.

أ - الفقر والحرية

الفقر هو التحرر من الطمع، والحرص على مغامرات الدنيا. هو التهرب من أجل الحقيقة، والتحرر من العلائق. فالملكية قيد. الفقر رهبانية الإسلام أي القدرة على التحرر من أهواء النفس ومطامع الدنيا. الفقر تتجلى منه الذات. ينقلها من الفناء إلى البقاء. فإذا ما ضاع الفقر ضاع السلطان⁽⁴⁾. الفقر أساس المهمة. وهو نابع

(1) لم أكن في الفقر ذا فهم دقيق
فكرة جاش بها القلب اضطراباً
يا أمم الشرق، ص 362.

(2) فاغتنم من فاقتي حظاً يسيراً
السابق، ص 362.

(3) فقرنا تمليه آيات الكتاب
فقرنا معناه تسخير الجهات
يرفع المؤمن فوق الشبهات
فقر أهل الكفر هدم للفطر
عيشه بين المرامي والكهوف
لم يكن في الدهر منذ المولد
ليس للمؤمن بالفقر اعتزال
بينما الأول في صمت الجمود
ذاك يطوي العمر في ترك البدن
السابق، ص 360.

(4) إسلامك الموهوم شئى آخر
الفقر عندك كالترهب يظهر =

من الحجاز أي من أصل الإسلام⁽¹⁾. قد يشكو الفقر جور الزمان. ومع ذلك فإنه قادر على فعل المعجز وأن يجعل الصخور كالذرات⁽²⁾. والفقر الحر إذا ناجى القدر أربح الشمس واحتل القمر. أما الفقر المذل فإنه يزول. ويبعد المسلم عن جلاله. هو فقر بدر وحنين. هو زلزال تكبير الحسين⁽³⁾.

ومهما كانت هناك من محاولات لتغيير معاني الفقر، عن المعنى الشائع في الثقافة الشعبية، فسيبقى المعنى التداولي. فالفقر بالمعنى الصوفي هو التجرد من كل شيء إلا الله، وعدم تعليق القلب بشيء سواه. هي علامة على الحرية الباطنية والتحرر من قيود الدنيا.

وفي «على ذكر الإذن بحمل السيف» يشبه إقبال الفقر بالفولاذ، مصراع بيت. التوحيد أحد شقيه، والفقر الشق الآخر. التوحيد يطلق الطاقات، والفقر سيف بيد حر⁽⁴⁾.

- = شتان، فانظر، بين خلوة راهب في الروح والأبدان يبغي جلوة هو صيرفي الكائنات وجوده فأسأله عما ترتئيه أعالم لما أضع المسلمون على المدى لم يبق فيهم من سليمان ولا ضرب الكليم، ص34.
- (1) فإن تك ذا همة فأقدم السابق، ص63.
- (2) فقر تراه شاكيًا باق عليه مسحة ولم يزل ميسرا أن يجعل الصخور السابق، ص123.
- (3) فقرنا الحر إذا ناجى القدر فقرنا العاري تولاه الزوال إنه إيمان بدر وحنين السابق، ص361.
- (4) أيها المسلم تدري اليوم ما هو مصراع من البيت الذي وأرى مصراعه الثاني في السابق، المدخل ص م - ن / 17.
- وشراع فقر في عباب بمخر فنهاية الإيمان ذات تبهر فعن الفناء أو البقاء يخبر أم موج رائحة ولون يزخر؟ ذا الفقر لما ذاع هذا الجواهر سلمان دولة عزة لا تقهر وابتع فقرا أصله حجازي جور الزمان اللحز من اجتداء الكرز للبر فعل المعجز كالذرات غير معجز يربح الشمس ويختل القمر قد نأى المسلم عن هذا الجلال إنه زلزال تكبير الحسين قيمة الفولاذ والعضب الذكّر مضمر فيه من التوحيد سر سيف فقر تحتويه كف حر

الفقر وحده سلاح ماضٍ في الحرب⁽¹⁾. هو روح القرآن⁽²⁾. هو المِسَنّ الذي يحد السيف للمنايا⁽³⁾. الفقر يحرر، والملك يذل. الفقر والملك متعارضان⁽⁴⁾. الفقر هو الحياة والعشق والتحرر⁽⁵⁾. يتجاوز حياة العلم والفن إلى طموح القلب. لا يصبر. يشق طريقه بين الفلسفة المعقدة للحكماء والمعجزات المتتالية للصوفية، تأسياً بمعجزات موسى أمام فرعون وعلى الطور. المسلم هو صاحب الصدر الذي يتنفس، ويتخلى عن كل ما في الحبيب إلى درجة الجنون. إن حماس العشق والفقر الغيور هما اللذان يحميان الأمة من الذل واليأس. يصبح الفقر بالعزة كمالاً. يعزز العالم بلا سلاح. وهو علامة على الفضل الإلهي⁽⁶⁾.

الفقير الغيور، والفقير الصالح، والفقير المؤمن، كلها أشكال مختلفة للمسلم

- | | |
|--|--|
| (1) الفقر يمضي بلا سلاح
وكل ضرب له سيد
حماسه قص كل عصر
يا غيرة الفقر أنجدينا
السابق، ص ن / 18. | في حومة الحرب كالرجوم
قصة فرعون والكليم
قصة فرعون والكليم
واهدي إلى نهجك القويم |
| (2) تعلم فألف مقام وثمان
السابق، ص ن. | لفقر بدا فيه روح القرآن |
| (3) يمر عليك من فقر مسنا
السابق، ص ن. | فيطبع منك سيفاً للمنايا |
| (4) أي ملك مقام فقر، ولكن
السابق، ص ن. | تؤثر الذل مذعنا، ما احتبالي |
| (5) متاعك في الحياة فنون علم
وما عندي متاع غير قلب
لأهل الفكر معجزة تجلت
وأهل الذكر شادوا معجزات
أقول لمسلم: ما فيك صدر
ومزقت الجيوب وأنت خال
أقل القول وافتح عين قلب
وما أن ذل قوم قد أعدوا
السابق، ص ن / 34. | تظل الدهر منها في حبور
طموح ما أراه بالصبور
بفلسفة معقدة السطور
على موسى وفرعون وطور
لأنفاس بها حر النشور
جنوني لا ألومك في قصور
ولا تك مهذرا عند البصير
حماس العشق والفقر الغيور |
| (6) في غيرة أرى طريق حق
وصاحب الفقر الغيور هذا
إمارة المؤمن فيه سر
السابق، ص 62 - 64. | الفقر بالغيرة في تمام
بلا سلاح في الزمان غاзи
عطية الوهاب هذا الفقر |

الحر. هدف الحر فوق مسرى النجوم. وردة الذي يذكره «لا تخف». هو آمن في سلمه، آمن في حربه، ورأسه على كفه لا في جيبه. عرف الله فلم يرهب سواه. ومن يخشى الله لا يخشى خلقه. لا يرى في البؤس مرارة. ولا يكون عبد سلطان أو إمارة. هو جمل موصول الصيام. يحمل الأثقال. الشوك طعامه. هو نبض في عروق الأمل. يسعى في طريق العمل. ومن علا تكبيره من غير تاج قدمت له التيجان الخراج. النيران من جمره. والأنهار من خمرة. وجنة الورد شذا من سحره. وشعلة المجد سناً من فكره. يرتعش رب السرير في قصره من سهم عريان فقير⁽¹⁾.

وفي تقابل مع الحر ومع أحوال الأمة، مع ما ينبغي أن يكون وما هو كائن فإن الأمة تتعامل مع الدين كخبير ورواية ونقل، في حين أنه عند الحر شهود ونظر. والأمة عند الباب تستجدي الأمانى، وهو سيد في الدار جواد كريم. مقصد الأمة الدير. تبيع المسجد للغير. والحر يسقى من يمين المصطفى كوثراً عذباً يصفو به الورد. تكبير الإله في ضمير الحر. وتقدير الأمم في جيبه⁽²⁾.

(1) فوق مسرى النجم للحر هدف آمن في سلمه في حربه عرف الله فلم يرهب سواه لا يرى قط مع البؤس المرير جمل في البيد موصول الصيام هو نبض في عروق الأمل من علا تكبيره من غير تاج قد ذكت نيراننا من جمره جنة الورد شذا من سحره وترى في قصره رب السرير السابق، ص 363.

(2) شأننا في الدين لا يعدو الخير نحن عند الباب نستجدي الأمانى أصبح الدير لدينا مقصداً وهو يسقى من يمين المصطفى في ضمير الحر تكبير الإله السابق، ص 363.

ب - الفقر والملك

ومن يعيشون في القصور يعرضون الأبدان ولكنهم لا يعرفون إلا الروح⁽¹⁾. بل إن خرقة الزاهد عبء على الفقير. يلقي اليسير حفاظاً على عفة القلب. ويكفي الروض عبيره. وهو قادر كالبحر الغامر جعل الصحراء سبيلاً هادراً. هو في الحرب نشيد من دماء، وفي السلم رسول للإخاء. أهل الحق هم أرباب الوفاء. نذروا أنفسهم في كل وقت حتى يعم الخير على كل الناس⁽²⁾. لقد أنجب القوم الأمراء فمتى ينجبون الفقراء؟⁽³⁾.

وفي وصف شرف النساء الفقر هو الذي يبقى في الذكرى إلى الأبد، فيتحول إلى صورة⁽⁴⁾. الفقير هو الغني. والغني هو الفقير⁽⁵⁾. قد يكون الفقر بمعنى التواضع في مقابل الغرور. وهو معنى غير شائع. فالفقر هو الفقر المادي أو المعنوي⁽⁶⁾.

الفقر هو السلطان الحق. والسلطان الحق هو الفقير. والقرآن جمع بين السلطتين: سلطة البدن وقوة الروح. تتجلى الذات في قهرها. وهو أحد مقامات هذا الزمان. وبتعبير فشته «الأنا تصنع نفسها حين تقاوم». ثم توزن في هذا المقام. توزن قواها، قوة الإيمان وهي في الامتحان. والإنسان في هذا المقام عظيم، ظل

- | | | |
|-----|------------------------------|-----------------------------|
| (1) | قد ضل أهل القصر عن أرواحهم | لم يهتدوا إلا إلى الأبدان |
| | السابق، ص343. | |
| (2) | خرقة الزاهد عبء للفقير | كن عفيف القلب وانعم باليسير |
| | إن تكن بحراً قويا غامرا | فاجعل الصحراء سبيلاً هادرا |
| | أنت في الحرب نشيد من دماء | أنت في السلم رسول للإخاء |
| | إن أهل الحق أرباب الوفاء | ليس سر الحق عنهم في خفاء |
| | نذروا أنفسهم في كل حين | ليعم الخير كل العالمين |
| | السابق، ص345. | |
| (3) | بالقوم، انجبوا كل أمير | فمتى يولد في القوم فقير؟ |
| | السابق، ص361. | |
| (4) | وهي نور الأمل في عبد الصمد | فقرها ذكرى ستبقى للأبد |
| | جاويد نامه، ص286. | |
| (5) | هو ذا «ظاهر غني» أو خير شاعر | الفقير، وغناه منه ظاهر |
| | السابق، ص288. | |
| (6) | من غرور واختيال تشكر | ومن الفقر لدينا تسخر |
| | رسالة الشرق، ص67. | |

الله في الأرض. وهي لا يعني القهر والبغي والتسلط بل العشق والوجد والجمال وإلا لما ساد الأمان في الأرض. الفقر ليس عبثاً في الدنيا، بل هو الذي يجعل الفقير يباري الكواكب، وينعكس عليه سنا الشمس⁽¹⁾. الفقير هو الإنسان. تتمثل فيه مقاصد الفطرة العليا. أودع فيه الخلاق سلطاناً⁽²⁾. الفقير بدنأ هو الأمير روحاً⁽³⁾. في كوخ الفقير وفي قصر الأمير هناك ألم وهناك شفقة. ومن الصعب انحناء ظهر الشاب. يعني الشباب الهمة والذاتية⁽⁴⁾. ويستطيع الفقير أن يحصل على ثروة الكليم وملك داود. ترتعد الصخور من زجاجه. وأفكاره لا نهائية. لا يحدها شيطان⁽⁵⁾.

وإذا كان تاج الإسكندر متاعه فإن الفقر والدروشة تاج العاشق. يبني الرجال بالفقر. والإسكندر يبني مدينة من زجاج⁽⁶⁾. لا يهنأ الإنسان بعيشة الأمراء بل بعيشة الفقراء. وسجل الفقر هو فخر النبي. والفقير سيد الأسماء⁽⁷⁾.

(1) تعلم، فألفُ مقام وشان
إذا انجلت الذات في قهرها
وتوزن في ذا المقام القوي
وإنك في ذا المقام عظيم
وما ذاك ببغي وقهر ولكن
فما يستطيع بقهر وبغي
وأعيك في الدهر حفظ لفقر
وكان على الدين سيما سجود
وكان على الشمس منه سنا
ضرب الكليم، ص 20 - 21.

(2) مقاصد الفطرة العليا يحفظها
يراقب البحر في التمدين يُبطله
السابق، ص 126.

(3) فماذا أجاب الهمام الفقير؟
رسالة الشرق، ص 301.

(4) Persian Psalms, p. 123.

(5) بفقري كان لي مال الكليم
زجاجي منه ترتعد الصخور
زبور العجم، ص 374.

(6) تاج إسكندر الشهير متاع
أنا أبني الرجال بالفقر هذا
جناح جبريل، ص 532.

(7) أنا عيشة الأمراء لم أبه لها

الفقير هو الذي يتعد عن السلطان⁽¹⁾. للسلطان الملك، وللفقير الروح. يحكم السلطان العالم. والعالم كله في ضمير الفقير⁽²⁾. يبدو الفقير أميراً لأنه نال نصيبه من الغنى⁽³⁾. السلطان هو الفقر. والفقير هو السلطان⁽⁴⁾. الفقير هو الأمير، وليس الخفير⁽⁵⁾. الفقير هو الذي يأخذ الخراج من الملوك. فلماذا تمجد العروش والتيجان؟⁽⁶⁾. وإن صان الفقير ذاته فملك العالم له⁽⁷⁾. والفقير الذي يوقظ القلوب لم يعد يوجد في هذه الأمة⁽⁸⁾.

ج - الفقر الغيور

إن الذات التي تقوم على الفقر الغيور تصبح ملك البشر الفقير. هو الذي يقود الشعوب إلى سدة الملك⁽⁹⁾. والفقير الحيدري هو الذي يتأسى بعلي بن أبي

=	فادخل سجل الفقر باسمك إنه	فخر النبي وسيد الأسماء
	السابق، ص 533.	
(1)	عرفت الفقر عن سلفي قديما	عن السلطان إحجامي، تأمل
	أرمغان حجاز، ص 452.	
(2)	لك السلطان لكني فقير	لأرض الروح والمعنى أمير
	ودنيا «لا إله» بدت تأمل	حواها كلها مني ضمير
	السابق، ص 454.	
(3)	أمير فيه قد يبدو فقيرا	فقير من غني نال النصيبا
	السابق، ص 463.	
(4)	وأدي القول عن عمر فقولي	كن السلطان يعرف بالفقير
	السابق، ص 466.	
(5)	عن الرومي خذ سر الفقير	يشير بفقره حد الأمير
	وفقر ذاك لكن منه فاحذر	مقاما نلت يدني من خفير
	السابق، ص 466.	
(6)	فقراء، حاكم يبغي الخراجا	قل لماذا مجدوا عرشا وتاجا؟
	رسالة الشرق، ص 292.	
(7)	فقير إن يصن بالفقر ذاتا	فملك العالمين لذا الفقير
	السابق، ص 497.	
(8)	السابق، ص 535.	
(9)	وما فلک جائر في السير	وماذا ذكاء وماذا القمر؟
	أرى ركبها جاهدا في المسير	وأقعدھا طول هذا السفر
	سکندر زمر کالرعء حيناً	وعندک یا موت صدق الخبر
		=

طالب، فتى جميل الطلعة طاهر القلب، في السلم ظبي وفي الحرب أسد. ناره تحرق كل شيء. ويكفي الغاب مجرد شرار. أوتي الأبهة والملك. تاجه حسر الرأس عنه دون ارتياب⁽¹⁾.

وعلم الفقر لسالك ليس صعبا. عرفه البعض فحدث لهم الهدى أي صحوة الضمير. ولا يكون الفولاذ جوهر سيف إن لم يكن في اليد التي تمسك به قوة الفقر. إن قهر الإله فقر ذليل، ولكن سبيل السلطان فقر غيور⁽²⁾. يتطلب الفقر الغيور الحفاظ على الإيمان الذي يدعو إلى الاطمئنان في مقابل غياب الجاه والمال. فرأس مال الفقير الصدق والإخلاص والوجد والحرقة والتفاني وليس الحلبي والمظاهر والثوب الموشى والذهب الأصفر⁽³⁾.

الفقر المادي أحد نتائج اضمحلال المسلمين. أما الفقر المعنوي فهو عزة بالنفس. يؤدي إلى مالا يؤدي إليه الغنى. يعطي النفس شجاعة أديبة، وقدرة على

= وعائت بدهلي بدا نادر
وتبقى الجبال وأفغانها
تُذَل الحوائج صيد الرجال
إن الذات أيدها فقرها
قوام الشعوب بحُرّ فقير
ضرب الكلبي، ص116.

(1) سواد عيون عترته علي
يُرى في السلم ظبيا ذا جمال
به نار تُحرق كل شيء
حباه الله أبهة وملكها
سبيل التاج حسر الرأس عنه
السابق، ص120.

(2) علم فقر لسالك غير صعب
لا يكون الفولاذ جوهر سيف
إن قهر الإله فقر ذليل
السابق، ص123.

(3) إن أردت الفقر الغيور فلا تفقد مع العدم ثروة الإيمان
فمن الحال لا من الجاه والمال دوام الرضا والاطمئنان
رأس مال الأحرار صدق وإخلاص ووجد وحرقة وتفان
ليس في الحلبي والمظاهر والثوب الموشى والأصفر الرنان
يا أمم الشرق، ص350.

الجهر بالحق لأنه لا يخشى أن يفقد شيئاً. وقد يكون الصعلوك أغني من الملك⁽¹⁾.
الفقر الغيور هو إثبات الذات، وليس ثوب الفقراء الدراويش أو خلعة الإنجليز⁽²⁾.

وفي قصيدة طويلة بعنوان «فقر الصالحين» وهو ما سماه من قبل «الفقر الغيور» يكشف للناس معنى الفقر الغني الأرفع. هو طريق العارفين، وارتواء القلب من عين اليقين. عزيز في غناه. يدع في الحياة. ويهتدي بالتوحيد. صداه يرفع الكون. ويدرك أنه ليس في الكون إله غير الله. حرر خبير بأكل خبز الشعير. يخشع لله. ويخشع الأمير له. حاله الرضى والذوق والشوق. يصفو به العيش. وهو ميراث النبوة، وهدي القرآن⁽³⁾. ويُفتدى أهل الفقر عن طيب خاطر. ولا تُنسى النعمة الرحمن⁽⁴⁾.

ما لا يُيسره الغني
بالشجاعة ديدنا
من المملوك تصوّنا
وقد وصفت المؤمنا
من قلّة المال اثنتي
لي جوهرٌ فيه سنا
لا بالخزائن والقنى

وتراب الآباء هذي الصخور
فيك منذ الأزال تأوي الضُكور
مأوك النور، والتراب العبير
ألحفظ الأبدان روعي أبير
إيه فقري الغيور ماذا تشير

ما هو الفقر الغني الأرفع
وارتواء القلب من عين اليقين
هامة الجوزاء من أدنى خطاه
ويري التوحيد نبراس هدا
ليس غير الله في الكون إله
لم يكن ثم سوى خبز الشعير
وإليه خاشعا يسعى الأمير
ثم تسليم لما الله قضى
فهو ميراث النبي المصطفى
دائم الإسعاد موصول النعيم

ويل من بالنعمة الرحمن ينسى

(1) فالفقر صاح ميسر
شبان قومي لو تحلوا
لم تُلف صعلكتي أقل
الأمر ليس كما زعمت
فزعمت أن طماحه
إن كان في الدنيا بدا
فمن التصعلك قد بدا
ضرب الكلیم، ص11.

(2) يا جبالي أياك عنك المسير
لا زهور ولا صدى عندليب
جنتي فيك مخرم وشعاب
لن يكون الشاهين عبد بُغاث
خلعة الإنكليز أم سُحق ثوب
السابق، ص116.

(3) يا عبيد الماء والطين اسمعوا
هو عرفان طريق العارفين
ذلك الفقر عزيز في غناه
يحكم الإبداع في صنع الحياة
يرعرش الكون إذا دوى صداه
خيبر حررها ذاك الفقير
خاشع لله ذنيك القدير
حاله ذوق وشوق ورضا
يا له كنزا به العيش صفا
في هدى القرآن والذكر الحكيم
يا أمم الشرق، ص358.

(4) أهل فقر من فديت، طبت نفسا
جاويد نامه، ص333.

ذلك الفقير في رقعته يسع العالم كله في وجدانه. هو صامت لا يطيل الكلام. وبصمته يربّي الأمم. له من طاقة الروح ما يساعد الخامل على الطيران. حوّل العصفور نسرا. ببناء الحق يحيي المدن. وبصدق العزم يبني الأوطان. كانت دولته فوق الحصار. يخشاها ألف سرير للسلطين وللأباطرة والقيصرة. لا يرض العيش إلا في مقام الشاهين. لا يبالي أن يجهر بالحق في وجه الملوك. يتلاشي الحجر في ميزانه. ويخاف البحر من طوفانه. صوته في الشعب يشعل اللهب. وتخاف النار منه الحطب. ولا تخشى الأمة من مغير. ولديها ذلك الفقير. تغني الأمة بغناه. وترجو برجائه. تكشف عن نفسها في مرآته. وتستمد الحكمة من آياته. تكتسب منه صفات الصادقين. وتفز منه بسطان مبین. تتجلي فيه حكمة الدين، وتظهر في قوته ورفضه للذل⁽¹⁾.

بيدي المسلم فقره. ويصعد منه كما تصعد زفرة النار⁽²⁾. ويضيق الفقير بالألم المقيم وبالابتعاد عن دين الحق والأصل الكريم⁽³⁾. الفقير على ما يبدو عليه قريب

يسع العالم في مهجته وهو بالصمت يربي أمما يمنح الخامل ذوق الطيران فبدا للأرض تفسير السماء وبصدق العزم يبني وطنا كان يخشى بأسه ألف سرير يستوي الشاهين فيه والحمام أن يقول الحق في وجه الملوك ويخاف البحر من طوفانه وتخاف النار منه الحطب ولديها مثل ذيك الفقير وعلى أشواقه نرجو المنى وانشد الحكمة من آياته وتفز منه بسطان مبین حين يبدي الفقر عزا ودلالا في تسامي الفقر عن ذلك الحياة

(1) ذلك المسكين في رقعته صامت ليس يطيل الكلام وله من طاقة الروح جنان حول العصفور نسرا في الفضاء ببناء الحق يحيي مدنا مسلم دولته فوق الحصار ليس يرضى العيش إلا في مقام لا يبالي من له هذا السلوك يتلاشي الجمر في نيرانه صوته في الشعب يذكي لها لا ترى الأمة تخشى من مغير نحن باستغنائه نلقى الغنى فامتحن وجهك في مرآته تكتسب منه مزايا الصادقين تتجلي حكمة الدين جمالا قوة الدين وتشبيد علاه يا أمم الشرق، ص 359.

يُصعد مثل حر النار زفرة

(2) ويبيدي المسلم المحبوب فقره أرمغان حجاز، ص 439.

بدين الحق ذو الأصل الكريم

(3) فقير ضاق بالألم المقيم السابق، ص 439.

من الحق والثورة⁽¹⁾. وهو قادر على العطاء، وإثارة الروح، والتسامي والنمو⁽²⁾.
 الفقير الحق يصلي ركعة لله. يذل بها الطغاة والبغاة. والنار لاتخمد بصدده. وتتولى
 إلى عتبات الظالمين⁽³⁾.

نشر الفقير واكتوى بنار النشر دون نار الضمير⁽⁴⁾. ورجاء المسلم أن يكون
 فقيراً، وأن يحول هشيمه إلى القلب⁽⁵⁾. ونظراً لأن المسلم ابن الصحراء رحالة
 وكان الفقر له دليلاً فإن أصبح فقراً غيوراً كان دليلاً للكون كله⁽⁶⁾. الحذر إذن من
 الفقر والتصوف الذي علم المسلم الذل والخضوع⁽⁷⁾.

د - القلندر

«القلندر» عند إقبال ليس هو الدرويش كث اللحية، فقير الحال، رث
 الثياب، أشعث الرأس، بدعوى الاتصال بالله. بل هو المتوحد الفرد، المتجرد⁽⁸⁾.
 القلندر هو الحر الذي لا يركن إلى سكونه أو تقيده رغبة أو رهبة. هي النفس
 القوية المجاهدة في الحياة وفي الممات. فالذات ليس مكانها سكون القبر بل ساحة

- | | | |
|-----|---|---|
| (1) | أنله الحق، مسكين أسير
السابق، ص440. | فقير وهو في قلق يثور |
| (2) | بفقر كنت للصدى تعطي
السابق، ص443. | أنر روحا تسامى أو تطور |
| (3) | فقير ركعة لله صلى
وتلك النار إن خمدت بصدر
السابق، ص443. | طغاة أو بغاة من أذلا
إلى عتبات من ظلموا تولى |
| (4) | وتشريد ونار للفقير
السابق، ص445. | من الحرقات هب نار الضمير |
| (5) | فقير فلتحقق لي رجائي
السابق، ص447. | هشيمي اجعله قلبا في الفضاء |
| (6) | وللركبان من عرب دليل
وهذا الفقر إن أمسى غيورا
السابق، ص470. | فمحنة ربهم فقر طويل
ترجف كوننا وهو الدليل |
| (7) | السابق، ص532. | |
| (8) | لا يجد القلندري راحة
سكينة الأفلاك في الضريح لا
ضرب الكلیم، المدخل ص ع/ 26. | وإن ثوي بقبره تحت الثرى
فساحة الأفلاك أو طول السرى |

الأفلاك وسرى النجوم. القلندر هو صاحب الهمة المتولدة عن الإيمان الذي تحول لديه إلى طاقة وحركة وقوة وفعل. إذا طفى اليم فلا يحتاج إلى ملاح وسفن. قدرته تكبيره. وقوته آذانه. يحاسب الأفلاك. يقهر الأيام⁽¹⁾. ويصدر إقبال القسم الأول من «زبور العجم» بتوحيد نفسه مع «القلندر»⁽²⁾.

لا يخفى على القلندر فكر عند الشباب أو الشيوخ، علناً أم سراً لأنه يعرف كل شيء عن طريق التجربة والمعاناة والمشاهدة. لا يقع في شرك الألفاظ مثل الحكيم أو الفيلسوف، ولا في شرك الحروف إن كان فقيهاً. يبحث عن الدرر وليس الأصداف في قاع البحار. يبدو عليه الحزن، مع حلقة المجانين دون أن يتخلى عن العقل. لا يرى الشرارة لهيباً مضيئاً. وصدق القلب أغلى من الجواهر. والفلسفة الحققة هي التي تُسطر بدم القلب وإلا فإنها موت أو تبعث على الموت⁽³⁾.

ونظرة القلندر أعز من أبهة الإسكندر وملك دارا ودروشة تنم عن قلب الأسد، وشجاعة علي⁽⁴⁾. القلندر أقوى من الملوك.....

(1) يقول للزمان ذلك الفتى
مالك في معتركي من طاقة
إذا طغى اليم فهيا أقدمن
لقد محا سحرك تكبيرى فهل
امض إلى حيث يسير المؤمن
حذار من قلندر لا يذعن
ما حاجتي ملاحه والسفن
تقوى على جوده يا وهن؟
يحاسب الأفلاك ذا القلندر
وقاهر أيامه لا يُقهر

السابق، ص26.

(2) «مرت دون الباب بحمية القلندر، وأتحدث عما لا يمكن الحديث عنه داخل المنزل» Persian Psalms, P. I

(3) ليس يخفى على القلندر فكر
أنا عندي بكل حالك خير
لا يقيم الحكيم في شرك اللفظ
ليس هم الغواص أصداف بحر
إن في حلقة المجانين عقلا
إن أعلى من الجواهر، معنى
فلسفات ما سطرت بدم القلب
ضرب الكليم، ص27.

(4) أعز من أبهة الإسكندر
دروشة تنم عن قلب ملي
جناح جبريل، ص450.

والسلاطين⁽¹⁾. وهو نادر الوجود، صعب البحث عنه. فلكل شيء علامة مميزة. السيف للجندي. والتاج للملك. وفؤاد القلندر ما علامته؟⁽²⁾. سر حرية القلندر أنه لا يخشى نشر سره⁽³⁾.

وفي قصيدة طويلة بعنوان «المعرفة والتجرد»، يضع إقبال تعارضاً بين العلم والمشاهدة، بين النظر والذوق، بين الفيلسوف والصوفي، ونموذجه القلندر. لا يقوى الزمان على القلندر. فقلبه تحت عرشه مستقر. سره ليس في العلوم، ولكنه تعلم بالتجرد. لا يبغي صقل العقل، ولكن تصفية القلب. هو درب مستقل وطريق متميز، طريق عيسى وموسى، وليس طريق الفيلسوف والفقير. هو سر وبصيرة، والعلم أقاويل الأقدمين. هو سكر بالفضيلة، والعلم قد يؤدي إلى الرذيلة. النفي عند القلندر سيف صقلته الذات. وسيف واحد يفني جيوشاً تخاف وهم الفناء. وإذا كان للإنسان قلب كسرت عيناه مرايا السماء⁽⁴⁾.

ومع ذلك، الصوفي هو القلندر، الفقير الغيور، العزيز الأبى، صاحب الملك والتاج، صاحب الجذب. معه الكليم القادر على سحق الملوك بنظرته. يبغي الصلح والسلم. وهم يبغون الحرب والجور. والصوفي هو القادر مثل الكليم على

- | | |
|-----|---|
| (1) | ما لسنجانر أو لطغرل حظ
السابق، ص457. |
| (2) | ليس للجندي غير شكل سيوف
في عروش وفي جيوش بحثنا
السابق، ص458. |
| (3) | والذي يجعل القلندر حراً
السابق، ص460. |
| (4) | ليس يقوى على القلندر دهر
سره ليس في العلوم ولكنه
هي ترمي لصقل عقل وفكر
هو درب بذاته مستقل
هو عند الصعاب عيسى وموسى
هو سكران بالفضيلة سار
مطلق السكر في الحقيقة حال
نظرة النفي للقلندر سيف
واحد من جنودها الحق يغني
وإذا المرء كان صاحب قلب |
- من عيون القلندر الملكية
ليس للتاج غير لمعة جوهر
ما عثرنا على فؤاد القلندر
أنه لا يخاف للسرا نشرا
قلبه تحت عرشه مستقره
علمه بالتجرد والحق سره
وهو يرمي لصوغ عين وقلب
وهي بحث على مجرد درب
وهي للناس فيلسوف وقاضي
وهي سكرانة بخمر الرذيلة
ليس فيه رذيلة وفضيلة
طبيعته الذات التي يكتفيها
عن جيوش تخاف الفناء
كسرت عينه مرايا السماء

تحطيم الأسوار والتيجان والقضايا على كل أشكال السحر كما فعل الكليم «بسحرة فرعون»⁽¹⁾. الفقر أقوى من سلطان الملوك، فقر القلب وليس فقر البدن⁽²⁾. وأهل الذكر لم يعرفوا الفقر⁽³⁾. الفقر ليس هو العري بل هو الذي يهب الملك⁽⁴⁾. والفقر الغيور هو الفقر العظيم. وهو ملك غني⁽⁵⁾.

12 - المقامات والأحوال

المقامات سَفَرٌ دون طيران حتى يمكن النظر إلى الأرض وحياة الناس. المقام حركة والمُقام ثبات. والبدر لا يرضى بالمقام لأنه حرام. وبهذا المعنى الطيران كحركة متعة. والالتصاق بالعش ضياع. وإذا كان رزق الغراب في القبر فإن رزق الشاهين لدى القمر والشمس. وسر الدين الطعام الحلال. وهو الصدق والتحلي بالجمال⁽⁶⁾.

- | | | |
|---|---|-----|
| عزا، وهذا الملك للإسكندر
الله، لكن ذاك سحر السامري
لكن الملوك بالجيش قتلهم
يبغون بالهيجاء حكم الجائر
قدم، سدّ ذي القرنين حطم
ليس هذا السحر غير المبين، حطم | إن للصوفي عزا ياله
إن للصوفي جذبا من كليم
يقتل الصوفي بالعينين
ذاك يبغي السلم والصلح وهم
فتعال وتقدم، قبضة الصوفي
أخي ما كان لموسى من رسوم
جاويد نامه، ص 155 - 156. | (1) |
| حكم سلطان، فدع ذكر العفاة | كيف فقر الجوع أو فقر العراة
السابق، ص 206. | (2) |
| ما عني بالفقر قط أهل ذكر | إنه قول من الأقوال بكر
السابق، ص 212. | (3) |
| حبذا الفقير إذا مُلكا وهب | دعك من فقر به عري وجب
السابق، ص 276. | (4) |
| وهو بالفقر العظيم ذو العلاء | إنه ملك عظيم بالفناء
السابق، ص 297. | (5) |
| لا تطر إن خطت بالعش النظر
ما المقام عنده غير الحرام
والتزام العش فيها ضيعة
عند شمس رزق شاهين، وبدر
وهو صدق والتخلي للجمال | لذة للسفر غايات السفر
ويدور البدر يحظي بالمقام
أن تطير، للحياة متعة
الغراب رزقه في جوف قبر
إن سر الدين أكل للحلال
السابق، ص 330. | (6) |

يرفض إقبال عديد من المقامات مثل مقام الرضا عند الصوفية. فالاعتراض أولاً. فقد سُئل يوماً عن رضاه عن العالم. فنفي. فطلب منه الله أن يبني عالماً أفضل. ولا يوجد بطل يرضى بالرضى⁽¹⁾. الرضى يعني التسليم⁽²⁾. والتسليم نكوص عن المقاومة.

الصبر هو القبر. ولا يقوم شعب من أعماق قبر وهو في مقام الصبر⁽³⁾. ليس حزن الصديق علاجه بالصبر. ولا حل لغز الموت في الصبر⁽⁴⁾. القلب الصابر حجر. وهناك فرق شاسع بين الصبر والعشق.

والتوكل ثقة المؤمن بالله، عتاد تدفعه إلى العزم لتحقيق مقاصده. تحميه من اليأس. وتنبئ له الطريق الذي يميز به بين الخير والشر. لا تخشى الصعاب. وتحطم الظلم. وتقضي على بنيانه. تدرك الآمال بالفقر الغيور الذي يبعث الأجيال القادمة. هدي الله هو الهدي الكلي. ولا يرجى سواه منه. تنبع قوة الروح التي احتجبت في هذا العصر. هو حب دين الله. ودونه يظل المسلمون صاغرين⁽⁵⁾. والمؤمن رمز

- | | |
|--|---|
| (1) ثم قالوا هذه الدنيا لنا هل ترتضيها؟
ليس في الحانات كفاء بالرضا منا جدير
السابق، ص 295 - 296. | قلت لا، لا أرضيها، قيل هيا أهمن
رسم الأبطال حارب، ومع الساقى امزح |
| (2) رضاك وذلك التسليم مذهب
أرمغان حجاز، ص 470. | وعن نهج لصدق أين تذهب |
| (3) لا يقوم الشعب من أعماق قبر
جاويد نامه، ص 318. | ما له من بعد قبر غير صبر |
| (4) أرمغان حجاز، ص 524 - 525. | فتوكل واعتزم نحو المراد
حيثما هم بأمر حقيقه
لا أرى البائس إلا كافرا
فهو بالخير وبالشر بصير
تاركا ما عثر الظلم خرابا
والجبال الشم قاعا صفصفا
وهو للأجيال بعث ونشور
لم تعد تحفل بالوهم القديم
وبدون الكل لا ترجو سواه
أهل هذا العصر عنها في احتجاب
ولغير الله ذلوا صاغرين |
| (5) ثقة المؤمن بالله عتاد
شيمة المؤمن عزم وثقة
بهما يسمو ويمضي قاهرا
نظرة المؤمن مصباح منير
عزمه الوثاب لا يخشى الصعابا
حوّلت ضربته صم الصفا
يدرك الآمال بالفقر الغيور
حال من نشوتك العزم الصميم
كن مع الكل على هدي الإله
قوة الروح هي السحر العجاب
فلديهم حب غير الله دين
يا أمم الشرق، ص 344. | |

التضحية. يتفاني في السعي إلى الخلود⁽¹⁾.

ويأخذ إقبال مقامات أخرى مثل الإخلاص الذي يمنع من رهبة السلطان⁽²⁾. العدل أيضاً مقام، عدل القوي على الاقتصاد في الفقر⁽³⁾. ويعف الفقير عن لبس المرقع لأن الفقر ليس باللباس بل بالروح⁽⁴⁾.

ويؤول إقبال مقام السكر ويفصل أنواعه. طريق الصوفي سكر الحال. وطريق الفقيه سكر المقال. وطريق إقبال سكر الأعمال. فالحال نفسي خالص. والمقال خارجي خالص. أما العمل فهو الذي يجمع بين الداخل والخارج. السكر الأول بلا يقظة. والسكر الثاني بلا شعر وجمال. والسكر الثالث هو سكر التحقيق الذي يجمع بين الحقيقة والشريعة⁽⁵⁾.

الصوفية هذه الأيام مدعون للإلهام. أطفؤوا جذوة الإرادة في الشعب. وزادوه حيرة وترددوا في الظلام. وأولوا النصوص لخدمة الأغنياء والطغاة كما يفعل فقهاء السلطان. ولا يوجد في منابرههم إلا سلة الكعك أو مائدة الطعام، أجراً على الوعظ. ومنهم من أطال الجدل في العقل والنقل. وأفنوا أعمارهم في المراء. في حين لا تؤخذ الهداية إلا من كلیم (موسى) أو من يد بيضاء (معجزة). فما فائدة إطالة الكلام؟ ولا يطالب صاحب الحق حقه إلا بالسعي وليس بالعطاء⁽⁶⁾.

- | | | |
|-----|---|--|
| (1) | هكذا المؤمن رمز التضحيات
السابق، ص 346. | يتفاني في اقتناء الباقيات |
| (2) | وعلي الإخلاص شدد قبضتك
جاويد نامه، ص 330. | رهبة السلطان جتب شيمتك |
| (3) | أرض عن عدل القوي لا تبتعد
السابق، ص 330. | في غناك بل وفي الفقر اقتصد |
| (4) | فقير عف عن لبس المرقع
أرمغان حجاز، ص 429. | لهذا منه جبريل توجع |
| (5) | في طريق الصوفي سكر الحال
ونشيد الشعر المرجع ميت
بين نوم ويقظة غير صاح
وبنفسى مجاهداً لا أراه!
ضرب الكلیم، ص 25. | وطريق الفقيه سكر المقال
خامد اللحن لم يشب بجمال
بين سُكر الأفكار واللبال
فيه سكر الأعمال لا الأقوال |
| (6) | قد خبرت الدعاة في هذه الأيام والمدعين للإلهام | = |

وكثيراً ما يقوم الإيمان على الغدر والنفاق وبيع الشعب والدين بأبخس الأثمان. فأحرق الدار والحقل. لم يتبق نور في صلاته. وبعد التجلي من كائناته. وكل من يعبد في الدنيا الحطام يعشق المال ويخاف عليه⁽¹⁾. ولا يعرف الصوفي المزيف حقيقة جذب الشعر. ضلوا بخرقهم. والشاعر ينزع خرقته. والصوفي لم ينزع خرقته أبداً. فما أعجب صوفي وملاً يجبران الناس على الرياء!⁽²⁾

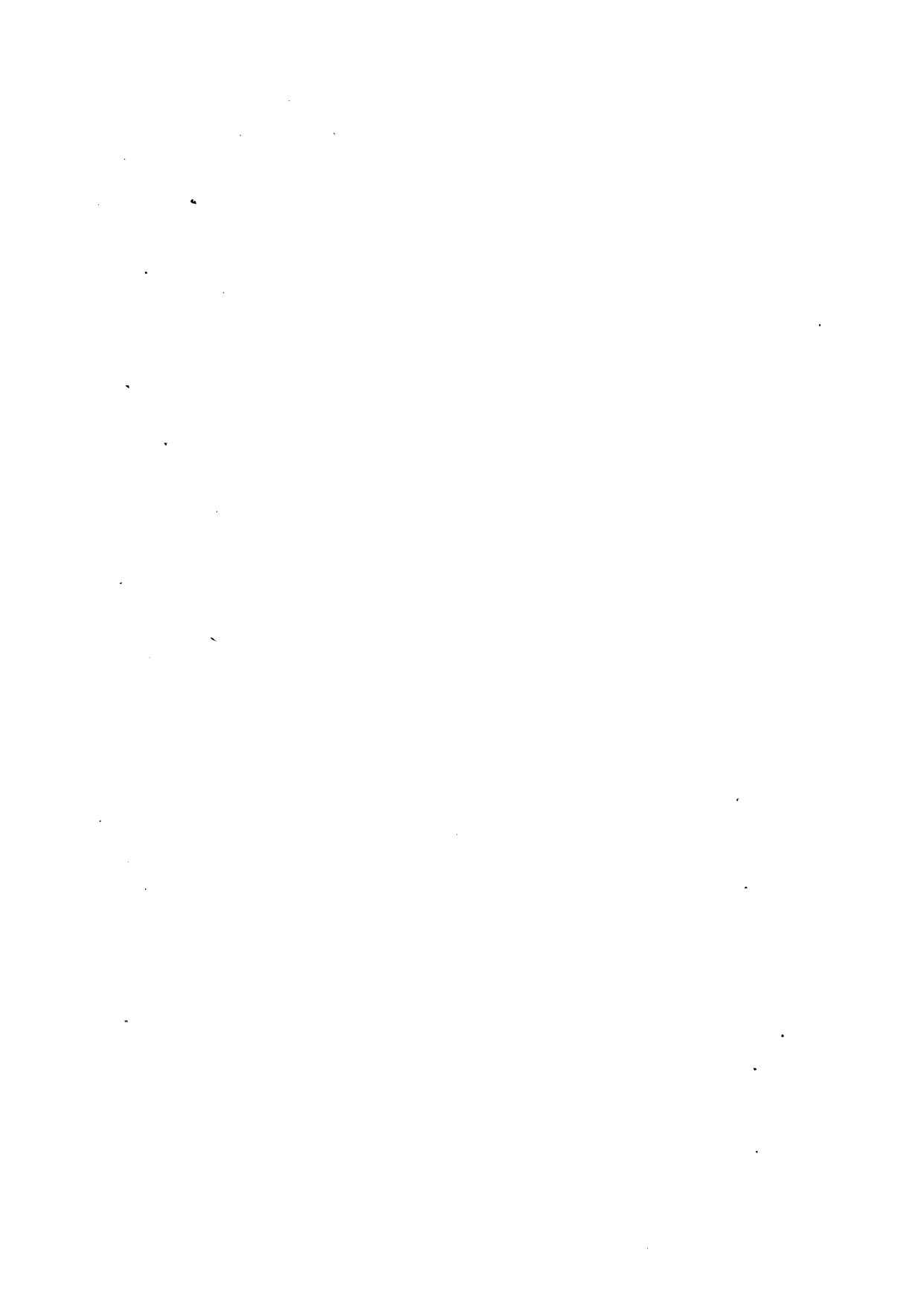
= اطفؤوا جذوة الإرادة في الشعب وزادوه حيرة في الظلام
وأصاغوا التأويل في كل نص حيلة للغنى وجمع الحطام
لا أرى في منابر القوم إلا سلة الكعك أو خوان الطعام
كم أطالوا الجدال في العقل والنقل وأفنوا أعمارهم في المراء
أي باب من الهداية يرجى من كلليم بلا يد بيضاء
أي أمر يفيد من كلام في صباح مررد ومساء
صاحب الحق أنت فاطلبه بالسعي ولا تنتظره بالإعطاء
يا أمم الشرق، ص369.

(1) مؤمن دأب له عقد النطاق مؤمن بالغدر يرضى والنفاق!
وبفلس شعبه والدين باعا أحرق الدار فضاعت والمتاعا
إن نورا ما تبقى في صلاته والتجلي قد نأى عن كائناته
كل من يعبد في الدنيا الحطاما عشق المال كما خاف الحماما
جاويد نامه، ص326.

(2) هل يعرف الصوفي والملا حقيقة جذبتي؟
ضنوا بكل ثيابهم وأنا أمزق جبتي
ما مزقا يوماً ولا حشوا ولا ظرف الرداء
فاعجب لصوفي وملاً يلجنونك للرياء!
جناح جبريل، ص431.

الباب الثالث

الشكوى والأئين



الفصل الأول

الشكوى والجواب

1 - «صلصلة الجرس»

ديوان «صلصلة الجرس» (بانك درا) من أوائل دواوين إقبال بالأوردية وأكثرها رواجاً. يحتوي على قصائد للطفولة والطبيعة والحب، وحث المسلمين على العمل والتضحية من أجل استعادة المعجد القديم. ومن أهمها «النشيد الإسلامي» و«شكوى وجواب شكوى». وضع في «الشكوى» مصائب الإسلام وفي «جواب الشكوى» آمالهم. الأول الحاضر، والثاني المستقبل. الأول السلب، والثاني الإيجاب. الأول ما هو كائن، والثاني ما ينبغي أن يكون. الأول الواقع، والثاني المثال.

والحقيقة أن «الشكوى» ليست موضوعاً لديوان «صلصلة الجرس» وحده، بل تعم كل دواوين إقبال: «جناح جبريل»، «ضرب الكلیم»، «رسالة الخلود»، «أرمغان حجاز»، «يا أمم الشرق...». ويتداخل موضوع «الشكوى والجواب» مع موضوع «الأنين والحنين». فالشكوى أنين، والأنين شكوى. والجواب حنين، والحنين جواب. لذلك صعب التمييز بين الفصلين، الأول «الشكوى والجواب»، والثاني «الأنين والحنين»⁽¹⁾.

(1) صلصلة الجرس، مقدمة عبد الماجد الغوري ص8. نقله إلى العربية نثراً ثم صاغه شعراً الشيخ صاوي شعلان المصري، مؤسسة محمد إقبال الإسلامية، الهند، دار ابن كثير، دمشق، بيروت،

ولا فرق بين الشكوى والنجوى، الشكوى من الحال، والنجوى للمأل. ولا فرق بين التوجه للحساد أو للعواد. فالأئين أئين. تعيش الأمة في ماضيها تحن إليه وكأن ليس لها أمس وغد. وتشارك الطبيعة أئين الأمة. وتصدح الطيور على أغصانها. طالت الشكوى، وامتد السهاد، وانهارت الدموع كالندى على الأغصان. فلماذا الصمت كالزهرة الخرساء التي ليس لها موهبة الإنشاد؟⁽¹⁾

لقد امتلأت قيثاره إقبال بأنات الجوى. وآن الأوان له للتعبير عنه. فتصعد البلابل من مهجته كي تنطق بلسانه. وهذا الإفصاح ليس تعدياً على القناعة والرضا، وكأن الغضب إثم لا يُغتفر. إنما هو الخلق الطبيعي بعد التخصيب من الأشجان. وهي شكوى الدين للديان، شكوى من قلب لم يعش إلا دائم الذكر والحمد له⁽²⁾.

ويصعب الفصل بين الشكوي وجواب الشكوى. ففي كليهما إثارة مجد الماضي، ووصف مآسي الحاضر، والتطلع إلى نهضة المستقبل. فقد وضع إقبال في «جواب شكوى» تقصير المسلمين، وإهمالهم لدينهم، وعدم التفاتهم لأمر الدنيا، وإتقان العمل فيها، تبريراً للجهل والعجز أو للتبعية والتقليد.

يوضح إقبال في بداية القصيدة أنها حديث الروح للروح. يسهل فهمه بلا عناء. لا يحتاج حتى إلى كلمات تحمله. وينقل أئينه إلى رحاب الفضاء. ينطلق من الأرض، ولكن يصل إلى أعالي السماء. ينطلق من لوعة العشق ودموعه. وهي لغة

ونجوم ليلي خُسدي أو عُودي
قطع الزمان طريق أمس عن غدي
تبكي الربى بأنينها المتجدد
ومدامتي كالطل في الغصن الندي
خرساء لم تُرزق براعة منشد

لابد للمكبوت من فيضان
ليبين عنها منطقي ولساني
لكنما هي قصة الأشجان
أشكو مصاب الدين للديان
إلا لمحمد غلاك في الأكوان

(1) شكواي أم نجواي في هذا الدجى
أمسيت في الماضي أعيش كأنما
والطير صادحة على أفنانها
قد طال تسهيدي وطال نشيدها
فإلى متى صحتي كأنى زهرة
ضرب الكلم، ص 93.

(2) قيثارتى ملئت بأنات الجوى
صعدت إلى شفتي بلابل مهجتي
أنا ما تعذبت القارعة والرضا
أشكو وفي فمي التراب وإنما
يشكو بك اللهم قلب لم يعش

السماء. فوصل إلى الأفلاك. وأهاج بكأؤه الملاً الأعلى⁽¹⁾.

استمعت النجوم إلى الشكوى التي وصلت إلى قرب العرش، وجاوبت المجرة. ربما طيف سرى في الفضاء. أدرك البدر أنها من قلب شاك. وتعرف على الصوت الأرضي الصادق الذي كان صاحبه من قبل في جنات عدن لولا خروجه منها للسعي في الأرض والاختبار فيها⁽²⁾. إنه ابن آدم في غروره. تجاوز قدره دون حساب. لقد سجدت له الملائكة الكرام من قبل. وهو مخلوق من طين وماء. تصور أن العلم كيف وكم، والسر ما زال خافياً عنه. ملاً كؤوسه دمعاً وشكوى، ولكن مازال في صوته نغم الرجاء. لقد وصلت الشكوى بالرغم مما فيها من مرأ⁽³⁾.

وبالرغم من ركاكة شعر إقبال متواضعاً إلا أنه قد يبلغ يوماً القلوب. ولا يهم رأي المستمع ولا الشعر الذي يستمع إليه. يكفيه نداء «الله أكبر». يكفيه إذا خفق في كشف النوايا في صلوات وتراتيل الزوايا بعد معرفة النفس بدون فلسفات تضر

(1) كلام الروح للأرواح يسري
هتفتُ به فطار بلا جناح
ومعدنهُ ترابي ولكن
لقد فاضت دموع العشق مني
فحلقتُ في ربا الأفلاك حتى
صلصلة الجرس، ص 101.

(2) تحاورت النجوم وقلن صوت
وجاوبت المجرة عل طيفا
وقال البدر هذا قلب شاك
ولم يعرف سوى رضوان صوتي
ألم أك قبل في جنات عدن
السابق، ص 101.

(3) وقيل هو ابن آدم في غرور
لقد سجدت ملائكة كرام
يظن العلم في كيف وكم
وملاً كؤوسه دمع وشكوى
فيا هذا لقد أبلغت شيئا
السابق، ص 102.

وتدركه القلوب بلا عناء
وشق أنينه صدر الفضاء
جرث في لفظه لغة السماء
حديثا كان علوي النداء
أهاج العالم الأعلى بكائي

بقرب العرش موصول الدعاء
سرى بين الكواكب في خفاء
يواصل شدوه عند المساء
وما أحراه عندي بالوفاء
فأخرجني إلى حين قضائي

تجاوز قدره دون ارعواء
لهذا الخلق من طين وماء
وسر العجز عنه في انطواء
وفي أنغامه صوت الرجاء
وإن أكثرت فيه من المرأ

أكثر مما تنفع. وعمال المناجم على الجانب الآخر أغرب عن اللاهوت، وفي البحث أعاجم⁽¹⁾.

2 - حيلة العاجزين

الشكوى بين الألم واليأس، بين النور والظلام، بين الإمكان والتحقق، بين ما ينبغي أن يكون وما هو كائن. وبين كل شكوى وأخرى ينادي إقبال «أيها الأرباب قد آن الآوان». قد تكون الشكوى حيلة العاجزين، وصوت المتوحدين، وغناء الشعراء، وابتهاال الصوفية⁽²⁾. إن الجنون هو الذي يدفع للشكوى وهو ما لم تقو صحراء الطبيعة على منعه. وهو الذي دفع الذات إلى التعبير عن المخاوف والظنون. والذات قادرة على أن تقضي على سحر إغراء الطبيعة⁽³⁾.

ويحتار إقبال. هو في نار غرور يحترق. يصمت أو يشكو؟ أثر الصمت عندما سأله جبريل: هل يحتاج إلى شيء؟ لأن المسلم إذا احتاج شيئاً ناله بجهدته لأنه ليس حبة شيلم. ويقرر في النهاية الشكوى لأنه لم يعد يستطيع غمض عينيه. فالحسن حوله في كل مكان، والحب يملأ قلبه، والأمل يجدده. والشجاعة لا تنقصه. وفرح بالفقر أي باستقلال الشعور. ولا يُحرم على برعم بالابتسام، ولا على

- | | |
|--|--|
| <p>(1) شعري من عيوب
كلماتي للقلوب
كيفما قال وعبر
عمر نداء (الله أكبر)
بهاتيك الزوايا
دينهم لا يستطيع
نظروا في الله ضاعوا
رعمال مناجم
راب وفي البحث أعاجم</p> | <p>رُغم ما يوجد في ركد
ربما تبلغ يوماً
ما على الشارع لوم
أنا بغنيني عن الشـ
صلوات وتراتيل
معشر الجانب هذا
عرفوا النفس ولما
وعبياد الجانب الآخـ
هم عن اللاهوت أغـ</p> |
| <p>وما في القلب للأمال نور</p> | <p>جناح جبريل، ص532.
(2) وأظلم حظنا نحن الحيارى
أرمغان حجاز، ص443.</p> |
| <p>لما جننت على احتواء جنوني
لم آتھا بمخاوفي وظنوني
بعثته من عطر ومن تلوين</p> | <p>(3) لم تقو صحراء الطبيعة هذه
لولا الجنون أساء في تقديرها
بالذات يمكن أن نكسر سحر ما
جناح جبريل، ص422.</p> |

زهرة بالفتح، ولا على القمر بالضياء، ولا على الشمس بالإشعاع. لم يستطع إقبال أن يكتفم جرحه حتى أمام الله. وشكا له. واشتكى من المسلمين له على الرغم من رفض الناس وتململهم من هذا الصوت الهاتك للأسرار⁽¹⁾. شعر إقبال محير بفارس والعراق. يطربون له ويشجون⁽²⁾.

ويشكو إقبال وحيدا. وأراد البحث عن الاستجابة لشكواه في يثرب. يعبر البيداء أم يطلب لقاء الحبيب؟⁽³⁾. في محفله غريب يشكو. ويخشى ذبوع السر⁽⁴⁾. وبالرغم من تفاؤل إقبال إلا أنه أحيانا يصيبه الاكتئاب من مشكلته التي أعياها حلها⁽⁵⁾.

3 - الشكوى لمن؟

لا يجد إقبال من يشكو له صراحة⁽⁶⁾. هو غريب في الشرق والغرب. لا

- | | | |
|---|--|-----|
| <p>جبريل يسألني فلم أتكلم
أنا مسلم أنا لست حية شيلم
ما عاد يمكن أن أغض عيوني
والحب في صدري يذيع فتوني
بالفقر فرحان الفؤاد بهيجه
من رغبة في الابتسام تهيجه
حتى أمام الله قام وقال
لم يبق للمتجملين جمالا</p> | <p>لما قذفت لنار نمرود أتى
وصمت لما قال: هل لك حاجة؟
رباه! إنني أتعبتني حيرتي
الحسن من حولي يشيع وصاله
سكران مغتبط السجية منتش
يا ليت شعري كيف يحرم برعم
لم يستطع إقبال يكتفم جرحه
من سوف يسكت ذلك الوقح الذي
السابق، ص 421.</p> | (1) |
| <p>طربوا له وتحيروا لشجونه</p> | <p>شعري بفارس والعراق محير
السابق، ص 425.</p> | (2) |
| <p>ويثرب رمتها فاجتزت بيذا
تخير، حيرتي تأبي المزيدا</p> | <p>لقد أنرت أن أشكو وحيدا
أطلب مكتبي أم هان شوقي
أرمغان حجاز، ص 445.</p> | (3) |
| <p>لمن في مشكلي شكوى كروبي؟
شكاتي صنت عن قلبي الكئيب</p> | <p>ولست بمحفلي غير الغريب
ذبوع السر بين القوم أخشي
السابق، ص 448.</p> | (4) |
| <p>حلها أعيا على الجهد صوابي</p> | <p>أنا من مشكلتي طال اكتتابي
يا أمم الشرق، ص 360.</p> | (5) |
| <p>لمن أشكو بقول لي صريح
فؤادي لا يواسيه الحبيب</p> | <p>وما وسع الكلام أسى خفيا
وفي شرق وفي غرب غريب</p> | (6) |

يجد حبيباً لفؤاده. فيشكو همومه إلى نفسه. قد تكون الشكوى للساقى أو للمرشد أو للناس أو للرسول أو للطبيعة أو لله.

يبث إقبال شكواه إلى الساقى كما هو الحال في خمريات عمر الخيام. وهو نديم الشاعر. لقد قام الغفأة بثورة في كل شيء في الحياة. ولا توجد ذرة لم تخل من عاصفة. نُهبت خيرات المسلمين. ولم يعودوا بذى نفع لأحد. لقد أصابتهم العين بحيث أصبح ركبهم هائماً في كل واد. وأصيب أطباء القلوب بفتنة في القلب. لم يعد في الوديان ماء يحيي الشعوب. ولم تعد جذوة الحرم موقدة كما كانت. وغطت الحجب العيون عن رؤية زمزم. والنهر والبستان مازالا في تبريز. وغناء جلال الدين والرومي مازال يصدح. لا يأس مادام الحقل يروي. والماء يهطل. والمسلم بفطرته ومواهبه قادر على إعادة مجد الأقدمين⁽¹⁾.

لا يريد إقبال أن يكذب قلبه لسانه. وهو طرُق القلندر. كما أن الساقى اللبيب هو الذي يحشد الجموع في ألحان. لا تداوي فلسفة الرازي خور القلوب، رغم ما فيها من براعة. والمريد البسيط التقي يبكي من صدقه. ياليت الشيوخ يكونوا مثله، بدلاً من الموت رياء. إن الإنسان، نجل آدم، مازال ضحية الأوهام والشعوذات

فكان لغربتي خدع عجيب

ثورة في كل شيء في الحياة
أيها الساقى خذ الكأس وهات
لم نعد ننفع شيئاً للعباد
جعلته هائماً في كل واد
نحن أبناء أطباء القلوب
قبل أحيينا به روح الشعوب
يوقد الجذوة في صدر الحرم
أن ترى زمزم قرب الملتزم
ي تبريز بستان ونهر
ة رومي منذ دهر
لذا النهر والبستان قومي
ز في حضرة رومي
أيها الساقى إذا الماء هطل
وابلا يا أيها الساقى فطل

= هموم القلب أشكوها لقلبي

السابق، ص 449.

(1) أيها الساقى لقد قام الغفأة
ذرة لم تخل من عاصفة
نهبت خيراتنا أجمعها
أي عين قد أصابت ركبنا
فتنة في القلب قد أودت بنا
أين في ودياننا الماء الذي
لم لا ينطلق الطوق الذي
حجب غطت عيون المؤمنين
رغم أن النهر والبستان ف
لم يزالا لم نقيم جوق
قل لها إن شئت هـ
لو ترى إذ رقصت تبريز
أنا لا يأس من حقل ذوى
فأعد رونقه إن لم يكن

جناح جبريل، ص 412.

القديمة. يلبس حلة النصر على جسد الهزيمة. والشاعر مسؤول عن ذلك أيضا. لا يبرئ نفسه. فشجاعة الاعتراف جوهر الإيمان. ياليت الملا لديه مثل هذه الشجاعة. والإيمان بلا حب جمود. وإذا قابل الحب الكفر انتصر عليه. وقاده إلى طريقه⁽¹⁾.

يعبر إقبال عن الشكوى والجواب في حوار بين «المرشد والمريد»، بين الرومي وإقبال. إقبال يسأل، والرومي يجيب. يسأل إقبال باعتباره إماماً للعاشقين أن العود وأوتاره سجون. تيبس فيه اللحن الخافت. وتحول العصر النشوان إلى مجرد ظنون. ولا تمحو رقصة الأجساد القلب الحزين. كان المبدأ قديماً أن ما تنشؤه الأمة يكون مثل الله ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. والآن ليس في القلب أي حضور، ولا في الوجدان أي يقين. كيف يستوعب هذا الصدر المهين سراً؟ أسر لصديقه شيئاً عن الوحي الأمين، وكيف جرته إلى الأوهام قيثارة طين، رغم ما قام به من أمجاد عبر القرون؟⁽²⁾. وينتهي إقبال الحوار بحديث الرومي أن كل ما في إجاباته وشعره من

بحديث مما يُكذّب قلبي
قال: أحسنت إن ذلك دأبي
ظرف ساق مُنشأ في الخلاعة
رغم ما في كلامه من براءة
يُرفق التوبة النصوح بكاء
للشيوخ التي تموت رياء
إسر وهم وشعوذات قديمة
حُلة النصر فوق شر الهزيمة
فاحتراف الإيمان روح الشجاعة
يدّعي حمل مثل هذي القناعة
مؤمن في الجحود جد عريق
قاده الحب مرغما لطريقي

(1) ألف خوف ولا قيام لسانی
عندما قلت للقلندر هذا
الذي يحشد الجموع بحان
خور القلب لا يداويه رازي
المريد البسيط وهو نقي
أسأل الله نعمة مثل هذي
رب ما زال نجل آدم هذا
صنم النفس تحت إبطيه يضفي
لست في صرختي أبزئ نفسي
وأنا، كل تهنّاتي لملا
مؤمن لا يكون للحب أهلا
وإذا الكفر صادف الحب يوما
السابق، ص 433.

يا إمام العاشقين
ذلك القول المبين
عود والعود سجون
يبس اللحن الدفين
تنتشي منه الظنون
رقصة الأجساد لا تمحو أسى القلب الحزين
مبدأ العالم يا أستاذ ما شاؤوا يكون
ليس في قلب حضور
أو بوجدان يقين =

(2) قال إقبال لرومي
لم يزل يملاً سمعي
وتر العود وقشر الـ
عندما تيبس فيه
عصرنا النشوان هذا
رقصة الأجساد لا تمحو أسى القلب الحزين
مبدأ العالم يا أستاذ ما شاؤوا يكون
ليس في قلب حضور

صياح وصراخ قد يذهب كله أدراج الرياح. وهو ما يتنافى مع تفاؤل إقبال⁽¹⁾. ويرد الرومي بأن هذه الأيام لا فرق بين لحن وطين، مع أن فن الاستماع الحق ملك الفنون⁽²⁾.

يشكو إقبال أنه طوّف الشرق والغرب من أجل العلم. وهو الآن وحيد. الآسى يملأ قلبه لأنه لم يستفد شيئاً ولم يجد علاجاً لدائه أو إجابة لسؤاله. ويرد الرومي بأن العلم الموجود الآن مجرد طب كف أي قراءة المستقبل، مجرد خرافة. لا يعالج شيئاً. وإقبال مريض من لجاج القدماء والفكر القديم. ولو سئلت الأم عن علاج لوليدها لكان نصفه من العقاقير والنصف الآخر من حنان الأم. فالعلاج مادي ومعنوي، جسدي ونفسي⁽³⁾.

يشكو إقبال من الناس حتى يشعروا بما يكابده. فقد كشف أسراره وإن لم يستطع بلوغ درجة سكر السكارى⁽⁴⁾. ولولا أوضاع الأمة لما عانى إقبال مما يعانيه من غصص في الحلق لو عرف سببها لما أطال قصصه. وإذا أراد الاقتراب منها

= كيف يستوعب سرا ذلك الصدر المهين
رد للصديق ما يروى عن الوحي الأمين
كيف جرته إلى الأوهام قيثارة طين
رغم ما أنفقته للمجد من كد القرون
السابق، ص 523.

(1) كل ما في الشعر هذا من صراخ وصياح
ليس ما يدهش أن يذهب أدراج الرياح
السابق، ص 528.

(2) قال رومي أي فرق بين لحن وطنين
إن فن الاستماع الحق سلطان الفنون
كالعصافير وليس كلها تأكل تين
السابق، ص 523.

(3) قال: طوفت لأجل العلم في شرق وغرب
وأنا الآن وحيد والآسى يملأ قلبي
قال: هذا طب كف ليس أهلاً لعلاجك
جعلت منك مريضاً في فراش من لجاجك
اسأل الأم علاجاً من عقاقير الأمان
إن نصف الطب من علم ونصفاً من حنان
السابق، ص 524.

(4) حتى تحس بما أكابده مزقتُ أسراري إلى الأبد =

تفيض أشجانه. يقرؤها الناس في عزلة كالمزامير، دون حزن من شطحاته وأشجانه ورنين صوته في منتصف الليل⁽¹⁾. بحث إقبال طول عمر في بستانه فما وجد إجابة لقصته. في صوته أغنية قد يحار في فهمها جبريل. قد تظل مطوية في القلب أو قد يصدق بها الشعر⁽²⁾.

وفي قصيدة «شكوى ومناجاة» التي كتبها وهو على فراش الموت، يشكو إلى الرسول حال الأمة. مع أنها حطمت الأصنام من قبل. وجددت العالم القديم المنهار⁽³⁾. الرسول هو رأس مال البائسين، ودعاء الحائرين. تحتاج أمته إلى الشجاعة واليقين وإلى التحرر من الخوف من الموت⁽⁴⁾. ولا يسمع أحد النداء⁽⁵⁾.

= وجذور غفلتك التي سكرت لا أستطيع بلوغها بيدي
السابق، ص 434.

(1) ولولا ذاك عانيت ما عانيت من غصصي
ولو أنني ظفرت به رجعت ولم تطل قصصي!
إذا أحببتُ تلأُسه فذلك فيض أشجاني
أقم في عزلة واقراً مزاميري بإيران
ولا يحزنك ما تقرأ من شطحي ومن ميلي
يقال: يُرنُّ صوتُ السر في منتصف الليل
السابق، ص 436.

(2) فيالحسن فارس ووحيه وبالكأسه وبالغصتي
بحث طول العمر في بستانه فما وجدت زينة لقصتي
ترقد في حنجرتي أغنية لو قلتها لحيرت جبريلا
أحرص أن تبقي هنا مطوية هناك سوف أنقع الغليلا
السابق، ص 445.

(3) يا أمم الشرق، ص 397/400 - 401.

(4) يا رأس مال البائسين وبأ منار الحائرين
ادع الإله يهب لأمتك: الشجاعة واليقين
وبعيذهم من شر خوف الموت من قبل الممات
الخوف يفني البائسين وهم على قيد الحياة
السابق، ص 401.

(5) فإذا نصحت فإنني ناديت من لا يسمعون
وإذا نهيت فإنما أسمعت من لا ينتهون
السابق، ص 402.

ومع ذلك، الشكوى ضرورية دون كتمان الأسي⁽¹⁾. يعاني منها القلب. ويئن بها الناس لمن لا يسمع⁽²⁾.

يشكو إقبال إلى الطبيعة. فإلى متى تستمر الشكوى للنجوم؟ كانت نجوماً ثم ضاعت، وتحولت إلى علوم. والإنسان موجود لم يتوقف عن الوجود. وهو أولى بالوجود. والصراع بين الوجود الإنساني والوجود العام جمود. ما دام الوجود الإنساني صاعقة فإنه قادر على جوب الصحراء، وتسلق الجبال. ولا يستحق العشب والقش لباس اهتمام الإنسان. الكون ميزان عند الشجاع الصلب. وللمؤمن الحق المخاطر لما يدعو إليه. لا يري أمامه أي سد منيع. فهو علة الكون كله⁽³⁾. وتريد الطبيعة أن يجدد إقبال أشعاره، خشية من الثرثرة وكثرة الكلام. ويريد إقبال صياغة شعره من الغابات وليس من المدن، من الطبيعة وليس من الصنعة⁽⁴⁾.

لقد غنى إقبال أمام الروض أغنية رشيقة هيجت في الروض شكواه. ولم يكن

(1) هذا يقول ابن عن الشكوي ولا تكتم أساك
ويقول ذا انظر ولا تهمس بحرف عن جواك
السابق، ص 405.

(2) كم ذا يعاني القلب من نار اللواعج والشجون
ويئن مثل الناي بالشكوى لمن لا يعلمون
السابق، ص 407.

(3) حتى متى يا طينتي تتوسلين إلى النجوم
كانت نجوماً ثم ضاعت خلف أوهام العلوم
إما أكف أنا وإما أن تكف عن الوجود
هذا الصراع البارد الواهي طريق للوجود
ما دمت صاعقة فني الصحراء أعمل والجبال
عشب وقش لباس لا يستحقان انفعالي
الكون ميزان يكون لذي الشجاعة والجلاد
للمؤمن الحق المخاطر بالحياة لما ينادي
ما مؤمنا من لم يكن للكون علته جميعا
جناح جبريل، ص 431.

(4) ويحثني العصفور في البستان، يرغب أن أجدد في النشيد
من هذه الغابات قام الحسن يبدأ رقصته
في هذه الغابات لا في المدن نفهم قصته
السابق، ص 429.

إقبال كالزهر رهن الريح إن شاء مزقه وإن شاء أبقاه. ومع ذلك يسير ومعه جنونه. ولا يمزق ثوبه إلا حماه وحرارته⁽¹⁾.

لم يشك إقبال إلى الله، ولكن إسرافيل هو الذي اشتكى له من شكوى إقبال الذي يريد أن يغير العالم المتمرد. والشكوى الحق من إحرام أهل الصين داخل سورها، ورقود أهل الحجاز بجوار مرقد محمد. شكوى إسرافيل من أجل إدخال المسلمين في العالم، وليس عزلهم عنه. فالملائكة راضية، ولكن الشاعر غاضب. عذر الملاك ليس في الإمكان أبدع مما كان. وعند الإنسان في الإمكان أبدع مما كان. وتلك رسالة الإنسان⁽²⁾.

4 - موضوع الشكوى: العصر الحاضر

الأحوال الحاضرة تبعث على البؤس وحزن قلب جبريل. أصبحت الدنيا في أيدي اللثام، والأحرار في مقام الأسر⁽³⁾. وبالرغم من سنا الإصباح وأصوات الطيور، وبالرغم من نمو الخمائل على الربى يجاوبها الغدير إلا أن نوم المسلمين ثقيل. لم يدركوا نور الصباح. بل إن رمضان لديهم أصبح قيئاً دون تحرر من الأهواء وتقوية للعزائم. ولو كانت هناك مزايا للعصر الحاضر إلا أن الضمير غائب⁽⁴⁾. غاب فيه الوفاء، ونال الظالمون العهد. وإذا ضاع الإيمان فلا أمان، ولا

(1) إقبال غنى أمام الروض أغنية ما كنت كالزهر رهن الريح عالمه أمشي ويمشي جنوني في الطريق معي السابق، ص 509.

(2) لما اشتكى لله إسرافيل من هذا الفتى قبل الأوان يريد أن فأجابه صوت: أليس أشد من إحرام أهل الصين داخل سدها السابق، ص 422 - 423.

(3) كهذا العصر عصرا ما رأينا أرى دنياك في أيدي اللثام أرمان حجاز، ص 430.

(4) وكم لاح الصباح سنا وبشرى وكبرت الخمائل في رباها

دنيا إلا لمن يحيي دينه. والحياة بلا دين مصيرها إلى الفناء. والتوحيد ينعكس على الأمة في وحدتها. ولا تنهض إلا بالوحدة. لقد تساندت الكواكب بفعل الجاذبية. لذلك لا يتوحد أفراد الأمة إلا برابطة الأخوة في الدين⁽¹⁾.

أصبح المسلمون اليوم في الديار بلا ديار، وكالطيور بلا وكور. وكل صواعق الدنيا سهام موجهة لمضاربهم. وهم في غرور كاذب. هم فقراء في العلم والمال. يقطعون مع العالم، وينفرون منه. باع الأحفاد مقابر الأجداد. ويعجب تجار الأصنام من تجار القبور⁽²⁾.

نخي الدهر على المسلمين. وتغيرت بهم الليالي. وتفرقت بهم الأيام. وتشعبت وجهاتهم. وتضاربت أمانيتهم. تركوا الدين. ثم عادوا أسرى للهوى والهوان. وأصبح رقي الأمم متروكاً لتقلبات الأزمان، وليس مشروطاً بإرادة الأمة وعزيمتها. وما أبعد الشقة بين أوهام المسلمين ولغوهم وبين السبع المثاني! لقد انقلبت النار إلى رماد. ولم يبق منها إلا ظلاً ضعيفاً من دخان⁽³⁾.

كأن الصبح لم يدركه نور
فليس لكم به عزم صبور
وليس بغائب إلا الضمير

= ونوم صباحكم أبداً ثقیل
وأضحى الصوم في النهار قيذا
تمدّن عصرکم جمع المزایا
صلصلة الجرس، ص 103.

وكيف ينال عهدي الظالمينا؟
ولا دنيا لمن لم يحيي ديننا
فقد جعل الفناء لها قرينا
ولن تبنا العلاء متفريقنا
ولولا الجاذبية ما بقينا

(1) لقد ذهب الوفاء فلا وفاء
إذا الإيمان ضاع فلا أمان
ومن رضي الحياة بغير دين
وفي التوحيد للههم اتحاد
تساندت الكواكب فاستقرت
السابق، ص 103.

وأنتم كالطيور بلا وكور
لبيدكم وأنتم في غرور
وأنتم في القطيعة والنفور؟
لدى الأحفاد مدعاة الظهور
إذا سمعوا بتجار القبور

(2) غدوتم في الديار بلا ديار
وكل صواعق الدنيا سهام
أهذا الفقير في علم وحال
وبيع مقابر الأجداد أضحى
سيعجب تاجروا الأصنام قدما
السابق، ص 103 - 104.

وكيف تفرقت بكم الليالي
ضحايا للهوى أو للهوان
تقرره صلاحية الزمان
بحكمة منزل السبع المثاني

(3) وكيف تغيرت بكم الليالي
تركتم دين أحمد ثم عدتم
رُقي الشعب قد أضحى لديكم
وكيف نُقاس أوهام ولغو

ومع ذلك، بقي في الأمة الفقراء، عبادة تقاة، قياماً ركعاً في المساجد. أبرار دائماً في صوم، ويستغفرون بالأسحار. وهم الستر الذي يوارى العيوب. في حين ضل الأغنياء بالملاهي والريب والتردد. الفقراء كنوز دين الله رب العالمين. هم الذين يحفظون الأمة في التاريخ. وهم البقية الصالحة⁽¹⁾.

أصبح تفكير المسلمين تفكيراً خاملاً. عزيمتهم باردة. وعظهم من غير سحر. لا يخرج من القلب، مقالهم غير مضيء. لديهم فكر، ولكن ليس حرارة الغزالي. صوت الأذان في الأرض خال من حرارة آذان بلال. علت الضمائر في كل حي، ولكن المساجد خالية⁽²⁾.

العصر الحاضر غارق في الجسم. لا يدري شيئاً عن الروح. وإشباع الجسم وفقر الروح يقضيا على الذات⁽³⁾. فهم العصر رقصة الجسم، ولكنه لم يفهم رقصة الروح. رقصة الجسم في التراب، ورقصة الروح في السحاب. رقصة الجسم

- | | | |
|--|------------|--|
| <p>أرى نارا قد انقلبت رمادا
السابق، ص105.</p> | <p>=</p> | <p>سوى ظل مريض من دخان</p> |
| <p>(1) أرى الفقراء عبادة تقاة
هم الأبرار في صوم وفطر
وليس لكم سوى الفقراء ستر
أضلت أغنياءكم الملاهي
وأهل الفقر ما زالوا كنوزا
السابق، ص105.</p> | <p>(1)</p> | <p>قياماً في المساجد راكعينا
وبالأسحار هم يستغفروننا
يوارى عن عيوبكم العيوننا
فهم في ريبهم يترددوننا
لدين الله رب العالمينا</p> |
| <p>(2) أرى التفكير أدركه خمول
وأصبح وعظكم من غير سحر
وعند الناس فلسفة وفكر
وجلجلة الأذان بكل أرض
ضمائركم علت في كل حي
السابق، ص105.</p> | <p>(2)</p> | <p>ولم تبق العزائم في اشتعال
ولا نور يطل من المقال
ولكن أين تلقين الغزالي
ولكن أين صوت من بلال؟
ومسجدكم من العباد خالي</p> |
| <p>(3) أنت في عصر ولكن أي عصر
قحط روح سمر جسم انقصا
رقص جسم منه كانوا يفهمونا
رقصة الجسم تدور بالتراب
رقصة الأرواح علم وهي حكم
جاويد نامه، ص334.</p> | <p>(3)</p> | <p>غارق في الجسم، روحا ليس يدري
رجل الله لذات نكصا
رقصة الروح تناسى الغافلونا
رقصة الروح لها نجم السحاب
والينا الأرض والخضرا تضم</p> |

جهل، ورقصة الروح علم. لقد تخلى العصر عن الروح. ولم يعد به لهب. والعنق لف حوله الحبل لصلبه. ولم يعد للزهر ألوان وريح. فضاقت الصدر بالأمل الجريح⁽¹⁾. وفساد العصر ظاهر. تخجل منه الأفلاك، سرقة وتلاعب في الأسعار، وإضلال الناس، وآثام طول العمر⁽²⁾.

ويشتكي الدين من هذا العصر، ووآد الطغاة حرياته. شامت فيه وجوه الإنسان. وأفسد نقشه حتى الهواء. نظرتة تتم عن كفر وفن ناقص، والحذر منه في تجارة السوق⁽³⁾. تحول الدين إلى عنصرية. أحمّد أبو لهب شعلة المصطفى. وشرد فعل النفي «لا إله» من الفؤاد. فبعثت الأصنام. وأحيا سحر الغرب آلهة أخرى. وشحب «وجه» الله. لقد آن الأوان لتحرير الدين من القيود، والعييد من الأغلال. ولكي تقام الصلاة ترفع الجباه أولاً دون سجود. ولا صلاة بدون نشيد للحرية. لقد توارى الإله، ويشهد الشيطان⁽⁴⁾. وعلى لسان سعيد حلیم باشا يصف إقبال أحوال

- (1) وهذا العصر من روح تخلى
وفي عصر بلا لهب خلقت
وفي عنقي حياتي مثل حبل
وما للزهر ألوان وريحي
أرمغان حجاز، ص449.
- (2) فساد عصرنا أوهى وأثقل
ومن عيناه والأذنان سارق
وكان السعر في الأسواق بخسا
ومن شيطان هذا العصر فاحذر
أبالسة بهذا العصر جافي
السابق، ص492 - 493.
- (3) وعصر منه للدين الشكاة
وجوه فيه للإنسان شامت
ونظرتة بها تصوير كافر
ومن تجاره في السوق فاحذر
السابق، ص475.
- (4) قف تأمل وحدة قد شتتت
حُطمت كأس بأيدي ثلة
كل حر في قيود من حدود
سؤدد الأسلاف برد في دماء

أيهما الأرباب قد آن الأوان

الأمّة الحاضرة بأنها حولت الدين الحق إلى الكفر الصراح. بدا لها كلها بحراً والبحر ظلها. باعت الكتاب. وانتحب جبريل. لم تشق بجولة في السماء لدى أم الكتاب. لم تُبق من دين النبي شيئاً بعد أن أضاعت الكوكب المنير. وهذى ضرير القلب بالنفاق. والأمّة تعمه في الشقاق. تزداد المكاتب. ويكثر المشايخ. وتتسع أسرار الكتاب. ولا يرى الأعمى نور الشمس. ومن كفر بالجهاد فإنه فاسد في سبيل الله. كانت الروح تسعى في الدنيا. والآن يستكين في العالم. وتحول الفكر المبدع وثبات الشعوب إلى أقوال محفوظة، ومذاهب يتصارع عليها الناس. والحق أن يرفع الكليم رأسه، وأن يجهر بالحق، ويصدع بالأمر. فهو يدعو لرسالة محمد. ووصفه للأحوال الحاضرة وصف محمد⁽¹⁾.

= بعد دهر عاد يوم للطرب
لا تفكر في سراج المصطفى
«لا إله» في لسان ناطق
إن سحر الغرب أحيأ أهرمن
أصبح الدين صريعا للنسب
أخمد الشعلة فيه بولهب
عن فؤاد شردت يا للعجب!
وجه يوم الله من ليل شحب

أيها الأرباب قد آن الأوان

دينك القيد تحرر من قيود
وعليه كي نشق في صلاة
إنما النعمة تعلني جذبة
إن خيرا من إله قد تواري
عبدنا قد كان حرا في عبيد
ركعتين نبتغي، ما من سجود
ما الصلاة وهي تخلو من نشيد
ذلك الشيطان يبدو في الشهود

أيها الأرباب قد آن الأوان

جاويد نامه، ص 226 - 227.

(1) إن دين الحق كالكفر الصراح
طلّنا يبدو كبحر عندنا
من أعاجيب لمن باع الكتابا
في السماء لم تشقّه جولته
ما نصيبنا نال من دين النبي
وضرير القلب يهذي في النفاق
مكتب، شيخ، وأسرار الكتاب
دين من يكفر تدبير الجهاد
رجل الله لدنيا الروح كانا
أنت يا من للحياة الفكر منكنا
حفظ قول الله كان دينك
ارفع الرأس، تكلم يا كليم
أنت حقا مستنير من محمد

إن تردى الشيخ في الكفر المباح!
وُرى في البحر هذا طلّنا!
كم تعالی صوت جبريل انتحبا
عنده أم الكتاب قوله
في ظلام لضياح الكوكب
تعمه الأمّة منه في الشقاق
أكمه والشمس كمها لا تحابي
في سبيل الله شيخ في الفساد
قل لمن في عزلة الركن استكانا!
وثبات الشعب قول قيل عنكا
نشره في الناس كان مذهبك
من يدك يصدر الأمر العظيم
وضعنا الحالي فصفه، أين نوجد؟

فسد شباب هذا العصر. وغواهم إبليس. أراد الجمع بين السلطان والفقير. ولم يحصل لا على السلطة ولا على الفقر الغيور⁽¹⁾.

تفرقت وحدة الأمة. وانقضى عهد ﴿ألست﴾. وحطمت الكأس التي كان يسقي منها جبريل. أصبح كل حر في قيد. وانقطعت صلته بالإله. برد سوّد الأسلاف. وارتفعت عمائم الشيوخ. يعادي المسلمون الأقربين. وهم في شقاق دائم. ويزيدون على ذلك النفاق عندما يتسوا على هدم مسجد، كانوا منه دائماً يهربون. بعد ذلك سجدوا لغير الله كالمجوس. فالشكوى من النفس قبل الشكوى من الغير. ومن ثم، أصبح المسلمون غير لائقين بالعلا الإلهي⁽²⁾. وسأل إقبال الإله وهو يسكب الدمع. ألم يحزن للمسلم دفع الكروب؟ وظلت الشكوى بلا إستجابة. وإذا كان له قلب فإنه ليس له حبيب⁽³⁾.

كل شيء حول المسلمين يسلبهم مجدهم وتاريخهم حتى سجاجيد الصلاة. ولا ريب أن ترمقهم أعين الطغاة. فقد بليت أثواب الأمة جميعاً، جبة الشيخ وجلباب الأمير. فماذا يفعل إقبال في وحدته؟ وماذا يستطيع إيمانه الكسير؟⁽⁴⁾.

يسأل إقبال عن المسلم المعاصر الضائع الذي فقد حرارته، وأصبح دمه

- | | |
|--|---|
| (1) جمعنا بين سلطان وفقير
عياناً منه بالباري عياناً
أرمغان حجاز، ص 476. | وما يغني وما يبقي لدهر؟
دم الشيطان في السلطان يجري |
| (2) يعادي المسلمون الأقربينا
تداعى مسجد يوماً ليأسوا
لغير الله عفرنا الجبينا
فأنفسنا شكونا لا سوانا
السابق، ص 444. | وظلوا في شقاق راغبينا
وكانوا منه دوماً هاربيننا!
وكنا كالمجوس مهليلينا
لمثل علاك لسنا لائقينا |
| (3) سألت الله بالدمع السكوب
نداء ظل في سمعي يدوي
السابق، ص 444 - 445. | أحان لمسلم رفع الكروب؟
له قلب، وأقفر من حبيب |
| (4) كل شيء حولنا يسلبنا
أنا لا أستاء أن ترمقنا
بليت أثوابنا أجمعها
ما الذي أفعله في وحدتي
جناح جبريل، ص 539. | مجدنا حتى سجاجيد الصلاة
شزرا أعين أولاد الطغاة
جبة الشيخ وجلباب الأمير
ما الذي يفعل إيماني الكسير؟ |

ثلجا. غاب عطره، وانقشع لونه. ويجيب الرومي بأن الله لا يظلم قوماً ولكن أنفسهم يظلمون. ورجال القلب لا يجرحون قلوباً⁽¹⁾. ولا محل للسؤال عن قصة المسلمين. فقد أسكت الدمع اللسان عن الوصف. لقد مُلأ القلبُ بالسهام. فأصبح كأهوال القيامة. وقد أعيت وصف الواصفين. ولم يبق إلا أن يقدم بنفسه دفيناً في الصدر⁽²⁾.

يسأل إقبال لماذا ضاعت الهند، واختفى منها اللهب والضيء؟ ولماذا رجال القلب فيها تعساء أشقياء؟ ويجيب الرومي بأن الناس لا تعرف روحاً. ولا داعي للبكاء ولمس الجراح والجسد بلا قلب يلفظه الحق والتاريخ. والله رب الأحياء دون الأموات⁽³⁾.

والآن تمر الهند بفترة حرجة. فهناك ثلاث مراحل في تطور المجتمع الهندي بالنسبة لتطور الأفكار الدينية: الأولى مرحلة الشك تجاه الدين التقليدي، والثورة ضد العقيدة. والثاني مرحلة الشعور بالحاجة إلى الدين كقوة اجتماعية ذات قيمة كبيرة والتوفيق بين الدين والعقل. والثالث مرحلة انتهاء هذه المحاولة بالضرورة إلى الخلاف في وجهات النظر مما أدى إلى عواقب وخيمة على وجود هذا المجتمع. وإن لم تكن هذه المحاولة مخلصمة، ولسوء الحظ الكثير منها كذلك. فقد تؤدي

(1) قال: يا شيخ، وهذا المسلم الضائع كونه
دمه أصبح ثلجا عطره غاب ولونه
قال: يا إقبال إن الله لا يظلم شعباً
ورجال القلب لا تجرؤ أن تجرح قلباً
السابق، ص 525.

(2) لا تسل عن قصة القوم بيانا
ألم أعمد في صدري سهامه
هول هذا الحشر أعيا الواصفينا
فليدم في الصدر مطوبيا دفينا
يا أمم الشرق، ص 361.

(3) قال: أين الهند ضاعت
ورجال القلب فيها
قال: يا إقبال، أهذى
أجل الدمعة هذي
يلفظ الحق بعيدا
إن رب الناس حي
لا لهيب لا ضياء
تعساء أشقياء
وكفى اليوم جروحا
جسدا ما فيه قلب
وهو للأحياء رب
جناح جبريل، ص 528.

إلى تفكك الجماعة. ومسلمو الهند الآن في المرحلة الثالثة وربما جزئياً في المرحلة الثانية، وجزئياً في الثالثة. وتبدو هذه الفترة في حياة الجماعة حرجة للغاية. ومن المفرج وجود قوى مختلفة تهدف إلى الحفاظ على التضامن الاجتماعي حتى ولو كانت آثارها وقتية⁽¹⁾.

تمادى الناس اليوم في الغرور. ولم يبالوا بمقاييس الأمور⁽²⁾. ضاع العزم الغيور هذه الأيام من الشعوب والأقوام. بليت أرواحهم. ولم يعد في القبور إلا الأجساد. مزق الكبار أستار الحياء. وقلد الشباب صنع الغانيات. فيحيون أمواتاً. ويموتون أحياء. والحسنة عارية بصيغ مستعار كجنبة البحر. تخلى الشعب عن كفاحه. فرماده ليس تحته شرر. وزاغ بصره. تقوقع على ذاته خشية الموت. فمات وهو حي. والغني الشحيح ينفق ماله على اللهو. جعل حياته في جمع المال. يبيع دينه بدنياه. ويعمل على إرضاء غاصبه. يفكر في الحاضر دون المستقبل، وفي اليوم دون الغد⁽³⁾.

أين أئمة المسلمين وجنودهم البواسل الذين تهاب الحراب عزمهم؟ يصنعون المعالي. ويقولون الصواب. هدفهم التوحيد بلا رياء. ونهجهم اليقين بلا ارتياب. عاشوا للأمة وللأوطان. ولم يكن لهم في الدنيا أي مغانم⁽⁴⁾. خسر المسلمون

St. Ref., pp. 84 - 5.

(1)

لم يبالوا بمقاييس الأمور

(2) أهل دنيانا تمادوا في غرور

يا أمم الشرق، ص 345.

يحكي رمادا ليس تحته شرر
بظلمة في ليلها زاغ البصر
والعيش والمتعة في الدنيا مناه
فاعجب لميت لم يزل قيد الحياة!
وماله في اللهو يغرق السحاب
تشغله قشورها عن اللباب
وفي رضا غاصبه يستشهد
فليس في تاريخ دنياه غد

(3) جمود هذا الشعب عن كفاحه
مساؤه ران على صباحه
كل يعيش في إطار نفسه
يخشي البلى قبل حلول رمه
وذو الغنى في الشح يحكي جلمدا
حياته ضاعت على الغي سدى
يبيع دينه لدنيا غيره
ويومه الحاضر كل عمره

السابق، ص 353.

شهاب شبة عزمهم الحراب
وإن قالوا فقولهم الصواب
ونهجهم اليقين فلا ارتياب

(4) فأين أئمة وجنود صدق
إذا صنعوا فصنعهم المعالي
مرادهم الإله فلا رياء

قادتهم القدماء. ولم يبق لديهم إلا قادة محدثون، تابعون للخارج، قاهرون للداخل. لا يدافعون إلا عن مصالحهم، ولا يحافظون إلا على كراسيهم.

جهاد المؤمنين حياتهم، فالحياة جهاد. وعقائدهم سواعد تنطق بالأعمال التي تثبت الاعتقاد. خوف الموت من الأحياء قبر. وخوف الله من الأحرار زاد لهم. أضاعوا ميراث القدماء. فضاع الرشاد. ولا يكفي الحفاظ على إرث الخير إن لم يتم على تثبيت وحدة الأمة حتى لا تتفرق بها الشيع والمذاهب⁽¹⁾.

فلأي مآثر ولأي قوم ينتسب المسلمون اليوم ليكتسبوا فخار المسلمين؟ وأين هم من مقام الصحابة الأوائل ومن دولة العزة في الدنيا والدين؟ ولماذا لم تريح الأمة كنز الفاتحين بقيمة الفقر الغيور؟ لقد غاص المسلمون في الذنوب وفي الخطايا. بل واغتابوا الصالحين الصادقين الأطهار الذين ستروا عيوب الخلق، وكانوا أبر المتقين⁽²⁾.

لقد احتفى الروم بأريكة قيصر. واحتفى الفرس بسرير كسرى. والمسلمون يطمحون إلى الثريا بلا عزم أو همة أو إرادة أو قلب سليم. أضاعوا الأخوة بينهم. والأقوام أقاموا صروح إخائهم فوق النجوم. طلبوا أزهار الدنيا فلم يفتح منها شذا أو

= لأمتهم وللاوطان عاشوا
كمثل الكأس تُبصرها دهاقا
صلصلة الجرس، ص106.

(1) جهاد المؤمنين لهم حياة
عقائدهم سواعد ناطقات
وخوف الموت للأحياء قبر
أرى ميراثهم أضحى لديكم
وليس لوارث في الخبر حظ
السابق، ص106.

(2) لأي مآثر القوم انتسبتم؟
فأين مقام ذي النورين منكم
وفقر عليّ الأواب هلا
أقمتم في الذنوب وفي الخطايا
وهم ستروا عيوب الخلق فضلا
السابق، ص106.

فليس لهم إلى الدنيا طلاب
وليس لأجلها صنع الشراب

ألا إن الحياة هي الجهاد
وبالأعمال يثبت الاعتقاد
وخوف الله للأحرار زاد
مضاعفا حيث قد ضاع الرشاد
إذا لم يحفظ الإرث اتحاد

لتكتسبوا فخار المسلميننا
ودولة عزه ديننا وديننا
ربحتم فيه كنز الفاتحيننا
وتغتابون حتى الصالحيننا
وإن كانوا أبر المتقيننا

عطر. والبستان كان أمامهم في الدنيا، وجنات النعيم في الآخرة⁽¹⁾. والتاريخ يعيد نفسه. وينشئ من قصص المسلمين الفنون. فقد نزحت الأمم عن الأوكار شوقاً إلى التحليق والإبداع فوق العالمين. وكلما يئس الشباب تقدم الآخرون على خطاهم، فظنوا بالدين الظنون، أنه سبب التأخر، وتركه والتخلي عنه والتحرر منه سبب التقدم. وجد الشباب أنفسهم وسط المذاهب التي قدمتها لهم المدينة الحديثة حائرين بينها. وقدمت لهم الملاهي والمجون وبيوت الدعارة لتحجب عنهم الحرم الأمين⁽²⁾. لقد سئم قيس الهوى في البيد. وممل من الشكاية والعذاب. وما زال يحاول أن يبوح بالعشق حتى يرى ليلى بلا حجاب. يريد رؤية الوجه السافر بلا نقاب. فقد أحرق هذا العصر الحاضر كل غرس من الماضي. وأغلق كل باب. وأفنت صواعقه المغاني. وأفسدت كل شئ في الجبال وفي الهضاب⁽³⁾.

واليوم، هناك نار جديدة لا يكفي فيها حطب سوى المجد القديم. وبإيمان إبراهيم تنبت في النار روضات النعيم. وينبت من دم الشهداء ورد، ذكي العطر قدسي النسيم. ويلمع في سماء الكون نوع من الهضاب أحمر اللون. ولا خوف إذا

(1) أريكة قيصر، وسرير كسرى
وأنتم تطمحنون إلى الثريا
تضيعون الإخاء هم أقاموا
طلبتهم زهرة الدنيا وعدتم
وكان لديهم البستان محضاً
صلصلة الجرس، ص 107.

(2) بعيد الكون قصتهم حديثاً
فكم نزحوا عن الأوكار شوقاً
ويأس شبابكم أو من خطاهم
هي المدنية الحمقاء ألفت
لقد صنعت لهم صنم الملاهي
السابق، ص 107.

(3) لقد سئم قيس الهوى في البيد
وحاول أن يُباح العشق حتي
يريد سفور وجه الحسن لما
فهذا العهد أحرق كل غرس
لقد أفنت صواعقه المغاني
السابق، ص 107.

ما أصبح المرجان، وهو صغار اللآلي، عقوداً للبراعم والأعنان⁽¹⁾.

لقد زالت الرياض من الربى. وبادت النخيل من البوادي. ومع ذلك تنمو نخلة الإسلام بالرغم من العواصف وعوادي الزمن ومجد الأمة في محن. الإسلام باق بقاء الشمس والكواكب السبعة. المسلم هو يوسف في مصر. يرى كنعان كل البلاد. تسير قافلته في كل مكان بلا جرس أو صدى حذاء⁽²⁾.

ضياء الأمة مشرق في كل أرض لأنها غير محدودة في المكان. غزاها التتار، ولكنهم عادوا بالإيمان بعد الغزو. شاءوا التدمير. فحصلوا على الهدى. وتحول عبدة الأصنام إلى حماة للكعبة. فلا خوف أنه في الليل البهيم يشع الضياء، ولا من هبوب العواصف، والشعلة ما زالت مضيئة عبر الزمان⁽³⁾.

5 - جواب الشكوى

مهما حاول الشاعر الإجابة فإن بحر الوجود لا يمكن معرفته. ومهما غنت

(1) هي النار الجديدة ليس يُلقى
خذوا إيمان إبراهيم تنبت
ويذكو من دم الشهداء ورد
ويلمع في سماء الكون لون
فلا تفرغ إذا المرجان أضحى
السابق، ص 108.

(2) فكم زالت رياض من رباهما
ولكن نخلة الإسلام تنمو
ومجدك في حمى الإسلام باق
وانك يوسف في أي مصر
تسير بك القوافل مسرعات
السابق، ص 108.

(3) ضياؤك مشرق في كل أرض
بغت أمم التتار فأدركتها
وأصبح عابدو الأصنام قُذما
فلا تجزع فهذا العصر ليل
ولا تخشى العواصف فيه وانهض
السابق، ص 108 - 109.

لها حطب سوى المجد القديم
لكم في النار روضات النعيم
سني العطر قدسي النسيم
من العناب مخضوب الأديم
عقودا للبراعم والكروم

وكم بادت نخيل في البوادي
على مر العواصف والعوادي
بقاء الشمس والسبع الشداد
يري كنعانه كل البلاد
بلا جرس ولا ترجيع حادي

لأنك غير محدود المكان
من الإيمان عاقبة الأمان
حماة الحجر والركن اليماني
وأنت النجم يشرق كل أن
بشعلتك المضيئة في الزمان

قيثارة الشاعر فإنها لا تستطيع التعبير عن كل ألحان الوتر⁽¹⁾. لا يعرف إقبال ما مصدر إجاباته عن الشكوى. ولا يعرف ما مصيره؟ وإقبال نفسه يتساءل. ويغيب في وجدته وفي تفكيره. والسر تفضحه العيون دون سؤال. وتختلط صرخات الوجد بالدم دون جواب. فيقتل الشاعر دون عقاب⁽²⁾. وربما جاءه كتاب جديد أوصلته له صرخة الليل. يطلب منه التمهّل وإعادة التفكير. فلعل ما يدعو إليه إقبال طريق عسير⁽³⁾. وقد استجاب إقبال. ووهب المسلمين ناراً، ولكنها ذبلت لديهم. ولا لوم على الكأس، ولكن اللوم على من طاف عليهم لخمولهم⁽⁴⁾.

قد يُستجاب للشكوى وقد لا يستجاب لصعوبة وجود خلٍ مثل صعوبة وجود الحبيب. ومع ذلك أشرق الصباح يوماً فغمر الضياء كل شيء. والعصر مليء بالنواهي. ونفذ صبر الروح. ويمر الزمان، والروح لم تخدم بعد. ومن الماء والطين يخرج قلب الإنسان⁽⁵⁾.

الشكوى لا تكون إلا في الظلام وعدم وضوح المعنى أو الطريق. فالواصل

- | | |
|-----|--|
| (1) | بحر الوجود تعالى أن تحيط به
حاشا لقيثارة مهما بذلت لها
جناح جبريل، ص 434. |
| (2) | لم تسألون القوم ما هو مصدر
ما زلت منذ وجدت أشرق سائلا
سري تترجمه سلاطة أعيني
صرخات وجدي في الصباح تلطخت
رباه، أي جريمة قارفتها
السابق، ص 449. |
| (3) | جاء من عندهم كتاب جديد
فإذا فيه: يا مسافر أمسك
ربما كنت ذاهبا من جديد
السابق، ص 450. |
| (4) | وهب المسلمين إقبال نارا
ما على الكأس في الحقيقة لوم
السابق، ص 450. |
| (5) | نحت في الشكوى وما من مستجيب
شاهدت عينايا يوما أشرقا |

آخر الشوق. فالحذر من الشكوى⁽¹⁾. بل إن الشكوى كفر. والشعر لا يكون إلا كفراً. والكفر لا يكون إلا شعراً⁽²⁾.

الشكوى من الذات أمر غريب لأن الذات ليست غريبة. الذات ذات، وليست موضوعاً⁽³⁾. وهي عن الآمال والآلام، عن الأحوال الحاضرة⁽⁴⁾.

قد يكون الجواب في الإصلاح. وقد عارض الجميع الإصلاح الذي ارتآه إقبال. وأجمعوا على إقصائه وإبعاده. ذهبوا مع الصحراء جرياً وراء جنونهم. وبقي إقبال مجنوناً بلا صحراء. ويحمد الله على إسدال أستار الكعبة في وجه صياحه. ويبقى وحيداً بعد أن طافت جراحه حول الحرم. لم يجب الفقهاء بشيء. ولا استطاعت مثل أفلاطون وفلسفته من الحضور والغياب، والسلب والإيجاب وأن ترد بشيء. وقديماً كان رجال الفكر ينبضون جرأة وحمية أوجبتها روح العصر. كان بهم نفس القرآن، وليس «الكشاف» وغيره من كتب التفسير⁽⁵⁾. ويرجو إقبال المسلم الذي يشتكيه بعدم لومه لأن عينه تفضحه. فالصراحة في الشكوى بين المسلمين

أين روح لي تناهي صبرها
كي نرى روحاً وما فيها خمود
قلب إنسان فذا كنز ثمين

إن شكواي السراج في الظلام
ما لشكوى وزفير من أثر

إنه كفر وراء كل شعر

فما عن ذاته كان الغريباً

عن الآمال في حلو ومر

لم يجمعوا إلا على إقصائي
وبقيت مجنوناً بلا صحراء
أستار كعبتنا بوجه صياحي
طافت على الحرم الشريف جراحي
دونى وما حاروا بأي جواب
وغيباه والسلب والإيجاب

قيد هذا قيد من نهى
ويمر الدهر من عمر الوجود
إن نما من ذلك الطين المهيمن

أي معني للطريق والمقام؟
الواصل آخر الشوق، الحذر

ليس ما تبغيه من غير كفر

مشكاة الذات همهم يجافي

وهذا عبدك المسكين سلّه

وقف الجميع يعارضون ندائي
ذهبوا مع الصحراء خلف جنونهم
حمدا لمن رحم العباد فأسدلت
وبقيت وحدي مرة أخرى وقد
فقهاؤنا وقفوا بصوت واحد
لا مثل أفلاطون بين حضوره

رسالة الخلود، ص 139 - 140.

السابق، ص 220.

السابق، ص 261.

أرمغان حجاز، ص 496.

السابق، ص 428.

عتاب أخوي لا يعلمه الناس⁽¹⁾.

قد يكون الجواب في الشعر والخيال والإحساس بالجمال. وإذا كانت قصص الحب متنوعة بالآلاف فكذلك أشعار إقبال وغنائياته. تارة تملأ الحياة وصلاً للبقاء، وتارة تطلب الفراق للفناء⁽²⁾. وإذا أراد الأتراك أن يكونوا أقوى بالشعر، فليقرؤوا بيتاً للشاعر. ولا يكون الضعيف قوياً بمجرد لولا وليت⁽³⁾.

قد يكون البديل هم الشباب والمستقبل ونوعيته بأنه لا فائدة من سجادة العجمي ولا من الأثاث الإنكليزي، لا من الموروث ولا من الوافد. ولا فائدة من ثروة حصل عليها وأنفقها كما يفعل الملوك مما يدعو إلى الرثاء والبكاء. ربما لم يذق غبطة الإيمان أو بأس علي أو رضا سلمان، ولم يرحم شبابه. ولا تقاس سلع الحضارة بالذات. فالثمن غال. وهو الخطأ بعينه. المؤمن الصديق سيد نفسه، ومالك وقته. يرقى عالمه برقي قناعته. تلك مكانة الإنسان في الكون. لو دب روح النسر في قلوب الشباب لم يبحثوا في أصلهم في التراب. ومن ثم فلا داعي لليأس ما دام العلا هو المطلوب. اليأس يميت الفتى. والمؤمن الصديق برهان الإله وسره. فليبعد الشباب نفسه عن اليأس. وعش الشاهين ليس في قصر الملوك بل على قمم الجبال. ودونها يتم اصطياده. لذلك فليبق الشباب بعيداً عن مرمى الصياد⁽⁴⁾.

- | | |
|-----|--|
| = | كانت رجال الفكر تنبض جراً
نفس إذا القرآن ما انتفعت به
جناح جبريل، ص 464 - 465. |
| (1) | أيها المسلم الذي يشتكيني
لا تخف من صراحتي في حديثي
السابق، ص 466. |
| (2) | قصة الحب ألف نقش ولون
تارة أملاً الحياة وصلاً
السابق، ص 465. |
| (3) | قيل إن الأتراك بالشعر أدرى
لا يكون القوي جار ضعيف
السابق، ص 465. |
| (4) | سجداك العجمي هذا والأثاث الإنكليزي
ماذا يفيدك يا عزيزي |

إلا أن هذه الردود لا تعبر عن كل أمانى الشاعر وتطلعاته. ويعبر «النشيد الإسلامي» في أول الديوان عن طموحات المسلمين. ويتضمن ثلاثة وعشرين بيتاً مثل الأناشيد الوطنية للشعوب المستقلة حديثاً. وموضوعها واحد «نهضة المسلمين» وإن تبادل كل بيتين أو ثلاثة موضوعات تفصيلية.

العالم كله للمسلمين: الصين والهند وبلاد العرب. الإسلام دين واحد. والكون عالم واحد. وقد تم ذلك بفضل التوحيد الذي حل روح المسلمين. إن زالت السيادة على الأرض تظل السيادة في النفس قائمة. أقيمت له معابد في الأرض. والكعبة أول بيت. يحافظ عليه المسلمون بالروح كما يحافظ هو عليهم برمز وحدتهم، ونقطة ارتكازهم وانطلاقهم⁽¹⁾. تربوا في ظل السيف. وبنوا العزة لدولهم. ورفع علم الإسلام في كل مكان، رمزاً للمجد والرفعة. ورفع الهلال فوق

= ماذا تفيدك ثروة حصلتها في مثل أبهة الملوك بذلتها
أبكي لأجلك يا عزيزي
هل ذقت يوماً غبطة الإيمان أو بأس حيدر أو رضا سلمان
ارحم شبابك يا عزيزي
المؤمن الصديق سيد ساعته ورقي عالمه رقي قناعته
فاعرف مكانك يا عزيزي
لو دب روح النسر في قلب الشباب لم يبحثوا عن سرهم بين التراب
إياك تياس يا عزيزي
باليأس معرفة الفتى تغتاله وبصيرته والمؤمن الصديق برهان الإله سريرته
فاربا بنفسك يا عزيزي
يا أيها الشاهين عشك ليس في قصر الملوك لو كنت شاهين الجبال حفيقة ما أمسوك
فارجع لعشك يا عزيزي

السابق، ص 507.

(1) الصين لنا، والعرب لنا والهند لنا، والكل لنا
أضحى الإسلام لنا ديننا وجميع الكون لنا وطننا
توحيد الله لنا نور أعددنا الروح له سكننا
الكون يزول ولا تمحى في الكون صحائف سؤددنا
بنيت في الأرض معابدنا والبيت الأول كعبتنا
هو أول بيت نحفظه بحياة الروح وبحفظنا

صلصلة الجرس، ص 91.

المآذن يمثل خنجر القوة. وكان للأذان صدى في الغرب عن نهضة المسلمين وحضارتهم ومطاولتهم النجوم⁽¹⁾.

وبنينا العز لدولتنا
شعار المجد لطلتنا
ويقل خنجر سطوتنا
في الغرب صدى من همتنا
طاولنا النجم برفعتنا

(1) في ظل السيف تربينا
علم الإسلام على الأيام
وهلال النصر يضي لنا
وأذان المسلم كان له
قولوا لسماء الكون لقد

السابق، ص 91.

الفصل الثاني

الأنين والحنين

1 - جناح جبريل

الأنين والحنين يعادل «الشكوى والجواب». الأول مضمون ديوان «جناح جبريل» والثاني مضمون «صلصلة الجرس»⁽¹⁾. وهو الديوان الخامس صدر بالأوردية عام 1935 بعد زيارات إقبال لفلسطين ومصر وأفغانستان وأسبانيا، وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا. فيه يبكي على الأطلال. ويتألم لاندثارها. ويحن إلى المجد القديم.

يتكون من ثلاثة أقسام: الأول، قصيدة غنائية طويلة واحدة. تغلب عليها الغنائيات، وإن كانت فلسفة الذات تبدو فيها قليلة. وهي أقرب إلى البكائيات والأنين والألم لأوضاع المسلمين الحالية. والثاني، قصائد نظمها في الأندلس وفيها الحنين إلى الماضي، واسترجاع انتصارات الأمة السابقة. والثالث، قصائد متفرقة يغلب عليها الحوارات الفكرية وأهمها «لينين أمام الله» والحوار بين إقبال والرومي⁽²⁾.

هي شكوى وحنين. شكوى قد تقتضي البكاء والخور. وقد تؤدي إلى الحنين إلى الماضي، تخفيفاً للأحزان⁽³⁾.

(1) جناح جبريل (بال جبريل) نقله من الأوردية إلى الفرنسية نثراً السيد ميرزا سعيد ظفر شاغتي والسيدة سوزان بوساك. ثم نقله من الفرنسية إلى العربية نثراً الأستاذ عبد المعين الملوحي. ثم صاغه بالعربية شعراً الأستاذ زهير ظاظا.

(2) السابق، ص 405 - 406.

(3) ثم أرجو ألا أخور وأبكي وترى الحور لوعتي ونحيبي =

هي شكوى تطلب السماع⁽¹⁾. والعدل ليس هو المطلوب إذا كان ينتهي إلى الظلم. هو أنين لا تقوى على حمله أمة واحدة⁽²⁾. ليس المطلوب من الشكوى والأنين أن يجد الإنسان نفسه عارياً أمام ذاته بلا واقع يعيش فيه. بل الغاية معرفة محيط الذات، وميدان فعلها. ليس المطلوب أيضاً البحث عن أي منهج أو طريق للخروج من الأنين إلى الحنين⁽³⁾.

الشاعر حزين فرح، يئن ويحن، مجنون وعاقل⁽⁴⁾. لقد تمكن جنون الشاعر من معرفة السر المكنون. وأنفاس شعره أتت من صدر جبريل الأمين. وبث الأنين ليس للنجم وسؤال عن مصير الأمة لأنه نفسه لا يعرف من أين أتى، وهو منبوذ في ركن من الكون. حياة الناس سكرة بين اليقظة والحلم. وتفسير ذلك مضيعة للوقت وللعمر⁽⁵⁾. ويستعجب الناس من إقبال الفقير الذي أصبح غنياً. ويتساءلون عن أي كنز عثر. ويعجبون من عالمه اللهب الذي لا يمنح الناس إلا الشر⁽⁶⁾.

=	فرجائي ألا يصير حنيننا السابق، ص 410.
(1)	سواء أهزتك أم لم تهزك أنا وقح لست أسأل عدلا السابق، ص 409.
(2)	وأمنية العمر هذي الجراح السابق، ص 410.
(3)	أنا أرجو ألا أفاجأ يوماً ورجائي ألا أكون ببحثي السابق، ص 410.
(4)	الشاعر الفرح الحزين معا أنا السابق، ص 424.
(5)	روعة السر التي أعطيتها إن أنفاسي التي أحدو بها لست أتى النجم كي أسأله هو لا يعرف من أين أتى ما حياة الناس إلا سكرة لا تضع عمرك في تفسيرها السابق، ص 425.
(6)	يقولون إقبال في فقره غني على أي كنز عثر؟

يفرح الشاعر فرحاً غامراً. ولا يستطيع أن ينسل عن نفسه. ضميره معذب. وسمو فكره من سكرة الحب. لا يعتمد في أنيه أو حينه إلا على قلبه المجنون، وليس على كنوز قارون أو علوم أفلاطون. يعتمد على معراج الرسول أي استلهام الحقائق من الملاء الأعلى. ما زال الوجود الإنساني في طريق الاكتمال. فالوجود مشروع إيجاد على ما يقول فلاسفة الوجود المعاصرون في الغرب. يتجدد كل يوم. ويقضي على خرافات سادت منذ قدم الزمان⁽¹⁾.

لم يستطع الطبيب أن يفهم ما يكابده الشاعر أو أن يدرك مكنون سره. بل إنه أدرك أن يتطلع إليه الشاعر لا طاقة له به. ومع ذلك، لا ينبغي اليأس. صفاء الروح معروف، ولكن الدم القرمزي الذي في قلب الشاعر يدل على أنه على الطريق الصحيح⁽²⁾.

- = وعالمه لهب كله
السابق، ص 443.
- (1) فرحي تفجر من
والقوم تطلب أن
ما سر قلبي؟ آه
وسمو نظرتيه
لا أرتضي بدلا
بكنوز قارون
معراج سيدنا
بدت السمماء به
لا بد يدهشنا
فوجودنا هذا
في كل أونة
يُلفي خرافات
السابق، ص 426.
- (2) جس الطبيب بقلبي ما أكابده
تطلعاتك لا طاقات تحملها
وما يسمى صفاء الروح أعرفه
هذا الدم القرمزي اللون نضرتيه
السابق، ص 428.
- ولا يمنح الناس إلا الشرر
قدمي إلى رأسي
أنسل من نفسي
لضميره العذب
في سكرة الحب
عن قلبي المجنون
وعالوم أفلاطون
علم عظيم الشأن
في عالم الإنسان
ما كان يحتمل
ما زال يكتمل
نُصغي إلى إعلان
من سالف الأزمان
- فقال: ويحك ما تخفيه من طلب؟
لكن «لك الحق» لا تيأس من السب
وليس هذا الذي في قلبك اللجب
تدل أنك لم تشرب شراب غبي

2 - مصدر الأنين

ويثن إقبال لأن فكره ما زال حائماً في السماء. لا يستقر في أحد الأفلاك. تأبى عليه الفطرة أن يشرك. إقبال ليس مسكيناً وليس مراوغاً، بل يشهد على عصره. غضب عليه الأصدقاء لكشف الأستار حتى لم يعد له صديق واحد. ولا يكذب. فيسمي سمهم حلوى وهو سم قاتل⁽¹⁾. لم يتحمل أي ساحل شطحات إقبال التي هتك بها أسرار الكتاب دون جدوى⁽²⁾.

احتر إقبال في دروب الفكر. فلما أحب مال القلب واهتدى⁽³⁾. وأخيراً انتبه إقبال. ولبت السماء صرخته. وسمع أنه سيكشف له الغطاء عن حكاية العاشقين من البداية إلى النهاية. وهي حكاية نار وحزن وانفجار⁽⁴⁾. وتحزن الملائكة إقبال لأنها عابت عليه صرخته وجرأته أمام الله. يهتك أسرار الطبيعة. ويجمل الدنيا بفلسفته. لا ينتمي إلى الأرض وهو مكوّن منها. تتعدد قدراته كالمملك، ولكنه في رغباته إنسان. يملأ الريح صدره. ويعيقه بستانه المحدود. اهتدت الملائكة، واقتدت به، وسلكت طريقه، طريق آدم إلى الله⁽⁵⁾.

(1) مازال فكري في سائك حائما
تأبى عليّ ملائكية فطرتي
أنا لست مسكيناً ولست مراوغاً
غضبت عليّ الأصدقاء جميعهم
لم أستطع أبداً أسمى سمهم
السابق، ص 420.

(2) لم يتحمل موجة الشطحات هذي أي ساحل
هتكت بها مجنون أسرار الكتاب بغير طائل
السابق، ص 447.

(3) مضى إقبال هوناً في دروب الفكر واجتازا
ولما جاء درب الحب مال القلب وانحازا
السابق، ص 446.

(4) وأخيراً انتبهت ولبت صرختي هذي السماء
وسمعت ما قالوا: أخيراً سوف ينكشف الغطاء
وللعاشقين حكاية وتكاد تتفق الحكاية
نار وحزن وانفجار في البداية والنهاية
السابق، ص 447.

(5) إقبال تحزنه الملائكة التي عابت أمام الله جرأة صرخته =

وهت مباحث الفكر عن الغياب دون الحضور. ووثب الحب من الدم. وبالرغم من الشمس الساطعة، مازالت الأرض ظلماء. الكل يعرف كد الأمة وسعيها في سالف الأيام. لم يعرف أحد أن العلم مضيعة، وأنه سبب الأطماع والنهم. ومهما هز الإنسان نخيل الفكر لم تسقط عليه إلا العراجين القديمة. كما أيقظت مقالات الموتورين والمتقنين وجدان الشاعر. الفكر بضاعة أبي لهب. وكل مكر ودهاء بين الأفراد والأمم. والحب اختيار المصطفى، واختيار الشاعر. ونهايته أحلى من بدايته⁽¹⁾.

ويجيب إقبال من السر القديم الذي يعود من جديد إجابة من حميم إلى حميم، اعتراف كاعترافات أوغسطين⁽²⁾. ويأس من حرق الناس. ينعزل عنهم، ويعود إلى وحدته، ولكن أصدقاءه يروون له أخبارهم لينير بها وحدته⁽³⁾. مراد

ويجمل الدنيا بلؤلؤ نظرته
لا الشام موطنه ولا قاشان
ملك وفي رغباته إنسان
وبعيقه بستانه المتنامي
لطريق آدم في رحاب الله

ومشهد الحب من وثب الحضور دمي
مازالت الأرض في بحر من الظلم
وما تحملت من كدي ومن سأمي
وأنة سبب الأطماع والنهم
علي غير عراجين من الهرم
به مقالات موتور ومنتمم
وكله كله مكر من الأمم
وكله كله من مقلتيه نمي
مذاهب الحب في شعري وفي حكمي
وربما صحت الأجسام بالسقم

علي السر القديم
كحميم لحميم

وألقيت في وجههم وحدتي
بأخبارهم ترتوي جلوتي

وقح يهتك للطبيعة سره
لا ينتمي للأرض وهو سليلها
متعدّد الأوصاف في قدراته
قلق رياح الخد تملأ صدره
في ظل مذهبه الملائكة اهتدت

السابق، ص 460.

مذاهب الفكر من بحث الغياب وهت
بالرغم من ثورة للشمس ساطعة
أنا، وتعرف أيامي التي سلفت
ما كنت أعرف أن العلم مضيعة
هزرت كل نخيل الفكر ما سقطت
لقد تيقظ وجداني الذي عصفت
الفكر من حيث تأتيه أبو لهب
والحب حيث يكون المصطفى يده
أخذت عنه فنون الحب فاعتنوا
نهاية الحب أحلى من بدايته

السابق، ص 502 - 503.

ربما أشرق إقبال
حدّث السرّ حديثاً

السابق، ص 449.

أنا قد تخلّيت عن حمقهم
وأصيححت لي أصدقاء هناك

السابق، ص 453.

(1)

(2)

(3)

إقبال كشف أسرار تقضي على حالة اليأس، وأن يفصح للطلاب عما يجول في نفسه. لقد ركب إقبال الفلك الذي صنعه بيديه، ولكن الريح أجرته على غير هواه. ضاع الكرى من عينيه قلقاً. والدمع في عينيه ظل من ندى القلب⁽¹⁾.

يريد إقبال أن يعلم نفسه بنفسه في الحياة دون ما حاجة إلى جبريل، وتعليم أستاذ إلى تلميذ، ومعلم إلى متعلم. فتقليد الآخرين متعارض مع تجربة الحياة، بالرغم مما فيها من سفك للدماء، يستغفر لها أهل السماء⁽²⁾.

نفس الشاعر يؤجج نار الورود التي خمدت لواعجها على الأغصان. لم يهدأ البستان منذ أن نفت الشاعر روحه، وبدا آثاره عليه. أيقظ قلب العارفين. وكشف الأسرار للبسطاء. ووهب لعدة أجيال ذوق اللهب. وملاً أنفاسهم برشح دنانه. الشاعر أعجمي الحب إلا أنه أطلق لسانه في الحرم الشريف. فحرق أثواب الأدعياء من الحجاج والمطوفين. جمع بين نظرة العادل وسهم الحسين. ولم التعجب من تحرق المسلم وهو لابس رداءً من الأحزان. وهو الذي يجمع بين فقر الجنيد ومملك سنجار وحنون طيفور الطليق؟ لماذا يتأذى أحد ويحكم بقبح الشعر إلا لأنه يكشف الحقيقة ويجعلها ظاهرة للعيان؟⁽³⁾.

تـؤـزـل راحـة الـيـأس
ما أخفيه في نفسي
بأعينه صنعناه
وعكس الريح أجره
على قلق طوي جنبي
ظل من ندي قلبي

(1) مرادي رشف أسرار
والا قلت للطلاب
ركبنا البحر في فلك
فأجرى الريح عاصفة
ذوت عيناي من أرق
وهذا الدمع في عيني
السابق، ص514.

لا أنت أستاذي ولا أنا عبدك
شنان وجدي في السماء ووجدك
لكنها في الأرض أقدس فرضي
يستغفرون بها لمن في الأرض
خمدت لواعجها على الأغصان
فانظر لآثاري مدى البستان
وهتك للبسطاء سر الحان
وملأت أنفسهم برشح دناني
أطلقت في الحرم الشريف لساني
مرقته باللحن من ألحاني

(2) جبريل دعني في الحياة وسكرتي
أنا إن تبعت خطاك خنت خلافتي
سفك الدماء رسالة مذمومة
أهل السماء صلاحهم في أنهم
نفسى يؤجج نار وردتك التي
(3) لم يهدأ البستان منذ أتيته
أيقظت قلب العارفين بصدرهم
وهبت للجيلين ذوق لهيبهم
أنا أعجمي الحب إلا أنني
كم ثوب إحرام على متضرع

شهادة إقبال هي شهادة كل مسلم بل وكل إنسان، عربياً أم أعجمياً، شهادة صدق وحق، شهادة على هذا العالم، تمتد إلى العالم الآخر. تذهب السكره، ولكن تظل عين الساقى كالنصل. له نظراته القاتلة التي تريد أن تقضي على شهداء الحق، وتبقي على شهداء الزور. والبستان لا يذم الورود الحزينة. ورب سم يكون دواء، ورب دواء يعين على بقاء الداء⁽¹⁾.

لقد ابتعدت الحمام عن أغصان الصنوبر. وتعرت الأشجار من حلل الربا. وفرت طيورها إلى الوديان. أما بلبل إقبال فما زال يغرد قبل الربيع. ألحانه بحر متلاطم الأمواج وكأنه يقص عن الطوفان. هدفه أن يسمع قومه شكواه المحبوسة في ضميره. وهي صرخة الوجدان⁽²⁾.

لقد احتار الشاعر مما يدور في قلبه. يريد أن يلهمه الله مباشرة لأتمه ليعث فيهم يقظة الإيمان. ويذيقهم الخمر القديمة، عين اليقين وكوثر الرضوان. وهي الخمر الموروثة لدى كل المسلمين بصرف النظر عن أوطانهم، خمر الحجاز التي

بسهام سيدنا الحسين رمانى
ورداه قطع من الأحزان
وجنون طيفور الطليق العاني
تأذى به عيناك حين تراني

عربيا أم لا، معانيه بيض
وعن العالم الأخير يفيض
نظرة الساقى في الفؤاد كنصل
فسلوه فديته لم قتلي؟
يصبغ الروح منه لونا فلونا
ودواء يكون للداء عوننا

عنها قماريها بكل مكان
وطيورها فرت إلى الوديان
حتى الربيع ولا صبا نيسان
فكانه الحاكي عن الطوفان
هي في ضميري صرخة الوجدان

= متلطح قلبي بنظرة عادل
لم تعجبون لمسلم متحرق
فقر الجنيد وملك سنجار به
بالرغم مما قلت قبحي ظاهر
السابق، ص462.

(1) وسواء كان ابن آدم هذا
وعن العالم الذي هو فيه
ذهبت سكرة المساء ولكن
ولها فيه طعنة بعد أخرى
لا يذم البستان مر غنائي
رب سم يكون ترياق داء
السابق، ص456.

(2) ما بال أغصان الصنوبر قد نأت
وتعرت الأشجار من حلل الربا
يا رب إلا بلبلا لم ينتظر
ألحانه بحر جرى متلاطما
ياليت قومي يسمعون شكايه
صلصلة الجرس، ص99 - 100.

جمعت كل الشعوب والأقوام. صوت إقبال قادم من عدن وسط أنغام الهنود حتى يسمعه المسلمون⁽¹⁾.

ويتساءل الناس عن مصدر أنين إقبال. وسأل إقبال بدوره الدراويش، ولكنه وجد المسؤول وجوه المملوك⁽²⁾. بحث عنن يحيل أنينه إلى حنين. فطوّف أمة الصحراء يسألها فوجدها ضعيفة مستكينة حائرة. سجودها بلا اتجاه. ليس له أي أثر عليهم. ومع ذلك، ماضي الأمة في قرطبة الحمراء. مازالت تمثل رصيذاً للأمة تتحدى به الغرب بدخان ومصانعه. وحماسة الشعر تعبر عن هذا الحنين، بالرغم من موجات الكفر والجمود⁽³⁾.

لقد لعب الرهبان دور الريان فعصفت بمركب الأمة الرياح. وضل طريق الشاطئ، والبحر بحر الرحمن. وقد يمنع الرياء التعبير عن آخر زفرة للأمة التي لا ترى منارتها. وقد يمنع البرهمي آخر زفرة، وهو ما زال يخفي شرارته في معبده.

3 - منابع الحنين

كان هذا الكون قبل وجود المسلمين روضاً وزهراً وورداً بلا روائح. وكان الزمان قبلهم ليلاً مظلماً للظالم والمظلوم. ولما ظهر الإسلام اخضرت الربى وانتشر الشذا⁽⁴⁾.

(1) إن الجواهر حيّرت مرآة هذا القلب فهو على شفا البركان
اسمعهُمُ يارب ما ألهمتني
وأذفهم الخمر القديمة إنها
عين اليقين وكوثر الرضوان
أنا أعجمي الدن لكن خمرتي
صنع الحجاز وكرمها الفتیان
إن كان لهم نغم الهنود ولحنهم
لكن هذا الصوت من عدنان
السابق، ص100.

(2) يقولون إقبال ماذا يريد
يقولون إقبال ماذا يريد
سألت الدراويش عن سرها
ومن أين جاء بهذا السلوك
وألقيته في وجوه المملوك
السابق، ص430.

(3) طوّفت في أمة الصحراء أسالها
رأيتهم في سجود لا اتجاه له
مهلا فقرطبة الحمراء ما برحت
فإذ بها أمة الصحراء في خور
وماله في وجوه القوم من أثر
تلوح بين دخان الغرب بالشرر
تفوح رغم حروب الكفر والأشر
حماسة الشعر هذا من شبيبتها
جناح جبريل، ص434.

(4) قد كان هذا الكون قبل وجودنا
روضا وأزهارا بغير شميم =

لم يذكر أحد قبل المسلمين اسم الجلالة ولم يكن أحد يدعو قبلهم الواحد القهار. فقد انغمس الناس من قبل في عبادة الأصنام، وتقديم القرابين. عبدوا الكواكب والنجوم جهلاً، دون الاستفادة بنورها في المسير. لم يعلن أحد من قبل التوحيد وهدى الشعوب. قدم المسلمون للسيوف صدورهم دون خوف من أي غاشم جبار⁽¹⁾.

ثم خنى الدهر على الأمة. وجزّب عليها كل الشدائد. وحاول طوفان الباطل إغراق سفينتها⁽²⁾. والتاريخ شاهد على عظمة الأمة الماضية بالرغم من مآسي الحاضر: حدائق الأندلس وموسيقاها وأغانيها وموشحاتها، أشعار دجلة وأدبائها وفلاسفتها، شريعة الحجاز ومدارس فقهه ورأيه، ونشأة الإسلام، وإمارة النبي للركب⁽³⁾. إن اسم الرسول ما زال يبعث الأمل في نهضة جديدة. تلك نبوءة

- = والورد في الأكمام مجهول الشذا
بل كانت الأيام قبل وجودنا
لما أطل «محمد» زكت الربى
وأذاعت الفردوس مكنون الشذا
صلصلة الجرس، ص 93.
- (1) من كان يهتف باسم ذاتك قبلنا
عبدوا تمانيل الصخور وقدسوا
عبدوا الكواكب والنجوم جهالة
هل أعلن التوحيد داع قبلنا
كنا نقدم للسيوف صدورنا
السابق، ص 94.
- (2) يا دهر لقد جزيت على
طوفان الباطل لم يغرق
يا ظل حدائق أندلس
وعلى أغصانك أوكار
السابق، ص 91.
- (3) يا دجلة هل سجلت على
أمواجك تروي للدنيا
يا أرض النور من الحرمين، ويا ميلاد شريعتنا
روض الإسلام ودوحته
ومحمد كان أمير الركب، يقود الفوز لنصرتنا
السابق، ص 91.
- لا يُرتجى ورد بغير نسيم
ليلا لظالمها وللمظلوم
واخضر في البستان كل هشيم
فإذا الوري في نضرة ونعيم
- من كان يدعو الواحد القهار؟
من دونك الأحجار والأشجار
لم يبلغوا من هديها أنوارا
وهدى الشعوب إليك والأنظار؟
لم نخش يوما غاشما جبارا
- نيران الشدة عزمتنا
في الخوف سفينة قوتنا
أنسيت مغاني عشرتنا؟
عمرت بطلائع نشأتنا
- شطيك مآثر عزتنا
وتعيد جواهر سيرتنا
يا أرض النور من الحرمين، ويا ميلاد شريعتنا
روض الإسلام ودوحته
ومحمد كان أمير الركب، يقود الفوز لنصرتنا

المصلحين لإعادة المجد الأول وبعث الأمة⁽¹⁾.

كان لليونان فلسفة، وللرومان مدرسة، وللساسانيين ملك. ولم يمنع العلم أو الحكمة أو القوة أو المال من انهيار المجتمعات. وفي كل أرض سامري ماكر، يقوم بدور الشيطان لليهود. كانت الحكمة الأولى وثنية في الصين والهند وطوران. ثم جاء الوحي الإسلامي. فأوضح نهج الهدى ومعالم الإيمان⁽²⁾.

حمل المسلمون الرسالة، وأوفوا الأمانة، ورفعوا السيوف لرفع رسالة التوحيد فوق هامات النجوم. ساروا فوق الجبال، وعبروا البحار. ووصل الأذان إلى معابد الإفرنج قبل وصول الفاتحين سلما. فتحت البلدان. وانتشر الإسلام في صحراء أفريقيا. وأقيمت فيها شعائر الإسلام في عز حرارتها. واحتموا بظلال السيوف حديقة خضراء. تثبت الأزهار في كل مكان⁽³⁾.

لم يخش المسلمون طاغوتاً يحاربهم حتى ولو نصب شرك الموت حولهم. ودعوا إلى التوحيد جهاراً وإلى خالق الأكوان ومقدر الأقدار. وحملوا رؤوسهم فوق أكفهم مفازة وثوابا. هدموا الأصنام من ذهب، معابدها وعابديها. ولو كان غيرهم لحولها إلى كنوز وحلي. وصك منها النقود⁽⁴⁾.

(1) إن اسم محمد الهادي
دوّت أنشودة إقبال
ليعيد قوافلنا الأولى
السابق، ص 91 - 92.

(2) قد كان في اليونان فلسفة، وفي الرو
لم تغن عنهم قوة أو ثروة
وبكل أرض سامري ماكر
والحكمة الأولى جرت وثنية
غني الذين بنور وحيك أوضحوا
السابق، ص 94.

(3) من ذا الذي رفع السيوف ليرفع اسد
كنا جبالا في الجبال وريما
بمعابد الإفرنج كان أذاننا
لم تنس أفريقيا ولا صحراؤنا
وكان ظل السيف ظل حديقة
السابق، ص 94.

(4) لم نخش طاغوتنا يحاربنا لو
نصب المنايا حولنا أسوارا

واستمروا في زلزلة الصخور دون وهن في العزيمة أو ضعف في الإيمان. ولو فزعت الأسود في عريتها فإن ثبات المسلمين في الميدان قائم. يتلقون بنيران المدافع في الصدور ريحاً وريحاناً. حولوا التوحيد إلى نور عبر الأزمان. وأصبحت لهم مصاحف في الكون. يقرأون القرآن على صفحاته⁽¹⁾.

المسلمون وحدهم هم الذين هدموا التماثيل التي كان يعبدها الجهال. هم الذين أسقطوا الصور في المعابد، حماية للتوحيد ولخالق الوجود ومصدره. هم الذين حملوا باب المدينة بسواعدهم يوم غزوة خيبر. هم الذين أطفأوا نار المجوس. وأظهروا وجه الحق. بذلوا حياتهم رخيصة في سبيل مرضاة الله الذي اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم. ورضي المسلمون البيع عن طيب خاطر⁽²⁾. هم الذين أيقظوا بصوت الأذان النيام. هم الذين يدعون إلى الصلاة ويحرقون الأرض بدمائهم. أخذوا الحجاز قبلة لهم حيث هبط الوحي لآخر مرة. واستمر على ذلك سلاطين المسلمين وغزاتهم مثل محمود الغزنوي وإياز مولاة. فلا فرق بين سيد وعبد في الخشوع أمام الواحد القهار⁽³⁾.

صنع الوجود وقدر الأقدار
نرجو ثوابك مغنما وجوارا
فنهدهما ونهدم فوقها الكفارا
كنزا وصاغ الحلبي والدينارا

= ندعو جهارا لا إله سوى الذي
ورؤوسنا يارب فوق أكفنا
كنا نرى الأصنام من ذهب
لو كان غير المسلمين لحازها

السابق، ص 94 - 95.

من بأسنا عزم ولا إيمان
لم يلق غير ثباتنا الميدان
ر المؤمنين الروح والريحان
نورا يضيء بصبحة الأزمان
في الكون مسطورا بها القرآن

(1) كم زلزل الصخر الأشم فما وهي
لو أن آساد العرين تفرغت
وكان نيران المدافع في صدور
توحيدك الأعلى جعلنا نقشه
فغدت صدور المؤمنين مصاحفا

السابق، ص 95.

كانت تقدمها جهالات الوري؟
لجلال من خلق الوجود وصوّرا
باب المدينة يوم غزوة خيبر؟
وأبان وجه الحق أبلج نيرا؟
ورأى رضاك أعز شيء فاشترى؟

(2) من غيرنا هدم التماثيل التي
حتى هوت صور المعابد سجدا
ومن الألى حملوا بعزم أكفهم
أتمن رمى نار المجوس فاطفتت
ومن الذي بذل الحياة رخيصة

السابق، ص 95.

دنيا الخليفة من تهاويل الكرى
والحرب تسقي الأرض جاما أخضرا

(3) نحن الذين استيقظت بأذانهم
نحن الذين إذا دُعوا لصلاتهم

وصلت خيول المسلمين نهاية الأرض. وامتدت رمال الصحراء إلى البحار. رفع الهلال في محافل الأكوان علامة على النصر. ورفعت الرايات في كل موقعة معلنة النصر للتوحيد وحرية الناس بعد أن كانوا عبيداً باسم الدين أو الإقطاع⁽¹⁾.

لم يعرف البيت العتيق سجوداً إلا من جباه المسلمين. ولم يكتب مصحف على القلوب كما كتب وحفظ في صدور المسلمين. وهذا دليل على الوفاء الصادق، والشعور بالواجب والإحساس بالأمانة. لقد امتلأت الأرض بألوان البشر من جناة وعصاة وملاحدة وعتاة ومغرورين. يجرفهم غيث السحاب. وخص المسلمين بصواعق تدميرهم⁽²⁾.

ثم عادت الأصنام بعد موت. وبعثت من جديد. واستيقظت من قبل نفخ الصور. وتوارى أهل الكعبة وأصبحوا موتى دون نشور. وضل حداة قوافل الصحراء طريقها. وتحولت مضارب القوافل ومنازل القبائل إلى ظلال قبور. لم يعد في الأمة من يقدم عملاً صادقاً لحدور العين. في حين أصبح الكفار في نعيم ومواكب وقصور. يملكون الدنيا. ويتقدمون بالعالم. يتعلم الآخرون منهم كما كانوا يتعلمون سابقاً من المسلمين⁽³⁾.

= جعلوا الوجوه إلى الحجاز وكبروا
محمود مثل إياز، قام كلاهما
والعبد والمولى على قدم التقى
السابق، ص 95 - 96.

(1) بلغت نهاية كل أرض خيلنا
في محفل الأكوان كان هلالنا
في كل موقعة رفعنا راية
أمم البرايا لم تكن من قبلنا
بلغت الأجيال حرياتها
السابق، ص 96.

(2) رحماك رب، هل بغير جباهنا
كانت شغاف قلوبنا لك مصحفا
إن لم يكن هذا وفاء صادقاً
ملاً الشعوب جناتها وعصاتها
فإذا السحاب جرى سقايم عيشه
السابق، ص 96.

= واستيقظت من قبل نفخ الصور قد هبت الأصنام من بعد البلى (3)

حكمة الإله ومشيبته في كل أنحاء البرية. لم تجارها مذاهبها السياسية. تستطيع تحويل الصحارى إلى أنهر، والأنهار إلى أمواج سراب. وقد ابتلي الإسلام في أبنائه، فأصبحوا في محنة وعذاب. تحول ثراؤهم إلى فقر. ونُهبت دولة مجدهم من الثعالب والذئاب. وكان هذا عقاباً عادلاً للمسلمين كما ينتظر أعداؤهم يوم العقاب⁽¹⁾.

عاش أعداء الأمة ومحتلوها بثروات الأمة فاغتنوا. وافتقرت الأمة. وعاشت بين الذل والإملاق. والدين لا يحيا إلا في أمة حية. والكأس لا يبقى بدون الساقى. لقد غاب الذين تفتانوا في حب الله والإسلام والوطن. وسكبوا الدموع وتوضؤوا بها. وصدر عنهم الأتین بعد أن كانت الشمس تسطع من الوجوه⁽²⁾. وطويت الأيام الأولى التي نشر فيها الهدى. وهجرت الديار فغابت الهداية والافتداء بعد أن كانت الهدى هي المرشد، والتوحيد هو الهادي⁽³⁾.

فكأنهم موتى لغير نشور
وغدت منازلها ظلال قبور
في أنعم ومواكب وقصور
عملا تقدمه صدق الحور

أعيت مذاهبها أولي الأبواب
أو شئت فالأنهار موج سراب
حتى انطوؤا في محنة وعذاب
في الأرض نهب ثعالب وذئاب
عن ذنبه في الدهر يوم عقاب

للموت بين الذل والإملاق
والكأس لا تبقى بغير الساقى
أنوار بين محافل العشاق؟
وتوضؤوا بمدماع الأشواق
نُهدي الصباح طلّاع الإشراق

نشروا الهدى وعلوا مكان الفرق؟
من يهتدي للقوم أو من يقتدي؟
إلا على مصباح وجه محمد
ولهم خلود الفوز يوم الموعد

والكعبة العليا توارى أهلها
وقوافل الصحراء ضل حداثها
أنا ما حسدت الكافرين وقد غدوا
بل محنتي ألا أرى في أمتي

السابق، ص 96 - 97.

(1) ولك البرية حكمة ومشيبته
إن شئت أجريت الصحاري أنهارا
فإذا ذهي الإسلام في أبنائه
فثراؤهم فقر ودولة مجدهم
عاقبتنا عدلا فهب لعدونا

السابق، ص 97.

(2) عاشوا بثروتنا وعشنا دونهم
الدين يحيا في سعادة أهله
أين الذين ينار حبك أرسلوا الـ
سكبوا الليالي في أنين دموعهم
والشمس كانت من ضياء وجوههم

السابق، ص 97.

(3) كيف انطوت أيامهم وهم الألى
هجروا الديار فأين أزمع ركبهم
يا قلب حسيك لم تلم بطيفهم
فازوا من الدنيا بمجد خالد

ومع ذلك، مازال المسلمون باقين على العهد طالما أن قيس ما زال متيماً بليلى. طالما أن المها مازالت ترعى في مراعي نجد والظباء ملاً الجبال. طالما أن العشق مازال فياضاً فأمة محمد مازالت قادرة على تسيير التاريخ، والتأثير فيه. ولو أنها حاولت العثور على مكانة في السماء لاستطاعت أن تقيل إلى شمس الضحى، وهي مازالت بعيدة في الأفق. وهي مازالت تتحجج بالحظ العاثر والأيام غير الموالية⁽¹⁾.

لقد هجر الحبيب. ورمي الأحبة بالنوى وانحسار الآمال. وربما ملأوا العشق، واستكانوا إلى الهوى والضلال. ربما صنعوا الأصنام وباعوها مع أن الموحد لا يذل لمال. وما زال تاريخه موصولاً منذ أيام سليمان، وتقوى أويس القرني، وأذان بلال⁽²⁾.

كان عهداً طيباً عندما حملت الأمة الأمانة. وانبثق منها نور الحق. وتجمع حولها العشاق، راحاً بغير دنان. وتولدت في القلوب نار الإيمان. ثم تغير الزمان وكأن القلوب لم تعرف نار الهوى أو دخانه. إن لم يعد نور الرسالة فليس أمام القلب إلا الانطواء، حزيناً كسيراً⁽³⁾.

في الكون غيرك من ولي مرشد

= يا رب ألهمنا الرشاد فمن لنا
السابق، ص 97 - 98.

وربوع ليلى في ربيع جمالها
وظباؤها الخفريات ملاً جبالها
يتحفز التاريخ لاستقبالها
رفت على شمس الضحى بهلالها
وتصددها الأيام عن آمالها؟

(1) مازال قيس والغرام كعهده
وهضاب نجد من مراعيها المها
والعشق فياض وأمة أحمد
لو حاولت فوق السماء مكانة
ما بالها تلقى الجدود عواثرا
السابق، ص 98.

وأصابهم بتصرم الآمال
أو نستكين إلى هوى وضلال
حاشا الموحد أن يذل لمال
وتلقى أويس في أذان بلال

(2) هجر الحبيب رمى الأحبة بالنوى
لو قد مللنا العشق كان سبيلنا
أو نصنع الأصنام ثم نبيعها
أيام سلمان بنا موصولة
السابق، ص 98.

فبعثت نور الحق من قاران
وسقيتهم راحا بغير دنان
قد الإيمان لا بتلهب النيران
لم تحظ من نار الهوى بدخان

(3) يا طيب عهد كنت فيه منارنا
وأشرت فيه العاشقين بلمحة
أحرفت فيه قلوبهم بتو
لم نبق نحن ولا القلوب كأنها

ما أفرح الأيام عندما يعود الروض متجلياً وارف الأغصان. ويعود المحفل مضيئاً. ومن المحزن أن يعيش الأعداء بين الظلا والظل والألحان. ينعمون بالدنيا التي سلبت من الأمة بعد أن تركوا أمور الآخرة إليها. يعيش الأعداء في البساتين وأنفاس الأمة تصطلي بنيران الهجير. ويدعو إقبال بالإشراق بالنور وبعث البرق لينير فراش الأمة المظلم⁽¹⁾.

إقبال غيور على شعره. يطالب الناس بالنهوض إذا كانت لهم بصيرة. مجاله الذات كجوهر لمشاعره النبيلة كسيف باتر⁽²⁾. ويشبه الشاعر نفسه بالخليل محطم الأصنام والذي قذفه نمرود في النار جزاء على فعلته. وكان الخليل في نعيم فيها، في برد وسلام⁽³⁾.

إقبال من كفار الهند فهو من أسرة برهمية. اعتنقت أسرته الإسلام منذ مائتي عام. ومع ذلك لا يجحد فن المسلمين. حماسه من لحنه، وصلاته على شفثيه، ابتهالاً لتورد الخدين. فتنته تثير خيال الشاعر. يعبر عن نور التوحيد وحياة القلب. لا تخمد نوره رياح الدنيا. يشع جمالاً وجلالاً. حماس بالضحى ووجد بال مساء. وما خفي في الغد أعظم. يبعث على المسرة والمحبة والتواضع والود. كلماته عذبة. روحه خفيفة. قلبه رفيق. يقظ لا ينام. حبه أبدي. وحره نقيه. وعرضه مصون.

-
- = إن لم يُنر وجه الحبيب بوصله
السابق، ص98.
- (1) يا فرحة الأيام حين نرى بها
ويعود محفلنا بحسبك مسفراً
قد هاج حزني أن أرى أعداءنا
ونعالج الأنفاس نحن ونصطلي
أشرق بنورك وابعث البرق القديم
بومضة لفراشك الظمآن
السابق، ص98 - 99.
- (2) أنا على شعري شديد الغيرة
أنا مجالي الذات في مشاعري
جناح جبريل، ص455.
- (3) أنا خليل هذه الأصنام
في النار ألقوني كإبراهيم
السابق، ص454.
- فمكان حُزن القلب كل مكان
روض التجلي وارف الأغصان
كالصبح في إشراقه الفينان
بين الظلا والظل والألحان
في الفقر حين القوم في بستان
نبيلة كحد سيف باتر
- فمكنت إذا كنت بلا بصيرة
وعدتني معرفة الأيام
فكنت في النيران في نعيم

تعضده يد «الله»، وتحفظه من غوائل الزمن، وتقلبات الدهر⁽¹⁾.

العالم كله قصر خلافته، وسماء العالم معبده. رؤيته سر الكونين، وهو متجرد عنهما. سراب العصر بنور الدين يبده نور الحب. هو أول سر في الدنيا ومقصد الكون شغل العالم بالجمال القديم المتجدد. أعمدته كنخيل الشام. وزرقة قبته تتألق في ظلمة الليل. يتنهّد في وحدته كالطيور. منائرهما صداحة كما صدح صوت جبريل لمحمد أول مرة. ويشهد على ذلك إبراهيم وموسى⁽²⁾.

4 - الحنين إلى الماضي

يبدو الحل حينئذ إلى الماضي واسترجاع الذكريات وإثارة الأشجار. فلا يصلح هذه الأمة إلا ما صلح به أولها. هذا القصر أي السجن الذي يعيش فيه المسلمون

(1) أنا من كفار الهند وفي نظراتي ما لا تحجده
وحماسة أغنيتي هذي من لحن قلبك ينشده
وصلاة الحب على شفتي وعلى خديك تورده
الفتنة وجهك يوقدها وأنا أشرح ما توقده
توحيد الله لنا نور وحياة القلب توخده
يحكيك جمالا وجلالا رجل لله تعبده
وحماس ضحاه ووجد مساه وما يخفيه له غده
ومسرتة ومحبتة وتواضعه وتودده
عذب الكلمات خفيف الروح رقيق القلب مسهده
أبدي الحب نقي الحرب مصون العرض مهنده
وعلى يده لله يد بلطف القدرة تعضده
السابق، ص 479.

(2) العالم قصر خلافته وسماء العالم معبده
سر الكونين بنظرته وعن الكونين تجرده
وسراب العصر بنور الدين ونار الحب يبده
هو أول سر في الدنيا ورجاء الكون ومقصده
هو مثلك شاغل عالمه بقديم الحسن يجده
كنخيل الشام وأعمدها شمخت في المسجد أعمده
تتألق زرقة قبته وتقويم الليل وتقعده
وتنهدها في وحدتها كالطيور كواه تنهده
بعثت جبريل منائرهما بجمال أنت محمده
نادى إبراهيم وموسى لشهود هذا مشهده
السابق، ص 479 - 480.

لا يصلح لهم. يكرهون لونه. أما قصر الماضي فهو العش والغصن الذي يطوي الكون. هو الذي أطلق من الصدر صراخ الفجر. هو الذي فجر من التوحيد ناراً. أنفاسه به تغني. وغناؤه ذو شجون وحماس وندوب وجروح، شكوى وجواب شكوى، أنين وحنين. التوحيد غايته وأمله ومطلبه الوحيد. هذا هو نصيب الإنسان دون غيره. عندما يقترب الإنسان من غايته تصبح الصحراء بحرأ. وإن ابتعد يصبح البستان صحراً⁽¹⁾.

القصد من هذا الحنين إلى الماضي ثورة على الحاضر. فالحياة دون ثورة موت. والفكر دون غلبة انهزام. وبداية الفكر الحر مواجهته للأخطار. والشعب الواصل الخطوات سيف في يد المسلم ليعيد سيرة الآثار. وتستمر في الألحان⁽²⁾. إن لم تثر الآثار الحنين في النفس تكون معابة. وإن لم تستمر الأنغام القديمة أضحك الرقص.

الحل هو العودة إلى التراث القديم، شعر الرومي ووحى جبريل. فالشعر والوحي صنوان. ينبعان من نفس المصدر. لذلك حمل العرب الرسالة. وبلغوا الأمانة. ليس الفلاسفة الذين دفنوا رؤوسهم تحت ركام أفكارهم. بل هي رسالة

(1) أكون هذا القصر عُشي وأنا أكره لونه؟
أنت ذاك العش والغصن الذي يستتر كونه
أنت من أطلقت من صدري صراخ الفجر بعشا
بك أنفاسي تغني لك تغدو وتروح
ذاك شجوا وحماس وندوب وجروح
أملي أنت وشغلي طلبي أنت الوحيد
وأنا هذا نصيبي غير هذا لا أريد
عندما تخطر قربي تصبح الصحراء بحراً
وإذا لم تك في البستان فالبستان صحراً
السابق، ص 476.

(2) حياة ليس فيها ثورة موت لطلبها
وهل لحياتنا فكر يكون لغير غالبها؟
وبدا الفكر بدء تأهب الأحرار للخطر
وشعب واثق الخطوات سيف في يد القدر
إذا الآثار جوهراً أبته عابها النقص
وإن لم تأخذ الأنغام عنا أضحك الرقص
السابق، ص 481.

موسى الكليم وضربه الحجر بعصاه لتنفجر منه المياه. وهو الذي أمر بعدم الخوف عندما رأى النار في الأجمة⁽¹⁾.

يحن الشاعر إلى الأمجاد الماضية وإلى الأسلاف ﴿خَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّهُوتَ﴾⁽²⁾. لقد أحمَد سراج الكعبة. وبعد أن انتصرت الأمة على الفرس والروم، انبهر فتیان اليوم بهم⁽³⁾. في الكتاب آيات محكمات، والعالم ما زال في حجاب. ولم يرفع النقاب عن الجبين. ولم يُكشَف عن الفؤاد. والعالم فيه الدبيب للموت، والشعوب نائمة. خمدت نار الغلاب في التتار، وسلمت الكتاب⁽⁴⁾.

وتجيب السماء بأنها وهبت المسلمين عطايا، سحبا سائرة، دون أن يطلبها أحد. الطريق مملوء بالزهور والأنوار، ولكن لم يسلكه أحد. لم تعكس الجواهر ضياء الوحي والنور المبين. في حين أن تراب آدم كان شيئا آخر بالرغم من أن أصله ماء وطين. ولو صدقوا أنه لا توجد أنهار في الأرض لفجرت السماء لهم عيوناً⁽⁵⁾. وخضعت الثريا

- (1) أنا لم أر السر لو لم أنل
ومن بدء تلمذتي قال لي
رأيت فلاسفة بالألوف
وذو الوحي يرفع من رأسه
إذا خضت معركة فلتكن
فمن لا تخف شعلة لم تنزل
السابق، ص 437.
- (2) فما الناس بالناس الذي عهدتهم
جاويد نامه، ص 179.
- (3) صدرنا نار تلمظت من محمد
وبهلك الروم أو كسرى تغنى
السابق، ص 181.
- (4) محكمات لي أبتت في الكتاب
النقاب عن جبين ما رفع
ولدينا عالم فيه الدبيب
في التتار خمدت نار الغلاب
السابق، ص 510.
- (5) عطايانا سحائب مرسلات
وكل طريقنا نور ونور
ولكن ما وجدنا السائلينا
ولكن ما رأينا السالكينا

لملكهم. وأصبحت النجوم لهم حصون. والعيب أنهم ألدوا في الدين الذي بنى ملكهم في الشمس. وأهملوا ما تركه الرسول وراءه. عاشوا مهملين. وحادوا عن الطريق الأول، هدم الأصنام. بل وصنعوا أصناماً جديدة. أبوهم إبراهيم، ولكن خرج منهم أمثال آزر أبناء لهم⁽¹⁾. كان في الأسلاف مزايا يذكرها كل الناس. وتنشدها كل الأقسام. تفوح الصحراء بعطرها. وتبتسم الورود لريها. فهل بقت هذه المحاسن في الأبناء والأحفاد؟ فنوا في الخالق وخلدوا فيه. ونهل السلف من كوثر الرسول. وهو الآن بعيد عن الخلف⁽²⁾.

يقظة الفاروق (عمر) ويقظة المرتضى (علي) نموذج ليقظة المسلم الحالي، وليس حجر الفلاسفة الذي يحيل التراب إلى ذهب وهما. يقظة المسلم الحالي تمنع من ضياع العمر، وحجاب القلب. وعصى الكلیم نموذج آخر، تفجر من الأرض ماء. وعلى هذا النحو لن يضل مسلم في الصحراء. ولن يصطاد التتري الغزال⁽³⁾. الحل هو ثبات

ضياء الوحي والنور المبينا
وإن يك أصله ماء وطينا
لأجرينا السماء لهم عيونا

وشيدنا النجوم لهم حصونا
بنى في الشمس ملك الأولينا
فعاشوا في الخلائق مهملينا
فعادلها أولئك يصنعونا
أرى أمثال آزر في البنينا

بكل فهم لذكراها نشيد
بريها وتبتسم الورود
فيجعل في دالكم الصُدود
فلم يكتب لغيرهم الخلود
ولكن شوقكم عنده بعيد

يقظ كمثل المرتضى في حربه
يستخرج الذهب الدفين بتربه
مادام قلبك غارقا في حجبه
إن لم يذوق الكلیم بضره
إن كان لم يصحبك مرهف شمكا
مهما نصبت له حباله وهمكا

= ولم نحد الجواهر قابلات
وكان تراب آدم غير هذا
ولو صدقوا وما في الأرض نهر
صلصلة الجرس، ص102.

(1) وأخضعنا لملكهم الثريا
ولكن الحدوا في خير دين
تراث محمد قد أهملوه
تولى هادمو الأصنام قدما
أباهم كان إبراهيم لكن
السابق، ص102.

(2) وفي أسلافكم كانت مزايا
تضوع شقائق الصحراء عطرا
فهل بقيت محاسنهم لديكم
لقد هاموا بخالقهم فناء
وكوثر أحمد منكم قريب
السابق، ص103.

(3) يقظ كما الفاروق يقظة قلبه
حجر الفلاسفة المجرب مثله
أيقظ فؤادك إن عمرك ضائع
أنا، لا عصاي ولا عصاك تفيده
ستكون في الصحراء أحمق باحث
وغزالنا التتري لست نصيده
جناح جبريل، ص434 - 435.

إسماعيل، مقتل الحسين، الرضا والمقاومة، الطاعة والثورة⁽¹⁾.

5 - الحنين إلى الأوطان

الحنين إلى الماضي نوع من الرثائيات، والبكاء على الأطلال كما هو الحال في الشعر القديم. يبدأ من التراث الماضي إلى العصر الحاضر. وأحياناً يقلد إقبال الشعر العربي القديم مثل قصيدة «النخلة الأولى». فالمقطع الأول منها ترجمة لقصيدة عبد الرحمن الأول في «نفع الطيب» وكما رواها المقرئزي. وقد غرست النخلة في مدينة الزهراء⁽²⁾.

أ. مكة والحجاز: تتطلع أشواق الأمة أولاً إلى الحجاز. تحنّ إليه كحنين المغترب إلى الأوطان. والطيور إذا قصت أجنحتها طارت بحكم الفطرة. وقيثارة إقبال مكبوتة. ملت من صمتها وكتمان صوتها. والأوتار ترجو عازفاً يبوح بأسراره ومعانيها. والطور يرتقب التجلي بهوى الشوق ولهفة الحيران⁽³⁾.

احترقت الأكباد بأنات الجوى، والدماء أنهار الدموع القانية. وفاض العطر من الخمائل والربى وكأنه شكوى بغير لسان. ومن أهوال القيامة أن ينم الزهر على البستان. ولا يخشى النمل جنود سليمان إذا حرسه عناية الرحمن. وبراهمة الهند في حاجة إلى من يرشدهم لرفع الإسلام فوق هياكل الأوثان⁽⁴⁾.

(1) حكاية ليس لها نظير
ثبات إسماعيل مبتداها
السابق، ص 455.

(2) السابق، ص 483.

(3) أشواقنا نحو الحجاز تطلعت
إن الطيور وإن قصّضت جناحها
قيثارتي مكبوتة ونشيدها
واللحن في الأوتار يرجو عازفا
والطير يرتقب التجلي صارخا
صلصلة الجرس، ص 99.

(4) أكبادنا احترقت بأنات الجوى
والعطر فاض من الخمائل والربا
أو ليس من هول القيامة أن يكو
النحل لا يخشى سليمانا إذا
ودماؤنا نهر الدموع القاني
وكانه شكوى بغير لسان
ن الزهر غماما على البستان؟
حرسنا قراه عناية الرحمن

ب - قرطبة والأندلس: الحنين الثاني إلى مسجد قرطبة والأندلس. وتبدأ قصيدة الحنين إلى مسجد قرطبة بالشكوى من أن صرخته تفضح أمره. وهي الصرخة التي طواها القلب طيلة العمر. ويطمئن إلى أن صحبة الأظهار نور، وأن رضا الله نور. يمكن أن يتذكر وعشاء السفر. ويتوضأ ليصلي من دم القلب الكسير. ويسير في الطريق مع الآخرين، ولكن رجاءه لا يشاركه فيه أحد⁽¹⁾.

يعني مسجد قرطبة، الإسلام وسط الغرب، بعد أن حاول الغرب وضع نفسه وسط الإسلام ببناء كنيسة وسطه، عكرت جمال غابة النخيل من الأعمدة داخل المسجد. هو قصر التاريخ ومسجده من صنع فنانيين موهوبين. يقص حكايته للناس. مازال صوته يرن في النفوس، ومازال الأذان في الأذان. المسلمون ظمأى، ولم يرتوا منه بعد. ويزداد الظمأ برويته. كلما قام الظمآن بعد ربه قعد. زينته يخفق لها القلب. صنع المسلمون من الصخر فنوناً بأفعال القلوب. يهيج الذكريات. فتقابل أنات الروح⁽²⁾. المسجد لا ند له في عظمته إلا الإيمان وعمقه. جمع بين عروبة اللحن، وحجازية الروح، ويمنية العطر، وشامية الباسقات. ظباء تلعب بسهام

= أرشد براهمة الهنود ليرفعوا الإسلام فوق هياكل الأوثان
السابق، ص99.

(1) إن هذي الصرخة اليوم التي تفضح أمري
صرخة القلب التي خبأتها طيلة عمري
صحبة الأظهار نور ورضا الله صبور
وشقيق الروض كاسات على النهر تدور
هاهنا يمكن أن أذكر وعشاء المسير
ووضوئي لصلاتي من دم القلب الكسير
مع من عيشي الذي يمشي على هذا الطريق
وأنا إلا رجائي ليس لي فيه رفيق
(2) قصر التاريخ ومسجده، ما أروع ما صنعت يده
للقوم بصدر حكايته صوت مازال يردده
ظمأ لا ري له، وبه طلبُ الظمآن ومقصده
يزداد برؤيته ولها ويريد يقوم فيقعده
في الصخر فنون سرائرنا بلطائفنا نتعهده
ليهيج رنين جوانبه بأنين الروح نزوده

السابق، ص99.

الحب كما يلهو العرب بها⁽¹⁾.

أصبح الآن المسجد في الغرب جزءاً من تاريخ، لا يستطيع أحد جحده. وأصبحت الأندلس زينة الغرب، بل حرماً يفخر به الغرب ويعظمه⁽²⁾. من روجه خرج الإصلاح الديني في ألمانيا. فبدد الأسرار ولم يتبرك لها كما نتبرك بالبيت العتيق. وانهارت سلطة الباب العجوز وعصمته. وأيقظ الفكر قاضياً على الأوهام المسبقة معتزاً بأنه ترك المعارف السابقة حتى يتيقن من صحتها⁽³⁾. من ثناياه خرجت الثورة الفرنسية ناقدة للنظم الفكرية والسياسية القديمة، وأربكت كل شيء. وانقلب الشيء إلى نقيضه⁽⁴⁾. أما روما فقد شاخت على العهد القديم. تحتسي خمراً جديداً مع البابا كنديم⁽⁵⁾. ولو كشف المسلم أستاره وأسفر عن أفكاره لكل الغرب بحملها⁽⁶⁾. إن الأندلس التي بها مسجد قرطبة سماء للعيون. لم يسمع الأذان فيها

(1) لا ندله في سؤده إلا الإيمان وسؤده
عربي اللحن، حجازي روح الإسلام تخلده
يمني العطر، تهب به أنسام الشام وتخشده
نظرات طبائك لاعبة بسهام الحب تكبده
السابق، ص 479.

(2) يا ظل الغرب ودوحته من ذا تاريخك يجحده
بك أضحت تربة أندلس حرماً في الغرب نمجده
السابق، ص 479.

(3) هيح الألمان حول الدين إصلاحاً عريقاً
بدد الأسرار لم يتبرك لها بيتاً عتيقاً
أصبحت منه هباء عصمة الباب العجوز
وأفانق الفكر لا يعرف شيئاً لا يجوز
السابق، ص 480.

(4) منذ أن ثارت فرنسا بدأ الغرب العراكا
لم تعد تبصر فيه بعدها إلا ارتبكا
السابق، ص 480.

(5) هي ذي روما التي شاخت على العهد القديم
تحتسي خمراً جديداً معها البابا نديم
السابق، ص 480.

(6) ولو هتكت أستاري وأسفر وجه أفكاري
لكل الغرب أن يحمل ما غنته أوتاري
السابق، ص 481.

منذ قرون. كيف سرى موكب الحب الغضوب وفي أي درب بعد أن تاه المسلمون؟⁽¹⁾.

في فؤاد المسلم اليوم غليان. عندما تهيج الذكريات. وهو سر كشف عنه كل المصلحين. إقبال واحد منهم واثب في بحر الفضاء. بيده كوب يلتقط به ماء السماء. تميل سحابة الوادي فتحكي قصة الغطاس. رمتها الشمس بالياقوت. وابنة الفلاح تغني بأهاتها وأناتها. تغازل نهر قرطبة الذي مازال يزخر بالحب. يرتع الساري فوقه. فالنهر تاريخ يغني فوقه الشرق. صحيح أن عالمه الجديد مازال يحوط به القدر. ومع ذلك، حرية المسلم قادرة على التحرر منه⁽²⁾.

ساعة مغادرته أسبانيا سمع صوت المنارات عبر النسيم كتوماً في الأذان. صدها يتردد في الأرواح. يطوف بمسجدها توأم الحرم الشريف الركع والسجود. مازالت أثارهم على الثرى يفرح القلب، ونضرة تتجدد. تحكي النجوم لأسنة رماحهم بطولات الماضي ليلا. وإذا غابت الخيام فإن الأوتاد مازالت حاضرة. إن

(1) إن أرضاً أنت فيها لسماء للعيون
كيف لم يسمع أذاناً أهلها منذ قرون
ليت شعري كيف أسرى موكب الحب الغضوب
ليت شعري ما يرى الآن وفي أي الدروب
السابق، ص 480.

(2) في فؤاد المسلم اليوم كهذا الغليان
هو سر الله عن تبيانه كل اللسان
فارقبوا من ذلك الوائب في بحر القضاء
وارقبوا الكوب الذي يختاره ماء السماء
تميل سحابة الوادي فتحكي فيه غطاسا
رمتها الشمس بالياقوت أكداسا فأكداسا
وأغنية ابنة الفلاح تطرب رغم ركتها
برقتها إذا غنت وأهتها وأنتها
كأن غناءها فيض يقل سفينة القلب
تغازل نهر قرطبة الذي يذخر بالحب
هنالك يرتع الساري هنالك تصدح الورق
كأن النهر تاريخ يغني فوقه الشرق
نعم، مازال عالمه الجديد يحوطه القدر
ومثلي ليس يعجزه عن إدراكه نظر

سئلت الحسناء عن حسنها يحمر الوجه خجلاً من هجرها. فقد سفكت دماء المسلمين. نشفق وهم يشفقون على أعدائهم⁽¹⁾. لقد فتح صقر قريش الأندلس، ولكنه لم يستطع توحيد أمرائها. لقد سكنت الأرواح. وزال اللهب. وغاب بريق قرطبة الخالد. ضاع النوم من الجفون. وأثخنت الأمة بالجراح. في أسبانيا وفي مشهد. في كليهما العزاء⁽²⁾. ومع ذلك، ستهتك الأسرار في سيناء. وتباح من أول مصلح يعي أنين الأمة وحينها⁽³⁾.

ولما تحالف المعتمد بن عباد ملك أشبيلية مع الفونس السادس أسره يوسف ابن تاشفين وزج به في السجن فمات فيه. صور إقبال صرخته في السجن وكيف أنه آثر العبودية على الحرية فمات مع العبيد. ترك الحر السيف من يده فتحول إلى عبد. واغتربت ذاته في الآخر فوالاه⁽⁴⁾.

نظم إقبال في إحدى ساحات المعارك في الأندلس «دعاء طارق». يتخيل صقر قريش وقد عاد من جديد يرثي لحال المسلمين فيها. ويقارنهم بجيشه الفاتح

(1) صوت المنائر في نسيمك يرقد، وصداه في أرواحنا يتردد
يا توأم الحرم الشريف تطوفت بك رُح من عاكفين وسجد
بسماك من أثر السجود على الثرى طربُ يفوح ونضرة تتجدد
تحكي النجوم أسنة لرماحهم بإزائها ليل يقوم ويقعد
ملؤوا وهادك بالخيام ولم تزل أوتادها بنسيمهم تتأود
إن تسأل الحسناء عن خنائهم فتخبب ينصفها دمي المتورد
يا طالما سفكت هناك دماؤنا ظلما ونحن المشفقون العود
السابق، ص 485.

(2) ما كان صقر قريش غير موحد عجباً أما في المسلمين موحد؟
خدمت حقيقتنا وزال لهيبنا وبريق قرطبة الشريد مخلد
ووقفت لا نومي حمدت ولا السرّي أتكبد الجرح الذي أتكبد
عانيت مشهدهم وقلت وقيل لي سيان قول في العزاء ومشهد
السابق، ص 485.

(3) ستهتك الأستار عن سينائنا وتباح أسرار لنا وتُبدد
ويكون أول من يقوم بهتكها للناس أول مصلح يتحمد
السابق، ص 485.

(4) كذاك تفعل بالحر الحياة إذا أراد شيئاً وحالت دونه الطرق
أليس عارا على الأحرار يسجنهم مع العبيد دعي جيشه الحمق
السابق، ص 482.

الذي حمل عناء العالمين، وجاهدوا في سبيل الله. حملوا السر، والسيادة في طلبهم، والنور في نظراتهم، والنار في عزيمتهم. فعلوا كما فعل موسى بشق البحر بعصاه، فتراجعت المياه أمامهم. كان البحر مثل حبة خردل في كفهم. وكان العشق في أرواحهم إعصاراً. عزفوا عن الدارين، فأصبحوا من علاماتها الباقية. كانت الشهادة مطمحهم مهما أنختهم الجراح. لم يكن سبي الغواني وسلب الغنائم مطمناً لهم. جمعوا من كل العباد أقواماً وشعوباً تحت راية التوحيد. وحدهم لون الدماء. ونضج البستان⁽¹⁾.

خرجوا من الصحراء أفذاذاً. وامتلاً صدر الصبح من آهاتهم، وأصبح الأعراب أساتذة. طلبوا النار واستعذبوا طعمها. وأوجدوها بأرواحهم بعد حل وترحال. الموت ليس النهاية، بل باب البصيرة المفتوح. أين المسلمون الذين يؤمنون كما آمن قوم نوح. فالحق ثابت مهما تغيرت الظروف. الحق لا يتغير والناس كثير بين مدرك ومعتم. الحق يقين، والناس أوهام وظنون. يتنازعون على فهم العالم، والعالم سكران بين الماضي والمستقبل⁽²⁾.

ج - الشام وفلسطين: المسلم غريب الآن، مع أن عدد المسلمين بالشام

(1) هذي الكماة عبادك الأخيار
أصحاب شرك والسيادة طبعهم
فعلت كموسى في البحار عصيهم
البحر حبة خردل في كفهم
عزفوا عن الدارين إلا أنهم
نيل الشهادة للموحد مطمح
لا سبي غانية وسلب خزانة
كل العباد على اختلاف عروقهم
ترجو من العربي لون دمائه
السابق، ص 489.

(2) رباه أنت بعثت من صحرائهم
وملأت صدر الصبح من آهاتهم
طوت الحياة الدهر تنشد طلبية
وبروحهم عثرت عليها بعدما
الموت ليس نهاية في عينهم
رباه! فابعث مسلمين أعزة
لتغيرات العصر من ثوراته

وحدها مثل عدد حبات رمالها. كلما طاف الشاعر وجد زماناً غريباً مختلفاً عن الزمان الماضي. ومع أن هذا البحر ليس له ساحل يُرى إلا أن الشاعر امتشق الحسام. فلا حياة لمن يأنف الردى. وإذا سطع البرق زاد تألقاً، وبانت نخيل الشام. يعطي إقبال الأمل للمسلمين، بالرغم من ضياع ملكهم. فالعالم كله ملك الحاكم العادل. ويعيد المسلمون البناء لأنفسهم ولغيرهم. فالكرم لا يتحول إلى بخل. وإذا نضبت الأجساد من الدماء فما زالت المنازل مملوءة به. وتظل آثار المسلمين باقية بالرغم من انقراضهم كعبة للفضل يحج إليها الناس. وفيها صلى المسلمون، وضجت قلوبهم، وانتبذت أرواحهم سعف النخل⁽¹⁾.

بعد زيارة فلسطين عام 1931 للاشتراك في المؤتمر العالمي الإسلامي، نظم إقبال قصيدة «فلسطين» على نفس وزن «البردة» و«نهج البردة» ونفس مطلعها⁽²⁾. يتذكر أطلال فلسطين القديمة والمدينة قبل الاستعمار الاستيطاني وولادة الكيان الصهيوني، وكيف تحولت فلسطين إلى أشلاء من الخيم⁽³⁾. سكر القدماء هنا. فهل

والناس منها موسر أو معسر
إلا ظنون الواهم المتقول
سكران من ماض ومن مستقبل

وفي الشام من أمثالنا عدد الرمل
زمانا غريب الوجه مختلف الشكل
مضيت به عريان ممتشقا نصلي
وهل يقدهم الزند الشرار من الوحل
وحن بذكر الشام للأعين النجل
فكل بلاد الله ملك ذوي العدل
وحاشا لأهل الجود توصم بالبخل
فمنزلنا ريان من غدق البذل
وتطلب من آثارنا كعبة الفضل
هنا انتبذت أرواحها رسل النخل

والشمس ترتع بين البان والعلم

يدوي، هنا بضع أشلاء من الخيم

= رباه! أنت هو الحقيقة كلها
الدهر ملك يدك ليس لأهله
يتنازعون على تفهم عالم
السابق، ص 489.

(1) وأعجب ما في الكون غربة مثلنا
وما زلت في التطواف ألقى على المدى
وليس لهذا البحر من ساحل يرى
وما من حياة للذي أنف الردى
إذا شام طرفي البرق زاد تألقا
وما ضرنا ملك تركناه خلفنا
سنبني كما كنا بنينا لغيرنا
إذا نضبت أجسادنا من دماتنا
ستذكرنا الدنيا وتندبنا الورى
يقال هنا صلت وضجت قلوبهم
السابق، ص 484.

(2) نزلت بربة الوادي بذى سلم
السابق، ص 499.

(3) هنا بقية أطلال، هنا لهب
السابق، ص 500.

يقدر المحدثون على ذلك؟⁽¹⁾. ينادي إقبال على غزنوي جديد غير منهزم ليقود المعارك. فلا شيء يُرجى من لهيب العرب أو غناء الفرس. كما ينادي على حسين جديد من الحجاز أو محمود جديد من العجم⁽²⁾. أين ضاع الحب القديم وهم أهله؟ وهل للدين من قيمة بغير الحب؟ بالحب قدم إبراهيم ولده إسماعيل قربانا. وقدم الحسين رأسه على كفه. وبفضله وقعت غزوات بدر وحنين⁽³⁾.

وانقطع الرهبان في فلسطين. وانزوا داخل الأديرة. فعموا عن الدين والدنيا، عن الله والعالم. لا يرضى الناس عن حاناتهم بديلاً، بالرغم من أن الساقى نفسه ظمآن. لم يعد الناس ناساً، ولا القوم قوماً، في حين ساد القدماء على الأمم. العيب على ورد بلا جذل، وعلى شوك بلا ألم. وإن لم تقم الصلاة على صدق قامت على الزور⁽⁴⁾.

6 - من الماضي إلى الحاضر

يتمنى إقبال مرة أخرى جرعة كأس كي يخرج مرة من طوافه حول نفسه بعد

- | | |
|---|--|
| (1) هم أقاموا سكارى هاهنا زمنا
السابق، ص 500. | (1) فإن رضيت بسكر هاهنا أقم |
| (2) أما لمعترك الأيام من طمع
لا في لهيب تراث العرب من رصد
هل في الحجاز حسين من بني مضر
السابق، ص 500. | (2) بغزنوي جديد غير منهزم
يرجى، ولا في غناء الفرس من نغم
وهل هنالك محمود من العجم؟ |
| (3) أما لهم من بقايا الحب باقية
استغفر الله هل للدين من قيم
بالحب قدم إبراهيم واحده
فسل حيننا وبدرا عن حروبيهما
السابق، ص 500. | (3) وهم سلاله أهل الحب والتَّيم؟
بغير حب وهل للشعب من قيم؟
وابن الحسين على كف الحسين رمي
كم ضرح الحب فيها من فؤاد كمي |
| (4) رهباننا انقطعت عنا بأديرة
لا يرتضى القوم عن حاناتهم بدلا
حكاييتي البحث عن قوم هنا عُدمت
أنا أعيب على ورد بلا جذل
إن لم تكن نصب عيني في الصلاة فلا
السابق، ص 501 - 502. | (4) وكل منقطع في الدبر عنك عمي
بالرغم من أن ساقى الناشئين ظمي
أخبارهم وهنا سادوا على الأمم
كما أعيب على شوك بلا ألم
قامت على الزور في محرابها قدمي |

إثبات ذاته إلى العالم. ماذا يفعل وما زال الذات تحت الخمار؟ كيف تقوى وتشرب؟ كيف تخرج إلى العالم؟ لقد حطم المسلمون كل الحانات في العالم وهم يبحثون عنها. ويناجي إقبال الساقى أن يحن إليه، وأن يمر على الناس بالأقداح. فالخلق لم يذق بعد طعم الفتون. أما إقبال فقد أعاد إليه جنونه وعيه وذوقه⁽¹⁾.

تستطيع الأمة أن تعيد إلى التوحيد نوره. يتم به اتحاد العالمين. هو عطر في الروض لا يعيش في حبس دفين. هو نسمة تحمل شذى العاملين، ولا تحمل غبار الخاملين. تستطيع أن تحول شعلة الإيمان شمساً، ومن الذرى الطائرة جيلاً ثابتاً حصيناً، وأن تكون موجاً في قمة الطوفان، وسحاباً يمطر منه الغيث⁽²⁾. باسم التوحيد تقام خيمة الفلك المنير. يتلأل في الرياض وفي الصحاري وفوق الموج والسيل الهادر. يخرج منه نبض الكون وحرارة العالم. ويمتد أسره من المغرب إلى الصين. هذه المشكاة التي يشع منها النور هو ضمير المسلم الغيور⁽³⁾. ورفع الذكر

(1) أتْمَنِي مرة أخرى ولو جرعة كأس
علّ أن أخرج يوماً من طوافي حول نفسي
أنا منها في خمار كيف لي أشرب منها
كل حانات الوري حطمتها في البحث عنها
أيها الساقى متى تنظر لي عين حنانك؟
ومتى الجمهور بالأقداح تروي من دنانك
خالقك اللهم هذا لم يذق ذوق فتونني
وأنا إن لم تبدله ببذله جنونني
السابق، ص476.

(2) أعد من مشرق التوحيد نورا
وأنت العطر في روض المعالي
وأنت نسيمه فاحمل شذاه
وأرسل شعلة الإيمان شمساً
وكن في قمة الطوفان موجاً
صلصلة الجرس، ص109.

(3) فباسم محمد شمس البرايا
تلأل في الرياض وفي الصحاري
وتبصر الكون منه مستمد
ومن مراكش يغزو صداه
وما مشكاة هذا النور إلا
السابق، ص109.

أقيمت خيمة الفلك المنير
وفوق الموج والسيل المتغير
حرارته على مر العصور
ربوع الصين بالصوت الجهير
ضمير المسلم الحر الغيور

للتوحيد رفع لقدر الموحد نحو الكمال. الإنسان عين الكون. يشهد على مقامه العالي فوق المعالي. بخنجر العزم الوثاب تلوح على الأعلام أنوار الهلال. نداؤه في العناصر أجل ردع، والعشق خير سيف للنضال⁽¹⁾.

التوحيد هو الاهتمام بحياة الناس. «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم». فالله في السماء رعاية الناس على الأرض. الإيمان هو وجع في الرأس، «شوكة في البدن» كما هو الحال عند كيركجارد. لا يعرف الهناء في الصباح أو المساء، بل هو وجع في الفؤاد، وخز في الضمير⁽²⁾.

والأمة قادرة على ذلك. قلبها لا يعرف اليأس. علمها الحب قوة الإرادة. تحول العسر يسرا. تقدر على الصمود أمام قيصر وكسرى. هي متعلقة بالرسالة. فلا غرو أن تسقط الأعمار في أيديها. بها خاتم الرسل. شعلة تضيء أمام الركب. أخذها من الطور أول الصف وآخر الدرب. وهو سكران من نشوة الحب. إنها رحمة القرآن أعطيت للناس، ياسين وطه⁽³⁾. مازال المسلم قادراً على النهوض من جديد.

لقدرك نحو غايات الكمال
مقامك عالياً فوق المعالي
على الأعلام أنوار الهلال
إذا دوى بصوت من بلال
وعشقت خير سيف للنضال

صرت تهتم بأرض وسماء
لهناء في صباح ومساء
محض إنسان على هذي الوهاد
وجعا في الرأس لكن في الفؤاد

لا يعرف اليأس
أن يُرغم النفس
يستخرج اليسرا
يرجو ولا كسرى
بركاب سيده
يسقطن في يده
هو خاتم الرسل
في هذه السبيل
يمشي أمام الركب

(1) ورفع الذكر للمختار رفع
فكن إنسان عين واشهد
بخنجر عزمك الوثاب لاحت
نداؤك في العناصر مستجاب
وعقلك في الخطوب أجل ردع
السابق، ص 109.

(2) إن تكن ربا فيعني عندنا
وجع في الرأس لا يتركه
أستمح العذر إما إن تكن
فهو لا يعني تماما عندنا
جناح جبريل، ص 418 - 419.

(3) متفاهم قلبي
الحب علمه
من عسر عالمه
لا قصر قيصر
متعلق أبدا
لا غرو للاقمار
هو سيد الأشياء
هو شعلة الساري
هو مركب من نور

فما زال الوجد في قلبه. ويعترف التاريخ أن الجمال ترعرع من زرعه⁽¹⁾. رجل البصيرة لا يُهان، عبداً كان أم سلطاناً. يختال في الدنيا مسلحاً بالزهد، دون شكاية من أحد⁽²⁾.

من المسلمين من يتقدم إلى المعالي ومن يسير على نهج الهداية والصواب. يخرج النور من جبهاتهم، ويتلى الكتاب من أخلاقهم. بنى الأوائل المجد والفن العجائب. أما مسلمو اليوم فلا يعرفون من التراث إلا الشكوى والاكتئاب. ومن يعيش يومه يائساً فإنه يعيش غده معذباً⁽³⁾. فلماذا الشكوى من قوم فازوا، والآخرون نيام؟ مشوا بهدى الأوائل، في حين أن المحدثين أضاعوا التراث الأقدمين. كيف يحرم من ورد المعالي ويسعد بالرقي الخامل؟ أليس من العدل أن يكون حصاد الأرض لزارعيها؟ تجلي النور فوق الطور مما يستدعي وجود الكليم في سيناء⁽⁴⁾. لقد أرسل إلى الأمة نبي يوحدنا على نهج سليم. والمصحف منار

= أعطى جنون الطور
هو أول الميئدان
في أعين السكران
هو رحمة القرآن
هو سيدي ياسين
السابق، ص 424.

(1) دم المسلم النور في دربه
ويعترف العصر أن الجمال
السابق، ص 429.

(2) رجل البصيرة لا يدوق هوانا
يختال والدرع الوحيدة زهده
السابق، ص 422.

(3) من المتقدمين إلى المعالي
ومن جبهاتهم أنوار بيتي
أما كانوا جدودكم الأوالي
وليس لكم من الماضي تراث
ومن يك يومه في العيش يأسا
صلصلة الجرس، ص 104.

(4) أتشكو أن ترى الأقوام فازوا
مشوا بهدى أوائلكم وجدوا

بمجد لا يراه النائمونا؟
وضيَعهم تراث الأولينا

للأخوة، والقبيلة سبيل السلام. وفوق الجميع إله رحيم واحد رب الأنام. فلماذا ضاعت وحدتها، وتاهت الأمة في الظلام؟ وحسن اللؤلؤ المكنون مرهون بصوغ العقد وحسن النظام⁽¹⁾.

التاريخ الرائع للمجتمع الإسلامي في الماضي شاهد على إمكانية عودته في الحاضر. فكلما زاد التفكير في التاريخ الإسلامي أدرك الإنسان كم هو رائع. فمنذ نشأته حتى بداية القرن السادس عشر حوالي ألف عام كان هذا الجنس النشط (ويقول إقبال طالما أن الإنسان عمل كقوة جنسية خالقة) مشغولاً دائماً بالتوسع السياسي. ومع ذلك، وأثناء هذه العاصفة للنشاط المستمر وجد هذا الشعب الرائع وقتاً كافياً لنقل كنوز العالم القديمة وحفظها وإضافة عليها، وإبداع أدب فريد. وقبل كل ذلك وضع نسقاً قانونياً. وهو أفضل ما خلفه الفقهاء المسلمون⁽²⁾.

ويسعد بالرقي الخاملوننا؟
يكون حصادها للزراعينا؟
فهل بقي الكلیم بطور سینا؟

يوجدكم على نهج الوثام؟
منار للإخوة والسلام
إله واحد رب الأنام
وأمسيتم حيارى في الظلام
بصوغ العقد في حُسن النظام

=
أیحزم عامل ورد المعالي
أليس من العدالة أن أرضي
تجلّي النور فوق الطور باق
السابق، ص 104.

(1)
ألم يُبعث لأمّتكم نبي
ومصحفكم وقبلتكم جميعاً
وفوق الكل رحمن رحيم
فما نار ألفتكم تولى
وحسن اللؤلؤ المكنون رهن

السابق، ص 104 - 105.



الباب الرابع

السقوط والنهوض



الفصل الأول

أسباب السقوط

1 - «ضرب الكلیم» و«رسالة الخلود»

أ - ضرب الكلیم: إذا كان ديوان «أسرار النفس» هو أول ما نشر إقبال بالفارسية في 1915 فإن «ضرب الكلیم» هو آخر ما نشر في حياته بالأوردية عام 1937 قبل أن يتوفي بعام. إذ نشر «أرمغان حجاز» بعد وفاته بعام.

والرمز الذي يبدو في العنوان «ضرب الكلیم» هو الأهم، رمز موسى وهو يضرب بعصاه، فيتفجر الماء. مهمة الإنسان، خليفة موسى ورسالته في الحياة، تفجير الماء من الصخر، والحياة من الجماد. ويضع عنواناً جانبياً «عصا موسى» أي فعل الإنسان وقدرته على التأثير.

وبالرغم من قسمة ضرب الكلیم إلى ستة أقسام متنوعة الموضوعات ومختلفة الطول إلا أن الديوان كله مكون من مقطوعات صغيرة على عكس «جاويد نامه» أي «رسالة الخلود» التي هي منظومة شعرية واحدة⁽¹⁾.

(1) الأقسام الست هي: 1 - الإسلام والمسلمون (40ص) 2 - التعليم والتربية (18 صفحة) 3 - المرأة (6 صفحة) 4 - الأدب والفنون (28 صفحة) 5 - سياسات المشرق والمغرب (16 ص) 6 - أفكار محراب جل الأفغاني (12 ص).

ومن حيث عدد المقطوعات الشعرية 1 - الإسلام والمسلمون (68) 2 - التعليم والتربية (28) 3 - المرأة (9) 4 - الأدب والفنون (43) 5 - سياسات المشرق والمغرب (33) 6 - أفكار محراب جل الأفغاني (1).

والمقطوعة من بيت إلى عشرة تقريباً، كلها حوالي 202 بيتاً تقريباً باستثناء القسم السادس =

وبالرغم من أن المترجم قد أدى دوراً جليلاً بتحقيق أمنية إقبال وهو ترجمة بعض دواوينه إلى اللغة العربية، وقيام المترجم بذلك خير قيام، وإعطائه نموذجاً لما تكون عليه رسالة السفير في البلد الذي يمثل فيه الوطن، معرفة لغته وثقافته إلا أنه خاضع لسلوك العصر، والثناء على الحكام والدعاء للسلطين⁽¹⁾. والعيب لدى الشاعر نفسه الذي نظم رباعية في «أرمغان حجاز» بعنوان «الفاروق» بمناسبة اعتلاء ملك مصر العرش. وشتان بين الفاروق عمر، والفاروق الذي أزاحته الثورة المصرية عن العرش في 26 يوليو 1952 وتحويل البلاد من ملكية إلى جمهورية. فهو رياح العرب وموج النيل، الكرامة والسيادة، الإمامة والشهامة، الجمع بين الملك والدين مثل خليفة المسلمين، تتطلع الأشواق إليه وتنجذب نحو نوره⁽²⁾.

وبالرغم من الموضوعات الفلسفية في «ضرب الكلیم» إلا أنه تم التعبير عنها بالشعر. فلا توجد حقيقة إلا ويمكن التعبير عنها شعرياً. الحقيقة الإنسانية تجربة معاشة، حقيقة وجدانية يمكن التعبير عنها بالخيال. بل إن ما تبدو على أنها حقائق مجردة، تمت صياغتها شعرياً بعد تحويلها إلى تجارب ذاتية⁽³⁾.

وتتكرر الموضوعات. فالشكوى والجواب، والأنين والحنين، والسقوط والنهوض موضوع واحد. الشكوى هي الأنين. وكلاهما أسباب السقوط. والجواب هو الحنين. وكلاهما عوامل النهوض. وهو يدل على خضوع إقبال لبنية فكرية واحدة، السلب والإيجاب. ويصل الأمر إلى حد تكرار نفس الأفكار، ولكن في مناسبات مختلفة.

ب - «جاويد نامه» أي «رسالة الخلود»: «جاويد» لفظ متشابه. إذ يعني الخلود. وهو في نفس الوقت اسم ابن الشاعر وهو أيضاً «زروان» روح الزمان والمكان الذي يمضي الشاعر في سفرته إلى العالم العلوي. موضوعها أحوال

= والمقدمة، ضرب الكلیم، مدخل ص ح. ترجم الديوان وطبع لأول مرة في باكستان عام 1951 في الذكرى الثالثة عشرة لوفاة الشاعر.

(1) إهداء ضرب الكلیم إلى جلالة الفاروق وهي ترجمة الرباعية في مدح الملك التي كتبها الشاعر نفسه بمناسبة اعتلاء الملك عرش مصر، السابق، ص أ.

(2) من العقيدة إلى الثورة، من الدعاء إلى السلطين إلى مدح الشعوب، ط المقدمات النظرية، ص.

(3) ضرب الكلیم، مدخل ص و.

المسلمين من خلال رحلة في الكواكب مؤتماً بجلال الدين الرومي في «المنثوي». الرسالة أشبه بالإسراء والمعراج يطوف فيها الشاعر بقيادة جلال الدين الرومي مثل البراق بين سبعة أفلاك⁽¹⁾. وفي كل فلك يحيا شخصية أو يتطرق إلى موضوع، بعد مناجاة أولى، وتمهيد سماوي، وتمهيد آخر أرضي وأغنية الملائكة وغزل وزمزمة النجوم، ثم روح الزمان والمكان، تستخدم بمثابة التمهيد المسرحي لرحلة الروح. يحاور الشاعر في الفلك الأول: فلك القمر «جهان دوست»، وفي الثاني فلك عطارد الأفغاني وسعيد حليم، وفي الثالث فلك الزهرة الآلهة القديمة، وفي الرابع فلك المريخ القضاء والقدر، وفي الخامس فلك المشتري الحلاج، وفي السادس فلك زحل الخونة، وفي السابع ما وراء الأفلاك نيتشه، وهو ما دعا البعض إلى الحكم بأثر نيتشه على الشاعر. وكما بدأت الرحلة بمناجاة تنتهي إلى المستقبل مثل ابن عربي في «فصوص الحكم» في الفص الأخير، فصل «ابن سنان». أكبرها فلك عطارد، وأصغرها فلك زحل⁽²⁾. وهو الديوان الوحيد الذي يقوم على بنية مسبقة مثل المذاهب الفلسفية، وليس تجميع موضوعات متفرقة، وقصائد متباينة تحت عنوان واحد. لذلك أخذت طابعاً نظرياً خالصاً أقرب إلى التجريد منه إلى تحليلات الواقع المباشر وحال الأمة.

ليست القضية إذا كانت «رسالة الخلود» تقتفي أثر «الكوميديا الإلهية» لدانتي أو «منثوي» جلال الدين الرومي، فالإبداع الشعري مستقل عن مصادره، ونماذجه، والأثر والتأثير.

في فلك القمر يقدم الرومي الشاعر إلى جهاز دست «سحب الدنيا»، الحكيم الهندي، صديق للناس كافة، من أجل بيان أن طريق التقدم هو الجمع بين الحضارتين الشرقية والغربية، بين الروح والمادة، وأن الشرق الخامل بالفعل في طريقه إلى اليقظة. ثم يطلع الشاعر كتب بوذا وزرادشت والمسيح ومحمد. ويشرح

(1) رسالة الخلود «جاويد نامه» نقله إلى العربية شعراً حسين مجيب المصري. وهي التي اعتمدنا عليها اتساقاً مع الدواوين الشعرية التسعة الأخرى. ولها ترجمة نثرية أخرى قام بها الصديق الفاضل د.محمد سعد جمال الدين. جاويد نامه، ص152 - 154

(2) ترتيب الأفلاك من حيث الكم (عدد الصفحات) 1 - ما وراء الأفلاك (42) 2 - عطارد (32) 3 - القمر (26) 4 - المشتري (22) 5 - الزهرة (12) 6 - المريخ (12) 7 - الجيل الجديد (10) 8 - زحل (6).

تعاليم كل دين على لسان شخصيات أرمغان، البوذية على لسان راقصة، وزرادشت على لسان أهرمن، والمسيح على لسان تولستوي، ومحمد على لسان أبي جهل. ويلاحظ أحياناً الحديث بالضد في حالة البوذية والإسلام.

وفي فلك عطارذ يقابل جمال الدين الأفغاني وسعيد حلیم باشا. ويصف على لسان الأفغاني أخطاء أمم الشرق خاصة الأتراك والفرس والعرب، ووقوعهم في التغريب. والتعبير عن رأي الشاعر في المزج بين الثقافتين الغربية والشرقية على لسان سعيد حلیم أحد المصلحين الأتراك وليس الخلافة أو العلمانية وهو طريق «زنده رود» أي «النهر الحي»، بالرغم من أن المصلح التركي يرى أيضاً أن الدين قد أصابه الفساد بسبب تعصب رجال الدين «الملا»، وخلق المشاكل بدلاً من حلها.

وفي فلك زحل يزور إقبال موطن الآلهة القديمة حيث يقيم فرعون وكثشينر. ويعتذر فرعون عما فعل لموسى مع مقارنة الشاعر بين الأوثوقراطية والاستعمار في الشرق.

وفي فلك المريخ يناقش إقبال مع فلكي مشكلة القضاء والقدر، وإمكانية الإنسان أن يغير قدره، والسيطرة التامة على قوى المجتمع والطبيعة ضد القدرية الجهمية، والكسب الأشعري، والثقافة الشعبية القدرية.

وفي فلك المشتري يتقابل مع الشاعر غالب والحلاج لمناقشة الحياة والموت وظهور الشيطان.

وفي فلك زحل يقابل الخونة الكبار الذين عملوا ضد أوطانهم وهم يكافحون عاصفة قوية من الدماء.

وفيما وراء الأفلاك يقابل الشاعر نيتشه الذي ظل يبحث عن الإله ولم يجده لاعتماده على العقل الذي لا ينتهي إلى شئ. ثم يقابل ثلاثة شعراء من كشمير ليعرض بيع بريطانيا لها. ويقابل شعراء آخرين من الهند. وبعدها يسمع صوت الإله ليكشف له أن سر التقدم هو نمو الأفراد والمجتمعات.

وفي النداء إلى الجيل الجديد يخاطب الشاعر الشباب الذي يرمز لهم ابنه

جاويد. وينصحهم بالابتعاد عن صحبة الأشرار، وبتنمية نداهم بالجهاد والكفاح، والسعي في الأرض⁽¹⁾.

يتناول إقبال في «أرمغان حجاز» الذي نشر بعد موته في 1938 نفس موضوعات الدواوين السابقة في خمسة أقسام: مناجاة، الرسالة، المجتمع، قصائد رباعيات. أطولها الثالث عن المجتمع. وواضح أن الثاني «الرسالة»، والثالث المجتمع أسماء موضوعات في حين أن الأول «مناجاة»، والرابع «قصائد» والخامس «رباعيات» أشكال أدبية. يجمع بين التصوف والفلسفة والسياسة خاصة في قصيدة «برلمان إبليس» لمناقشة المذاهب السياسية في عصره. والإسلام هو المنافس الوحيد لها. ويبدو في هذا الديوان بوضوح نقد التصوف كسلوك وطريق. ويعمق فلسفة الذاتية. ويعرض لموضوع الخلافة والملك ونقد الأتراك لوقوعهم في تقليد الغرب. ويصف أحوال العصر الحاضر. ويبين طرق الخروج من أزمتته⁽²⁾.

وفي «برلمان إبليس» جلسة برلمانية ناقش فيها شياطين العالم، ووكلاء نظام إبليس. واستعرض المذاهب السياسية التي تهدد مهمتهم في العالم. وانتهى إلى أن المسلم هو المنافس الوحيد والمناضل ضدها. هو الشرارة التي تتحول بسرعة إلى نار. فكيف يُحارب هذا العدو؟ تأمر أنصار الباطل ضده لإضعاف الروح الديني لكن اليقظة الإسلامية حمته. وأصبح المسلم هو باز العالم الجديد⁽³⁾.

2 - موقف الذات

العصر عصر الأمة الإسلامية، وحاضرها ووضعها الحالي. أما العصر الحديث فهو أقرب إلى الغرب، عصر الآخر وليس عصر الأنا. فالعصر عصران. والزمن زمانان، والوعي التاريخي خاص بكل شعب. قد يتزامن الوعي التاريخي للشعوب دون أن يتعاصر.

ليست النجوم في السماء هي المسؤولة عن هدم أمجاد الأمة بل المسؤول

(1) رسالة الخلود، ص 135 - 138.

(2) أرمغان حجاز، نقل القسم الأول والثاني والثالث من الفارسية إلى العربية شعراً حسين مجيب المصري. ونقل القسمين الرابع والخامس نثراً سمير عبد الحميد إبراهيم، ص 411 - 416.

(3) السابق، ص 503 - 509.

موت الذات وشقاؤها بين العزلة في القمم، وتقييدها بالأصفاد⁽¹⁾.

العصر أمانة للذات في الشرق وفي الغرب على حد سواء. ماتت الذات عند العرب فأصبحوا خامدين، وعند العجم فتحولوا إلى مجرد عروق وعظام، وفي الهند جناح مكسور، طائره في قفص محتبس في قفص، وهو حرام. موت الذات عريها من ثياب البيت الحرام⁽²⁾.

أصبح الفكر مجرد سقطات ومماحكات فيما لا ينفع مثل صلة الروح والجسم، وبلغت الفلاسفة بين النفس والبدن. يبحث عن جوهر النفس وجوهر البدن، ومشاكل الناس وأزماتهم وحياتهم اليومية في جانب آخر⁽³⁾. حطم الحكماء كل شيء، يريدون الملائكة دون أن يظفروا بآدم في الحياة. فالحقائق عند البشر وليست في المجردات، في الحياة وليست في المجسمات⁽⁴⁾.

أصبح المسلم قوقعة فارغة. وهو القادر على أن يجعل من الحصى تيجاناً للملوك⁽⁵⁾. والسؤال هو ذوبان الذات في العالم، وانشغال القلب بحاجات البدن.

مسؤولة عن هدم أمجادك
ما بين قممها وأصفادك

(1) ليس النجوم برغم لعبتها
بل موت ذاتك بعدما شقيت
جناح جبريل، ص 443.

وبموت الذات في الشرق جذام
ولدى العجم عروق وعظام
هيض في الأفاص والعش حرام
من ثياب سادن البيت الحرام

(2) من ممات الذات في الغرب ظلام
من ممات الذات في الغرب خمود
من ممات الذات في الهند جناح
من ممات الذات يُعري مسلماً
ضرب الكلبي، ص 56.

ما جوهر الروح أو ما جوهر البدن
وثورة وسرور النفس والحزن
أو أن من خمرة كأساً، لذي زكن
حمر بدا في رماد منه للفظن

(3) تحير الناس في ذا اللغز من قدم
ومشكلي في اضطراب بي وفي ثمل
ومشكل لك أن الخمر من قلدح
ما اللفظ والمعنى؟ وكيف الروح في بدن؟
السابق، ص 37.

ومن هذا الوجود بسومونات
وما ظفروا بآدم في الحياة

(4) أرى الحكماء تحطم كل شكل
يريدون الملائك في طلاب
رسالة الشرق، ص 270.

فمن المسؤول عن هذا السلوك؟
جوهرها يلهب تيجان الملوك

(5) إن أكن قوقعة فارغة
أنت من يجعل من هذا الحصى
جناح جبريل، ص 409.

ذهبت الجوقة. وانكسرت الكؤوس. وأطبق الصمت في الوديان. وتسولت في الحانات. واكتنفها اللامبالاة في غياب ماء الخضر لملأ الكؤوس⁽¹⁾. وإذا حضر الشراب فالكأس صغيرة، وفرغت الدنان. والذات طامحة. والقلب جامع. فاللؤلؤة مازالت في البحر تضيء⁽²⁾.

أجديت حانات إيران⁽³⁾. وأغلقت الحانات أبوابها في الهند، ثلاثة قرون بعد سقوط سرهند. اختفى الندمان والشراب. وانزوى الغزل. وتاجر اللاهوت حرم الشرب. فأصبحت القلوب سوداء في الغاب. وضاعت الحقيقة من قلوب الصوفية والملا. ولم تبق لديهم إلا القراب الفارغة. كلام القلب هو الخمر، وإلا كان موتاً⁽⁴⁾.

- (1) ساقتي ما حصل الذي أبغيه
القلب منشغل بما عاطيته
ذهبت بجوقته كؤوسك كلها
ما مثله متسول في حانة
لو جاء ماء الخضر كسر كأسه
السابق، ص 413 - 414.
- (2) ساقتي والكأس الصغيرة لم تعد
فرغت دنان القوم في أديارهم
بصري على طمح وقلبي جامع
غادرت لؤلؤتي التي أغرقتها
السابق، ص 414.
- (3) وحانات إيران قد أجديت
السابق، ص 416.
- (4) لماذا أغلقت أبوابها
لمضت هدرا ثلاث قرون
مضت هدرا ثلاث قرون
ولم تتحمل الندمان
ذوت غزليتي لا شيء
علينا بانع اللاهوت
قلوب أسودنا في الغاب قد هجرت تحققها
مع الصوفي والملا عبيد أيها الساقى
من انتزع الحقيقة من مهند حيننا هذا
وما أبقى لها إلا قرابا أيها الساقى
كلام القلب حين يكون حيا خمرنا الباقي
وإلا كان للأرواح موتا أيها الساقى
السابق، ص 412 - 413.

والحانات رمز المعرفة. هناك كؤوس لا مذاق لشرابها. وهناك شراب ليس له كؤوس. وتأثر بين إيران وتركيا أو سرور قيصر والغرب⁽¹⁾. الأوضاع بائسة، حائرة، سعيدة بالأوضاع القائمة. ومع ذلك تغييرها أسعد⁽²⁾. هذا الزمان صعب مظلم، والإنسان بعيد عن القافلة. لذلك يقدم إقبال لهيب زفرته مصباحاً يبدد ظلمات الليل⁽³⁾.

حرم إنسان هذا العصر العشق لصالح العقل الذي يريد أن يثأر منه. أصبح العقل شارداً. غابت عنه البصيرة للهدى. لم يعد إلى ذاته لاكتشافه. وآثر النظر إلى الخارج، عالم الأفلاك. انتهت حكمته إلى شرك. فغاب عنه مقياس المنفعة والضرر. لم يعد يقبض على شعاع الشمس فأظلمت ليليه⁽⁴⁾. انتبه هذا العصر لعالم الطبيعة. ونسي عالم الإنسان، في حين أن علم الذات هو القادر على إنارة الطريق لعلوم الطبيعة. الذات في جدل مع الطبيعة، ويحتاج هذا الجدل لمعايير للسلوك⁽⁵⁾.

أصبحت مدينة الإسلام اليوم خاوية باردة بلا عشق أو جنون. نقص منها

- | | |
|--|---|
| (1) كم ذا ذهب مشرقاً ومغرباً
فهنا كؤوس لا مذاق لخميرها
طوران من إيران تأخذ ثأرها
السابق، ص422. | أنفحص الحانات في الآفاق
وهناك خمر ما لها من ساق
وبلاط قيصر من دمائهما ندي |
| (2) قافلة القوم بوضع يؤسف
وؤغم هذا غبطة السياحة
السابق، ص454. | حائرة يسحرها التوقف
تجاوزت غبطة تلك الراحة |
| (3) هذا الزمان ليله شديد
لهيب زفرتي هو المصباح لك
السابق، ص455. | وأنت عن قافلتي بعيد
يبدد الليل ويقشع الحلك |
| (4) حُرم العشق وللعقل به
تبع العقل شرودا سادرا
لم يسافر في دُنَى أفكاره
هو من حكمته في شرك
من شعاع الشمس في قبضته
ضرب الكلم، ص48. | نكزات كشجاع يثأر
ما هدى العقل لديه بصر
وعلي الأفلاك دام السفر
غاب عنه نفعه والضرر
ما به ليل حياة يسفر |
| (5) نظر المنجم في حباك نجومه
من يدر أن الذات أرفع منزلا
وجميل أنظار يرى وقبحها
السابق، ص49. | لكن مقام الذات عنه يستر
عرف الزمان وصرفه لا يقهر
وحلال قلب والمحرم يُبصر |

الحماس والفعل والإقدام. وعمتها اللامبالاة والفتور كما لاحظ الكواكبي في «أم القرى». وهي خالية حتى من كمال العقل خلوها من عشق الجنون. لا يحركها شئ من عظمة الماضي أو أزمة الحاضر. لديها من الحقائق والدوافع، وتحمل من الطموح والآمال ما يحركها بعيداً عن طلسمات أفلاطون. تحمل رسالة جبريل الأمين، وأمانة مكارم الأخلاق، والحمية العربية، والشجون والأحزان⁽¹⁾.

من أسباب السقوط ذبول الحب في أنفس العاشقين، وتحوله إلى وسوسة، والاعتماد على المدرسة والتعليم والتلقين والحفظ والطاعة للمشايع. بلغ تعظيم المعلمين درجة أنهم أصبحوا أصناماً جدداً. تذر الرياح معابدهم وزواياهم. والعالم لا يعيش في عش أو قفص⁽²⁾. لم يعد للمسلمين من جنون الحب نصيب. كان دمهم مناراً للشعوب. ثم أراقوه في الظلام. خارت قوى الضلوع. ولم يعد بها لهب يصل. وسجداته رتيبة في خمول، في صفوف معوجة وذهول⁽³⁾.

وتصدر النظرة من القلب، على عكس النظرة اليوم الخالية من أي جذبة.

(1) حياة المسلم اعرف في بياني
سنا كالصبح مغربه طلوع
ولا كالعصر، خلو من حياء
حياة بالحقائق في قرار
عناصرها يؤلفها جمال
وحسن الخلق من عجم لديها
السابق، ص 32 - 33.

(2) ذوى الحب في أنفس العاشقين
وصرنا إلى زمن ماله
يقولون أستأذنا آزر
هم وثنيون لا يعرفون من فن آزر إلا اسمه
رشاقة فطرته البائدة
ولم تبق زاوية هادئة
فلا هو عش ولا هو قفص
جناح جبريل، ص 415 - 416.

(3) أتري ما للمسلمين نصيب
دمهم كان للشعوب منارا
ذاك أن الضلوع خارت قواها
سجدات رتيبة في خمول
السابق، ص 467.

نظرة فارغة خالية من أي سحر⁽¹⁾. أضاع المسلم القلب⁽²⁾. وضاعت منه حرارة الإيمان، وسراج ليل الفكر⁽³⁾. لم يعد الفكر حتى بالفضيلة يرضي القلب. ولم يعد القلب يؤمن بالتجارب ولا بالفكر. حدث نفور بين الخطابين: خطاب العقل، وخطاب القلب⁽⁴⁾.

ليست الشكوى من الأصدقاء، ولا من جور الزمان، ولا من نقص الثياب. إنما الشكوى من غياب ذوق الغناء، والحزن الذي يشبط العزائم، والخوف الذي يقعد عن الجهاد. الشكوى من عقد الفكر وعدم إطلاق سراحه، والخلاص من شياطينه، وغياب الحب وجنونه⁽⁵⁾. وبسبب بلاهة المسلم باعته الملوك في الأسواق. ولم يتعود من قبل على هذا التشرذم والتسكع في الطرقات. والشاهين يطير. لا يتخذ عشاً. ولا يأكل جيفة⁽⁶⁾.

واللامبالاة أحد أسباب السقوط. لم يعد المسلم يبالي بشيء. أصابه الفتور وعدم الحماس كما عبر عن ذلك الكواكبي في «أم القرى» لمعرفة أسباب الفتور

(1) وحدها النظرة ما أطلبه
ونظرة خالية من جذبة
وشؤون القلب عنها تصدر
نظرة فارغة لا تسحر
السابق، ص444.

(2) يا أمم الشرق، ص400.

(3) فحرارة الإيمان في القلب المشوق إلى النضال
وسراج ليل الفكر، لا معبود إلا ذو الجلال
السابق، ص401.

(4) الفكر حتى بالفضيلة لم يعد
والقلب حتى بالتجارب كافر
ويرد قول الفكر في تقريرها
وإلى متى تجتاحني أنفاسي؟
فإلى متى هذا النفور يقودنا
جناح جبريل، ص418.

(5) بفضلك لا أشتكي الأصدقاء
وثوب الحياة التي خضتها
فهبني بسرك ذوق الفناء
فلا الحزن ثبط من عزمهم
نعم، عقد الفكر أطلقها
متى الحب تمنحني سره
ولا أشتكي جور هذا الزمان
بفضلك أخلعه في أمان
كما فني السابقون الأول
ولا الخوف أفعدهم في الدول
وخلصتني من شياطينه
وتجعلني من مجانيه
السابق، ص416.

(6) أحرقث رغبتي بلاهة سوق
فأنتني ملوكه تشتريها =

في العالم الإسلامي. العينان تلمعان ولكن لا يشيران إلى الاهتمام بشئ مثل عيني الأبله الفاجر فاه، الجاحظ عيناه⁽¹⁾. عدم الاكتراث هو البلاء. مع أن المسلم في الماضي كان يخوض المعارك. يقضي عمره كله في الجهاد في ساحة الوغى وفي العلم، بحرارة الرومي وباكتئاب الرازي. نما العقاب بين النسور الكاسرة. وكان للصقر الملكي سر واحد هو الحب⁽²⁾.

3 - القدرية والمهدية

ردأ على اشبنجلر أن سبب ضعف المسلمين إيمانهم بالقضاء والقدر وبالمهدي، نظم إقبال عدة مقطوعات بأن هاتين العقيدتين غريبتان على الإسلام، بالرغم من استعمال إقبال عقيدة المهدي في بعض أشعاره لنفخ الحياة في موتى الأحياء. فالإنسان سلبي في كلتا الحالتين، في الأزمة والخلاص، في البداية والنهاية. إرادة غير إرادته تورّطه، وإرادة غير إرادته تنقّذه من ورطته كما هو الحال العقائد المسيحية، وحصار الإنسان بين الخطيئة والخلاص، بين آدم والمسيح⁽³⁾.

ودرءاً للشبهة العامة بأن الإسلام مركز حول الله وليس حول الإنسان، ينظم

بعبوديتي التي أنا فيها
أو تسكّعت في طريق كهذا
بين غاب يرودها وجبال
ناعم باله شديد المحال

ولو اهتمت جعلت منه يقينا
دلت على عدم اكتراثك فينا

لم أستفد شيئا بكل غنائبي
في ساحتها أنفقت كل حياتي
نشبت على لغز من الألغاز
حيناً وحيناً باكتئاب الرازي
وترعرعت بين النسور الكاسرة
لم تدره تلك العقاب الحائرة
لغة، ولا تحتاج للألفاظ

على قدر التخيل في الحياة
غزال المسك من هذي الفلاة

= لست أبتاع سكرة الملك غبنا
ما ترددت أو تشردت يوماً
لا يمل الشاهين ما يرتجيه
ويرى في اتخاذه العرش عارا
السابق، ص 414 - 415.

(1) لم لست مهتما بهذا كله؟
عينك لامعتان إلا أنها
السابق، ص 416.

(2) عدم اكتراثك لم يزل وشفائي
ما خضت إلا وقعة نشبت به
ما خضت طول العمر إلا وقعة
بحرارة الرومي كنت أخوضها
ما أفلحت تلك العقاب وقد نمت
فلصقرنا الملكي سر واحد
للحب أغنية وما لغنائها
السابق، ص 417.

(3) أرى الأفرام تمضي في حياة
فإن تنفر من المهدي ينفر

إقبال قطعة حول «الإنسان». فهو سر الوجود والعدم. سمي الإنسان منذ القدم. هو سر لا يمكن وصفه في كلمات معدودة. إذا ضعف الزمن فإن الإنسان لا يضعف. ويظل يحمل مشعل التقدم. هذا الإنسان هو الإنسان، لا روحاً ولا بدنًا⁽¹⁾.

أصبح التوحيد اليوم نكتة أي المفارقة بين ما يجب أن يكون وما هو كائن. تحول إلى وثن في الرأس، وصنم للعبادة، وشيء يُبتهل إليه. لم يبينه الفقه. أصبح دافعاً على حروب الزور والعدوان. وبدلاً من أن يكون ثورة للتحرر أصبح عبودية ورقا. وبدلاً من أن يميل المسلم إلى فقير أي إلى حر صاحب وعي مستقل جعله ذليلاً مدعناً⁽²⁾.

ومن مآسي المسلمين كثرة إدعاء النبوة كما فعل محمد علي الباب وهو يلحن في القرآن فجعل من آياته اللحن! والمنتبني الجديد يرى إسقاط فريضة الجهاد، والدعوة إلى المسالمة. وهو ما تريده بريطانيا وبعض أدعياء التصوف⁽³⁾.

- | | |
|---|---|
| <p>بأكفان وأغرق في سبات
تمزّق عنه أثواب الممات؟</p> <p>سُمي الإنسان من قَدَم
يحتويه الوصف في كَلِم
من سفار بء بالسقم
لم يُصب بالضعف والهزم
إن تسعه غير متهم
ذلك الإنسان للفهم</p> <p>ثبّت في الرأس موثنا، ما احتيالي؟
ليس في الفقه بينا، ما احتيالي؟
لست في الحرب مطعنا، ما احتيالي؟
حجب الرق أعينا، ما احتيالي؟
تؤثر الذلّ مُدعنا، ما احتيالي؟</p> <p>ولا الولي ولا المجدد
كيف توصف أو تحدد
لي نظّر مسدد</p> | <p>= إذا ما الحيّ من جهل تردى
أُسلم ذا الجهول إلى الردى أم
ضرب الكليم، ص 40.</p> <p>(1) ذا طُنُسُم الكون والعدم
هو سر الله جل فلا
إن هذا الدهر من أزل
ومضى الإنسان سيرته
وإليك السر أعلنه
ما بدا روحاً ولا بدننا
السابق، ص 39.</p> <p>(2) إن سر التوحيد طوع بياني
رمز شوق بلا إله خفي
كم سرور في حرب حتى وزور
كم تُجلي الآفاق نظرة حر
أي ملك مقام فقر! ولكن
السابق، ص 36.</p> <p>(3) لست المحدث والفقيه
لا علم عندي بالنبوة
لكن إلى الإسلام في الأيام</p> |
|---|---|

وفي بعض كتاباته النظرية، يدافع إقبال باعتباره ليبرالياً عن الأحمدية والبهائية دفاعاً عن حرية الفكر والتأويل.

ومن أسباب السقوط تعدد المذاهب الفقهية الحديثة عند مسلمي البنجاب وكثرة النحل والبدع. فلكل مجدد مذهب. وكل عالم له تأويل. فارتبك الجميع. وقسمت الأمة إلى مذاهب وطوائف في جو عام من التعصب الديني⁽¹⁾.

لقد حطم الإسلام الوثنية، والكهانة والسدنة والتيجان والعروش. ثم فقدت الأمة قوتها. تفرقت وتم احتلالها⁽²⁾. لقد هدم الإسلام اللات والعزى، وحرر الحرم. وبنى فوقها أمة علت القمم. لم تبين ربا من رخام أو حجر. ولم تسجد لنجم أو لنبات أو بقر. لم تعبد الكهان أو السلطان⁽³⁾.

وبالرغم من استمرار الرسالة في التاريخ إلا أن أنصار أبي لهب هم الذين يسيطرون على العالم الإسلامي. والشباب استنارت عقولهم وأظلمت قلوبهم. ينعمون بمباهج الدنيا ولا يحملون أملاً جديداً ونظراً بعيداً. نشأوا على العبودية جيلاً وراء جيل بحيث ضاعت الحرية كأمل منشود⁽⁴⁾. الدين له من الزمن البعيد

= أوحى إليّ بسره الفلكُ المحيط فلا أفئد
فأريت في ظلمات هذا العصر ذا الحق المؤيد
عندي حشيش المسلمين نبوة فيهم تجدد
ما إن لديها دعوة للباس والمجد المخلد
السابق، ص 38.

(1) مجدد في كل حين مذهباً يحل في مرحلة ليركبا
في حلبة التحقيق يكس وإذا خامره داع غوي غلبا
حباله التأويل إن تُنصب له هوى من العُش إليها معجبا
السابق، ص 42.

(2) يا أمم الشرق، ص 398.

(3) يا من هدمت اللات والعزى وحررت الحرم
وبنيت أعلى أمة تهدي بسيرتها الأمم
لم نتخذ في الكون ربا من رخام أو حجر
كلا ولم تسجد لنجم أو نبات أو بقر
لم نلق جبهتنا لدى الكهان في ذل حقيير
لم نحن هامتنا لسلطان قوي أو أمير
السابق، ص 401 - 402.

(4) طوفت في أرض الأعاجم ثم في أرض العرب =

أضحى غريباً عن ذاته. استبدل بكرامته طعام الذل. يلتقط حباً كالطير في الأرض، وليس كالصقر في عنان السماء. ومن لا يبتغي من هذه الدنيا متاعاً، إن لم ينل قرب الحبيب، تكون دنياه ضياعاً⁽¹⁾.

الأمة متفرقة متشرذمة فإلي أين يذهب المسلم؟ ولا يوجد في بحر العرب ثورة، ولا في الصدر موج، فأين يذهب؟ لا يوجد للحادي ركب أو زاد وهو يقطع الفيافي، فأين يذهب؟⁽²⁾.

ومن مآسي العصر الحاضر الصراع بين المسلمين والهندوس. قتل مسلم هندوسياً أساء إلى الرسول في لاهور. وقتل هندوسي مسلماً أتي يشاوره في أمر في كراچي. وآراء المسلمين تأدية دية القتيلين تجنباً لقتل القاتلين. إلا أن إقبال لم يشأ التسوية بين مسلم وكافر في الدية. فالمسلم شهيد، والهندوسي كافر. والتوحيد لا يقبل الشرك. ولا يساوم معه!⁽³⁾.

لم ألق فيها المصطفى ولكم رأيت أبا لهب
عجبي لهذا المسلم المزهو بالعصر المنير
لا همة تحدو خطاه ولا سراج في الضمير
وأرى شباباً واهن العزمات في لين الحرير
ولدت أمانيه فكان المههد مصرعها الأخير
ذاك الغلام بن الغلام بن الغلام بين الغلام
في شرعه تحريير أمته محال أو حرام
الدين ليس له بلدنياه زمان أو مكان
كل الذي أدريه عنه أنه بالأمس كان
عن ذاته أضحى غريباً مستهماً بالدخيل
بذل الكرامة عنده ثمنا لمطعمه الذليل
كالطير غايته التقاط الحب في ظل القصور
هو طائر لكنه لم يدر تحليق النسور

السابق، ص403.

(1) إن الذي لا يبتغي من هذه الدنيا متاعاً
إن لم ينل قرب الحبيب تكون دنياه ضياعاً

السابق، ص407.

(2) أرى الملة البيضاء بُدّ نظمها
فمسلّمك انظر حاله، أين يذهب؟

وليس ببحر العُرب لذة ثورة
وفي الصدر موج غاله، أين يذهب؟

ولا ركب ولا زاد عنده
وقطعُ الفيافي هاله، أين يذهب؟

فبين لنا الأسرار، روح محمد!
حفيظ لأي، ياله، أين يذهب؟

(3) قد تولي الله عبداً
مسلم ما أمرا

يعبر إقبال عن وضع المسلمين في الهند. إذ يقول البرهمن عن المسلم أنه خائن لوطنه، وإن كان مخلصاً لدينه. فالإسلام دين ووطن. ويصفه الإنكليز بأنه سائل شحاذ. وتعتبره البنجاب كافراً لا يؤمن بالدين الهندي وتمسكاً بإسلام الأسلاف. وبصرف النظر عن الصواب والخطأ في مثل هذه الأحكام إلا أنها مجهدة للذهن، مضيعة للوقت، جالبة للحروب⁽¹⁾.

نسي العرب الذين حملوا الرسالة وبلغوا الأمانة أداء الواجب والاستمرار فيه. فكيف يخاطب الهندوسي أمراء العرب وهو يعلم أنهم تخلوا عن واجباتهم، وغابوا عن الساحة بعد أن كانوا من أوائل الأمم التي تهب في نجدة الغير؟⁽²⁾.

4 - القهر الداخلي والاستعمار الخارجي

لقد ماتت الأمة أربع مرات بسبب المرابي، والوالي، وشيخ الطريق، والشيخ. وهي السلطة الاقتصادية والسلطة السياسية والسلطة الدينية بنوعها الفقهي والصوفية⁽³⁾. لقد بيع العلماء في سوق التجارة الرائجة بأرخص الأسعار.

- | | |
|---|--|
| <p>لم الروح سافرا
لخلود أثرا
وأغلى جوهر
نسي ما درى
إلها أخرا</p> | <p>= هو بالموت إلى عا
كيف تفدون شهيدا
دمه من حرم أعلى
أه للمسلم غفلان
سر ولا تدع مع الله
ضرب الكلم، ص 37 - 38.</p> |
| <p>والإنكليز تقول: هذا مجتدي
مستمسك بقديمه لا يهتدي
ويل لقلبي في الصراع المجهد</p> | <p>(1) قال البرهمن: خائن أوطانه
ونبوة البنجاب قالت: كافر
أيان صوت الحق يعلو هاهنا؟
السابق، ص 16.</p> |
| <p>مخاطبا أمراء العرب في أدب
بحكمة فأعانتها على التوب
وهجر كل غوي من أبي لهب
من أحمد العرب كانت أمة العرب</p> | <p>(2) هل يسعد الكافر الهندي منطقهُ
من أمة قبل كل الناس قد أخذت
إخاء مصطفوي دون تفرقة
ما من حدود وأرض كان منشؤها
السابق، ص 43.</p> |
| <p>اذكرون منها المرابي الأجشعا
منه في ذيلك طين أقتم؟</p> | <p>(3) نحن في الدنيا نموت أربعا
أيليق بك هذا العالم
جاويد نامه، ص 317.</p> |

وتدخل المرابون. وتقامروا على الأديان⁽¹⁾.

لم يخرج مصلحو الشرق للناس شيئاً. بل ربما قدموا لهم ما قدم لهم السامري الذي أضل بني إسرائيل. وجعلهم يعبدون عاجلاً من ذهب له خوار جمعاً بين السحر والضلال. قدموا للندماء الأقداح وأفتوا بما يرضي السلطان. قدموا سحاباً ما برق، قديماً لا جديداً⁽²⁾.

الإنسان مسافر في هذه الدنيا. قد تغره فيصبح في خسران مبین. ومن مظاهر الخسران النفاق لا الزهد ولا الملكية، على عكس الصادق الملك المبجل رغم محنته. لا تستطيع يد المنافق أن تحمل سيفاً. والصادق يصد كل السيوف الموجهة إليه. ليس المنافق حر الإرادة، بل هو عبد المصلحة. ولا هو قادر على استقبال الأقدار متحججاً بالعلم والنظر. والمسلم المغوار قادر على مواجهة الجهلاء بالدين. يحمل أقدار أمته وهو في مظهر المسكين⁽³⁾.

ومن أسباب السقوط استسلام الناس للإنجليز. يعتقدون أن لهم مطلق السلطان. لم يمنحوا العلماء أية سلطة، بل جردوهم من كل سلطة، في حين أنهم يعطون أبناء الحمير المتعاونين معهم الرياض. ملأوا الكنائس بكل ملذات الدنيا من

- | | |
|--|--|
| <p>(1) رباه هذا السوق ينبض روعة بالرغم من هذا فأرخص سلعة ملك المرابون البلاد جميعها</p> <p>(2) يئسْتُ فلا أرجي في أناس سُقاة في ربوع الشرق طافوا سحاب ما هوى برقا قديما</p> <p>(3) أو لا تزال مسافرا تسري والعصر إن القوم في خسر يمشي المنافق في نقائمه وترى الموفق رغم محنته كف المنافق لا تساعده والمؤمن الصديق محنته ما للمنافق من إرادته يستقبل الأقدار مرتبكا المسلم المغوار حجتنا في نفسه أقدار أمته</p> | <p>ويروج حتى في ابتياع الداء عند الشراء مواهب العلماء وتقامروا حتى على الأديان لهم فن كفن السامري على الندماء بالقدرح الخلي وليس لديه من برق فتى وتغرك الدنيا بما فيها وسل الطبيعة عن فيافيها لا زاهدا حقا ولا ملكا ملكا يبجل أينما سلكا في حمل سيف يبعث الفرقا قدر يشوب سيفه ألقا حر ولا من صولة القدر متعللا بالعلم والنظر نرمي بها الجهلاء بالدين متستر في زي مسكين</p> |
|--|--|

لحوم وشراب⁽¹⁾. جعل الله العالم فردوساً للجميع. فجعل الإنجليز بلادهم فردوساً. والمسلمون ينظرون إلى السماء وليس إلى الأرض⁽²⁾.

لم تعرف الأمة حالياً استحقاق «لا إله إلا الله». فعل النفي الأول في «لا إله» كأس الأماني لأن الأمة لم تقم بنفي آلهة العصر المزيفة: القوة، الجاه، الثروة، السلطة، المرأة.. الخ. لم تقم بفعل الاستثناء «إلا الله» بعد أن تكسرت الكؤوس بأيديها. والكأس طافحة بالنفس. تبكي ذهاب الثبات، وخرس العازف. تبكي بلا صوت، وتخون نفسها⁽³⁾.

الشباب قعود رقود نيام لعجز الأمراء وفوضى الجنود. تطيش السهام، وتخطئ أهدافها في الوجود. يقال إن الأمة بحر عميق. وهو ضحل ما أضيعه. وبعد البحث فيه موجة موجة وقوقعة قوقعة فإما هجر أصنام الآخرين أو الخروج من القمقم. وقد زُخرفت الأصنام من دماء الأمة⁽⁴⁾.

للإنكليز بمطلق السلطان
وجعلتهم أخلى العباد وفاضا
يعطون أبناء الحمير رياضاً
فهنا اللحوم وهامنا الكاسات

(1) والناس يعتقدون رغم شقائهم
لم تمنح العلماء حتى قشة
والإنكليز وهم عباد مثلنا
ملئت كئناهم بكل ملذة
السابق، ص 420.

أحد وأنت هو السميع المبصر
والمسلمون إلى سمانك تنظر

(2) فردوسك اللهم لم يره هنا
الإنكليز بلادهم فردوسهم
السابق، ص 420.

كأس يُمئنا
كسرت بأيدينا
بالنفس في الأرواح
تبكي ذهاب الراح
بالعزف أخرسنا
ونخون أنفسنا

(3) من «لا إله» لنا
وكؤوس «إلا الله»
الكأس طافحة
والكاس في الإثبات
العازف الموهوب
تبكي بلا صوت
السابق، ص 423.

لعجز الأمير وفوضى الجنود
تطيش بلا هدف في الوجود
وما أضيع البحر ما أضيعه
وقلبت قرقعة قرقعة
أما أن تخرج من قمقمك؟
تزخرف هيكلها من دمك؟

(4) شباب قعود رقود نيام
فواأسفا كيف هذي السهام
يقولون بحر عميق عميق
بحثت به موجة موجة
أما أن تهجر أصنامهم
وغاية أصنامهم أنها
السابق، ص 436 - 437.

لقد تعلمت الأمة الفقه وحكمة الدين، ولكنها تركت الكفاح⁽¹⁾. الشباب مؤمن، ولكنه هارب من جنة الشهداء⁽²⁾. أين خالد بن الوليد وصلاح الدين كي ينال المجد والخلود؟⁽³⁾.

5 - ما هو الحل؟

يتم النهوض في التو واللحظة مثل التوبة عند الصوفية. ومن الغد يتم استباق النجم. الإنسان شرار النور. يشارك الله في الخلود دون أن يغار منه. يجوب الآفاق بالحضور، وليس بالصبر. يفنى ليبقى في الأرض. يسكن السماء، هو بحر لا يسكن. يغوص فيه متى يشاء. هو بحر لا يستقر موجه، وليس ساحلاً ساكناً هادئاً آمناً⁽⁴⁾.

الحل يبعث على التفاؤل ورفع الأحزان عن القلب، وليس حلاً وقيماً أو وهمياً أو خادعاً⁽⁵⁾. هل الحل ظهور درويش السودان، المهدي؟ المنقذ المخلص؟. برق الماء. وتدفق الموج. ولاح روح من الفردوس. هو در في القاع. في صدره ذاب الحجر. لم يصدق اللورد كتشنر. وظن أن الموت في القبر أو في النهر نهاية

(1) يا أمم الشرق، ص 400.

(2) هو مؤمن ولكنه من جنة الشهداء هارب
ليستقر بقلبه أن «ليس غير الله غال»
السابق، ص 404.

(3) يا من خلعت على صلاح الدين حلة خالد
فحقي بعز دائم يبقَى ومجد خالد
السابق، ص 407.

(4) من غدي والأمس إني منطلق
أنت نور خالد نحن الشرار
قل لمن ما ماز موتاً من حياة
جاب آفاقاً وليس بالصبور
إنني بحر سكوني لا يليق
وعلى الساحل دنيا تستقر
جاويد نامه، ص 142.

(5) ألا يا حبذا تلك الطريق
لها الزفرات، فافتح منك قلباً
تطول ولا يؤانسها الرفيق
لتحرق فيه حزناً لا تطيق
أرمغان حجاز، ص 419.

الحياة. إنه روح العرب يعود من جديد. يحمل تراث الأسلاف. يدعو قاداتهم (فؤاد، وابن سعود، وفيصل) إلى أن يبدءوا الدخان من حولهم، وأن يوقدوا ناراً خمدت في الصدور، والعودة إلى الأيام التي ضاعت. يدعو البطحاء إلى أن تنجب خالداً، وأن يُبعث عطر الخلود من الأسلاف من جديد، وأن يتولوا أمرهم دون أن يتركوه لغيرهم خشية من البلاء⁽¹⁾.

هل الحل هو المصحف والسيف كما طلبت «شرف النساء» الطاهرة وكما قال الإخوان المسلمون بعد ذلك في مصر؟⁽²⁾. لقد انتهى هذا الحل إلى نوع من الوهابية والحكم الإلهي والتعصب وإقصاء الرأي الآخر مما أدى إلى ظهور جماعات العنف. فالضغط من أعلى يولد الانفجار من أسفل.

الحل هو حاجة هذا الجيل إلى بعث جديد وإلي نهضة ثانية. توقظه من

ثم يعلو الموج حتى يندفق
لاح بالروح لنا درويش مصر
«كتشنر» في صدره ذات الحجر
إنما هذا ترابي ينتقم
بل رُميت بين أمواج تُطمك
والزفير من خشاه يحرق
قلدي الأسلاف في ماضي الحقب
كلكم مثل الدخان يرُفَل
ارجعوا أيام دنيا ضيعت
نشتهي التوحيد فيك غُرُدا
منكم أستاف عطرا للخلود
وتولون سواكم أمركم؟
البلاء كان للمرء الصفاء

إنها السكرى وما ذاقتم مداما
حبذا عُمر تقضى في الثقة
مصحفي والسيف مني قربي
بهما يزدان حقا قبرنا
قد تحلى بالحسام والكتاب
ولذا الإسلام فيه قد قتل

(1) هو ذا في الماء برق يأتلق
ومن الفردوس ضاع نفع عطر
إن منها الدر في القاع استقر
قال «كتشنر» انظرن يا فهم
ما حباك الله من قبر يضمك
ثم ضاع في اللسان المنطق
قال هبي أنت يا روح العرب
يا فؤاد! ابن السعود، فيصل
أوقدوا في الصدر نارا أخدمت
وادي البطحاء أنجب خالداً
أمة الإيمان، يا سود الجلود
فإلام تجهلون سيركم
ليت شعري هل تخافون البلاء؟

جاويد نامه، ص 231 - 232.

(2) تحمل المصحف والسيف الحساما
خلوة سيف وقرآن الصلاة
قبل موتي ذلك منك مطلبي
الكتاب والحسام حسبنا
وقرونا تحت تبر للقباب
منه سيف وكتاب ما حمل

السابق، ص 286 - 287.

انبهاره بالغرب. فقد هزمت الأمة بالتقليد، دون حرب أو سجال⁽¹⁾. وتكون يقظة الوجدان بذكر الله⁽²⁾. فقد اليقين والحياء. وأصبح طعامه وشرابه أقصى ما يتمناه. هو مقيد بالمنن الثقال، مقيد لأنه لا يقول «لا» و«ولا» إلا» أي لا يقوم بفعلي النفي والإثبات في الشهادة⁽³⁾.

«الأمة العربية» هي ركيزة الإسلام⁽⁴⁾. إذ قامت قام. وإذا انهارت انهار. ففي قصيدة «إلى الأمة العربية»، يبين فضلها وسبقها في حمل الرسالة، رسالة التوحيد، «لا إله إلا الله»، وقيادة البشرية، وبدايتها تاريخ جديد، وتأليف القلوب، وإنهاء العبودية للبشر كما تنبأ الرسول «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده. وإذا ملك كسرى فلا كسرى بعده»، وإشعال الروح، وإحياء القلب، وإبداع العلوم، وظهور الصوفية كاللساطمي، والقواد كصلاح الدين الأيوبي. جمع بين العقل والقلب الرازي والرومي معا. نقل العرب من الجاهلية إلى الإسلام. ثم عادوا إلى جاهلية القرن العشرين. تركوا ذاتهم، وقلدوا الإفرنج. أضاعوا وحدتهم، وتفرقوا. يخاطب الشاعر الهندي زعماء العرب. ويحذره من الانقطاع عن محمد، والتواصل مع أبي جهل، وترك الإيمان للطاغوت، وبألا يقعوا في حبال القوميات والوطنيات والفلسفات المادية، ووضع الحدود والقيود⁽⁵⁾.

(1) يا أمم الشرق، ص 399.

(2) ذكر الإله ويقظة الوجدان في أنس وجان من فيض وحيك يا صلاة الصبح يا صوت الأذان السابق، ص 401.

(3) ذاك الذي فقد اليقين وقلبه فقد الحياه وطعامه وشرابه ومنامه أعلي مناه وتراه بالمنن الثقال مقيدا ومكبلا ممن يقول «نعم» وممن لا يجيب بغير «لا» فليضخ من غفلاته ليعود حيا قلبه ويعيش في أوج الكرامة هاتفا «الله هو» السابق، ص 404.

(4) السابق، ص 377 - 382.

(5) شعب العروبة والمجد المؤتل في بدو وفي حضر حتى ضحي المحشر من الذي حرر الدنيا لخالقها وأسمع الخلق لا كسرى ولا قيصر؟ من قبلكم أبلغ الآيات ناطقة بوحي من خلق الدنيا وسواها من غيركم رفع المصباح مؤتلقا ووحد الخلق لما وحد الله؟

كان للعرب مجدهم السابق بفضل الإسلام. وتحولوا من بدو في الصحراء إلى أمة بلا حدود، حرة من طغيان كسرى وقيصر. لم يحمل أحد قبلهم الآيات ناطقة. وبلغ الرسالة إلى الدنيا. ووجد الخلق باسم التوحيد. أطعموا الناس على موائدهم. وتأخوا بعد فرقة. حولوا البيد روضاً، والحصى درراً. أنبتوا الورد في قلب الصحراء بفضل النبي الذي أغنت مكارمه عن السحب⁽¹⁾. حطم أصنام الشعوب القديمة إكباراً لله. وأبقى على كل حسن قديم ونماه. ساروا خطى بهمم عالية. فسادوا العالم كله.

هم الذين حلوا الأغلال، وحطموا القيود، وواجهوا كسرى وقيصر. هم الذين صدعوا بالقرآن في مسمع الكون إعلاناً للتوحيد ووحدة البشر. قدموا الحكمة للناس، وهم أميون. أنبتوا الزهرة بالصحراء، والبساتين بالفقر. ثاروا، وانتصروا في بدر وحنين. وكان منهج أبو بكر وعلي والحسين. استعادوا سيف أيوب وتقوى بايزيد مفتاحاً لكنز العالمين. وضعوا الحكمة، أقاموا الدين القويم، وحكموا الدنيا. كان في كل قلب شوق للمجد. فاشتعل ثورة عارمة⁽²⁾.

=
لم يطعم الناس إلا في موائدكم
في شأنكم أرسل الله الكتاب
من حول البيد روضاً والحصى درراً
أستغفر الله ما غير النبي لها
السابق، ص 382 - 383.

(1) فكل معبود قديم في الشعوب هوى
وكل غصن هشيم من نداء غدا
واها لها جذبات طالما حَفَزت
السابق، ص 383.

(2) أمة الصحراء يا شعب الخلود
أي داع قبلكم في ذا الوجود
من سواكم في حديث أو قديم
هاتفنا في مسمع الكون العظيم
حدثوني اليوم عن أي خوان
وابل من فيض أمي اللقب
أنبت الزهر بصحراء العرب
لا تسلسني الآن عن ثورته
في أبي بكر وفي صاحبه
سيف أيوب وتقوى بايزيد

آثار المسلمين شاهد عليهم، قصر الحمراء، تاج محل. طاعت لهم الدول الأخرى. ودفعوا لهم الخراج. أقاموا دولة بها مظاهر العزة والملك الحصين. وحكمت بالحق الذي في قلوب العارفين. جاهدوا وكبروا لله في ظل السيوف واستشهدوا. وقفوا صفوفاً في المسجد. وأتت لهم الشعوب. ووصلوا إلى النجم القطبي⁽¹⁾.

ثم انقلبت الآية عندما أتى العرب المحدثون. تبدلت الليالي، وتبدلت السعادة إلى بأس مرير. انقلب النور إلى ظلمات. كل الشعوب اعتمدت على مواردها من أجل الرخاء. ولدى العرب كنوز تفوق النعم في صحرائها. انقضى الحفل، وانفض الساحر. وكان منعقداً حتى الأمس. وانقلبوا من وحدة إلى فرقة، وكأن الكائنات لم تشرق لهم بهدي الإيمان والمنهج الرشيد، وكأنهم نسوا في ظلام الدنيا قيم الصحراء من أجل العيش الرغيد⁽²⁾. كل شعب أقام نهضة في حين انهدم بنيان العرب. كانوا قديماً أمة فأصبحوا حديثاً أمماً⁽³⁾.

وهناك الحكم للدنيا يقام
ثورة تعلو به فوق المرام

وسل الحمراء واشهد حسن تاج
نحوها طوعا يؤدون الخراج
مظهر العزة والملك الحصين
دونها حارت قلوب العارفين
وصفوفا تحت ظل المسجد
وارتقوا فيها مكان الفرقد

بأسا مريرا ومن أنوارها ظلما
حصن الرخاء وصارت للمنى قدما
وكان بالأمس مثل العقد منتظما؟
ما بالها انقسمت في أرضكم أمما؟

بهدي الإيمان والمنهج الرشيد
قيمة الصحراء في العيش الرغيد
وأرى بنيانكم منقسما
لهف نفسي كيف صرتم أمما؟

= هاهنا الحكمة والدين القويم
كل قلب فيه للمجد الصميم
السابق، ص 384 - 386.

(1) لا تقل أين ابتكار المسلمين
دولة صار ملوك العالمين
دولة تقراً في آياتها
وكنوز الحق في طياتها
كبروا لله في ظل الحروب
ضجة دانت لهم فيها الشعوب
السابق، ص 386 - 387.

(2) قد أبدلتنا الليالي من سعادتها
كل الشعوب أعدت من مواردها
كيف انقضى حفلكم وانفض سامركم
توحدت من قديم الدهر أمتكم
السابق، ص 383 - 384.

(3) وتي كأن لم تشرقوا في الكائنات
ونسيتم في ظلام الحادثات
كل شعب قام بيني نهضة
في قديم الدهر كنتم أمة
السابق، ص 387.

ثم استُعمِر العرب. خدعهم المستعمرون. ووضعوا سم العقارب في أكمامهم. أهدروا آدمية الشعوب. وأيقظوا الفتن. أفسدوا الفطر. وقسموا الأمة. وقضوا على وحدتها⁽¹⁾.

الحل هي الذاتية أو هو العود إلى الذات كما قال علي شريعتي بعد ذلك، أن يضرب العرب خيامهم في وجودهم دون الوقوف على الرسوم الخارجية والآثار القديمة، وأن يدفعوا بنوقهم في الميدان، وليسرعوا بها أسرع من ريح الصحارى، وليوحدوا أوطانهم المقسمة، ولينظر العرب إلى عصرهم ويحكموا النظر، وليبنوا أوطانهم بالسلم والعدل كما فعل عمر⁽²⁾. كل من أهمل ذاتيته يفنى. كل من لم ير ذاته قلد الغرباء. ويدعوا إقبال العرب إلى التفكير في العصر والسبق فيه، طالما أن جمالهم في هذا العصر وليس في العصر القديم. عليهم ملاً الصحراء عزيمة، واستعادة روح عمر⁽³⁾.

(1) قد خادعتكم من المستعمرين يد
كم أهدروا من شعوب آدميتها
توارث العرب الأحرار وحدتهم
حتى إذا جاء الاستعمار قسمها
السابق، ص 384.

(2) اضرب خيامك في دنيا وجودك لا
وادفع بناقتك الميدان أسبق من
يا أيها العربي انظر لعصرك في
بالسلم بالعدل تبني ما تؤمله
السابق، ص 384.

(3) كل من أهمل ذاتيته
لن يرى في الدهر قوميته
فكروا في عصركم واستبقوا
واملؤوا الصحراء عزمًا واخلقوا
السابق، ص 388.



الفصل الثاني

عوامل النهوض

1 - نهوض الحضارات

للحضارات قوانين قيامها وسقوطها مثل قانون ابن خلدون من البداوة إلى الحضارة، من الفتح إلى الترهل، من السيف إلى الكأس، من التقشف إلى البذخ. وينطبق ذلك على الأمة الإسلامية وعلى الغرب معاً. بل ينطبق أيضاً على شعوب الشرق، وسلطان تيمور لنك⁽¹⁾. سقطت الأمة عندما سقطت أوراق عرشها في الخريف. فتمكن منها الصياد⁽²⁾.

النهوض لفظ شائع في دواوين إقبال. ورمزه الأذان. إذ يؤذن المؤذن للصلاة عندما يسمع الزفرات المشتعلة للقلوب المنفعلة. ينادي بالنهوض من السبات العميق. ويتكرر النداء للنهوض سبع مرات⁽³⁾. ويقظة الأمة مثل مطلع الصباح بفضل

(1) فانظر إلى قدر الشعوب وكيف يبدأ بالسيوف
فإذا انتهى فالإلى المزامير السجوية والدفوف
حانات أوربنا كذلك والغريب طبقوسها
السكر يبدأ أولاً وتدور بعد كؤوسها
سيان تيمور لنك في سلطانه سلطان نادر
الكل تسقطه أخيراً سكرة الزمن المبادر
جناح جبريل، ص 447.

(2) أنا لولم تسقط الأوراق عن عشي اللطيف
عجز الصياد عن صيدي ولو وقت الخريف
السابق، ص 451.

أذان المؤمن الذي يبدد ظلمات الليل. الأذان هو الإعلان عن الحق والدعوة إلى الاستيقاظ لأداء الواجب⁽¹⁾.

يدعو إقبال المسلمين إلى النهوض والقيام بإذن الله، مادامت الدنيا قائمة، لم تُفَن الأَرْض. وتلك دلالة «أنا الحق»، صرخة أطلقها الحلاج من القلب، تجلي المثال في الواقع، وحضور الله في الإنسان⁽²⁾. عصرنا الأوثان التي يمكن تحطيمها عن طريق «لا إله إلا الله». الدنيا وثن، غرور وخداع وخسارة ووهم. كلها أوثان تحطمها «لا إله إلا الله»⁽³⁾.

وعوامل النهوض الفن والتربية والعلم والمرأة. يشمل الفن التمييز بين الجمال والجلال، والفن والحياة، وأنواع الفنون: الشعر والغناء والموسيقى والتصوير والسينما. وتضم التربية روح العلم والإبداع وحرية الفكر. ويحتوي العلم على التمييز بين العلم المنقول والعلم الحي، بين علم العقل وعلم القلب. وتتجسد في المرأة كل هذه المعاني من الجمال والفن والعلم والفكر والتربية.

2 - الفكر بين المثال والواقع

يستفسر إقبال عن أن فكره دليل للسماوات، وهو حائر في الأرض، دليل حائر العزم. فلماذا يسترشد بمصلح غير قادر على إصلاح نفسه وأهله؟ لماذا يكون

- | | | |
|-----|--|--|
| (1) | إنا لنجهل مطلع الصبح الذي
لكنما الصبح الذي ارتجت له
ضرب الكليم، ص8. | يُدعى بيوم أو غد في الأزمن
ظلمُ العوالم من أذان المؤذن |
| (2) | إن نُحل دنيا فلم تُفَن أرض
من «أنا الحق» انطوى فيك قلب
السابق، ص45. | وسماء، قم بإذن الله
ومضاء، قم بإذن الله |
| (3) | عصرنا يبتغي خليلا حطوما
إن دنياك موئن لا تصدق
في متاع الغرور تسعى وتبغي
يا أسير الخسار والربح ينسي
مال دنياك والبنون خداع
هي أضنام وأهم قد براها
السابق، ص8. | وثننه. لا إله إلا الله
زوره، لا إله إلا الله
ربحه، لا إله إلا الله
نفسه، لا إله إلا الله
كله، لا إله إلا الله
وهمه، لا إله إلا الله |

العارف بالدين بغير الدين أبله؟ فأجاب الرومي بعدما تأمل في الكون الكبير أن من يسير على الأرض قادر على أن يسري في السماء⁽¹⁾. نموذج الذات الطيران في السماء. لذلك كان العصفور بالرغم من رفته أقرب إلى الذات من التين بالرغم من حلاوته⁽²⁾.

يتعجب إقبال من الخوض في المسائل النظرية الخالصة مثل أصل الإنسان من ماء وطنين. هو يبحث عما يوقظ قلبه، وهو في صورة سجين. وينصح الرومي بأنه لا لزوم للشموخ كنعش. فخلف النعش يد وكف، وأنه من الأفضل التواضع كحصان في أي مكان يسهل ويخف⁽³⁾. يعرف الفيلسوف كيف يحلق بفكره في غاية البراعة. جسده فارغ من قلبه. علمه غزير. تنقصه الشجاعة وروح المغامرة⁽⁴⁾.

الدين مع الفيلسوف مثل الشمس في كبد السماء، ولكنه يتوهم الوصول إلى الحقيقة بالبحث والنظر. يبحث إقبال عن سبب غربة النفس وطول الطريق في السفر، والحبيب في كل واد. أوضاع العمر في البحث والنظر. وتردد بين ابن سينا والرومي، بين النظر والذوق. يسير مع كل رفيق ولكن لم يجد رفيقاً يسير معه إلى

(1) قال: يا أستاذ، فكري
وأنا في الأرض هذي
لِمَ نستترشد بالمصلح لا يصلح أهله؟
ولِمَ العارف بالدين بغير الدين أبله
قال رومي بعدما استرسل في الكون الكبير
في سماء الله يسري من على الأرض يسير
جناح جبريل، ص 527 - 528.

(2) الطيران سرنا المحجوب
لا يستطيع نيله مجذوب
السابق، ص 545.

(3) قال: يا أستاذ الخوض في ماء وطنين
أين ما يوقظ قلبي
وهو في صدري سجين
قال: لا تشمخ كنعش
فوراء النعش كف
وتواضع كحصان
أينما شاء يخف
السابق، ص 526.

(4) يعرف الفيلسوف كيف يطير
جسد فارغ وعلم غزير
وهو في العلم غاية في البراعة
لو أضافوا إليه روح الشجاعة
السابق، ص 546.

نهاية الطريق⁽¹⁾. يحتار أهل الفلسفة في أسرار المعرفة. لم يجاوز فكرهم منذ القدم آراء عن الماء والطين لأن أعينهم حرمت نور القلوب. ونضب لديهم معين العشق. لم يروا في الكون إلا الظاهر، الألوان بالإبصار، دون نور القلب وسراجه⁽²⁾.

يخشى إقبال من الفكر الحر على الدين كما يخشى على العصفور أن يقع إن لم يحسن الطيران. الفكر الحر هو المرتبط بالوجدان. وهو مساوق للوحي، ومتفق مع الدين. لا يقف ضده أو يهدمه كما حدث في الثورة الفرنسية. يمكن أيضاً أن نخشى من الدين على الفكر الحر، من القطع على الشك، ومن الإيمان على البحث الحر، ومن المسلمات على الافتراضات، ومن الإلهيات على الإنسانيات⁽³⁾.

3 - علوم النظر

الفيلسوف والمتكلم والفقهاء وكل رجل علم نظري أيضاً يعيشون في الأوهام.

(1) محل الدين من يد فيلسوف له في كل يوم وهم بحث أنا في ظل بيتي أم غريب قد استوحشت من جبل وواد أضعفت على رسوم القوم عمري تعجب جئت من أين ابن سينا أرافق في طريقي كل سار ولم أر في طريقي مستعدا السابق، ص 533 - 534.

(2) ذلك السر وهذي المعرفة منذ بدء الخلق في ماضي السنينا حرمت أعينهم نور القلوب لم يروا في الكون إلا منظرنا وإذا الأبصار لم تدرك هداها يا أمم الشرق، ص 344.

(3) ألا ترثني لعصفور إذا استخفى وحاول أن يحاول أن يكون وليس له من الطيران غير الققال والقبيل هل العصفور بين الشوك كالعصفور في الجنة؟ بربك هذه حريفة في الفكرة أم جنة؟

لا يعرفون معنى الشكوى والأنين. يحيون في أرض غير الأرض⁽¹⁾. وهل الشريعة قامت من أجل التقليد وحراسة المعبد الذي شيده أم أنها الوجد في فؤاد متجه إلى الكعبة التي ألهيته؟⁽²⁾. لا يحتاج الشاعر إلى فيلسوف أو مُلّا. فقد مات القلب وفسق البصر. ويزدري الشاعر اللاهوتي وهو على رأس القوم وقد عمي بصره⁽³⁾. الميتافيزيقا متعبة، مع أن التعامل مع الآخرين يبين أن كثيراً من قضاياهم في حاجة إلى نقد وتمحيص مما يؤدي إلى النزعة التأملية، ومن ثم ضرورة الميتافيزيقا كتفكير في الحياة كما هو الحال عند برجسون⁽⁴⁾. المعرفة من التجربة. وكل تجربة تعكس شيئاً من روح الإنسان بما في ذلك تجربة الخطيئة. إذ تكشف عن شيء من الروح لم يكن معروفاً من قبل. التجربة إذن مصدر مزدوج للمعرفة. تعطي رؤية لما هو بخارج الإنسان وما هو بداخله⁽⁵⁾.

الصوفي النظري والملا أي التصوف الإلهي والفقهاء ليسا طريقاً للعلم. فالعلم ينقش على صفحات القلب. تشهد الذات. حل الغم في قلب الملا، ودمعت أعينه. يهرب منه الناس لأنه لا يزين حجازه بالبشر. يتحدث للحرب، وفي حضنه عدة كتب. لا يعرف لغة الذات. فمن الذي يملك القلب، ويلهم الشوق؟ كل منهما

= فقل لمفكر حر أضل الفكر وجدانه؟
تعالى الله أن يلهم ما يبطل قرآنه
وهل يهدم مجد الشعب غير الفكرة الحرة؟
وهذه الفكرة البلهاء سيدها أبو مرة
جناح جبريل، ص 550.

(1) أيها الفيلسوف دعك وشأني فأنا مدرك إلى أين أمضي
لست مثلي مسافر كيف أشكو لك دربي وأنت في غير أرضي
السابق، ص 242.

(2) أهي في هذه الشريعة قامت تحرس المعبد الذي شيده؟
أم هي الوجد في فؤاد مُلب يمسك الكعبة التي ألهيته؟
السابق، ص 457.

(3) لست أحتاج فيلسوفا وملاً موت قلب هما وفسق بصيره
كيف للاهوتي أبدي ازدرائي حين ألقاه وهو رأس العشيرة
السابق، ص 459.

St. Ref., p. 22.

(4)

Ibid., p. 146.

(5)

رمى في الدين بسهم فمن المصيب، الملاً أم الشاعر؟⁽¹⁾. ولا يُسلم القلب لأيد تضيق العقدة. وإذا ما رفعت العين إلى بيت الإله فإن الإنسان يتردى من الأعالي. الملاً عبوس لا يميز في الكتاب بين القشر واللباب. وليس عجباً أن يطرد الناس من بيت الله⁽²⁾.

العلم عن طريق الدرويش قد يفتح القلب عطراً وزهراً. أما علم الملاً فالتحرر منه واجب. فعلمه لا يساعد على السيطرة ولا على القدرة⁽³⁾.

يمكن الفهم من كتب الرازي وتفسيره، ولكن كلام النفس وصوت الضمير وهمس الفؤاد أعمق⁽⁴⁾. رفع الحجاب عن الذات هو الطريق إلى العلم وليس الكتاب⁽⁵⁾. العلم في بحر العمر وليس في الكتاب⁽⁶⁾.

- | | |
|--|--|
| <p>وتعلم من أكون بلا خلاف
لأشهده وذاتي بالشغاف
وهل بالدمع بلّ العين بلا؟
أزين حجازه بالبئير؟ كلا
وفي حضن له كم من كتاب
عن الذات اختفى لا عن صحاب
ومن قد ألهم الشوق المذيبا
فقل في الرمي من كان المصيبا</p> | <p>(1) أنا الصوفي والملاً أجاني
علي صفحات قلبي «الله» فاكتب
في قلب لملا الغم حلا
أولي من مجالسه فرارا
يقول القول نصلا للحراب
وتخجلني الصراحة في كلامي
أجب بالله من ملك القلوبا
كلانا من رمى في الدين سهما
أرمغان حجاز، ص448.</p> |
| <p>وقشرا لا يميز من لباب
وذلك ليس بالشيء العجاب</p> | <p>(2) هو الملاً، عبوس والكتاب
ببيت الله يطردني لديني
السابق، ص463.</p> |
| <p>يفتح قلبنا عطرا وزهرا
من الملاً ومن درس تحرر
به الإنسان في عجز تحير</p> | <p>(3) إلهي حيّ للدرويش ذكري
و«لا إله» من دوما تذكر
بهذا العلم لا تبسط جناحا
السابق، ص478 - 479.</p> |
| <p>ومنه النور خذ فالليل أظلم
أنحيا بالفؤاد وما تضرّم؟</p> | <p>(4) من الرازي كتاب الله فافهم
ولكن لي كلام فيه فانظر
السابق، ص460.</p> |
| <p>إليها حبذا يوم الإياب
وأنت كفرت من علم الكتاب</p> | <p>(5) أعن ذات تحجب بالحجاب
وفي رزقي لي التفكير كفر
السابق، ص483.</p> |
| <p>ولكن ليته في العمر أبحر</p> | <p>(6) وعلم الغوص ضمنه كتابا
السابق، ص438، السابق، ص538.</p> |

لم ينفع الملا علمُ الكتابي⁽¹⁾.

يتساءل إقبال عن الحرب التي تملأ جنبه. وفي كل مرة يسأل يقال له: قلبك، قلبك. والقلب في الصدر، رفيق الطريق. يتأرجح بين الخمول والكد. ويرى بريقه في مرآته. ويرد الرومي بأن الأمة ليست أهل فقه وأصول. وكل إنسان لديه قلب. والقلب سماء عرشه في أوجها. ولكليهما رب واحد. ليس المهم أي درب يسلكه القلب بل من الذي يملكه ويسيطر عليه ويوجهه⁽²⁾.

ليس العلم تنميماً للكلام ولا صياغة لخطاب لأن ما يحتويه الفؤاد لا يكون على اللسان⁽³⁾. القول الحق لا حجاب عليه. والباقي منقول من الكتب. معاني الكلام معقدة الفهم. ويزداد التعقيد بالصوت والنطق. أما النظرة فهي خير موصل للمعاني، وكذلك الأئين وصداه في السحر.

والطلسمات التي ظهرت في العصور المتأخرة ليست علماً بل مجرد خرافة، مجرد خطوط وأعداد لربط روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب

(1) قال يا أستاذ، ما الحرب التي تملأ جنبك؟
أنا ما جنئت إلا قلت لي قلبك قلبك
هو ذا قلبي بصدري وأنا حلف طريقي
بين كد وخمول ملء مرآتي برريقي
قال: يا إقبال لسنا أهل فقه وأصول
أنالي مثلك قلب وكما أنت تقول
إنما القلب سماء عرشه في مستواها
ولله رب حواء ولها رب حواها
ما لملك القلب يا إقبال درب تسلكه
منتهي الحكمة أن تبحث عمّن يملكه
جناح جبريل، ص 527.

(2) إن تنميق الكلام غير مجد
قلت قولاً ما عليه من حجاب
فالفؤاد ما احتواه ليس يبدي
بالكلام كل معنى لي تعقد
ما تبقي منه ينبو عن كتاب
نظرتي منها افهم ما استعر
ويزيد اللبس من صوت تردد
أو أنيني وصداه في السحر
جاويد نامه، ص 326.

(3) لعلم اليوم أبطلتُ الطلسمات
حطمتُ حباتها بالحب حطماً
أرمغان حجاز، ص 449.

منفعة أو دفع ضرر. فعندما يضعف النظر تقوى الخرافة⁽¹⁾. العلم هو الذي يؤدي إلى الإطلاق⁽²⁾. وقد يضار الروح من علم⁽³⁾.

ليس العلم سرّاً أو حجاباً. ومؤلفات الرازي كُحل على الجفون، تمنع الرؤية⁽⁴⁾. التعلم من الذات والاحترق بها تقدم الخانقاه النار⁽⁵⁾. أساس العلم خوف ورجاء. يرهب العلم جلال الكون ويغرق العشق في جماله. يغيب العلم ويحضر ويظل يتطلع للعشق. وذرة شوق تتسع للكون كله. والشوق هو طريق الخلود⁽⁶⁾. العلم هو العلم الفياض على العقل والقلب. يستحيل عليه الكذب. وهو في نفس الوقت مرتبط بالأرض والطين⁽⁷⁾.

يؤدي العلم إلى النظر بالدليل ولكنه يكشف عن قشر الوجود. فيقف عاجزاً عن كشف سره. يمهد الطريق فحسب. ويوقظ الشوق النائم. يوهب النار للقلب.

- | | | |
|-----|--------------------------------|--------------------------------|
| (1) | نعلم ذلك أنباء فعلم | لأن كتابهم سحر يخيب |
| | السابق، ص 447 | |
| (2) | عليم زانه أدب وجاهل | كريم منه من يحظى بحاصل |
| | وما أحببت إنسانا عليما | ومن أدب نصيب غير كامل |
| | السابق، ص 478. | |
| (3) | فلا تأمن إذا حصلت علما | فمنه الروح يمكن أن تضارا |
| | السابق، ص 479. | |
| (4) | أخشي عليك ركوب بحر من سراب | وكما ولدت العمر تطوي في الحجاب |
| | للفخر كحل عن جفوني أغسله | فأرى مصير العشب في هذا الكتاب |
| | جاويد نامه، ص 168. | |
| (5) | ومن الذات تعلم أنت حرفا واحترق | تعدم الخانقاه نار للكليم أبدا |
| | السابق، ص 217. | |
| (6) | وأساس العلم خوف أو رجاء | ما لعشاق على هذا اتكاء |
| | يُرهب العلم من الكون الجلال | يُغرق العشق الرواء والجمال |
| | ما مضي للعلم أو ما قد حضر | وإلى الآتي من العشق النظر |
| | ذرة للشوق شمس حاسدة | صدرها فيه السماء راقدة |
| | إن يكن للشوق في الدنيا الهجوم | يمنح الخلد لفسان لا يدوم |
| | السابق، ص 255. | |
| (7) | إن يفضل الله فاض علمكما | فسيأتي للزمان غيركما |
| | لم يخف عقل وقلب لم يذب | ما استحث عين وغاصت في الكذب |
| | كل علم كل فن كل دين | لا تُكف عن طواف حول طين |
| | السابق، ص 328. | |

ويهدي النحيب في جوف الليل. لا يفسر الدنيا. يرتي العين دون القلب. يرفع إلى جذب الشوق إلى جبريل. ويضعه في صحبة المحبين. هو رفيق في بداية الطريق، ولكنه يفترق في منتهاه⁽¹⁾. العلم ليس هو كلام العارفين، ولكنه طبع العاشقين⁽²⁾.

العلم عند الشباب شك في حاجة إلى يقين. إذا علم بالحس فإنه ينتهي إلى الشعور⁽³⁾. العلم ضروري لتجاوز الصعاب حتى حين اللعب واصطياد الغزلان⁽⁴⁾.

العلم هو الذي لا يذل نفسه من أجل الخير⁽⁵⁾. العلم سعي نحو الحقيقة المستقلة عن أهواء العالم وأوضاعه الاجتماعية. العلم كرامة واحترام للذات، وليس ذلاً أو إذلالاً للعالم.

4 - علوم الذوق

في مقابل علوم النظر هناك علوم الذوق. ويسأل إقبال عن السوق التي كسدت، مع أن أي بيع يربح؟ ويجيب الرومي بشراء الحيرة بالعقل الظني. فهو

- | | |
|--|---|
| <p>(1) وإذا بالعلم حققنا النظر
ويريك للوجود قشره
رام تمهيد الطريق دائماً
وهب النار لقلب والوجيبا
إنه ما فسر الدنيا لنا
والى جذب وشوق يرفعك
هل يتيح العشق يوماً عزلة
كان في البدء الرفيق والطريقا
السابق، ص315.</p> | <p>(1) إذا بالعلم حققنا النظر
ويريك للوجود قشره
رام تمهيد الطريق دائماً
وهب النار لقلب والوجيبا
إنه ما فسر الدنيا لنا
والى جذب وشوق يرفعك
هل يتيح العشق يوماً عزلة
كان في البدء الرفيق والطريقا
السابق، ص315.</p> |
| <p>(2) فطبعي كان طبع العاشقين
أرماغان حجاز، ص459.</p> | <p>(2) عدت أنا كلام العارفين
أرماغان حجاز، ص459.</p> |
| <p>(3) عقلهم نور، بروح ليل حسرة
ما رأوا شيئاً، وكانوا البائسين
جاويد نامه، ص329.</p> | <p>(3) ظمى الفتان ما في الكوب قطرة
شكهم يربو ويجتاح اليقين
جاويد نامه، ص329.</p> |
| <p>(4) العلم حصل واستهن بالصعب
ضرب الكلم، ص61.</p> | <p>(4) لا تغفلن فلات حين لعب
ضرب الكلم، ص61.</p> |
| <p>(5) فعن روح لأجل الخبز غابا
لخبزك لا تذلل النفس أسرا
أرماغان حجاز، ص478.</p> | <p>(5) بعلم ليت شعري أي فخر
وينصح طفلنا نصحا حكيماً
أرماغان حجاز، ص478.</p> |

وهم وظن، في حين أن الحيرة حق ويقين⁽¹⁾.

لا يكفي العقل بالعلم إن لم يصاحب بالجنون أي بالقلب والعشق. العقل يهدأ والقلب لا ينام. العلم وحده متفرج على مسرح، في حين أن القلب يشارك في صنع الأحداث. العلم استنباط مجرب، والعشق تجلُّ وكشف جديد. العقل جبر، والقلب تحرر. العلم خبير ورواية، والبحر والبر مصدرها. العلم من التراب لا ينتج إلا الكلام، والعشق صمت الروح⁽²⁾. يتخلى العقل عن هذائه، ويحل محلّه العشق⁽³⁾. جوهر العقل هو العشق، سر الكائنات، وطريق العشق طريق جديد تتجلى فيه الذات، حنين في قلوب العاشقين⁽⁴⁾. ليس إلا القلب في صدر الشعوب هو الذي يحركها ويحولها إلى واد خصيب⁽⁵⁾.

العلم والشوق من المقامات التي عرفها الصوفية. العلم بهجة، والعشق متعة. أراد صاحب التحقيق المنجلي، وصاحب الخلق بذاته يختلي. أراد موسي أن يتحقق، ولكنه أجيب ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾. فالعين ترى، ولكن الأذن تسمع. ترى العين

(1) قال: يا أستاذ إن السسوق والحق أقول
كسدت فالبيع أي البيع يحظى بالقبول
قال: اذهب واشتر الحيرة بالعقل الظنين
إنه وهم وظن وهي حق ويقين
جناح جبريل، ص 525.

(2) قد وهبُت العقل فامنحني الجنون
إنما للعلم في الفكر المقام
وإذا العلم عن العشق انفرد
عيشنا لولا التجلي سقمنا
هذه الدنيا بها بحر وير
من ترابي ما نما إلا الكلام
جاويد نامه، ص 141 - 142.

(3) أنت يا عقل فانصرف عن هُذاء
السابق، ص 146.

(4) عقلك الحاصل كان للحياة
وطريق للحبيب، كم جديد
إنما هذا الحنين للوحيد
السابق، ص 154.

(5) ليس إلا القلب في صدر الشعوب
إنها لولاه كالوادي الحطيب
السابق، ص 170.

الآفاق، لكنها قد لا تقوى على رؤية التجلي الإلهي في الدنيا⁽¹⁾. العلم بالعشق علم المؤمنين، وبدونه علم الكافرين. العلم دون عشق جثة، وعقل لا يصيب. هو أعمى يحتاج إلى نور، وعقل يحتاج إلى هداية⁽²⁾.

دور العقل حل لغز الطين والماء. إذا كان فوق القوة فإنه يكون بطيء الخطوة. في حين أن العشق زمان لا يفرق بين الشهور والسنين، بين القرب والبعد. يطوف العقل حول الجبل، والعشق يشقه. وهو ما قاله برجسون في العقل والحدس. العقل جبال، والعشق بركان. العقل في مكان، والعشق في زمان. العقل رماد، والعشق حجر⁽³⁾. يسود العشق ويسمو بالدماء. ويكافح في سبيل الحبيب حتى لو صد الحبيب⁽⁴⁾.

- (1) من مقامات لنا علم وشوق
بهجة للعلم تحقيق دقيق
صاحب التحقيق رام المنجلي
عين موسى رؤية الدنيا أرادت
لن تراني إنها المعنى الدقيق
إن تلح للعين آثار الحياة
هذه الآفاق بالعين ارمقن
جاويد نامه، ص202.
- (2) علمنا بالعشق علم المؤمنين
جثة علم لنا ما لم نحب
هب عيون العُمي نورا تشهده
السابق، ص210.
- (3) وإلى العالم هذا العقل جاء
حيث كان العقل فوق القوة
ما درى العشق شهورا من سنين
ويشق العقل شقا في الجبل
ومن العشق جبال كالهشيم
إنما العشق بينات اللامكان
ليس يقوى العشق من ربح وماء
والرماد العشق والعشق الضرم
أمسنا والغد وهو اللازمان
السابق، ص150.
- (4) بالدماء العشق يسمو ويسود
في سبيل الله ما يجري يطيب
السابق، ص175.
- لهما فيما جرى للقوم حق
متعة للعشق خلق قد يليق
صاحب الخلق بذات يختلي
وإليها رغبة التحقيق ساقط
ولتضع فيه فذا البحر العميق
تستمد النبع جوف الكائنات
وتجلّي ربها لا تطلبن
- وبغير العشق علم الكافرين
ولنا العقل كسهم لم يصب
واهد للإيمان من تبّت يده
- كي يحل اللغز من طين وماء
أم من يهوي وثيد الخطوة
لا ولا حتى قريبا من شطون
أو حواليه يطوف في مهل
وقلوب كالسّموك إذ تعوم
والممات دون قبر للعيان
لا ولا من قوة للأقوياء
يفضل الدين ومن علم أهم
ما دنا أو شط وهو اللامكان

وجوهر النبوات والملل العشق إن كمل⁽¹⁾. وإمام شهداء العاشقين شرف للناس.

موت العقل ترك الفكر. وموت القلب ترك الذكر. والجسم تراب، والروح إله. والإنسان أبدي سره. والكون يُوجّه شطره. والعلم قشر لا يطيب. والدليل وجه الحبيب. ودين العوام لا وجود له. ودين العارفين تصعب معرفته⁽²⁾. قد يغزو العقل ويكتشف الآفاق، ولكن يظل العشق مجهولاً⁽³⁾. العقل راحة، والعشق ألم⁽⁴⁾. العقل سراج، سر التقدم، والقلب خمر للشرب مع المحبين⁽⁵⁾.

عين القلب أفضل، والخروج عن إطار الفكر أمثل⁽⁶⁾. يتقد الطبع من القلب. ومنه يصحو التراب الراقد. إذا مات القلب تحلل الجسم، ويتغير لون الدم الأحمر⁽⁷⁾. ويصعب الحكم أحياناً، ويصعب التأويل. ولا يبقى إلا الاعتماد على

- | | | |
|-----|--|---|
| (1) | النبوات، كما خلّت، الملل السابق، ص 176. | يخلق الإنسان عشق إن كمل |
| (2) | قال: موت العقل؟ قلت: ترك فكر قال: جسم؟ قلت: ترب قد تراه قال: والإنسان؟ أبدي سره قال: علم؟ قلت: قشر لا يطيب قال: ما دين العوام؟ ما سمعنا السابق، ص 199. | قال: موت القلب؟ قلت: ترك ذكر قال: روح؟ قلت: رمز لئله قلت: كون؟ قال: وجه شطره والدليل؟ قلت: وجه للحبيب قال: دين العارفين؟ ما رأينا |
| (3) | عقلنا إن كان يغزو أي بأس السابق، ص 251. | عشقنا هذا وحيدا ما عرفته |
| (4) | وَجُدْ من يعشق بالقلب الصريع السابق، ص 253. | تلك روعي منه في الحزن الوجيع |
| (5) | ألك العقل سراج؟ في الطريق سر تقدم السابق، ص 296. | ولك العشق مدام فمع الحب اشربين |
| (6) | قال لي الرومي عين القلب أفضل السابق، ص 299. | الخروج عن إطار الفكر أمثل |
| (7) | إن من قلب لنا الطبع إتقد ويموت القلب جسم غُيرا بفساد القلب ما هذا الجسد؟ السابق، ص 305. | وصحا منه التراب أو رقد ودما أمسى النضيج أحمرأ وحده كن من على القلب اعتمد |

القلب⁽¹⁾. القلب ألم. ومن الألم ينبثق الفرح⁽²⁾. لا يخشى القلب من الألم في حد ذاته، ولكنه يخشى من الألم الذي لا يليق به⁽³⁾. وأسير القلب لا يفدي الأسير. ولا يزيد من ألمه. والأعمى لا يقود أعمى⁽⁴⁾. ولو لم تؤخذ شرارة من نار القلب فإنها تكون شمساً تحت الفلك⁽⁵⁾.

إذا غاب دليل العقل قاد القلب⁽⁶⁾. القلب عود إلى النفس. والصدر دار للحبس⁽⁷⁾. القلب بحر يسكن في الصدر، ويكمن في الدار⁽⁸⁾. وإذا صان القلب السلطان والفقر فإن البحر قد صان الجواهر. إذا دام العقل للإنسان قيذا فإن القلب يفقد⁽⁹⁾.

الذات من ناحية القلب وليس العقل⁽¹⁰⁾. ومنها ينبثق الحبيب. وبها تتم

- | | | |
|------|----------------------------|---------------------------|
| (1) | يصعب الحكم؟ حذار لا تؤول | وعلى قلبك مصباحا فعول |
| | السابق، ص330. | |
| (2) | لا تؤمل غير قلب ذي أمل | ادع ربا وانس كل من حكم |
| | السابق، ص332. | |
| (3) | من الآلام لا أخشى ولكن | بهذا القلب هب ألما يليق |
| | السابق، ص424. | |
| (4) | أسير القلب لا يفدي الأسيرا | وليس يزيد من ألم كثيرا |
| | السابق، ص428. | |
| (5) | السابق، ص539. | |
| (6) | وهذا العقل يقدمه دليلا | لذا أسلمت للقلب الزماما |
| | أرمغان حجاز، ص435. | |
| (7) | بقلبك أمسكن وعد لنفسك | وصدرك فليكن دارا لحببك |
| | السابق، ص480. | |
| (8) | وهذا القلب بحر منك يسكن | ومن جراك فيه الدر يكمن |
| | السابق، ص484. | |
| (9) | وصن للقلب سلطانا وفقرا | فهذا البحر قد صان الجواهر |
| | يدوم العقل للإنسان قيذا | إذا في صدره القلب افتقدتا |
| | السابق، ص487. | |
| (10) | وسكر أنا لتلك الذات عقل | وإن الصمت في حاني لفضل |
| | لديك بخرقه أدنى نصيب | ومن ذاتي وجدت شذا الحبيب |
| | بمراة لذاتي قد بصرت | بصدري خلوة فيها قرزت |
| | السابق، ص496 - 497. | |

الرؤية. ولو نظر العقل بعين القلب لرأى العالم مضيئاً بنور «لا إله». ولو نظر بنور الشمس والقمر لم يحسبه إلا دوران الليل والنهار⁽¹⁾.

العشق دين الروح. وهو ما سماه المسيح المحبة. فقد يذل العقل والدين من الفسوق. لذلك كان عيسى سراج الكائنات. حرر الروح من البدن الذي كفه الإنسان فيه. وتولستوي هو الذي فهم رسالة المسيح⁽²⁾. العشق احتراق. واحتراق قديم يعود لهيبه من جديد⁽³⁾. يضرم العشق النار وينصرف. ويهب العقل رؤية ويغادر. العشق حركة لا ثبات لها⁽⁴⁾. يبقى في القلب بعد إغراق العينين. العشق مستمر حتى بعد الوصال إلى الحسن. ولا يكون الوصال إلا بعد تحطيم القيود. فالعشق حرية⁽⁵⁾.

العشق شوق، والشوق عشق. العشق شوق إلى الحبيب، والشوق عشق له. يمزق الشوق الستر. ويتجاوز رؤية العين في الضمير. لا يمكن عزله⁽⁶⁾. الذوق والشوق ركيذتا الشعور. ولا يدرك ذلك إلا بنور العين⁽⁷⁾. الذوق يؤدي إلى

- | | |
|-----|---|
| (1) | السابق، ص533. |
| (2) | ذل عقل ذل دين من فسوقك
إنما عيسى سراج الكائنات
المسيح أسكن الروح البدن
جاويد نامه، ص177. |
| (3) | إن عشقت في لهيب فاحترق
إنه في العشق منا أقدم
السابق، ص266. |
| (4) | أضرم العشق علينا وانصرف
اغمض العينين حتى أملكه
السابق، ص267. |
| (5) | الوصال ما أراح قط عشقا
وابتداء عند حسناء سجود
السابق، ص314. |
| (6) | إن فزط الشوق سترا مزقا
عصره كان ضميرا وهو فيه
السابق، ص258. |
| (7) | ولما بالذوق والشوق الشعور
السابق، ص286. |

هان حتى العشق من سوم بسوقك
نوره اللماح في كل الجهات
أنت من أدرجت ميتا في الكفن

كان منه أو فلست المحترق
سرّه ما ليس يدري آدم

وهب الرؤية عقلا، ما وقف
في فؤادي طاب لي أن أسلكه

بل أراح سرمدي الحسن حقا
بانتهاء حُطمت تلك القيود

وعن العين القديم فرقا
عزلة مهما تكن لا تحتويه

ولعين حاكم البنجاب نور

اليقين⁽¹⁾. والقلب في قيد إذا ما تجرد عن الذوق والشوق⁽²⁾. العشق مبدأ الحياة. وهما خطوب ومغامرة موصولة الأشجان⁽³⁾. القلب والعشق والشوق والذوق طريق الحب. والحب له شهادؤه في كل مكان، ولدى كل الشعوب. يهيج في الفؤاد كما يهيج الفراش حول السراج. هو الباعث على التفلسف عند الحكماء وإلا تحولت أفكاره إلى لعبة من لآلئ من زجاج. يدفع الذات إلى الاستقلال. ولا يخاف أي سلطان. فالخوف علامة الاحتياج⁽⁴⁾. قدر الإنسان في مكانة الحب من قلبه كما ينصح إقبال ولده جاويد، عندما يصبح نغمًا صباحا ومساءً يجدد حرقه الندماء. فهو الطريق إلى الوعي بالدنيا والهداية الإلهية⁽⁵⁾. القلب مكان الدم. وهو الذي يحركه، وليس الفقر أو الجود. ومن لم يهدمه الأحمر يكون عقله أسود⁽⁶⁾.

5 - علوم التربية

أ - مناهج التعليم: من النقل إلى الإبداع. من عيوب العصر الحاضر مناهج

- | | | |
|-----|-----------------------------|----------------------------|
| (1) | أتروم الذوق عند المسلمينا | وتريد الشوق فيهم واليقينا؟ |
| | السابق، ص333. | |
| (2) | بظاهر ما يراه القلب قيّد | فمن ذوق ومن شوق تجرّد |
| | أرمغان حجاز، ص440. | |
| (3) | مبدأ العشق والصبابة قهر | وخطوب موصولة الأشجان |
| | وهو من بعدها دلال وتيه بين | طيب المني وصفو الأمانى |
| | ويعود المحب بالقرب محبوبا | وينسى لواعج الهجران |
| | يا أمم الشرق، ص350 - 351. | |
| (4) | من شهيد الحب الذي زعموه | ابحثوا عنه في جميع الفجاج |
| | سمة العشق لا تتاح لشعب | دون شعب ولا تباح لراجي |
| | في هياج الفؤاد للحب سر | كهياج الفراش حول السراج |
| | رؤج الحب سوق كل حكيم | حساك آراه به للبرواج |
| | هي لولا تدخل الحب فيها | لعبة من لآلئ من زجاج |
| | رجل الحب لا يذل لشيئ | مستقل الفؤاد حر المزاج |
| | ليس يحتاج أو يخاف مليكا | إنما الخوف مظهر الاحتياج |
| | جناح جبريل، ص532. | |
| (5) | لتكن لقلبك يا بني مكانة | في موطن الحب البعيد النائي |
| | كن في أساسيه وفي أسماره | نغما يجدد حرقه الندماء |
| | وعى الفؤاد حقيقة الدنيا فإن | وهبتك إياه يد الرحمن |
| | السابق، ص533. | |
| (6) | رجل يحرك قلبه دمه | لا الفقير يحزنه ولا الجود |

التعليم. فقد ازدحم التعليم بالغث والسمين، وبالخشو المنقول، دون تمييز بين حسن وقبح مما منع توليد الأفكار الجديدة⁽¹⁾. تعليم هذا العصر لا ينضج فكراً. ولو وجد عقل حر في مدرسة إلا أن الأفكار متناثرة دون جامع بينها في ثنائية حادة بين إلحاد الغرب وفوضى الشرق⁽²⁾. ومن كان له نظرة سهم لم يحتج إلى الكتاب والديوان. إنما العلم هو العلم الذوقي الذي يقوم على العرفان والمشاهدة، لا علم الدور والفصول⁽³⁾.

يقوم المعلم حالياً بخنق روح التلاميذ. ويبني بدلاً منه صرح فخار. الحق في القيل والقال، وليس في التجربة. إذا حجب جدار المدرسة الشمس فإنه سيحجب نورها⁽⁴⁾. وفي القوم حمال كتب ثقيلة يئن بحملها جمل⁽⁵⁾. لا يأتي العلم بالإقامة في زوايا الحجرات، يحشد الألفاظ كما يحشد المكتبات. إنما يأتي من نيران الخليل حتى يسمع التوحيد⁽⁶⁾.

سود الدماء عقولهم سود	إياك من لم يهدم دمهم	=
	السابق، ص545.	
بأفكار كما امتلأ القفيز جميلاً من قبيح لا يميز عسى يثوي به ضيف عزيز	ضمير المدارس في ازدحام وهذا العصر ماض في هواء ففي جنبات قلبك أخل بيتا	(1)
	ضرب الكلم، ص57.	
وأجواء هذا العصر لا تُنضج الثمر ولكن بها الأفكار عقد قد انتثر وعبد عقل الشرق فوضى من الفكر	فأين يصيب المرء ناضج فكرة مدارس فيها كل عقل محرر أطاحت بعشق الغرب أفكار ملحد	(2)
	السابق، ص57.	
منهم خلا الكتاب والديوان أنت لها مذاقها عرفان	من كان في نظرتهم سهام لكنما الدار التي سراج	(3)
	السابق، ص61.	
يبني المعلم هذا صرح فخار ما قال من بيت شعر ند أشعاري فلن ترى نورها في باحة الدار	أمام روح التلاميذ التي اختنقت الحق ما قال كاغاني ويسحرني وإذا الجدار أمام الشمس ترفعه	(4)
	جناح جبريل، ص546.	
ثقيلة يعيا بحملها جمل ويرسل الأقوال من غير عمل	وكم ترى في القوم حمال كتب يدور في الناس كحمال الحطب	(5)
	يا أمم الشرق، ص353 - 354.	
يحشد الألفاظ حشد المكتبات	يا مقيماً في زوايا الحجرات	(6)

طريق الفقه طريق مسدود، طريق الأدلة والأحكام⁽¹⁾.

يسأل إقبال عن كيفية العلم بالعيان أم بالبصيرة؟ ويجيب الرومي بأن البصيرة هي طريق العلم. فقد ترى العين ولا تدرك، تبصر ولا تعي⁽²⁾. ويسأل أيضاً أنه لا يبصر في الدرب مناراً. ويبحث عن من يقدح في صدره نار الحكمة. ويجيب الرومي أن من يوقد نار العلم هو يابس الخبز الحلال. أما الذي يأكل كد الناس فإن الضلال يقضي عليه⁽³⁾.

لا يأتي العلم عن طريق الرواية والخبر والنقل، بل عن طريق الشهود والبصيرة. العلم الأول هو الظاهر، والثاني هو الباطل. الأول من يقف في ظل الدار، والثاني من يدخل فيه. وهي نفس الصورة التي استعملها برجسون في الفرق بين العقل والحس، العقل الذي يرى كنيسة نوتردام من الخارج، والحس الذي يدخل فيها⁽⁴⁾.

-
- = إن تكن في مثل نيران الخليل
السابق، ص 357.
- (1) أنا لم أسلك إلى الفقه سبيلاً
السابق، ص 362.
- (2) قال يا شيخ! بماذا
وبأي الأمر أعنى
قال: يا إقبال ما هذا الذي ليس يبين
إن تكن تبصر يعني أنت إنسان مبین
يملاً المهجة حق وحبیب دامغ
ما عدا ذلك يا إقبال جوز فارغ
جناح جبريل، ص 525.
- (3) قال: يا أستاذ، لا أبصر في الدرب مناراً
أين من يقدح للحكمة في صدري ناراً؟
قال: يوري العلم ناراً يابس الخبز الحلال
والذي يأكل كد الناس يفنيه الضلال
السابق، ص 428.
- (4) شأننا في الدين لا يعدو الخبر
نحن عند الباب في ظل الشجر
وهو في الدين شهود ونظر
وهو في الدار وفي مجنى الثمر
يا أمم الشرق، ص 365.

لا يأتي العلم من كتاب أو مذهب. هذا علم إبليس⁽¹⁾. يمكن بالجدل انتصار على العلم المنقول والمعقول. بل إن علم إبليس الظاهر هو إنكار وجود الله، وعمله الباطن إثباته. الشهادة بين «نعم» و«لا» وهو ما فعله إبليس، وليس «نعم» فقط وهو ما فعلته الملائكة.

يحتار العقل في الحقائق. تعامل معها وهو لا يدري كيف؟ والقياس لا يستطيع تحريك الفؤاد والخيال. العقل أسير للقياس، مرتبط بالحواس. ومعرفة الخير والشر تجلي. وأصل القصور العمل لا الحجر. فالعمل أصل الأشياء كما نبّه جوته وماركس⁽²⁾.

لا يأتي العلم عن طريق الكتاب. النبي تلقى الوحي دون كتاب. وعلمه دون كتاب. ولا يحدث القرآن ككتاب في القلب الأثر⁽³⁾. ليس القرآن كتاباً يقرأ بل ذوق يُطلب⁽⁴⁾. لا

- (1) ليس عندي من حديث أو كتاب كالفقيه غزل دين من غزل ما عرفنا مثل هذا المطلب لوجود الله لست منكرا أجهلت كي أقول ما وُجد و«نعم» في ستر «لا» ما قد نطقت جاويد نامه، ص 268.
- (2) حار هذا العقل في تلك الحقيقة والخيال غيره عنه اختلف من يقول إن هذا في السما فضل الدنيا على دنيا الفؤاد قال لي «الرومي» أسير للقياس؟ بالتجلي الخير كان والشورور القصور كالربيع في النظر السابق، ص 284 - 285.
- (3) ما انتشى ما ذاق شيئا من حيور ويقول ما يظن اليوم حقا ليس للقرآن في القلب الأثر السابق، ص 327.
- (4) صاحب القرآن ما ذاق الطلب السابق، ص 327.
- والفقه من دحرُت في الغلاب جعل الكعبة آثار الطلل ما لإبليس انشقاق المذهب أبصر الباطن واترك ظاهرا كيف هذا، إن ربي قد شهد ما سكت، فأنا خيرا صنعت
- سار وهو لا يرى حتي طريقه ذلك في الجوزاء وهذا قد أسف بجوار من على الأرض ارتمى بالقياس حرت في شرح المراد عنك دع كل اعتبار للحواس جنة كانت كما كان السعير أصلها الأعمال لا ذاك الحجر
- وكتاب الدين في جوف القبور عن نبيين تلقى ما تلقى فيهما الآمال خابت للبشر
- العجب ثم العجب ثم العجب

يهم الكتاب إلا إذا جذب القلب إليه⁽¹⁾. كم كتاب أغشى فيها البصر؟ إن خير علم ما عُرف بالنظر، علم يسكر من أول رشفة⁽²⁾. الكتاب دماء غير مشتعلة بالنار، غمد خال من السيف، ومن اليد التي تمسك به⁽³⁾. العلم بالقلب وليس بالحرف. وهو العلم الذي يبعث على الخير والتقوى. ودرع الجاهل خير من فسق الكافر⁽⁴⁾.

الأساتذة هم القادرون على فهم روح العصر وإفهام الطلاب إياها عن طريق تجلية النفوس، وليس عن طريق القيل والقال. مهمتهم التأثير في الطلاب كما تؤثر أشعة الشمس في الأحجار الكريمة⁽⁵⁾. مهمتهم إثارة الاعتراض من الطلاب وليس طاعتهم وإذعانهم حتى يشتد عودهم، ويقوون على المقاومة. مهمة التعليم إيقاظ نفس الطالب، تحريكها وإثارته للنظر، وحثها على نيل المثل العليا، وليس تلقينها وحفظها للمنقول. فالعلم في الطبيعة، في الأمواج العاتية، وليس في هدوء العاصفة. الكتاب محدود. وقراءته محدودة. أما أصل الكتاب فغير محدود. ومشاهدته بلا حدود⁽⁶⁾.

- | | | |
|-----|---|---|
| (1) | ليس يدري القصد منه المكتب
السابق، ص 329. | إن تناسى ما بقلب يجذب |
| (2) | كم كتاب فيه أغشيت البصر
إن هذا العلم صب خمرة
السابق، ص 329. | خير علم ما عرفت بالنظر
يا لها من بعد رشف سكرة |
| (3) | دماء فيه تخلو من لهاب
خليّ الغمد، ما في الكف مال
أرمغان حجاز، ص 440. | وما زرع الأزاهر في الحراب
وهذا الرف يهوي بالكتاب |
| (4) | ومن علم بقلب ليس حرقا
أفضل جاهلا ورعا تقيا
السابق، ص 477. | تأمل متق خبير وأبقى
بعلم ليس يخدعني الكفور |
| (5) | إن كان تربية الياقوت مقصدنا
وما المدارس أو ما الدارسون بها
كانت جديرا بقود العصر أدمغة
ضرب الكلیم، ص 59. | فما شعاع رمته الشمس حيران
وللروايات عم الأرض إذعان
يقودها العصر ما فيهن نكران |
| (6) | الله بحبوك علما
فإن بحرك رهو
لن تستطيع فراغا
فأنت قاري كتاب
السابق، ص 57 - 58. | بمائجات العباب
ما يُبتلى باضطراب
في السُفر من أبواب
ولسست أهمل كتاب |

تتجلى الذات في الإبداع، عندما تخلق من ذاتها عالماً آخر. والتوتر في الزمان هو بداية الإبداع، وألا يكون اليوم مثل أمس أو الغد. الإبداع هو شرط بقاء الأمة أيضاً والأمة التي لا تبدع في التاريخ تندثر كالغبار، خاصة إذا ما عمتها فلسفة عدم تجعل الوجود وهماً وظناً. العدم بداية والعدم نهاية⁽¹⁾. ولا يأس من تعلم الأطفال الصغار، مادامت القلوب في الصدور. والطفل قادر على تعلم الدين ليشرق في حياته⁽²⁾.

وتقوم التربية على شقين: العلم والحياة، العقل والقلب. العقل والعلم للسيطرة على الدنيا. والحياة والقلب لتحرر الذات. ولا يغني العقل عن القلب، ولا الكتاب عن التجربة الحية، ولا علم الشيخ عن مشاهدة المريد. فالكبريت الأحمر لا يستطيع إشعال سراج الكهرباء⁽³⁾. الأسفار والكتب والنقول تعمي الحس، وتجعله غير قادر على شم عطر الرياض⁽⁴⁾.

ب - المدرسة، من المهنة إلى الرسالة: أصبحت المدرسة وسيلة لتعليم الوظائف وسبل المعاش. لا تساعد على اقتحام الحياة أو انطلاق الفطرة أو كشف

(1) وما المعنى ليومك أو ليومي بلا ليل يكون ولا نهار
إذا عبر النبوغ بأرض قوم تولى مثل زوبعة الغبار
حكاية كوننا وهم وظن وهذي كل أطوار الحكاية
من العدم البداية أخرجتنا وترميننا إلى العدم النهائية
جناح جبريل، ص477.

(2) لماذا اليأس من طفل صغير
ولكن من يعلمه لتسأل
أرمغان حجاز، ص478.

(3) فرق علم وحياة
هو في الرأس ذكاء
قدرة في العلم تبدو
معضل أن ليس فيه
ليس بدعا أن كأسا
ما طريق الشيخ في المكتب
كيف بالكبريت إشعا
ضرب الكلیم، ص55.

(4) أعمت الأسفار حسا فالصبا
لم تعطر لك من روض مشام
السابق، ص60.

أسرار الكون. المهنية والحرفية قتل للنفس، وتوقف للقلب عن النبض. يغيب الحوار وطرح السؤال. تحجب المدرسة الأسرار المنتشرة في الكون⁽¹⁾. ولا تقوم المدرسة الهندية على تربية الذات. فليست هدفها. الحمامة لا تلد نسرًا. ومدرسة العبيد لا يخرج منها الأحرار. والموت لا يؤدي بالضرورة إلى الخلود⁽²⁾. الحر يدافع عن الحق، والعبد تغشاه الخرافة. الحر ذو كرامة، والعبد تأتيه الكرامة. والعبد المقيد لا يقدر على التعليم إلا بتصويره للحن والنباتات.

مدارس المسلمين اليوم باردة ليست بها حرقه. مازالت ورود المسلمين لم تفتح بعد. ومازالت سماؤهم سماء شياطين لا ملائكة. الرأس مملوء، ولكن النظرة ضحلة⁽³⁾. وأيهما أفضل: حيرة الفكر الفلسفي أم حماسة جلال الدين الرومي ووجد موسى؟ أسلوب الثعلب في الظلام أم يد الله في طريق الحب؟⁽⁴⁾.

(1) لذلك كتب إيفان إيليتش «القضاء على نظام التعليم المدرسي في المجتمع» Ivan Illich: Deschooling Society .

كلّ نفس بفكرة في المعاش
وهي موت لمشفق من هراش
صاح بالعقل: لا تلذ بنقاش
وضع الرق نظرة الخفاش
هو في البيد والرواسخ فاش

ملك الموت عصرنا يتوفى
يرجف القلب من كفاح حياة
أبعد الدرس عن حجاج جنونا
عينُ صقر مُنخثها وعليها
حجبت دونك المدارس سرا

السابق، ص 58 - 59

فما لمدرسة هذي المقالات
من البُزاة مقامات وحالات؟
كم تبطن السير بالعبدان أوقات
ولحظة العبد من موت فجاءات
وفكرة العبد تغشاه الخرافات
والعبد من غيره تأتي الكرامات
تصويره ولحن والنباتات

إقبال أقصر، هنا لا تُعرف الذات
الخير ألا تُرى في عين قُبيرة
فلحظة الحر عام للدليل فكم
ولحظة الحر من خلد رسالته
وفكرة الحر من حق منورة
كرامة حية بالحر مائلة
حسب المقيد تعليما وتربية

السابق، ص 54 - 55.

فحسنها بارد لا روح تذكيه
متى ابن آدمنا هذا ترقّيه؟
اللازوردية المجنونة الفرحة
رأس منير ولكن نظرة وقحة

هب المدارس يا رباها حُرقتها
متى سمواتنا تنشق وردتها
هذي السماء التي أغرت كواكبنا
سما شيطان ما فيها ملائكة

جناح جبريل، ص 457.

وجد موسى أم فكرة فلسفية؟

حيرة الفكر أم حماسة رومي؟

العقيدة في المدارس لا فعالية لها. والأديرة خاوية بلا أسرار، بالرغم من طول الطريق ووعورته، تتساءل العينان والقلب حيران⁽¹⁾. يقنع الشاعر بذنه في حانته. ولا يطوف حول الكنائس يستجدي الهداية. لم يجد هذه الخمر في تلك المدارس⁽²⁾. لا يمزق الشاعر ثوبه متعة بل حرقه على أوضاع المدارس. يطمع في تربية الفرد وتكوينه حتى ينقذه من رقاد المدارس. وهو رأي غاندي أيضاً أنه لا يربي الفرد إلا «ضرب الكليم» الذي يقضي أيضاً على شعوذة البراهمة بدعوى السحر⁽³⁾.

لم يتجاوز تعليم الدين الإسلامي والمسيحي طرق التعليم العام بل أسوأ منه. يقوم بالتعليم الإسلامي المشايخ دون إخلاص وبنية شئى آخر. والتعليم النصراني براق لا يقوم على دين أو أخلاق. كلاهما تعليم يقوم على الذل والاستكانة. ربما يُغفر للفرد هذا التعليم، ولكن لا يغفر للأمة نظام تعليمها⁽⁴⁾. وفي هذا الزمان تقع حرب الأديان. وهي حرب ضد الدين لصالح الكفر. الدين بناء حق أرفع مما شيد السلطان⁽⁵⁾.

=	هي أسلوب ثعلب في ظلام السابق، ص457.	أم يد الله في طريقة حبه؟
(1)	غصن العقيدة في المدارس عار بالرغم من طول الطريق وعسره السابق، ص455.	ومذاق أديرة بلا أسرار عينك ظاعنة وقلبك سار
(2)	أنا في حانتي قنعت بذني أبدا لا تقدّم الخمر هذي السابق، ص458.	لست ممن يطوف حول الكنائس نفسها في رحاب تلك المدارس
(3)	لست عن متعة أمزق ثوبي طمعي الفرد والمطامع كثر رأي غاندي إن كنت غير قوي ليس إلا عصا الكليم لسحر السابق، ص460.	تلك أسرارنا وليس وساوس هبة الفكر من رقاد المدارس غير مجد في ملتي واعتقادي برهمي مشعوذ في البلاد
(4)	قد عرفنا قدر أشياخ الحرم ولتعليم النصراني نغم تكتب الذل على أقدارها ربما تغفر للفرد ولا ضرب الكليم، ص60.	كل دعوى دون إخلاص سقم ليس من دين وخلق ذا النغم أمة بالذات فيها لا تُهم تغفر الفطرة أمام الأمم
(5)	حرب على الأديان ذا الزمان	مركب في طبعه الكفران

والمسؤول عن ذلك هي المدارس الدينية وفقهاء السوء ورهبانه. ولولا هم
 لأمكن ري المدينة مما رواها السابقون. وصغار التلاميذ الأبرياء لم يعلموهم
 الطيران. قتلوا الحمية في صدورهم. والمفتي يكرر مصطلحات الفقه القديم بلا
 فهم. كؤوسه فارغة. لجاجه كثير. ومن قدر على نحت الصخور في الماضي سهل
 عليه صياغة الزجاج⁽¹⁾. ليس في هذه المدارس إلا ما يحدث الغفلة والبلادة.
 والدرس والبحث في الفؤاد سماع صوت التوحيد. فالعلم في القلب وليس في
 الكتاب، ومن الذات وليس من الأستاذ⁽²⁾.

والدير كالمدرسة سبب ضياع البصيرة، وانزواء الحب، وظلام الطريق
 الموصل إلى المعرفة⁽³⁾.

ويشير إقبال إلى الرسالة أحياناً باسم الدين. والدين يعطي اليقين. يعطي
 القوة، ويربط القلب بالإله. الدين احتراق في الطلب. هو عشق بالقلب يوجب

- | | |
|--|---|
| أرفع مما شيد السلطان | = سدة أهل الله، فاطنُبتها
السابق، ص61. |
| وأحبار سوء ورهبانها
وأورق بالحب بستانها
هم علموها عناق الغبار
هم أبدلوها بهذا الشنار
ترى النشأ يملأ وجه الطريق
بروحات نسر وغدوات باز
يضج بمصطلحات الحجاز
ويؤسفني مثل هذا اللجاج
ترفع عن أن يصوغ الزجاج | (1) ولولا مدارس هذي الشيخوخ
لرؤى المدينة مما ارتواه
صغار الشواهين ما ذنبها
هم قتلوا القلب في صدرها
ومفتي المدينة واد سحيق
أنا لست أفهم هذي الكؤوس
ومن كان يحسن نحت الصخور
جناح جبريل، ص 429 - 430. |
| إلا بحوث مغفل وبليد
لو كنت تتقن صرخة التوحيد
لك في استعادة سرك المفقود
واجهد لنيل مقامك المحمود | (2) ما في مدارسك التي ترتادها
سر الدراسة في فؤادك كامن
لم تبق يا مسيكن إلا فرصة
اطلب علوم القلب من أستاذها
السابق، ص 442 - 443. |
| غضبي على ديري ومدرستي
حبي وأظلم درب معرفتي | (3) أنا أسف جدا ويحزنني
ضاعت هناك بصيرتي وذوى
السابق، ص443. |

طاعة الحبيب⁽¹⁾. يكشف العشق الطريق⁽²⁾. وأهل القلب شمس الكائنات. نورها يهب الحياة⁽³⁾.

يريد إقبال أن يرى شيخاً قادراً على تغيير الأوضاع الحالية. يحول التلميذ إلى أستاذ، والأستاذ إلى تلميذ، متحولاً من النقل إلى الإبداع. يخاف الباز من العصفور الذي قد يقلم مخالبه. فلدى الشباب نور يفيض على الشيوخ إذا ما تخلصوا من قيد العبودية حتى لو ألقوا حطباءً في نار الوجود. يتصرفون بجنون، ويسقطون تعباً. قلوبهم كالحجر⁽⁴⁾.

والآن تبكي مدرسة الأسود التي تخرج منها أباطرة الزمان الماضي. جار عليها الزمن فأصبحت مرعى لخرفان ووكر ثعالب. لم يعد للقوافل من يقودها مثلما قاد موسى شعبه. ومن يردد وراء العصفور نشيده والجميع ساه والمردد لاه؟ إن حضر المعلم غاب التلاميذ وإن حضر التلاميذ غاب المعلم. مضت العزائم السالفة كما يمر النسيم بالبستان. وهي التي أعطته جمالها وروته بالألحان. والآن يكرر التاريخ نفسه في الظلمات في آيات معكوسة⁽⁵⁾.

- | | |
|-----|--|
| (1) | كن قويا وابغ بالدين اليقينا
نلت من ربك قلبا منحتة
إنما الدين احتراق في الطلب
جاويد نامه، ص 330 - 331. |
| (2) | ولعبد العشق من رب طريق
السابق، ص 332. |
| (3) | إن أهل القلب شمس الكائنات
السابق، ص 333. |
| (4) | بودي أن أرى شيخاً
يقوم ويجعل التلميذ للأستاذ أستاذا
يخاف الباز عصفورا
فأت شبابنا نورا
وخلصهم بما تختار من قيد العبودية
ولو ألقيتهم حطبا
تصرف بالجنون لهم
فليسوا شعبية منه
جناح جبريل، ص 513. |
| (5) | يممت مدرسة الأسود رأيتها
تبكي أباطرة الزمان الذاهب |

وتوجد غريزة جمع الشهادات في طبقة معينة من العائلات الهندية غالباً من صنع الإدارة الإنجليزية. تطور الميل إلى جمع الشهادات من مصادر رسمية متعددة وطباعتها. وأصبح غريزة ظهرت بوضوح لدى الخلف. وهو مرض نشأ في ظرف غير صحي⁽¹⁾.

6 - الجمال والفن

أ - الجمال والجلال: الجمال رؤية فنية للعالم في حالة نشوة وسرور به، وقدرة على التعبير والتصوير. الجمال مرتبط بالعين التي تسبح في الفضاء⁽²⁾. ليس الجمال الحجارة أو اللون أو الصوت أي البدن بل هو ما يثيره من معاني ودلالات أي الروح. فالمسجد ليس مجرد تشييد وأعمدة وأقبية وزخرفة بل هو أذان وذكر وشهادة «لا إله إلا الله». فما قيمة مسجد لا يُذكر فيه اسم الله؟ وما قيمة سجد لا يُتدبر فيه معاني التشهد؟⁽³⁾.

مرعي لخرفان ووكر ثعالب
بجوار موسى في رحاب الله
والجمع ساه والمردد لاه؟
طيف ومر بذلك البستان
وهي التي روته بالألحان
ظلمات تاريخ يكرر نفسه

= جارت عليها الحادثات فأصبحت
ما للقوافل من يقود ركابها
من أين للعصفور ذوق نشيده
آه لأنفاس مضت وكأنها
وهي التي أذكت لهيب جماله
في ليل دهشته هناك ووجده
السابق، ص463.

St. Ref., p. 138.

وجيوش الشقيق في الصحراء
ودلال ونشوة بالغناء
وسبح الأفلاك في الدماء
تهادى بموكب للقاء
وصمت الأفلاك في ذا الرواء
لا يباع الجمال في ذا الفضاء

(1)
(2) الربيع النضير ملء الفضاء
وشباب ومتعة وسرور
وعيون النجوم في حلك الليل
وعروس الهلال في هودج الليل
وتبدي ذكاء في رونق الصباح
سرح العين، لا تكلف أجرا
ضرب الكلم، ص74 - 75.

لم يسبق إلا ادكار مفقود
ولا تجل تواتر ملسود
أعوى إيازا مقام محمود
لجواهر كالزجاج معدود
صلاة حر ربيب توحيد
فيه وغى هالك وموجود

(3) تملاً صدري هموم مفئود
قد خدمت «لا إله» لا حُرق
في الخلق كل العيون تنكرني
من صخر كالمسلمون في خجل
فإنما كفاء ما تمثله
جلال تكبيره لذي أذن

يفرق إقبال بين الجمال والجلال مثل الصوفية. وهي التفرقة الأثيرة عند كانط والتي اشتهر بها. فالجلال هو ما أضاف العظمة والرونق والقوة للجمال مثل جلال السماء المرصعة بالنجوم⁽¹⁾. قد تفقد الذات نفسها حيناً، ولكن يبقى الجلال العظيم. كلاهما، الجمال والجلال، سر وسحر⁽²⁾. وكما ينمو نبات على ضفاف نهر وصوت الموسيقى العذب الفضفي يسمع من تحته كذلك ينمو الإنسان على ضفاف اللانهائية يستمع إلى لحن إلهي من أسفل، يعطي روحه الحياة والانسجام⁽³⁾.

القوة من عناصر الجمال. وهي التي تحيل الجميل إلى جليل. وهي تفرقة عند الصوفية المسلمين خاصة عند ابن عربي قبل أن تكون عند كانط⁽⁴⁾. بل إن من عذوبة العذاب أن يكون بنار قوية⁽⁵⁾.

والحسن والقبح أو الخير والشر مرتبطان، نتيجتان لإثبات الذات ونفيها، لعلوها وسفلها، لقوتها وضعفها⁽⁶⁾. لا يعبران عن النفع والضرر أو المكسب

- | | |
|--|--|
| ولا دعائي دعاء معمود
فكيف ترضى سجود رعديد؟ | = وما صلاتي بقلب ذي حُرق
ولا أذاني جلال مقتدر
السابق، ص75. |
| وكفأك من أفلاطون الإدراك
في سجدة للقوة الأفلاك
ما الحسن إلا بالجلال يحاك | (1) حسبي كمالاته من حيدر
وأرى جمالا في بهاء أن ترى
ولنغمته من دون نار نفخة
السابق، ص98. |
| Persian Psalms, p. 119. | (2) |
| St. Ref., p. 140. | (3) |
| في سجدة للقوة الأفلاك
ما الحسن إلا بالجلال يحاك | (4) عندي جمال في بهاء أن ترى
ولنغمته من دون نار نفخة
ضرب الكلم، المدخل، ص ط - ي. |
| وهاجة ولهيبها دراك | (5) لا أرتضي نار الجزاء ولم تكن
السابق، ص ي. |
| وبه معرك قبح وجمال
وقبيح ما بدا في الاستفال | (6) عالم الذات به علو وسفل
في اعتلاء الذات يبدو جميل
السابق، ص ي. |

والخسارة⁽¹⁾. الجمال والأخلاق شيء واحد. ومن القيم الإنسانية الإحساس بالاحترام والتقدير والجدارة، بل ولها قيمتها الاقتصادية. فلقلب مساعد جراح أفضل من لقب مساعد مستشفى حتى دون زيادة في الأجر⁽²⁾. التملق سلوك مغالى فيه⁽³⁾. والأخلاق سلوك. أبدع القدماء شخصيات أخلاقية في حين ألف المحدثون مختارات أخلاقية⁽⁴⁾.

ب - الفن للحياة: ليس الفن للفن بل الفن للحياة⁽⁵⁾. الفن في الهند جنازة لكل عشق، وقبر لكل فكر. فن الهند للموت، وليس للحياة. ينيم الروح، يسدل الستار على كل مجد. موضوعه المرأة التي يُسخر لها كل شيء⁽⁶⁾. الفن تعبير عن الحياة. والحياة خضم زاخر. والذات لا تركز إلى الشيطان بل إلى النهر ذاته⁽⁷⁾. فالحياة على الشط ضعيفة، وفي البحر زاخرة. والحياة ليست موضوعاً للحديث بل للفعل⁽⁸⁾. الحياة هي تجميل الذات، وابقاؤها في مسيرة. والفن على هودجها هادي لها⁽⁹⁾. والفنان يعبر عن هذه الرؤية ليل نهار. ليست الحياة للبشر فقط وليست ملكاً

(1) جميلك أو قبيحك لا أراه جعلت عبارة ربحاً وخسراً رسالة الشرق، ص 266.

(2) St. Ref., p. 7.

(3) Ibid., p. 158.

(4) Ibid., p. 123.

(5) الشعر فيه من الحياة رسالة مقصد الفن في الحياة لهيب السابق، المدخل ص ل، ص 84.

(6) تخيلهم جنازة كل عشق وموثنهم به نقش المنايا ينيم الروح في إيقاظ جسم يسخر للأنوثة كل شيء السابق، ص 93.

(7) دع الشيطان لا تركز إليها عليك البحر صارغ فيه موجا السابق، ص 267.

(8) أنكسر لي حديثاً عن حياة سكرت بلذة التسيار حتى السابق، ص 267.

Persian Psalms, p. 118, 121.

(9)

لهم فحسب. الحياة في كل مكان. إنما السر متى تبدأ ومتى تنتهي؟⁽¹⁾.

وتقليد الإفرنج في الفن ليس فنا. فمسجد باريس تقليد لطراز أفرنجي أقرب إلى الملعب منه إلى المسجد، وأقرب إلى روح الوثن منه إلى دار العبادة، وكأنه بني في عصر خراب دمشق، وليس في عصر المسجد الأموي⁽²⁾. ليس طرازاً مغربياً بل هو طراز غربي.

الفن تربية. ليس في مدارس الضوضاء واللهو والغم بدعوى العيش الوفير. فهذا ليس علماً. بل هو سم الحر. الفن تعبير عن كد الحياة سواء كان أدباً أو فلسفة أو غناء. هو الفن الذي يضيء كالصبح معلناً نهاية الليل. وليس هو الذي يحاكي الطبيعة. هو القادر على تطوير مسار كل شيء. والطبيعة هي التي تحاكيه لأن الطبيعة عمل فني⁽³⁾.

الفن والدين قرينان. بل إن كل فنون التعبير من شعر ونثر وخطابة وكتابة وتحرير وتدبير تدخل مع الدين والفن كشكلين أدبيين رئيسيين. كل فن له مضمونه وصورته. كلها تنشأ من أصل واحد، من الطين والقلب، ولكنها تنفرع إلى أزهار متعددة. الكل تعبير عن الذات. الذات تعبير عن نفسها في الدين والأدب لأن الفن أخلاق. والقرآن والشعر العربي قرينان. كلاهما نظم⁽⁴⁾.

Ibid., p. 120.

(1)

للزور هذا الحرم المغرب
عند الفرنج للغرام ملعب
في صورة من حرم تكذب
دمشق من عدوانه تخرب

يا نظري لا يخدعتك فنه
وليس هذا حرماً لكنه
قد أخفت الإفرنج روح موئن
إن الذي شيد هذا موئنا

ضرب الكليم، ص74.

(2)

وغم دام في العيش الوفير
إذا كان الجدى كف الشعير
قوام الفن في جهد المسير
يضيء الليل كالصبح المنير
يطوع لحكمه كل العسير
أياة الشمس كالطل النضير

مدارس ثم ضوضاء ولهو
وسم الحر هذا ليس علماً
وما أدب وفلسفة غناء
تحكم في الطبيعة رب فن
فرب الفن من بركات فن
وذلك إن يثأ قطرت عليه

السابق، ص117.

(3)

والشعر والنثر والتحرير والكتب
في صدره يتوارى جوهر عجب

الدين والفن والتدبير والخطب
كلٌ يحيط بمكنون يضمن به

(4)

الفن والعلم تعبيران عن الحياة. كلاهما خادم لها⁽¹⁾. الأول بالخيال، والثاني بالعقل. الأول بالوجدان، والثاني بالذهن. الأول بالتعاطف مع الأشياء، والثاني للاستخدام العملي. الفن وحده لا حدود له، في حين أن للعلم والفلسفة والدين حدود⁽²⁾. الشاعر وحده هو الذي يستطيع أن يصور اللانهاية في خط وليس الرياضي⁽³⁾. وفي نفس الوقت، الفن كذبة مقدسة. فهو خيال ووهم وشروء⁽⁴⁾

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾.

الفرق بين الفلسفة والشعر أن الفلسفة هي مجموعة من المجردات تتراءى في الليل البارد وللعقل الإنساني. ثم يأتي الشعر ليدخل عليها الدفء لدرجة الموضوعية⁽⁵⁾. يعبر الفيلسوف والشاعر عن نفس الفكرة، ولكن يصورها الشاعر بطريقة أدق. ويختلف الشعراء في دقة التصوير. فقد نظم هوراس فكرة ثم عبر عنها الفيلسوف مونتاني. ثم أحسن تصويرها الشاعر آزاد⁽⁶⁾. والنقد الأدبي لا يتبع بالضرورة الإبداع الأدبي. فلسنج في قلب الأدب الألماني روائي وناقد⁽⁷⁾. وفنون الشعر والرسم تعبير شامل عن الحياة⁽⁸⁾.

ج - الفنون: تتجلى الذات في الفنون وإلا تحولت إلى صنم، والفنون إلى أوثان⁽⁹⁾. والفنون على أنواع: الشعر والغناء والتصوير والسينما. الشعر خاصة،

= ومن ضمير سليل الطين مطلعها
إن تحفظ الذات هذي فالحياة بها
كم أمة تحت هذي الشمس قد خزيت
السابق، ص72.

(1) للحياة العلم والفن خدم
الأسرار والرموز، ص18.

St. Ref., p. 156. (2)

Ibid., p. 104. (3)

Ibid., p. 1. (4)

Ibid., p. 129. (5)

Ibid., pp. 148 - 9. (6)

Ibid., p. 150. (7)

Ibid., p. 110. (8)

= قد رأى ذو بصر سر الذات
وجلا الفن أمين جنات

والأدب عامة يجمع بين القلب والعقل. يجدد القديم في صورة جديدة. ويؤصل الجديد في صورة قديمة، حرصاً على التواصل ضد تقليد القدماء وتقليد المحدثين⁽¹⁾. وفي قصيدة تصويرية عن «الفلسفة والشعر»، نقد أبو علي (ابن سينا) في الغبار الذي أثاره جمل ليلي. وأمسك جلال الدين الرومي بستار هودجها في وصل إلى الجوهرة. والآخر غاص في الدوامة مثل القشة. لو كانت الحقيقة بلا طعم فهي الفلسفة. وإذا كان لها مذاق خاص فهو الشعر⁽²⁾.

ويعنون «الشاعر الشرقي» لا يريد إقبال أن يحدثه أحد عن هذا العقل الحساس المرفه الذي ينكسر زجاجه بسبب أقل هبة ريح. كيف يستطيع أن يتكيف مع الحرب الطحون أو يشحب وجهه عندما يرى أي فقاعة ماء؟ الشعر قوة⁽³⁾. الشعر أقرب إلى الجنون. والجنون أحد مصادر الفن كما لاحظ نيتشه وفوكو. الشعر غير الفقه. الشعر خيال، والفقه نظر واستدلال. الجنون كمال عندما تتولد عنه الفنون. لذلك قيل في الأمثال «الفنون جنون»⁽⁴⁾.

ومن الجنون البحث عن حقيقة منطقية في الشعر. فالمثل الأعلى للخيال هو الجمال وليس الحقيقة. لا يمكن إذن بيان عظمة الشاعر بذكر أبيات من شعره يُظن أنها تحتوي على حقيقة علمية. والكتب المقدسة مثل الشعر⁽⁵⁾. ولا ترجع شعبية

فهو من جهد حياة في نجاة
من حطام لمناة ليلآت
في ظلام اللحد يرنو للحياة

من العقل الإلهي القويم
على عتبات محبوب غريم
وأحيا الروح في جسد قديم

= ما به الذات ولا الكون يُرى
تعس الكافر من أصنامه
هالك صلى عليه فنه

ضرب الكلیم، ص 83.

(1) رأيت العشق يقفو اليوم نهجا
وليس يُريق ماء الوجه ذلا
محا التقليد في روح قديم

السابق، ص 74.

A Message from the East, pp. 67 - 8. (2)

Ibid., p. 121. (3)

وطوى البید ويحه المجنون
حين تعدو الميذاء منه فنون
ليس وقفا على الفيافي الجنون

(4) واهن البيت شاعر وفقه
في طمّاح الجنون أي كمال
فله في الدروس أيضا مجال

ضرب الكلیم، ص 73.

St. Ref., p. 16. (5)

قصيدة إلى مقدار ما فيها من حقيقة منطقية. فقصيدة «القرية المهجورة» لشميث شعبية رائجة للغاية بالرغم ما تحتويه من أخطاء علمية واستدلالات اقتصادية خاطئة⁽¹⁾. الشعر أعمق من علم النفس. فعالم النفس يسبح، والشعر يغوص⁽²⁾. الفلسفة تجعل الإنسان هرما. والشعر يعيد إليه شبابه⁽³⁾.

وأهم خاصية للشعر صدقه وتعبيره عن النار في الضلوع، والكشف عن أسرار النفس وخبايا الوجود⁽⁴⁾. ليس الشعر فقط هو المنظوم، بل هو حالة من العطاء، ونطق الحر، وفرح وطموح⁽⁵⁾. الشعر هو شعر القوة والعزة وليس شعر الخنوع والذل. هو حاد كالسيف. فنאי الشرق ليس من نَفَس الرثة بل من نَفَس القلب⁽⁶⁾.

Ibid., p. 53.

(1)

Ibid., p. 137.

(2)

Ibid., p. 143.

(3)

(4) لي من فعلك شكوي همت في حب السطوع
شعنت عن قلبي فالأسرار عن قلبي تشيع
لا تكن مثل شرار ند عن نار يضيع
والشمس خلوة صدر فيه من نار ضلوع
السابق، ص73.

(5) عدتي ذكر وفكر وهيام وغناء
لست أدري أهو شعر أم سواه ذا العطاء؟
إن عبد الحق يُزهني في محياه ضياء
من جلال ظل فكر الكون منه في امتلاء
ليس دون الكفر إن لم يك كفرًا ذا البلاء
أن يُري بالحاضر المشهود للحر سباء
لا تذب غمًا فكم في الدهر أدوار وضياء
كم نجوم حادثات سوف تجلوها السماء
السابق، ص78 - 79.

(6) في غابة الشرق ناي بيتغي نَفَسًا
من كان في ذاته من رقه خور
إنّاؤها من زجاج كان أو خزف
لم تبصر الشمس من دنيا يُخال بها
طور جديد، وبرق كل أونة
يا شاعر الشرق هل في صدرك النفس؟
فقل له من لُحُون العُجم يحترس
اجعل بخمرك سيفًا لمعه قبس
مجد بغير الجلال المر يلتمس
لا قَرَب الله للعشاق ما التمسوا
السابق، ص91 - 92.

يعبر الشعر عن تجلي الذات. يغني كالطير في الصباح⁽¹⁾. الشعر يشعل النار في الجُنب، واللسان يعبر عنه⁽²⁾. يُعبر عن الحياة ورسالتها الأبدية⁽³⁾. الشاعر هو روح العالم الذي يخفي المراحل المختلفة للحياة الداخلية في رموز. فليس العالم إلا رمز كبير ولكنه لا يهتم بتفسير هذه الرموز لنا. تلك مهمة الشاعر لتفسيرها والكشف عن معانيها للإنسانية جمعاء. ومع ذلك، قد يتعارض روح العالم مع الشاعر طالما أن العالم يستر والشاعر يكشف⁽⁴⁾. وكل كتب الفن الشعبي في المكتبة لا تساوي غروب الشمس على ضفاف نهر «رافي»⁽⁵⁾. فالواقع أبلغ من أي تصوير له.

مهمة الشعر إصلاح الآداب الإسلامية⁽⁶⁾. فالشعر له رسالة أخلاقية. مهمته إشعال العواطف في قلوب الأمة. يحرك النفوس، ويبعث الأمة. وتلك طبيعة الشعر العربي. الشعر هو القادر على إثبات الذات والتعبير عنها، والتأثير فيها. هي الطاقة التي تدفع إلى الأمل، والنور الذي يبعث في العين الضياء. الشاعر هو القادر على الإحساس بالحسن. فهو ما زال على الفطرة. يشعل القلب البارد. يحيي الموتى، ويعز المذل، ويفرح الحزين، ويقوي العاجز. الشعر في شط العرب يعبر عن روح العروبة أكثر مما في الهند أو بلاد العجم. العربي شاعر بالطبع. لذلك نزل القرآن

(1) كم بشعر العُجم من سحر ولكن
صمّت طير الصبح أولى من غناء
ليس ضربا ما يشق الطود لكن
ينحت العصر أبا إقبال صخرًا

السابق، ص92.

(2) أثار الشعر في جنبي نارا
حديث الحب حاوله لساني

رسالة الشرق، ص273.

(3) لم أدر سر الشعر إلا نكتة
الشعر فيه من الحياة رسالة
إن كان من جبريل فيه نغمة

السابق، ص96.

St. Ref., p. 105. (4)

Ibid., p. 131. (5)

(6) أسرار النفس، ص32 - 37، المقدمة، ص48.

بلغة الشعر والبلاغة، إعجاز العرب⁽¹⁾.

ويستخدم الشعر أحياناً في أول القصائد للإيقاظ والتنبيه وكإعداد للموضوع. قد يكون شعراً ذاتياً، تأملات خاصة. وقد يكون تأملاً في الطبيعة وحواراً معها. وقد يكون حواراً بين الشاعر والطبيعة قبل أن يتجلى موضوع الذات⁽²⁾.

يخشى الشاعر من رفع الأستار. وهتك الأسرار. انشغاله بما يحب يؤدي إلى التهلكة. هو الحب الذي ينسي آلام الجراح، وينضح الأسرار. هو الذي يؤدي إلى الشهادة، بدلاً من العيش الدليل⁽³⁾. الشاعر أيضاً كائن بشري. فقد عُرف إقبال بأنه مفكر مجرد، عالم بمثل عليا، ولكنه في المنزل يلعب مع الأطفال. يركبون فوقه بالدور وكأنه حصان خشبي وهو في دائرة العائلة. وينحني على قدم أمه ذات الشعر الرمادي. وتلمسه بيديها الشائبتين على مر الزمن. ترجعه إلى أيام الصبا بالرغم من وجود كانط وهيكل في رأسه⁽⁴⁾.

قد يجتمع الشعر والغناء والموسيقى والرقص والتصوير معاً في فن واحد، هو فن الأوبرا. للشعر بهجته. حمل مثله جيريل. الموسيقى ابتهاج، والرقص نشوة.

نار هذا الطين من نور الأمل
طوره صبح الجمال الباهر
قد شربت السم من تبيانه
عطلت من نغم أوتاره
أنت للإسلام عار في الدنيا
هالك من ركلات الحارس
شاكي الأقدار جهلاً صائحا
ليس إلا العجز في مخبره
ارجعن يا صاح شطر العرب

بسر كهذا الذي أهتكه
كشغل المحب بما يهلكه
وتفضح سرّك آثاره
وما العيش جلّله عاره

(1) حرقه الإنسان من كور الأمل
مطلع الحسن ضمير الشاعر
يا برود القلب من ألقانه
يا دليلاً للردى أفكاره
أنت لئذ لرحمت البدنا
آه من وغد ذليل يائس
صار كالناني هزبلاً نائحا
ليس إلا الحقد في جوهره
من بفكر صالح في الأدب؟

الأسرار والرموز، ص 32 - 37.

(2) السابق، ص 13 - 5.

(3) أنا كيف أجهر هذا المساء
وشغل الحكيم بهذا العراء
هو الحب ينسيك وقع الجراح
وما الحب إن لم تمت عزة

جناح جيريل، ص 437.

الموسيقى روح الشعر، والرقص روح العين⁽¹⁾.

ليس الغناء هو مجرد نفخ هواء في عود، بل صوت قلب حي، نشوان بالفرح. تهب منه الريح. يزدري الملوك والسلاطين⁽²⁾. وإن أدى الغناء إلى ضعف وخور فهو حرام⁽³⁾. الغناء الحلال يثير قوة الذات وحرقة الحياة. يفتح القلب ويحييه. وفي الأفلاك ألحان طبيعية، تلين الكائنات، وتحرر الحزن والغم. تحول النفس من العبودية إلى السيادة⁽⁴⁾. والموسيقى تخرج من حرارة القلب، وليس من برودة الدم. إن لم تطهر الضمير فإنها تكون كالسموم⁽⁵⁾.

روح جبريل والرجيم اللعين
وكذا الرقص نشوة وفتون
فيه أفشى مخبات الفنون
ومن الرقص جسمها في العيون

صوت عود ذاك أم من قلب حي؟
قوة سكري تحدث كل شيء؟
مثل ريح صرصر في تخت كي؟
من حياة فيه يحيا كل حي؟
واردات زُمرا تهفو إلي؟
ملك روم ومنى وشام وري
طوي الفن له أسرع طي

حرم الناي عندنا والرياب

أيّ فتح والقلْبُ رهن همود؟
صاهر حره نجوم الوجود
وإياز يسمو إلى محمود
أنت تبقى ونخمة التوحيد
لم يزل في انتظار شاد مُجيد

لحن له الوجوه لا تنير
إن كان لم يطهر به ضمير
من الشقيق شاقني المسير
شقت بها جيوبها الزهور

(1) إن للشعر بهجة ضاء منها
ومن الموسيقى ابتهاج وشوق
قد سمعنا في الصين قول حكيم
إن للموسيقى من الشعر روحا
ضرب الكلّيم، ص96.

(2) صاح من أين لناي نشوة؟
صاح ما القلب؟ ومن أين له
ولماذا نظرة منه سرت
ولماذا ذلك السر له:
ولماذا كلّ حين مبدلّ
ولماذا صاحب القلب ازدري
إن وعى للقلب رمزا مطرب
السابق، ص81 - 82.

(3) إن سرت في اللحن دعوة موت
السابق، ص91.

(4) تفتح القلب نخمة من غناء
في صدور الأفلاك لحن خفي
يهجر الناس منه خوف وغم
تبه هذي النجوم يفنى ولكن
قد أحلت شريعة الذات لحننا
السابق، ص90.

(5) دل على برد دم المغني
أنفاس زامر سموم لحن
بالشرق والمغرب في رياض
فما مررت بينها بمرج
السابق، ص95.

ويتأسى كبار الشعراء الأقدمين كالرومي وسنائي على تقليد الشرق في الفنون. وقد أعلن الحلاج من قبل أن سر الذات يعيشه القلندر، رمز الوعي الإبداعي المستقل⁽¹⁾. وتكشف أشعار الرومي عن الذات. وعلى أوتارها يتم نظم الشعر⁽²⁾. والمصور يعبر عن الحياة. يطلق ذاته لا أن يحاكي الطبيعة⁽³⁾. الفن ثورة ضد التقليد، والمحاكاة تقليد. التصوير ليس للطبيعة الخارجية بل للذات في رؤيتها للطبيعة أي للخلود وليس للزمان⁽⁴⁾. الإنسان قادر على الإبداع. لا يحاكي الطبيعة. بل يسيطر عليها، ويؤثر فيها⁽⁵⁾.

ولإقبال موقف سلبي من السينما حديثة العهد. ففيها تعود الوثنية مرة أخرى، وتذيع فيها قيمها. وتقيم الأصنام وسط صالتها كما كانت الأصنام من قبل في أفنية المعابد، تعيد بيع الأصنام. عرضت الدنيا لعبادتها. وكوّنت ديناً جديداً للعصر. الفن هو الفن الخالد دون طقوس لأوثان. والسينما هي وثن ثان. صاغت عالماً من

- | | | |
|-----|--|---|
| (1) | قال للرومي في الخلد سنائي
قال منصور: ولكن قد سمعنا
السابق، ص84. | لا يزال الشرق بالتقليد يُوسر
أن سر الذات أفشاه قلندر |
| (2) | مازال طرفك في خلط وفي سنة
ولم تزل في صلاة لا قيام لها
ومزهر الذات أوتار مقطعة
السابق، ص87. | وعنك ذاتك في الأسرار لم تزل
وبالضراعة عز الروح لم تصل
مازال عن نغمة الرومي في شغل |
| (3) | مقصد الفن في الحياة لهيب
كم ترى من طبيعة وتربها
السابق، ص م. | أبدي فما وميض الشرار
أرنا الذات فوق هذي المجالي |
| (4) | رأيت الكواكب لمحات نور
تعالى ضميرك عن كل لون
وغيبه ذاتك ذكر وفكر
إذا أضننت السروح آلام رق
وإن عرفت قدرها كنت حقا
السابق، ص80. | وذاتك بالعشوق رهن خلود
فعمت من اللون كل القيود
ومحضرها شعرها والنشيد
ففنك عبد رهين سجود
على الجن والأنس رب الجنود |
| (5) | شادت الفطرة كثبانها لها
رؤع الأفلاك فييه هرم
من إसार الكون حزر صنعة
السابق، ص83. | في سكون من يباب قد وقد
أي كف صورت هذا الأبد
صائد ذو الفن أم صيدا يعد |

الصور والأضواء كما صاغت الوثنية القديمة عالماً من الأحجار والطين. ومع ذلك، يصلح حالها إذا كانت عوناً على نشر التوحيد. فالفن أخلاق. والسينما من أجل نشر قيم التوحيد⁽¹⁾.

لا توجد وسائل تسلية في البلاد الإسلامية، لا مسارح ولا قاعات للموسيقى، ولا حفلات موسيقية. وهذا جيد! فالرغبة في التسلية لا يمكن إشباعها. وتطلب دائماً المزيد. وتثبت تجربة البلاد الأوربية هذه الحقيقة المؤسفة. ولا يدل غياب وسائل التسلية في البلاد الإسلامية على فقر أو تقشف أو غياب الإحساس بالمتعة. بل يدل على أن شعوب هذه البلاد تجد تسلية كافية في التمتع بلقاءات المنازل. ولا يجب أن يتسرع الناقد الأوربي في رفض هذا الطابع للمنزل الإسلامي. واللامبالاة بالتسلية الخارجية ليست نتيجة حتمية للسعادة المنزلية. ولا يعني أن حب التسلية في الخارج نتيجة الشقاء المنزلي في الداخل⁽²⁾.

7 - المرأة الجميلة

المرأة في حد ذاتها كائن جميل. هي لون في رسوم الكائنات. لحنها ينفث الوجد في صدر الحياة. خلقت من الطين، ولكنها تسمو فوق الكواكب والنجوم. هي عقد به كل الجواهر الكريمة. فلا إشكال فيها كما يرى أفلاطون. وقد خلق هو منها كشرارة من جمرة متقدة⁽³⁾. وأعظم شئى سحراً على الأرض المرأة ذات

(1) أبعود آزر مرة أخرى
أصنامها في صدر صالتها
ما كان ينحت قبل من صنم
صاغت لنا الدنيا لنعبدها
ما كان فناً فنه أبدا
فتفحص السنما التي ظهرت
هو صاغ أصناما لعالمه
وتصوغ صالتها للعالمنا
ما في زوايا المعبدین سوى
إن لم يل التوحيد أمرهما
جناح جبریل، ص 541.

St. Ref., pp. 77 - 8.

= في رسوم الكائنات

(3) إنما المرأة لون

الجمال الرائع الفاقدة الوعي تماماً⁽¹⁾. المرأة جوهر يتجلى بغيره. والرجل جوهر يتجلى بذاته. حرارة الشوق سرها. كيانها لذة التخليق. منها بدت أسرار الحياة، الخلق والموت. تلك هي فطرتها التي لا حل لها⁽²⁾. ولا يمكن أن تتحقق جماليات الطبيعة إلا من خلال عيون المحيين. ومن هنا أتت أهمية الزواج⁽³⁾.

يصور إقبال العشق كما يصوره الصوفية تصويراً حسيّاً اتصالاً بين جسدين. فيما أعظم من اثنين يعشقان. جنسان موصولان. تشعل المرأة نيران الحياة. وتصغرها في الروح، وخلق الإنسان لا يتم إلا بها. تعيش في الضمير، وفي وهج الشعور إن غاب الشرر عنها غاب الجسم وقصر النظر. بدونها لا يكون للفرد قيمة. فقد رسمت جسده، وأثارت روحه. النظر إليها تطهير للنفس. وفي هذا العصر أفسد إيمان العوام النظرة للمرأة. دخولها إلى متعة أو إلى محرم. في الجسم نار تتقد. فلماذا لا يستفيد منها الفرد؟ من تصيبه هذه النار تتحول نفسه إلى رقيب⁽⁴⁾. العشق

=
لحنها ينفث نار الوجد في صدر الحياة
ذلك الطين تعالي فوق أوج النيران
إنها درج لديها كل در من صفات
مالأفلاطون تروي من قضايا معضلات
وهو منها كشرار من ذكي الجمرات
ضرب الكلیم، ص 67.

St. Ref., p. 129.

(1)

(2) بغيره يتجلى جوهر امرأة
حرارة الشوق سر في بلايلها
من هذه النار أسرار الحياة بدت
كذلكم في فؤادي للنساء أسي
لكنها عقدة أعيت على الحل
السابق، ص 69.

St. Ref., p. 133.

(3)

(4) ما الحياة يا بصير هل فهمنا
يربط الجنسين موصول الصلات
تشعل المرأة نيران الحياة
أضرمت في الروح منها نارنا
ممكنت العيش منها في الضمير
إن يغب عن هذه النار الشرر
ما لنا من قيمة، منها لنا
أن تُري اثنين، وفرد من عشقنا
يرسمان شوق تلك الكائنات
طبعها لوح لأسرار الحياة
جوهر فيها أتم خلقنا
وثبات العيش في وهج الشعور
لم يلح جسم وروح للنظر
رسمتنا وأجادات رسمنا

=

له متطلباته فإن لم تتحقق فليضرب الكأس البيت المصون⁽¹⁾. والعشق لا يدان كما يدان أهل الكلام⁽²⁾.

وحصانة المرأة بيتها، في عصمة رجل يحفظها ويحميها أكثر مما يفعل العلم أو الحجاب. وإن غابت هذه الحصانة عن أمة تنكسف لديها الشمس، وتغيب عنها الحقيقة⁽³⁾.

ومن وسائل النهوض بالأمة النهوض بالمرأة. والمرأة في الإسلام هي المرأة المحجبة. تتلون الأحجية، والدنيا واحدة. وتتعدد الأنقبة، والوجه واحد. فمتى تبرز الذات من الحجاب؟ المهم هو الخروج عن حجاب العقل وستر الذات⁽⁴⁾.

ويقيد إقبال حرية المرأة. وهي قضية العصر. يمكن التفرقة فيها بين الشهد والسم. والناس أقرب إلى التمدن، وبالتالي التأكيد على حرية المرأة. والفصل في ذلك للمرأة ذاتها. ويعجز عنه الرجال. وأيهما أجمل زينة حرية المرأة أم تزيين جيدها بالدر الثمين، بالزوج والأسرة والبيت⁽⁵⁾. وأنبياء الأمة للإصلاح الاجتماعي

- | | |
|--|--|
| <p>طهر النفس بتقديس لها انظر
يكشف السر الخفي قولنا
أي فرد حولها لم يستفد
يجعل النفس على الفعل الرقبا</p> | <p>إن حباك الله عقلا للتفكر
أفسد الإيمان فيك عصرنا
في الجسوم الخلق نار تتقد
من ينل من هذه النار النصيبا
جاويد نامه، ص 201 - 202.</p> |
| <p>بكأسك فاضرب البيت المصونا</p> | <p>(1) إذا كان هذا دأب عشق
أرمغان حجاز، ص 424.</p> |
| <p>وكم لمحنك عابوا الكلاما</p> | <p>(2) أدانوا عاشقا رشف المداما
السابق، ص 435.</p> |
| <p>من حاز برد دماثه عَصَب
لا العلم يحفظها ولا الحُجب
فكسوف شمس فيهم كُثب</p> | <p>(3) في الصدر حق ليس يدركه
حفظ الأنوثة في يدي رجل
إن غاب هذا الحق عن أمم
ضرب الكلم، ص 68.</p> |
| <p>ولم تنضُ دنياك هذا الأهاب
فذي في نقاب وذا في نقاب
ومن برزت ذاته من حجاب</p> | <p>(4) أرى فلنكا كل حين للون
ولا فرق ما بين عرس وعرس
ولم يزل الناس رهن حجاب
السابق، ص 66.</p> |
| <p>وإن كنت بين الشهد والسم أفرق
وقبلا بنو التمدن عني تفرقوا</p> | <p>(5) قضية عصر لست فيها بفيصل
وما نفع أقوال تزيد ملامتي</p> |

يحبذون قدرأ ضئيلاً من التعليم على النمط الأوربي لأنه سيحيي المرأة المسلمة الحديثة، ويجعل دموعها مجرد ذكريات أليمة. قد يكون ذلك صحيحاً، ولكن يُخشى أن تجد نفسها عارية ومضطرة إلى تغطية جسدها من عيون هؤلاء الأنبياء الشبان⁽¹⁾.

لم يكن الهدف من نظام تعدد الزوجات أن يكون نظاماً عاماً. بل هو استثناء خاص يُسمح به استجابة لبعض الصعوبات التي توجد لا في المجتمع الإسلامي وحده. فالطلاق هو أبغض الحلال عند الله. لذلك يسمح بتعدد الزوجات للاختيار بين أهون الضررين. وتجنب الطلاق ليس هو المبرر الوحيد. هو تنازل جزئي لطبيعة الرجل التي تميل إلى التنوع دون الهرب من مسؤولية هذا التنازل. وفي إنجلترا يسمح للفرد بمثل هذه الرخص، ولكن القانون يتركه لممارسة هذه الحرية الجنسية دون مسؤولية. فهو ليس مسؤولاً عن تعليم الأطفال. ولا يرث الأطفال منه شيئاً. ولذلك نتائج وخيمة. كما اضطرت فرنسا إلى الاعتراف بالعهر كنظام اجتماعي. مهمة الدولة القبيحة الرعاية الصحية للعاهرات. وأشهر نقد لنظام الزوجة الواحدة هو وجود نساء كثيرات في البلاد الأوربية بلا أزواج بالرغم من أن نظام الطبيعة يكفل تساوي عدد النساء والرجال. وقد عوضت العانسات في أوروبا عن ذلك بالانشغال بمسائل أخرى غير إنجاب الأطفال. وحملن الأفكار وليس الأطفال. ثم انشغلن أخيراً بموضوع مساواة النساء مع الرجال في الانتخابات من أجل إيجاد مشاغل لهن في ميدان السياسة. فإذا لم يسمح المجتمع لهن بإنجاب الأطفال فإنه يعطينهن ما يشغلهن. وحركة المطالبة بالاقتراع في أوروبا هي حركة مطالبة بالأزواج وليس بالانتخاب. هي مجرد مظاهرة ضد البطالة⁽²⁾.

ويعجز عنه في الرجال المحقق
أم الجيد بالدر الثمين يُطوق؟

يَبِين هذا السر وجدان امرأة
أحرية النسوان أجمل زينة

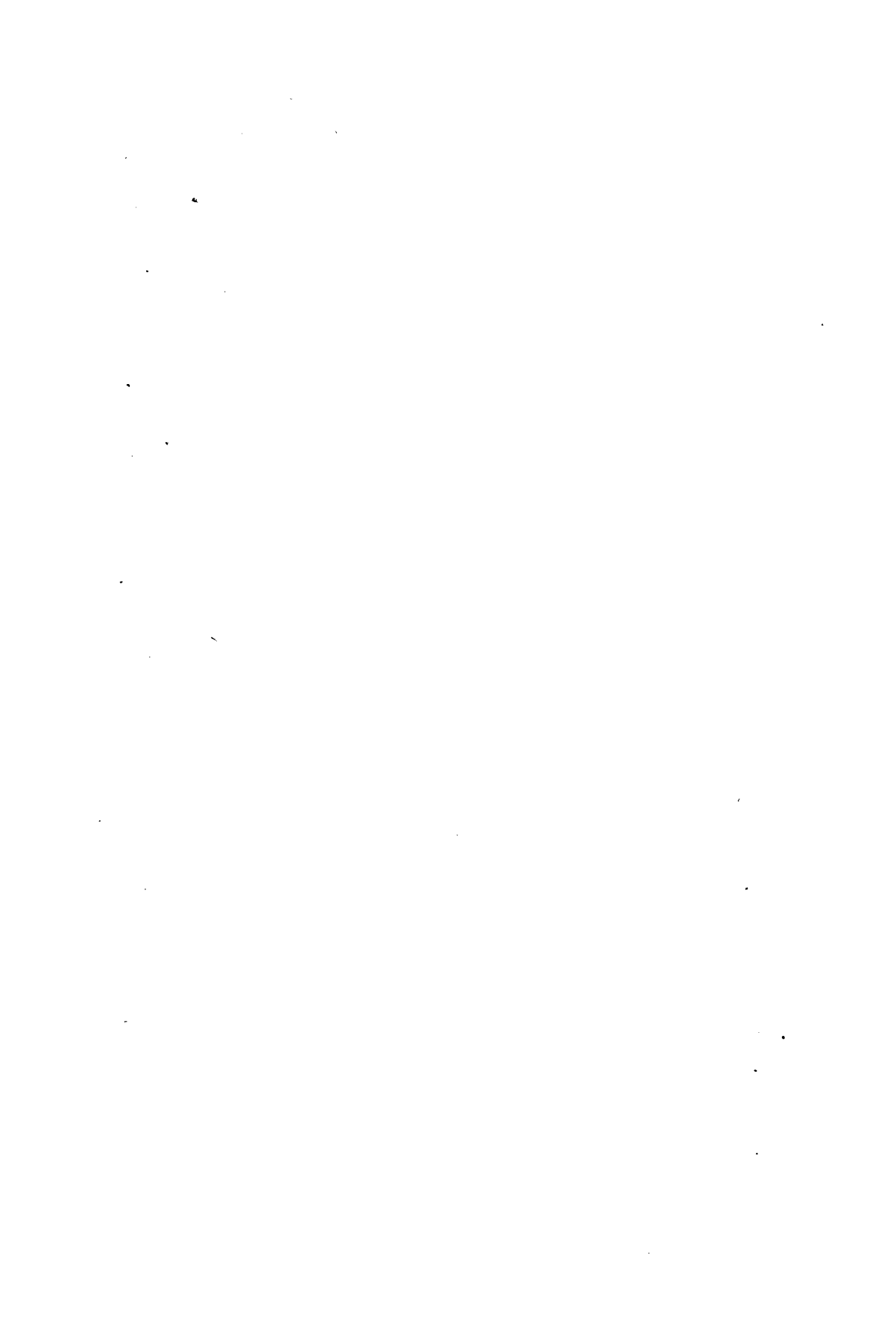
السابق، ص 68.

St. Ref., p. 124.

(1)

Ibid., pp. 62 - 5.

(2)



الباب الخامس

الذات المضادة



الفصل الأول

الغرب والتغريب

1 - رسالة المشرق

ظهر ديوان «بيان مشرق» لأول مرة بالفارسية عام 1923، رداً على ديوان جوته «الديوان الشرقي للشاعر الغربي». وكتب فوقه آية ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، وتحتة «جواب ديوان الشاعر جوته».

ليس كله في الغرب بل القسم الرابع منه فقط بعنوان «نقش الفرنج». ويعني النقش هنا الموضوعات⁽¹⁾. إذ ينقسم الديوان إلى خمسة أقسام: شقائق الطور، الأفكار، الخمر الباقية، نقش الفرنج، الدقائق⁽²⁾. وتحتوي الترجمة الإنجليزية على بعض الزيادات. وربما تحتوي الترجمة العربية على بعض الحذف⁽³⁾.

وفي مقدمة إقبال للديوان يذكر وصف هاييني الشاعر الألماني ديوان جوته بأنه باقة من العقائد يرسلها المغرب إلى المشرق. فقد حن المغرب بروحانيته الضعيفة الباردة. فتطلع إلى الاقتباس من صدر المشرق. فهو ديوان يدخل فيما عرف باسم تأثير الشرق في الأدب الألماني.

Thèmes.

(1)

(2) . شقائق الطور The Tulip of Sinai.

(3) رسالة الشرق (بيام مشرق) نقله إلى العربية د. عبد الوهاب عزام. وله ترجمة بالإنجليزية قام بها هادي حسين - I - A Message from the East, A selective verse rendering of Payam - I

Mashriq, by Hady Hussain, Iqbal Academy, Pakistan, Karachi, 1971.

كان جوته منذ شبابه يميل إلى الشرق. ولقي هردر في استراسبورج حيث كان يتعلم القانون. تأثراً بسعدي وحافظ. بل إن شيلر نفسه قد تأثر بالأدب الشرقي في قصته «ثوران دخت» المأخوذة من قصة بنت سلطان الإقليم الرابع لنظامي. وبعد نشر الترجمة الكاملة لديوان حافظ في 1812، بدأ الأثر الشرقي بوضوح عند جوته بعد أن ستم من انحطاط الغرب عامة، وألمانيا خاصة. كما تأثر بالعطار وسعدي والفردوسي⁽¹⁾. وكان يأمل في أمريكا الجديدة كعنصر تصحيح لانحراف أوروبا.

والديوان صوفي خالص، أقل فلسفة وسياسة وواقعاً من «أسرار النفس» و«ضرب الكلیم». ولا جديد فيه بالنسبة لموضوعات الدواوين السابقة. اعتمد على جماليات الشعر. وهو أقرب إلى الفن للفن منه إلى الفن للحياة. يغيب عنه الحس النقدي. كما أنه أقرب إلى شعر الطبيعة. وهو في نفس الوقت نشيد للعشق ضد العقل والعلم والفلسفة والفقهاء. وهو أقرب إلى الدفاع عن التصوف منه إلى نقده. أحياناً يبدو غامضاً لأن الشاعر هام في كل واحد، وبعد عن الإصلاح. يمثل الرومانسية الإسلامية كما يمثل شاتوبريان Chateaubrian ودي لامنيه De Lammenais الرومانسية المسيحية (الكاثوليكية). لذلك تفرقت موضوعاته عبر الأبواب والفصول السابقة دون أن يكون له باب أو فصل خاص⁽²⁾.

والعنوان الفرعي الثاني لديوان إقبال الآخر الذي نشره عام 1937 قبل وفاته بعام واحد «ضرب الكلیم». وعنوانه الفرعي الأول «عصى موسى». هو «إعلان الحرب على العصر الحاضر» خاصة القسم الخامس منه «سياسات المشرق والمغرب»⁽³⁾.

(1) بياض مشرق، مقدمة إقبال، ص 253 - 259.

(2) نظم عبد الوهاب عزام بعدما قرأ ديواني «أسرار خودي» و«رموز بي خودي» قصيدة بعنوان «اللمعات» ونشر الأبيات الأولى منها. ثم استأنفها بين الحين والآخر. وبعد أن أتم ترجمة «بياض مشرق» أكملها وأهداها إلى الشاعر. ونشرها كملحق للديوان مقلداً إقبال سواء في الشكل الأدبي، الشعر الفارسي والأوردي أو في المضمون ابتداء من العنوان «اللمعات» أي الاشراقات والإلهامات حتى الموضوعات: صفاء الهمم، العالم معبد، لا رهبانية في الإسلام، معنى التوكل، غفلة بعض المسلمين عن معنى التوكل، طغيان العقل على القلب، البيت، تفاخر الجماعة، الشيوعية، إقبال، دعاء. رسالة المشرق، ص 343 - 368.

(3) محمد إقبال: ضرب الكلیم، عصى موسى، إعلان الحرب على العصر الحاضر. نظمه باللغة =

يعترض إقبال على أوروبا، ويحتج عليها، ويقف ضد الانبهار بها. يلعن أوروبا وسحرها، وقدرتها على الأسر والإبهار، ونزع أسلحة الآخرين. قبائلها الهمجية تُشعل النار. فيمتد لهيبتها إلى كل شيء. وتحطم العالم. تبني دوراً جديدة للعبادة، والأرض في حاجة إلى إعادة بناء يقوم به المسلمون إذا نهضوا⁽¹⁾.

2 - الموت في الروح

لقد فصل الغرب بين النفس والبدن، بين الروح والجسد. فوقع في ثنائية حادة متعارضة بين السماء والأرض، بين المثالي والواقعي على التبادل⁽²⁾. فماتت النفس، وانحل الجسد.

لذلك أقام الغربي حكمه على الشيطان الذي انفلت من كل قيد. الصحراء أجمل من بستانه. والفقر أفضل من مدنه الخادعة⁽³⁾. الجسم صحيح، والروح عليل. يحقر الدين، ويعظم العلم والفن. ينتهي العقل إلى الكفر، ومصير الإنسان العقل. الكل يقتل الكل. الحذر من نار الغرب واجب، وإلا مات القلب، وحيا الظاهر⁽⁴⁾. بريق حضارة الغرب الترف. ولم تستطع فتنة الشاعر وهو ابن المدينة والنحف وغبارها في مقلتيه، قطرة للعيون، وأنجع دواء لعله. ومازال مقيماً في العالم، بالرغم من تقلبات التاريخ، ورياح القرون، كل مستبد عتي⁽⁵⁾. ويظن الغر

= الأوردية شاعر الإسلام الفيلسوف محمد إقبال وترجمه الدكتور عبد الوهاب عزام بك، سفير مصر لدى باكستان، جماعة الأزهر للنشر والتأليف، مطبعة مصر، 1952، ص 99 - 124.

(1) Persian Psalms, p. 76.

(2) وبين الروح والجسد الفراق
بغرب، أين في الحكم الوفاق؟
زبور العجم، ص 383.

(3) وغربي له حكما أقاما
ومن بستانه الصحراء أجمل
لدي الكفار زاد الكفر عقل
وهذا راصد ولذا الكمين
ليدخل ذلك الصمصام غمده
السابق، ص 394 - 395.

(4) وإلا نار غرب خذ وحاذر
ومت في القلب كي تحيا بظاهر
السابق، ص 401.

(5) بريق الحضارة أوج الترف
لدى الغرب لم يستطع فتنني =

أن رفاهيته ستبقى إلى الأبد، وأن الوفرة لن تزول. عقله طائش، ورغبته غير ناضجة⁽¹⁾.

لم يعلم الغرب غيره الا الترهات. وصار «الملاً» هو الآخر عاراً في الحياة. فلا الجديد غير ضار، ولا القديم نافع⁽²⁾. لقد جفت دموع عيون أوروبا. وما تبقى لها من قطرة لا تبدد ظنونها⁽³⁾. صرح أوروبا مضيء معتم، مرايا من جليد. لا تعكس نور الحقيقة مثل الإسلام⁽⁴⁾. إن موهبة أوروبا أن تحيل العصر إلى ليل من التيه. ويظل أثرها محدوداً. فكم وردة قصفت في رياض المسلمين ولم تمزق بستانها. فما زالت عند المسلمين حرارة الحب من خمر اليقين. ولا ينكر ذلك إلا واهم⁽⁵⁾.

في الغرب لا يساعد علم على الرؤية. من أبدع فيه لم يُحاسب. يكفيه السعي وليس إدراك الصواب⁽⁶⁾. يخطئ الغرب في أحكامه، وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. يسحر ويمتدح شعوب الأرض. ويلعب بهم كما يلعب بالترد. يسرق

- =
- أنا ابن المدينة وابن النجف
غبارهما قطرة للعيون
مقيم برغم رياح القرون
جنناح جبريل، ص437.
- (1) يرى الغرب أن بقاء الرفاه أن يستمر بهذا النهج
فكم يفعل الطيش في عقله
رغم أن الغرب ما علمني
فأنا يؤسفني (الملاً) الذي
السابق، ص419.
- (2) فكم يفتقر رغبته من نضج
من جميع العلم غير الترهات
صار للإسلام عارا في الحياة
- (3) حاشا لأوروية التي
حاشا تنير بقطرة
السابق، ص431
- (4) وعجوز حانتنا يقول مؤكدا
هذي المرايا من جليد ما لها
السابق، ص455.
- (5) أقصى مواهب أوربا النشيطة أن
كم وردة قصفت في روضنا يدها
حرارة الحب من خمر اليقين وما
السابق، ص457.
- (6) في الغرب كنتُ وقلما عيني رأَت
من كان ذا لحن تجافى عن حساب
جاويد نامه، ص168.

الثروة، ويبذر العداء بين شعوب الشرق. ويتقاتل على الغنيمة. يعتبر الآخرين سلطة وهو التاجر. يحب المال كما تحب الأمة وليدها. يخرج الماء من جذع الشجر بحثاً عن حلو الثمر. وكي لا يتحرك المستقبل ضده، قتلوا الأجنة في الأرحام. لديه إبداع في كل الفنون، يقلدها الناس. وقراءة الكتاب تساعد أسير التقليد أن يفك من أسرهِ⁽¹⁾.

صدر الغرب يضمنه اللهيبي. استطاب لذة السطو الغزو. نكس أعلام الأمة، ونهب أموالها. واستمد بطش إبليس. وحول النور إلى جحيم. تعود على القتل. ونزعت من قلبه الرحمة. كان الأولى أن يكون مؤمناً أو أن يُقتل بسيف الكتاب⁽²⁾. لم يشأ الغرب الرقي، بالرغم من أنه أشاد ألف شكل له. حرّق الديار. ومزق غصون العشوش. ظاهر الرقي يبدو للعين، وروض القلب يشعر به الفؤاد، ومصير الشرق يرجى وراء مظاهره⁽³⁾.

(1) بئس ما في الغرب حقاً حكمهم
يسحرون، خذع دهر خذعهم
يسرقون، ذا ثري ذاك كادح
يكشف السر جلياً قولنا
جفنتهم في المال حبا قد جمد
ويلهم! خوفاً على حلو الثمر
ولكيلاً يبعث العود الرنينا
عندهم من كل فن كثرة
يا أسيراً كان من تقليدهم
السابق، ص 204.

(2) صدر أهل الغرب يضمنه اللهاب
نكسوا الأوضاع في أيامنا
واستمدوا بطش إبليس الرجيم
قتله ما زال كالأمر الصعوب
كان أولى مؤمناً أن تجعله
السابق، ص 209 - 210.

(3) الفرنج بالرقي ما أرادوا
ظاهر منهم دياراً حرّقا
ظاهر يبدو لعيّن لامعا
ومصير الشرق هذا من درى
السابق، ص 307.

وإذا كانت مهمة الحياة التنفس بحرية من هذا الإنسان الهش فإن الحياة الحقّة هي التحرر من الطلاسم. علم الغرب فان. زفراته حلوة، ولكن الدمع في العين، والرؤية ضعيفة⁽¹⁾. علوم الغرب نهب. وبدون علي بن أبي طالب يكون مجرد دير خيبر⁽²⁾.

الحرية في الغرب خادعة. فقد سمحت الحضارة الحديثة لكل فرد أن يفكر ويسلك كيفما أراد. هي حرية ظاهر، والواقع استبعاد، يثرب هو الحل، وليس الغرب. فهي الدواء لكل داء. وكيف تضيع المعرفة والإيمان بسبب شك الفرنج ووسوسة البرهمي؟⁽³⁾. الغرب وهم مفرح. والحقيقة أنها سفينة تغرق. في خمر أوروبا شعاع يذوب ويتألق، بالرغم من أكارها⁽⁴⁾.

عرف الغرب بالعقل والحسن، بالفكر والجمال، بالفلسفة والفن، ولكن القلب نواح من الألم⁽⁵⁾. حاول الوصول إلى الكمال في خلقه. وقلده الشرق في تشييد الأصنام⁽⁶⁾. قال «لا إله» أي أنه نفي، ولكنه لم يقل «إلا الله» أي الإثبات. فتاه العقل⁽⁷⁾.

Persian Psalms, p. 58.

- | | |
|----------------------------|--------------------------------|
| | (1) |
| وبلا حيدر دير خيبر | (2) وعلوم الغرب نهب يُذكر |
| للناس يتجهون كيف أرادوا | (3) سمحت حضارتنا الحديثة هذه |
| حرية والواقع استبعاد | مَكَرَتْ بعالمهم فظاهر أمرها |
| بتراب يثرب المطهر مرهمي | مولاي خذ بيدي ليثرب إنه |
| شك الفرنج ووسوسات البرهمي | ضيعت معرفتي وإيماني على |
| | جناح جبريل، ص 435. |
| تأسى فإنك في السفينة تغرق | (4) إن كنت من وهم بشئ مفرح |
| بالرغم من أكارها يتألق | في خمر أوربه شعاع ذائب |
| | السابق، ص 465. |
| وهو في الآفاق معروف الخبير | (5) شعبه بالعقل والحسن اشتهر |
| ناح نابي للآليم من أساه | دُحرجت كأسي ولكن في دماه |
| | جاويد نامه، ص 259. |
| تشبه الإفرنج في خلق الكمال | (6) وقتيل ذلّ أصنام الجمال |
| | السابق، ص 301. |
| فكره ند ومنه العقل تاهها | (7) إنما المسكين قال: لا إلهها |
| | السابق، ص 316 - 317. |

الغرب بلا عقل أو قلب أي إنه بلا فؤاد أو لب. يوهم نفسه بأن العقل في كمال وافر. يقوده العقل إلى الطبيعة، وقلبه وراءه خائف وجل. فالعقل الغربي صوري مجرد، كمي قياسي، آلي مادي، مما آثار الرومانسية وكل المذاهب الحيوية. وانتهى إلى الشك والنسبية واللاأدرية والغنوصية والعدمية كما هو الحال عند نيتشه⁽¹⁾. يعيش الغرب في راحة اليأس. يواجه سيلاً عنيداً ولا يستطيع حماية نفسه⁽²⁾.

يأخذ إقبال نيتشه نموذج الحضارة الغربية في معرجه وهو يسبح في ما وراء الأفلاك. ويسميه المجنون. ويحييه الرومي، وهو مشهود الذكاء عند الألمان. يعزف نَفْس الحلاج بلا عوده. وهو جريء القول، براق الفكر. شطره سيف الفرنج. في رأي الطب مجذوب لا يعرف العشق. ابن سينا قادر على علاجه بفصد الدم أو بالحب. كان كالحلاج في الغربية. فر من قتل رجال الدين له وليس الأطباء. ليس لديه دليل فضل في السير. كان لديه المال الذي يعصى على العد. وينجز الأعمال وحده. عاشق له زفرة، سالك تاهت خطوته⁽³⁾. حطم الكأسات في لحظة السكر. وانفصلت ذاته عن الله. ورأى بعين الظاهر العلاقة بين العبد والسيد. ولم يشأ مقام

- | | |
|-----|---|
| (1) | انظر خراب فؤاد الغرب بأكله
يقوده العقل في نهر يفجره
جناح جبريل، ص440. |
| (2) | قال أهل البحار أهل البراري
واقف في طريق سيل عنيد
السابق، ص458. |
| (3) | قلت للرومي ذا المجنون من؟
كان بين العالمين موضعه
إنه الحلاج لكن أين عوده؟
وجريء القول براق الفكر
عند أهل الطب ختل ما وجد
ابن سينا في كلام قال أفصد
كان حلاجاً بأرض كالتغريب
الطريق في الفرنج من عرف؟
الطريق ليس فيه من دليل
كان مالا لم يجد من عده
عاشق لكن طوته زفرته
جاويد نامه، ص282. |

وعقله في كمال وافر بطر
وخلفه قلبه يمشي على كدر
ليس للغرب غير راحة بأسه
ليس يقوى على حماية نفسه
قال: في الألمان مشهور الزكن
وقديم اللحن منه نسمعه
قال قولاً وسواه لا يعيده
قوله السيف الفرنج قد شطر
وبل مجذوب لإفرنج وُلد
أو بحب من شكا الأوجاع أرقد
فر من قتل الفقيه لا الطبيب
فعلى قيشارة دوما عزف
ضل في سير وفي سير وبيل
ينجز الأعمال لكن وحده
سالك قد تبهته خطوته

الله أو الوصول إليه بالعقل. ظل في مقام «لا» أي النفي دون مقام «إلا» أي الإثبات. يحب الإنسان ولم يجده. عاش كموسى وحيدا. يا ليتته عاش عصر المصطفى. طال في مقام واحد، ولم يعبره إلى آخر⁽¹⁾.

3 - السفور

المرأة لها نموذجان: الأول، المقلدة للغرب، المرأة السافرة وهي أحد مظاهر الاغتراب. والثاني، المرأة المحجبة أحد رموز النهوض. فقد حاول كثير من الحكماء حل قضية المرأة. والحقيقة أنه لا لوم على المرأة الغربية لأنها في فساد شائع كما شهدت بذلك النساء الفضليات. وكل امرأة تعاشرهن يعدوها الفساد ولا يعرفن طباع المحصنات⁽²⁾.

السفور فضيحة العصر، نور في الظاهر وظلمة في الباطن. قد تتمتع العيون ولكن يتشتت الفكر. وقطرات الماء لا تتحول إلى در خارج أصدافها بقاع البحر. واستحكام الذات ممكن دون خلوة المساجد والأديرة⁽³⁾.

(1) حطم الكاسات ذباك الثمل ورأى لكن بعين الظاهر ومقام للاله ما يريد إن تلك الذات شرح للحياة ظل في «لا» وحدها هذا العجيب طلعة الإنسان راقته منه عينا أو عن الناس تراه راغبا ليته من عاش في عصر لأحمد السابق، ص 283.

(2) كم حكيم قد تمنى حله لا تلمها في فساد شائع عشرة الأفرنج نهج مفسد ضرب الكلیم، ص 66.

(3) فضح العصر جنة بالسفور إن تُجز متعة العيون مداها قطرة الماء لا تحول دُرًا تمسك الذات بنفسها حين تخلو السابق، ص 67.

وعن الله وذات منفصل الرقيق في العنيف القاهر وعن العقل البعيد والبعيد «لا» و «إلا» من مقامات الذات عن مقام «عبده» وهو الغريب ثم صالح ذلك الإنسان أينما؟ وكموسى للقاء طالبا ليعيش في الحبور وهو سرمد

مشكل المرأة في هذي الحياة شهدت بالطهر كل النيرات جهل الحمقى طباع المحصنات

نور عين وظلمة في الصدور كان فيها الشتات في التفكير دون أصدافها بقاع البحور لا خلاء بمسجد أو ديور

ينتقد إقبال تحديد النسل في الغرب ومنع الحمل إما بسبب عقم النساء أو عجز الرجال أو عدم الرغبة في الإنجاب. وقد شاع هذا النموذج خارج الغرب أيضاً⁽¹⁾. لذلك ماتت الأمم في الحضارة الغربية. والموت مصير طبيعي للإنسان في الغرب. فإذا ما أخرج التعليم في الغرب المرأة عن طبيعتها فإنها تموت. وحرمت الفتاة من تعليم الدين في المدرسة. والعلم والفن لا يكفیان⁽²⁾.

درس الغرب هو مركزية الحور، نشوى الحاضر وفي نفس الوقت منطوق الغرور⁽³⁾. فالحذر من وضع الغرب الحور في العين والقلب⁽⁴⁾. ويشكو إقبال بأن حور الغرب ألفت الشباك على مفاتن الشرق. صرعت كل الناس بمن فيهم ذوي الألباب حتى لم يبق فيهم حراك. ويحذر الرومي إقبال من الخداع بالمظاهر. عندما يفرق الفضة ينظر إلى يديه أي ما تركته فيها الفضة من صدأ. حضارة الغرب بريق فضة يعلوه صدأ⁽⁵⁾. ثم يستمر إقبال في السؤال: إلام سحر الإنجليز؟ يحج الطالب

- | | | |
|-----|---|---|
| (1) | إلى عالم الغرب من أسلست
كمال معاشرة عندكم
السابق، ص 66. | له الروم والهند يرجى سؤال
حيال النساء وعطل الرجال؟ |
| (2) | موت الأمومة إن رامت حضارتهم
إن يجعل المرأة التعليم لا امرأة
إن تحرمن الفتاة الدين مدرسة
السابق، ص 69. | فالموت عاقبة الإنسان في الغرب
فالعلم موت يراه صاحب القلب
فالعلم والفن موت العشق والحب |
| (3) | تذكرت روعي دروس الغرب
فآه بالفرحة الحضور
جناح جبريل، ص 455. | أيام حوره سكرن جنبي
وآه من منطقه المغرور |
| (4) | الحور في الغرب سكر القلب والبصر
السابق، ص 434. | فاهداً قليلاً وكن منها على حذر |
| (5) | قال: حور الغرب ألفت فتن الشرق شباكا
صرعت ذا اللب حتى
قال: يا إقبال! احذر
عندما تفركها الفضة انظر ليديك
قال: يا رومي! وسحر الإنكليزي إلاما
يأخذ الطالب لحما
قال: كالعصفور إن لم
هجم القط عليه
السابق، ص 524. | لا ترى فيه حراكا
ظاهراً يطغى عليك
ثم يرميه عظاما
يكمل الريش وطار
ورماه للصفار |

إليه لهما ثم يرميه عظاماً. ويجيب الرومي أن ذلك بسبب أن العصفور يطير قبل أن يكتمل الريش. فهجم القط عليه ورماه للصغار. فالطالب الذي يذهب إلى الغرب غير واع. تنهشه حضارة الغرب وتقضي عليه. في خمر أوربا سم يسمم شعوبه. يفني شبابه بالتسكع فيه. فتضيع مواهبه، وتبيد كرامته⁽¹⁾.

المرأة في الغرب مثل فتاة المريخ التي ادعت النبوة. وهي حسناء ادعت النبوة في العالم مثل الغرب تماماً الذي يبهر بريقه ليستولي على العالم⁽²⁾. رسالتها للنساء أنها ليست خليعة للرجال، بل تريد أن تكون حليعة. يظلمها الرجال ويحرمونها من ذاتها. ترخي شعرها بالمشط لغواية الرجال. يصيدونها بعد أن يدوروا حولها. بيدون العشق والهيام لخداعها. هم كفرة يقيمون الحرم وكله ألوان الألم. وإذا تم الاتفاق على الزواج فإن الوصال سم. والفراق شهد. وتنتهي نبية المريخ إلى تحذير المرأة بأنها ستذبل لخداع الرجال لها خليعة أو حليعة. وعليها مقاومة خدعة الفطرة كي تكون حرة بافتراق الجسدين، والابتعاد عن الرجال⁽³⁾.

ويندب الرومي هذا العصر الجديد، ويعني الغرب ووضع المرأة فيه الذي لم يعد يؤمن بالله. فالعشق سر الحياة، وهو دينها الأوحده. تحرق المرأة في الظاهر،

- | | | |
|-----|--|---|
| (1) | في خمر أوربه لشعب كامل
تغني بنيه بالتسكع خلفها
السابق، ص 530. | سم يسمم ذاته وإرادته
تمحو مواهبه تبيد كرامته |
| (2) | فَرَزْمَزُ فِي حَدِيثِ قَدْ صَدَقَ
لَقْنِ الْحَسَنَاءِ أَسْرَارَ النَّبِوَةِ
جاويد نامه، ص 244. | من بلاد الغرب إياها سرق
ثم في العالم ألقاها بقوة |
| (3) | يا نساء، أنت يا أمي الجليعة
عيشها ما كان إلا ظلمها
إننا بالمشط نُرخي شعرنا
الرجال صائدون، حذركن!
وإذا ابدا هياما مأكرونا
كافرون، ويقيمون الحرم
كل أم سوف تضوي في ذبول
غالب ما الناس قد سموه فطرة
بافتراق الجسدين وُخدي
السابق، ص 244 - 245. | قلن لي حتام عيشي كالخليعة؟
إنما الحرمان في الدنيا لها
في الرجال قد وجدنا صيدنا
ولأجل الصيد داروا حولكن
وبشوق وشجون خادعونا
ولكن فيه ألوان الألم
طاب عيش ليس فيه من حليل
والفتاة فلتكن من بعد حرة
كي تصاني، عن رجال فابعدي |

وبنور الإله تشرق في الباطن. نارها أوجدت كل الفنون. وكل فن جنون. بالعشق يتتصر الدين، ومن العشق يؤخذ منه⁽¹⁾. ويسميتها إقبال أحياناً «فتاة المجتمع» التي تتجمل على طريقة الكفار وإعطاء الخد بدعوى الحداثة والعصرية. ونسيت دور الأم⁽²⁾.

4 - عبادة المال والقوة

عبادة الغرب جمع المال. وهو ما يفخر به كقيمة. أباح العشق والسكر دون ضبط الهموم⁽³⁾. لذلك سيطر اليهود على الغرب، وتحكموا في مقدراته. استولى البخلاء على الأغنياء. يشتري اليهودي نصف كفته ويستعير الآخر⁽⁴⁾.

أدرك إقبال ببصيرته سيطرة اليهود على أوروبا. وقد توفي قبل مأساة فلسطين بعقد من الزمان. في الغرب نظام ومال وعيش ورغد، ولكن أيضاً فيه ظلمة القلب. ودخان المصانع لا يؤدي إلى تجلي الذات. الحضارة الغربية بالرغم مما يبدو عليها من تقدم، في احتضار. وهنا ظهر اليهود لورايتها واستعمالها لحسابهم الخاص من

- (1) مذهب العصر الجديد! قف لتنظر
إن هذا العشق شرع للحياة
وهي في الظاهر نار تحرق
ناره قد أوجدت كل الفنون
إن عشقنا بواً العلياء ديننا
السابق، ص 246.
- (2) فتاتي دعك من هذا التجمل
وصدي القلب عن توريد خد
ضمير العصر ليس له نقاب
بنور الله دنيا فلتنيري
أصبنا العقل من ذاك الجنون
ومن ليل لنا فجرنا أنيري
أرمغان حجاز، ص 474 - 475.
- (3) عبادة الغرب جمع مال
العشق والسكر ما أباحا
ضرب الكليم، ص 19.
- (4) مثل كرباس والياس يخطط نصفه
ويهودي لكفن نصفه الثاني استعارا
جاويد نامه، ص 303 - 304.

خلال الاستيلاء على الكنائس وكما هو واضح الآن في المسيحية الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية⁽¹⁾. ويسخر إقبال من التقدم التقني الغربي مثل الطائرة. فقد صنعت من الطين وطارت إلى السماء مثل جبريل، وكأن البشر أصلحوا ما في الأرض فلجئوا إلى إصلاح السماء⁽²⁾.

الغرب مدجج بالسلاح للدفاع عن الباطل. ويبرر باطله باستعمال الحضارة والدين. الجهاد للدفاع في الشرق شر مستطير. والحرب في الغرب للعدوان مجرد شر وليس جريمة. فأين الحق، مع الغرب المعتدي أم مع المسلم المقاوم؟⁽³⁾.

لقد نشر الغرب أسواقه ومن حولها الجند بالسلاح. وسلعه شرك للشراء. ومتجره ظل عرش وتاج. فالرأسمالية مقدمة للاستعمار، والاقتصاد وسيلة للسيطرة السياسية. في التجارة منفعتة، وفي السياسة عدوان. باللسان الكلمات العذاب، وفي القلب الحقد الدفين. تتم مقاومته بالزهد في تجارته، ففيها الخسارة. ونسيج الذات أقوى خيوطاً، وثيابها أنعم. تدور آلاته وهي تحمل المنايا. ويميت بالغش من غير حرب. ويمص دماء البشر. مقاومته بمقاطعته ورفض نقش البساط اكتفاء بالحصير. وفي معاملاته لا يعطي الوزير بالبيدق في لعبة الشطرنج. بريقه زائف. يجمع النقود، ويبيع الضمير. وعاء المسك لديه مصنوع من عظام الكلب، وليس من قرن الغزال. هو ماكر كالثعلب، غادر مثله. يُعاذ من كل شروره. ومن ذاق خمره لا

(1) نظام ومال وعيش رغيد
دخان المصانع في الغرب داج
رأيت حضارته في احتضار
فليس غريباً تولي اليهود
ضرب الكلیم، ص 101.

(2) من الطين صار لنا جبرئيل
أصلحت في الأرض بعد عناء
رسالة الشرق، ص 303.

(3) أما ترى الغرب بدا مدججا
يا مفتيا على الكنيس مشفقا
الحرب في المشرق شر داهم
إن يبتغ الحق فكيف حاسب المسلم لا الفرنج ذلك الحكم
ضرب الكلیم، ص 18.

يعود إلى داره، بل إلى قبره. يضل البصر بألوانه وأصباغه. ويسلعه تنبهر الأمة⁽¹⁾.

الغرب جيفة لا تقترب منها الشواهين. هو مجموعة من الغربان إذا أخفت مخالبتها أعينها سكاكين. لم تلهبها الأوتار بلوعة الحب. فنغمة الملائكة لا تفتن في القلب. لقد أتى إقبال الغرب، ولم يفتن بسكرة كأس ساقياها. فكرام الناس لا يطعنون ضيوفهم. وغزاة العصر ليس لهم بسلطان على العشاق. فالعاشق له من حبه كون، بالرغم من أن العاشق بين الحضور والغياب، بين الوصل والفرق⁽²⁾. إن

(1) لقد نشر الغرب أسواقه
وسلعته شرك للشراء
له في التجارة ربح ونفع
ويلقأك بالكلمات العذاب
فكن في متاجره زاهدا
نسيج بلادك أقوى خيوطا
جهاز المنايا بدولابه
يميتك بالغش من غير حرب
إذا جاء يعرض نقش البساط
وإن وصلتك به رقعة
جواهره بهرج زائف
ونافجة المسك في سوقه
تنبه لهذا الدخيل الذي
ولا تتعمم بمنسوجه
وإما مررت على حانة
فمن ذاق خمرة لم يعد
بأصباغه وبألوانه
بسلعته قد غدونا سكارى
يا أمم الشرق، ص 394 - 395.

(2) أتطلب جيفة الغربان هاتيك الشواهين
إذا أخفت مخالبتها
متى الأوتار تلهبها
فنغمة صور إسرافيل لا تفتن في القلب
بسكرة دل ساقياها
على مرأى أعاديها
على عشاقنا عون
له من حبه كون
من الهيجان أدومه
لعل الهجر للجرح الذي في الوصل مرهمه

أعظم نصيحة أعطاها أحد لوردات الإفرنج لنجله هو أنه من الظلم إعلام الخراف بشريعة الأسود. إنما سر الملك هو عدم قهر العباد بالسيوف، بل عن طريق التعليم وتذويب النفوس في النار، ثم إعادة صياغتها طبقاً للمراد، عبودية أو حرية، ذلاً أو استقلالاً. فالتعليم هو الذي يحول الرماد إلى ذهب⁽¹⁾.

الاستعمار أصل كل بلاء. يريد كليل أن يحجب الشمس، دون أن يعلم أن الليل موقوت، وأن شروق الشمس قادم⁽²⁾. ليس هناك طريق لمواجهة الاستعمار إلا القوة والنضال من أجل التحرر من الظلم والعدوان. والطريق إلى ذلك يقظة الروح حتى يهد البناء على رؤوس الظالمين⁽³⁾. ليس العدل بعيد المنال. ولا ينال أي خير من سراق أكفان القبور⁽⁴⁾.

الأرض لشعوب الشرق وليس للغرب. يعيش الغرب فيها كنزلاء، وليسوا كأصحاب بلاد. وتكون المواجهة بالثقة بالنفس، والكفر بالعدو الدخيل. فالعلاء والهوان في يد الذات، وكرامة الأجيال من صنعها⁽⁵⁾. تحيا الشعوب بقوة الحق،

- | | | |
|--|--|-----|
| <p>أبغ مرأى يدوم فيه المراد
خراف شريعة الآساد
لا ترُم بالسيوف قهر العباد
ثم صنع طينها وفاق المراد
جبل التبر كومة من رماد</p> | <p>قال لورد من الفرنج لنجل
أظلم الظلم للمساكين إعلام
إن للملك سره فاكتمنه
وبحمض التعليم فاغمس نفوسا
أين منه الاكسير؟ هذا محيل
ضرب الكليم، ص 110.</p> | (1) |
| <p>يا له ليلا يريد حجب شمس</p> | <p>إن الاستعمار منه كل نكس
جاويد نامه، ص 316.</p> | (2) |
| <p>إذا كنت تنشُد للحق نصرا
وللشرق أن يستبين الدليلا
على الظالمين كثيبا مهيلا</p> | <p>خذ السيف من عصبة المعتدين
لقد آن للروح أن تستفيق
ليجعل أنقاش هذا البناء
يا أمم الشرق، ص 392.</p> | (3) |
| <p>نرى العدل أمرا بعيد المنال
على يدهم أي خير ينال</p> | <p>لقد حان تغيير دنيا بها
وسراق أكفان موتى القبور
السابق، ص 392.</p> | (4) |
| <p>وأيكم في حماها نزيل؟
وعش كافرا بالعدو الدخيل
ومجدك في الشرق عال أصيل
فأنت له أو عليه الدليل</p> | <p>لك الأرض أم هذه أرضه
بنفسك كن واثقا مؤمنا
فمنك إليك العلاء والهوان
كرامة أجياله في يديك
السابق، ص 393.</p> | (5) |

وتنال المجد. قوة الشعب في وحدته. ومهما بان الحق فإنه يبقى زيف خيال ووهم، أمانى إن لم يقرن بالقوة. والقوة دون الحق جنون وطيش ووبال⁽¹⁾.

وبالرغم من قصيدة «لينين أمام الله» خارج موضوع الحنين إلى الأندلس إلا أنها نفحة من نفحات الإيمان، ونقد للغرب عامة، والرأسمالية خاصة، وإعطاء لينين الحق في قصده، والأعمال بالنيات. يعترف منذ البداية لينين بوجود الله وخلق العالم وخلود النفس وكأنه من كبار المؤمنين المؤلهين. يخاطب الله ويناجيه بأن كل شيء في الكون من تجلياته، وأنه حي خالد يقوم بذاته، وأن العقل قاصر عن إدراك كل عظمتة وكمالاته، وأنه لم يدرك لطيشه دلالات الوحي، وأن العالم قد قصر فهمه عن إدراكه⁽²⁾.

ويعلن لينين بعد أن شاهد ما يحدث في العالم بعد أن حاول فهمه ومعايشته أنه لم يكن وحده مغرورا. كانت أساطير الكنيسة حولهم في كل مكان. وكانوا مكبلين بأغلال السنين التي يصورها الله في قصص الأنبياء⁽³⁾. كان السؤال الذي يمزق قلبه والذي تركه لأباطرة الجدل واستمر معه طيلة العمر يثيره وما من جواب

(1) على قوة الحق تحيا الشعوب
فلا شعب يقوى بلا وحدة
ومهما سما الرأي إن لم يقم
وفي قوة دون رأي جنون
السابق، ص 393.

(2) يا من ترى في النفس والآفاق من آياته
الحق أنك خالد حي يقوم بذاته
ما كان يمكن في وجودك لا يكون على يقين
والعقل يخرج مرغما عن رأيه في كل حين
ما كان يدرك عقلنا في طيش نظرتة السريعة
ما كنت ترسله من الأنغام في خلد الطبيعة
سيان رضاء النجوم ومن توغل في النباتات
وقفوا على مرصاهم والكل ينقصه الثبات
جناح جبريل، ص 490.

(3) اليوم أعلن بعدما شاهدت عالمك الأخير
وأنا الذي كابدت أفهمه وعانيت الكثير
إنني، وتعلم، لم أكن وحدي هنالك في غرور
كانت أساطير الكنيسة حول عتمتنا تدور

مما أدى إلى تحطيمه. يعبر عن شكوك نفسه: ما أصل آدم قبل أن يصبح طيناً، ومن كان سيده؟⁽¹⁾.

والإجابة على السؤال الميتافيزيقي: أين كان آدم قبل أن يصبح طيناً، ومن كان سيده؟ إجابة تاريخية عملية إنسانية. لم يكن معاصراً عندما كان الدين أفيون الشعوب، عندما كان الإنسان مترنحاً أمام الصنم الذي خلقته يده في درب أوربا التي تأمرت على الشرق الجريح. أوهمت أوربا أنها منار الحياة. والحق أن النبع من ظلماتها نبع الحماة. تاهت في أبنية المصارف فوق أبنية الكنائس، جمعاً بين السلطتين الاقتصادية والدينية. وزينت هيكلها الجديد بكل أنواع النفائس. قيل تجارات وكل ما فيها قمار، ومؤامرات تجعل الصغار في جيب الصغار. رفعت السياسة والحكومة والكنيسة والسماء مبدأ المساواة وهي في حقيقتها مص الدماء. آياتها العري والفقر والبطالة والفساد. في حين أن شعباً كاملاً رد المحبة إلى السماء. حُصرت روائعه لما أتى عصر الكهرباء⁽²⁾.

= كنا هناك مكبلين بكل أغلال الليالي
أيام أنت تصدر الأزمان فيه على التوالي
السابق، ص 490 - 491.

(1) قلبي يمزقه سؤال فيه فائذن بالسؤال
تركته خوفاً من عواقبه أباطرة الجدل
هذا السؤال وكان طول العمر يرميني شريداً
ويشيرني تحت السماء أسي ويتركني وحيداً
هذا الذي ألقى بأيامي حطاماً في الوهاد
هذا السؤال وكان مغروساً كشوك في فتاوي
هذا السؤال عن الأنام ولن أجور على الأنام
وأنا تضايقتني مراقبة الطريقة في الكلام
فالمرة لما تعصف الأفكار في أرجاء روحه
لا يستطيع تخير الكلمات تخرج من جروحه
من كان آدم حين كان الطين صلصالاً عليه؟
من كان سيده سؤال لا أوجهه إليه
السابق، ص 491.

(2) إياك نعبد - لا أظن وأنت علام الغيوب
عاصرت مترنحاً بهياكل الصنم القبيح
في درب أوربه التي اتتمرت على الشرق الجريح
في درب أوربه التي تبدو منارا للحياة

الغرب حكم الآلات. لا مكان فيه لمعاني القلوب. محي الحنان من بين الشعوب. وتبدو الدلائل أنه صائر إلى فناء. يقع الغربيون في شباك حاناتهم. ويفنى شيوخ السكر مما يشربون بلا حراك. وجوهم صحراء من حمرة النيذ. وهو خمرة زائف وخضاب دماء. يذوق العامل مرارة العيش. ويعبر مركب الرأسمايين في البحار. فمتى تغرق أخذاً بثأر الحق؟⁽¹⁾.

وتغني الملائكة تأييداً لإقبال تأييداً لليقين. الفكر حر، لا يكبح جماحه أحد. والحب لا مأوى له. لوحة الله لم تكتمل. وجارت على السر الدفين. الكهان مع الطغاة ضد البسطاء. ولمحنهم صباح مساء لجؤوا إلى الإلحاد. الفقراء من البؤس في سكرة، والأغنياء من الترف سكارى. عبد يلتمس كسر الخبز من الشوارع، وعبد

= والحق أن النبع في ظلماتها نبع الممات تاهت بأبنية المصارف فوق أبنية الكنائس وأنت لهيكلها الجديد بكل أنواع النفايات قالوا تجارات تدار وكل ما فيها قمار ومصادفات تجعل البلدان في جيب الكبار أي لاسياسة والحكومة والكنيسة والسماء رفعوا مساواة تقال وأشربوا حب الدماء المعري والفقير المبادل والبطالة والفساد آيات أوربته التي انتشرت بأنحاء البلاد أسفا لشعب كامل رد المحبة للسماء حُصرت روائعه بما أوحى إليه الكهرياء السابق، ص 492.

(1) لم يبق بعد حكومة الآلات معنى للقلوب كان الحنان ملاذنا فمحتته من بين الشعوب ويرغم هذا كله تبدو الدلائل أنهم سيبددون ويقرعون على الهزيمة سنهم حاناتهم رقت بما نصبوه من تلك الشباك فإذا شيوخ السكر مما يشربون بلا حراك الحمرة الملقاة فوق وجوههم عند المساء آثار حمرة زائف وخضاب زور لا دماء رباها! أنت القادر الحق الرحيم العادل من ذاق من مر المعيشة ما يذوق العامل الرأسمايون مركبهم يعربد في بحارك فمتى تغرقه وتأخذ من مظالمهم بشارك

آخر يطعم حتى الأقمار. ولم يسلم الحكماء والفقهاء من طمع تأرجح في النفوس. تعارضت الآراء، وبثت الضغائن، وقُضي على الحب الذي يواسي جراح البؤساء. الحب جوهر الحياة وجوهر الذات. ويوضع هذا السر في غمد السيف بين الذل والآهات⁽¹⁾.

يصدر الله أوامره إلى الملائكة بإنقاذ هذا الكون الغريق، ورفع مقام الفقراء على الأمراء. لقد بدل الأغنياء القصور بالمساجد، وهم خلقه وأجراؤه. فليعاد النفخ في روحهم دون أي أسى على الأسرار. وعلى الحائر أن يستبدل ببرده حرارة اليقين. وللضعفاء قوة تجعل العصفور يصرع النسر. ويُمحي الماضي للقضاء على الجمود والتقليد. ويقام العدل على الأرض بسيف الإصلاح. وتُحرق الحقول التي لا تشبع الفلاح. وترفع الحجب بين الخلق والخلاق. وترفع الأستار التي وضعها الكهان على الأزواق. ويخرج الكهان الغارقين في الأوهام من الكنائس. ولا يكون السجود إلا لله وإلا كانت مؤامرة مع الأصنام. وتوضع المصابيح في المساجد والكنائس حتى تنير للناس طريقهم. وما فائدة رخام أبيض والقلوب سوداء؟ وتبنى المساجد والكنائس من الطين مثل بيوت الفلاحين للمساكين. وينتهي النقش والرقتش. فالطين لا يهديه إلا الطين⁽²⁾.

- (1) الفكر حر لا يرد جماحه
رباه! لوحتك التي لم تكتمل
كهان خلقك في صفوف طغاتهم يقفون للبسطاء بالمرصاد
محن صباح مساء لا معنى لها إلا لجوء الناس للإلحاد
والأغنياء من الرفاه سكارى
عوزا، وعبد يطعم الأقمارا
طمع تأجج في النفوس وقبده
هذي عطاياه، وتلك عبيده
والحب من ألم الشقاء يصيح
بأسو جراح البائسين جريح
والحب جوهره حياة الذات
في الغمد بين الذل والآهات
- فقراؤهم من بؤسهم في سكرة
عبد يلم من الشوارع خبزه
هل تسلم الحكماء والفقهاء من
أم تسلم الآراء من لعناته
يرعون كل ضغينة لبقائهم
سبحانك اللهم فالحب الذي
ذات الحياة الحب جوهر سرها
أسفا لهذا السيف يخبط سره

السابق، ص 493.

- (2) قوموا إلى كوني الغريق وأطلقوا فقراءه فيه على الأمراء
أبدلون مساجدي بقصورهم
قوموا إليهم وانفخوا من روحنا
جورا على خلقي وهم أجرائي؟
فيهم ولا تأسوا على أسرارهم

وفي قصيدة بعنوان «الدين والسياسة» ينقد إقبال المؤسسات الدينية ومظاهر الطقوس والعبادات الخارجية بلا مضمون وحياء باطنية. كما ينقد الصوفية الفقهاء، وأنصار «التأويل» أنصار «التنزيل». ويبدأ ساخرًا، فشر البلية ما يضحك. فقد بنيت الكنائس ضد الملوك فأصبحت طوعاً لهم. رأس الكنيسة غارق في الوداعة. والقصر يترفع على رقاب الناس. لا تفعل شيئاً لإيقاف استبداد الملوك بل تسير خلفهم لتبرير استبدادهم. يتبادلان الأدوار. ثم فصلوا الدين عن السياسة بعدما عمت الفتنة، واشتد التقاتل بينهما، وسالت الدماء في حروب الدولة والكنيسة. أصبح البابا سلطاناً بلا سلطان، والشعب جريح مما أدى إلى فساد الدين والسياسة معاً، تناقضاً بين اليمين واليسار. لعنة حلت على الاثنين كما تنبأ بذلك النبي في الصحراء، جمعاً بين الجنيد وأردشير، بين السماء والأرض، بين الدين والدنيا⁽¹⁾.

قولوا لحائزهم تبدل أمركم
فاستبدلوا برد اليقين بناره
قوموا إلى ضعفائهم وهبوم
ما يجعل العصفور يصرع بازا
وامحوا من الماضي جميع ذبوله
لا تتركوا للجامدين مفازا
وخذوا من العدل الأخير لأرضهم
سيفا يقيم بحده الإصلاحا
وتقلبوا بالنار في الحقل الذي
تجدونه لا يشبع الفلاحا
لم هذه الحُجُب التي تلهو بهم
وتحول بين الخلق والخلق
لا تتركوا في الأرض سترا مسيلا
أرخاه كاهنهم على أرزاقه
ومن الكنائس أخرجوا أربابها
أربابها الغارقين بلجة الأوهام
لله قد سُرع السجود وما عدا
هذا، مؤامرة مع الأصنام
جوسوا الكنائس والمساجد لا
أرى لكنيسة ولمسجد مصباحا
أنا غير راض عن رخام أبيض
أرى تلقي به سود القلوب مراحا
وابنوا من الطين المعابد علّ أن
يجد السكينة عابدي المسكين
يتنافسون بنقشها وبرقشها
والطين لا يهديه إلا الطين

السابق، ص 494.

عندي لرهينة الكنائس طرفة
فهلم نضحك للحياة قليلا
بنيت لأعداء الملوك وأصبحت
للطامعين من الملوك سبيلا
رأس الكنيسة في الوداعة غارق
والقصر فوق الناس يرفع أنفه
تنوي المضي فيستبد أمامها
وتريد تلعنه فتمشي خلفه
هذا التناقض كيف أمكن دمج
سبحانك اللهم رب النار
ما للقصور وللكنائس حيلة
في الناس غير تبادل الأدوار
فصلوا عن الدين السياسة بعدما
وصلوا بفتنتهم إلى التيجان
وتطاول البابا فقيل له: استرح
أصبحت سلطانا بلا سلطان
وتلفت الشعب الجريح فلم يجد
حظا له من ذلك التغيير
كانت مصالح راهب ومتوج
صارت مصالح حاكم ووزير

(1)

5 - الانبهار بالغرب

وفي الإهداء إلى الأمة الإسلامية في بداية «رموز نفي الذات» يحذر إقبال الأمة من الانبهار بالغرب أي من التغريب. والغرب لديه هم النصراري أو النصران. الاغتراب نفي للذات وأحد رموزه، وابتعاد عن الأصالة التي ترمز إليها الكعبة. الخطر إذن نفي الذات، والاغتراب في الآخر. والاغتراب الحضاري للأمة مثل اغتراب الوجود للذات وخضوعها لغيرها⁽¹⁾. يؤدي الانبهار بالغرب إلى «التغريب». وينشأ من فقد الذات، وتحويل الإنسان إلى غريب في الأوطان، واستمد أجره من غيره الذي ينصب شبابه على أرضه وقهره. ماتت الجذوة فيه لأنه حول نفسه إلى عبد. وخمدت النار في عروقه. أهان نفسه، ووضع الجبين على التراب. مع أنه فيما مضى خاض الحروب، وتحدى الخطوب⁽²⁾.

ينقد إقبال الانبهار بالغرب كما تجلى لدي «صريع الفرنج» الذي نسي ذاته،

سقت الديانة كأسها والدارا
تُزجي التناقض يمنا ويسارا
بالسر هذا سيد الصحراء
إن لم تقم من حمتق هذا الداء
لن تستطيع لأمرنا ترقيعا
خرق الطرائق أردشير جميعا

وعن الكعبة أبعدت السرى
حينما وجهك عندي أسفرا
لست ممن لأمير يركع

وبقانون الفرنج افتتنا

كان في أوطانه هذا الغربيا
وشباك الغير أرضى نهرة
أفسد الأعمال شأن كل غافل
ولنار في العروق كان خمد
في التراب دائما أدلى الجبينا
وتحدى وهو ذو البأس الخطوبا

= ثنوية لم تبق دربا صاحيا
هي في اليسار وفي اليمين مقيمة
هي لعنة الدنيا كما أفضى لنا
لن تعرف الناس السلامة ساعة
أبدا مرقعة الجنيد لوحدها
إن لم يكن هو أردشير صراحة
السابق، ص 505 - 506.

(1) لك طرف بالنصارى سُحرا
صحبة النصران قلبي هجرا
أنا من نظم مديح أرفع
الأسرار والرموز، ص 77 - 78.

قيل: أهدى سحر أوربا لنا
السابق، ص 151

(2) منذ أن ضيغ من ذات نصيبا
ظل في أيدي سواء أجراه
ومضت في سيرها كل القوافل
ماتت الجذبة فيه وهو عبد
لا تظن أنه كان المهينا
إنه فيما مضى خاض الحروبا

واغترب في الغرب. تحولت ذاته إلى هيكل خال، غمد بلا حسام⁽¹⁾. يشك في الله وهو يشك في ذاته. الكون جوهر الذات ينكشف فيها. والمغترب يدفن ذاته في غيره. والباحث عن المعنى تزوغ عيناه إلى الغرب، ولكنه لا يجد شيئاً هناك⁽²⁾. يدعو إقبال إلى تجنب الغرب وعدم الانسحار بسحر أوروبا. فهي لا تساوي شيئاً في ماضيها، ولا في حاضرها. وكل الأبطال القدامى في الشرق والغرب، داريوس، الإسكندر، خوسرو، كايكوباد حفنة عشب جرفتها الريح الآن⁽³⁾.

لقد أبهرت أوروبا الأمة، وألهت نفسها بها، وتخلت عن ذاتها. فالحذر من أن تكسر الذات مرآتها التي تعكس فيها صورة غيرها. فلا تُترك الأصالة، أصالة الرومي. فداؤها دواؤها. وتستعيد به ما ضاع منها⁽⁴⁾. إذا انبهر الغر بالغرب فسره قد غزا من قبل الأنام. فقد استطاع الكلیم تفجير الماء من الصخر. وشكل الحسام المستقيم أمضى من شكل الهلال المستدير⁽⁵⁾. إن بريق الغرب خادع، بريق ماسة

(1) من تَجَلَّى الفرنج نلت وجودا
ومن الذات هيكل الثرب خال
ووجود الإله عندك ريب
إنما الكون جوهر الذات يجلى
ضرب الكلیم، ص 21.

(2) وصياد المعاني ما
فضاء مونتق لكن
السابق، ص 121.

Persian Psalms, p. 117. (3)

(4) ألهتك أوربية
إياك أن ترضى
لا تتترك الرومي
فدواؤك الشافى
أو ما استعدت به
إياك كنت ترى
جناح جبريل، ص 427.

(5) إذا سلب الغرب قلب الغرير
عصاك تُصدع صم الجبال
فدع ترف الغمد ما للهلال
السابق، ص 427.

خارجي من أثر الكهرباء وليس من طبيعته⁽¹⁾.

الغرب نفسه يرفض التعريب أي ذوبان الآخر فيه. إذ يشهد الغرب أن إقبال غزنوي جرّع الغرب مصير إياز الذي قص الغزنوي صفائه المغرية كما قص صفائه أوروبا. وما يقص شعره لا يكون نموذجاً للاقتداء. وبالتالي يظل الإنسان نسيج وحده⁽²⁾.

لقد عشقت الأمة دُمي الغرب. وأصبحت تحرق النار لغيرها، لأهل الدير. أصبحت غريبة على نفسها. لم يتحقق وجودها. شربت الأمة من حان الغرب، وفي نفس الوقت شربت العذاب. وعندما نجالس أهل الحسين تبدو النيران ثلجاً مذاباً⁽³⁾. المتفرنج مثل الشيطان. رزق الله كليهما، واحتراب بينهما⁽⁴⁾.

لقد ذاق الشرقي جرعة من خمر الغربي. ولا عجب أن يخرق نذره بالامتناع عن الشرب. لقد علم الغربي بأفكاره الجديدة القارضة الشرقي كيف يفكر؟ وكيف يسلك بمفرده؟ فغلى الدم في عروق هذا العابد القديم للقدر. ولا يحزن الساقى إذا أرد الشاربون خمراً أكثر. ويعذرهم، فهو الذي علمهم الشراب. ولا يعرف البلبل إذا كان في حديقته إلا بفضل رائحة الورد⁽⁵⁾. تغري أوروبا الأمة بالنهر. وبنفس النهر ضاعت الأمة. تستتر أوروبا وراء النهر لتخفى تيارها المدر. جرف كل شيء. ولم

(1) لا تقل في الغرب رأيا
ماسه من كهرباء
ببريق يتعلق
جعلته يتألق

السابق، ص451.

(2) شهد الغرب أنني غزنوي
أيهيم الفواد في كل حسن
حين جرّعته مصير إياز
أم يغنى لوحده في الزحام؟

السابق، ص466.

(3) دُمي الإفرنج قلب لي تعشق
لقد أصبحت عن نفسي غريبا
ومن نار للأهل الدير أحرق
فما أدري وجودا لي تحقق

(4) بحان الغرب عاقرت الشرابا
وكم جالسُ أهل الحسن لكن
بدت نيرانهم ثلجاً مذابا
فيرزق وهو يطلب منه دوما

(5) على الشيطان أعقد أي رزق
إلى أن حار فيه الله يوما

أرمغان حجاز، ص500.

يترك مكاناً لتمساح يعيش فيه. العبيد لا رأي لهم. والأحرار رأيهم عام. لا شيء ينهض بالأمّة إلا اجتهاد أصيل يستخرج لؤلؤة من الصدف. الأمّة قادرة على أن تعيد صب الزجاج بعد صهره في الكير. وتجعله صخراً بما لديها من إكسير الحياة. يدها في الجهاد يخشاها فرعون. بيضاء تبغي السلام إذا ما مدت لمولاها. تخطئ أوروبا إذا ظنت أن نفس الأمّة سيتوقف أو أن ينطفئ ناراها في قشها اليابس. نار الأمّة بعد ما قويت من أعوادها لا شيء يتوقف أمامها من حطب أوروبا⁽¹⁾.

يؤدي الاغتراب إلى الرياء والنفاق والمداهنة، والتغني بمزايا الآخر، صدقاً أو كذباً، فيه أو ليست فيه. دولة الغير رحمة. والذل في الدنيا نعمة. ويؤدي حكم الدخلاء فيه إلى ازدهار وارتقاء للدين والدنيا. لقد تخلى البعض عن ذاتيته فأصبحوا غرباء. وكل من أعرض عن ذاته واغترب في الغير فقد جوه مرآته. ولو أن الذات تعيش مطلبها يوماً واحداً مغايراً للأجنبي لعرفت معنى استقلال الذات⁽²⁾.

(1) عجبنا لأوربئه
وبذات لـجـتـه
نُخفي بهدأتها
عصفتُ فما تركت
رأي العبيد بها
وتقرر الأحرار
لا شيء يقنعنا
يأتي بالؤلؤة
ذاك الزجاج إذا
فأنا أسويبه
لي في الجهاد يد
بيضاء ما مدت
أظمن أوربئه
أو تنطفئ ناري
ناري وقد أذكت
لا شيء يمنعها
جناح جبريل، ص 423.

(2) كم تغني بمزايا بايزيد
فيرى في دولة الأغيار رحمة
وينادي أن حكم الدخلاء
أيها المحروم من وجدانه
أو تدري أننا من عصرنا
ذو رياء هو للورد مرید
وكان الذل في دنياه نعمة
فيه للدين ازدهار وارتقاء
ومن الشوق ومن أشجانه
غرباء فيه عن أنفسنا؟

استبدلت الأمة الآن بالمسجد الدير. والحر ما زال ينهل من يمين المصطفى. في ضميره تكبير الإله. وفي جبينه تقدير الأمم. أسلمت الأمة القيادة للأفرنج واعتمدت عليهم. وأرادت عزتها منهم، وقبلتها لهم. شعار الحر عزم وإباء. يعتمد على نفسه وعلى الله. لا يمد اليمين لغير الله. ولا يحني الجبين إلا لله.

بدو الغرب قمراً في عين الفتى المسلم الساذج⁽¹⁾. إنما المسلم هو الذي يمد يده للعائرين. يضرم في روحه النار. ويهبها لجميع المسلمين⁽²⁾. لقد أطال جهبذ الإفرنج القول في الكون والعدم. وكرره الشيخ وراءه دون علم أو وعي⁽³⁾. وتغرب العقل وبدا كالمقامر بالعلم المشين. أصبح الجهول أفضل من الحكيم⁽⁴⁾. ومن الغربي لا يطلب أي شيء بل فقط تحطيم الصنم المعار⁽⁵⁾. وعلى عتبات الغرب

فقد الجوهر من مرآته
أجنبيا عن طريق الأجنبي

نحن للغير نبيع المسجدا
كوثرا عذبا به الورد صفا
في جبين الحر تقدير الأمم
واتخذناهم لدى الجلى عتادا
وجعلنا ودهم قبلتنا
رزقه من يد جبار السماء
لغير الله لم يحن الجبين

بدا قمرا العين الناظرينا
وقاه الله عين الكافرينا
ومن لسواك كانوا ناظرينا
نصيبا هب جميع المسلمينا

وفي كون وفي عدم أطالا
أبلغه، فألق إليه بالا

بدا كمقامر إلى الحق المبين

بقلبك حطم الصنم المعارا

= كل حي مُعرض عن ذاته
عش ولو يوما عزيز المطلب
يا أمم الشرق، ص 361 - 362.

(1) أصبح الدير لدينا مقصدا
وهو يسقى من يمين المصطفى
في ضمير الحر تكبير الإله
نحن للإفرنج أسلمنا القيادة
وابتغينا عندهم عزتنا
وشعار الحر عزم وإباء
فلغير الله ما مد اليمين
السابق، ص 363.

(2) فتى الإفرنج فلتشده حيناً
فتانا ساذج من فرط ظرف
يمينك مدها للعائرينا
فمن نار أضرمها بروحي
أرمغان حجاز، ص 453.

(3) كلام جهبذ الإفرنج قالا
من الأعجام شيخ قال قولا
السابق، ص 483.

(4) تغرب عقلنا ذا عن يقين
السابق، ص 496.

(5) ولا تطلب إلى الغربي شيئا
السابق، ص 497.

يُعَفَّر الجبين كصنم جديد. فلتدر إليه الظهور. وإن عبادة أصنام الفرنج تؤدي إلى الموت⁽¹⁾.

6 - تقليد الغرب

قامت نظم التعليم على تقليد الغرب، والهيام به، ونفي الذات، وانتظار المعرفة من الغرب في الغذاء⁽²⁾. أوضاع التقليد الأمة، ومحا شخصيتها. وتحول المسلم يحطم الأصنام القديمة إلى مشيد لأصنام جديدة. والنفس قادرة بكرمها وحيائها تأكيد ذاتها. لا تخشى سوى الإله. والقادر على إثبات الذات قادر على أن يشق طريقه في الدنيا⁽³⁾.

ولا يكون الفن تقليد الغرب بل هو إبداع ذاتي⁽⁴⁾. التقليد محاكاة، والمحاكاة ليست حياة، بل هي إماتة للخيال.

ينقد إقبال «صريع الإفرنج» الذي يستمد وجوده من غيره. ويعمر ذاته من

(1) بجاه الغرب إن كنت القمينا
أدر لعصاه عند الضرب ظهرا
وأصنام الفرنجة ما عبدتنا
السابق، ص 498 - 499.

(2) يا أمم الشرق، ص 398 - 399.

(3) قد ذاب في نار الفرنج فما له عنها محيد
وأنته نار جهنم لكن بأسلوب جديد
ومدينة الإفرنج ماضية بنا نحو الزوال
قتلت مواهبنا بلا حرب تدور ولا قتال
فاكشف لقومك عن كريم النفس متقد الحياة
ثم مل يحب الله لا يرجو ولا يخشى سواه
وإذا تبين مسلم في ذاته شرف المكانية
اخلق به في الدهر أن يختار في الدنيا مكانه
السابق، ص 404 - 405.

(4) قلد الغرب فن عجم وهند
شفتني الغم أن بهزاد عصري
يا خبيرا بفنه فيه تمت
كم ترى فيه خلقة وتريها
عم هذي البلاد موت الخيال
يفقد الشرق بهجة الآزال
صنعة العصر والعصور الخوالي
أرنا الذات فوق هذي المجالي
ضرب الكليم، ص 89 - 90.

ذات غيره⁽¹⁾. لم يأخذ المقلدون من الغرب إلا القشور دون اللباب، الزجاج المنكسر وليس الصخر الأصم⁽²⁾. يقلد المغترب وثن الإفرنج القائم على النرد والسحر. ويترك الكعبة التي يشع منها النور. ولا يحولها إلى بيت نار⁽³⁾.

ينقد إقبال تقليد أمم الشرق للفرنج وخضوعها لهم. في حين لا يستطيع الفرنج أن يحيوا العرب والفرس. فنونهم تؤدي إلى الموت، ويعني إقبال بذلك إباحية الفن⁽⁴⁾. لقد ضل المسلمون بأن أخذوا الغرب إماماً لهم. ثم زاغ البصر عن إمامهم⁽⁵⁾.

قلد الأتراك الغرب ففقدوا ذاتيتهم بعد أن أسكرهم الغرب بالسم. وكذلك فعل العراق دون تريباق. وعبيد الغرب يبغون الظهور عن طريق التقليد والرقص. روحهم في اللهو. ويصعب عليهم العلم. يطلبون السهل، ويتركون الصعب. يأخذون الظاهر، ويتركون العمل. فضاع الروح، وبقي الجسد⁽⁶⁾.

الانبهار بالغرب وقوع في أسرهِ⁽⁷⁾. وهو نتيجة إنكار الذات، والإيمان بالغير،

- | | | |
|-----|------------------------------------|------------------------------------|
| (1) | من تجلّي الفرنج نلت وجودا | فهمو منك هيكلًا قد أقاموا |
| | السابق، ص 21. | |
| (2) | هم عن الغرب زجاجا أخذوا | علمنهم صدمة الصخر الأصم |
| | السابق، ص 39. | |
| (3) | من الكعبة اجعل بيت نار وإن تشأ | فموثن أفرنج به الزور والسحر |
| | السابق، ص 42. | |
| (4) | كيف نُجلى حقائق لعيون | عميت بالخضوع والتقليد؟ |
| | كيف يُحيي الفرنج غربا وفرسا | يفنون تسيير نحو اللحدود؟ |
| | السابق، ص 49. | |
| (5) | قد أزاع العين في الغرب سنأ | لك من صاحب ما زاغ إمام |
| | السابق، ص 60. | |
| (6) | فقد الأتراك ذاتا بالمدام | فالفرنج أسكروهم بالسمام |
| | إن تريباق العراق ما لديهم | رحمة يا رب فابسطها عليهم |
| | وعبيد الغرب يبغون الظهورا | إنهم يرضون بالرقص الغرورا |
| | روحهم في اللهو كانوا يفقدونا | يصعب العلم، بلهو لن يكونا |
| | يطلبون السهل لكن من كسل | طبعهم ما يبتغي سهل العمل |
| | اليسير السهل لكن إن طلبنا | أنت روحا لك من جسم فقدنا |
| | جاويد نامه، ص 307. | |
| (7) | انس شرقا لا تكن من سحر غرب كالأسير | فالقديم والجديد ما هما غير النقيير |

وتحويل الذات إلى تراب قبر أو أحجار دير⁽¹⁾. والاعتماد على لذة «اللوردات» يغني عن وقود نار الذات⁽²⁾. قلد المسلمون الإفرنج وهم يطلبون السراب، ويظنوه كوثرًا. والإفرنج أهل حقد وعداء لدين المسلمين⁽³⁾.

وإذا ضاقت قيود المسلم قلد الغرب ولم يحقق ما يريد. والوجه لا يُعفر بالسجود لغير الله⁽⁴⁾. قلد التركي العثماني في الغرب فأوقع نفسه في أسر الفرنج. سحره طلسمهم، وتخلي عن ذاته. وظن أنه حقق رغباته ونال أعلى المراتب بعد أن كشف له الأجانب مصيره⁽⁵⁾. وتقليد الفرنجة في الرأس لا يُعرف هل هو نشوة أم سكر. ما يعرف أنه لا ينبع من الدم⁽⁶⁾. عزة الشعب في الدين. وعزة الدين في وحدة الشعب. يفقد الشرق ذاته إذا قلد الغرب. وعزة الغرب ليست بالمطربات، ولا رقص الغواني العاريات، ولا التبخر على الأرض فيها وخيلاء، ولا لتركه الدين، بل لتمسكه بالعلوم والفنون ونور العقل. فلا يستطيع الشرق أن يلبس عمائم العلم. ولا يصبح بالثوب حكيمًا كالأعاجم. ينال العلم بالعقل الذي يملكه الشرق،

- = السابق، ص321.
- (1) ينكرون الذات، إيمان بغير رفعوا من تربهم بنيان دير السابق، ص329.
- (2) وعلى وقد إذا لم يعتمد لذة للوردات لم يجد السابق، ص329.
- (3) قلد الإفرنج منا المسلمونا وبسر ديننا ما علمهم؟ من سراب كوثر ما يطلبونا أهل حقد وعداء كلهم السابق، ص333.
- (4) من الإفرنج إن ضاقت قيود على عتبات غير الله وجه تعفر لا يليق به السجود أرماغان حجاز، ص426.
- (5) بملك واسع أضحى أميرا يظل من الفرنجة في قيود بذاتك فاعترف اليأس جانب بهم قد حقق الترك الرغائب أليس لمسلم عينا بصيره السابق، ص473.
- (6) أرقص ذاك؟ إنني لست أدري لتقليد الفرنجة كان رقص أنشوة فرحة أم سكر خمرة؟ وليس دما بعرقك وهو يجري السابق، ص476.

وليس بثوب مستعار. فالعلم في الرأس وليس في العمامة. يكفي امتلاك الفكر. والطبع يغني عن الباقي⁽¹⁾.

ولو أراد الله أن يحتمل الرسالة لأمة لاستطاع ذلك. وهو يعلم أنه اختار أفضل الأمم لحملها. فتقليد الأمم المغايرة يسير في الروح رعدة. قد تحرم من ذكره. وبقلب الغير يلقي ناره⁽²⁾.

يهرب البعض من جمود الشرق إلى تقليد الغرب. بل يكره أن يسمع الأذان في بعض قرى الإفرنج. والحق بين الاثنين، بين ترك تقليد القدماء وتقليد المحدثين. وإشباع الذات لتجديد القديم ونقد الجديد. فلا طعام من يد تذيق المسلمين الهوان. والعيش مع كدر القديم خير من العيش في نشوى الغرب. والدواء المر للعقل خير من الحلوى للطفل⁽³⁾.

(1) بمقام وحدة قد عز دين ذاته يفقد ذا الشرق المقلد عز هذا الغرب لا بالمطربات لم يهبه قوة ورد الخدود مجده ما كان من ترك لدين العلوم والفتنون سره لست بالثوب حكيمًا كالأعظم تدرك العلم بعقل أنت مالك ليس في هذا السبيل غير علم إن ملكت الفكر هذا الفكر حسبك جاويد نامه، ص 306.

(2) لو أراد الله عنا حمليه ذلك التقليد فينا قد رأيت في غد قد يحرمون ذكره السابق، ص 216.

(3) إنه العاشق في أهل الجحود فهو يحكي مسلما بات يعاني قل لأهل الحق ما يشفي القلوب اقبل الهم ولا تأكل طعاما إن يكن عيشك من طول الكدر الدواء المر للعقل الكبير يا أمم الشرق، ص 345.

ذلك الشعب بها شعب يكون ليته النقاد للغرب المفسد لا ولا رقص الغواني العاريات وقصير الشعر أو ميس القدود ليس من خط لديه بالمكين وبمصباح لديه نوره أضرار العلم من لبس العمامة؟ لا بثوب تستعير من هنالك ما على رأسك من غير المهم كل شئى عنه ما يغنيك، طبعك

لاستطاع لسوانا نقله رعدة للروح في جسمي وجدت وبقلب الغير يلقي ناره

لم تزد أسماهم غير الجمود في قرى الإفرنج ترديد الأذان قل عن الدين وأنباء الشعوب من يد تطعمك الهم دواما فيه مر الجوع فالذل أمر فاترك الحلواء للطفل الغرير

هناك إذن خطآن: الأول من يصطنع التجديد أو لا يعرف كيف. والثاني تقليد الغير والتغريب أي الانبهار بالغرب أو التغريب، الوقوع في أسر الغير⁽¹⁾. الذوبان في الآخر يقضي على الذات، استقلالها وحريتها. والحق يحافظ على الذات، ويبقي على رجائها⁽²⁾. يؤدي الولاء للغير إلى بناء الدير بأحجار الحرم أي بيع الذات وشراء الغير. ويموت بعد أن عاش وهماً أدى به إلى العدم⁽³⁾.

تقليد الغرب يسلب الذات ذاتها، ويجعلها تغترب في الآخر. يفنى المقلد في جمال الآخرين. وينظر إلى نفسه في مرآة غيره. يسكن في عشهم. ويطيّر بأجنحتهم. ويُقتل بالشرب من كأسهم. والحق أن هجرهم أحلى من وصالهم⁽⁴⁾.

قلد الشرق باطل الغرب ونسي تاريخه⁽⁵⁾. ومن نسي ذاته وقلد سحر الغرب

- | | |
|--|---|
| (1) يصطنع التجديد في الدين القويم
فما له ند سوى عصا الكليم | وذلك البارع في مهنته
قد شطر الوحدة في أمته
السابق، ص352. |
| (2) وهم لحكم الغير زرع وحصاد
وغيرهم في أرضهم ساد وشاد
حصافة الفكر ودقة النظر
وما لديه عن وجوده خبر
وكل خير عن ضميره استتر
لكنه في المهد ولى واندثر | متى يفيق القوم من هدتهم
قد هدموا بناء ذاتيتهم
كم من غرير استطال وادعى
قد خبر الوجود والدنيا معا
أزال نقش الحق من خاتمه
قد ولد الرجاء في عالمه
السابق، ص352. |
| (3) حتى بنى الدير بأحجار الحرم
قد عاش وهما ثم وراه العدم | ولاؤه للغير كلُّ هممه
مات ولكن ما درى بموته
السابق، ص354. |
| (4) لئنفسك منك سلاب
فاغسلن قلبا وعينا من خيال الآخرين
ذلك العش الذي شدت بمال الآخرين
أنت لا تسطيع طيرا بجناح الآخرين
ممكن قتلي بكأس من زلال الآخرين
عندنا هجرك أولى من وصال الآخرين | سفاك الغرب من كامن
أنت كالمرآة تفتى في جمال الآخرين
من نواح الطير في الأحرام فاقبس واحرقن
وتعلم جاهدا خفق جناحك وطر
أنا حر وغيور مسرف في غيرتي
إيه يا أقرب من روحي ولا أبصره
رسالة الشرق، ص318. |
| (5) ولها التاريخ فهم شكّلت
ومن الإفرنج ذابوا في اللهب | باطل الإفرنج ما قد حصلت
إنهم لم يذكروا فضل العرب
جاويد نامه، ص302. |

فقد كفر⁽¹⁾. كان في الأمة نار فتحول إلى مجرد نور. بحثت عن النار عند الكافر الأجنبي. وباعت الدين بأبخس الأثمان. ويعز الدين بالعلم، ويذل بالجهل⁽²⁾. قلد الشرق الغرب. آسيا أرض الشمس المشرقات اتجهت إلى الغير، وليس إلى الذات لأنها لم تجدها بل حواها الدين القديم في جمود وحمود. سهل صيدها من شيخ أو سلطان أو ملك. ووقع فكرها في الشرك. واتجه عقلها ودينها وشرفها إلى رقاب «اللورد». تمت الغارة على أفكارها، ومزقت أستارها. والقلب يفيض دمعاً عليها. ومع ذلك، هناك ذات أخرى قادرة على تغيير العالم⁽³⁾. إذا ما قلدت الذات الآخر فإنها تحترق بناره ولا تثبت ذاتها⁽⁴⁾. التقليد يصهر الذات في الآخر ويذيبها فيه⁽⁵⁾.

الاعتماد على الذات هو سبيل التحرر من سيطرة الغرب. فذوي الفضل في كل شعب يسهرون على مجد أمتهم. يعملون بسواعدهم، ويزرعون في أوطانهم.

- | | |
|---|--|
| (1) إن نسيت الذات كنت من كفر | كم لأهل الغرب من فن سحر السابق، ص 308. |
| عند كفر أجنبي أي خير فيهما عزة الدين بعلم وبجهل ذلة | (2) يا أخي مصدر النور لدينا كان نارا لهما بالدين سعر يشتري حتى النضارا السابق، ص 303. |
| عينها للغير، ما كانت لذات نلت منها الريح أو حب الشعير في جمود وحمود لا تريم فكرها ظبي ولكن في الشرك من ركاب اللورد كانت في طرف وعن الأسرار مزقت الستورا ثم دنياها أنا غيرت وحدي | (3) آسيا أرض الشمس المشرقات لا جديد جد للقلب الغرير وحواها ذلك الدير القديم صيد شيخ أو لسلطان ملك عقلها والدين بل حتى الشرف فعلى أفكارها كنت المغيرا فاض قلبي بالدماء من فرط جهدي السابق، ص 328. |
| بنار الأجنبي صلى الأمة | (4) تبارك فاحترق يوما وأقدم رسالة الشرق، ص 264. |
| عودا ولم تبحث بقلبك عن أثر ج ومن لحاظ العين روحك قد قطر في حلة فيها التراب له قدر ل وما فهمت حديث وجد يستطر حرم وفي معنك لم تُجد النظر | (5) أسفي عليك، نحت أصناما آخر أسفي عليك صهرت في نار الفرد أسفي عليك فما وُزنت بنظرة أسفي عليك قرأت أسفار العقو اسفي عليك تطوف من دير إلى السابق، ص 321. |

وينتجون من أرضهم ما تنكفأ به على نفسها⁽¹⁾. وبدلاً من أن يبيع الشرق محصوله للغرب ثم يعاود شراءه منه بأضعاف سعره فلينتج الشرق وليصنع ما يستهلك. جهده يعود إليه. وكيف يشري المرء لؤلؤاً كامناً لديه من يد غواصيه؟

يشجع إقبال المسلم على التخلص من عقدة النقص أمام الغرب. فلا يمنعه شيء من النهوض بإذن الله⁽²⁾. رفض الهنود تقليد الغرب. وانكروا كل سحر فيه. وعرف الغرب روح ثقيل لا ينزل من سماه⁽³⁾. وللاإنكليز سيادة في غير قلب المسلم بل فقط على جسده. وقلب المسلم خال من تأويلات الشيوخ ونقاش البراهمة. فالاغتراب في الموروث والوافد على حد سواء. وسماع صوت الذات وهو صوت القلندر قادر على ألا تنحني الذات أمام غيرها⁽⁴⁾.

- (1) وإن ذوي الفضل في كل شعب فهم بسواعدهم يعملون ومن أرضهم كل ما ينتجون فيا من غدا منكرا ذاته وكم بعث محصول زرع له يعود بأضعاف ما نلته كأنك لم تشق من أجله أفي البحر لؤلؤه كامن يا أمم الشرق، ص 396.
- (2) لا تُرع مما ترى، لفرنج ضرب الكلیم، ص 45.
- (3) الهنود أنكروا قانون غرب إن عرف الغير روحا يثقل السابق، ص 309.
- (4) لالإنكليز سيادة ما فيه تأويلات لو كنت تسمع للقلندر حين قال وحين جللني حياء لما انحنيت أمام غيرك صرت من جسد ومن قلب هباء جناح جبريل، ص 429.
- على مجد أمتهم ساهرون وهم في مواطنهم يزرعون وما يأكلون وما يلبسون إلى أين يمضي بك الماكرون؟ رخيصاً وأنت غدا مشتريه بربح سخى لمستورديه ولا كنت في الأرض من زارعيه ومن يد غواصه يشتريه
- سيمياء قم بإذن الله كل سحر رفضوه كل خلب من سماء إنه لا ينزل
- في غير قلب المسلم ما فيه أو مسائل برهمي لو كنت تسمع للقلندر حين قال وحين جللني حياء لما انحنيت أمام غيرك صرت من جسد ومن قلب هباء



الفصل الثاني

الغرب والشرق

1 - الشعراء بين الشرق والغرب

أعجب إقبال بالشعراء الفلاسفة، والفلاسفة الشعراء مثل جوته، والشعراء مثل بروننج وبايرون وأسد الله غالب وجلال الدين الرومي كل منها في بيت واحد مركز يعبر فيه عن فلسفته أو شعرته. بروننج كأس بارد في حين أن الخضر كأس حار⁽¹⁾. أما غالب فممنه يمتلأ الصدر اللهب ويزداد الخمر. ويصهر الدن ويملاً الكأس⁽²⁾. ويعترف إقبال بأنه يدين لغالب وجوته وبديل (ميرزا عبد القادر) ووردزورث وهيكل الشيء الكثير. فقد هداه هيكل وجوته إلى باطن الأشياء. وعلمه غالب وبديل كيف يظل شرقياً في الروح والتعبير بعد التعرف على المثل الأجنبية للشعر. وأنقذه وردزورث من الإلحاد أيام الدراسة⁽³⁾. وجلال الدين الرومي، وهو نموذج الشاعر الحق عند إقبال، فإنه يملأ كأسه منه ويغترف من عروق كرمه⁽⁴⁾.

ويقارن إقبال بين جلال الدين الرومي وهيكل. فقد أدرك حكيم الألمان من

(1) ليس في كأس الحياة البرد نار
السابق، ص 334.

(2) لأزيد الخمر والصدر لهيبا
أصهر الدن وكأسي أملاً
السابق، ص 335.

(3) St. Ref., p. 54.

(4) أين مزج من سنا جوهرها
من عروق الكرم كأسي أملاً
السابق، ص 335.

الشيء الآني حقيقة أبدية لدرجة أن العالم يخجل من أفكاره أمام هذا الفضاء الفسيح. أما صوفي العجم فقد ارتطم العقل بطوفان البحر. وجرف العشق تأمل العقل. واستولت الشمس على نوره. وأوقظ النائم⁽¹⁾.

ويقارن إقبال هذه المرة بين جلال الدين الرومي وجوته الشاعر وليس هيجل الفيلسوف. فقد صاحب شاعر الألمان في روض إرم أي الجنة شيخ العجم. والشاعر عالي الهمة ليس نبياً ولكن له ديوان. قص للعارف السر القديم عن إبليس والشيخ ويعني «فاوست». فأجاب الشيخ بأن الفكر خال، والروح مملوء. رأى الدر في قاع البحر وسمع دبيب الروح من خلف الستار. العشق ليس لكل الناس، بل فقط للسعيد. وهو القادر على مواجهة مكر إبليس⁽²⁾. وتتطلب حقائق الحياة شرحاً أعمق في صورة أمثال تعليمية عبقرية فائقة. وقد يكون شكسبير مولانا جلال الدين الرومي أكبر من عبر عن هذا النمط من العبقرية⁽³⁾.

(1) ليلة بت أعاني حلها
ذاك من أبرز في إبداعه
يخجل العالم من أفكاره
سرت في بحر له فالتطمت
نفث الوم بعيني سحره
وأحد الشوق طرفي فإذا
إنه الشمس تجلت في الضحي
نوره في مظلم الأفق سرى
تنبت الأفكار في ألفاظه
قال: قم يا أيها النائم! هل
في طريق العشق بالعقل يسار
السابق، ص 321.

(2) شاعر الألمان في روض إرم
شاعر يشبه ذا العالي الجنب
قص للعارف بالسر القديم
فأجاب الشيخ: يا رب العلاء
قد خلا فكرك في القلب السليم
فرايت الدر في قاع البحار
ليس كل قد تجلى العشق له
قد تجلى لسعيد المعني
رسالة الشرق، ص 332 - 333.

لم يتأثر إقبال بجوته فقط بل إنه عارض قصيدته «الحدور والشاعر» بقصيدة مثلها. وكلاهما يعبر عن رؤيته للعالم، الرؤية الغربية والرؤية الإسلامية. إذ قالت الحدور للشاعر إن الخمر لا تسره، ولا ينظر إلى الغير. فما أعجب الأحبة دون أن يشعر بهم. وهو شاعر يعبر عن حرقة القلب. خلق عالماً جديداً بالإيمان. عيبه أنه ينظر للجديد بعين القديم. ويجيب إقبال الشاعر مدافعاً عن نفسه بأن لديه فطرة شاعر يكره دعة المنازل. يدرك الجمال، ولكن يعلو بإدراكه إلى الجلال. يرقى من الشرار إلى النجوم إلى الشموس بكل أمل في المزيد. فلا حدود للطموح. تتجاوز عزيمته التدرج والمراحل. يشرب من الربيع الحالي. ويغازل الربيع الآتي. يعشق بروح الخلود. لا يحزن ولا يتألم. ولا يحتاج إلى مواساة⁽¹⁾.

لم تقرر الطبيعة ماذا تفعل بأفلاطون شاعراً أم فيلسوفاً. وهي نفس الحالة التي شعر فيها إقبال أيضاً بالنسبة لجوته⁽²⁾. يكتشف الروح ذاته عندما يقابل روحاً أعظم.

ولا إلينا أنت ناظر
يهوى الأحبة غير شاعر
وحرقة الطلب المثابر
وتغزل يشجو المزاهر
ك العجيبة خلق شاعر
يبدو لعين فعل ساحر
بالسحر من خزات قائل
وخزات شوك في المجاهل
لا ترتضي دعة المنازل
تهفو الضبا حول الخمائل
رائع حلو الشمائل
يعلوه حسنا في المحافل
إلي الشموس رقي أمل
أعوج على المراحل
الكأس تسري في المفاصل
وربيعي الآتي أغازل
لا ينتهي فيه المسائل
قلبي عن الآمال غافل
بدارة الخلد المواصل
ألم ولا واس يسائل

(1) الحدور: لا الخمر يوما تطيبك
إنني عجبت لشاعر
من حر أنغام الرجاء
نفس تذيب بلوعة
وخلقت بالألحان دنيا
تبدو لها إرم كما
الشاعر: تخدعني قلب مسافر
ما إن تحاكي لذة
ماذا أقول وفطرتي
قلبي على قلق كما
فإذا نظرت إلى جميل
خفق الفؤاد إلى الذي
فمن الشرار إلى النجوم
إنني ليهلكني القرار فما
وإذا شربت من الربيع
أشدو بشعر آخر
طلبي النهاية في الذي
لا صابر نظري ولا
تودي قلوب العاشقين
لا صوت محزون ولا

السابق، ص 296 - 297.

حدث ذلك لإقبال عندما تقابل مع خيال جوته حين اكتشف ضيق خياله الخاص⁽¹⁾. وإذا أراد أحد تشريح العقل الإنساني فإنه قد يستعين بفوند ووارد وجيمس وستاوت، ولكن الحدس الحقيقي للطبيعة البشرية يمكن الحصول عليه من جوته⁽²⁾.

يعيد جوته وشكسبير كلاهما التفكير في الخلق. والفرق بينهما أن الشاعر الإنجليزي واقعي يفكر في الفرد في حين أن الشاعر الألماني مثالي يفكر في العام. وبالرغم من أن «فاوست» تبدو عليه الفردية إلا أنه تغلب عليها الإنسانية المتفردة⁽³⁾. أخذ جوته في «فاوست» أسطورة عادية وملأها ليس فقط بتجربة القرن التاسع عشر بل بالتجربة الإنسانية كلها. هذا التحول لأسطورة عادية إلى تعبير نسقي للمثل الإنساني الأعلى عمل إلهي، شئ رائع، مثل خلق عالم جميل من عماد مادة هلامية⁽⁴⁾. الأمة الألمانية سعيدة الحظ لأنها أنجبت الشاعر هاينه عندما كان جوته في قمة إبداعه الشعري. فأصبح لديها معينان لا ينضب⁽⁵⁾.

ويجيب على سؤالات هاينه في موضوع الحياة والعمل. فالساحل المسكين ثابت أبد الدهر لا يتغير. والموج صاحب يوجد ويعدم⁽⁶⁾.

ويعبر إقبال عن صورة بعض الشعراء والفلاسفة في ذهنه مترجماً مذاهبهم الشعرية أو الفلسفية بنظم شعري. فبايرون قطرة رشحت من كأسه، شعلة تنمو كورد. بها رسالة حر. ضاق بالإفرنج وبالحضارة الغربية الباردة، وأصبح مغموماً وضائفاً بالأوطان. بنى عالماً من الخيال، وفضاء للشباب. فارق العش كطائر خرج من حلق الشباك ولم يعد. فقد فارق الشاعر وطنه إلى بلاد اليونان لنصرة الثورة

Ibid., p. 2. (1)

Ibid., p. 139. (2)

Wnnd Ward, James, Stouf. (3)

Ibid., p. 71. (4)

Ibid., p.151. (5)

(6) يقول الساحل المسكين: دهرا
حييت ولم يَبْن لي ما أكون
فقال الموج في صخب وسير
وجودي السير والعدم السكون

بها. ومات هناك⁽¹⁾. وبايرون يلهب صدور الشعراء مثل الخضر. ويكتفي إقبال بماء القلب ليبرد⁽²⁾.

والحياة نقد للشعر عند ماثيو أرنولد. وهي أيضاً نقد للأدب⁽³⁾. وهو شاعر مدقق. ومع ذلك يحب إقبال عنصر الغموض والإجمال في شعره لما يعطيه من عمق⁽⁴⁾. أما ملتون فلا يستطيع اللاهوت التطهري عنده جذب خيال هذا العصر. لذلك كان قراؤه قليلين. وفولتير على حق عندما اعتبر نفسه أكثر رواجاً من ملتون لأن لا أحد يقرؤه. ومع ذلك لا يوجد أحد من الشعراء أخذ رسالته بنفس الدرجة من الجدية مثل الشاعر ملتون. ويظل أسلوبه، وهو معمار ضخيم لآلهة مزيفة، فريداً لا يقارن عبر الزمان⁽⁵⁾. أما أوسكار وايلد فروحه فارسية أكثر منها إنجليزية⁽⁶⁾. وإذا كانت المعرفة المطلقة مستحيلة في الفلسفة فإن الشاعر بروننج حول هذه الاستحالة إلى استعمال أخلاقي بحجة عبقرية مؤداها أن لا يقينية المعرفة الإنسانية هو الشرط الضروري للنمو الخلقي طالما أن المعرفة الكاملة سوف تدمر حرية الاختيار الإنساني⁽⁷⁾.

والشهادة للأوطان أيضاً. فقد قتل شاعر مجري شاب في الدفاع عن وطنه. ولم يعثر له على بدن كي تبقى ذكرى أرضية له. ونظم إقبال خماسية تجعل أصل الإنسان في السماء، وليس في الأرض. فهو طين ولكن نفخ فيه من روح الله.

(1) قطرات رشحت من كأسه
ذو رسالات بها حر الجوى
ضاق بالإفرنج بردا طبعه
وخيال كم بنى من ملعب
جلوات للشباب انتقلت
طائر فارق عشا ورأى
السابق، ص331.

(2) منه للخضر لا تلهب صدري
السابق، ص334.

St. Ref., p. 37. (3)

Ibid., p. 106. (4)

Ibid., p. 72. (5)

Ibid., p. 73. (6)

Ibid., p. 157. (7)

المزار في القلب والروح، وليس في المقابر والمدافن⁽¹⁾.

ويمثل غالب الشاعر الفارسي المساهمة الوحيدة تقريباً للهند في الأدب الإسلامي. إذ يفوق خياله وعقله الحدود الضيقة للعقيدة والتوحيد. لم يعترف به أحد حتى الآن⁽²⁾. أما حافظ فقد عبر بكلمات كالجواهر عن الروحانية اللاوعية للبلبل⁽³⁾.

ويذكر إقبال من الشعراء العرب البحتري والمنتبي. إذ يستشهد بحكاية رمزية للبحتري في «ديوان الحماسة» أن ابن خاله سار على حافة الهاوية وتساؤله هل يدفعه من الخلف ليقع في الوادي فيموت دون فجر؟ وهو محق في هذه الطريقة في التعامل معه، وهي طريقة وضیعة لا إنسانية. ويعتبر إقبال نفسه محقاً في هذه الطريقة في التعامل معه بالرغم من أنها طريقة وضیعة لا إنسانية. هكذا قال الشاعر العربي في «ديوان الحماسة». ويمكن اعتبار هذا الشعر نموذجاً للشعر العربي. ولا يوجد شاعر أكثر مباشرة وصراحة ورجولة في الروح منه. فالعربي مرتبط بالواقع ارتباطاً وثيقاً. لا يثيره بريق الألوان. وربما كان المنتبي استثناء. هو شاعر عربي من حيث اللغة، وفارسي من حيث الروح⁽⁴⁾.

2 - الفلاسفة بين الشرق والغرب

ويصور إقبال مذاهب الفلاسفة مثل لوك وكانط وبرجسون، بصرف النظر عن الترتيب الزمني أو التصنيف المذهبي، فلوك فارغ الكأس، يريد ملأ الأكواب من شمس الضحى. فالفلسفة الحسية فارغة من أي مضمون⁽⁵⁾. وكانط فطرة ضاءت

(1) لعروس الرياض غنيت حيناً
وخضبت الشقيق من دمك المسفوك
كم بأه الصباح في المرح يسري
نعمات من الجوى ذبت فيها
وإلى الترب لم تعد بممات
السابق، ص332.

St. Ref., p. 51. (2)

Ibid., p. 152. (3)

Ibid., pp. 81 - 2. (4)

(5) فارغ الكأس أنى الروض شقيق
يملاً الأكواب من شمس الضحى
السابق، ص334.

شرابا. ولها نجم كأس من الأزل. فلسفته عكس لوك، ذات مضمون، وشرابها من رحيق الأزل⁽¹⁾.

كما أعجب بالفلاسفة الأدباء والأدباء الفلاسفة مثل نيتشه. ويأخذ عليه أنه عرف العقل لا القلب، والجسم لا الروح، والعلم لا العشق. لم يعرف التوحيد. آمن عقله دون قلبه. بنى موتنا على أساس مسجد⁽²⁾. ويسميه إقبال مجذوب الفرنج الذي توصل إلى النجاة عن طريق المهدي⁽³⁾. نيتشه مصاب بالجنون. فالإنسان مليء بالتناقضات الغريبة. إذا تزوج عاهرة فإن ذلك يعني أنه لا يرى غضاضة في مثل هذا الارتباط. فإذا تحول سلوكه إلى رواية أو قصة فإنها تصبح لا أخلاقية مدانة نظراً لما يتم قبوله عملاً. فلسفة نيتشه على الأقل في ميدان الأخلاق محاولة عقلية لتبرير سلوك أوربا بالرغم من إدانة هذا النبي للارستقراطية الأوروبية. وقد عرف القليل من الناس هذا الجنون⁽⁴⁾.

وفي الخطاب الشهير من إقبال إلى نيكلسون ينفي إقبال تأثره بنيتشه. فهناك فرق بين «الإنسان الكامل» عند إقبال و«السوبرمان» عند نيتشه. وقد كتب إقبال بحثاً عن «الإنسان الكامل» قبل أن يتعرف على نيتشه، وضمنه رسالته للدكتوراه، «تطور الميتافيزيقا في فارس». ينكر نيتشه البقاء الشخصي الذاتي في حين يثبته إقبال. رأى نيتشه ضرورة ظهور الأمة المثالية ولكن دهريته وإعجابه بالسلطان أضاعا فلسفته⁽⁵⁾. يعجب إقبال بنيتشه في فلسفة الحياة والقوة والإنسان الأعلى التي تعادل فلسفة الذات عنده. ومع ذلك عرف نيتشه العقل دون القلب، وتصور العلم ولم يعيش العشق. لم يعرف التوحيد والبراءة الأصلية، ولكنه عرف الإثم والخطيئة كما هو الحال في المسيحية⁽⁶⁾. ثار من ضعف الناس قلبه فأراد تكميل الخلق. وهي إحدى

(1) فطرة ضاءت شرابا ولها نجم كأس من حريم الأزل السابق، ص 334.

(2) ضرب الكلیم، المدخل، ص ط.

(3) فمجدوب الفرنج على خيال من المهدي قاد إلى النجاة السابق، ص 40.

(4) St. Ref., pp. 42 - 3.

(5) الأسرار والرموز، مقدمة ص 24 - 25، خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص 20.

(6) أي قدر لذا الحكيم ولكن لم يكن أهل نكتة التوحيد =

فتن الغرب، كسر بيت الزجاج⁽¹⁾.

ويجمع إقبال بين شوبنهاور ونيتشه في نسق واحد. فشوبنهاور متشاؤم. طار العصفور من عشه فوق الروض فأصابته شوكة. فلعن الروض والزمان. ورأى سمة الزهور جوراً وظهور البراعم خداعاً. شيدت الدار على اعوجاج. وزاد النواح. وتحول الدمع إلى قطرات من دماء. لا كسب بل خسارة⁽²⁾.

قرأ إقبال عن نظرية وحدة الوجود في الفلسفة الغربية، الألمانية والغربية، ولكنه أفاق منها وأسس أسرار النفس، إثبات الذات، ونفي رموزها من القرآن⁽³⁾.
قرأ إقبال التراث القديم والتراث الغربي، ولكن أفكاره مستمدة من التراث القديم. فالعربي أو المسلم ذو ثقافتين. ينهل من منبعين. والغربي لأنه لا يعلم إلا ثقافته سرعان ما يحكم على المفكر اللاعربي بالأثر الغربي إذا وجد تشابهاً بين فكره وفكر أي مفكر عربي. لذلك ساد منهج الأثر والتأثر⁽⁴⁾. أفكار إقبال عن الذاتية تستمد من التصوف الإسلامي بالإضافة إلى تجاربه ومشاهداته. قرأ القديم في إطار

سر معنى ب (لا إله) بعيد
وحوى الشمس بالخيال المديد
لذة الإثم نصب طرف حديد

فبرى الخلق المكمل له
كان في دار الزجاجي ضربه

فأصابته شوكة من زهور
بشبور لنفسه والطيور
وظلم البرعوم خدع خبير
كل صبح بها إلى ديجور
من دماء، بدمع عين غزير
ينزع الشوك من جناح الكسير
مزق الورد صدره للعبير
واثلف الشوك تغد كلك روضاً

= ليس إلا لذي البصيرة يبدو
أرسل الفكر أسهما في سماء
طاهر الطين في الترهيب لكن
ضرب الكليم، ص 59.

(1) ثار من ضعف الأناسي قلبه
فتنة في الغرب من ذي جنون
رسالة الشرق، ص 330.

(2) طار من عشه يسير بروض
لعن الروض والزمان ونادى
ورأى وسمة الشقائق جوراً
قال ذي الدار شيدت باعوجاج
نواح حتى تقاطرت نغمات
وشجا الهدهد النواح فوافى
قال: أخرج من كل خسرك ربحا
واجعل الجرح بلسما فسترضى

السابق، ص 329 - 330.

(3) الأسرار والرموز، ص 27/22.

(4) التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة، 1980،

ص 102 - 110.

جديد. ومن المؤسف أن يجهل الغرب الإسلام. ويظن أن كل إبداع فلسفي إسلامي إنما هو أثر من آثاره حتى يبقى الإبداع وحده قاصراً على الغرب، ودونه من الناقلين.

والمسؤول عن وحدة الوجود هو الفيلسوف الهولندي الإسرائيلي ويعني اسبينوزا، ولكن الغرب سرعان ما تخلى عنها إلى إثبات الذات خاصة الفلاسفة الألمان والإنجليز. اتجه الغرب نحو العمل. والحقيقة أن هذا سوء تأويل للتاريخ. فقد بدأ الغرب بإثبات الذات عند ديكرت في «الكوجيتو» الشهير. ونقله اسبينوزا تلميذ ديكرت من مستوى الفرد إلى مستوى الوجود. وظل إثبات الذات «الأنا أفكر» عند كانط، ولكنه تحول أيضاً إلى مطلق عند هيغل، ووحدة عند شبلنج. بل إن نظرية العلم عند فشته تشبه في دعواها الأولى إثبات الذات «الأنا تضع نفسها حين تقاوم». ثم في دعواها الثانية تتحول إلى اللأنا أي حدود الأنا، نهاية المجال الحيوي للأنا. وفي الثالثة تتحول الأنا واللأنا إلى الأنا المطلق. فالذات ليست جوهرًا ثابتًا، وإثباتها أحد لحظاتها⁽¹⁾. وينقد إقبال اسبينوزا بأنه فيلسوف عاقل. يبصر الحياة، ولكن الحياة ليست عقلاً بل هي «نور وجلوة تستحب»⁽²⁾. هي حدس وزمان وديمومة. وهو نفس قول برجسون بقوله «لكل إنسان فلسفتان، فلسفته الخاصة وفلسفة اسبينوزا» أي فلسفة حياة وفلسفة خلود.

وفلسفة هيغل نموذج لإنكار الذات، وجعلها من صنع الخيال لصالح الوجود العام والمطلق⁽³⁾. كما وقع شراح هيغل الإنجليز المحدثين في هذا الوهم، نفي الذات⁽⁴⁾. مذهب هيغل الفلسفي ملحمية شعرية بالثر⁽⁵⁾.

وتمثل فلسفة برادلي فلسفة نفي الذات. فكل مركز للشعور محدود. وكل

(1) الأسرار والرموز، مقدمة إقبال، ص 14. وأيضاً فشته فيلسوف المقاومة، نظرية العلم، ص 121 - 230.

(2) يبصر العاقل الحياة وليست غير نور وجلوة تُستحب ضرب الكلیم، ص 48.

(3) أصداف هيغل من الخوالي طُلُسمه جميعه خيال السابق، ص 10.

(4) الأسرار والرموز، خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص 16.

St. Ref., p. 11.

(5)

ذات مفردة خداع باطل. والحقيقة أن هذا المركز بؤرة الكائنات ومنبعها. وهي واقع لا خيال، وحقيقة لا وهم. الحياة كلها فردية. وليست للحياة الكلية وجود خارجي. بل تتجلى في شخص أو فرد. والخالق فرد أوحد كما سماه شترنر «الوحيد» أو «الأوحد» أو «الفرد» أو «الفريد».

ولا يوجد أثر خارجي في مفهوم الذاتية عند إقبال بالرغم من التشابه بين الذات و«الأنا أفكر»، «الكوجيتو» عند ديكارت، والذات عند فشته، والديمومة عند برجسون. وإقبال يحيل إليهم دون حرج.

فلسفة برجسون نموذج لإثبات الذات والزمان⁽¹⁾. ويشرح إقبال «رسالة برجسون» بأن الحياة هي التي تبوح بالأسرار. والفوضى فيها شرط المعرفة. أما العقل فهو نظر عريف يمر الإنسان به كالغريب. يقدم أوهاماً باسم العقل الذي لا ينير إلا بالقلب⁽²⁾. لا يحتاج برجسون إلى خمر وكأس من الأزل لأن ناره تصعد من حرقه القلب⁽³⁾. وكما يبحث إقبال موضوع المادة في حرية الذات، يعرض موضوع الزمان في خلودها. ويلتقي مع برجسون في أن الزمان ليس خطأ مستقيماً إلى ما لا نهاية بل هو توتر خالص لا طول له، ولا يمكن قياسه⁽⁴⁾.

وضع الغرب فلسفة الذات منذ كوجيتو ديكارت، والأنا أفكر عند كانط، والأنا الحر عند فشته. ولم يعرف إقبال هوسرل ليقرر أن هذه الفلسفة قد اكتملت في الكوجيتو عند هوسرل، وتحقق حلم المثالية الترتسندنتالية في الظاهريات. إلا أن الغرب نسي الذات وأعلن موتها بإعلان نيتشه «موت الإله»، وإعلان بارت

(1) لو لم تقول ذاتك النسيانا
لم تحمِلُنْ زُئْرَ بِرْجَسَانَا
ضرب الكلیم، ص 10.

(2) إذا ما شئت أن تحظى بسر
فلا تبعد بنفسك عن لظاها
ولا تصحب سوى نظر عريف
وما صوّرتَه وهم فأعدد
رسالة الشرق، ص 333.

(3) ما له من أزل خمر وكأس
ناره من حرقه القلب الشقيق
السابق، ص 334.

(4) الأسرار والرموز، خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون، ص 18.

«موت الإنسان» والانتهاه إلى العدمية المطلقة⁽¹⁾. ولا أحد يستطيع فهم الأمر الجازم عند كانط فهماً كاملاً دون دراسة التاريخ السياسي للشعب الألماني. فأحكام تصور كانط للواجب يجد أصوله فيه⁽²⁾.

ويعرض إقبال الفلسفة الإسلامية من خلال الفلسفة الغربية. وإذا أراد الإنجليز فهم نظرية الإنسان الكامل فعليهم بقراءة (صمويل) الكسندر، ذلك الفيلسوف الاسترالي الذي تعلم في إكسفورد وكمبرج والذي تُعد فلسفته مدخلاً لأسرار الذات، بالإضافة إلى آراء دكنسن وهابته⁽³⁾.

اعترض دكنسن على فلسفة إقبال بالرغم من عالميتها وشمولها على أنها محلية تدور في دائرة محدودة. والحقيقة أن إقبال يعرض لفكرة شاملة ثم يبرهن عليها من خلال ثقافة خاصة. واتهم دكنسن إقبال بأنه متعصب لدينه وقومه ووطنه، في حين أن الإسلام دين لا لقوم أو وطن بل للبشرية جمعاء. تجمعهم الأخوة الإنسانية دون اعتبار للفوارق العرقية واللغوية. ويكرر دكنسن الأفكار النمطية السابقة. وهي أن الإسلام انتشر بالسيف. وقام على إراقة الدماء. قد يكون هناك خطأ هنا أو هناك من بعض علماء المسلمين وأمرائهم، ولكن الإسلام دين عالمي. لا يفرق بين الشعوب. سهل في فهمه. بسيط في ممارسته. يقتنع به الإنسان ويقنع به. هو دين العقل ودين الفطرة ودين الحرية.

وفي حوار بين أوجست كومت وعامل، يعرض إقبال فلسفة كومت الوضعية وبداية الاشتراكية السان سيمونية. فعند كومت كل الناس أعضاء في جماعة واحدة كالأوراق والغصون لشجرة كبيرة. الرأس إلى أعلى والقدمان إلى أسفل وضع طبيعي. الرأس تأمر واليدان تعملان. ولكل عمله طبقاً لقانون تقسيم العمل. الورد والشوك كلاهما يكونان الحديقة. وهو تصور في ظاهره اشتراكي وفي جوهره رأسمالي. يعطي القمة أكثر مما يعطي القاعدة. ويثور العامل على الفيلسوف ويتهمه بالغش والخداع بإيهامه بأنه لا يستطيع الخروج من هذه الحلقة الجهنمية حتى ولو

(1) من ميمات الذات في الغرب ظلام
ضرب الكلم، ص56.

(2) St. Ref., p. 96.

(3) الأسرار والرموز، المقدمة، ص25.

كانت من ذهب لأنها تعلم الإنسان الخضوع للأمر الواقع باسم القدر. والعامل قادر بمعوله شق القنوات، واستخلاص اللبن والعسل من أشياء رفيعة. يعطي رجل الأعمال أكثر مما يعطي العامل، ولا يمكن خداع الخضر، سر الحقيقة وكاشفها. مهمة الرأسمالي متع الحياة بمص دماء العمال. هو لص بطبعه. وجريمته لا تغتفر. وبالرغم من حكمة الفيلسوف إلا أنه كان ضحية الوهم والخداع⁽¹⁾.

وفي «حوار بين لينين والقيصر فيلهلم» يقول لينين إنه منذ مدة طويلة حُشر الفقير بين الصخور كحبة القمح. خدعه القياصرة، ووقع في شبك الكنيسة. وفي النهاية مزق العبد الجائع في آخر قطرة دمع ثياب سيده. واستشهد في ثوب أحمر من دمائه. لقد أحرقت شرارة الديمقراطية أرواب رجال الكنيسة والملوك. ويتساءل القيصر: لماذا يقع اللوم على الأوثان، لطرقها المغرية؟ إنها طبيعة البرهامي في العبادة. يستمر في وضع أوثان جديدة لأنه يحمل الأوثان القديمة. أما قاطع الطريق فإنه يسرق ابن السبيل. وإذا أتت الدهماء في الحكم فإنها تتسلط أيضاً. إذ لا ينتهي النهم من قلوب البشر. فالنار يستعر لهيبتها. وقوة السحر فعالة، بصرف النظر عن الدور الذي تقوم به. وسحر شيرين ليس للبيع على طارقة الطارق. فخسرو وفرهاد موجودان باستمرار⁽²⁾.

وقد عقدت جمعية في العالم الآخر من تولستوي وكارل ماركس وهيغل ومزدك وكوخان للحوار. وكل حديث تصوير لفلسفة المتحدث. ففي رأي تولستوي أن محاربي أهريمان كانوا تجار حروب. يأكلون بحد السيف، باحثين عن رغيف من الخبز. الشر خير. يأكل البقول. الدولة والكنائس والأوطان مملوءة بالمخدرات. يشترون العبيد بأرواحهم. وواضح هنا النزعة الإنسانية عند تولستوي. وبسبب الأنانية والعقل، يعاني العامل من الجوع واليأس. أما كارل ماركس فإن الإنسان بالرغم من حكمته مازال غير واع. وشرعت الرأسمالية لقتل الإنسان لأخيه الإنسان. وواضح هنا أيضاً النزعة الإنسانية عند ماركس. أما هيغل فإنه يرى أن الواقع متشابه، الصحراء والرياض في آن واحد، الحلو والمر. ولفهم الواقع يتم تذوق الجانيين. الواقع تناقض، جدل بين الموضوع ونقيضه، صراع بين أصحاب رؤوس

A Message from the East, pp. 110 - 3.

(1)

Ibid., p. 114 - 5.

(2)

الأموال والعمال، بين السادة والعبيد. ونبت مزدك في أرض إيران من إمبراطوريات القياصرة، ووسط الملوك والأغنياء. وقبله حطم إبراهيم الأصنام. وألقاه نمرود في النار. ذهب عصر برويز. فعلى ضحايا الطغيان الاستيقاظ ومقاومته، واستعادة الحقوق المسلوقة. ومزدك أول اشتراكي في تاريخ إيران. أما كوخان حبيب شيرين الذي شق قناة في الجبل بيد واحدة كدليل على حبه بالرغم من وداعتها الظاهرة إلا أنها محاربة جسورة. لسانها عذب كلسان المسيح. وقلبها مثل قلب جنكيز خان. هناك سباق بين السماء والأرض. وعلى الإنسان أن يسرع الخطى⁽¹⁾.

3 - الصور المتبادلة بين الشرق والغرب

الغرب مجرد مرآة للذات، تعكس صورتها فيه، لترى مدى التقابل إن لم يكن التعارض بل التناقض بين مرآة الآخر وصورة الأنا. شتاء الغرب يعكس دفء الذات. ولندن ماخور لمن يريد، بما فيها من حانات، حيث كان الشاعر يخرج ليؤدي صلاة الفجر، ويقابل المخمور الهلع. كان لهيبه من آلام مجتمعه يحملها على ظهره أينما سار. تنكره الناس لأنه يحمل هم الشرق معه. ولا يغرف من لذة الحياة كما يفعلون. وهو الوقت الذي كان حزب العمال سيعطي العمال حقوقهم. صحيح أن الديمقراطية قضت على عرش الملوك، ولكن حزب المحافظين اتبع سياسة استعمارية خالصة. كما فصل الغرب بين الدين والدولة وأصبحت السياسة جنكيزية جشعة. تقوم على الغزو والمطامع. وقارن الشاعر دلهي بروما. فتألم وتوجع. واحتار بين الحضارتين، ولكل منهما سحرها⁽²⁾.

A Message from the East, pp. 105 - 8.

(1)

وكان طرف الهوى من ميعة الولع
بما تضم من الحانات والبيع
على الصقيع بمرأى الفاجر الهلع
وتدعي أن هم الشرق جاء معي
ما تدعيه يد العمال من شرع
عرش الملوك بما أبدته من ورع
إن السياسة جنكيزية الجشع
فكنت بينهما في ملتقى وجعي
رباه عفوك قد أبعدت منتجعي

كان الشتاء كمثل السيف حدته
أيام لندن ماخور لطالبها
أيام كنت صلاة الفجر أبعثها
وكيف كانت هناك الناس تنكرني
أيام آلت مقاليد الأمور إلى
يا لعبة من ديمقراطية طُلبت
كانت حكاية فصل الدين آخرها
ذكرت دلهي بروما حين طفت بها
كلا الدروس لها سحر وأبهة

جناح جيريل، ص 438.

يظهر التقابل بين الغرب وحضارة الشرق كتقابل بين الحضارة الروحية والحضارة المادية. ففي لقاء بين إقبال وموسوليني، يرى موسوليني أن من ملك الحديد فقد ملك كل شيء، في حين أن عند إقبال من كان حديداً ملك كل شيء. فالقوم الحديد الذي يصاغ منه الشباب وهم لا يحتاجون إلى سيوف. والذات الحرة قادرة على الوصول إلى الأفلاك التي تطيع قانون الطبيعة الضروري. الحياة مجرد سعي، موج صاخب لا شأن له بصنع اللائي. النسر يعلو ولا يهبط. والإنسان ذو العزيمة لا يناله التراب⁽¹⁾. تشع الشمس في كل مكان، ولكن نورها في الغرب مخلوط بدخان المصانع وقارها. في الشرق القلب بصير، ولكنه متوارٍ عن نور الشمس⁽²⁾. الشرق نائم، والغرب يركب المخاطر، ولا ترهبه الشرور⁽³⁾.

رقص الغرب بالجسم، ورقص الكليم بالروح. الرقص الأول هم بلا هدف، والرقص الثاني سلطان وفقر أي قدرة على استقلال الوعي⁽⁴⁾. تشرق الشمس على الجميع، ولكنها لم توقظ الشرق، بل أيقظت الغرب. وآخر شعاع ألا يفقد إقبال الأمل، ويأس من نهضة الشرق⁽⁵⁾.

الحضارة الغربية حضارة مادية، لها بدن، وليس لها روح. لها عقل، وليس

- | | |
|---|--|
| (1) من حديد يُصاغ فهم شباب وهي قهر ذهابها والإياب واللائي يصوغها الوهاب يا أبا العزم لا ينالك الثواب إلى الشمس تبغي لديها قرارا دخان المصانع يكسوه قارا كعالم غيب بصمت توارى إلى نور صدرك أوى الحيارى | (1) ما بهم حاجة إلى السيف قوم أين منك الأفلاك؟ إنك حر ما اصطخاب الأمواج لذة سعي ليس يهوى الشاهين من طول خفق تداعى الأشعة من كل صوب وصاحت: تعذر في الغرب نور وفي الشرق لب بصير ولكن أنور العوالم! لا تهجرينا ضرب الكليم، ص77. |
| (2) وفي الغرب لا ترهين الشرور | (2) فلا يحزنك من الشرق نوم السابق، ص78. |
| (3) إن رقص الروح من ضرب الكليم وبذاك الرقص هم لا يريم | (3) دع لأهل الغرب رقصا بجسوم فبهذا الرقص سلطان وفقر السابق، ص97. |
| (4) كنظرة حوراء تغزو الضمير ترى زئبقا في ضياء يمور أرى ذرة كشموس تنير | (4) شعاع جريء له نظرة ولا يستقر على حالة يقول: أضيء على الشرق حتى |

لها قلب⁽¹⁾. وماذا عن الرومانسيين والصوفية النصاري؟ ارتبط الإفرنج فيما بينهم بروح العصبية. فلو تنصر البرهمي لا تتغير نظرة الإنكليز إليه. بل إن الإنكليز لو أسلموا لما قبلهم المجتمع البريطاني. فالغرب يقوم على عنصرية دينة وطائفية لم تمحها العقلانية أو التنوير أو الرومانسية أو التصوف أو الفن أو العلم أو الفكر. الثقافة الإفرنجية تقوم على فساد القلب والنظر. حضارتها خالية من العفة. فإذا ما خلت الروح من الأخلاق، طهارة القلب وجمال السريرة، يغيب جمال الوجدان ولطف الذوق و صواب الفكر⁽²⁾. قد يعطي الغرب نفساً، ولكن الإسلام هو الذي يعطي الإيمان⁽³⁾.

وبإدراك يتجاوز البصر إلى البصيرة، والألوان إلى الشمس والقمر، يرى المؤمن أنه يستطيع أن يتجاوز منزلة الغرب. فهذه المنزلة ليست نهاية الطريق. الغرب حانة. السكر فيها ليس هو نهاية علم العصر. إذا شرب منها المسلم مات، إن لم يشعله بشرر التوحيد⁽⁴⁾. وإن أراد الغرب للإسلام لفظاً آخر فهو «الفقر

- | | | |
|---|---|-----|
| فأوقف نوامها للسنشور
لدى موثن والزمان يسير | وأجلو عن الهند هذا الظلام
ينام البرهمن في سدة
السابق، ص 77 - 78. | = |
| فأخوة الإفرنج بالعصبات
للإنكليز إليه نظرة عات
بالمسلم المنكود من إعنات | هذي الحضارة ما تدين قلبها
فلئن تنصر برهمي لم يزل
ولو أنهم قد أسلموا لم يرفقوا
السابق، المدخل، ص ل/42. | (1) |
| فساد القلب والنظر
خلت من عفة الوطر
جمال الصفو والطهر
ولطف الذوق والفكر | أرى ثقيف إفرنج
فروح حضارة لهم
إذا ما الروح جانبها
فأين جمال وجدان
السابق، ص 50. | (2) |
| أنت يا مؤمن البشير النذير؟ | قد سباك الفرنج نفسا ولكن
السابق، ص 123. | (3) |
| بل مفتن عن ضياء الشمس والقمر
تقدمن، ليس هذا منتهي النصر
ما السكر فيها بعلم العصر بالنكر
إن لم يكن فيك للتوحيد من شر
في شملة لست ذا تاج ولا سرر؟ | ليس الذي يدرك الألوان بالبصير
يا قومنا قد شأى الإفرنج منزلة
وحانة الغرب للصادي مفتحة
لك الممات بهذا السكر مستتر
هل يسمعن بنو الحانات موعظتي | (4) |

الغيور» أي الزهد الإيجابي، قوة الروح في العالم⁽¹⁾.

يضع إقبال تقابلاً بين الأنا والآخر، بين الإسلام والغرب، وهو تقابل الإيمان والكفر. فقد قابل إقبال الخضر الذي حذره من البحث عن الترياق من سم الإفرنج. الكافر حيران له الآفاق تيه. والمؤمن كون تاهت الآفاق فيه⁽²⁾. ومن مآسي التعليم ثنائيته بين أفكار الغرب الملحد وفوضى الشرق المؤمن⁽³⁾. لو كان في ضمير الغرب يسكن «لا إله» لكان تعليمه في أمان⁽⁴⁾. حانة الشرق بها صخرة تجلد الشعور، وحانة الغرب بها خمر سوداء تنيم الشعور⁽⁵⁾.

الإسكندر رمز الحضارة الغربية، والخضر رمز الحضارة الإسلامية. الأول القوة والفتح والغزو، والثاني الروح والباطن والتأويل⁽⁶⁾. العقل من الغرب، والعشق من الشرق. هناك تمايز بين الحضارتين. وتقليد أحدهما للآخر انحراف حتى ولو أن كلاهما أكمل الآخر. الإكمال ليس بالتقليد بل التحديث والتجديد

- | | | |
|-----|-------------------------------|------------------------------|
| (1) | إن قلبى الغرب من الإسلام لفظا | فله اسم آخر: الفقر الغيور |
| | السابق، ص19. | |
| (2) | أمس عند البحر قال | الخضر لي قولا أعياه |
| | تبتغي الترياق من سم | فرنج تتقييه؟ |
| | فخذن قولا سديدا | هو بالسيف شبيه |
| | ذا مضاء وضياء | خبرة الصيقل فيه |
| | إنما الكافر حيران | له الآفاق تيه |
| | وأرى المؤمن كونا | تاهت الآفاق فيه |
| | السابق، ص28. | |
| (3) | أطاحت بعشق الغرب أفكار ملحد | وعبد عقل الشرق فوضى من الفكر |
| | السابق، ص57. | |
| (4) | إن تك «لا إله» في ضمير | فالغرب من تعليمه في أمان |
| | السابق، ص61. | |
| (5) | والى اليوم حانة الشرق فيها | خمرة للشعور منها جلاء |
| | يشس المبصرون من أمم | الغرب ففيها بواطن سوداء |
| | السابق، ص81. | |
| (6) | ما جاهد يُنبط ماء الحجر | لا يهتدي بالخضر كالإسكندر |
| | كنظر العين صفي مشرق | لا بلبل وهو غريق نهر |
| | مصراعه مكتمل منفرد | ليس عليه مئة للأشطر |
| | رسالة الشرق، ص300. | |

والتطوير⁽¹⁾. بل إن الإفرنج هدموا ما بنوه، وقضوا على ما أنتجه العقل⁽²⁾. كما ولّى لحن الإسكندر ودارا أي حكم القوي. وبقي يوسف سجيناً عزيزاً⁽³⁾.

الإسكندر والخضر نموذجان للذاتية، الإسكندر ذاتية الغرب، والخضر ذاتية الشرق. الأول نموذج القوة والحرب والفتح، والثاني نموذج الروح والإيمان والحياة الباطنية. كلاهما نموذج الكد والكفاح. وهما نموذجا أبوللو وديونيزيوس عند نيتشه⁽⁴⁾. ومصاحبة الإسكندر الخضر مثل مصاحبة الظاهر للباطن⁽⁵⁾. فعند الخضر النوم موتة صغرى، والموت موتة كبرى⁽⁶⁾. وما اعتبره الغرب سقط المتاع مثل الدين والإيمان هو رأس مال الأمة⁽⁷⁾.

صورة الغرب عند إقبال أنه حانة أو «متجر» أو «مدفن». ففي رباعية «حانة الإفرنج»، الحانة مكان الخمر. والخمر تربي الخمار، وتحدد رؤيته. أما الساقى فإنه يبحث عن شراب أشمل، وعشقه أعم. يشعل ناراً ليس فيها حيارى أو سكارى⁽⁸⁾.

- | | | |
|-----|---------------------------|-----------------------|
| (1) | أبلغن يا ربح عني | عالم الإفرنج جهرا |
| | السابق، ص 325. | |
| (2) | فنه قد هدم الأفرنج | ج والنبقع أثارا |
| | السابق، ص 326. | |
| (3) | لحن إسكندر ولّى | وتقصّى لحن دارا |
| | وأنى فرهاد يبغني | ملك برويز جهارا |
| | يوسف فارق سجننا | وعزيز الملك صارا |
| | وخرافات زليخا | ورقاها توارى |
| | السابق، ص 328 | |
| (4) | أهاب إسكندر بالخضر: أقبل | وعان الكد في بحر وبر |
| | وموتن في الوغى تزدد حياة | إلام تحيد عن كر وفر؟ |
| | السابق، ص 265. | |
| (5) | لقد أفصح الخضر في الظلمات | على حين صاحبه إسكندر |
| | عسير على الناس فهم الممات | وفهم الحياة لهم أعسر |
| | السابق، ص 339. | |
| (6) | النوم موت خفيف | والموت نوم ثقيل |
| | السابق، ص 340. | |
| (7) | وما عده الغرب سقط المتاع | بمذهبنا رأس مال الظفر |
| | جناح جبريل، ص 443. | |
| (8) | عهد حانات فرنج | ذكرني يا خليلي |

وفي نظم «حانات الفرنج» قال خليع أنها خالية من الوهن. وهي ليست كنيسة بها ترانيم للسمع. بها كل رذائل البشر، وكل مظاهر العصيان. توزن فيها الأعمال بأوزان غير ما اصطنعها الناس. وهو ميزان الدين. القبيح حسن، والحسن قبيح. الحياة رياء، والصدق خداع. الصدق والوقار حجاب يُحرم رفعه. قانون الحان التمويه والتزييف. هذا هو سر الحياة والطريق إلى الكسب⁽¹⁾. وبالرغم من أن كثيراً من الآراء والأفكار في أوروبا حرة إلا أنها تقيد عقل الآخرين. قد تسمم عقولهم، وتحيل خصبهم إلى أرض قاحلة⁽²⁾.

وفي تقابل رمزي بين مكة وجنوباً يرى إقبال أن الإسلام وحد بين الشعوب في أممية شاملة لا تقوم على العرق أو القوم كما هو الحال في الوحدة الأوربية⁽³⁾. لذلك أخطأ رينان حين وضع تعارضاً بين الإسلام والعلم أي بين الإسلام والغرب.

عين خمّار جميل
ت لشراب الشمول
عشقها كلّ سبيل
نار آهات الحباري
فيه ترنيح السكارى

راعني قول ماجن ذي خلاعة
في دمي للغناء تبغي سماعه
كل ما ذمه البرية طاعة
غير ما حسن الأنام اصطناعه
رث ميزانهم فحاذر متاعه
كل حسن يضره فهو شناعة
وبها الصدق قولة خداعه
يحرم الساعي الغرير ارتفاعه
بنضار وزيفن كل ساعة
تربحن في يدك كل بضاعة

رَبَّتِ الخُمْرة فيها
نظرة الساقى رسالا
عقلها الخاطر غاز
جوهرها أشعلته
ليس فيها من خليع

رسالة الشرق، ص333.

(1) أمس في حانة الفرنجة وهنا
قال: ليست كنيسة تغشاها
إنها حانة الفرنج وفيها
قد وزنا الأعمال فيها بوزن
لا تزن وزن أمة ذات دين
كل قبيح يزيد جاهك، حسن
إن تفكرت فالحياة رياء
إنما الصدق والوفاء حجاب
شيخنا قال: مؤهّن كل صُفر
ذاك سر الحياه لا تفشينه

السابق، ص335.

Persian Psalms, p. 107.

وحدة الناس حجبت عن عيان
حكمة الغرب فرقة الناس والإسلام فيه توحد العمران
قد وعاه اللبيب في كل آن
خبريني اليقين: هل عصابة الأقبام خير أو عصابة الإنسان؟

كم حديث عن الشعوب سمعنا
ومقال من مكة لجنوبوا
خبريني اليقين: هل عصابة الأقبام خير أو عصابة الإنسان؟

ضرب الكلم، ص39.

ووقع في عقيدة التفرقة العنصرية. والإسلام يوحد بين البشر جميعاً⁽¹⁾.

صورة المسلمين في مرآة أوروبا المتقدمة صورة متخلفة⁽²⁾. المسلمون عبيد والأوروبيون أحرار يسودون العالم. المسلمون ثبتوا في المكان. داخل محبس من صنعهم، في حين أن الغرب تقدم، وإشراقه مستمر. الشيخ قابع في حرم، والحبر في كنيسته، دون أي قول أو فكر جديد. السياسة فاسدة، والشعر مفلس، والخيال مغلق. يحتاج المسلمون إلى مهدي يزلزل عالم الأفكار دون أن ينحرف بالأمة عن الطريق القويم.

التبادل بين الشرق والغرب على النقيض. فقد أهدت الشام إلى الغرب نبياً، عفيفاً ومواسياً وصبوراً. في حين أهدى الغرب إلى الشام النساء والخمور والقمار⁽³⁾. وإذا كان الضعيف يشكو من الزمان، والحر باسم الحراب، فالخشية أن ينخدع الشاب الذي لا يحسن الطعان والحراب بالحضارة الغربية، وما تقدمه من حلوى يلهو بها الأطفال⁽⁴⁾. بل إن نظم التعليم في الغرب تخدع. ألم تَقُم على القيم المادية؟ فهو تعليم ميت. لا يخرج من حرارة الصدر. وحرارة القلب لا تأتي إلا بالإيمان⁽⁵⁾.

(1) الأسرار والرموز، المقدمة، ص 25 - 26.

(2) كلُّ ثوى في مجلس من صنمه
والشيخ في حرم وحبر كنيسة
أهل السياسة في شرك قديمهم
من لي بمهدي له نظر يزلزل

السابق، المقدمة، ص 6/29.

(3) أهدت الشام إلى الغرب نبياً
ومن الغرب إلى الشام هدايا
ضرب الكليم، ص 107.

(4) يشكو الضعيف من الزمان صروفه
من صوت طير الصبح يدعش ذا الفتى
حذري لأنك في طباع طفولة
السابق، ص 121.

(5) خدع العين فتى مدرسة
وهو ميت ومن الغرب اجتدى
إن ترد تربية القلب فمن
السابق، ص 120.

فبدت فيه حياة الأنس
ما سرى في صدره من نفس
نظر المؤمن شزرا فاقبس

والداعية إلى الإسلام في بلاد الغرب عليه أن يكون واعياً بخصائص الاثنين، جوهر الإسلام وروح الحضارة الغربية وكيف يصل الأول إلى الثاني. جوهر الإسلام يتجدد باستمرار طبقاً لظروف العصر. وحضارة الغرب هي حضارة نمروذ الذي وضع إبراهيم في النار. للغرب أصنامة التي يحطمها التوحيد. فالإصلاح هو الطريق بين إسلام الحجاب ومدنية الغرب. كلاهما في حاجة إلى تغيير. تغيير الحجاز بسلفي، والترك بالشوق، ولخراسان والعراق وللعجم الألمان. لقد انتظر المسلمون عازفاً فجاءهم الأفغاني بلحن جديد فأتى بحديث العشق وسط الهوس ونثر در الكلام بالصحراء⁽¹⁾.

ويقارن الشاعر بين الشرق والغرب. ويزور الغرب ومصر والهند⁽²⁾. ويسمع أحكام الأفلاك عن الحضارتين، وهو يسبح في فلك المريخ أقرب الكواكب إلى الأرض. لقد سبق الغرب الأمة في كل فن. قهروا المكان والزمان بعلوم الفضاء. وتغلبوا على حدود العقل⁽³⁾. ونموذج الحضارة الغربية مدينة مرغدين، أبنية في السماء، سكان حسنوا الوجوه. كل شيء موفور. العلوم والفنون مزدهرة. إنما عيبها صنم الدنيا. فليبتعد عن الحرم. ومع ذلك للفلاح مصباح ينيره. لا يخشى من غارة المالك عليه. آمناً على زرعه لا يشاركه فيه أحد. لا يوجد جندي يمص الدماء. ليس في المدينة قلم، فرية للخادعين. ليس في أسواقها عاطلون. ولا تسمع الأذن

جوهرة الإسلام رهن تجديد
كالشمس تغشى الورى بتجريد
وزعت أصنامهم بتوحيد
وبت في الترك شوق معمود
وردة للعجم شوق تغريد
شجا جمال بلحن مفؤود
نشرت در الكلام بالبيد

أرض مصر جبتها في الهند كنت

سبقونا كلنا في كل فن
في علوم للفضا كل شأنا
الخفايا في الفضاء شاهدوا

(1) الدهر عاد بنار نمروذ
هلم نلق الحجاب عن حرق
أمللت حور الفرنج من حكم
فقل لأهل الحجاز عن سلمى
على خراسان والعراق فعج
كم انتظرنا لعازف ولكم
جعلت عشقا حديث ذي هوس

رسالة الشرق، ص 301.

(2) فارسا شاهدتها والغرب زرت

جاويد نامه، ص 238.

(3) وكأهل الغرب فيه من سكن
قهروا حتى الزمان والمكانا
إن وعرا في العقول مهدوا

السابق، ص 235 - 236.

فيها سؤال الشحاذين⁽¹⁾. ضمير الغرب ضمير التجار، وضمير الشرق ضمير الرهبان⁽²⁾. أما علماء الشرق فقد التحوا بالثلج أي أن لحيتهم مزيفة، مدعين أنهم منشغلون بالعلم، صباح مساء. يسبحون في الفكر كالغرب، ويلبسون المسوح مثل رهبانه⁽³⁾. لقد وصل الشرق لأرض الغرب. ثم خرج منها يبحث عن التجلي. والدليل أنه مازال موجوداً⁽⁴⁾.

لقد أعطي الشرق ملوكاً عظاماً من الأفغان والفرس والهنود مثل نادر رمز وحدة المسلمين، وأبدالي الذي نهض بالأفغان. أقام أبدالي ملكاً عظيماً فوق الجبال وأضرم النار فيها ولم يحترق! فأين بطل الشرق الآن؟ أين النور من نور الكواكب يواكب عيش الناس؟⁽⁵⁾. لقد كشف سر العاشق رجاء بالروح بشوق دافق. أبلى بلاء حسناً في بدر وحنين. وبفقره انجذب إلى الحسين. رفض قصر السلطان

- (1) البناء في السماء كان طولاً
إنما الدينار كان كالصنم
إن للفلاح مصباحاً أناراً
أمنأ يروي نباتاً يملكه
هاهنا ما لاح جندي لرائي
مرغدين ليس فيها من قلم
ليس في السوق نداء من تبطل
لا مكان هاهنا للسائلينا
- السابق، ص 240.
- (2) أرمغان حجاز، ص 542.
- (3) ذلك شيخ العلم بالثلج التحي
كشيوخ الغرب في الفكر السبوح
جاويد نامه، ص 237.
- (4) أرضكم هذي إليها قد وصلنا
التجلي نحن عنه الباحثونا
السابق، ص 238.
- (5) وملوك الشرق في حفل كعقد
نادر التحرير رمز الاتحاد
ثم أبدالي وقد كان البطل
السابق، ص 299.
- وللجبال عاد واختار المقاما
أحرقته؟ أم شجاع لا يبالي؟
السابق، ص 304.

وحافظ على ملك الهند⁽¹⁾. والجندي الشرقي هو الذي يحمي الشرق⁽²⁾. كل قول له كان فعلاً. ظل مستيقظاً بالرغم من قوم الشرق⁽³⁾.

يتجلى المرء في الثبات الذي يعطي الحياة للشعوب والأفراد. ونال ذلك بكمال التوحيد. وحقق الجمال والجلال⁽⁴⁾. وإذا التوحيد أسكر شعباً فإنه يرفعه إلى الذرى. وروح الشعب لا تحل في الأجساد بل في الأرواح⁽⁵⁾.

الجمع بين روحانية الشرق ومادية الغرب ممكن عند حلیم باشا المصلح التركي، بين القلب والعقل، قلب الشرق وعقل الغرب. فالقلب طريق العقل، والعشق سبيل الفكر. في الغرب فتحت العين، ومات القلب. وفي الشرق فتح القلب، وأغلق البصير، وأظلم العقل. وأخطأ مصطفى كمال حين اختار علمانية الغرب. وأخطأ العثمانيون عندما اختاروا سلفية الشرق. انهار الغرب بما اخترعه. الغرب إذن ليس نموذجاً للتقليد. إبداع الذات هو الطريق. اختار العلمانيون الجديد على حساب القديم. واستبدلوا صنماً بصنم. مع أن الغرب يحطم أصنامه كل يوم. فما سماه العلمانيون جديداً أصبح قديماً في الغرب. لذلك لم تتحقق نفوسهم في

- | | | |
|--|---|-----|
| قاد جيشا في جبال قد كمن
والحديد عند قوم والحريز | إنه للدين بأس والوطن
بطل الهيجاء حقاً والأمير
السابق، ص308. | = |
| وتراه عيشنا هذا يواكب؟
جاد بالروح بشوق دافق
قد حباه فقره جذب الحسين
ملكه في الهند ظل ماثلاً | أين من نور اسمه نور الكواكب
إنه كشف سر العاشق
وبفضل من ببدر أو حنين
زابل السلطان قصراً زائلاً
السابق، ص300. | (1) |
| ابنه الجندي أمس من مماته | وحياة الشرق كانت من حياته
السابق، ص308. | (2) |
| لم ينم، والشرق نام ليله | كان فعلاً كل قول قاله
السابق، ص311. | (3) |
| إنه للفرد والشعب الحياة
حقاً هذا جلالاً ذا جمالا | بالتجلي كان للمرء الثبات
ولقد نالاً بتوحيد كمالاً
السابق، ص319. | (4) |
| فمكان الشعب في أعلى الذرى
للحلول قط جسماً ما أرادت | وإذا التوحيد شعباً أسكرا
إن روح الشعب بين الناس كانت
السابق، ص320. | (5) |

أبدانهم. ولم ينبثق القلب في صدورهم. حياة القلب تخلق الزمان، والتقليد يميته. والمسلم لا ينظر في الكتاب وحده، بل ينظر أيضاً في الضمير. وهو قادر على التجديد، يغير ثوب دنياه كلما رث. ويجدد الثوب بفهم القرآن من جديد طبقاً لعصره⁽¹⁾.

دون الذات تكون حياة المسلم زورقاً يسير بلا هدى. والقرآن هو الهادي له. ومن ثم يدعو الأفغاني إلى العودة إلى الربان. ويأمر المسلم (قم) كما أمر الوحي الرسول من قبل ﴿وَرَبِّكَ فَكَّرْ﴾. ولا ينبر بالغرب. وليس بالقلب ملوك أو عبید لأنه بغير حدود⁽²⁾.

قد يفعل صاحب الرأي، ولكنه لا يقلد الغير، بل «يعتمل» أي يعمل

(1) إن في الغرب الذكا أصل الحياة
ويعشق يعرف الله الذكاء
وإذا العشق الذكاء صادقاً
انهضن العالم الثاني اصنعن
للفرنج شعلة قد بُللت
جُرْحُوا لكن بحد سيفهم
نشوة من كرمهم لا تطلبين
للحياة النار فلتشعل بنارك
وكمال حين نادى بالجديد
ليس للكعبة تجديد الحياة
ما تغنى الترك ما قالوا نشيدا
نفس آخر فيهم ما خفق
إن حي القلب خلاق الدهور
مسلماً إن كنت ذا عقل منير
يؤمن الإنسان من آيات ربه
وإذا دنياه رثت ثوبها
السابق، ص 198 - 199.

(2) زورق نحن بلا هدي جرى
عالم في صدرنا هذا اختفى
ليس فيه أي لون أو دماء
ليس فيه من ملوك أو عبید
السابق، ص 199 - 200.

عالم القرآن أين؟ من درى؟
في انتظار قم لإنسان غفا
ما لغرب ما لديه من بهاء
مثل قلب في خلو من حدود

بنفسه»⁽¹⁾. ترك تقليد الغرب مرهون بالعود إلى الذات. ومكر الغرب مثل مكر الثعلب. يتحول بعدها إلى افتراس الأسود. لا يعرف إلا القتل⁽²⁾.

4 - استعمار الغرب للشرق

وموضوع ديوان «والآن... ماذا نصنع يا أمم الشرق...؟» مقومات النهوض أو أساليب العمل. كما أنه يدخل في موضوع الشرق والغرب والذات المضادة. ويتعلق أيضاً بالموضوع السياسي. والعنوان هو عنوان آخر قصيدة في الديوان، دلالة للجزء على الكل. وهو آخر ديوان أصدره في حياته باللغة الفارسية عام 1936 بعد أن استولت إيطاليا على الحبشة.

ويشمل عدة موضوعات حول استعمار الغرب للشرق. فالشرق هو الذي هدى الغرب إلى الرقي والتقدم. وحضارته أعلى قيمة من حضارة الغرب في العلوم والفنون. كما يتناول موضوع تطهير الفكر وتجديده كشرط للتقدم مع التمسك بفقير المؤمن. فالفقير لا يعني ترك الدنيا ولا الإهمال والعزلة بل تسخيرها أولاً، والعزة والعفة والاستعلاء، كي تجوز للإنسان الخلافة على الأرض⁽³⁾.

لقد استعبد الإفرنج الناس، ووضعوهم في قيود من حرير وصديد⁽⁴⁾. وتتنوع أشكال الاستعمار من استعمار مباشر كالهند إلى استيطان كفلسطين إلى انتداب مثل مصر. وحجة الاستعمار أن الشعوب المستعمرة غير قادرة بمفردها على التمدن، بالرغم من أنها صاحبة تاريخ عريق. ولها من التمدن الخاص بها، وليس بالضرورة

(1) إنه ذو الرأي فيما قد عمل
السابق، ص 202.

(2) دعك من هذا التجلي للشيات
وبمكر الغرب إن كنت الخبيراً
أمل الثعلب في الدنيا طعام
يصبح الثعلب ذباً الأسد
السابق، ص 214.

(3) يا أمم الشرق، ص 339 - 341.

(4) لبني الإفرنج في الدنيا عبيد
في قيود من حرير أو حديد
السابق، ص 365.

التمدن الغربي من خمر ونساء وخمور. هو تمدن يقوم على التواصل والأصالة والبداءة والتربية⁽¹⁾.

وفي آخر قصيدة تحمل عنوان الديوان كله «والآن... ماذا نصنع يا أمم الشرق...؟» يفضح إقبال مؤامرات الإفرنج الذين اغتصبوا أراضي المسلمين، وسلبوهم حقوقهم. ومزقوا أوطانهم. وينتقل من مخاطبة الأمة العربية إلى مخاطبة أمم الشرق. والعرب جزء من الشرق وكما دعا الأفغاني من قبل إلى أشكال من الوحدة مركزها مصر، ووحدة وادي النيل، ووحدة مصر والشام، ووحدة المغرب العربي، الوحدة العربية، الوحدة الإسلامية أو الجامعة الشرقية. وهو السؤال في كل ثورة ونهضة: ما العمل؟ وتتضمن نفس موضوعات «إلى الأمة العربية»، استنهاض الذاكرة التاريخية، ووصف الأحوال الحاضرة، خاصة الاستعمار، ثم وصف الحل من أجل النهضة من جديد⁽²⁾.

الفرنج سبب ضياع المسلمين وإسكارهم وإخضاعهم تحت سلطانهم⁽³⁾. لقد عاد روح فرعون في لورد كتشنر. وهو ما رآه إقبال في فلك الزهرة في معراجه إلى السماء. وينهي كل بيت بلازمة «ذاك أولى» مثل: كسر القيود، تحطيم الأصنام، شق الصخر. اشتد الصراع بين الشرق والغرب. ولا تنفع مديّة الدرويش أمام عصى موسى. وينتهي الفرعون القديم والفرعون الجديد إلى الردى إذا ما فلق موسى البحر⁽⁴⁾. ويتوب فرعون القديم بعد أن فقد عقله ودينه. ويريد التماس قلب العقل

(1) ملكُ الحضارة أين يُحتم سيره؟
في حيث لا خمُر ولا قمر ولا
والروح في بدن قوي خافق
حيث المدارس غائص ينبوعها
يفتي جهايدة الفرنجة أما
ضرب الكليم، ص 108.

(2) يا أمم الشرق؟، ص 389 - 396.

(3) الفرنجُ المسلميّن أسكروا
من نفوذ الغرب في الشرق الخراب
جاويد نامه، ص 195.

(4) ذاك شرقي وذا من أهل غرب
وعصا موسى على هذا تهاوت
مع أهل الحق في حرب وضرب
والرفيق مديّة الدرويش غالت

والقلب من الكلیم⁽¹⁾. ويعترف فرعون الجديد، لورد كتشنر، كما اعترف فرعون مصر القديم بأن للغربيين قصداً خفياً وهو حفر القبور من أجل الحصول على ذهب الأحياء. ويتكرر في هذا العصر ما حدث من قبل في مصر. وقد ظهر ما خفي الغرب بفضل العلم والبحث⁽²⁾.

استعمرت بريطانيا الهند. واعتبرتها درة التاج البريطاني. وعلمائها موتى بالأكفان. الجسم والروح مسلوبان. ولم يبق فيها أرض ولا سكن. ورضيت الهند أن تكون رقاً لأوروبا ولا تشكو⁽³⁾. وأرادت بريطانيا تجميل استعمارها بما سموه الاصلاحات كنوع من الحكم الداخلي. وهي في الحقيقة تأكيد لنزعة التسلط. مازال الصياد هو الصياد حتى لو تظاهر بالشفقة، ووسع قفص الضحية، وزينه بزهور لعل الطائر يرضى بقفصه⁽⁴⁾.

ظامئان بين أمواج تشور
موت جبار كآيات بدا
هاك كفي فما قلب وجف
فإذا القمرء جوف البحر يجلو

ونظرت والضياء ما عرفت
وهيوني لفتة يا من ظلمتم
عين عميان أنار بالبصر
والأساس أحكموه بالنفاق
والفساد، وتفشى كل شر
لالتمست منه قلب العاقل

ولأجل التبر كم قبر حفر
ما نراه اليوم في سفر قديم
حكمة والبحث، أو شئى حقيق

يا ويحها، درة في التاج ترتهن
ولم يزل مرقاً تحت الثرى الكفن
لم يبق في أرضها دار ولا سكن
فمنك شكواي لا منها، وبى حزن

ولم يجد فينا ذا الصغير المجدد

= مثل فرعون الصغير والكبير
يعرفان الطعم مرا للردى
سر ورائي يا بني لا تخف
ومن القرآن طه الشيخ يتلو

السابق، ص 228 - 229.

(1) آه عقلي آه ديني قد فقدت
امنحوني نظرة يا من ملكتم
جاءنا عن غاصبين بالخبر
ما يريدون لنا غير الشقاق
ولهذا دب في الحكم الخور
لو بدا موسى كلیم الله لي

السابق، ص 229.

(2) إن للغربي قصداً قد ظهر
إن تاريخاً لمصر والكلیم
إنما بالعلم للسر الظهور

السابق، ص 230.

(3) مستقبل الهند من يدرى؟ وما برحت
دهقانها من ظلام اللحد مطرح
الجسم والروح للباغين قد رهنا
رضيت رقاً لأوروبا بلا أنف

ضرب الكلیم، ص 108.

(4) أرى رحمة الصياد سترا لقهرة

لم تكن قضية كشمير قد ظهرت بعد حين قسمت بريطانيا الهند إلى الهند وباكستان عام 1948. وخلفت مشكلة كشمير لاستمرار النزاع بين أكبر دولة هندوسية وهي الهند، وأكبر دولة إسلامية وهي باكستان. كما قسمت فلسطين بين العرب واليهود، وجنوب إفريقيا بين البيض والسود. يحن إقبال لكشمير، جبالها ووديانها، غاباتها وأحراشها، أرضها وسماؤها، طيورها ومياهها⁽¹⁾.

وفي قصيدة بعنوان «لن يثير الشجن والأحزان، دمة على افتراق الشعب في شبه القارة» يتبأ بتقسيم الهند كجزء من سياسة بريطانيا «فرق تسد» وكما ستفعل في فلسطين وفي جنوب إفريقيا بعد موت إقبال بعشر سنوات عام 1948، إثارة للنعرات الطائفية والعرقية بعد أن فشلت محاولات غاندي في الدعوة للتسامح والإخاء بين المسلمين والهندوس خاصة وأن غاندي نشأ في منطقة الجوجورات حول بومباي، منطقة المسلمين. التقسيم إذن مؤامرة الغرب. فبالرغم من استغلال شعوب الشرق إلا أن الغرب مازال يسيطر عليها اقتصادياً وسياسياً. سلب ثروات الشرق. ونما نفسه بأموال الشرق. ويمتد نوم الشرق سنين طوالاً بإرادتهم، وليس بإرادة السماء. وهو ليس أهلاً للحزن أو للغسل أو للدفن أو لشق الثياب ولا عزاء. لا ينتسب إلى الفلك، ولا إلى السماء. يأتي يوم الحساب بلا أعمال. ويقف بلا حصاد لأنه لم يزرع بل ظل ينتظر المعاول بلا كد وكدح وسعي في الأرض. وما تنفع الأمانى بلا جهود إذ يكون مصيرها العدم، ومحو نقشها من سفر الوجود. تمادي الغرب في الفتن وأحكم سحره وقبضته حول الشرق. فلا هو بقي على الكفر في الغرب، ولا هو حافظ على الدين في الشرق. أحال الضوء إلى ظلام. ولا حل لخلاص الشرق إلا بالثورة⁽²⁾.

= وقد زين الأقفاص بالزهر ذابلا
لعل أسيرا للأسار يغرد
السابق، ص 113.

A Message of the East, pp. 92 - 3.

(1)

شعوب الشرق والغرب استقلت
فلاغيار ثروتنا متاع
وأين حياتنا والغير فيها
وليس النوم ما صرنا إليه
وإن بذور هذا الموت جاءت
ومنذ المهدي كان القوم صرعى
وضاق بنا على الأرض الفضاء
ومن لبناتنا لهم البناء
يصول كما يشاء ويستطيل؟
فذاك الموت لا النوم الثقيل
من الأعماق منذ الابتداء
وهذا الموت ليس من السماء

(2)

=

كشف إقبال الأقنعة عن السياسة الغربية. وأيقظ أمم الشرق. في الهند الإنسان المستعبد الذليل ليس له الحق في ذكر اسم النبي. والعبودية والذل لا يلتقيان مع الإيمان والحرية. تصوّر السياسة الغربية الظلم عدلا. وهو عدل جديد لا عهد للناس ولا للفترة به. التحرير لديه زيادة قيد العبد والأمن لديه، أن يدخل الطير في وكر الصياد. ويرمي للطير الطعم فيقع. ويغيب رشده عندما يفقد الأمل⁽¹⁾. على شعوب الشرق أن تحذر كيد الغرب. فكل ما يأتي منه زور وبهتان. والأفضل الموت ظلماً كالحسين من شرب ماء الغرب. ما يقوله تخدير لا يصدق. وكحله يعمي العين⁽²⁾.

غزت إيطاليا الحيشة. وانقضت عقبان أوربا على جيف الأحباش. فحضارتها تقوم على العدوان. هي مجموعة من الذئاب تطارد الخرفان. والكنيسة تساهم في ذلك. تريق

لغسل أو لقبر أو بكاء
ولا سعي الوفود إلى عزاء
فليس لها إلى الفلك انتساب
بلا عمل فليس له حساب
بلا زرع فمن أين الحصاد؟
وكل حياته يوم معاد
بلا جهد وتمضي في ركود
وينسى نقشها سفر الوجود
وأحكم حولها السحر المبين
ولا أبقى لأهل الدين دينا
ولا حل بغير الانقلاب

ما هو التفسير للعدل الجديد
يحكم القيد لتحرير العبيد
فاتخذ في منزل الصياد وكرا
لا ولا تأمن في الصحراء نسرا
يسقط الطير وبهوي ثملا
ساعة يفقد فيها الأمل

كل ما يأتي به زور ومين
ولتمت ظمآن حرا كالحسين
فهو تخدير مبيد للبشر
إنه الكحل الذي يعمي البصر

وليس فقيد هذا الموت أهلا
ولا شق الثياب عليه حزنا
جهنمه سوى ما قد عرفنا
ويوم حساب كل الخلق يأتي
حصاد الزارعين غدا وهذا
ومدة عمره في الدهر يوم
وأية أمة ترجو الأمان
يكون مصيرها عدما ومحوا
وكم فتن تمادى الغرب فيها
فما أبقى على الكفار كفرا
هي الغمرات ما منها نجاة

يا أمم الشرق، ص 371 - 372.

(1) تصوّر الغاصب عدلا ظلمة
زاد في التحرير معنى أنه
قال للطير إذا رمت الأمان
ليس في الأجواء للطير مكان
حين يلقي الحب في أشواكه
ويغيب الرشده عن إدراكه
السابق، ص 374.

(2) سدّد الرأى وحاذر كيده
إن سقاك الماء فاترك ورده
لا تصدق منه ما تسمعه
واحذر الكحل الذي يصنعه
السابق، ص 374 - 375.

الدماء أنهارا. ورئيسها لا يحرك ساكناً بعد أن سالت في العالم أنهار من الدماء⁽¹⁾.

وفلسطين غصة في حلق الغرب. فقد ادعى الغرب أنه حضارة التمدن. وأمانته فوق كل اشتباه. وأوربا نصيرة كل شعب. وقع عليها الظلم والضرر والحيث. قساوستها حملوا شعلة الفكر الحر. ثم خلقوا قضية فلسطين. وأحل شعب مكان شعب. وبعد أن نجت أوربا من تركيا العسكرية انتقموا منها في شعب فلسطين⁽²⁾. وإذا كان لليهود حق في فلسطين فللعرب حق في أسبانيا، ولكنها لغة بريطانية خفية في تقسيم العرب، وزرع جسم غريب بينهم، يفصل بين الشام ومصر، وتكون قاعدة غربية للعدوان في المنطقة العربية وعلى العالم الإسلامي⁽³⁾. ولا يوجد حل أمام عرب فلسطين إلا أن تعتمد فلسطين على ذاتها بدون لندن أو جينوا. فاليهود يعيشون في دماء الإفرنج. ومادامت النار في الحشا دون خمود فالزمان قادر على إرجاع فلسطين⁽⁴⁾.

(1) عقبان أوربا بغير علم في جيفة الأحباش أي سم

قد آن للميتة أن تجيفا

حضارة تكمل بالمخزاة وعيش أقوام على الغارات

وكل ذئب طارد خروفا

وجه الكنيسة اكتسى شئارا روما أراقت ماء نهارا

يا بابُ قد أضحى الورى أسيفا

ضرب الكلیم، ص 104.

(2) أمانتها علت عن كل ريب

فأوربا نصيرة كل شعب

كرامات القساوس أن أضاءوا

ولكن من فلسطين بقلبي

وتلك عقدة ليست لحل

من الترك الجفأة نجوا فلاقوا

السابق، ص 109.

(3) مرعى لحانات الفرنج فقد

إن في فلسطين اليهود رجعت

للإنكليز مقاصد خفيت

السابق، ص 111.

(4) لا يزال الزمان يصلى بنار

لا دواء بلندن أو جنسوا

وموسوليني نموذج الحاكم المستبد في الغرب والشرق على حد سواء. هو مجرم حرب في ثوب سياسي. الكل يأخذ بوسائل التمدين. ويختار الغرب الوسائل الحربية. يشغل الغرب نفسه بالزمر والموسيقى وكل ملذات الحياة. والبعض الآخر يملك الأرض ويأخذ الخراج حتى على الصحارى⁽¹⁾.

ولا فرق بين الإسكندر قديماً والقرصان. ففي حوار شعري بينهما يتهم الإسكندر القرصان أن جزاءه في سلاحه. كما أن التصميم في سيف الإسكندر. وإن ضيق وسع البحر عندما يمعن في قطع الطريق. ويرد القرصان بأن الإسكندر أيضاً لم يوفق في مسعاه، وأنه ما ينقذ به يرد إليه. فالقتل أيضاً مارسه الإسكندر. الإسكندر يصول ويجول في البر. والقرصان يصول ويجول في البحر⁽²⁾.

تقوم سياسة الإفرنج في الغرب على أدمغة الساسة وإذا كان هناك إبليس واحد فساسة الغرب الآن ألوف الأبالسة⁽³⁾. أسف الساسة وأخذوا إلى الأرض.

- = ومن الرق للشعوب نجاة
السابق، ص 113.
- (1) أرى العصر يأبى من مسولين جرمه
كلانا بألات التمدين أخذ
وقد نقموا منى غرام تملك
لمن شعبذات الحكم تبقي ممالكا
أينفخ في الأعواد أبناء قيصر
نهيتم خيام البدو والزرع والقرى
قصدنا من التمدين قتلا وغارة
السابق، ص 107.
- (2) اسكندر:
جزاؤك في سلاسلك ارتهان
فقد صيرت وسع البحر ضيقا
القرصان:
سكندر! للفتوة لم توفيق
فإن القتل دأبي لا أماري
كلانا اليوم قرصان: ببر
السابق، ص 110.
- (3) يا رب نذك في غرب سياسته
خلقت إبليس فردا من لظى لهب
السابق، ص 103.
- قوة الذات وازدهار الوجود
وأخيار أوربا علي غضاب
أتنقم أفعال السيوف حراب
أما ثار منهم بالضعاف ضراب
ولا ملك أو ملك بهن يصاب
ويجبى إليكم عاصر وبياب
وكم كان منكم للعروش نهاب
أمسكم فخر ويومي عاب؟
- أو التصميم من سيفي العتيق
بما أمعنت في قطع الطريق
أيحمل بالفتي فضح الرفيق
كذاك القتل دأبك يا صديقي
تصول، وصلت في بحر عميق
وما تعبد إلا الهام والروسا
ومن تراب أقامت ألف إبليسا

يمدون الشباك كما يفعل الذباب والنحل. ونادراً ما يظهر أمير بينهم له هدف يتجاوز الأفلاك⁽¹⁾.

هناك حكمة مستفادة من الشرق والغرب على السواء وتفيد العبيد مؤداها أن لا ملك أو فقراً أو دنيا أو حكمة يمكن تأسيسها إلا على العقائد. فهي أساس الضمير. تحمي الأمة من أفعال الرعديد أو الأقوال المثبطة⁽²⁾. السياسة اللادينية خسة مات الضمير فيها وساد إبليس. ولما قضى الفرنج على الكنيسة استبدلوا بها الشيطان. وكلاهما واحد بالنسبة لاستغلال أموال الناس. بالإضافة إلى الإقطاع في الكنيسة ورأس المال والعسكر في العلمانية⁽³⁾.

5 - تحرر الشرق من الغرب

وكيف يستعمر الغرب الشرق، وحضارة الغرب وافدة من الشرق؟ من الشرق فاض العشق والحسن على الكون. ومنه امتدت الفطرة في العالم كله. منه تعلمت نهضة الأمم، وعرفت العلوم والفنون. رفع الشرق الحجاب عن الكائنات. ومنه أشرقت شمس الحضارة. أصداف البحر من قطراته. وهدر الموج من بحره. حرارة الشدو من ميزانه. إيمان الناس من قلب آدم⁽⁴⁾. يكسب الغرب من جهة الشرق، وما

(1) ما رجائي بساسة قد أسفوا
نظرات إلى ذباب ونمل
حبذا الركب قد هداه أمير
السابق، ص111.

(2) تعلمت بين الغرب والشرق حكمة
فلا ملك أو فقرا ودينا وحكمة
فإما خلا منها ضمير جماعة
السابق، ص104.

(3) ما الحق مخف عن فوادي سره
فسياسة اللادين عندي خسة
لما قضى حكم الفرنج كنيسة
شُرِهت لأموال العباد كنيسة
السابق، ص109.

(4) بنا لبس العشق ثوب الدلال
وفطرة آدم في كل حي
تعلمت الأمم الناهضات
وفاض على الكون طيبا وحسنا
روتها الخلائق في الدهر عنا
من الشرق ديننا وعلمنا وفنا

يقتنيه من ادخاراته. ومن يأخذ الغذاء والكساء ويعيش في نعيم⁽¹⁾.

فماذا كان الشرق أصل الغرب، فالشرق قادر على النهوض من جديد دون الذوبان في الغرب. وهو قادر على إجراء المعجزات كما أخرج موسى يده بيضاء من غير سوء ليبتل سحر الغرب كما أبطل موسى سحر فرعون. فلماذا قيد الشرق نفسه بزناد الغرب، وصبر على القيد؟ يكفيه أن يوحد البلاد ويوجهها نحو العلا حتى يحقق العزة والنصر⁽²⁾.

لقد استعمر الغرب الشرق. وآن الأوان كي يتحرر الشرق. فالثورة في النفوس تدفع الحياة إلى المجد من جديد. وما زال الغرب في غروره، يكيد للعالمين. ينشر الإلحاد في الكون، ويقيم الدنيا على غير دين. ويلبس الذئب لبس الشاة، ويخفي أنيابه، ويتنظر في الكمين⁽³⁾. يستغل الغرب البرايا. ويرى بني آدم مثل القطيع حلالاً

فنحن من الشمس والشمس منا
فذلك من فطر نيساننا
فذلك من قبض طوفاننا
على غصنه بعض نيراننا
فأهدى رسالة إيماننا

وما يقتنيه وما يدخر
له في نعيم وعيش نضر

فأظهر يد العزم للناس جهرا
وتبطل من فتنة الغرب سحرا
وكيف استطعت على القيد صبيرا؟
بإيمانها تلق عزا ونصرا

وقد سامها الغرب عسفا وجورا
لقد آن أن يصبح الشرق حرا؟
تشد الحياة إلى المجد جرا
وبعد الدجى يعقب الليل فجرا
ويحترف الكيد للعالمين
وينشئ دنيا على غير دين
بأنياه العُضَل خلف الكمين

رفعنا الحجاب عن الكائنات
إذا لاح في صدف جوهر
وإن هذر الموج في بحره
حرارة شدو الهزار الطروب
سقيننا دم آدم قلب الورود

يا أمم الشرق، ص 393 - 394.

(1) فمن جهد كسبك ما يجتنيه
ومنك الغذاء معا والكساء
السابق، ص 396.

(2) فتى الشرق أنت الوفي الأمين
لتخرج بيضاء من غير سوء
علام ارتبطت بزناؤه
فوحده بلادك صوب العلا
يا أمم الشرق، ص 394.

(3) تئن الخلائق في الأرض طرا
فيا أمم الشرق فيم التواني
أكاد أرى ثورة في النفوس
مضى الليل وانجاب عهد الظلام
وما برح الغرب يختال تيها
لينشر في الكون إلحاده
ويستبطن الذئب في جلد شاة
السابق، ص 389.

للذئب⁽¹⁾. والمستعمرون كضواري الشوارع يلتقون في العواصم الأوروبية لالتهام العباد، وطمس الهدى. اقتسموا الكرة الأرضية نهباً، ووجدوا أنفسهم لذلك. يدعون امتلاك كل البلاد. يستولون على الثروات، ويشعلون الفتنة⁽²⁾.

لقد استيقظت كل الشعوب بعد سبات عميق. وبدأت الدخول في أسرار الحياة. وأفاق الشرق من نوم طويل، يحطم الأغلال، ويكسر القيود. وقعت له جذبة. فأزاح العبا عنه وانتفض. أما أمم الغرب فقد عرفت قدرتها وإمكانيتها. وقد اكتوت أمم الشرق بناره⁽³⁾.

فكر الشرق واضح. فلا يتبدل ليله بنهاره. يثير ناراً في الصدور جديدة مشوبة بالعزيمة. ينقصه فقط سماع نشيد المجد من قيثارة جديدة، وتحويل الطبع إلى وعي متحفز للسبق، وصياغة دور جديد له في المستقبل، والتحرر من لغو الإفرنج وزيف الاستعمار، والاعتماد على تحرير النفوس ونزاهة الأفكار. وإذا ضل الشعب في آماله عن قصد لم يلق إلا البوار. ويموت القلب داخل الصدر، وينطوي على الذلة والصغار. وتصبح الحياة سلامة وسكوناً. يتم النصر فيها بالفرار منها. ويغيب الموج من البحر. الخطوة الأولى لنهضة الأمة تحررها بالعزيمة والإصرار. تظهر نفسها حتى يسهل تعمييرها بالأفكار⁽⁴⁾.

(1) يرى الغرب يستغل البرايا
يرى الآدميين مثل الرقطيع
السابق، ص 392.

(2) ضواري السباع التقت في جنيف
قد اقتسموا كرة الأرض نهباً
يقولون هذي بلادي لكم
هنا ثورة وهنا فتنة
السابق، ص 392 - 393.

(3) أمم الدنيا صحت بعد سبات
وأفاق الشرق من نوم طويل
جذبة واتبته من دفع القدر
أمم الغرب تبينت مداها
السابق، ص 343.

(4) لأنيل فكر الشرق أوضح الهدى
وأثير ناراً في الصدور جديدة

يرى إقبال حل مشكلات الشرق بالإيمان والعلم. فمصير الإنسان في هذا الوجود هو التراب. وقد تشكل من قبل من ماء وطين. وفي الحياة ضلت القافلة عن طريق الصواب. كل شيء مباح لتحقيق الأطماع دون حساب أو رقابة من ضمير. وللحق في كل شيء دليل، ينير الأبصار. وفي كل شيء له حكمة يدرك أسرارها العارفون. إذا شاهدوا آياتها لا يرهبون. وإذا تبين الهدى لهم فإنهم ينظرون. للمؤمن الحر من ربه في حياته نور مبين. وفي قلبه لوعة واشتياق وعطف على محن الآخرين⁽¹⁾.

يسأل إقبال عن الذي ملأ الشرق فأحيا القلوب، وعمما يعصف به الآن فتروضح الشعوب؟ ويجيب الرومي بأن الشعب لا يموت إلا إذا حسب الأحجار بخوراً، وظن الشهد سما أي عندما تنقلب الرؤى لديه وتختلط الموازين⁽²⁾.

فيشارة أوتارها أشعاري
متحفزا للسبق في المضمار
غير الذي شهدت من الأدوار
لغو الفرنج وزيف الاستعمار
موصولة بنزاهة الأفكار
عن قصده لم يلق غير بوار
وينطوي في ذلة وصغار
ن وفوزه من حريها بفرار
ما فيه من لجج ولا تيار
تحريرها بالعزم والإصرار
أن يسهل التعمير للأفكار

يزيد بهم شرها كل حين
لديهم سوى هيكل من تراب
وبنيانه صائر للخراب
بحكمتهم عن طريق الصواب
وما للضمير عليهم حساب
ومن نوره كل ما تبصرون
يفوز بأسرارها العارفون
أبأة على الضيم لا يرهبون
بإدراكهم أفلا ينظرون؟
هدى في الحياة ونور مبين
وعطف على محنة الآخرين

=
إني سأسمعهم نشيد المجد من
وأحيل خام الطبع وعيا صارخا
وأصوغ للأيام دورا مقبلا
ليحرروا الأرواح والأفهام من
ومجال تحرير النفوس أمانة
والشعب حين يضل في أماله
ويموت داخل صدره القلب السليم
فإذا الحياة هي السلامة والسكو
في بحره موج الأمانتي راسب
الخطوة الأولى لنهضة أمة
لو أمكن التطهير أمكن بعده
السابق، ص 347 - 348.

(1) أرى مشكلات بنني آدم
فما قدر إنسان هذا الوجود
تشكل في الخلق ماء وطينا
وقافلة الكون ضلت خطاها
لأطماعهم كل شر مباح
وللحق في كل شيء دليل
وفي كل معنى له حكمة
إذا شهدوا آية الله عاشوا
لقد نظروا فاستبانوا الهدى
وللمؤمن الحر من ربه
وفي قلبه لوعة واشتياق
السابق، ص 390.

(2) قال: يا من ملأ الشرق بما يحيي القلوب =

ويحذر إقبال ابنه جاويد من أن يدين لصانع يصوغ الزجاج في أوروبا. ويوصيه بأن يصوغه من تراب الهند، وأن يضع بلاده فوق رأسه تاجاً⁽¹⁾. وكل شيء يجعله الشرق نجساً يعتبره الغرب مقدساً. فرح الغرب لترك المسلم لسجوده، في حين يعتبر المسلم ذلك إنكاراً لوجوده⁽²⁾. لقد آمن الشرق وحده بالإله. أما الغرب فقد شاح عنه. ومع ذلك، الشرق الآن متأرجح بين الوجود والعدم. ومن يدري ماذا يخبأ له المستقبل من نهضة جديدة؟⁽³⁾ من الشرق ذكاء يطلع عندما يفك من قيد الغرب. ويتجلى عندما يفيق من الغزو⁽⁴⁾. والشرق قادر على فهم الأسرار⁽⁵⁾.

لقد علم الغربُ حكمة للشرق، أن الدين معبد وطائفان، كهنوت ودير. وهو

- = ما الذي يعصف بالشرق وما داء الشعوب؟
قال: ما أعرف شعبا مات إلا مات لما
حسب الأحجار بخورا وظن الشهد سُما
جناح جبريل، ص 525.
- (1) إياك يوما أن تدين لصانع في ليل أورته يصوغ زجاجا
صُغ من تراب الهند كأسك وافتخر وارفع بلاده فوق رأسك تاجا
السابق، ص 533.
- (2) كلما يجعل منه الشرق معيار النجاسة
لا تبالي حكماء الغرب أن ترفع رأسه
فسر الغرب الديموقراطي تركي لسجودي
لم يعد من بعده في الأرض معني لوجودي
السابق، ص 545.
- (3) شاهد الشرقُ الإله وحده وأشاح الغرب عنه خذه
في طلسم للوجود والعدم ذلك الشرق بسر ما ألم
ما لنا أهل السما إلا النظر في غد للشرق تحقيق الوطر
قال يبدو الآن هذا المشرق شمسه الأخرى عليه تشرق
جاويد نامه، ص 163 - 164.
- (4) فمن الشرق ذكاء تطلع باجتراء وتجل تسطع
في عذاب واصب من نار قلب عند فك القيد من شرق وغرب
بالتجلي أسكرت في شرقها أفقا ما أفلتت من غزوها
منهما قد قطعت أصل السبب إنها للشرق لكن في النسب
السابق، ص 196.
- (5) أنت يا من قلت قولاً عبقرياً يعلم الشرق به سرا خفياً
السابق، ص 297.

وهم⁽¹⁾. والآن أصبح أمير القافلة محباً للمال في العاجلة. لم يقيم بفعل النفي «لا إله» لتطهير النفس وتحريرها من العبودية للمال والجاه والجسم. كان في الماضي مرفوع العلم بالتوحيد. ينشد المجد. ولد في ظل الحرم ثم أصبح مريداً للغير. كان في الماضي مرشداً يسترشد به كل مرتاب يبحث عن اليقين. وإذا ما سجد هو وصحبه زلزلت الأرض من جيهااتهم. كانوا يعلنون وسط الأهوال وتحت ظلال السيوف توحيد الإله. يكتبون ربنا الله ولا رب سواه من دمائهم⁽²⁾.

لقد ضاع من الأمة الشوق والقلب الصبور. والباقيات الصالحات ردمتها العصور، وتوارت في الظلام. بُليت بالرق. وهي بجوار الحرم حتى إنها لتخجل من ذكر اسم المصطفى على لسانها، وتحول ضمير الأمة إلى دير للأصنام. أصبحت أسيرة تحت حكم الغير، ولا تقدر على أن تصنع خيراً. تدعي الحب لخاتم الأنبياء دون أن تتحول أقوالها إلى أفعال. فتصبح أقوالاً كاذبة، لا تصديق لها في الفعل. وإذا لم يتبع الحب الاقتداء كان بلا قيمة وبلا فاعلية. لا يدرك العبد الذليل لذة الإيمان. والمسلم المستسلم للطامعين لم يعد يقتدي بالخليل بل بأبيه آزر. صلوات الحر تبعث الشعور. وهي معراج إلى العيش الكريم. أما صلاة المرء بلا حضور فإنها عادة جوفاء ومظاهر قديمة. الأحرار وحدهم أصحاب العزة في العيد السعيد. أما الأسرى العبيد فإنهم خارج دائرة المؤمنين⁽³⁾.

(1) علم غرب حكمة للمشرق
السابق، ص 172.

(2) ضاق صدري بأمير القافلة
عابد المال يحب العاجلة
كان بالتوحيد مرفوع العلم
ذلك المولود في ظل الحرم
أين من كان بهم يسترشد
وترى الأرض إذا ما سجدوا
في دوي الهول كانوا يعلنون
بممداد من دماء يكتبون
يا أمم الشرق، ص 375.

(3) أين ذاك الشوق والقلب الصبور
قد طوتها في تواليها العصور
قد بلوت الرق منذ الابتداء
من رسول الله يعروني الحياء
ومرابا الباقيات الصالحات؟
وتوارت في الليالي الخاليات
لم يكن مهدي في أرض الحرم
حين يدعو باسمه الغالي فمي =

وبعد الإيمان يأتي العلم، فيتحول إلى تقوى. يزداد خوفاً من الله حتى يعطيه الأمان. هو علم يكشف عن الإله، يؤدي إلى صدق الإيمان، وليس علم الغرب الذي يُبعد عن التقوى والإيمان. فغاب المعيار، وعم الشك، وانتهى إلى الصوفية. العلم سبب الرقي في الحياة. حوّل الغرب إلى آلة للهدم والتدمير. حوّل جنات عدن إلى سقر. أصبح العلم خداعاً وسحراً. فتبدلت نعمة الله كفراً. أصبح الورد شوكاً، والأمن حجراً⁽¹⁾. إذا أذعن العقل للقلب كان أهدى سبيلاً وأكثر طاعة وإلا أصبح كأبليس في المكر والدهاء⁽²⁾.

أم غدا صدرك للأصنام ديرا
تحت حكم الغير لن تصنع خيرا
أكذب الأقوال ما لم يبد فعلا
لم يكن للحب أو للفرح أهلا
قل أن يدركها عبد ذليل
أزري حاد عن دين الخليل
فهي معراج إلى العيش الكريم
عادة جوفاء في رسم قديم
مظهر العزة في دنيا ودين
يصبح العيد هجو المؤمنين

أحل به خشية المتقين
يرد الأمان إلى الخائفين
إلى قدرة الله يهدي البصر
سوي حيرة في دياجي الفكر
يفرق ما بين خير وشر
وفي صدره قطعة من حجر
تضيء القرون به والعصر
لمحو البوادي وقتل الحضير
معاول هدم لمحو البشر
لسكانها جعلوها سقر
بكل الشعوب خداعا وسحرا
لقد بدلوا نعمة الله كفرا
وتوقد في روضة الأمن جمرا

رأى طاعة الله أهدى سبيلا
كأبليس مكررا وشررا وبيلا

لك قلب ومع القلب ضمير
أنت للغاصب محكوم أسير
تدعي الحب لخير الأنبياء
وإذ لم يتبع القول اقتداء
لذة الإيمان عند المؤمنين
مسلم مستسلم للطامعين
صلوات الحر بعث للشعور
وصلاة المرء في غير حضور
إن للأحرار في العيد السعيد
ولدى الأسرى وفي عيش العبيد

السابق، ص 375 - 376.

(1) إذا العلم حل بقلب الفتى
ويزداد خوفا من الله حتى
هو العلم فيه لنا كيمياء
فيا أسفا ليس للغرب منه
فلم يجبه العلم عقلا سويا
فلا ينبع الظل من جفنه
فبالعلم كان رقي الحياة
فحوّله الغرب سيفا رهيبا
تصير الملائك لو جاورتهم
ولو كانت الأرض جنة عدن
غدا مظهر العلم في عصرهم
معاذ الحقيقة، ماذا سحر
لهم فتن تجعل الورد شوكا

السابق، ص 391.

(2) إذا العقل أذعن للقلب حكما
وإن لم يجب داعي القلب أضحي

السابق، ص 392.

6 - من ريح الغرب إلى ريح الشرق

وبالرغم من مسار التاريخ وقوانينه وقيام الحضارات وسقوطها هناك «الملك الخالد» الذي يقوم على العدل. ملوك تبقى وملوك تفتنى. والسبب حضور العدل وغيابه⁽¹⁾. التاريخ في حراك دائم، ولا شئى ثابت فيه. تقوم الحضارات وتنهار ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾. ولا يوجد قدر يتحكم في التاريخ بل قوانين ومسارات فيه. جبروت الإفرنج ليس دائماً، قام على الغرور. وقد يتحول مركز الثقل من جنوا إلى طهران⁽²⁾. ومن ثم ينادي إقبال على جماعة الأمم الشرقية بأن المستقبل لها، سابقاً بذاك ما يُقال حالياً عن «ريح الشرق». تنتهي حضارة الغرب كما بدأت. فلا خلود للحضارات. تقوم وتسقط. لكل منها دورتها. وكلما شيد الغرب صرحاً تكسّر على حضارات الشرق⁽³⁾.

أ - انهيار الغرب: الغرب لم يعرف مثل الروس إلا النفي «لا». فتحول إلى نار ودماء. وأثاروا الأمم. واستهانوا بتقاليد الزمن. وقضوا على معايير السنن. ولم يصلوا إلى فعل الإثبات «إلا». كون جيوشاً زاحفة تقهر حتى العاصفة، ولكن دون هدف نبيل أو مقصد سامي. فانعدم العدل. وعم الظلم. مع أن في الفطرة ضمير يدعو إلى التوحيد. فأصبح الوعي الأوربي نافياً وليس مثبتاً، يهدم ولا يبني. يشك ولا يوقن⁽⁴⁾.

(1) إني لغواص المعاني فطرة
ما إن يحب الدهر ملكا خالدا
فرهاد أبقى الدهر تحت صخوره
ضرب الكلم، ص106.

(2) سُخِّرَ الماء والهواء مسخَّر
جبروت الفرنج غرته رؤيا
إن جنوا للشرق طهران صارت
السابق، ص106.

(3) ما لملك الغرب خُلد
كلما شيد صرحا

(4) صار شعب الروس ناراً ودماء
فاستهانوا بتقاليد الزمن
وقف الركب بهم في باب «لا»
لم يروموا نحو «إلا» منزلا

والساسة يأتَمرون بأوامر إبليس، إبعاد الناس عن الدين خاصة المسلمين الصابرين المستميتين، وبوجه أخص العرب الذين كرمهم الله بالدين، والأفغان الذين عرفوا بالحمية فيه ونصرته⁽¹⁾. يريدون إخلاء ضمير المسلمين من مثلهم وآمالهم حتى يرضخوا لهم تماماً.

أوربا مثل شيلوك الذي صوره شكسبير في تاجر البندقية، المرابي الذي يريد أن يأخذ الفائدة من لحم إنسان. ومكر الثعلب أحياناً يتغلب على قوة الأسد. وإذا استمرت أوربا في أخذ شيلوك نموذجها فإنها ستسقط إلى الأبد⁽²⁾. وهو يعني بلغة العصر سيطرة القيم اليهودية على القيم المسيحية، بعد التعارض الذي وضعه المسيح بينهما.

وينشد إقبال قصيدة «علي قبر نابليون»، يمدح فيها سيف الخالدين مثل

بعد حين يقهرون العاصفة
نحو «إلا» يدفعون الموكبا
كل نفي دون إثبات عدم
هاتفا يدعو لتوحيد القدير
دون «إلا» فهي للصدق دليل

بأشراك السياسة والحبال
من الدير القديم بالاحتيال
ومن هو بالمنايا لا يبالي
لتعمل فيه أحداث الليالي
من الإفرنج ألوان الخيال
ليسرع في الحجاز إلى الزوال
وليس علاج هذا بالمحال
من الأرض المنبوعة والجبال
لهم سننا تحيد عن الضلال
وخلوا الأرض من هذي الغوالي
به زهر الشقائق في اشتعال
لتحموا الناس عن هذا المقال

مكر الثعالب يفري قوة الأسد
في كيس شيلوخها المجهول للأبد

=
ستراهم كجيشوش زاحفة
وترى للقوم أمرا عجبا
«لا» و «إلا» بهما العدل انتظم
إن للفظرة في كل ضمير
لم بين في حرف «لا» صدق الخليل
يا أمم الشرق، ص 357.

(1)
عليكم بالبرهمن فاريكوه
وأصحاب الزنانير اطردوهم
وذلكم الصبور على الرزايا
فروح محمد منه اسلبوه
وفي العرب اذفوا في كل فكر
بأرض العرب للإسلام كيدوا
وفي الأفغان بالدين اعتصام
عليكم بالفقيه فأخرجوه
وقواما على الحرم اسلبوهم
غزال المسك من ختن أثيروا
وإقبال له شدو مثير
من المرج أطرودوا هذا المغني
ضرب الكلیم، ص 105 - 106.

(2)
أشبه شيلوخ في المرصاد واقفة
لابد تسقط أوربة إذا نضجت
جناح جبريل، ص 549.

الإسكندر وتيمورلنك، ولكنها خالية من الإيمان. لذلك يزول السيف⁽¹⁾. ويمدح موسوليني عام 1931 قبل أن يستولي هتلر على الحكم، وبالرغم من إدانته غزو إيطاليا للحبشة. يعجب إقبال بالفكر الجديد، والنشاط الجديد، وأمل الثورة. ويسعى نحو المعجد. ويتساءل عن طريقها، خطأ أم صواب؟ الشيوخ راضون، والشباب طموحون. يثني إقبال على التجلي والحماسة. ويرجع الفضل في ذلك كله إلى الحر الذي تقتدي نظراته بنظرات الشموس⁽²⁾.

لقد قامر الإنجليز حتى اندثروا، وزالت دولتهم. والدهر لا يقامر وحده، ولكن مقامرة الدهر أقوى. وهو ما سماه هيجل «مكر التاريخ»⁽³⁾.

ب - نهضة الشرق: الأزمة ليست في الغرب وحده بل في الشرق أيضا. ففي كليهما انطفأت الحياة. في الشرق ماتت الذوات. وفي الغرب مات الضمير. وفي كليهما بدايات ثورة في القلب، تتحول إلى ثورة في البلاد، وهما في طريق

(1) التّوق للفعل سيف الخالدين به
وقبل مولد نابليون خاض به
جبال ألوند هدتها حماسته
تصير صرخة أهل الله صرخته
السابق، ص 535.

(2) نشاط جديد وفكر جديد
صبا شعبه أن يرد الصبا
نشاط جديد وفكر جديد
يصوغان من حجر لؤلؤا
تأملت روما وقد جدت
فقلت: أيارب ماذا أرى
حياة تقرر عيون الشيوخ
فيا للتجلي الذي هاهنا
سماؤك يا نعمة الثائرين
وروحك تنتظر العازفين
ومن ذا الذي صاغ هذا الجمال
هو الحر ذو النظرات التي
السابق، ص 536 - 537.

(3) قامر الإنجليز حتى تولوا
وكذا الدهر لا يقامر وحده
السابق، ص 520.

التحول من القديم إلى الجديد⁽¹⁾. رؤية الغرب عمياء. تملأ عقله الأوهام. وسكران من البخور السحري. ولا يسعى إلا إلى الباطل. أما الشرق فإنه يهدر إمكانياته فيقع في الخسران أمام غرب متوحش. لا تثيره المسائل الجليلة. ومن ثم يسود الموت روح العالم⁽²⁾. لقد أعطي الغرب قدح نور العقل، وبه حرارة الشمس، ولكن دون الشروق. فبهر النور حتى العمى. وأحرقت حرارة الشمس حتى الموت⁽³⁾.

وقع العالم بين قطبي الرحي، حيل الإنكليز من الخارج والتقاتل بين المسلمين في الداخل، بين العجم والأترك أو بين الشيعة والسنة⁽⁴⁾. والمبدع لا يقلد الغرب أو الشرق. لا يقلد الكوفة وبغداد من ناحية ولا الغرب من ناحية أخرى، بالرغم من أن الكوفة لم تستطع كسر سيف الحسين ولا بغداد استطاعت أن تسيطر بقواها المادية. ولا يقلد الغرب بالرغم من أنه يثير ويوقظ⁽⁵⁾.

نام الشرق ولم يعد يُرى في سماه نجم يبشر بقدوم رسالة كما فعل قبل ولادة السيد المسيح⁽⁶⁾. خبا في الشرق دنيا الذهب. لم يعد به روح، بل مجرد صورة دون مضمون، بدن بلا نفس. ينتابه طيف الأمانى ولكن نايه صامت. يرقد نائماً في تراث القدماء، يكفّن نفسه فيه ولا يرجو بعثاً⁽⁷⁾.

(1) أيمشرق أو مغرب
فهنأ تموت ذواتها
وأرى القلوب لثورة
فلعل دنياك القديمة
نار الحياة ونورها؟
وهناك مات ضميرها
ملاً البلاد زفيرها
للمات مسيرها

(2) Persian Psalms, p. 41.

(3) Ibid., p. 49.

(4) حيلة الإنكليز تظهرها أم
السبق، ص 457.

(5) يقصد المبدع الغيور بلادا
لا إلى الكوفة التي ما استطاعت
نظراتي التي تموج فنونا
منحتني في حالة الغرب صحوا
لمعانيه غير كل البلاد
كسر سيف ولا إلى بغداد
والتي تملأ الفؤاد حبوراً
ونشاطاً وغبطة وسروراً
السبق، ص 459.

(6) نام هذا الشرق لا يرعاه نجم
السبق، ص 373.

(7) خبا في الشرق دنياك اللهب
وأضحى صورة ترنو إليها
فأين الروح بل أين الوجيب
وما للعيش من ذوق لديها

وفي كل أمة ذليلة فقهاء السلطان. يضمون المفكرين والعلماء والشعراء والأدباء لتبرير السلطان، وتمرين الأمة على الخضوع. ويقضون على ما لديها من إقدام لقبول العبودية والرق. ويستعملون لذلك كل فنون التأويل والخداع والجدل⁽¹⁾. والأئمة الأذلاء أحد أسباب أمراض الأمم. يبررون شريعة الأسود والثعالب للمتسلطين من الخارج أو الداخل. ويحيدون عن شريعة الحياة والقوة إلى مذاهب الخنوع والاستكانة، يدعون المسلمين إليها⁽²⁾.

وجزاء من السياسة تملق المناصب العليا مثل الوزارة والرياسة. فقد أكثر الهند منها بدعوى استقلال الولايات الهندية وضرورة إدارتها. وتطلع الهندو إليها. وتلقوا من تنصبوا فيها حتى ينالوا منها شيئاً ولو درجة أدنى. كثر مدح الوزراء. وقبل الوزراء المدح. فماتت الذات، ذات المادح وذات الممدوح ﴿قِيلَ الْخَرْصُونَ﴾. وكيف يمدح الصقر البوم إلا إذا كان تملقاً ونفاقاً. فشتان ما بين المادح والممدوح⁽³⁾. لقد قدم الفرنجة هذه المناصب لغواية المسلمين. وهي موت للذات،

وُسِّكْتَ نَابِهِ رَجْعَ الْأَغَانِي
قِيَامَ الْبَعْثِ يَوْمَا مَا عَنَانَا

من عليم وشاعر وحكيم
جمع الآراء مقصد في الصميم
قصص الأسد في الحديث القديم
كل تأويلهم خداع عليم

يقصّر في شرحهن البيان
يرى دائما حكمة الثعلبان
على قومه في خطوب الزمان
لقوة فرعون طوع البنان

ولكن ربّ القلب للغيب يشهد
فذاتك دستور وعهد مجدّد
فهل ذاك حق أو دهان يرّد

متاجر بالدين والأخلاق

يُجَانِي قَلْبَهُ طَيْفِ الْأَمَانِي
لَنَا كَفْنٌ وَنَرْقُدُ فِي ثَرَانَا

ليس يخلو زمان شعب ذليل
فرقتهم مذاهب القول لكن
علّموا الليث جفلة الطيبي وامحوا
همهم غبطة الرقيت برق
ضرب الكلّيم، ص 101 - 102.

بأسباب سقم الشعوب خفاء
بشرع الأسود إمام العبيد
كليم الإله يُرى لعنة
إذا كان في السر هذا الكلّيم
السابق، ص 112.

جهلت أمور الناس غير مجرّب
فقل لوزير ما بدا لك مادحا
إذ قال صقر الليل لليوم مادح
السابق، ص 100.

كم عالم فاضل مماري
السابق، ص 119.

وتحول من التوحيد إلى الشرك، وشراء للذمم والضمائر⁽¹⁾. لقد كذب الغرب بالوعود وبدلوها. فالابتعاد عنهم ضروري. والاعتماد على النفس وعلى الإله هو القادر على خلق عالم جديد⁽²⁾.

وقد ضربت مصر مثلاً في الجمع بين العقل والقوة بتمثال أبي الهول. لذلك خرج منها موسى بعصاه التي فجرت المياه من الصخر. وآمنت برسالة المصطفى التي جمعت بين الحكمة والحسام⁽³⁾.

ويعم الفرخ للغز الإنجليز وللذي عرّى غروره. وفي نفس الوقت يشع النور من زجاج سور الصين العظيم. يتراءى السر في المرايا، ويلمع على رؤوس الهيمالايا⁽⁴⁾. تقود نهضة الشرق إذن مصر والصين.

وعلاج أمراض الشرق في النهاية بناء على تجربة الشاعر في البداية⁽⁵⁾.

- | | | |
|-----|--|----------------------|
| (1) | سحر الفرنجة قد أحاط بمؤمن
فلعل منصبك الرفيع مبارك
هذي القضية معضل إخفاؤها
لا شرك في حكم لعبد إنما | السابق، ص 100 - 101. |
| (2) | عن الإفرنج فلتكن البعيدا
لك النظرات خذها عن ملك
أرمغان حجاز، ص 455. | |
| (3) | من أبي الهول أتني نكتة
بدلت سير شعوب جملة
طبعها في كل عصر مائل
فهي طورا في حسام المصطفى | ضرب الكلم، ص 104. |
| (4) | فرح للغز الإنكليز
ولأن ذات السر يعكس
هوذا على مرأى وسمع الكون يرقص في المرايا
ويجيش في آلود يلمع في رؤوس الهيمالايا | جناح جبريل، ص 511. |
| (5) | لقد جربت ذلك في البداية
منحت الشرف منه في النهاية | زبور العجم، ص 375. |



الباب السادس

التراث والتجديد



الفصل الأول

التراث الفلسفي القديم

1 - «زبور العجم»

وموضوع «القديم والجديد» شائع في الدواوين الشعرية، وليس فقط في الكتابات النثرية. إذ يدعو إقبال في «زبور العجم» إلى القطيعة مع القديم ثم إعادة بناء العالم من جديد. ومن مبدأ «لا إله» فإنه ينتهي إلى «إلا الله». فشعار التوحيد فعلان: نفي في «لا إله»، وإثبات في «إلا الله»⁽¹⁾.

ويطرح إقبال تسعة أسئلة من التراث القديم يحاول الإجابة عليها إجابة جديدة. والأسئلة التسعة فلسفية مجردة خالصة عن التفكير والعلم، والممكن والواجب، والمحدث والقديم، والنفس والبدن، والجزء والكل، والحقيقة والطريقة، والمفارقة والحلول، والوحدة. والردود عليها شعورية خالصة من فلسفة الذات.

1 - ما هو التفكير؟ أي فكر طاعة الله، ثم يؤدي الفكر إلى الكفر؟⁽²⁾. هو الانعكاف على الذات لمشاهدة العالم، والغوص في النفس للوصول إلى الكون، لا فرق بين الذات والموضوع، بين الدين والعالم⁽³⁾.

Persian Psalms, p. 82.

(1)

فما مفهوم ما يدعى التفكير
نطيع الله ثم نكاد نكفر!

وقفت حيال فكري في التحير
طريق شرطها من أي فكر؟

زبور العجم، ص 375 - 378.

وتوأمه هو الدين القويم

وهذا الملك، والملك العظيم

(3)

السابق، ص 378.

2 - ما العلم وفي أي بحر وأي در يخرج؟⁽¹⁾ هو علم الشعور الذي لا ساحل له. والشعور منفتح على العالم من خلال الحواس. العالم ينمو ويكبر. فالنمو سنة الحياة والشعور متجدد مثله⁽²⁾.

3 - ما العلاقة بين الممكن والواجب، والقريب والبعيد؟ يصعب حد هذه الأمور بالعقل، ظاهراً أو باطناً. إنما هو إحساس داخلي بالزمان، وعشق بالقلب، وعود إلى الذات، وتفجير طاقاتها، وعشق الممكن كواجب بالفعل. فالصلة بينهما ليست صلة عقلية بطريقة المتكلمين والفلاسفة بل صلة الإمكان بالتحقيق أو ما بالقوة إلى ما بالفعل. ولا يستعمل إقبال المفهومين العقليين بل يجيب عنهما من خلال فلسفة الذاتية⁽³⁾.

4 - ما هو المحدث والقديم؟ هل هما المعروف والعارف، الإنسان والله؟ ولماذا عشق المحدث للقديم والتوجه إليه بالقصد؟ وينقل إقبال الحجاج العقلي الكلامي الفلسفي المجرد إلى تجربة الفراق والوصال الصوفية. فقد انفصل المحدث عن القديم، ويشتاق إلى العودة إليه. وافترق عنه ويحن إلى الجمع به. ينقل إقبال الموضوع من العقل إلى الوجود، ومن الفلسفة إلى التصوف، ومن النظر إلى التجربة⁽⁴⁾.

5 - من هي الذات وما بها من قصد؟ هي أول الكائنات وأصل الحياة. شرارها يصعد إلى النجوم. لا حدود لها. تفرق وتجمع. تخفى وتتجلى. تأمل

- | | |
|-----|--|
| (1) | وعلم كان ساحل أبي بحر؟
السابق، ص 378 - 381. |
| (2) | حياة، يا لها بحرا يمور
وفي دنياه ليس له مقام
إذا أغمضت عنها العين هانت
برؤيتنا لدنيانا النماء
السابق، ص 378 - 379. |
| (3) | يقال لممكن صلة بواجب
السابق، ص 381 - 384. |
| (4) | أهذا محدث هجر القديم
أمعروف وعارفه، إلهي
السابق، ص 384 - 387. |

دائماً. وهي التي تحمل الأمانة والرسالة. مكانها في القلب. من الطين تخرج بنفس الحياة، وإليه تعود، ومنه تُبعث إلى الحياة من جديد. تعيش في عالم الضرورة وهي حرة. وهي الأمانة على نفسها المحافظة على كيانها⁽¹⁾.

6 - هل الذات جزء من كل؟ وما الطريق إلى البحث عن ذلك؟⁽²⁾، الذات ليس لها نموذج أو قياس لأنها فرد. يمكن تصويرها بالهبوط والصعود، حركة دائبة بين السماء والأرض. هي مجرد شعور، قادر على أن يجوب أنحاء الفضاء. هي نور في ظلمة الصدر. هي روح من نفس الإله⁽³⁾.

7 - من الذي يعبر السبيل ويسافر، ويصف الكمال في الذهن والذكر؟. والجواب هو أين المقر؟ والطريق بداية ومسار ونهاية. البداية في الطين والبدن، والمسار في الحياة والروح، والنهاية في الخلود⁽⁴⁾.

8 - ماذا يعني «أنا الحق» مقالة الحلاج الشهيرة؟ هل الشطحة هراء أم حقيقة؟⁽⁵⁾. هي تجربة صوفية وليست مقولة فلسفية. أشيع عنها أنه تجربة مجوسية أو أنها تجربة خادعة للذات مع أنها تجربة قلبية. قد لا تتفق مع حكم العقل، حلم يقظة، ليست علماً قياسياً ولا هي وهم عجاب. هي تجربة الذات، ترى ذاتها. هي تجربة حقيقية، تجربة التوحد بين العاشقين، البقاء بالذات، وليس الفناء عنها⁽⁶⁾.

9 - ما هو سر الوحدة، وماذا تعني؟⁽⁷⁾. هي أحد المقامات، قبة يطيب تحتها

-
- | | | |
|-----|---------------------------|----------------------------|
| (1) | أجبنني من أنا؟ وضح أنا لي | وما في الذات من شد الرحال؟ |
| | السابق، ص 387 - 390. | |
| (2) | أهَذَا «الجزء» عن كل يزيد | وكيف البحث عنه لمن يريد؟ |
| | السابق، ص 390. | |
| (3) | السابق، ص 390 - 392. | |
| (4) | ومن عبر السبيل ومن مسافر | ووصف كمال من في ذكر ذاكر |
| | السابق، ص 392. | |
| (5) | أتعرف ما تضمنه «أنا الحق» | أتحسبه هراء حين ينطق؟ |
| | السابق، ص 395. | |
| (6) | السابق، ص 395 - 397. | |
| (7) | وسر الوحدة الخافي أتدري | أيعلم عارف باليت شعري؟ |
| | السابق، ص 397. | |

ويلتهب أعلاها، شمس وضياء. تجمع ولا تفرق، تضم ولا تباعد، تحمي ولا تعتدي⁽¹⁾.

وفي الدواوين الأخرى، يظهر نفس الموضوع في صورة تساؤلات وتحديات مثل: إذا كانت السماء قادرة على الإطاحة بالسلطة الفاشية فلماذا تهبط للطغاة على حساب الشعب الجريح؟⁽²⁾. وهو تحد لأشكال الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية في سلوك البشر أو لأشكال العدل الإلهي والحسن والقيح العقلين.

كما ينادي الساقى بإحضار خمر جديد بدلاً من الخمر القديم. فقد تبدل الزمان. ينادي إقبال على الساقى بإحضار الكؤوس من الدنان، وبألا يثخن القلب الجريح بمزيد من الظمأ، وهو أجدر بالحنان. ولا يريد خمرأ أو كأساً قديماً لم يعد يؤثر في القلوب. يريد خمرأ تشق لها الجيوب، تؤثر وتفعل، تصخب وتصيح، وليست الخمر التي تبعث على الكآبة كالورد الذابل على الخدود، تثير إشكالات الأمة وتذيع أسرار الخلود. يطلب من الساقى هتك الأستار، وأن يجعل العمر الباقي جلوة الأسرار. ولذة اللحن ليست في الوتر ولكن في القلب الذي يصوغ اللحن⁽³⁾. لقد تبدلت أنغام الزمان، وجوقة العزف البارد الرتيب، واضطربت آلاته لتمرد النغم الجديد⁽⁴⁾.

(1) السابق، ص 398.

(2) أنا لا أفهم ما قصد السماء وهي بالسلطة لو شاءت تطيح؟
تهب السلطة من لا يملكون أي مفهوم عن الشعب الجريح

جناح جبريل، ص 444.

(3) يا أيها الساقى فهات من الكؤوس من الدنان
لا تثنخن القلب الجريح وأنت أجدر بالحنان
دعني أبدد خمرتي أسفا على الكأس العتيق
ما كل ما دار السقاة به تدور به القلوب
أنا أطلب الخمر الني كانت تشق لها الجيوب
كانت تفيض كآبة كالورد يذبل في الخدود
فتسر إشكالاتنا وتذيع أسرار الخلود
أيها الساقى هتك الأستار
عمرنا الباقي جلوة الأسرار
لذة التلحين ليس في الأوتار

السابق، ص 510 - 511.

(4) بدلت أنغام الزمان، ونوطة العزف البليد =

يئس الشاعر من الشيوخ القدماء. ولديه أقوال جديدة أكثر وضوحاً. والمستقبل يجب الماضي⁽¹⁾. ولماذا ذكر الماضي المجيد وهو لا يفيد. وفي القلب سراج، ولكنه خامد لا ينير منذ قرنين؟⁽²⁾. لقد طوي الزمان القديم وأتى الزمان الجديد⁽³⁾. التقليد ثوب قديم للتمزيق باسم التوحيد المتجدد فهمه⁽⁴⁾.

2 - تطور الفكر الفلسفي

ويتناول إقبال موضوع «التراث والتجديد» في دراساته الفلسفية النظرية في أعماله النثرية في عملين رئيسيين. الأول في بداية حياته «تطور الفكر الفلسفي في إيران، إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية». وهي رسالته التي حصل بها على الدكتوراه من جامعة مينشن عام 1908⁽⁵⁾، والثاني «تجديد التفكير الديني في الإسلام» في أواخر حياته. وهي محاضرات خمس ألقاها في مدينة مدراس عام 1936⁽⁶⁾. ومع ذلك يظل شاعراً أكثر منه باحثاً، وأديباً أكثر منه عالماً. في شعره

- | | | |
|---|---------------------------|---------------------|
| وتتمرد النغم الجديد | وتدأخلت آتاه | = |
| | | السابق، ص 511. |
| ولدي عن غدي قول مبین | قد يئست من شيوخ الأقدمين | (1) |
| | | جاويد نامه، ص 142. |
| فهذا الذكر ما كان المفيدا | لمأذا أذكر الماضي المجيدا | (2) |
| وفي قرنين أنست الخمودا | بصدري قد حويت أنا سراجا | |
| | | أرمغان حجاز، ص 445. |
| ولكن لي الجديد من الزمان | طواه بفتنة عصر قديم | (3) |
| | | السابق، ص 451. |
| وخذ التوحيد منه وافهمته | إن للتقليد ثوبا، مزقته | (4) |
| | | جاويد نامه، ص 266. |
| محمد إقبال: تطور الفكر الفلسفي في إيران، إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة أ.د. حسن محمد الشافعي، أ.د. محمد السعيد جمال الدين، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1409هـ - 1989م. العنوان الأصلي للكتاب: Development of Metaphysics in Persia. وقد ترجم العنوان بتصريف. فقد ترجم لفظ Metaphysics بلفظي «الفكر الفلسفي». كما ترجم اسم Persia باسم «إيران». وهناك ترجمة أخرى عن الفرنسية للموضوع للدكتور محمد مجيب المصري. | | (5) |
| محمد إقبال «تجديد التفكير الديني في الإسلام»، ترجمة عباس محمود، راجع مقدمته والفصل الأول منه المرحوم عبد العزيز مراغي، وراجع بقية الكتاب الدكتور مهدي علام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة، 1968، وقد صدرت الطبعة الأولى عام 1952. = | | (6) |

نبض الأمة. وفي بحثه أثر الاستشراق. العمل الأول في التراث، والثاني في التجديد. الأول في القديم، والثاني في الجديد.

ويتضمن «تطور الفكر الفلسفي في إيران» قسمين ومدخلاً وخاتمة. الأول «الفلسفة الإيرانية قبل الإسلام» وهو الأصغر. ويحتوي على فصل واحد «الثنية الإيرانية» ليبين أثر الفكر الفلسفي الإيراني قبل الإسلام على الفكر الفلسفي بعده، وكأن الإسلام لم يستطع احتواء الثقافات الشعبية التي كانت موجودة في المناطق التي انتشر الإسلام فوقها، وبرزت بعد الإسلام محدداً لثقافته، خاصة الثنية الفارسية المعروفة. وهو رأي المستشرقين الذي يقسمون الفكر الإسلامي طبقاً للشعوب خاصة «فارس» من أجل التفرقة بين العرب والعجم. فهناك فلسفة عربية وأخرى فارسية على ما هو معروف في كتب المستشرقين، والتحول من العرب إلى الفرس، ومن الدولة الأموية إلى الدولة العباسية. والقسم الثاني «الفكر الفلسفي بعد الإسلام» وهو الأكبر⁽¹⁾. ويتضمن خمسة فصول: الأول: «المشؤون الفرس المتأثرون بالأفلاطونية المحدثة». ويتناول الفلسفة في علاقتها باليونان عامة وأفلوطين خاصة. والثاني «ظهور المذهب العقلي في الإسلام وانهاره» وهو عن علم الكلام خاصة المعتزلة وكما يركز المستشرقون على انهياره وكأن العقلانية كانت طارئة على الإسلام ورافده من اليونان مع مزجها بروح الشرق الصوفي. والثالث النزاع بين المثالية والواقعية، وهو الصراع بين أصحاب الطباع من المعتزلة والأشاعرة باستعمال مصطلحين من الفلسفة الغربية الحديثة. والرابع «التصوف» وإدخاله تحت الفكر الفلسفي لأنه يتعلق بالفلسفة الإلهية. والخامس «الفكر الإيراني في العصر الحديث» وهو ما يسمي عندنا «الفكر العربي الحديث»، ربطاً بين القديم والحديث، واستثناءً للماضي في الحاضر إعداداً للمستقبل. وعلى هذا النحو يضم الكتاب العلوم الإسلامية الفلسفة والكلام والتصوف دون أصول الفقه الذي نبه

= والعنوان الأصلي: Reconstruction of Religious Thought in Islam. وهي ترجمة أيضاً بتصرف إذ ترجمة لفظ Reconstruction بلفظ تجديد. وهي ترجمة معنوية. واللفظ الأدق «إعادة بناء» وهو اللفظ الذي نستعمله كعنوان فرعي للجهة الأولى لمشروع «التراث والتجديد» وهو «إعادة بناء التراث القديم».

(1) ويبدو ذلك في عدد الصفحات. الأول (14)، والثاني (110).

مصطفى عبد الرازق المعاصر له على أنه هو الإبداع الفلسفي الإسلامي الأصيل في «المدخل إلى تاريخ الفلسفة في الإسلام».

وفي آخر كل فصل يرصد إقبال أهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها مطبوعة أو مخطوطة كما كان الحال عليه في أوائل القرن التاسع عشر⁽¹⁾. ومع ذلك فمصادره ناقصة. يعرض مسكويه من «الفوز الأصغر»، وليس من «الفوز الأكبر» أو «تهذيب الأخلاق» أو «تجارب الأمم». ويعرض ابن سينا من «منطق المشركيين» وقطعة من كتاب له ما زال مخطوطاً في المتحف البريطاني⁽²⁾.

3 - الاستشراق

ويغلب على الرسالة «الاستشراق» خاصة في القرن التاسع عشر، وذلك باستعمال المنهج التاريخي⁽³⁾. من الفلسفة الإيرانية قبل الإسلام إلى الفكر الفلسفي بعد الإسلام إلى الفكر الإيراني في العصر الحديث، وكأن الفكر الإسلامي من صنع التاريخ، وليس له بنية فلسفية مستقلة، تتخلل كل العلوم. هو كحلقة في تاريخ الفكر الإنساني. تأثر بما قبله، اليونان وفارس خاصة، دون الرومان والهند. والمؤلف هندي، وفي حاجة إلى مؤثرات خارجية جديدة لتطويره من خلال الفلسفة الغربية الحديثة.

ويعترف إقبال بأن تتبع سلسلة المؤثرات أصبح منهجاً وتقليداً لدى المستشرقين. وهو ما ينطوي على قيمة تاريخية كبيرة دون الإقلال من أهمية العقل الإنساني، وإمكانية اكتشافه نفس الحقيقة في عصور ولدى شعوب مختلفة. المؤثر يعرقل ولا يعطي، ينه ولا يخلق، يثير ولا يوجد من عدم.

وفي نفس الوقت ينقد إقبال المنهج التاريخي مع منهج الأثر والتأثر بأنه يقوم على مفهوم العلية. وهو مفهوم خاطئ يقوم على ربط ضروري بين أ و ب. قد يصح في العلم الطبيعي، ولكنه لا يصح في دراسة الظواهر الإنسانية التي تتطلب الظروف التي نشأت فيها الظاهرة⁽⁴⁾.

(1) السابق، ص 67/46/16 - 69/80/123 - 126/139.

(2) السابق، ص 40/33.

(3) تطور الفكر الفلسفي، مقدمة المترجمين، ص 7.

(4) السابق، ص 81 - 82.

والكتاب مهدي إلى أستاذه توماس آرنولد اعترافاً بدوره في تكوين ثقافته الفلسفية على مدى عشر سنوات، وتقديراً لأحكامه المتسامحة معه⁽¹⁾.

ومن آثار الاستشراق التاريخ بالميلادي في تحقيب الفكر الإسلامي وفي حياة الفلاسفة. فقد ظهر الإسلام في القرن السادس وبدأت الآثار الإغريقية في القرن الثامن. ومسكويه وابن سينا في القرن الحادي عشر، مسكويه (ت 1030) وابن سينا (ت 1037)⁽²⁾ والأشعري (ولد عام 823)، والبيروني (ت 1084)، وابن الهيثم (ت 1038)، ثورة سنباد (755 - 756)، وثورة استادسيس (766 - 768)، وثورة المقنع الخراساني (777 - 786)، وثورة بابك المزدكي (816 - 838). وظهور الشعوبية (عام 815)، والدولة الظاهرية (عام 820)، والدولة الصفارية (عام 868)، والدولة السامانية (عام 874)، وعاش المأمون والأمين في القرن التاسع⁽³⁾. وكذلك مؤسسو المذاهب الفقهية الإسلامية مثل أبو حنيفة (ت 767)، مالك (ت 795)، الشافعي (ت 820)، ابن حنبل (ت 855)، وأحياناً يذكر التاريخ الهجري في تاريخ علم الكلام وظهور الاعتزال. واصل بن عطاء في القرن الثاني الهجري⁽⁵⁾.

بالإضافة إلى المنهج التاريخي يستعمل إقبال منهج الأثر والتأثر. ففكرة الوحدة في التصوف الإسلامي إنما ترجع إلى فكرة الوحدة في الديانات الهندية القديمة مثل البوذية والأسرة الآرية وفي إيران في البهائية. وهو ما يصرح به إقبال من أن الغرض من هذا البحث هو مجرد إرساء أساس لتاريخ الميتافيزيقا الإيرانية، وتأجيل قضية الأصالة فيما بعد⁽⁶⁾. فزادشت نبي الفرس كان موحداً من الناحية العقائدية، ثنواً من الناحية الفلسفية كما لاحظ هوج⁽⁷⁾. ويأخذ معلوماته عن ماني من إردمان⁽⁸⁾، وعن الإسماعيلية من ماكدونالد، وعن الأشعري من سبيتا، وعن

(1) السابق، ص 11.

(2) السابق، ص 32 - 33 / 40 / 57 - 58.

(3) السابق، ص 83.

(4) السابق، ص 83.

(5) السابق، ص 48.

(6) السابق، ص 14 - 15.

(7) السابق، ص 19.

(8) السابق، ص 22 / 55 / 58 / 120 / 128.

الجيلي من ماثيو آرنولد، وعن مللا صدرا من دي جوبينو. ومن علماء تاريخ الحضارة والدين يعتمد إقبال على «قصة الخلق» لكلود⁽¹⁾. والتصوف متأثر بالأفلاطونية المحدثة في الإلهيات والكونيات⁽²⁾. كما يعتمد على كتاب لويس «تاريخ الفلسفة» وهو من الكتب العامة لمعرفة علاقة العرب بأرسطو⁽³⁾. ويعتمد على كتب التاريخ المقارن للأديان والحضارات الذي ارتبط بالاستشراق⁽⁴⁾. ويحيل إلى بعض المستشرقين المنصفين مثل توماس آرنولد واعترافه بانتشار الإسلام سلماً في جنوب شرق آسيا وأفريقيا⁽⁵⁾.

ومع ذلك للفلسفة العربية أصالتها في القول بخلود الروح إذا ما قورنت بأرسطو والأفلاطونية المحدثة على ما يقول هوناك⁽⁶⁾.

وهناك تيارات ومفكرون معادون للفلسفة اليونانية ناقدون لها مثل النظام والغزالي والرازي وأبي البركات والأمدي. كما نقد آخرون المنطق اليوناني مثل السيرافي والقاضي عبد الجبار وأبو المعالي وأبو القاسم وابن تيمية. وانضم إليهم بعض الصوفية كالسهروردي الذي حاول إثبات عجز العقل ودحض الفكر اليوناني في كتاب «رشف النصائح الإيمانية وكشف الفضائح اليونانية».

وفي نفس الوقت ينقد إقبال إردمان في ظنه أن روح البحث قد اضمحلت بين المسلمين بعد الفارابي وابن سينا، وأن الفلسفة قد أفلست، واستسلمت إلى الشك والتصوف دون أن يعرف النقد الإسلامي للفلسفة اليونانية الذي أفضى إلى المثالية الأشعرية⁽⁷⁾.

وقد نشأ التصوف بفضل عدة عوامل سياسية وثقافية ودينية ومذهبية. أولاً، كانت الحقبة كلها تفتقر إلى الاستقرار السياسي. وظهرت الشعوبية التي تعاطمت مع

(1) السابق، ص 92.

(2) السابق، ص 93/95.

(3) السابق، ص 129.

(4) وذلك مثل كتاب جيغر Geiger «حضارة الإيرانيين الشرقيين في العصور القديمة»، تطور، ص 18.

(5) Thoughts and Reflections, p. 47.

(6) السابق، ص 94.

(7) السابق، ص 96.

الأسر الحاكمة الفارسية المستقلة مثل الدولة الظاهرية والدولة الصفارية والدولة السامانية⁽¹⁾. ثم غزي الطابع السامي الدقيق للحياة لدى الزهاد المسلمين الأوائل تدريجياً. ونظرية وحدة الوجود ذات الصبغة الآرية مواكبة لحركة الاستقلال السياسي للفرس. ثانياً، ظهرت الاتجاهات الارتياحية التي بذرت الشك وضرورة تحكيم العقل مما دفع بعض الصوفية إلى التأكيد على وجود مصدر أعلى للمعرفة كما فعل القشيري في «الرسالة القشيرية». ثالثاً، تقوم المذاهب الإسلامية الفقهية كالحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة على التقوى دون العاطفة. رابعاً، شجع المأمون المناظرات بين المذاهب الإسلامية المختلفة خاصة بين الأشعرية والمعتزلة مما دفع الصوفية إلى الخروج من هذه المناقشات الفقهية إنقاذاً للروح. خامساً، ضعفت الحمية الدينية تدريجياً بسبب ميل العصر العباسي نحو العقلانية بالإضافة إلى نمو تيار البذخ والترف مما أدى إلى الضعف الأخلاقي ولامبالاة الطبقات الاجتماعية العليا بالدين. سادساً، وُجدت المسيحية كنموذج للتطبيق خاصة حياة الرهبان وأثرها على الزهاد الأوائل بالرغم من تنافي ذلك مع روح الإسلام.

وهي نفس أسباب النشأة للتصوف اليوناني ممثلاً في الأفلاطونية المحدثة من حيث عدم الاستقرار السياسي في اليونان، وغارة برابرة الخيام على أباطرة القصور. ويتحدث أفلوطين في إحدى رسائله إلى فلاكوس عن عدم الاستقرار السياسي، واللامبالاة الدينية في الإسكندرية مسقط رأسه، وكذلك سيادة نزعة الشك ومزجه عند انتيكوس بالرواقية، وظهور الشك عند سكتوس امبريقوس تحت تأثير الشك القديم لبيرو مما أدى إلى اليأس الذي هدى أفلوطين إلى الحقيقة. وربما دفعت إلى التصوف الأخلاقي الرواقية الجافة الخالية من العواطف، وظهور النموذج المسيحي⁽²⁾. وقد استمرت النزعة الأفلاطونية المحدثة في الفكر الإيراني الحديث عند ملأ صدرا وهي أحد مصادر البائية، ممتزجة ببعض العناصر الزرادشتية. كما استمرت عند ملأ هادي⁽³⁾.

ويؤصل إقبال التصوف في القرآن الكريم كما يفعل الصوفية أنصار نظرية

(1) السابق، ص 82 - 85.

(2) السابق، ص 85 - 86.

(3) السابق، ص 128 - 129.

المصدر الإسلامي للتصوف سواء في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أو حياة الرسول والصحابة الأوائل⁽¹⁾. فالحكمة المذكورة في القرآن، والإيمان بالغيب، والله نور السموات والأرض، والروح، والصدق والعدل والإحسان كل ذلك هو التصوف.

كما يستعمل إقبال منهج العرض، عرض المذهب مثل عرض مذهب مسكويه ومذهب ابن سينا⁽²⁾. وهو عرض مبتسر غير كامل نظراً لنقص المؤلفات التامة في ذلك الوقت. كما أنه عرض يحيل المذهب إلى أحد جوانبه، مسكويه نحو الكونيات، وابن سينا نحو النفسانيات⁽³⁾. وكذلك تم عرض النسق الاعتزالي والأشعري. ويفصل إقبال النسق الصوفي في عدة مبادئ مثل: الحقيقة كإرادة واعية بالذات مستشهداً بشقيق البلخي وإبراهيم بن أدهم ورابعة، والحقيقة باعتبارها جمالاً كما هو الحال في الأفلاطونية المحدثة والزرادشتية والرومي والبسطامي والحلاج والنسفي، والحقيقة باعتبارها معرفة ونوراً وفكراً كما تعرض الفلسفة الصوفية، الأنطولوجيا، النور المجرد والنور العارض، والكوسمولوجيا، وعلم النفس لتحليل المعرفة والسلوك، والحقيقة باعتبارها فكراً عند الجيلي ونظرية الإنسان الكامل⁽⁴⁾. كما يعرض للمبادئ العامة للفكر الإيراني الحديث عند ملأ صدرا وملاهادي والسبزواري والبايية (المرزا علي محمد الباب الشيرازي المولود عام 1820) والبهائية، وعند الفرقة الشيخية التي أسسها أحمد الإحسائي من تلاميذ ملا صدرا⁽⁵⁾. وحتى لا يكتفي إقبال بالعرض التاريخي كما يفعل الاستشراق فإنه ينهي القسم الأول بمراجعة وتعقيب يبين فيه أن فكرة الوحدة كانت سابقة على الإسلام، وكأن الإسلام استمرار لفكرة وجدت من قبل في فارس⁽⁶⁾.

(1) السابق، ص 87 - 89.

(2) السابق، ص 34 - 45.

(3) السابق، ص 60/49 - 62.

(4) السابق، ص 90 - 122.

(5) السابق، ص 134 - 137.

(6) السابق، ص 25 - 26.

4 - الشعوبية الفارسية

تظهر الشعوبية في العنوان ذاته «تطور الميتافيزيقا في فارس»، وكأن فارس منطقة متميزة في الفكر الإسلامي عن الهند أو العرب. وهو ما تجنبه في عمله الثاني في أواخر حياته «تجديد التفكير الديني في الإسلام»⁽¹⁾. وعلاقة الفلسفة اليونانية بالفكر الفارسي، وليس بالفكر الإسلامي ككل. والفرس جزء من الشعوب الآرية⁽²⁾. وكانوا موضع كراهية من الشعوب الآرية الأخرى. والغزالي له مساهمة في الفكر الفلسفي الإيراني في «مشكاة الأنوار»⁽³⁾. ونشأ اتجاه آخر يمكن تسميته «الوضعية الإيرانية» عند البيروني وابن الهيثم⁽⁴⁾. كما تظهر الشعوبية المعتادة في تسمية الفتح الإسلامي الفتح العربي⁽⁵⁾. وبشار بن برد متشكك إيراني أعمى. أضفى على النار طابعاً إلهياً. وأعرب عن نفوره من كل أنماط التفكير غير الإيرانية⁽⁶⁾. والنقشبندية متأثرة بالفيداننا الهندية، تحقيقاً لمذهب كندالديني «الهندي». وكانت معروفة أيضاً لدى صوفية الفرس مما جعل فون كريمير يرجع التصوف إلى مصدر هندي⁽⁷⁾. و«أنا الحق» عند الحلاج مأخوذة من الروح «الحقيقة الفداننا» الهندي في قوله «أم براهما أسمى»⁽⁸⁾.

وتبلغ ذروة الشعوبية في عرض نظرية المصدر الفارسي للتصوف الإسلامي عند فون كريمير ودوزي. فقد شبهاه بالفيداننا الهندية. كما عزاه ميركس ونيكلسون إلى الأفلاطونية المحدثة. واعتبره براون رد فعل آري ضد الديانة السامية الخاوية من العاطفة⁽⁹⁾. وفي إيران أدى التفاعل الحضاري لدى بعض العقول إلى الوصول إلى صياغة جديدة للإسلام على نفس النسق، والتمثل التدريجي للمسيحية

(1) السابق، ص15.

(2) السابق، ص17.

(3) السابق، ص65.

(4) السابق، ص66.

(5) السابق، ص31/15.

(6) السابق، ص84.

(7) السابق، ص89.

(8) السابق، ص91.

(9) السابق، ص82.

والغنوصية، وتأصيل ذلك في القرآن الكريم. ولم يستطع نقد ابن تيمية القضاء على النزعة الصوفية الإيرانية. وإذا كانت غزوات البرابرة قد أطاحت بالفكر اليوناني فإن غزوات التتار لم تؤثر في التصوف الفارسي⁽¹⁾.

وإذا كان الدين السامي مجموعة من القواعد الصارمة، والفيدانتا الهندية نظاماً فكرياً مجرداً فإن التصوف يغوص في النفس. يجمع بين الصيغتين السامية والآرية داخل مفهوم المحبة. ويتمثل حال الفناء من البوذية. ويضع نظاماً لما بعد الطبيعة لا يتعارض مع الإسلام، ويتأصل في القرآن. فضم التصوف السامي والآري وأعطاهما طابعاً فردياً خاصاً منبثقاً من الفطرة الإنسانية. وقاوم كل الاتجاهات المعادية له بتأسيس إنكار الذات والتأمل. ويعبر أحد عناصر التصوف «الحقيقة» باعتبارها معرفة: نوراً أو فكراً عن روح فارسية أصيلة ممتزجة بأساليب الفكر المسيحي. والقول بأن الحقيقة نور كما هو الحال في الإشراق الصوفي عود إلى الثنوية الفارسية.

كما أدت الأشعرية إلى تجديد حقيقي للروح الفارسية لأن إقامة نظام فلسفي هو إيراني تماماً. وظل يؤكد على ممارسة الفكر الحر المستقل غير هياج بتهديدات السلطة وضيق أفقها. وسعي الموروث الفارسي القديم الذي وجد لنفسه تعبيراً جزئياً في كتابات الرازي الطبيب والغزالي والمذهب الإسماعيلي إلى التصالح بينه وبين الكلام الإسلامي. وقد تلقى السهرودي المقتول الفكر الفلسفي بشجاعة⁽²⁾.

كان على الفكر الفارسي أن يقاوم نوعين من الثنوية، المجوسية قبل الإسلام والإغريقية بعد الإسلام. كانت نظرة الفرس قبل الإسلام موضوعية مادية إلا أن مبدأ الكون فعال ومؤثر. استطاع الفكر الإيراني بواسطة المثالية الأشعرية الثنوية الدخيلة الجمع بين الإله والمادة. ثم عاد إلى الثنوية الإيرانية القديمة بين النور والظلمة. فالسهروردي يجمع بين العقلية الواقعية للمفكرين الفرس قبل الإسلام والعقلانية اللاحقة ليقدر ثنوية زرادشت في صورة أكثر روحانية، جمعاً بين الموضوع والذات. والبابية لازالت تسيطر على الفكر الإيراني الحديث بطابعها

(1) السابق، ص 86 - 87.

(2) السابق، ص 95 - 97.

الصوفي ونزوعها العملي دون اهتمام بالوطن⁽¹⁾.

ينتقل الخيال الإيراني من زهرة إلى زهرة دون استعراض البستان كله في نظرة شاملة. لذلك اتجه إلى شعر الغزل في أبيات متفرقة على عكس الهندي. فعلى الرغم من تسليمه بوجود مصدر أعلى للمعرفة فإنه ينتقل في هدوء من تجربة إلى تجربة للكشف عن وحدتها الباطنة⁽²⁾. والإيراني قليل الوعي بالميثافيزيقا كنظام فكري في حين أن البرهمي على وعي تام بضرورة عرض نظريته في مذهب متكامل. هناك إذن اختلاف في العقليتين، الإيرانية والبرهمانية، غياب الأبنية الفكرية المكتملة في الأولى، وحضورها في الثانية مثل الفيدانتا. وتنمو العقلية الإيرانية غريزياً نحو التوحيد الصوفي⁽³⁾.

والتركيز على إيران أو التخصيص بها هو اجتزاء للفلسفة الإسلامية طبقاً لبلدانه وشعوبه. فابن سينا الفيلسوف الإسلامي لا ينتمي إلى إيران. فقد أسلمت فارس وأصبحت جزءاً من الأمة الإسلامية. وجميع الفلاسفة المسلمين ينتسبون إلى مجموع الأمة. ليس الكندي عربياً، والفارابي تركياً، وابن سينا إيرانياً، وابن رشد أندلسياً وإلا وقعنا في النظرة الشعبوية التي وقع فيها المستشرقون من قبل. كل من تعرب فهو عربي. فالعروبة ليست بأب أو أم إنما العروبة هي اللسان⁽⁴⁾. بل إنه يتحدث عن خصائص الشعوب الثابتة. فأبرز السمات المميزة للشعب الإيراني النظر الميثافيزيقي. والعقل الإيراني فلما يصبر على التفاصيل. يفتقد الملكة التنظيمية التي تضع تدريجياً بناءً متكاملاً للأفكار عن طريق إيضاح الأصول الأساسية من خلال الحقائق والتفاصيل القائمة على الملاحظات الفردية⁽⁵⁾. ومن خصائص التفكير الإيراني ارتباط الفلسفة بالدين⁽⁶⁾.

ويتحدث عن العقلية الفارسية التي تواءمت مع الظروف السياسية الجديدة

(1) السابق، ص 141 - 143.

(2) السابق، ص 14.

(3) السابق، ص 85.

(4) السابق، ص 7.

(5) السابق، ص 13.

(6) السابق، ص 14 - 15.

لتفرض حريتها الذاتية من جديد، وتراجع عن حقل الموضوعية، وتتجه نحو الذاتية لتعكف على ما أنجزته. وقد واكبت العقلانية عصور التشكك والتصوف وألوان البدع والهرطقة، ورفض كل معايير الفكر الخارجي. تم ذلك في بداية الحكم الأموي، واستمر في العصر العباسي⁽¹⁾. واصل بن عطاء فارسي الأصل. وقد شغل الاعتزال طائفة من ذوي العقول البارعة من الإيرانيين⁽²⁾. والمذهب الإسماعيلي حركة فارسية لتحقيق مصالحة مع الفكر المتحرر بدلاً من معاداته أو تجاهله مثل إخوان الصفا. هو حركة من سلسلة المعارك المتصلة التي شنّها الفارسي المستقل الفكر ضد القيم الدينية والسياسة الإسلامية. واستهوت العقلية الفارسية بطابعها السري. واعتبره ماكدونالد مؤامرة لاستئصال العرب من إيران⁽³⁾.

ويسمى إقبال فلاسفة الإسلام مثل مسكويه وابن سينا «المشاءون الفرس المتأثرون بالأفلاطونية المحدثة»⁽⁴⁾. وتستمر الشعوبية في الظهور في عبارات مثل «الفتح العربي لفارس وبداية مرحلة جديدة في تاريخ الفكر الإيراني». وقد أنهى أبناء الجزيرة المحاربون الذين اجتازوا رمالها الشاسعة وجاءوا إلى نهاوند فأنهاؤا بأسيا فهم الاستقلال السياسي لهذا الشعب العريق. وترك الفرس طائعين الزرادشتية. وآمنوا بالدين الجديد بحرية تامة. وحققت الثورة السياسية للفتح العربي تفاعلاً بين الساميين والآريين. فإن ترك الآري مظاهر حياته التي تنطبع بالسامية إلى حد كبير إلا أنه قرأ الإسلام قراءة آرية كما قرأ العقل اليوناني المسيحية، وهي دين سامي، في تجربة مشابهة. وحول الآري صرامة الدين السامي الجديد والقانون المطلق إلى دين داخلي ينبع من الذات مع شيوع الفكر اليوناني في فارس مما عوق إمكانية إنشاء فكر محلي خالص. ومع ذلك حدث تحول من الفلسفة الإيرانية الموضوعية إلى الفلسفة الذاتية⁽⁵⁾.

ويصنف إقبال فلاسفة المسلمين طبقاً لأعراقهم. فمسكويه وابن سينا

(1) تطور، ص 47 - 48.

(2) السابق، ص 48.

(3) السابق، ص 54 - 55.

(4) السابق، ص 31 - 45.

(5) السابق، ص 31 - 32.

فارسيان. والفارابي تركي. ولا يذكر الكندي العربي. ولا يذكر باقي فلاسفة المسلمين مثل ابن باجه وابن طفيل⁽¹⁾.

وقد ساعد الفكر الوافد ويعني به إقبال الإسلام الفكر الفارسي على بلورة التوحيد بحيث يصبح أكثر روحانية. وأخذت الثنوية الفارسية القديمة معني روحياً جديداً كما فعل الفكر اليوناني من قبل. فقد تأثر المفكرون الفرس بالأفلاطونية المحدثة⁽²⁾. وبدأ علم الكلام بالمرحلة السورية في حران وهي المرحلة اليونانية ثم بالمرحلة الفارسية التي بدأ فيها المسلمون يفكرون في دينهم. فنشأ علم الكلام الإسلامي⁽³⁾.

إن أكبر حدث في تاريخ الإسلام هو «فتح فارس» فلم تعط معركة نهاوند العرب فقط بلداً جميلاً بل أيضاً حضارة قديمة، جمعت بين الحضارتين الآرية والسامية. والحضارة الإسلامية هي هذا التخصيب المتبادل بين الأفكار الآرية والأفكار السامية. هي كالطفل الذي ورث نعومة ورقة الأم الآرية وقوة شخصية الأب السامي. ولو لم يتم فتح فارس لأصبحت الحضارة الإسلامية ذات بعد واحد. لقد أعطى فتح فارس للإسلام ما أعطاه غزو اليونان للرومان⁽⁴⁾.

والقول بالخصائص الثابتة للشعوب والشخصيات القومية قد يصل إلى حد النزعة العرقية. ومع ذلك، يستعمل إقبال لفظ الإسلام في عنواني قسمي الكتاب «الفلسفة الإيرانية قبل الإسلام»، «الفكر الفلسفي بعد الإسلام». فالإسلام وليس العرب هو الحد الفاصل في التاريخ⁽⁵⁾.

5 - مراحل الفكر الفلسفي

الفكر الإسلامي حلقات متصلة من إيران إلى اليونان إلى العرب إلى الغرب الوسيط والحديث. فزرادشت نبي إيران مثل أفلاطون. ترتبط الميتافيزيقا لديه

(1) السابق، ص33.

(2) السابق، ص32.

(3) السابق، ص48.

(4) St. Ref., pp. 49 - 50.

(5) تطور الفكر الفلسفي في إيران، ص17/31.

بالأخلاق⁽¹⁾. ولم تكن الحضارة اليونانية وحدها حضارة حرية الفكر. فكثيراً ما وقع فيها اضطهاد المفكرين الأحرار مثل سقراط وأفلاطون. وقد لجأ ديوجين وسيميليوس وآخرون من فلاسفة الأفلاطونية المحدثة إلى بلاط كسرى أنوشروان المتسامح، هرباً من اضطهاد جستنيان⁽²⁾. ويعترف إقبال أن معلوماته عن الفلسفة الشرقية من المراجع الثانوية، وليست من المصادر الرئيسية. فلم يقرأ «الزنداء» المصدر الرئيسي لزرادشت⁽³⁾.

لم تكن الفلسفة اليونانية ذاتها ببعيدة عن الدين، لا الأرسطية ولا الأفلاطونية المحدثة، على غير ما يظن إقبال⁽⁴⁾. ومن ثم لا فضل خاص للفلسفة الفارسية على الفلسفة اليونانية. ويرى إقبال أنه بعد الفتح الإسلامي الذي يسميه الفتح العربي، ظهرت فلسفة خالصة منفصلة من الدين على يد الأرسطيين المسلمين ذوي النزعة الأفلاطونية المحدثة. وهو غير صحيح. فلم تكن هناك فلسفة خالصة منفصلة عن الدين في الفلسفة الإسلامية القديمة.

والثنائية اليونانية العقلية الشهيرة، الجوهر والعرض، الكيف والكم، الزمان والمكان، الواحد والكثير... إلخ والتي استعملها الفلاسفة المسلمون للتعبير عن ثنائية الله والعالم، القديم والحادث... إلخ ليست ثنوية فارسية: النور والظلمة، الخير والشر، الإله والشيطان، الروح والمادة.

وقد انتقلت الفلسفة اليونانية في آخر صورها وهي الأفلاطونية المحدثة إلى الإسلام من خلال سوريا وحران ظناً أنها هي الفلسفة المشائية المتبقية لأرسطو من خلال نسبة ترجمة موجزة لتاسوعات أفلوطين له على أنها «ميتولوجيا أرسطو» قبل التمييز بينهما، ودون فهم دقيق لكل من أرسطو وأفلاطون. وهناك نصوص «سخيفة» نقلها مترجمون غير أكفاء. وربما يقصد بها إقبال المتحولات⁽⁵⁾.

ويصدر إقبال على الفلاسفة المسلمين أحكاماً عامة تنقصها الدقة. فابن سينا

(1) تطور الفكر الفلسفي في إيران، ص 21.

(2) السابق، ص 26.

(3) السابق، ص 15.

(4) السابق، ص 15.

(5) السابق، ص 32 - 33.

أكثر دقة وأصالة من الفارابي ومسكويه. وابن رشد الأندلسي بالرغم من قربه من أرسطو إلا أنه لم يتمكن من الفهم الدقيق لفلسفته على عكس الحكم الشائع بأنه «الشارح الأعظم». وشروحهم محاولة للاكتشاف أكثر منها عروضاً أو تفاسير. ولم تترك لهم الظروف الوقت الكافي للعمل على بناء أنساق فكرية مستقلة بذاتها تدل على عقل حاذق حُبس وسط ركام من الغثاء المعوق⁽¹⁾.

ثم ظهر المذهب العقلي وانهار، وكان العرب لم يستطيعوا الاستمرار في العقلانية إلى ما لا نهاية⁽²⁾. كان العقلانيون من الناحية الفلسفية ماديين، ومن الناحية الدينية (اللاهوتية) مؤلهة⁽³⁾. كانوا ماديين، فالعقل والمادة قرينان. ثم حدث رد فعل على المذهب العقلاني المادي في اتجاهين معاكسين: الشك أو اللادرية من ناحية مثل الجاحظ وثمامة بن الأشرس، والتصوف من ناحية أخرى. وكان مذهب التعليم الإسماعيلي أيضاً رد فعل على العقلانية المادية، ومصالحة مع الفكر المتحرر بدلاً من معاداته أو تجاهله⁽⁴⁾. واقترب البلخي من نظرية المعرفة الأشعرية التي سددت ضربة قاسية إلى النظرية المادية للعقلانيين⁽⁵⁾. كانت الأشعرية رد فعل كبير ضد العقلانية. وهو رد فعل محافظ⁽⁶⁾. والتصوف نتاج طبيعي للأحداث والظروف التي أنشأتها⁽⁷⁾. وكان أكبر رد فعل على العقلانية المادية ويفرد له إقبال الفصل الخامس كله⁽⁸⁾.

وطبقاً لأسماء الأعلام المذكورة يغلب التراث القديم على التراثين الشرقي واليوناني الغربي. ففي التراث القديم يتقدم الأشاعرة ثم المعتزلة كأهم فرقتين كلاميتين. الأولى روحية مثالية، والثانية عقلانية مادية. ثم يأتي الجيلي والإنسان الكامل الذي يتوحد فيه الشرق والغرب، إيران والإسلام. ثم تظهر الإسماعيلية كرد

(1) السابق، ص33.

(2) السابق، الفصل الثالث: ظهور المذهب العقلي في الإسلام وانهياره، تطور ص47 - 69.

(3) السابق، ص51.

(4) السابق، ص54.

(5) السابق، ص52.

(6) السابق، ص58 - 66.

(7) السابق، ص15.

(8) السابق، ص81 - 122.

فعل على العقلانية. ثم يأتي مسكويه وابن سينا مفكرين فارسيين ثم الغزالي ممثلاً رد الفعل الصوفي، ثم ملا صدرا من المتأخرين. ويخصص إقبال للبهائية والبابية مساحة كبيرة في الفكر الإيراني الحديث مبدئياً تعاطفاً معهما لنزعتهما الصوفية. ثم تتفاوت أسماء الأعلام فيما بعد بالعشرات مما يدل على سعة إطلاع إقبال على التراث الإسلامي القديم⁽¹⁾. كما تذكر عدة مؤلفات قديمة⁽²⁾. ولم تُذكر الآيات القرآنية إلا مرات قليلة⁽³⁾.

ومن التراث الفارسي القديم يتقدم زرادشت والزرادشتية ثم ماني والمانوية، ثم مزدك والمزدكية، ثم بوذا والبوذية. ومن الملوك يذكر كسرى أنوشروان الذي أعجب به المسلمون لعدله⁽⁴⁾.

6 - الفلسفة الغربية كوسيلة للتحديث

ويخلل تحليل القدماء بعض وجهات نظر تحديثية ليست بقدر العمل الثاني الموجه إلى هذا الغرض وهو «تجديد التفكير الديني في الإسلام». وإقبال على

(1) القرآن (9) الأشاعرة، الأشعرية، الأشعري (49)، الاعتزال، المعتزلة، الجيلي (17)، الإسماعيلية (16)، مسكويه، ابن سينا (13)، الغزالي (9)، ملاً صدرا (7)، البهائية، البابية، الباب (6)، الفارابي، فخر الدين الرازي، السهروردي، النظام، الرومي، الكاتب (5)، ابن المبارك، وحيد الدين محمود (4)، الشهرستاني، الماتريدي، ابن تيمية، النسفي، الرشتي (3)، إخوان الصفا، الرازي الطبيب، الجاحظ، ابن حزم، بشر بن المعتمر، القاضي عياض، الحسيني، القشيري، ابن عربي، الجيلاني، السيزواري، أحمد الاحسائي، صلاح الدين، معمر بن عباد (2)، ابن رشد، السرخسي، أبو المعين الاصفهاني، المعصومي، واصل بن عطاء، أبو هاشم، أبو الهذيل، محمد ابن عثمان، أبو القاسم، ثمامة بن الأشرس، يوسف البصري، المقنع الخراساني، بشار بن برد، أبو حنيفة، مالك، الشافعي، النقشبندية، الشلي، ابن الجوزي، البيروني، ابن الهيثم، التجاري، شقيق البلخي، إبراهيم بن أدهم، رابعة، الكرمي، البسطامي، الحلّاج، حافظ الشيرازي، أبو البركات، الأمدى، السيرافي، القاضي عبد الجبار، أبو المعالي، أبو القاسم، مجد الدين الجيلي، الاصفهاني، ملاً هادي، الجبائي، البافلاني، العطار، البصري، سيمون القداح... إلخ.

(2) مثل «الفوز الأصغر» لمسكويه، «حكمة المشرقين» لابن سينا، «المضنون به على غير أهله» و«مشكاة الأنوار» للغزالي، «حكمة العين» للكاتب.

(3) القرآن (9).

(4) زرادشت، الزرادشتية، الزرادشتيون (22)، ماني، المانوية (20)، مزدك، المزدكية (6)، بوذا، بوذيون (6). كسرى أنوشروان، كابيلا (3). متهارا، كنداليني، سنباد، استادسيس (1).

وعى بذلك بأنه يعبر عن تطور الفكر الإيراني بلغة الفلسفة الحديثة. وهي أول محاولة فيما يعلم، وكما استخدم القدماء الألفاظ والمصطلحات اليونانية كذلك يستخدم المحدثون الألفاظ والمصطلحات الغربية. وقد توصل الجيلاني في «الإنسان الكامل» إلى نفس ما انتهى إليه كانط⁽¹⁾.

والفكر الغربي الحديث نفسه يمتد إلى الفكر الشرقي القديم. ومن ثم يكون استعماله من جديد للتعبير عن الفكر القديم بمثابة «هذه بضاعتنا ردت إلينا». فقد أثر الفكر الثنوي عند زرادشت على الفلسفة الإغريقية القديمة وعلى الفكر الغنوصي المسيحي المبكر ثم على بعض جوانب الفكر الغربي الحديث⁽²⁾.

ومن التراث الغربي الحديث يأتي في المقدمة هيغل الذي عبر أصدق تعبير عن التصوف الإسلامي، ثم كانط لعقلانيته ومبدئه الخلقى، ثم شوبنهاور وشيلرماخر وبركلي لفلسفتهم الذاتية الإنسانية، ثم فشته وجاكوبي لتصوفهما، واسبينوزا وليبنتز لفلسفتهما في الوحدة. ثم يشار إلى بعض الرومانسيين مثل شليجل وسولجر ووردزورث، وبعض العقلانيين والمثاليين مثل هاملتون⁽³⁾.

ومن التراث اليوناني القديم يتقدم أرسطو والأرسطية والأرسطيون المسلمون بطبيعة الحال، ثم الأفلاطونية المحدثة، وأفلاطون موضوع الدراسة الرئيسي ثم أفلوطين، ثم المشاءون الفرس. ويذكر كتاب «التاسوعات». كما تذكر الرواقية. ولأرسطو احترام كبير لأن أثره كبير على المسلمين وجحوده لأفلاطون يمنع من الإعجاب الكامل به. صحيح أن نقده لأستاذه وارد، ولكن العيب في طريقة نقده. مع أن المسلمين أعجبوا بعبارة أرسطو «أحب أفلاطون ولكن حبي للحق أعظم». والدهشة عند أفلاطون أم العلوم. وينظر الشاعر بديل (ميرزا عبد القادر) إليها من وجهة نظر أخرى. قيمة الدهشة عند أفلاطون هو أنها تعود إلى سؤال الطبيعة. وعند بديل قيمتها في ذاتها بصرف النظر عن نتائجها الذهنية. وهو تعبير جيد عن

(1) السابق، ص 15/7.

(2) تطور، ص 19 - 20.

(3) هيغل، هيجلي، (9). كانط (5). شوبنهاور، شيلرماخر، بركلي (4). فشته، جاكوبي، اسبينوزا، لينتز، نقد العقل الخالص (2)، كومت، ديمستر، شليجل، ديكرات، هيوم، بورجر، سولجر، هاملتون، هربارت ووردزورث... إلخ (1).

الفكرة⁽¹⁾، وسكتوس امبريقوس⁽²⁾. ويحال إلى عديد من المستشرقين وعلماء تاريخ الأديان والحضارات المقارن⁽³⁾.

وتتسم الدراسات الإسلامية لإقبال بنقلها من مستوى الحضارة اليونانية القديمة أفلاطون وأرسطو إلى الحضارة الغربية الحديثة عند ديكارت واسبينوزا وكانط وهيغل ونيتشة وبرجسون. وواضح أن كانط هو الأكثر جذباً مع الإحالة إلى «نقد العقل الخالص». فكانط هو نموذج الفيلسوف صاحب المذهب⁽⁴⁾. كما يبدو كانط في موقفه من الميتافيزيقا وارتباطها بالعلم في «نقد العقل الخالص» أنه دفع بعض الفلاسفة مثل جاكوبي وشيلرماخر إلى تأسيس الإيمان كحقيقة مثالية، وكذلك بالنسبة للشاعر الشاك وردزورث في حديثه عن الحالة الخفية للذهن التي تحيلنا كلية إلى الروح، وتجعلنا نعي حياة الأشياء⁽⁵⁾. وهو نموذج الفيلسوف صاحب المذهب الذي لم يصل إليه الشعب الإيراني بالرغم من نظراته الميتافيزيقية⁽⁶⁾. ويسلم الجيلي في «الإنسان الكامل» بالنتائج التي توصل إليها كانط فيما بعد في كتابه «نقد العقل الخالص» إلا أن الجيلي يجعل هذا الخيال نفسه جوهر الكون. فالشيء في ذاته الذي قال به كانط هو عند الجيلي عدم محض. لا شيء وراء الأعراض. الأعراض هي الحقيقة⁽⁷⁾.

وفكرة الوحدة في التصوف الإسلامي ترجع إلى نفس الفكرة لدى الشعوب

(1) St. Ref., p. 83.

(2) أرسطو، الأرسطية، الأرستين المسلمين (25). الأفلاطونية المحدثة (19). أفلاطون (13). أفلوطين

(4). ثيولوجيا أرسطو (3)، الرواقية (2). المشاءون الفرس سكتوس امبريقوس، انتيكوس، جستنيان، ديوجين (1). التاسوعات (1).

(3) من المستشرقين هوج (3). فون كريمر، سبيتا (2)، ماك دونالد، آرنولد، دوزي، براون، نيكلسون، دي جوينو... (1). ومن علماء تاريخ الأديان والحضارة المقارن جيجر، إردمان، لويس، كلود (قصة الخلق)، هويتكر... (1).

(4) كانط (5)، نقد العقل الخالص (2)، هيغل (4)، هيجلي (1)، شوبنهاور، شيلر ماخر، بركلي (3)، جاكوبي، ليبنتز، فشته (2)، جاكوبي، كونت، شليجل، ديكارت، هيوم، بورجر، سولجر، هاملتون، وددزورث، هربارت، اسبينوزا، بوزانكيه (1).

(5) تطور الفكر الفلسفي، ص 13.

(6) السابق، ص 74/13.

(7) السابق، ص 114.

الآرية الكبرى في الهند وإيران بل وفي الغرب عند شوبنهاور وهيغل⁽¹⁾. والنسق الكوني المانوي مشابه لمبدأ الخلاص المسيحي. وهو نفس النسق الكوني الهيجلي القائم على الثالوث المقدس⁽²⁾. ويستعمل إقبال إطلاق هيغل اسم «الرومي الكامل» على الرومي⁽³⁾. وفي وصف الجيلبي في «الإنسان الكامل» لمراحل الوجود: الأحدية، الهوية، الإنية، أن الإنية ليست سوى مظهر خارجي للهوية. وهي بتعبير هيغل، انفصال ذاتي الباري. وتقود نظريته إلى أخص خصائص فكر هيغل، وهو تطابق الفكر والوجود. وهو ما يسميه الجيلبي تطابق العرض والحقيقة⁽⁴⁾. والخطوة الثالثة وهي سفر الوجود عند هيغل تسمى الرحمانية عند الجيلبي. وهي ارتقاء الكون من ذاته، وتجليها في كل ذرة نتيجة لانفصالها. ويعتمد هيغل على ذلك لتبرئة نفسه من وحدة الوجود⁽⁵⁾. ويصبح الإنسان كاملاً عند الإيجي إذا ما دمج نفسه مع الوجود المطلق أو بما سماه هيغل الفلسفة المطلقة⁽⁶⁾. والمبدأ الحي للوجود يتجلى في الكون الخارجي بأن يوجد في داخله وحدات أو مراكز واعية يعتبرها ماكتاجرت تشكياً جديداً لفكرة المطلق عند هيغل⁽⁷⁾.

ويبدو أن زرادشت أدرك ما أدركه الصوفي الألماني بوقت طويل من أن التنوع والاختلاف في الطبيعة لا يمكن تفسيرهما بدون افتراض أصل لهما في طبيعة الإله نفسها⁽⁸⁾.

وحقيقة الذات الإلهية عند الصوفية المسلمين مثل الغزالي مثلاً تشبه نفس الموقف عند بعض الرومانسيين الألمان مثل بورجر وسولجر في ألمانيا⁽⁹⁾. وكما أدت الوحدة والتصوف إلى رد فعل توحيدى عند ابن تيمية ورد فعل تكثيري عند

-
- (1) السابق، ص 14.
 - (2) السابق، ص 23.
 - (3) السابق، ص 92.
 - (4) السابق، ص 112 - 114.
 - (5) السابق، ص 117.
 - (6) السابق، ص 119.
 - (7) السابق، ص 136.
 - (8) السابق، ص 20.
 - (9) السابق، ص 63.

وحيد الدين محمود، ورد فعل لاإرادي عند عمر الخيام كذلك أدت الوحدة الألمانية إلى رد فعل تكثيري عند هربارت كما أدت وحدة الوجود عند اسبينوزا إلى الفردية عند ليبنتز، وكما أنكر وحيد محمود حقيقة الواحدة وأثبت التعددية⁽¹⁾. وقال قبل ليبنتز بأن الكون متألف من أفراد أي وحدات أساسية وذرات بسيطة أزلية أودعت فيها الحياة. ويتنبأ السهروردي بنظرية ليبنتز الخاصة باتحاد الآحاد غير القابلة للتميز، إذ لا توجد نفسان متماثلتان تماماً⁽²⁾.

وقد انتهى شوبنهاور إلى ما انتهى إليه ماني من قبل وهو الدعوة إلى الزهد وإنكار الذات كمبدأ للحياة⁽³⁾. ويتشابه موقف بهاء الله مع موقف شوبنهاور في تمثل الحقيقة في الإرادة وتحقيق ذاتها موضوعياً بدافع آثم كامن فيها. الحب والإرادة كامنان في كل ذرة من ذرات الحياة. والمتعة في تحقيق الذات مع ميول ورغبات شريرة لا يمكن تفسيرها. ويفترض شوبنهاور عدة أفكار لتبرير هذا التحقق الخارجي لتلك الإرادة الأولى، في حين لا يقدم بهاء الله أي تفسير للمبدأ الذي يقوم عليه تصويره لتجلي الحب الخالد وتحقيقه في الكون⁽⁴⁾.

ويقرب السهروردي من بوزانكيت في تسمية التعريف «جمع الكيفيات». إذ يرى أن التعريف الحقيقي يشمل كل الصفات اللازمة. وهي لا توجد إلا في الشيء المعرف رغم أنها قد تكون موجودة على انفراد في أشياء أخرى⁽⁵⁾.

وحدث في الفكر الأوربي نفس الشيء عند فشته في القرن الثامن عشر بشكه في حقيقة المادة. ثم وجد الحل في النهاية في وحدة الوجود. كما تشبث شليرماخر بالإيمان كنقيض للعقل. واتجه كاكوبي إلى مصدر آخر للمعرفة أعلى من العقل. في حين عارض أوجست كومت كافة الأنظار الميتافيزيقية. وجعل المعرفة قاصرة على الإدراك الحسي. ووجد دي ماستر وشليجل الحل في القول بسلطة البابا المعصوم.

(1) السابق، ص 94 - 95.

(2) السابق، ص 109.

(3) السابق، ص 24.

(4) السابق، ص 136 - 137.

(5) السابق، ص 98.

وهي نفس طريقة الإسماعيلية في التفكير وإيمانهم بسلطة الإمام المعصوم بالرغم من سماحهم بكافة اتجاهات الفكر الحر⁽¹⁾.

وفي العصر الحديث، قادت النتائج السلبية لكتاب «نقد العقل الخالص» لكانط وكذلك جاكوبي وشليرماخر إلى تأسيس الإيمان على الإحساس بالحقيقة المثالية. وقد تكشف كحالة خفية للذهن عند الشاعر وردزورث⁽²⁾.

وتصور الجيلاني لله في «الإنسان الكامل» قريب من تصور شليرماخر. إذ يحول الفيلسوف الألماني كل الصفات الإلهية إلى صفة وحيدة هي القدرة. يرى الجيلاني أنه من الخطر تصور الله مجرداً عن الصفات. إلا أنه يتفق مع شليرماخر في أن الله في ذاته وحدة غير قابلة للتغيير، وأن صفاته ليست إلا محض أفكار عنه طبقاً لوجهات نظر بشرية مختلفة⁽³⁾.

وما عبر عنه الأشاعرة دفاعاً عن نظرية الخلق بحيث صار العالم مجرد عرض لمجموعة من الخبرات الذاتية لا تفرقها حقيقة إلا الإرادة الإلهية هو موقف بركلي⁽⁴⁾. فقد فسر بركلي نسبية الإدراكات البصرية للبرهنة على أن الله هو الأساس النهائي للأفكار كما فعل فيلسوف الإشراق⁽⁵⁾. ويتفق بركلي وفشته مع الجيلاني في «الإنسان الكامل» في تطابق الفكر والوجود⁽⁶⁾.

وقد سبق الغزالي ديكرات في الموقف الشكي، وكذلك هيوم بسبعمئة عام في الشك في السببية⁽⁷⁾.

ومزدك أبو الشيوعية والاشتراكية ظهر في عصر الملك العادل كسرى أنوشروان كرد فعل ثنوي مضاد للمجوسية السائدة. كل البشر متساوون، والملكية الفردية أساس الشقاء⁽⁸⁾.

(1) السابق، ص 54.

(2) السابق، ص 84.

(3) السابق، ص 115 - 116.

(4) السابق، ص 61.

(5) السابق، ص 107.

(6) ص 113.

(7) السابق، ص 12.

(8) السابق، ص 24 - 25.

ويستعمل إقبال أسماء المذاهب الفلسفية الغربية مثل العقلانية والمادية، والمثالية والواقعية لقراءة تاريخ الفكر الإسلامي خاصة علم الكلام. ويعرض المذهب العقلاني المادي، ويعني الاعتزال⁽¹⁾. ويؤرخ للصراع بين الأشعرية والأرسطية على أنه صراع بين المثالية والواقعية⁽²⁾. وهو الصراع بين المتكلمين والفلاسفة بوجه عام. ويمثل الفلاسفة نجم الدين الكاتبي في كتابه «حكمة العين»⁽³⁾. ويمثل المتكلمون محمد بن المبارك النجاري ومحمد هاشم الحسين. وقد سبق الحسيني إلى ما قاله هاملتون ضد الواقعيين بأن الجوهر أو الكنه كموضوع المعرفة والذي يقال أنه لا يمكن إدراكه معلوم بصفة أولية بديهية⁽⁴⁾. كما يستعمل المباحث الغربية مثل الانطولوجيا والكوسمولوجيا ليصب فيها مباحث الفلسفة الإلهية في التصوف النظري⁽⁵⁾.

وأحياناً يقارن إقبال بين التاريخ الإسلامي والتاريخ الأوربي. فما شرعه ميمون القداح من جواز اغتيال المخالفين على عادة الساميين جوز بابا روما مذبحه سانت بالتلميو في القرن السادس عشر⁽⁶⁾. وتشبه ثورات المرتدين الإيرانيين مثل سنباد واستادسيس والمقنع الخراساني استخداماً للدين من أجل السياسة ثورات اللامانيين أنصاري دي لامينيه⁽⁷⁾.

(1) السابق، ص 47.

(2) السابق...: الفصل الرابع، النزاع بين المثالية والواقعية، ص 71 - 79.

(3) السابق، ص 71.

(4) السابق، ص 73 - 74.

(5) السابق، ص 98 - 105.

(6) السابق، ص 55 - 56.

(7) السابق، ص 83.



الفصل الثاني

تجديد التفكير الديني

1 - «تجديد التفكير الديني في الإسلام»

وعلى عكس «تطور الفكر الفلسفي في إيران» وتأسيسه على الشعبية والاستشراق في أول حياة إقبال فإن «تجديد التفكير الديني في الإسلام» بيان إصلاح إسلامي لإعادة بناء الفكر الإسلامي من الداخل في أواخر حياته. وهو الأكثر ذكراً وشهرة⁽¹⁾. بينما العمل الأول رسالته للدكتوراه من جامعة منشن إلا أن العمل الثاني مجموعة من المحاضرات أُلقيت في مدراس وحيدر أباد وعليكرة قبل أن يتوفى بعامين. تدل على نضج فلسفي. وتجمع بين التجربة الشعرية والتجربة الفلسفية. الهدف منها بناء الفلسفة الدينية الإسلامية بناءً جديداً جمعاً بين الموروث القديم والوafd الجديد، بناء على تطور المعارف الإنسانية حتى اللحظة الراهنة⁽²⁾. والوafd الجديد هو العلم. وقد استطاعت الطبيعيات القديمة نقد أسسها التي قامت عليها. فسرعان ما انتهت المادية. وليس غريباً أن يظهر الآن الاتفاق بين الدين والعلم.

ولفظ تجديد ترجمة معنوية للفظ Reconstruction الذي يعني حرفياً «إعادة بناء». ويتكون من مقدمة دون خاتمة وستة أقسام مثل العمل الأول: الأول

(1) محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، راجع مقدمته والفصل الأول منه المرحوم عبد العزيز المراغي. وراجع بقية الكتاب الدكتور مهدي علام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1952، ط2، 1968.

(2) السابق، ص2.

«المعرفة والرياضة الدينية» عن التصوف. والثاني «البرهان الفلسفي على ظهور التجربة الدينية» عن الفلسفة. والثالث «الألوهية ومعنى الصلاة» عن الكلام الإشرافي. والرابع «روح الثقافة الإسلامية» عن العلم والتجربة والواقع. والخامس «مبدأ الحركة في بناء الإسلام» عن علم أصول الفقه. والسادس «هل الدين أمر ممكن؟» رد على الوضعية الغربية. ويشبه سؤال القسم الثالث من «رسالة التوحيد» لمحمد عبده «الوحي ممكن الوقوع». وأكبرها الثالث «الألوهية والصلاة»⁽¹⁾. ومع ذلك، الكتاب أقرب إلى الفلسفة الخالصة، وعلاقة التجربة الدينية بالفكر الفلسفي أو علاقة الدين بالفلسفة، والدين بالعلم، والدين بالتقدم عبر الاجتهاد، وليس دراسة للتراث القديم أو الغربي أو الواقع المعاصر.

أ - خصائص الفكر الإسلامي

يعنى القرآن بالعمل أكثر مما يعنى بالنظر. ومع ذلك نظراً لضعف إقبال أمام التصوف فإنه يجعل الرياضة الباطنية الهدف الأسمى للدين⁽²⁾. لذلك أثبت الصوفية الكوجيتو العملي «أنا أقدر» وليس الكوجيتو النظري «أنا أفكر»⁽³⁾. ولقد تعود الجيل الجديد التفكير الواقعي وهو ما حث الإسلام عليه في المراحل الأولى من تاريخه الثقافي مما دفع الجيل الجديد إلى التشكك في قيمة الرياضة النفسية لأنها عرضة للخداع. مثال ذلك تفسير آية ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بِعَنُكُمُ إِلَّا كَفَّسٍ وَحِدَةً﴾. فهي تشير إلى الأصل النفسي أكثر من الأصل الجسمي. وهي تجربة واقعية يشعر بها كل إنسان⁽⁴⁾. أسس التصوف في الماضي تجربته على الرياضة الدينية ثم انغلق على نفسه في العصور الأخيرة. ولم يستعن بنتائج الفكر الحديث والتجربة العصرية بالرغم من اختلاف الرؤى الثقافية بين الماضي والحاضر. تحتاج المعرفة الدينية إلى أن توضع في صورة علمية⁽⁵⁾.

(1) ترتيب الفصول طبقاً لعدد الصفحات: 1 - الألوهية ومعنى الصلاة (67) 2 - مبدأ الحركة في بناء الإسلام (41) 3 - البرهان الفلسفي على ظهور التجربة الدينية (39) 4 - المعرفة والرياضة الدينية (31). 5 - روح الثقافة الإسلامية (26) 6 - هل الدين أمر ممكن؟ (19) المقدمة (3).

(2) تجديد، ص1.

(3) السابق، ص226.

(4) السابق، ص1 - 2.

(5) السابق، ص1 - 2.

وتجديد التفكير الديني في الإسلام لا يتوقف عند حد معين بل هو مستمر ودائم كلما تقدمت المعرفة وتغير العصر⁽¹⁾. وقد أدرك شاه ولي الله الدهلوي ذلك. ووجد أن المهمة الملقة على عاتق المسلم العصري ضخمة. إذ عليه أن يفكر في نظام الإسلام دون أن يقطع مع الماضي. وتبعه جمال الدين الأفغاني. إلا أن نشاطه وحركيته منعاه من التفرغ لتجديد التفكير الديني وإعادة بنائه⁽²⁾.

ب - الاستشراق مستمر

وبالرغم من غلبة التحليل الفلسفي على الرصد التاريخي إلا أن الكتاب لم يخل من الاستشراق بمعنى التأريخ للفكر الإسلامي بالتحقيب الميلادي. فأبو هاشم الجبائي توفي عام 933م، والباقلاني عام 1012م⁽³⁾، وتخریب بغداد في القرن الثالث عشر الميلادي، والسيوطي في القرن السادس عشر الميلادي، وولد ابن تيمية عام 1263، ومحمد بن عبد الوهاب عام 1700م. والإسلام ظهر وامتدت حضارته ما بين 800 - 1100م.

ويظهر الاستشراق أيضاً في منهج الأثر والتأثر. فنظرية الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ قد تأثرت بالبوذية⁽⁴⁾. وعقيدة المهدي عند ابن خلدون مستمدة من المجوسية الأصلية. فالمجوس هم الأصل مع أنها من صلب الفكر الإسلامي السني والشيعي⁽⁵⁾. واستلهم فلاسفة الإسلام آراءهم في النفس من الفكر اليوناني. وأدخل في حظيرته أقواماً ومملاً متعددة كالنساطرة واليهود وأتباع زرادشت⁽⁶⁾.

كما يظهر الاستشراق في الشعبية. إذ لم يستطع العقل العربي العلمي اعتبار الزمان شيئاً متوهماً كما فعل اليونان⁽⁷⁾. والعقل العربي غير العقل اليوناني. الأول يبدأ من المحسوس، والثاني من المعقول كما لاحظ بريفو في كتابه «تكوين

(1) السابق، ص3.

(2) السابق، ص111 - 112.

(3) السابق، ص80 - 81 / 173 - 175 / 188.

(4) تجديد، ص81.

(5) السابق، ص167.

(6) تجديد، ص109 - 110.

(7) السابق، ص88.

الإنسانية» Brifault: Making of Humanity. المثل الأعلى اليوناني كما لاحظ إشبينجلر هو التناسب وليس اللانهاية⁽¹⁾. ونشأ القياس وجعله أبو حنيفة أصلاً من أصول التشريع. تتمثل فيه النزعة السامية التي تهدف إلى كبح الميل الآري إلى تيار النظر المجرد لصالح الواقع المتحقق، وعالم الأذهان على عالم الأعيان⁽²⁾.

ويعتمد إقبال في آخر حياته على المصادر الاستشراقية كما فعل في أول حياته. فيعتمد على تلخيص ماكدونالد لمضمون «دلالة الحائرين» لموسى بن ميمون في مجلة إيزيس، وأعاد د. زويمر نشره في مجلة «العالم الإسلامي في يناير 1928»⁽³⁾. كما يعتمد على نشر ماسنيون لنصوص الحلاج. كما يذكر آراء المستشرقين مثل ماكدونالد الذي وصف نجد بأنها «أظهر بقعة في عالم الإسلام الذي دب إليه الانحلال» لتفسير نشأة دعوة محمد بن عبد الوهاب⁽⁴⁾. ويرد على تساؤل هورتن: هل شريعة الإسلام قابلة للتطور؟⁽⁵⁾. ويستشهد برأي المستشرق فون كريمر Von Kremer على أن الرومان أصحاب التشريع. لذلك جاءت المسيحية بعقيدة روحية في حين أن العرب أصحاب عادات وتقاليد. وجاء القرآن بالمبادئ العامة للتشريع تاركاً للمسلمين حق الاجتهاد. كما يستشهد برأيه في قانون الميراث في الإسلام وأنه يتسم بالأصالة والابتكار⁽⁶⁾. ويرد رأي جولدزيهر في عدم صحة الحديث. كما يستشهد بكتاب النظريات المالية الإسلامية Mohammedan Theories of Finance لبيان بداية التشريعات المالية والإسلامية وتطورها⁽⁷⁾. ويعتمد إقبال على بعض المستشرقين المنصفين مثل فلنت Flint عندما يؤكد أن الحضارة الإسلامية وحدها هي التي عرفت وحدة الإنسانية نظراً وعملاً، رؤية وحركة اجتماعية. وأفلاطون وأرسطو وأوغسطين ليسوا نظراء لابن خلدون⁽⁸⁾.

(1) السابق، ص 151 - 153.

(2) السابق، ص 204.

(3) السابق، ص 110/81.

(4) السابق، ص 175.

(5) السابق، ص 188.

(6) السابق، ص 193 - 196.

(7) السابق، ص 197.

(8) السابق، ص 162.

2 - الفلسفة والدين

أ - العقل والإيمان

والمعرفة والرياضة الدينية هي قضية الفلسفة والدين أو العقل والإيمان. ويأخذ إقبال صف الدين على حساب الفلسفة، والإيمان على حساب العقل، ويعلم عجز العقل عن إدراك كنه الحقيقة القصوى. ولا يدرك جوهر الدين إلا بالإيمان الباطني⁽¹⁾. الإيمان مجرد شعور خالص يشبه رضا النفس كما هو الحال عند الصوفية. قد يكون الفكر أحد عناصره كما حاول المتكلمون الفلاسفة. الدين في حاجة إلى أساس عقلي مهما تجاهل الميتافيزيقا من أجل رفع التناقضات في عالم التجربة. ولا يعني ذلك تعالي الفلسفة على الدين وإن كان لها الحق في الحكم عليه. الفكر والبداهة قرينان⁽²⁾.

والأسس العقلية في الكتاب والسنة وعند الصوفية المتأخرين وفي مقالات المتكلمين وفي الفلسفة اليونانية. فقد وسّعت الفلسفة اليونانية آفاق النظر العقلي عند مفكري الإسلام، ولكن إقبال يرى أنها غشت على أبصارهم في فهم القرآن وهو غير صحيح⁽³⁾. وتركيز سقراط على الإنسان لا يخالف روح القرآن الذي يركز على الإنسان أيضا. فالدخول في النفس شرط للصعود إلى أعلى. وإن قدح أفلاطون في الإدراك الحسي لا يخالف دفاع القرآن عنه لأن الإدراك الحسي في القرآن مشروط بيقظة القلب أو الضمير أو الفؤاد. ولا تعارض بين النظر الفلسفي القديم والقرآن⁽⁴⁾.

ونتيجة النظر الفلسفي القديم أسس الغزالي الدين على الشك الفلسفي. وهو ما يتعارض في رأي إقبال مع روح القرآن. كما يتعارض والعقل الفعال عند ابن رشد الذي انتشر مذهبه في كل أرجاء أوروبا مع القرآن ونظرته إلى النفس

(1) السابق، ص5.

(2) السابق، ص7.

(3) السابق، ص8.

(4) السابق، ص9.

ومصيرها⁽¹⁾. وأقنع التجلي اللانهائي على طريقة الوعي الصوفي الغزالي بتناهي العقل، وعجزه عن الوصول إلى أحكام قاطعة. وفرق بين الفكر والبداهة⁽²⁾.

ب - الكلام والتصوف

كان الأشاعرة على طريق الصواب في فلسفتهم المثالية وهي تدافع عن أهل السنة بالمنطق اليوناني⁽³⁾. أما المعتزلة فيما يرى إقبال فقد تصوروا الدين مجموعة من العقائد والمعاني المنطقية دون حيوية. فالفكر لا يستقل عن التجربة⁽⁴⁾.

هدف القرآن أيضاً هو إيقاظ شعور أسمى في النفس بالعلاقة بين الخالق والمخلوق. فهناك صراع بين الدين والحضارة. وقد واجهت النصرانية نفس المشكلة. فاعتنت باستقرار الحياة الروحية عن طريق تجلي عالم جديد في النفس وهو ما يقره الإسلام أيضاً. بالإضافة إلى أنه عالم ليس غريباً على المادة. فالمثال والواقع في الإسلام غير متعارضين كما هو الحال في النصرانية. وقد نص القرآن على ذلك في عديد من الآيات بأن الحياة رسالة، وبأن للإنسان هدفاً، وأن في الكون آيات، وفي التاريخ عبرة، وأن الإنسان قد يكون في أعلي عليين أو في أسفل سافلين. الحياة سعي وعمل وجهاد وكدح ومعاناة. الحياة اختبار. وللإنسان القدرة عليه. ويدعو القرآن الإنسان إلى التأمل في الطبيعة وتجربتها⁽⁵⁾.

والبحث في الرياضة الدينية مصدر للعلم الإلهي. وهو أسبق من ضروب التجارب الإنسانية الأخرى كطريق للعلم بالحقيقة النهائية. والقلب نوع من علم الباطن كما قال الرومي. وهو ما تثبته الكتب المنزلة وأعمال الصوفية. وقد أورد البخاري المحدث شواهد كثيرة على ذلك. وأدرك هذا المعنى أيضاً ابن خلدون⁽⁶⁾.

ويلاحظ على التجربة الدينية أو الصوفية الآتي:

- (1) السابق، ص9.
- (2) السابق، ص11 - 13.
- (3) السابق، ص102.
- (4) السابق، ص10.
- (5) السابق، ص15 - 22.
- (6) السابق، ص22 - 25.

- أ - عدم الاعتماد على الوسائط أي إنها تجربة نفسية مباشرة.
- ب - عدم القابلية للتحليل لأنها كل لا يتجزأ.
- ج - الحالة الصوفية عند المرید لحظة من الاتصال الوثيق بذات أخرى، فريدة سامية، تفنى فيها شخصية المرید فناء مؤقتاً. وهو ما أكده القرآن.
- د - عدم القابلية للنقل إلى إنسان آخر لأنها حالة ذاتية. وهو ما يؤكد أيضاً القرآن.
- هـ - اتصال المرید بالذات الأزلية اتصالاً مباشراً. وهذا لا ينفي الزمان المتجدد⁽¹⁾.

ج - البراهين على وجود الله

التجربة الدينية عند إقبال هي تجربة الإيمان بالله. والبرهان الفلسفي عليها هو البرهان على وجود الله⁽²⁾. ويعرض البراهين الثلاثة المشهورة على وجود الله: الدليل الكوني، والدليل الغائي، والدليل الوجودي. ولا يذكر دليل الحركة. ولا دليل القدم والحدوث أو الواجب والممكن أو الجوهر والأعراض إلى آخر ما هو معروف عند المتكلمين المسلمين أو عند توما الأكويني في العصر الوسيط. يقوم الدليل الكوني على العلية، أن لكل معلول علة، ولما كانت العلة لا تتسلسل إلى ما لا نهاية، إذن لابد للانتهاء إلى علة أولى. ويستبدل الدليل الغائي بالعلية الغائية. فلكل شئ غاية. ولما كانت الغايات لا تتسلسل إلى ما لا نهاية، فلا بد من الوصول إلى غاية قصوى. والدليل الوجودي هو ما عرف باسم الدليل الانطولوجي الذي يقوم على استنباط الوجود من الكمال. لما كان الله كاملاً، والوجود أحد مظاهر الكمال، إذن الله موجود⁽³⁾.

وتكشف التجربة في الزمان على ثلاثة مستويات: مستوى المادة، ومستوى

(1) السابق، ص 25 - 35.

(2) السابق، الفصل الثاني: البرهان الفلسفي على ظهور التجربة الدينية، ص 36 - 74.

(3) السابق، ص 36 - 40. انظر نقدنا لهذه الأدلة في «من العقيدة إلى الثورة» ج2، التوحيد، ص 5 -

الحياة، ومستوى العقل والشعور. لذلك العلوم ثلاثة: علم الطبيعة، وعلم الأحياء، وعلم النفس. وهو مثل تقسيم هوسرل في الجزء الثاني من «الأفكار» في نظرية «التكوين»⁽¹⁾. وهناك تمييز كفي بين هذه المستويات الثلاثة كما هو الحال في التطور الخالق عند برجسون. المستوى الطبيعي موضوع العلوم الطبيعية. ويختلف العلماء في تصور الطبيعة والكون بين الفيزياء القديمة التي يمثلها نيوتن والفيزياء الجديدة التي يمثلها أينشتين. الأولى تقوم على الجوهر المطلق الثابت، والثانية على النسبية، نسبة المكان والزمان والأبعاد الأربعة. ونسبة الحياة إلى الله عند علماء الكلام ومنهج ابن حزم خشية من التجسيم والتشبيه. والحقيقة أنه لا يمكن إثبات الكمال الإلهي إلا بعد نفى كل صفات التشبيه. والشعور انبثاق من الحياة يتسم بالتوتر والتركيز والانتباه. ويستدل إقبال على هذا التمايز بين المستويات الثلاثة. الطبيعة، والحياة، والشعور، بعيد من الآيات القرآنية⁽²⁾. وهي تثبت الزمان كلحظة كلمح البصر. كما يعتمد على الشعر لإثبات نفس الحقيقة⁽³⁾. ويذكر بيت شعر لناصر على السرهندي.

د - الذات والصفات

وبعد اطمئنان التجربة الدينية على المقاييس العقلية فإنها تكشف عن إرادة معبرة، ذات نظام معقول، هي أساس كل تجربة. وتسمى هذه الإرادة «ذات» أو «إله». تتسم بالوحدانية أو الفردانية وهو ما يثبته القرآن أيضاً⁽⁴⁾. والسؤال هو: هل تقتضي الفردية التناهي؟ وإذا كان الإله فرداً فكيف يكون متناهيًا؟ الذات الإلهية فرد غير متناه في المكان ولا الزمان. وتتسم الذات الإلهية بصفات عقلية أخرى بحتة مثل الخلق والعلم والقدرة والقدم. والخلق والقدم يدخلان معاً في تصور واحد: خلق العالم وقدام الله. فالعالم حادث، والله قديم. وقد قال البسطامي «كان الله ولا شئ معه».

(1) السابق، ص 40. تأويل الظاهريات، النافذة، القاهرة، 2005، ص 172 - 174.

(2) السابق، ص 56/59/61/66/68/70/72. ويذكر إقبال حوالى آية 110 في الكتاب كله.

(3) السابق، ص 64/71.

(4) السابق، ص 35/76 - 78 - 86.

وفي علم الكلام خلق الله الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ رفضاً لمذهب أرسطو القائل بثبات العالم. وقال به أبو هاشم الجبائي والباقلاني بل وموسى بن ميمون. وقد أثبتته الأشاعرة كذلك معتمدين على الآيات القرآنية. ورفضه ابن حزم. وقد أدت نظرية الجوهر الفرد عند الأشاعرة إلى التكثر الروحي.

وإقبال أميل إلى القول بفكرة الخلق المتصل التي حاول الأشاعرة إثباتها. فهي أقرب إلى روح القرآن من نظرية أرسطو. وهي أقرب إلى العلم الحديث. وقد سبق الأشاعرة العلم الحديث ولو بشيء من الغموض. لذلك فإن قول الأشاعرة بأن النفس عرض يتعارض مع نظريتهم. وكان الرومي أكثر فهماً لروح الإسلام بقوله «أفاد جسمي وجوده من الروح ولم تفد الروح وجودها من البدن». فالحقيقة روحية في جوهرها. ولها درجات كما هو الحال عند السهروردي.

أما صفة القدم فإنها تستدعي القول بحدوث الزمان والمكان. وهو ما استرعى انتباه الصوفية والمتكلمين في آن واحد. وهو ما تؤيده الآيات القرآنية أيضاً. فعند ابن عربي الدهر من أسماء الله الحسنى. وكذلك عند الرازي دهر وديهور وديهار. والزمان عند الأشاعرة أئات مفردة. وهو نفس موقف اليونان دون الاستفادة منه⁽¹⁾.

وعندما تستند صفة العلم إلى الذات المتناهية فإنها تعني العلم الاستدلالي. وهو نسبي دائماً بالقياس إلى المقدمات. وإذا استند إلى الذات الإلهية فإنه يكون علماً مطلقاً⁽²⁾. ويصطدم العلم المطلق بمشكلة الشرق في العالم ووقوعه، ومدى المسؤولية بين التشاؤم والتفاؤل، وتأويل قصة هبوط آدم، ومسؤولية الإنسان عن الشرق في غواية حواء وهوي آدم، وفي النقوش البابلية القديم بين الشبان رمز الذكر، والتفاحة رمز البكارة. والقرآن لا يستعمل هذه الرموز وإن كان يقر بقصة آدم وحواء وشجرة الخلد. ويلعن العهد القديم الأرض لعصيان آدم. ولا تتعلق القصة بظهور الإنسان الأول بل بالجانب الأخلاقي في ضعف الإرادة وسيادة الهوى⁽³⁾.

(1) السابق، ص87.

(2) السابق، ص91.

(3) السابق، ص96 - 103.

وعلم النفس الديني عند العراقي خوجه محمد رضا أقرب إلى المفاهيم الحديثة للزمان والمكان. فالمكان منسوب إلى الذات الإلهية. وهو على ثلاثة أنواع: مكان الأجسام المادية، ومكان الكائنات غير المادية، ومكان الله. وكان يؤمن بالفكرة الأرسطية عن زمان الكون⁽¹⁾.

والحقيقة أن الذات طبقاً للأشاعرة لها أوصاف ستة: الوجود، والقدم، والبقاء، وليس في محل، ولا يشبه الحوادث، وواحد. أخذ منها إقبال وصفين، القدم والوحدانية. ولها صفات سبع: العلم والقدرة والحياة، والسمع والبصر والكلام والإرادة. أخذ منها إقبال صفتين: العلم والقدرة. فلم يفرق إقبال بين الأوصاف الستة، والصفات السبع.

وبالرغم من تأكيد إقبال على عقلانية الدين، وإيراد البراهين الفلسفية على صدق التجربة الدينية إلا أن مطامح الدين تسمو على مطامح الفلسفة. فالدين ليس مجرد معرفة بل هو سلوك وممارسة متمثلة في الصلاة رمز العبادة والتي تؤدي إلى الهداية الروحانية، وتحقيق الاتحاد بين الخالق والمخلوق. الصلاة إحالة من الوعي نحو عالم أخلاقي جديد. والعبادة معرفة وسلوك. ولما كان وضع الجسم عاملاً في تحديد اتجاه العقل مثل القبلة والصلاة الجماعية فإن الصلاة تؤدي إلى الوحدة والمساواة. فلا وجود لفريق المنبوذين كما هو الحال في الهند⁽²⁾.

هـ - الحرية وخلود النفس

ويؤكد القرآن النفس الإنسانية، حريتها وظهورها وقوتها. فهي أساس شخصية الإنسان وفرديته، وأنه وحدة من وحدات الوجود. وهو مسؤول. فكل امرئ بما كسب رهين. فواضح في القرآن ثلاثة مبادئ: اصطفاء الله للإنسان، خلافة الإنسان لله في الأرض، حمله رسالة وأمانة لتحقيقها في الدنيا. وبهذا المعنى تفهم عبارة الحلاج «أنا الحق» كتحد للمتكلمين، والفصل بين الخالق والمخلوق⁽³⁾.

وتكشف النفس عن وحدة الحالات العقلية، مثل تاج محل، بصرف النظر

(1) السابق، ص 100 - 109.

(2) السابق، ص 103 - 108.

(3) السابق، ص 109 - 123.

عن مدينة أكرأ. فالنفس لا توجد في مكان. والنفس متفردة دون انعزال. وهي جوهر روحاني بسيط ثابت لا ينقسم عند المسلمين خاصة الغزالي.

ويميز القرآن بين النفس والروح. الأولى يمكن للإنسان معرفتها. أما الثانية فيصعب ذلك. كما يميز بين الأمر والخلق⁽¹⁾.

والسؤال هو: كيف تنشأ النفس داخل النظام المكاني الزماني؟ القرآن صريح باستقلال النفس عن البدن. تتسم بصفات مغايرة له. والعلاقة بينها مثل علاقة التلقائية بالنظام، الكيف بالكم⁽²⁾.

وقد تصارعت الآلية والحرية لتحديد النشاط النفسي. تقوم الآلية على تصور خاطئ للنشاط العقلي تقليداً للعلوم الطبيعية التي تقوم على العلية. فحدث رد الفعل في مدرسة الجشطلت. وأعطت النشاط النفسي استقلالاً تاماً. فالعقل الإنساني فعل قصدي يقوم على الكد والكدح والاختيار الحر، وكما يقر القرآن ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾، ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾. فللإنسان القدرة على حرية الاختيار⁽³⁾. والاعتقاد بالقدر هو اعتقاد بالقدرة الزائدة، والتوحد مع الهدف كما قال الحلّاج «أنا الحق»، «أنا الدهر»، «أنا القرآن الناطق» «سبحاني، ما أعظم شأنني» إلى آخر ما هو معروف من شطحات الصوفية. وأيدت عقيدة القضاء والقدر الدولة الأموية لمناقضة المعارضة ومطالبة الناس بالطاعة والولاء لها. فهي قدر الله.

وتناول الفلاسفة خاصة ابن رشد موضوع خلود النفس. ويميز بين النفس والروح. ووقع في اثنتين ليست في القرآن⁽⁴⁾. أما رأي القرآن في مصير الإنسان ومستقبله فيتفرع إلى بيولوجي وأخلاقي. البيولوجي في صور مثل البرزخ، والأخلاقي مثل العدل. وتتفق الآيات على ثلاثة أمور: بداية الروح في الزمان، وأن ليس لها وجود سابق، واستحالة العود إلى الأرض، والنهاية هي القضاء الأجل. والمصير لا يلغي الفردية بل يقوم عليها. والخلود ليس حقاً بل هو خلود مكتسب بالجهد الشخصي، والإنسان مرشح له. وهذا هو المعنى الروحي للبرزخ أي انتقال

(1) السابق، ص 118 - 119.

(2) السابق، ص 119 - 123.

(3) السابق، ص 123 - 128.

(4) السابق، ص 128.

من حال إلى حال، إمكانية تحقق، مشروع وجود، وقد أشار إلى ذلك الجاحظ وإخوان الصفا ومسكويه. وأنشده الشعراء مثل الرومي. لا يوجد جزاء أو عقاب أبدي مسبق بل هما من كسب الإنسان عمله وجهده⁽¹⁾.

و - الدين والتقدم

وكما اعتنى إقبال بالصلة بين الدين والفلسفة وهو موضوع القداماء، انشغل أيضاً بموضوع الدين والتقدم وهو موضوع المحدثين فيما سماه «روح الثقافة الإسلامية». وهي فكرة خاتم النبوة، أي اكتمال الوحي وترك المجال أمام الإنسان لإعمال الفكر⁽²⁾. فالتاريخ لا يعود إلى الوراء كما شعر ولي مسلم عظيم عبد القدوس الجنجهوي. ربما تكون الولاية تالية للنبوة. ومع ذلك هناك فرق بين الولي أو الصوفي والنبوي. كلاهما يتحقق بمقام الشهود. لا يعود الصوفي منها، في حين يعود النبي ليوجه التاريخ ويحرك الزمان. الوحي صفة من صفات الوجود. يتجاوز الجانب المعرفي أو النفسي أو الاجتماعي أو السياسي. وينتهي باكتمال تقدم الوعي الإنساني، ونهاية العون الخارجي، والاعتماد على الذات أي على العون الداخلي. لذلك أبطل الإسلام الرهينة وورثة الملك. واعتمد على العقل والتجربة. دعا إلى النظر في الكون، والوقوف على أخبار الأولين. الوحي والعقل والطبيعة أبعاد ثلاثة لحقيقة واحدة⁽³⁾.

ويعد القرآن الأنفس والآفاق مصادر المعرفة، أي الداخل والخارج، النفس والطبيعة. كانت وظيفة التصوف تحويل الرياضة الروحية إلى منهج دقيق للمعرفة كما قرر ابن خلدون. ويضيف إليهما القرآن التاريخ وتداول الأيام بين الناس. والكل يقوم على عالم الحس والشهادة. لذلك ثار الفكر الإسلامي على الفلسفة اليونانية المجردة ونقدها النظام. وأفاض الغزالي في ذلك في «إحياء علوم الدين» ولو أنه ظل تلميذاً لأرسطو في المنطق. ووضع في «القسطاس» بعض حجج القرآن في أقيسة منطقية أرسطوية. ونقده السهروردي في «حكمة الإشراق» وابن تيمية في

(1) السابق، ص 133 - 141.

(2) السابق، 4 - روح الثقافة الإسلامية، ص 142 - 65.

(3) الوعي والعقل والطبيعة، قراءة في كتاب القانون في الطب لابن سينا، حصار الزمن، ج3، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 2005. ص 539 - 586.

«نقص المنطق» المنطق الأرسطي. ونقد الرازي الشكل الأول للقياس الأرسطي. ووضع أسس المنهج التجريبي. فالملاحظة والتجربة أساس المعرفة، وليس التفكير النظري المجرد. وكشف البيروني زمان الانفعال، والكندي تناسب الحس مع الدفاع باستعمال المنهج التجريبي وتطبيقه على الظواهر النفسية. وبين ابن حزم في «التقريب إلى حد المنطق» أن الحس مصدر من مصادر العلم⁽¹⁾.

وسارت فكرة التطور في التفكير الإسلامي جنباً إلى جنب مع التفكير الرياضي. فقد لاحظ الجاحظ التغيرات في هجرات الطيور. ثم نظر مسكويه ذلك في «الفوز الأصغر». ووضع الكائنات الحية في درجات، من النبات إلى الحيوان إلى الإنسان. ولكل درجات. وهو ما عرضه إقبال في رسالته الأولى للدكتوراة «تطور الميتافيزيقا في فارس»⁽²⁾. كما ظهر مفهوم التطور عند ابن خلدون في تصوره للتاريخ. وهي أيام الله بتعبير القرآن. والتاريخ مصدر ثالث من مصادر المعرفة مع العقل والتجربة. وقد عرفه ابن خلدون من روح القرآن. ووضع مبادئ النقد التاريخي. وساهم القرآن في ظهور مؤرخين مثل ابن اسحق والطبري والمسعودي. وقد قامت فلسفة التاريخ من فكرتين رئيسيتين: الأولى، وحدة الأصل الإنساني. والثانية، إدراك حقيقة الزمان إدراكاً دقيقاً، وتصور الوجود حركة مستمرة في الزمان. التاريخ تغير لا ثبات كما لاحظ مسكويه والبيروني من قبل. وانتصر كتابه «المقدمة» لروح القرآن المعارض لعلوم اليونان. فالزمان عند اليونان في الخارج كما ذهب أفلاطون وزينون. يتحرك حركة دائرية عند هرقليطس والرواقيين مما أفقدها صفة الإبداع⁽³⁾. وقد قضى ابن خلدون نهائياً في تصوره للتاريخ على فكرة المهدي كمخلص. وهي عقيدة موجودة في المجوسية الأصلية⁽⁴⁾.

ز - الاجتهاد ومبدأ الحركة

وبالإضافة إلى تطور الحياة، يقوم الإسلام على مبدأ الحركة⁽⁵⁾. إذ يرفض

(1) تجديد، ص 142 - 148.

(2) السابق، ص 154 - 155.

(3) السابق، ص 159 - 164.

(4) السابق، ص 167.

(5) السابق... 5 - مبدأ الحركة في بناء الإسلام، ص 168 - 208.

الإسلام كحركة ثقافية وكتصور للعالم ثبات العالم. والحركة في الإسلام تتم في حياة الفرد والجماعة أي في حياة الشعور الإنساني وليس في فرد معين أو جماعة معينة تقوم على رابطة الدم. وعلى هذا الأساس قامت وحدة الإنسانية. فالحياة روحية في أصلها وغايتها، دون ما حاجة إلى شعائر تحافظ عليها، مما يساعد الإنسان على التحرر من الروابط المادية. وقد حاول الإمبراطور قسطنطين بعد اعتناقه المسيحية، وهو نظام رهباني، أن يجعلها نظاماً رومانياً لتوحيد الكلمة بين الناس باسم الإمبراطورية الجديدة. ولما أخفق ارتد الإمبراطور جوليان إلى عبادة آلهة الرومان مع تأويلات فلسفية جديدة. وهنا ظهر الإسلام معطياً العالم، كما يقول أحد المؤرخين، ثقافة جديدة، تحل محل ثقافة العرش والنظم التي كانت تقوم على قرابة الدم. وقام الإسلام على مبدأ التوحيد. ويعني تحرر البشر والمساواة الإنسانية والتكافل الاجتماعي. وجعل الاجتهاد أحد مصادره لمواكبة التطور. فكما أن الصلاة طريق الألوهية فإن الاجتهاد أساس الحركة في الإسلام⁽¹⁾. والثاني، حق نسبي داخل كل مذهب. والثالث، حق خاص لتعيين قاعدة شرعية خارج المذهب. وإثبات الحق الأول يثبت الحقين الآخرين. فهو الحق المبدئي الأصلي⁽²⁾.

ويظن بعض الأوربيين أن سبب الجمود في القانون الإسلامي هم الأتراك. وهو رأي غير صحيح لأن الاجتهاد قد أرسى قبل الأتراك بزمن طويل. وهناك ثلاثة أسباب لتوقف الاجتهاد: الأول، اعتبار الحركة الفكرية في صدر الدولة العباسية مسؤولة عما وقع عند المسلمين من خلاف عقائدي خاصة في قضية قدم القرآن وما يشابهها في العقيدة المسيحية من قدم «الكلمة» واتهام القول بالخلق بأنه تقويض للجماعة الإسلامية. وشك النظام في الأحاديث وصحة الروايات. فتم تقييد حرية الفكر والاعتماد على النص دون الاستنباط أو الاجتهاد. والثاني، نشأة التصوف ابتداءً من الزهد متأثراً بمصادر غير إسلامية، ووضع علوم الذوق والكشف في مقابل علوم النظر والاجتهاد، والقلب في مقابل العقل. والثالث، تخريب بغداد بعد غزو التتار. فخشي المحافظون من إعمال العقل. واعتمدوا على سلطة النص الذي لا خلاف عليه لمقاومة الغزو. ثم ظهر ابن تيمية. فقد ولد بعد

(1) السابق، ص 168 - 170.

(2) السابق، ص 170 - 171.

تدمير بغداد بخمسة أعوام. ونشأ على مذهب ابن حنبل. وتبنى المنهج الظاهري عند ابن حزم. وأنكر مذهب الحنفية الذي يقوم على النظر والاستدلال. وبالرغم من مناداة السيوطي بضرورة الاجتهاد إلا أن حركة محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية في نجد لجأت إلى سلطة النص. وأثرت في كثير من الحركات المعاصرة كالسنوسية والبابية. وكان شبيهاً بأحد تلاميذ الغزالي وهو محمد بن تومرت المصلح المغربي أثناء انحلال الأندلس. ولا يهم توقف الدعوة الوهابية التي قضت عليها جيوش محمد علي، ولكن الأهم ما ولدته من رغبة في الإصلاح حتى ولو كان محافظاً، وتوليد حركة تجعل حق الاجتهاد ليس قصوراً على أصحاب المذاهب⁽¹⁾.

وقد عادت فكرة الاجتهاد للظهور في تركيا الحديثة. وأقامه حليم ثابت على أفكار اجتماعية عصرية. فقد وجد في تركيا اتجاهين: الحزب الوطني القومي وحزب الإصلاح الديني. يعطي الأول الأولوية للدولة على الدين، والثاني للدين على الدولة. وهو صراع مفتعل ناشئ من إسقاط تاريخ الغرب، والصراع بين السلطتين الدينية والسياسية أو الكنيسة والدولة على تاريخ الإسلام. في حين أن التوحيد الإسلامي تصور ينتج نظاماً قابلاً للتحقيق. يقوم على الحرية والمساواة والاتحاد. والدولة مجرد أداة للتنفيذ. نظام الحكم ليس ثيوقراطياً. وليس الخليفة ظل الله في الأرض، معصوماً من الخطأ. لا يفرق الإسلام بين الدين والدنيا، بين ملكوت السموات وملكوت الأرض. هو مثال يتحول بطبيعة الحال إلى واقع أو كما يقول إقبال، الدين أمر ممكن أو كما يقول محمد عبده، الوحي ممكن الوقوع. مهمة الدولة تحقيق الروحانية في المجتمع. قلد الحزب الوطني التركي الغرب في فصله بين الدين والدولة. ويعني في الغرب الكنيسة والدولة. والإسلام ليس به كنيسة⁽²⁾.

وفي مقابل ذلك، نادى حزب الإصلاح الديني بزعامة سعيد حليم بالجمع بين المثالية والواقعية. فالحقائق الأزلية لها رصيدها في المجتمع في الحرية والمساواة والتضامن، دون الانتساب إلى وطن أو قوم. وقد مارس المجلس الوطني الكبير حق الاجتهاد. وفيما يتعلق بنظام الخلافة، الخلافة ضرورية لا ريب فيها،

(1) السابق، ص 171 - 176.

(2) السابق، ص 176 - 188.

ضرورة النظام السياسي للمجتمع. إنما السؤال هو هل تكون الخلافة ممثلة بالضرورة في فرد أم قد تكون في جماعة أو في مجلس منتخب؟ المجلس المنتخب هو ما قرره حزب الإصلاح في تركيا. وهو رأي يتفق مع روح الإسلام. ولا يرفضه ابن خلدون. إذ يورد ثلاثة آراء مختلفة في الموضوع: الأول، أن الإمامة نظام شرعي. والثاني، أن الوجود عقلي لضرورة الاجتماع. والثالث، أن الإمامة ليست ضرورية وهو رأي الخوارج. وقد أخذ الأتراك الرأي الثاني وهو رأي المعتزلة. وقد أسقط الباقلائي من قبل شرط القرشية. كما عبر ضيا الشاعر الوطني العظيم عن نفس الرأي. تستقل البلاد الإسلامية أولاً. ثم ترتبط فيما بينها بسُلطان واحد يقيم نظاماً عصرياً لأن الضعيف يطمع فيه الناس، والقوي يهابه الجميع. فالإسلام ليس رابطة قومية بل وجدانية. الدين هو العلم والفلسفة. ولا يتناقض معهما. ويجوز الأذان والصلاة باللغة التركية كما أجازها لوثر باللغة الألمانية وليس باللاتينية وحدها. وقد أمر محمد بن تومرت ترجمة القرآن إلى اللغة البربرية حتى يفهمه الناس. كما أعلن الشاعر مساواة المرأة للرجل من أجل حفظ كيان الأسرة التي تقوم على العدل. وتشمل المساواة الطلاق والانفصال والميراث. تركيا نموذج التحديث في العالم الإسلامي والإصلاح الواقعي فيه. حرية الفكر في الإسلام ضرورية، وكذلك النظرة الإنسانية العامة. ويمر المسلمون الآن بفترة مشابهة للإصلاح البروتستانتي في أوروبا، وإحلال الروح القومية محل الروح المسيحية الشاملة.

والشريعة الإسلامية متطورة بطبيعتها. فالمصادر الأربعة للتشريع متطورة فيما بينها، فأخذ الزمان بعين الاعتبار، من القرآن إلى السنة، إلى الإجماع إلى القياس. القرآن في زمن محدود، والسنة في زمن أطول. والإجماع لكل عصر. والاجتهاد ممتد إلى يوم الدين. بل يمتد السؤال إلى باقي العلوم الإسلامية، الكلام والتصوف والفلسفة. كل شيء يتطور بما في ذلك الثقافة مما يدل على مرونة التفكير الإسلامي. وهي أكثر ظهوراً في ميدان التشريع. وتدل على ذلك مؤلفات الفقه والشريعة. ونظراً لغياب دراسة نقدية للفقه، لم يعرف أحد مدى التغيير والخلافات المذهبية فيه. ويبيدي إقبال ثلاث ملاحظات: الأولى، لم يدون منذ ظهور الإسلام إلى قيام الدولة العباسية إلا القرآن. والثاني، ظهر منذ منتصف القرن الأول حتى أول القرن الرابع حوالي عشر مدارس للفقه. والثالث، تدل المصادر الأربعة

للتشريع على قيامها على مفهوم التطور وهي⁽¹⁾:

1 - القرآن: ورؤيته للكون متغيراً. والعقيدة مجرد منه على التشريع. فالقرآن عقيدة وشريعة، تصور ونظام. حكم القرآن المتغير مطابق لحكم الواقع المتغير. وهو أيضاً رأي الشاعر التركي حنيا. مقاصد الشريعة ابتداء كما حددها الشاطبي هي ثوابت الشريعة: الحفاظ على الحياة (النفس)، والعقل، والدين، والعرض (النسل) والمال. ربما لم يعلم الشاعر حنيا وضع المرأة في الإسلام. فالزواج عنده عقد مدني. وللمرأة أن تشتترط حق العصمة في يدها. والتوريث وحدته الأسرة وليس الفرد⁽²⁾.

2 - الحديث: وقد خضع لمناهج دقيقة للرواية وشروط صعبة للخبر المتواتر. والأحاديث التي تتضمن أحكاماً تشريعية صحيحة في روايتها. أما غيرها فليست مصدراً للتشريع. ولم يستعملها أبو حنيفة. بل أدخل مبدأ «الاستحسان» في الفقه. وهو أحد أشكال القياس الحر الذي يعتمد على البديهة والذوق السليم. وكانت مجموعات الحديث لعبد الملك والزهري موجودة من قبل. لذلك لم يجمعها أبو حنيفة كما فعل أحمد⁽³⁾.

3 - الإجماع: ويتعارض مع سلطة الحاكم المطلق ومصالحه السياسية. وهو مصدر الروح الجمهوري. لا ينسخ الإجماع القرآن. ويمكن تجنب الخطأ في التشريع عن طريق تأليف هيئة مستقلة من العلماء، أهل الدراية بالدنيا والدين، مما يستدعي تغيير نظام التعليم من أجل تخريج علماء عصريين⁽⁴⁾.

4 - القياس: وهو الاستدلال عن طريق التشابه بين الحالات. وكان استعمال العقل ضرورياً للاستنباط من النص خاصة بعد ترجمة منطق أرسطو كأداة للاستدلال. ويرجع الفضل في ذلك لأبي حنيفة⁽⁵⁾.

(1) السابق، ص 188 - 190.

(2) السابق، ص 190 - 196.

(3) السابق، ص 196 - 199.

(4) السابق، ص 199 - 203.

(5) السابق، ص 203 - 208.

وعلى هذا النحو، ليس في الشريعة ولا في مصادرها ما يدعو إلى الجمود بل فيهما ما يدفع نحو التجديد والتفاعل مع تحديات العصر. فالإنسانية اليوم تحتاج إلى ثلاثة أمور: تأويل الكون تأويلاً روحياً، وتحرير روح الفرد، ووضع مبادئ أساسية لتطوير المجتمع الإنساني. ولا يكفي لذلك التفكير المجرد بل الإيمان الصادق. وإن معنى خاتم النبوة هو التأكيد على حرية الفرد والجماعة واستقلال الشعوب، وتأسيس الديمقراطية الروحية. وهي منتهى الإسلام ومقصده⁽¹⁾.

وإذا كان الدين يقوم على العقل والتجربة، ويدفع نحو التطور، يكون تحققه ممكناً. فالدين أمر ممكن⁽²⁾. وتنقسم الحياة الدينية على وجه العموم إلى ثلاثة أطوار: طور الإيمان، وطور الفكر، وطور الاستكشاف. في الطور الأول تخضع الحياة الدينية إلى نظام معين خضوعاً مطلقاً دون تحكيم العقل. قد يساعد ذلك على تقوية الشعوب، ولكنه لا يساعد على رقيها الحضاري. وفي الطور الثاني يفهم العقل مقاصد النظام وأهدافه. وقد يبحث في ذات الله. وفي الطور الثالث يحل علم النفس محل الميتافيزيقا، ويطمح الإنسان إلى الاتصال بالحقيقة القصوى. ويصبح الدين مسألة شخصية. ويكتسب الفردية حرية في الفهم والسلوك. ويكتشف أبعاد التجربة في أعماق الشعور. ويفهم القرآن كما نزل على النبي. الطور الأول الفقه. والثاني الفلسفة. والثالث التصوف، وإن كان اللفظ سيء الحظ. وممن اختار هذا الطريق ابن عربي والشاعر العراقي وغيرهم⁽³⁾.

لذلك يضر الجمود بالدين. ويقضي على حرياته الإبداعية. ويعوق التقدم الروحي. وعجزت الطرق الصوفية المتأخرة عن القيام بهذا الدور نظراً لعزلتها عن الحياة الاجتماعية. فغاية الحياة الدينية كشف الذات ونموها⁽⁴⁾.

(1) «ليس في أصول شريعتنا ولا في بناء مذاهبنا كما نجدها اليوم ما يسوغ النزعة الحاضرة»، وإن العالم الإسلامي وهو مزود بتفكير عميق نفاذ وتجارب جديدة يتبقى عليه أن يقوم في شجاعة على أثر التجديد الذي ينتظره. على أن لهذا التجديد ناحية أعظم شأناً من مجرد الملاءمة مع أوضاع الحياة العصرية وأحوالها...، السابق، ص 206 - 207.

(2) السابق، ص 209 - 227.

(3) السابق، ص 209 - 211.

(4) السابق، ص 211 - 212.

3 - الفلسفة الحديثة

وتدور الفلسفة الحديثة في سياق تاريخي. فلا يمكن الفصل بين تقدم الفكر ومراحل النشاط الإنساني. ويخبرنا تاريخ الفلسفة كيف فكرت الشعوب المختلفة ولكنها لا تعطي الأسباب الاجتماعية والسياسية. صحيح أن كتابة تاريخ كامل للفلسفة مهمة جلية. ولا يستطيع لاهوتي بمفرده أن يكشف لقراءه المضمون الفني للإصلاح عند لوثر نظراً لميلنا إلى عزل الأفكار من السياق العام للنشاط الذهني الإنساني⁽¹⁾، يموت الأفراد، وتنقرض من الشعوب ولكن أفكارهم خالدة. وهم الأطفال الذين يتكونهم وراءهم⁽²⁾. والتاريخ أخلاق تطبيقية. وإذا كانت الأخلاق تجريبية فإنها تقوم على كشف التجارب الإنسانية. قد يغضب البعض لذلك ولكن سلوك البشر خاضع لتجارب التاريخ⁽³⁾. التاريخ نوع من «الجراموفون» الكبير يحفظ أصوات الشعوب⁽⁴⁾. وإذا كانت الفلسفة منطق الحق فإن التاريخ منطق القوة. وتبدو مدافع منطق القوة أقوى من منطق الحق⁽⁵⁾. التاريخ تفسير للبواعث الإنسانية. قد يخطئ في تفسير بواعث المعاصرين وحتى أصدقائنا المقربين ومساعدينا في الحياة اليومية. والأولى أن يكون من الصعب تفسير بواعث الذين عاشوا قبلنا تفسيراً صحيحاً. لذلك يقبل تدوين التاريخ بحذر شديد⁽⁶⁾. وللتاريخ قانونه الذي يتحكم في صراعه المستمر بين القوي والضعيف، بين من ينتج بذهنه ومن ينقل⁽⁷⁾. وقد أفرزت الفلسفة الحديثة في الغرب عدة اتجاهات أهمها⁽⁸⁾:

- (1) St. Ref., pp. 60 - 1.
- (2) Ibid., p. 69.
- (3) Ibid., p. 21.
- (4) Ibid., p. 107.
- (5) Ibid., p. 39.
- (6) Ibid., p. 86.
- (7) Ibid., p. 89.
- (8) تكرار أسماء الأعلام في «أفكار هائمة Stray Reflections» كالاتي: جوته (9)، المسيح (5)، أورانجرب (4)، بوذا، أفلاطون، كانط، جوته (3). أرسطو، هوراس، ماثيو أرنولد، بديل (ميرزا عبد القادر)، غاليد، مونتاتي، محمد، نيتشه، آزاد، شكسيد (12). وآخرون مرة واحدة مثل: أكبر، ألكسندر، بيكون، بروننج، حافظ، هاينه، لسنج، لينتز، لوثر، مازيني، المتنبى، نابليون، بوب، رينان، الرومي، اسبينوزا، فولتير، أوسكار وايلد، وردزورث، فوندد... إلخ(1).

أ - المنهج التجريبي: ويقارن إقبال بين التاريخ الإسلامي والتاريخ الأوربي. فقد ظل التاريخ الإسلامي راكداً في القرون الخمسة الأخيرة. وكان الغرب قد بدأ في النهوض ابتداء من ترجمة العلوم الإسلامية قبل ذلك. وأغرب شيء هو نزعة المسلمين الآن تقليد الغرب. ولا ضير في ذلك. فتلك بضاعتنا ردت إلينا. إنما الخشية هو الانبهار بالغرب الذي يشل التفكير ويعيق التقدم. سيطرت أوربا على الطبيعة بفضل علومنا التجريبية التي أبدعناها⁽¹⁾. لذلك من الضروري أن يستقل الشباب في آسيا وأفريقيا عن النظرة الأوربية، خاصة. وقد انتشرت في أواسط آسيا دعوة ضد الدين عامة والإسلام خاصة من أبناء المسلمين مثل الشاعر التركي توفيق فكرت. ليست أوربا بالمثل الأعلى الذي يمكن الاحتذاء به، بل هي الآن في أسوأ أحوالها، وربما في نهايتها. إنما المسلم الجديد هو القادر على استئناف رسالتها⁽²⁾.

والزعم بأن أوربا هي التي وضعت المنهج التجريبي زعم خاطئ. وإن آراء روجر بيكون R. Bacon عن التجربة مستقاة من آراء المسلمين قبل أن يتم تنظيمها من فرنسيس بيكون F. Bacon. لقد تعلم روجر بيكون في الجامعات الإسلامية في الأندلس. والقسم الخامس من كتابه Corpus Maius عن البصريات نقل من كتاب «المناظر» لابن الهيثم. وقد تأثر بابن حزم. كذلك تعلمت أوربا المنهج العلمي من المسلمين. واعترف بذلك مؤرخوها المتصوفة مثل بريفوا Brifault في كتابه تكوين الإنسانية Making of Humanity. فقد درس بيكون اللغة العربية والعلم العربي والعلوم العربية في مدرسة أكسفورد على أساتذة كانوا تلاميذ العرب في الأندلس. وهو ما فاق به العرب اليونان. فالمحسوس المتناهي مصدر العلم. والتجربة والملاحظة طريقه. عرف اليونان التناسب وليس اللانهائية. بينما عرف العرب المتناهي من أجل الوصول إلى اللامتناهي. لذلك لم تنتشر نظرية الجوهر الفرد من ديموقريطس بسبب رفض الأشاعرة لها. وكان البيروني أول من بحث الدال في الرياضيات التي أصبحت فيما بعد رمز ثقافة الغرب. واكتشف الأعداد الزمنية، كما

(1) السابق، ص 13 - 15.

(2) «إن مثالية أوربا لم تكن أبداً من العوامل الحية المؤثرة في وجودها. ولهذا أنتجت ذاتاً ضالة أخذت تبحث عن نفسها بين ديمقراطيات لا تعرف التسامح. وكل مهما استغلال الفقير لصالح الغني. وصدقوني إن أوربا اليوم هي أكبر عائق في سبيل الرقي الأخلاقي للإنسان». السابق، ص 207.

لاحظ اشبنجلر⁽¹⁾. واعتمد عليه نيوتن لاستكمال الدوال المركبة. واستحدث الخوارزمي الرياضيات بالانتقال من الحساب إلى الجبر، واخترع حساب التفاضل والتكامل. ووضع جدول «اللوغاريتيمات». وأراد هيوم تحرير العلم التجريبي من أي أثر خارجي. ثم أكمل أينشتين ما بدأه هيوم⁽²⁾. ولا يوجد شيء عام مشترك بين الناس مثل الوقائع العامة التي لم يرها الناس حتى أتى ليكون ليفتح عيونهم عليها مع أنها كانت نصب أعين المسلمين، دون الوقوع في التجريبية الجذرية⁽³⁾. فالآخر وليس الأنا هو الذي نجح في الحياة. والشخصية الإنسانية مستقلة عن الجهاز العصبي ومراكز الإحساس في المخ كما هو الحال عند برجسون⁽⁴⁾. يعتمد العلم على الميتافيزيقا. فلا يسخر العلم من الميتافيزيقا لأن أول من أعطى العلم فكرة المادة هو لينتزر. فالجوهر لديه قوة أو مقاومة. ثم استعار العلم هذه الفكرة من الميتافيزيقا. ودرس سلوك القوة التي يمكن اكتشاف نفسها بنفسها⁽⁵⁾. وقد لعب العلم مع الميتافيزيقا دور «الاستغماية». كل منهما يخبيء نفسه وراء حجر الآخر⁽⁶⁾. وإذا كان العلم يشعر الإنسان بضالته فإن الميتافيزيقا تشعره بعظمته. فعندما رأى مذنب هالي في أول مايو 1910 وهو ما يحدث مرة كل خمسة وسبعين عاماً سابقاً في الفضاء، وهو ما سيراه الأحفاد، شعر بضالته وحدوده. ولم يعد لديه أي طموح إنساني⁽⁷⁾.

ب - الإيمان الفلسفي: ويميل إقبال إلى ديكارت وكانط في عرض الدليل الانطولوجي على وجود الله بين إثبات ديكارت له عن طريق استنباط الوجود من الكمال ونفي كانط لأن الوجود لا يستنبط من الفكر وإلا كان زيادة ثروة عن طريق إضافة بعض الأصفار إلى اليسار⁽⁸⁾. كما يظهر ديكارت كفيلسوف حديث يثبت تميز

(1) السابق، ص 148 - 151.

(2) السابق، ص 224 - 225.

(3) St. Ref., p. 147.

(4) Ibid., p. 111.

(5) Ibid., p. 58.

(6) Ibid., p. 58 لعبة الاستغماية Hide and Seek.

(7) Ibid., p. 12 - 3.

(8) السابق، ص 38 - 39.

النفس عن البدن واستقلالها عنه كما يقول المسلمون⁽¹⁾. في حين أكد ليبنتز الانسجام المسبق. وحاول بعض العقليين مثل ليبنتز وهاملتون اكتشاف البعد العقلي في الدين⁽²⁾. وبين لانج Lange في الانفعال الوجداني أن الجسد هو البادئ بالتأثير المتبادل وهو مما يثير الشك. إذ أحياناً تكون النفس هي البادئة.

ويعتمد إقبال على فارنل Farnell في حديثه عن صفات الله، وبيان أن تاريخ الدين يكشف عن أحوال الفكر واتجاهه إلى وحدة الوجود، وإن لم يوفق في وصف الذات الإلهية بالنور اعتماداً على القرآن⁽³⁾.

ودعوة الغزالي مثل دعوة كانط في القرن الثامن عشر للمذهب العقلي الحليف للدين. ثم تبين له أنه لا يمكن البرهنة على العقيدة. فلم تعد مقدسة. ثم ظهر مذهب المنفعة في الأخلاق. وبالتالي أدى المذهب العقلي إلى الإلحاد. كما كشف كتاب «نقد العقل الخالص» عن قصور العقل الإنساني. فهدم ما بناه كانط من قبل. وهي نفس النتيجة التي انتهى إليها الغزالي بعد قضائه على المذهب العقلي. وإذا كان كانط لم يستطع إثبات أن معرفة الله ممكنة فإن الغزالي اتجه نحو الرياضة الصوفية، وبالتالي أثبت الدين مستقلاً عن العلم والميتافيزيقا. وهذا عرض غير دقيق. فقد ظهر مذهب المنفعة في الأخلاق كرد فعل على أخلاق الواجب. ولم يؤد المذهب العقلي إلى الإلحاد بل إلى الإيمان بالشيء في ذاته وهي الإرادة الحرة أو الأمر المطلق⁽⁴⁾. وفات الغزالي وكانط إدراك أن الفكر يتخطى حدوده. وهو أقرب إلى موقف هيغل⁽⁵⁾. والزمان المتجدد عند كانط هو جوهر العلية⁽⁶⁾. وخطأ كانط في تصويره للنفس هو أنه وضع خلودها وفناءها من نقائص العقل. وقد رد عليه Laird بأن هذا التناقض ينشئ عالماً جديداً. والتجارب كيفيات تجعل الشعور بالنفس شعوراً روحانياً⁽⁷⁾. والحجج التي قدمها كانط على خلود النفس

(1) السابق، ص 119 - 120.

(2) السابق، ص 219.

(3) السابق، ص 76.

(4) السابق، ص 10 - 11.

(5) السابق، ص 13.

(6) السابق، ص 49.

(7) السابق، ص 115 - 116.

حجج أخلاقية أي نوع من الإيمان بمقتضيات العدالة. إذ يعجز العقل عن إثبات الخلود. في حين ينشد الإنسان الخير ويسعى إليه. ويشمل الخير الفضيلة والسعادة، ويرمز إليها بالواجب⁽¹⁾.

وكان كانظ هو أول من تساءل: هل الميتافيزيقا ممكنة؟ الظاهر ممكن معرفته أما الشيء في ذاته فهو موضوع تصديق وهي ثنائية يصعب قبولها.

كان الهدف الرئيسي للقرآن هو إيقاظ شعور أسمى بين الخالق والكون في نفس الإنسان. وهو الذي جعل جوته يعتبر الإسلام قوة مهذبة مؤدبة كما صرح بذلك إكرمان⁽²⁾. ويستشهد إقبال بأبيات من شعره لإثبات أن الحقيقة الأولى مبدعة ذات نظام معقول. وتفسير الحياة ذاتاً ليس وقوعاً في التشبيه بل تسليماً بالواقع البديهي بأن الوجود ليس غائماً بل هو نسق منظم، نشاط تركيب يربط بين العناصر الحية من أجل البناء. خطورة الفكر أنه حجاب على الحياة. وهي تيار جارف يعم جميع الأشياء. لذلك يؤدي المذهب العقلي إلى جعل الله هو الكل أي إلى وحدة الوجود. والمعرفة المباشرة منبعثة من داخل النفس. وتكشف البداهة الحياة بوصفها ذاتاً مركزة. هذه المعرفة كشف مباشر للحقيقة. تثبت التجربة أن ماهية الحقيقة ماهية روحية أي ذات. والدين أسمى في الفلسفة. الفلسفة نظر عقلي في الأشياء. في حين أن الدين يذهب أبعد من ذلك. يغوص داخل النفس دون أن يعلو بفعل العقل. هو اتصال بالحقيقة أقرب وأوثق. الفلسفة نظرية مجردة، والدين تجربة حية، مشاركة واتصال أوثق. ويستطيع الفكر أن يتجاوز ذاته عن طريق حال من أحواله مثل الصلاة⁽³⁾.

(1) السابق، ص 129 - 130.

(2) السابق، ص 15.

(3) وبحر لا تحده حدود
يصب به الوجود إلى وجود
ترى الأنواس آلفاً تلاقت
لتحفظ هيكل عظم ذراه
وفي حب الحياة ترى الثريا
كما أن الشرى في الأرض يهوى الحياة، كلاهما رأي سديد
خلائق كلها تسمى كفاحاً
يظل لنفسه أبداً يعيد
ويبقى في الزمان له خلود
وقد نهضت فليس بها بعيد
وعز على الفناء فلا يبديد
نضيء لكي يكون لها مزيد
وتنشط في الحياة لها جهود

ويرى هالدين J. S. Haldane أن الاختلاف الرئيسي بين الكائن الحي والآلة هو الاكتفاء الذاتي في الكائن الحي في الوجود والاستمرار⁽¹⁾. وفكرة أن الحقيقة روحية في جوهرها وأنها على درجات كما يصفها السهروردي موجودة في العصر الحديث على أوسع نطاق عند هالدين في كتابه «مملكة الشبيه» وعند هيجل أيضاً⁽²⁾. ويرى دريش Driesch عالم الأحياء أن الحياة وحدة واقعية كاملة⁽³⁾.

وقد أدى مذهب فوريد إلى الدين خدمة لا تقدر بثمن باستبعاد ما يزيفه الشيطان عما هو متصل بالله بالرغم من غياب الحجج المقنعة على ذلك. فإن كانت الميول الشاردة غير موجودة في الأحلام أو في أوقات الوعي فإنها لا تبقى حية في اللاوعي. وتنبق بين الحين والآخر إلى منطقة الوعي⁽⁴⁾.

وإثبات العلم الإلهي المطلق يثير مشكلة الشر في العالم كما عرضها ناومان Nauman في كتابه «رسائل في الدين». فمعرفة الكون تثبت وجود إله ذي قوة وقدرة تبعث الحياة أو الموت، ويولد خلق الكفاح في سبيل الوجود⁽⁵⁾. ويقول إن المسيحية لم تحفل بقيام دولة أو وضع تشريع. فقد ظهرت في الإمبراطورية الرومانية التي كفت المجتمع تشريعاته. في حين أن الإسلام جمع بين الدين والدولة كما فعل أفلاطون في محاورة «الجمهورية»⁽⁶⁾.

ويأسف برنجل - باتيسون Pringle - Pattison على أن اللغة الإنجليزية ليس بها إلا لفظ واحد هو «الحق» ولا يوجد بها لفظ آخر يعبر عن «الأمر»⁽⁷⁾.

وكما قدم الأمويون عقيدة القضاء والقدر لتسويغ حكمهم التسلطي كذلك قدم الفلاسفة تسويغاً عقلياً للنظام الرأسمالي باعتباره أكمل نظام اجتماعي. كما جعل

= وكل كفاحها سلم وأمن ورضوان من الله أبيد

السابق، ص 73 - 74. (ترجمة مهدي علام).

(1) السابق، ص 53 - .

(2) السابق، ص 85.

(3) السابق، ص 54 - 55.

(4) السابق، ص 32 - 34.

(5) السابق، ص 95.

(6) السابق، ص 191.

(7) السابق، ص 118.

هيجل العقل واقعاً والواقع عقلاً بالرغم من قوله بلا نهائية العقل. ورأي أوجست كومت أن وظيفة كل عضو في المجتمع قد حُددت منذ الأزل⁽¹⁾.

ويتفائل بروننج Browning. فالعالم على خير حال. على عكس شوبنهاور المتشائم. فالعالم تتصرف فيه إرادة عمياء في صور لا تتناهى من المخلوقات الحية، تحيا وتفنئ إلى الأبد⁽²⁾.

وقدم برادلي أفضل دليل في تاريخ الفكر الحديث على استحالة إنكار حقيقة النفس. ففي كتابه «دراسات أخلاقية» يفترض حقيقة النفس. وفي كتابه الآخر «المنطق» يعتبر النفس فرضاً عملياً، صحيح النتائج، ولم يقم على برهان. وفي كتابه «الحقيقة والمظهر» يجعل النفس موضوعاً للبحث العميق، وينتهي إلى شيء قريب من الأوبانيشاد عن بطلان حقيقة النفس الإنسانية. وينقد إقبال الخلط والتشويش عند برادلي مما أدها إلى التسليم بحقيقة النفس كرها⁽³⁾.

ويذهب اشبنجلر في كتابه المشهور «أفول الغرب» بأن الإسلام ينكر النفس إنكاراً تاماً، وأن عقيدة القضاء والقدر منبثة في ثنايا القرآن كله. ويرى إقبال أن القرآن لا يقوم على تصور عليّ للأفعال بل على تصور حيوي. الحياة طفرة، وهي حياة الإيمان. وهي طمأنينة تتولد عند العظام والأبطال مثل نابليون⁽⁴⁾.

وفي الفصل الذي عقده اشبنجلر عن «الثقافة العربية» فتح آفاق التفكير، ولكن على فهم خاطئ لحقيقة الإسلام كحركة في التاريخ. فالثقافات لديه دوائر منعزلة لا يتصل بعضها ببعض الآخر. ولكل روحها وخاصيتها. الحضارة الأوربية معارضة لحضارة القدماء. وتلك عبقريتها، المعادة للقديم، وليس من تأثرها بالحضارة الإسلامية. وهي ثقافة مجوسية في روحها وطبيعتها. وهو رأي صحيح. والحقيقة أن هذا الطابع نشأ من ثورة الإسلام على القديم. ويسمي اليهودية والدين الكلداني القديم والمسيحية والزرادشتية والإسلام مجموعة الأديان «المجوسية». وهو خطأ فادح يجهل حقيقة الإسلام وفلسفة الذات. وسبب خطئه أن المجوسية

(1) السابق، ص 128.

(2) السابق، ص 95.

(3) السابق، ص 112 - .

(4) السابق، ص 125 - 127.

تقوم على الصراع بين الخير والشر. وهو موجود في باقي الديانات القديمة⁽¹⁾.

ورأي ابن رشد في خلود العقل الكلي مثل رأي رينان في خلود الإنسانية والحضارة⁽²⁾. ويشبه رأي القرآن في الخلود. ويرى هلمهولتز Helmholtz أنه إمكانية تحقق. فالتهيج العصبي لديه يستغرق وقتاً كي يصل إلى الشعور⁽³⁾.

وقد أكد الفكر الغربي الحديث مفهوم الخلود في نظرية «الوجود الأبدي» عند نيتشه. وكانت الفكرة قد شاعت من قبل. ويخالف نيتشه تصور كانط وشوبنهاور للزمان. فالزمان لا يمكن تصوره إلا في شكل دورات. فالدائرة، كما لاحظ ابن رشد من قبل في الجمع بين القدم والحدث، متناهية من حيث الشكل والمكان لا متناهية من حيث الحركة والزمان. فنظام الحوادث في الكون نظام ثابت لا يتغير⁽⁴⁾.

ولا يمكن تجاهل الميتافيزيقا وجعلها كما يريد نيتشه «لعبة مشروع للكبار» أو لانجه Lange «صورة من الشعر سائغة». إذ يعتمد عليها الخبير بالدين. ولا يعتبره أكذوبة كبرى أو مجرد فرض يضبط به الفكر والسلوك لحث الإنسان على السعي والكد والكفاح. مغامرات العلم لا خطر فيها. أما مغامرات الدين فقد تؤدي إلى الهلاك⁽⁵⁾. ولا يستبعد نيتشه أن الإنسان الأسمى سيكون نهاية التطور. بل الإنسان قادر على أن يتجاوز مصطلحاته العلمية بما يشعر به من رغبة في التجاوز. ودون ذلك تقع الإنسانية في الفلسفة المادية التي تقضي عليها كما لاحظ هكسلي Huxley.

ويصف نيتشه الوطنية والقومية بأنها أمراض وحماقات تعادي الثقافة. وهي الأمراض التي أصابت المسلم العصري في تركيا ومصر وإيران⁽⁶⁾. كان موهوباً في علم النفس الديني، ولكنه فشل لتأثره بأسلافه من المفكرين مثل شوبنهاور وداروين ولانج⁽⁷⁾.

(1) السابق، ص 164 - 166.

(2) السابق، ص 129.

(3) السابق، ص 137.

(4) السابق، ص 131 - 133.

(5) السابق، ص 212.

(6) السابق، ص 215 - 216.

(7) السابق، ص 223 - 242.

ج - الإيمان الصوفي: يعتمد إقبال على تحليلات هوكنج للشعور الديني وعلاقته بالعقل. فالعقل جزء من الشعور وليس مستقلاً عنه. ومن ثم لا مسوغ لنقد الصوفية للعقل. وهو ما يرجع إلى الخلاف الكلامي القديم عن خلق القرآن وأنه «معني في النفس»⁽¹⁾. يرى هوكنج أن الولي لا يحصل على الإلهام إلا إذا كانت روحه مستعدة لاستقبال الأبدية. وهذا هو طريق الولاية أو النبوة⁽²⁾.

ولا يعرف ماكدونالد شيئاً عن الاختلاف النفساني الجوهرى بين الوعى الصوفى والوعى النبوى. ويتندر على الوعى النبوى فى «جمعية البحوث الروحانية». ولو أنه فهم روح القرآن لأدرك كيف انتهى المسلمون إلى النزعة التجريبية⁽³⁾.

ويعتمد إقبال على برجسون فى التأكيد على أن الفكر والبداهة قرينان. بل إن البداهة ليست إلا ضرباً عالياً من التفكير⁽⁴⁾. وقد انفرد بدراسة الديمومة. فالزمان كيف وليس مجموعة من اللحظات أو الذرات كما هو الحال عند ديموقريطس⁽⁵⁾. والغائية مفتوحة على المستقبل. وهى العلة الفاعلة بالأصالة. ربما أخطأ برجسون فى اعتبار الزمان الخالص سابقاً على النفس التى منها تنبثق الديمومة الخالصة⁽⁶⁾. كما يعتمد إقبال على برجسون فى تحديد مفهوم الفرد فى كتابه «التطور الخالق». فالفردية هى أساس تطور الكائنات الحية، خروج الفرد من الجماعة حتى الوصول إلى الفرد المطلق، الصوفى أو النبى، البطل أو الإله⁽⁷⁾.

وكان لوليم جيمس فى كتابه «أنواع الخبرات الدينية» نظرات نفسية قيمة لتحليل الوعى الصوفى. فبعض أنواع الرسائل يحمل طابع الشخص البالغ مثل الغيبوبة والنوبات العصبية⁽⁸⁾. والصلاة عبادة، والناس سيصلون إلى آخر الزمان.

(1) السابق، ص 29 - 30.

(2) السابق، ص 34 - 35.

(3) السابق، ص 25 - .

(4) السابق، ص 7.

(5) السابق، ص 57 - 58/62 - 63/65.

(6) السابق، ص 67.

(7) السابق، ص 75.

(8) السابق، ص 25/31 - 32.

والدافع على ذلك أن الصلاة نتيجة ضرورية من أن النفس الإنسانية بالرغم من اتجاهها الاجتماعي إلا أنها في حاجة إلى رفيق أعظم في عالم مثالي. وهو أيضاً موقف الأفلاطونية المحدثة وتأويلاتها عند المسلمين أو المسيحيين. فهي تكمله للنشاط العقلي. وهو ما أكده الرومي في صلاة الصوفية النابعة من القلب، وليست صلاة الجوارح عند الفقهاء⁽¹⁾. والشعور تيار جارف من الفكر، تدفق واع من التغيرات المتصلة. وكلها تكوّن النفس لإثبات وجودها واستقلالها عن البدن خلود⁽²⁾. ورأي ابن رشد في خلود النفس يشبه رأي وليم جيمس القائل بوجود آلية صورية في الوعي تؤثر في وسيط من الجسم عندما تتخلى عنه⁽³⁾.

وعند رويس الحالة الصوفية علاقة متبادلة بين الشيخ والمريد. وهو أمر لا يقاس كمياً⁽⁴⁾. ويشبه رأي جلال الدين دواني في فقرة من كتابه «زورا» عن الزمان رأي رويس. فلو كان الزمان نوعاً من الامتداد لكان ظهور الحوادث ممكناً بوصفها ركباً يتحرك. يسير وكأن هذا الامتداد وحدة. إلا أنه ليس حالة أصيلة من أحوال القدرة الإلهية، تحيط بأحوالها المتعاقبة. ويزيد جلال الدين بأن هذه الحالات تتلاشى في الله لأن علمه يحيط بكل شيء. وهو أيضاً رأي الشاعر العراقي. وقد فصل الرازي في «المباحث المشرقية» موضوع الزمان. وهو نفس رأي ميرداماد وملا باقر. وهو نشأة لازمان مع الخلق⁽⁵⁾.

ويعتمد إقبال على تعريف هوايتد للدين بما يتفق مع التعريف الإيماني الصوفي. وهو أنه نظام مجموعة من الحقائق العامة لها تأثير في تكييف الخلق إذا صدق الاعتقاد بها، وفهمت فهماً واضحاً. وعصر الإيمان هو عصر الإيمان العقلي⁽⁶⁾.

د. الإيمان العلمي: رفض هوايتهد النظرية المادية القديمة. فما لا يدركه

(1) السابق، ص 104 - 105.

(2) السابق، ص 117.

(3) السابق، ص 129.

(4) السابق، ص 17.

(5) السابق، ص 89 - 92.

(6) السابق، ص 6.

الحس فراغ مطلق. ليست الطبيعة شيئاً قاراً يقوم في خلاء لا حركة فيه، بل هي عملية متدفقة دائمة، يقسمها الفكر إلى وحدات منعزلة. وهو نفس موقف برجسون. وقد ارتبط التصور القديم بنيوتن الذي تصور الفضاء خلاء مطلقاً تقوم فيه الأشياء. وفي عرض هويتهد لنظرية أينشتين أصل فكرة المركب محل فكرة المادة إحصائياً تماماً⁽¹⁾. ويقول هويتهد في كتابه «العلم والعالم الحديث» أن أفضل التفسيرات هو أن الإلكترون لا يتحرك حركة متصلة في محله⁽²⁾. كان هويتهد أقرب إلى المسلمين من أينشتين في تصورهما للنسبية. فهي حية عند الأول، وأكثر تجديداً عند الثاني⁽³⁾.

وكان بركلي أول من نقد نظرية المادة باعتبارها علة لا تُدرك حسياً⁽⁴⁾. وعند ماكس بلانك في نظريته الخاصة بمقدار الطاقة المشحونة في الذرة، يمكن تصور حركة الذرة متصلة في مجالها⁽⁵⁾.

وجاءت نظرية أينشتين بنظرة جديدة للكون. وفتحت آفاقاً جديدة للدين والفلسفة. كما أتى المسلمون بنظرة جديدة على نظرية اليونان⁽⁶⁾. وقد قوضها في نظرية النسبية⁽⁷⁾. فالمكان موجود وجوداً نسبياً. تتغير أشكاله بالنسبة للملاحظ. ويتكرر رأي نيوتن في المكان المطلق. ونظرية أينشتين نظرية علمية خالصة. تتناول بناء الأشياء دون ماهياتها. ليس الكون عند أينشتين قائماً في فراغ لا نهائي بل هو متناه بلا حدود. لا يوجد بعده خلاء. وإذا انعدمت المادة انكمش الكون إلى نقطة. عيب نظرية أينشتين أنها تؤدي إلى بطلان الزمان⁽⁸⁾. واعتبار العلم الإلهي مطلقاً سلبياً هو نوع من الفراغ الجامد الذي اتسمت به الطبيعيات قبل أينشتين. يضيف على الأشياء وحدتها. وأيده رسل. فقد أدخلت النظرية النسبية الزمان في المكان.

(1) السابق، ص 41 - 43 / 48 / 56.

(2) السابق، ص 83.

(3) السابق، ص 154.

(4) السابق، ص 41 / 43.

(5) السابق، ص 83.

(6) السابق، ص 14.

(7) السابق، ص 41 - 42 / 47 - 49.

(8) السابق، ص 93.

ولم يعد هناك جوهر كما تصوره القدماء⁽¹⁾. ونقد مثل برجسون حجج زينون على نفي الحركة بقسمتها في المكان إلى ما لا نهاية، اعتماداً على حجة كانتور في اتصال الكم الرياضي.

وقد اتهم ولدون كار Wildon Carr النظرية النسبية بأنها تؤدي بالضرورة إلى المثالية الذرية. في حين أنها تقضي فقط على الظواهر المطلقة في الطبيعة. وإذا كان العقل ثمرة التطور فإن تصور الطبيعة على نحو آلي يكون متناقضاً⁽²⁾.

ويعتبر نون Nunn أن الإطار الزماني المكاني لا يتوقف على عقل الملاحظة بل على نقطة اتصال جسمه بالعالم المادي وكما يقول هوسرل في «العالم لا يتحرك»⁽³⁾. وقد تصور أوزبنسكي، وهو من المفكرين الروس المعاصرين الزمان كبعد رابع على أنه حركة جسم ذي أبعاد ثلاثة في اتجاه خارج نفسه في كتابه Tertium Organum. ولا يختلف عن أبعاد المكان عند إقليدس ولكنه اتجاه جديد في المكان⁽⁴⁾.

وفند برجسون تصور زينون الإيلي للحركة في المكان. وجعله ينقسم إلى ما لا نهاية في حين أن الحركة في الزمان لا تنقسم. والزمان عند برجسون هو الديمومة⁽⁵⁾. ويثبت رونجيه Rongier في كتابه «الفلسفة والفيزياء» أن بالعالم طفرات مفاجئة على عكس ما تصور القدماء، وليس على مقياس محسوب. بها حالات متميزة، ولحظات متميزة مثل حياة الشعور⁽⁶⁾.

وتكشف النتائج التي توصل إليها نيوتن ودارون في ميدان التاريخ الطبيعي عن آلية تفسر الطبيعة تفسيراً كلياً وشاملاً بما في ذلك حياة الشعور⁽⁷⁾. والزمان عند نيوتن شيء في نفسه ومن طبيعته الذاتية. يتدفق بالتساوي. وهو قريب من تصور

(1) السابق، ص 43/45 - 49.

(2) السابق، ص 47/55.

(3) السابق، ص 48.

(4) السابق، ص 49 - 50.

(5) السابق، ص 44/49.

(6) السابق، ص 88.

(7) السابق، ص 51.

الأشاعرة في أن الزمان مجموع أناث⁽¹⁾. وقد تغيرت نظريات العلم من نيوتن إلى هيزنبرج القائل بمبدأ عدم التحدد إلى مذهب يجعل الإلهيات العقلية ممكنة كما هو الحال لدى أنصار الدين الطبيعي⁽²⁾.

وينكر ماكتاجرت Mctaggart حقيقة الزمان لأن كل حادث يقع في الماضي أو الحاضر أو المستقبل. وقد يكون الحدث حاضراً بالنسبة لمعاصريه، وماضياً بالنسبة لنا. وقد يكون مستقبلاً بالنسبة لمن يتوقعه. وقد وافقه برود Broad على ذلك⁽³⁾. والزمان حقيقي عند أوغسطين⁽⁴⁾.

ويستشهد إقبال بكتاب «المكان والزمان والجاذبية» لإدنجتون لإثبات الخلق في الزمان والمكان من ناحية، ووجود ذات لازمانية ولا مكانية من ناحية أخرى⁽⁵⁾. وهو ما قاله أيضاً هوبسون Hopson، خضوع العالم لقوانين الجاذبية والميكانيكا والهندسة. وقد تساءل إدنجتون عن كيفية معرفة الوجه الآخر للذوات الطبيعية الجزئية، خاصة وأنا نشعر به⁽⁶⁾.

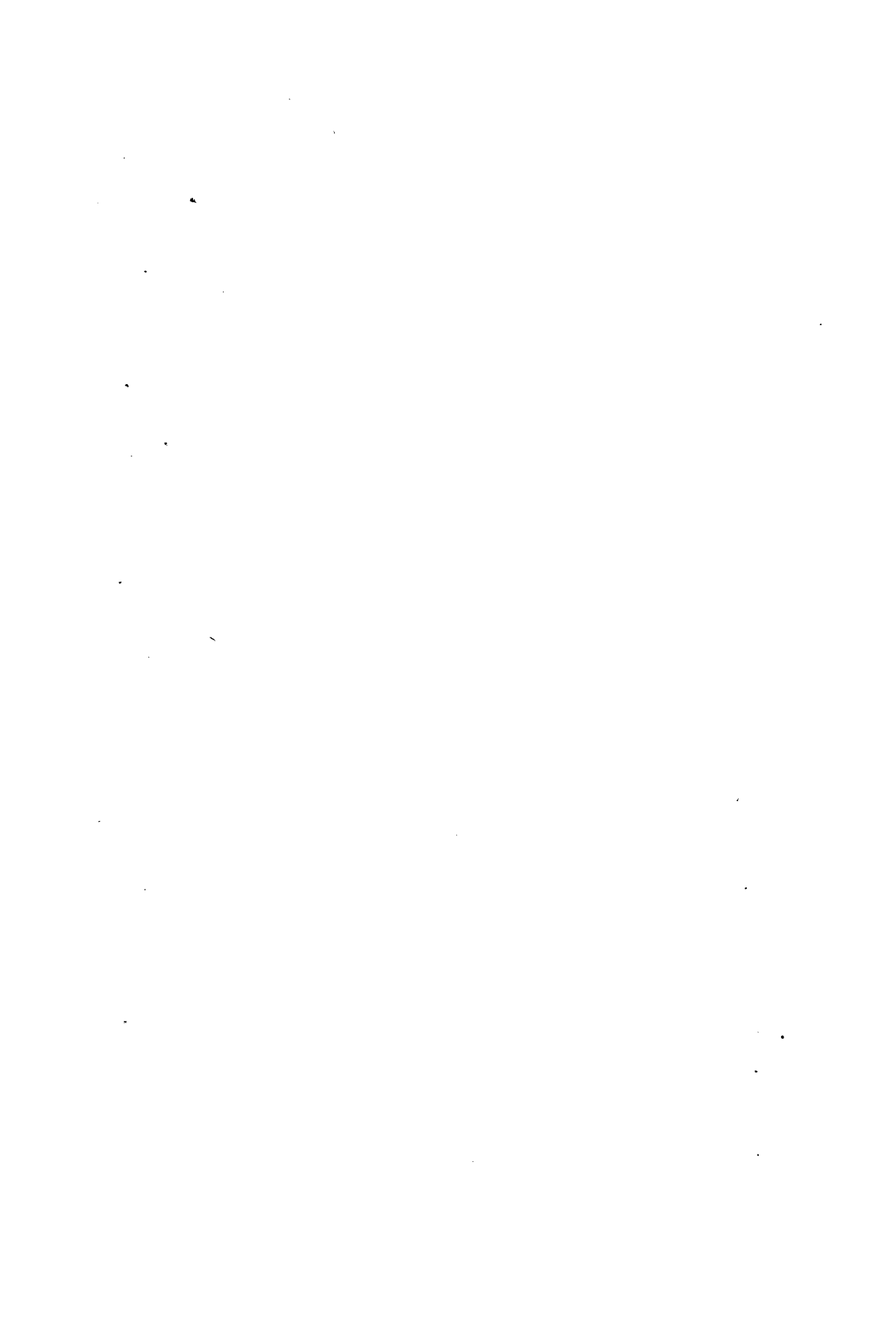
وقد رأى صمويل الكسندر في كتابه «الزمان والمكان والألوهية» أن الله موجود بالقوة لا بالفعل، وأنه في سبيل الخروج إلى القوة. وهو تطبيق للزمان الذري على الذات الإلهية⁽⁷⁾. هناك مكان وزمان مطلقان. وكلاهما تعبير عن الألوهية. ولو أن العراقي تعمق في مفهوم الزمان لأدرك أنه هو الأهم. فالزمان عقل المكان كما يقول الكسندر. والعراقي يتصور علاقة الإله بالكون مثل علاقة الروح بالبدن. ولولا تعصب العراقي لأرسطو لوصل إلى مفهوم الزمان في العلم الحديث⁽⁸⁾.

-
- (1) السابق، ص 87.
 - (2) السابق، ص 210.
 - (3) السابق، ص 69 - 70.
 - (4) السابق، ص 70.
 - (5) السابق، ص 79 - 80.
 - (6) السابق، ص 214.
 - (7) السابق، ص 89.
 - (8) السابق، ص 158 - 159.



الباب السابع

الدولة الأمة



الفصل الأول

نظام الدولة

1 - موضوع السياسة

لم يؤلف إقبال في السياسة مباشرة كما فعل في «تطور الميتافيزيقا في فارس» و«تجديد التفكير الديني في الإسلام»، لكنه له بعض الكتابات والرسائل في السياسة. معظمها خطب ألقى في بعض المؤتمرات واللجان السياسية تم تجميعها في عملين بالإضافة إلى رسائل إلى محمد علي جناح⁽¹⁾. السياسة تطبيق للفلسفة عامة، وللشعر خاصة، فهي جزء من الآداب. لذلك خسرت إيطاليا مازيني منظر الوحدة الإيطالية التي حققها جاريبالدي. كان تخصص مازيني الفعلي الأدب وليس السياسة. ومكسب إيطاليا ليس كثيراً بالمقارنة إلى خسارتها بانشغاله بالسياسة عن الأدب⁽²⁾. أما السياسة وحدها فلها معني سلبي عند إقبال. فهي أدوار في لعبة التيجان أي السلطة، بين الشاه والجندي⁽³⁾. السياسة بمعنى النظام هي العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

A - Thought & Reflections of Iqbal, edited with notes by Sayed Abdul Wahid, SH. (1) Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazaar, Lahore, Pakistan, May, 1964.

B - Letter's and writings of Iqbal edited and compiled by B. A. Dar, Iqbal Academy, Karachi, November, 1967.

C - Letter's of Iqbal to Jinnah, Allama Iqbal's views on the political future of Muslim India, SH. Mohammad Ashraf, Kashmiri Bazaar, Lahore, Reprinted, 1968.

في Shamloo Speeches and Statements of Iqbal وقد جمع كثيراً منها شاملو.

ST. Ref., p. 57. (2)

(3) تقضي السياسة أن نحدد أولاً أدوارنا في لعبة التيجان =

والحكم في هذا العصر ويسميه إقبال الحكومة رضى بين الحاكم والمحكوم. فلا المحكوم غاضب ولا الحاكم غاضب. والأمة ثابتة في مكانها خارج حلبة السعي. شغلت عقلها بما لا يفيد مثل مسألة الذات والصفات. دستورها مغلق لمجتمعات الأديرة. ليس فيه من رموز الحياة شيء. هي أمة ارتضت الراحة وارتضى الشباب فيها السكون⁽¹⁾.

وتعني «حكمة» العدل مثل حكمة «الكليم». وهي سياسة الأنبياء. وتعني حكمة فرعون الضد أي سياسة الطغاة. وهي سياسة الاستعمار، وتدميره لحياة الإنسان، والقضاء على حرите. فإذا كانت حكمة الأنبياء هي العدل فإن حكمة الطغاة هي حكمة المكر والخداع. تحيل الإنسان إلى حيوان عن طريق الجسد، وتسلب الروح كرامة الحياة. هي حرية مارقة تعيش في الدنيا بغير دين. والنفس فيها شاردة في أوهامها، لا تعرف الشرف أو اليقين. ووسائل التهذيب في النظام سلاسل الأسرى وأغلال العبيد. وينقاد الغلام للسيد، ولا يعرف ما يعني، وماذا يريد؟⁽²⁾.

السياسة تقنين لأشكال الحكومة. يقول السكندر بوب Alexander Pope «اترك

هذا اختيار اللاعب الشيطان
دلت على شاه بلا سلطان

ليسوا عن الحق بالعناة
وليس للحق بالمواتي
في حلبة السعي بالخزاة
فلسفة الذات والصفات
للخمر والشرب من ثبات
لأمة حرة السمات
المر من مورد الحياة

والمكر والخداع حكمة الطغاة
وتسلب الروح كرامة الحياة
تعيش في الدنيا بها من غير دين
لم تعرف الشوق إلى عين اليقين
سلاسل الأسرى وأغلال العبيد
فلا يرى ولا يعي ولا يريد

= لا الشاه أنت بها ولا أنا بيدق
إن البيادق إن أعافت نفسها
جناح جبريل، ص 542 - 543.

(1) يرضى المريدون قول حق
والشيخ قول الفقير يقلي
قد قعدت أمة وباءت
إن شغلت عقلها ببحث
دستور ذا الدير ليس فيه
لكنما راحتته نصيب
الشهد عند الشباب فيها
ضرب الكليم، ص 54.

(2) قَدِّمَتْ حِكْمَةَ النَّبِيِّ لِلْعِيَانِ
تَبْقَى عَلَى الْإِنْسَانِ جِسْمَ الْحَيَوَانِ
حَكْمَتُهَا حُرِيَّةٌ مَارِقَةٌ
وَالنَّفْسُ فِي أَوْهَامِهَا شَارِدَةٌ
وَسَائِلُ التَّهْذِيبِ مِنْ هَذَا النِّظَامِ
كَمَا يَرَى السَّيِّدُ يَنْقَادُ الْغُلَامِ
يا أمم الشرق، ص 352.

المجانين يحاربون من أجل أشكال الحكومة». ولا يوافق إقبال على رأي هذا الفيلسوف السياسي. الحكومة، بصرف النظر عن شكلها، هي إحدى القوى المحددة لشخصية الأمة. وفقدان السلطة السياسية مدمر لشخصية الأمة. ومنذ الانهيار السياسي للمسلمين في الهند وقع لهم انهيار أخلاقي سريع. ومن بين المجتمعات الإسلامية في العالم، هم أضعفهم في الشخصية⁽¹⁾.

والفلسفة لا تصمد أمام السياسة. فمهما كان الفيلسوف حكيماً يقول بالحكم العدل فإن السياسي هو الذي يحول العدل إلى ظلم، والحق إلى باطل. الفلسفة نظرية، والسياسة عملية. والعمل يجب النظر. الفلسفة أخلاقية، والسياسة لا أخلاقية. وهو الدرس المستفاد من الغرب منذ «الأمير» لميكافيللي⁽²⁾.

والحياة السياسية الحقة لا تبدأ بالمطالبة بالحقوق ولكن بالقيام بالواجبات. وقد قامت سياسة الغرب على الحقوق دون الواجبات. وفيه تم «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان»، وليس «الإعلان العالمي لواجبات الإنسان ومسؤولياته». وتقوم الحياة السياسية لدينا على الواجبات دون الحقوق. تفرض الدولة على المواطنين واجباتهم دون أن تعطيهم حقوقهم. وعلى هذا النحو أيضاً يتم تصور تطبيق الشريعة الإسلامية كحدود وليس كحقوق، كعقوبات وليس كإشباع للحاجات الأساسية⁽³⁾.

SR. Ref., pp. 14 - 5.

(1)

(2) لا تقيسوا فلسفياً بارعا
بسياسي وبالعدل احكموا
ذاك عين جهرت في شمسها
وجمود عين ذا لا ترحم
ذاك في الحق دليل واهن
ذا لدى الباطل قول محكم

رسالة الشرق، ص 330.

(3) وقد تم منذ عشر سنوات صياغة «الإعلان العالمي لمسؤوليات الإنسان Universal Declaration of human Responsibilities!» صاغته لجنة كونها هلمولت شميت مستشار جمهورية ألمانيا الاتحادية السابق برئاسة هانز كنج Hans King اللاهوتي السويسري وعضوية حوالي العشرين وكنت أحدهم. ووافقت عليه الجمعية العامة للأمم المتحدة. وأصبحت لجنة «لجنة الفعل المتبادل». Inter - action Council. وقد أتت اللجنة وزارت مصر. وقابلت الرئيس منذ عدة سنوات. وطلبت اللجنة حضوري ولكن وزارة الخارجية لم توجه لي الدعوة.

2 - الدين والدولة

وفي قصيدة «شقائق النعمان في الغرب» يرفض إقبال أساطير الغرب: العلمانية والمادية والعقلانية. العلمانية ضد الدين. والمادية ضد الروحانية. والعقلانية ضد الإيمان. هي مثل شقائق النعمان (التوليب) حمراء كالنار ولكن لا تحرق. وهي كالدّم ولكن دون حيويته. لذلك يضعها البستان على هامشه. وبالرغم مما توحى به هذه القيم الجديدة من فضاءات إلا أنها قفص ضيق. هي سفر تائه، وتيه مسافر. والحقيقة لدى موسى في سيناء. أخرج الدر من الأوصال والأحوال. كابد وسعى وجاهد⁽¹⁾. وأي أسى عندما لا يتحول الدين إلى دولة أو الدولة إلى دين؟ دين بلا دولة دين ضعيف. ودولة بلا دين دولة خائرة ليس بكليهما شجاعة علي وقوة بصيرته⁽²⁾.

والعلمانية أحد أسباب الضياع. كيف يستطيع المسلم أن يطوف في الحانات يسقى وهو مخنوق بعلمانيته؟ ألم تتكون الشجرة الباسقة في السماء إلا في الطين؟ فلا تجديد بلا تراث، ولا معاصرة دون أصالة⁽³⁾.

ويستعمل إقبال اللفظين على التبادل، المشرق والشرق، والمغرب والغرب. ففي الشرق قامت دعوات علمانية مثل دعوات مصطفى كمال ورضا بلهوي، تنحرف بروح الشرق. وروح الشرق تبحث الآن عن بدن آخر تظهر فيه. والدعوة

(1) هي رُغم ما تبدي رحابة صدرها
سافرت تائهة وتهت مسافرا
وعلام أيتها الشقيقة سيرنا
موسى غريب عن نوى ودياتنا
سيناء أنت ونار واديبها أنا
من ذلك الغواص أخرج درنا
جناح جبريل، ص 509.

(2) أسفا لدين ليس يكسب دولة
من أين للثنين كرة حيدر
السابق، ص 455.

(3) النخلة السماء أختك كونت
أطوف في الحانات تسقى كأسها
السابق، ص 442.

إلى الذاتية دعوة لليقظة والحرية التي مازال البعض يتربص بها، ويريد القضاء عليها⁽¹⁾. وكتب قصيدة إلى مصطفى كمال في يونيو 1922. عبر فيها عن إعجابه بعزمه وإقدامه ثم انقلب عليه بعدما بدأ تقليد أوروبا. فجدیده قديم أوروبا⁽²⁾.

3 - الملكية والجمهورية

ويسمى إقبال النظام الملكي أيضاً حكم الفرد أو القيصرية كما يسميه إبليس على لسان إقبال الملوكية. وحكم الفرد شر للناس جميعاً. هو حكم الطغاة والمستبدين⁽³⁾. ولا يذكر إقبال شيئاً عن الملكية الدستورية وهي الملكية المقيدة أو الملكية الليبرالية التي طالما دافع عنها المصلحون قبل الأفغاني كنظام للعالم الإسلامي أفضل من الخلافة والنظام الملكي. وهو النظام الذي حكم مصر في النصف الأول من القرن العشرين. هو النظام القيصري القديم الجديد. لقد عادت القيصرية من الإمبراطورية الرومانية إلى القيصرية الجديدة⁽⁴⁾. ولا يذكر إقبال أيضاً التشريعات الرومانية ومجالس الشيوخ التي كانت تحد من سلطة الإمبراطور.

ويحيل إقبال إلى الملكية في بريطانيا دون أن يذكر أيضاً الدستور البريطاني،

-
- (1) جيب الشقائق من شدوي غدا فرقا
ما مصطفى أو رضا جلي حقيقتها
وحق ذاتي عقاب غير أن لها
ضرب الكلیم، ص 103.
- (2) أمة كانت ومن حكمتها
قد عرفنا سر تقدير مضي
شررا كنا، أجدنا نظرا
شيخنا أطفأ في أحشائه
صرصر البيداء في فطرتنا
وعلى الأفلاك ذوي صوتنا
رُب صيد قد أخذنا وثبة
وغدوننا يوقع الصيد بنا
كلما أمكن طرف فاركضن
رسالة الشرق، ص 302.
- (3) وحكم الفرد شر للأنام
أرمغان حجاز، ص 441.
- (4) السابق، ص 513.

وأن ملك بريطانيا يملك ولا يحكم. وبين كيف تعاملت بريطانيا مع الملوك الذين نصبتهم في العالم الإسلامي كي يكونوا تابعين لها وإلا عزلتهم وعينت غيرهم. لقد عزلت بريطانيا ملك الهند الطيب. فالملك في بريطانيا صنم من تراب. يحطمه العباد متى يشاءون. ويستطيع الساحر البريطاني نحت صنم آخر⁽¹⁾.

والملكية حكم الشيطان. يقول إبليس إنه عرض على الإفرنج حكم الملوكية. وحطم سحر المسجد والمعبد والكنيسة. وعلم الجهلاء درس القدر. وأعطى للغنى جنون الرأسمالية. وأثنى المستشار الأول على هذا النظام الذي علم الشعب طعم العبودية والخضوع والمذلة على جبينه. صلاتهم بلا قيام. وخالون من الأمانى. صار الصوفي والملا عبداً تاماً للملكية. كان هذا النظام مناسباً لطبع الشرق. وعلم الكلام مثل الغناء الصوفي. ولو بقيت مناسك الحج والطواف إلا أن سيف السلم أصبح كمالاً. وتحريم الجهاد دليل على اليأس⁽²⁾. فليتححرر من عمل الدنيا حتى يتحرر من امتحان كل نفس⁽³⁾.

والعبودية نتيجة للنظام الملكي الذي يقترن الإقطاع به. فالإقطاعي هو السيد. والفلاح هو العبد. والعبودية هي الموت. ولسوء الحظ، لا يفهم العبيد مكر السادة. ونظامها السياسي الملكية. غوغاء الصور حلال فيها. لذة الحشر حرام. فكيف يبحث عن مقام الذاتية في العبودية⁽⁴⁾. والنصيحة الواضحة للأمم المستعبدة أن فضاء الفلك بلا حدود لو ضاقت الأرض بها⁽⁵⁾.

وأصبحت الخلافة خاصة في العصر التركي نوعاً من حكم الفرد والنظام الملكي. الخلافة بنور النبوة تاهت وضاعت عن المسلمين وتحولت إلى ملك طبقاً للحديث الشهير «الخلافة ثلاثون سنة تتحول بعدها إلى ملك عضود». ظن المسلمون أنهم أسمى مقاماً، ولكنهم خدعوا أنفسهم. فقد تنازعوا في الملك. ونسوا الفقر الذي كان يرى الملك حراماً⁽⁶⁾.

(1) أرماغان حجاز، ص 523.

(2) السابق، ص 511.

(3) السابق، ص 531.

(4) السابق، ص 535.

(5) السابق، ص 542.

(6) بنور للنبي القلب أضرم أنار بشرقه ما كان أظلم =

والسلطان أول المتسولين على الخراج الذي يجمعه من الناس. وهو أول السارقين لأنه يجمعه لملذاته. فقد صاح في الحانة يوماً سكير ظريف. إنما السلطان شحاذ وقح. لا يجروء أحد أن يقترب من تاجه أو أن يلبس حريراً أو ذهباً. كأسه أحمر من دماء الناس. كل ما في قصره منهوب بقرار إثر قرار. يسرق في نور الصباح وليس في دياجى الظلام. يأخذ من الفلاحة طعام دجاجة باسم الخراج⁽¹⁾.

ويدخل العباد إلى الدير لأنهم ذو احتياج. يذكرون الله حين يتأملون من الأصنام. فالدين منفعة. ثم يكتشفون أن الصلاة لا تفيدهم، ولا عبادة الأصنام. فحظهم النواح والعويل. والعمارات تطاول الأفلاك، ولكنها خراب ظاهر. والعلم والحكمة، والسياسة والتجارة. من إبداع الملكية. ومع ذلك، هناك بقعة من الأرض حرة من عبودية التاجر الأوربي⁽²⁾.

ويبدو أن النظام الجمهوري أفضل من النظام الملكي. إلا أنه يقوم على الأغلبية والأقلية، على العد والإحصاء، وليس على وزن الناس جماعة⁽³⁾. ومع

فهذا المؤمن الملك علم
وهذا الملك قد كان الحراما
وترعى عهد ربي والذماما
لديه الملك في دين حرام

إنما السلطان شحاذ جلف
طمعا في ذلك التاج الصلف؟
يرتدي في القصر ثوبا من ذهب؟
وعليها من دم الناس حيب
بقرار مجحف إثر قرار
مثل من يسرق في وضح النهار
شحذوا منها طعاما للذجاج؟
إنما الشحاذ من سن الخراج

وما كان من قبله يُعلن
تُعد العباد ولا توزن

ونظام الجمهور في الغرب داء

ولكن الخلافة وسط تيه
ونشهد أننا نسمو مقاما
خداع كله، بل كل مكر
لفقر عظيم قوم كنت عبدا
أرمغان حجاز، ص472.

(1) صاح في الحانة سكير ظريف
أبكم يخرج عن بزته
أبكم يصبح عريان لكي
كأسه حمراء في لون الشقيق
كل ما في قصره جمعه
ليس من يسرق في جنح الدجي
كم بذاك الحقل من فلاحة
بلغوهم أنسي قلت لكم
جناح جريل، ص504.

السابق، ص523 - 524.

(2) بدا السر في قولة من أريب
نظام الجماهير حكم به
ضرب الكلیم، ص107.

(3) علة الشرق ذلة واقتداء

ذلك، إذا كانت علة الشرق الذلة والافتداء فإن داء الغرب نظام الجمهور⁽¹⁾. وينقد إقبال النظام الجمهوري بأنه نظام عددي لا يقوم على شحذ الهمة. فالنمل عدد، وسليمان ذو همة. وألف رأس حمار لا تساوي عقل إنسان⁽²⁾. ويتساءل المستشار الثاني عن الحكم الجمهوري خيراً أم شراً. ولا يرى غضاضة في بقاء الملكية. فما الجمهورية إلا لباس لها. فالسلطة هي السلطة. عينها على ثروات الغير. النظام الجمهوري الغربي له وجه مضيء، ولكنه من الداخل أحلك من جنكيز⁽³⁾.

4 - الديمقراطية وحق الشعب

يفضل إقبال النظام الديمقراطي الذي يقوم على الاعتراف بحق الشعوب في تقرير المصير. تميل الديمقراطية إلى تقوية روح الشريعة. وهذا شئ في حد ذاته خير. ثم تميل للأسف إلى أن تزيح الرؤية الأخلاقية الخالصة، وتوحد بين اللاشعري والخاطئ في المعنى⁽⁴⁾. الديمقراطية ليست فقط في السياسة بل أيضاً في العلم. إذ تؤثر الأفكار وتتأثر بغيرها. فنمو روح الفردية في السياسة لها أثرها على الفكر العلمي الحديث. الفكر الحديث ينظر إلى العالم باعتباره ديمقراطية الذرات الحية⁽⁵⁾.

نشأت الديمقراطية في أوروبا مغطاة بظلال من الثورة الاشتراكية، والخوف الفوضوي من الانتعاش الاقتصادي للمجتمعات الأوربية. ونيتشه يستنكف من قاعدة القطيع هذه. وبعد أن يأس من الدهماء فإنه يجعل المسؤول عن الثقافة في العالم تنمية أرستقراطية «السوبرمان». والسؤال هو: هل الدهماء لا أمل فيها على الإطلاق؟ أما الديمقراطية الإسلامية فلم تنم من زيادة الفرص الاقتصادية بل هي

= مرض القلب والبصيرة فاش ما بشرق ولا بغرب شفاء
السابق، ص 113.

(1) تريد معنى الغلى من ساقطى همم
فاتبع حكيماً ودع جمهورهم، أتري
رسالة الشرق، ص 300.

(2) أرمغان حجاز، ص 511.

(3) Th. & Ref., pp. 77 - 8.

(4) ST. Ref., p. 59.

(5) Th. & Ref., pp. 83 - 4.

مبدأً روحي قائم على أن كل إنسان مركز لقوة كامنة يمكن تنمية إمكاناتها بتربية شخصية نوعية. ومن الدهماء خرج رجال من أنبل الشخصيات المملوءة بالحياة والقوة. أليست الديمقراطية الإسلامية الأولى تنفيذاً تجريبياً لآراء نيتشه؟⁽¹⁾.

الخطر على الديمقراطية هي أن الأقلية هي التي تقرر مصير العالم. ويشهد تاريخ أوروبا بذلك. ويرجع ذلك لأسباب نفسية. لماذا تكون الأقلية عاملاً نشيطاً في تاريخ البشرية؟ الشخصية هي القوة الخفية التي تحدد مصير الأمم. والشخصية القوية لا تظهر في مجتمع الأغلبية. هي قوة كلما عمت ضعفت⁽²⁾. وولاة الأمر في شعب هم الذين يقدررون مصالحه، وليس من أجل استغلال الفلاح وحرمانه مما يزرع⁽³⁾.

لذلك انتهت الديمقراطية إلى الرأسمالية في الغرب. إن الطموحات الإمبراطورية لمختلف البلاد الأوربية تبين أن الغربيين مرهقون بالديموقراطية. ورد الفعل ضد الديمقراطية في فرنسا وإنجلترا ظاهر للعيان. ومن أجل فهم هذه الظاهرة لا يقتصر جهد الباحث في العلوم السياسية على تقفي الأسباب التاريخية التي أدت إلى رد الفعل، بل يتوغل أكثر في الأسباب النفسية له⁽⁴⁾.

تعني الديمقراطية حكم الشعب بنفسه. وهي تحقق الروح للشعب. وخفقان الروح خلقها⁽⁵⁾. وإثبات الذات إثبات الشعب⁽⁶⁾. تناصر الشعوب بعضها بعضاً في

(1) Th. & Ref., p. 79, ST. Ref., p. 54.

(2) ولاة الأمر من ربي لشعب
ولكن لا يحب الله شعبا
زحاما يملكون لكل أمر
به الفلاح يزرع كي يُلبني
أرمغان حجاز، ص 460.

(3) St. Ref., pp. 121 - 2.

(4) ولهذا الشعب إنني قد خفقت
وجيز القول خير القول قالوا
ولحني النار في روحي خلقت
خفقت، خلقت، لكنني استرحت
أرمغان حجاز، ص 451.

(5) وذات أنت تنكرها لشعب
السابق، ص 469.

(6) الشعوب بين صفو الإخاء
إخوة، في حربها أو في المراء
جاويد نامه، ص 304.

السراء أو الضراء⁽¹⁾. ومع ذلك قد يسرق شعب شعباً ويأكل طعامه. ويغني بلد على حساب بلد آخر يفقر⁽²⁾.

تقع الشعوب في الأسر. والحكم الأجنبي النزيه مستحيل. ومع ذلك قد يبدو ضرورياً. وثمان ذلك يكون أحياناً الخبز اليومي. فقد تدرب المكسيكيون بفضل الأسباب حتى تعلموا كيف يأخذون مصيرهم بأيديهم⁽³⁾.

سرقة الثروة هو ابن الطبيعة البكر. إذ لا تحب الطبيعة تراكم ثروات كبيرة في يد حفنة قليلة من الناس. وكذلك إذا ما نجح رب أسرة في جمع ثروة فإنها تتبعثر في الأجيال التالية. في حالة الطبيعة، تتوقف دورة رأس المال. فما هو صحيح للأفراد يصح أيضاً للشعوب. فإذا ما جمع شعب ثروة عن طريق الصناعة أو أي طريق آخر، قد تقف عجلة الصناعة في حين أن العمل يعتمد على دورة رأس المال. تظهر الشعوب السارقة وتصرّف الثروة المختزنة. وهناك ممثلون لهذه الشعوب، عوامل لا شعورية للطبيعة لتعدم الصناعة في العالم. وهذا ينطبق على العملات الأوروبية في القرنين السابع عشر والثامن عشر⁽⁴⁾.

تولد الشعوب في قلوب الشعراء. وتزدهر وتموت في أيدي السياسيين⁽⁵⁾. فالدول صور في أذهان الشعراء. تتحول إلى واقع. فتسري عليها قوانين الحياة، النهوض والسقوط، القيام والانحلال، بفعل السياسيين. وقد تكون للخطيئة قيمة تربوية في حد ذاتها، ولكن الشعب الفاضل دائماً شعب غبي إذا ما استكان⁽⁶⁾.

(1) كل إنسان أخاه يأكل
تتلظى الروح من هذا البلد
السابق، ص 289.

(2) ST. Ref., p. 52.

(3) Ibid., pp. 74 - 5.

(4) Th. & Ref., p. 77, ST. Ref., p. 125.

(5) ST. Ref., p. 109.

(6) قال: يا أستاذ قل لي
أنت للإسلام شمس
قال رومى: كل حَب
لا تكن بزعم ورد
كن على حبك فخا
هل لهذا الشعب حرقك
في ضمير الكون شرقك
يرغبُ العصفور نقره
تقصف الأطفال ظهره
يمنع الحائم حوله

جناح جبريل، ص 527.

ويسأل إقبال هل يمكن عمل شيء لهذا الشعب؟ شمس الرومي تشرق في ضمير الكون. ويجيب الرومي بأن كل حب يرعب العصفور نقره. فعلى الإنسان أن يحمي برعم وردة من أن ينزعه الأطفال، وأن يحمي حبه بفتح ينصبه يمنع من يحوم حوله، وأن يستر البرعم، ويجعل من نفسه قصباً حوله لحمايته⁽¹⁾.

كفاح الشعب هو طريق التحرر من الاستعمار. ويشيد مجدداً ثابت الأركان. يُظن به الجنون حين يتمرد على الطغيان. شعب الله يكون دائماً ظافراً في الأرض. والجنون هو حب الأوطان. وتلك شيمة المؤمن المقدم. وإذا ارتضى بالذل كفر بالله وبكرامة الأوطان. الاستعمار يؤدي إلى الردى في الدنيا. والأحرار يحيون بعد استشهادهم. يرفعون أسهمهم نحو العلا، ويقىمون راياتهم فوق قمم الجبال التي تذوب تحت أقدامهم. ثورة المجد طي الثياب كالنار يقذفها البركان. لا يعيشون أذلاء محرومين في الدنيا. عطرهم مستتر وظاهر بصرف النظر عن ألوان الربا⁽²⁾.

(1) الشعب يبني عزه بكفاحه
ولقد يُظن به الجنون إذا بدا
ما فوق أرض الله شعب ظافر
إلا إذا عقل الجنون وإنما
المؤمن المقدم يمضي قاهرا
وإذا ارتضى للندل أمسى كافرا
من كان يدري فرق ما ينتابه
وبأن الاستعمار أسرع بالردى
وبأن للأحرار بعد فنائهم
وهناك يرفع سهمه نحو العلا
شم الجبال تذوب في خطواتها
كم ثورة للمجد طي ثيابه
لا يترك الدنيا تعيش وشعبه
العطر مستتر ويسري ظاهرا
لا تخدعك في الربى ألوانها
يا أمم الشرق، ص342.

(2) فرح لأن الرأس مال ينال منه جنون طوره
ولأنه كالساحر المفضوح بعد أداء دوره
لم يبق إلا الروح تلك وذلك الشعب العراء
نزلت على سيناء صعقتها فلملمها حراء
جناح جبريل، ص512.

5 - الرأسمالية والاشتراكية

وبالتوازي مع الملكية والجمهورية كنظام سياسي، هناك الرأسمالية والاشتراكية التي يسميها إقبال الشيوعية. فالملكية مرتبطة بالرأسمالية كارتباط الجمهورية بالاشتراكية، حكم الفرد أو القيصرية أو الملكية لأنه يعتمد على الصفوة بتبني الرأسمالية، في حين أن الجمهورية تتبنى الاشتراكية لأنها تعتمد على حق الشعب. ومع ذلك فلكل من النظامين عيوب.

يعم الفرخ لأن الرأسمالية في تطورها وصلت إلى حد الجنون، وفُضحت بعد أداء دورها. ظهرت روح الشعوب بالرغم من أجسادها العارية. ونزلت عليها صعقة سيناء فأنقذها غار حراء⁽¹⁾. في الرأسمالية أضحى صاحب المال سليل الخليل. وبلا جبريل أصبح كالرسول. يلبس الحق بالباطل، ويؤمن بالقلب بعقل كافر. ولا وفاء لدولة الدنيا لأنها هاربة كالغزال⁽²⁾.

ويتعجب إقبال كيف أن جيرانه ندماء للأمير، وهو فوق حصيره حاسر الرأس فقير. ويجيب الرومي بأنه عليه أن يكون خادماً، حراً قلبه دون حدود، وألا يكون مجلسه من السلطان مثل بعض القروء. وأن يكون الإنسان خادماً لقلب كبير، عالم أو شاعر، خير من الطواف مع الندمان حول كعبة الأمير⁽³⁾.

ولا تنفع اقتصاديات الإحسان على التخفيف من التفاوت بين الأغنياء والفقراء في النظام الرأسمالي. ليساعد المحسن غير المحسن وليس الفقير لأن ما يعطى

(1) صاحب المال سليل للخليل
مبطل، في الزيف حقا يضمّر
الجسوم بالثراء سُمنّت
جاويد نامه، ص 196 - 197.

(2) قال جيرانني جميعاً
وأنا فوق حصيري
قال: كن خادماً حراً
لا تكن في مجلس السلطان من بعض القروء
إن تكن عبداً لإنسان له قلب كبير
هو خير من طواف بين ندماء الأمير
جناح جبريل، ص 252 - 256.

للفقير يعطى ضمناً لمن لا يعطونه أي شيء. لذلك يبقى غير المحسن في حالة الشح والكريم يدفع له. هذه هي اقتصاديات الإحسان⁽¹⁾.

أما الشيوعية فإنها تطلب الروح بطن الجائع. والروح متميزة عن الجسد. تتساوى البطون في الكفر. ومن صميم القلب ينبع الإخاء⁽²⁾. ذلك اليهودي كارل ماركس هو الكليم بغير تجل، والمسيح بغير صليب. ليس رسولاً ولكنه معه كتاب. كافر يخترق الستائر. صار كيوم حساب في الشرق والغرب. لا يوجد في الطبيعة فساد أكثر منه. فقد حطم العبيد خيام السادة. لا يدري ماركس طبائع الأمور بالرغم من فضحه سياسة الغرب. فقد أظهر هذا اليهودي المثير للفتن روح مزدك. وقد أصبح كل فتان مجنوناً بسببه⁽³⁾. وينقد إقبال الشيوعية في روسيا ويتهمها بالإلحاد بالطريقة التقليدية. وهو إلحاد مضاد لما أقامه القساوسة من أوثنان سياسية واجتماعية ودينية⁽⁴⁾.

والحقيقة أن الرأسمالية والشيوعية بالرغم من الاختلاف في النظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي إلا أنهما يشتركان في نفس الرؤية للعالم، النظرة المادية الصريحة في الشيوعية والمقنعة بغلاف من الروحية في الرأسمالية. وهو الفرق بين الصدق في القول والنفاق. وإذا كان نقد إقبال للرأسمالية صحيحاً فإن نقده للشيوعية طبقاً للفهم الشعبي لها بأنها إلحاد وكفر ومادية وشيوع هو فهم الأفغاني من قبل في «الرد على الدهريين».

- | | |
|--|--|
| <p>(1) طلبوا الروح بطن حين جاعوا
وعلى الجسم الشيوعي اعتمد
ليس إلا في مساواة البطون
ما احتوى أصلاً له طين دماء</p> <p>أي سر حوى ضمير الزمان
كان يرجو النجاة بالصلبان
ما أقام القسوس من أوثنان</p> <p>كان دين الحق في الدنيا غربياً
وكما شئت افتتح عصراً جديداً
فيه أهل الشرق والغرب الحيارى
أوجدوا الخبز وديننا ضيعوا</p> | <p>إن أهل الغرب أفلاكاً أضاعوا
ما استمد الروح حسناً من جسد
قوله في كفره هذا المبين
في صميم القلب ذياك الإخاء
أرمغان حجاز، ص 512 - 514.</p> <p>إن سير القضاء جد عجيب
ليس يألو الصليب سرا قبيل
أمر الوحي ملحدتي الروس «هدوا
ضرب الكليم، ص 102.</p> <p>من حديث المصطفى نلت النصيبا
امنح القرآن من فكر مزيداً
عن كتاب الله من زاح الستارا
هؤلاء الروس شيئاً أبدعوا
جاويد نام، ص 212.</p> |
|--|--|

وعلى لسان الأفغاني يبين إقبال أن الهدي هو هدي الإسلام، وأنه هو الدين الحق الذي يفتح أفقاً جديدة للشرق والغرب، ويبدد حيرتهما⁽¹⁾. ويوجه نداء إلى الروس يهديهم إلى الإسلام كما فعل الإمام الخميني مع خروشيف أخيراً. ويعني بالروس الشيوعيين الذي أوجدوا الخبز وضيعوا الدين. لقد حطم الإسلام القيصر وكسرى. واعتلى عرشيهما وحكم. وأخذ السلطان مظهر الملك. هدم الإسلام الكسروية والقصروية. وأثار مصباح الضمير. ومنع تشييد أصنام جديدة يطوف حولها الناس. أرادت الدنيا أن تحول الشعب شيخاً منه تستفيد. والشرق قبلة، شعلة توقد تنير العصر الجديد⁽²⁾. القرآن يهلك الظالمين، ويخلص المستعبدين⁽³⁾.

قدم دين الغرب وأصبح ديراً عتيقاً. وتوحد مع الحكم. ليس أمام الغرب إلا ترك «لا» والاتجاه نحو «إلا» أي الانتقال من النفي إلى الإثبات. لا يقوم نظام العالم إلا على أساس الحكم. يُغلق التاريخ. وتُقلب صفحة جديدة. تقتبس النور من أم الكتاب⁽⁴⁾. الغرب نفسه في حاجة إلى الإسلام. المهم أن يكون سريع الفهم متجرداً عن الهوى⁽⁵⁾.

- (1) قيصرا أفنى وكسرى حطما
دوحة السلطان طالت واستوت
نحن في الماضي هدمنا الكسروية
كي تنير اليوم مصباح الضمير
ولتثبت قدميك في المصاف
هذه الدنيا العجوز قد أرادت
ثم ولّ الوجه نحو المشرق
شعلة أخرى بروح توقد
جاويد نامه، ص 213.
- (2) ما هو القرآن؟ هلك الظالمينا
والخلاص كان للمستعبدينا
السابق، ص 215.
- (3) إن دين الغرب قد أمسى رميما
وتلثت الحاكمين اليوم تلاً
إن «لا» ضمن كلام كان نفيا
وإذا شئت نظام العالم
ومن التاريخ تمحو كل باب
السابق، ص 214.
- (4) ولغرب فيه أقدار وشرق
كن سريع الفهم أسرع مثل برق
- (5) السابق، ص 215.

ويقوم الإسلام على مفاهيم العدالة والمساواة والتضامن الاجتماعي. العدالة كنز لا يُقدر بثمن، ولكن يجب الحفاظ عليها ضد سارق الرحمة⁽¹⁾. وهو الصراع القديم بين أهل العدل، المعتزلة، وأهل الرحمة، الأشاعرة. والمساواة مطلب إنساني عام. إن قوة فكرة تعتمد على قوة الشخصية التي تتجسدها. ومحمد وبوذا ويسوع المسيح تجسيدات عظيمة لفكرة المساواة. والإسلام هو القوة الوحيدة في العالم الذي مازال يعمل في اتجاه المساواة⁽²⁾. ويقوم التضامن الاجتماعي الإسلامي على مبدأ ديني. فإذا ما انفك يضيع وجود الأمة، وتلقى مصير اليهود. فما هي وسائل تقوية التضامن الاجتماعي؟ ما هي الودعة الدينية الرئيسية لدي الجماعة؟ إنها المرأة، المرأة المسلمة التي تتعلم تعليماً دينياً رصيناً لأنها صانعة الجماعة. لا يوجد نظام مطلق للتعليم. فالتعليم مثل أشياء أخرى تحدده حاجات الجماعة. التعليم الديني كاف للفتاة المسلمة. إذ يستبعد كل الموضوعات التي تقضي على المرأة وإسلامها من تعليمها. وما زال مربو الأمة يهيمون على وجوههم في الظلام. لم يستطيعوا بعد وضع برنامج دراسي لفتيات الأمة. ربما فقدوا اتزانهم أمام الانبهار بمثل الغرب ليميزوا الفرق بين الاتجاه الإسلامي الذي يبني الوطنية على فكرة مجردة مثل الدين، والتغريب دم الحياة والذي يقيم قصوره للوطنية على شيء مادي مثل الوطن⁽³⁾.

ويسأل إقبال الفلاح عن سر الحياة وهو الذي خلق المحراث الذي يعلوه الغبار منذ آلاف السنين. لقد خدمت ناره في الطين الذي علا النعال. فأين انعكاس الله في حاله؟ أليس من الأجدى القول في الأذان حي على الفلاح وليس حي على الفلاح. الفلاحون هم الذين يطعمون الناس فكيف يكونون وضعهم في الطين؟ ولا يستطيع المعتدون أن يبلغوا منبع الخضر أي عالم الروح⁽⁴⁾.

St, Ref., p. 28. (1)

Ibid., p. 87. (2)

St. Ref., pp. 29 - 31. (3)

ما الذي يكتمه هذا المدار؟
خلف محراث يغطي الغبار
علقت أكوامه في نعلكا
أرني الله الذي في فعلكا

أيها الفلاح ما سر الحياة؟
أنت فيها منذ آلاف السنين
خدمت نارك في الطين الذي
قل لمن أذن في هذا الصباح

6 - العنصرية والاستعمار

والنظم السياسية الملكية والجمهورية، والنظم الاقتصادية، الرأسمالية والشيوعية، انتهت إلى العنصرية والاستعمار. وهما تبعة الرجل الأبيض. قال أحد البريطانيين يوماً إنه يكره اليهود لأنهم يعتقدون أنهم شعب الله المختار. وهو اعتقاد يؤدي إلى العدا لباقي الشعوب. ولم يعرف أن تعبير تبعة الرجل الأبيض تتضمن نفس الاعتقاد اليهودي ولكن في صورة أخرى⁽¹⁾.

وفي رسالة السنة الجديدة، يعبر إقبال عن أهمية التقدم المعرفي والتطورات العلمية. ومع ذلك هناك طغيان الاستعمار تحت غطاء الديمقراطية والوطنية والشيوعية والفاشية. تحت هذه الأقنعة تم النيل من حرية الإنسان وكرامته وكأنا في أعتى صور الظلام. وتحول القادة السياسيون إلى شياطين ومصاصي دماء وتسلب وقهر. وانقلبوا من التمسك بالإنسانية وتحرر الإنسان من صنوف القهر ورفع المستوى الأخلاقي والثقافي للإنسان إلى الرغبة في السيطرة والتملك الإمبراطوري. سفكوا دماء الملايين. وأذلوا ملايين أخرى، وحولهم إلى عبيد لاستنزافهم واستعبادهم لمصالحهم. وبعد استعباد الشعوب الضعيفة وإخضاعها سلبوها من ممتلكاتها ودياناتها وعاداتها وثقافتها وآدابها. ثم بثوا الفرقة بينها إلى درجة سفك الدماء. هذا هو ما حدث بالضبط في الحبشة وفلسطين وأسبانيا والصين حيث يسود البؤس في كل مكان، وذبح الآلاف من البشر بلا رحمة. وقضت إنجازات العلم المدمرة على آلاف من الآثار الحضارية للشعوب. ومن لم يقض على الآخرين بالسيف قضى عليهم بالاستنزاف الاقتصادي. كل يبحث عن جلده. ولا أحد يهتم بأمن الآخرين. ووقف مفكروا العالم متفرجين على تدمير الحضارة البشرية في حين أن كرامة الإنسان في احترامه لكرامة البشرية. ويظل هذا العالم ميدان صراع لحيوانات متوحشة حتى تظهر القوى التربوية في العالم لحث الإنسان على احترام

إنما حيي على الفلاح قال
أنت أرسلت لها كل السلال
وهم مثلك من حماة طين
وجل من ظلمات المعتدين

لم يقل للناس حيي للفلاح
هو يدعوهم إلى مأدبة
كيف ترضي أن يكونوا هكذا
إن نبع الخضر لا يبلغه

جناح جبريل، ص 537.

البشرية. وها هي أسبانيا، العرق الواحد، والجنسية الواحدة، واللغة الواحدة، والدين الواحد، يقتل أبنائها بعضهم بعضاً. ويحطمون ثقافتهم وحضاراتهم بسبب اختلاف أيديولوجياتهم. فالوحدة الوطنية ليست دائمة. إنما الأخوة هي الأبقى. وهي أسمى من العرق والوطن واللون واللغة. طالما أن ما يسمى بالديموقراطية والوطنية والاستعمار لم يتم التخلص منه فإن الإنسانية لن تكون كياناً واحداً. أسرة الإله تدافع عن المبادئ والمثل العليا للحرية والمساواة والأخوة. الرجاء إذن لإنسانية قوتها في الحفاظ على الجنس البشري⁽¹⁾.

الحروب في الشرق والغرب نوعان: حرب لاسترداد حقوق الشعوب وهي حروب التحرر، وحرب للعدوان على الآخرين وهي حروب الطغاة⁽²⁾. قام المسلمون بالفتوحات وهي حروب تحرير أو يتم الفتح صلحاً، ولكن حروب الغرب هي حروب استعمارية كما تم استعمار فارس والهند⁽³⁾. ثم شارك المسلمون في تحرير الهند من الاستعمار البريطاني. ومع بعض عقلاء البراهمة أجبروا الغرب على احترامهم⁽⁴⁾.

وفي تصريح يشرح فيه إقبال موقف الوفود الإسلامية في مؤتمرات المائدة المستديرة، يعبر فيه عن سعادته لمقابلة نهرو خاصة بعد قبول غاندي كل المطالب الإسلامية بشرط تأييد المسلمين له في صراعه السياسي من أجل الحرية. وقد رفضت الرجعية قبول هذا الشرط، وقبلته الاتجاهات الجماعية. ومع ذلك طلب غاندي من المسلمين عدم التعامل مع المنبوذين أو قبول طلباتهم وهو تمثيلهم النسبي في المجالس النيابية وهو ما رفضه إقبال نظراً للمساواة الطبيعية بين البشر.

New year's Message, Broadcast from the Lahore Station of the All - India Radio (1) on the 1st January, 1938, Th. & Ref., pp. 373 - 5.

(2) أصل هذا الملك في شرق وغرب
جاويد نام، ص 292.

(3) بالقتال يفتح البلدان فتحا
فارس والهند مما يشتري
السابق، ص 293.

(4) من أفاد الهند تحطيم القيود
عقلاء ينسبون للبراهيم
من أولي العرفان أصحاب النظر
أيكون الصيد يوماً كالصيد
عندهم قد أخجلت حُمر البراهيم
أي ثمر بي رَاهم لم يحر

ويدافع إقبال عن اتهام نهرو لبعض المسلمين أنهم معادون للوطنية. فإذا كانت الوطنية تقوم على العرق مثل القومية فإن إقبال ضدها. أما إذا كانت دفاعاً عن الاستقلال الوطني والمعاداة للاستعمار فإن إقبال معها. فالوطنية لا تستطيع أن توحد بين الأقوام. وما تحتاجه الهند ذات الأعراق والطوائف المتعددة هو الروح الجماعية⁽¹⁾. ويتصور نهرو أن المسلمين يخافون من الديمقراطية مع أنها هي الحل الأمثل للوطن المتعدد الثقافات. يخشون من قهر الأغلبية وأصحاب السلطة. كما يرفض المسلمون أن تعني الديمقراطية حكم الغرب للبلاد عن طريق الوكلاء المحليين. يحتاج المسلمون إلى طرف ثالث يحمي الأقلية من قهر الأغلبية. ودون ذلك لا يوجد إلا بديلان: إما أن تصبح الأغلبية الهندية عميلاً للاستعمار البريطاني في الشرق أو تقسيم البلاد على أساس طائفي أو عرقي أو تاريخي.

وفي تصريح لشرح موقف المؤتمر من جائزة الجماعة، يبين إقبال أن المؤتمر بالرغم من تمثيله لكل الهند لا يمكن قبول الجائزة أو رفضها، ولكن بتعليقاته على الجائزة يمكن فهم رفض ضمني لها. فالجائزة من رئيس الوزراء البريطاني بناء على طلب من يرفضونها الآن. وينصح إقبال المسلمون بقبولها حتى ولو لم تحقق كل ما يطلبون⁽²⁾.

وطبقاً لنشأة وتطور المثل العليا بين الشعوب وما تثيره من حماس وما تولده من قوة، تُوجه كل طاقات الشعب نحو مركز مشترك. الهند المعاصرة ظاهرة فريدة. سلوكها أقرب إلى علم النفس منه إلى السياسة. يبدو أن المثل الأعلى للحرية السياسية، وهي تجربة جديدة بالنسبة إليها تملك روحها كلها موجهة كل طاقاتها من قنواتها الطبيعية إلى هذه القناة الجديدة للنشاط السياسي. وعندما تستكمل هذه التجربة ستشعر بالخسارة وستتحول إلى شخص آخر جديد بمعنى أنه لن تجد نفسها تحت سلطة الأسلاف الذين كان خيالهم بالنسبة لها مصدر عزاء دائم

(1) الروح الجماعية Communalism.

Statement explaining the attitude of Muslim Delegates to the Round Table conferences issued on the 6th December, 1933, Th. & Ref., pp. 363 - 7.

(2) Statement, explaining the Congress attitude towards the Communal Award, issued on the 19th June, 1934. Th. & Ref., p. 368.

والآخرون مصدر إحباط ذهني. الشعوب أمهات المثل العليا التي تتخصب وتلد شعوباً جديدة عبر الزمان⁽¹⁾.

وعبقرية أورانجزب السياسية كان لها ما يبررها. كان أمل حياته أن يوحد أقاليم بلاده في إمبراطورية واحدة. ولكي يحقق هذه الوحدة الإمبراطورية أخطأ في الخضوع لشجاعته الفائقة. لم تكن له الخبرة السياسية اللازمة. ودون علم بعامل الزمان في التطور السياسي لإمبراطوريته المأمولة بدأ صراعاً لا ينتهي على أمل توحيد الوحدات السياسية العاصية في الهند في حياته. فشل في أسلمة الهند، ليس بالمعنى الديني ولكن بالمعنى الثقافي كما فشل الإسكندر في «تغريق» آسيا. في حين أتى البريطاني مسلحاً بعدديد من التجارب السياسية للشعوب القديمة وبصبر ومثابرة السلحفاة، نجح فيما لم ينجح فيه العبقري أورانجزب. إذ لا تعني الغلبة بالضرورة الوحدة. وقد علم تاريخ الأسر المسلمة الحاكمة من قبل أورانجزب أن قوة الإسلام في الهند لا تعتمد كما علم السلف الكبير أكبر، كثيراً على حسن نية الشعب في هذه الأرض بقدر ما تعتمد على قوة العنصر الحاكم. وبالرغم من نظراته السياسية العميقة، لم يستطع أن يقوم بما قام به الأسلاف. كل منهم اعتمد على ظروفه الخاصة. ومع ذلك يظل أورانجزب هو مؤسس الوطنية الإسلامية في الهند. وربما نشأت الوطنية الهندية بفضل تشجيع بريطانيا ولورداتها ورؤساء وزرائها. يكره البريطانيون أورانجزب لأنه أراد توحيد الهند واستقلالها وليس تبعيتها لبريطانيا⁽²⁾.

ومع ذلك يرد إبليس على مستشاريه أن الأرض والسماة جميعاً بقبضته. فقد أثار دماء الأقيام في أوربا. وقضى على قيمة أئمة السياسة وشيوخ الكنيسة. صيحة واحدة قد تذهلهم وتذهب بعقولهم. جاهل يعتبر العمل بيتاً من زجاج. فليحطم كؤوس وأباريق المدنية. والجيوب التي مزقتها يد الفطرة من المحال ترقيعها بإبرة مزدك القديم أو الجديد، كارل ماركس. كيف يستطيع الاشتراكيون المخبولون منفوشو الشعر إصلاح ما فسد؟ إنما الخطر يأتي من هذه الأمة التي مازالت في رمادها شرارة الأمل. فيها أناس يتوضؤون بدموع الأسحار. إنها أمة الإسلام⁽³⁾.

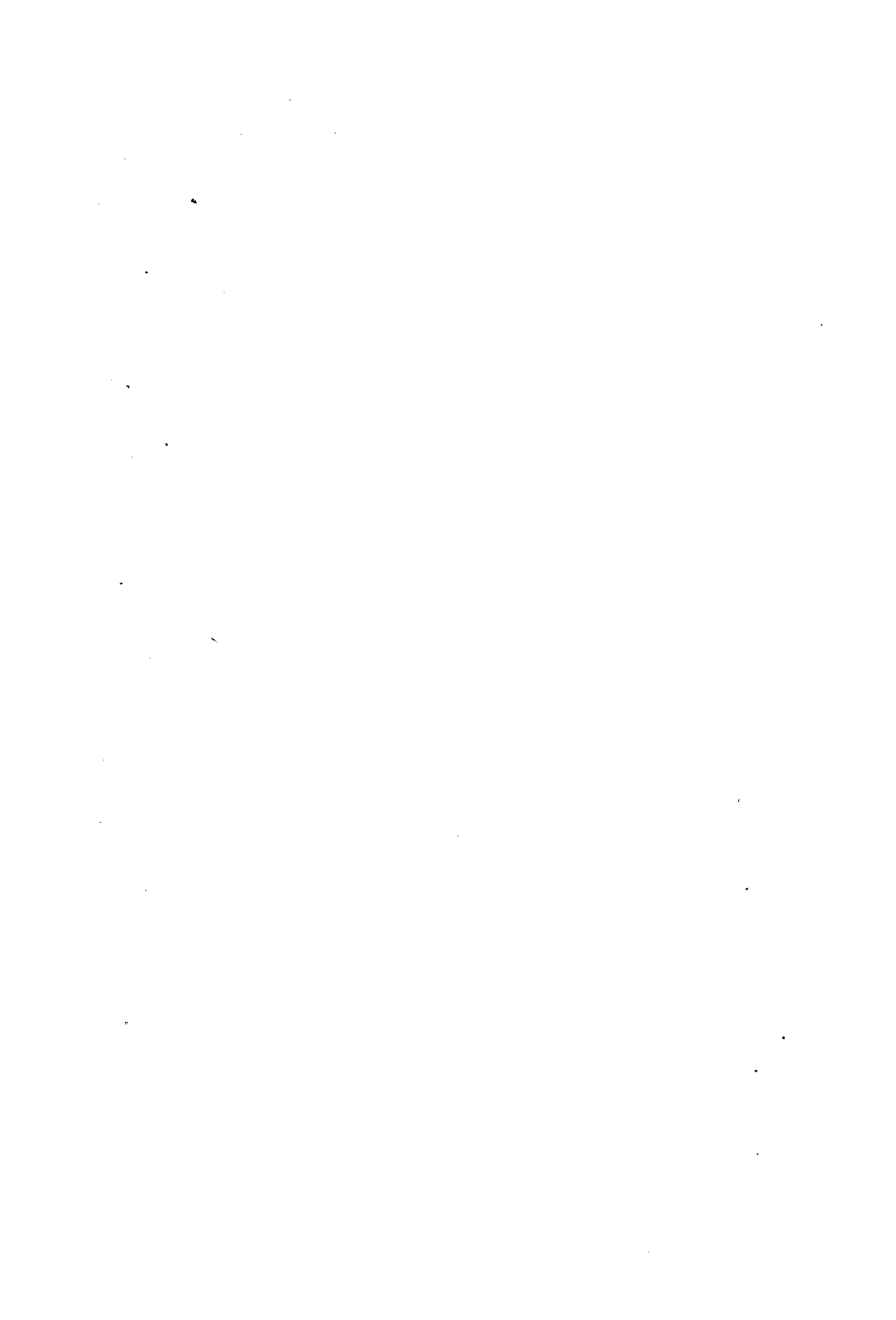
St. Ref., pp. 33 - 4.

(1)

St. Ref., pp. 44 - 8.

(2)

(3) أرماغان حجاز، ص 515 - 516.



الفصل الثاني

حال الأمة

1 - الأمة الإسلامية

هذه الأمة لا تحمل القرآن. ولكنها اعتبرت الرأسمالية دين العبد المؤمن. وأكمام مشايخ الحرم خالية من اليد البيضاء، يد موسى، وغير قادرة على فعل المعجزات. والخوف من مطالب العصر يجعلها لا تطبق شرع النبي مع أنه هو الحافظ لكرامة المرأة، وامتحان المرأ، وخلق الرجال. النظام الإسلامي يقضي على كل أنواع العبودية. يظهر الثورة. ويجعل الأتقياء أمناء على المال والثروة. أعظم ثورة في الفكر والعمل الحاكمة، أن الأرض لك وليست للملوك. إذا اختفى هذا النظام يُحرم المؤمن من اليقين. ويبقى في شرك الإلهيات، منهمكاً في تأويلات الكتاب.

فكيف لا يضيء الليل الحالك هذا الورع التقي، هذا الإنسان الذي حطمت تهليلاته كل قيود الجهات الست؟ هل مات المسيح أم مازال حياً باقياً؟ هل انفصلت الصفات عن الذات؟ هل مات المهدي الذي يحمل صفات المسيح أو انتهى المصلح؟ هل غرقت الأمة في جدل الصفات قديمة أم حادثة؟ وأيها الفرقة الناجية؟ هل بنت الأمة أصناماً جديدة بعد تحطيمها الأصنام القديمة؟ هل بقي بلا عمل حتى ينهزم على بساط الحياة، ويبقى عبداً حتى يوم القيامة، ويترك الدنيا للأخرين؟ هل استبدل بالرسالة التصوف الذي يعمي على عيون منظر الحياة؟

يخشى إبليس من يقظة الأمة. فدينها احتساب الكائنات. ومن ثم يكون دوره إسكار المسلم وجعله ينتمي بالذكر والتفكر في الأسحار وتوجيهه نحو الخانقات⁽¹⁾.

ونصيحة بلوشي عجوز لابنه يقيم الصحراء، الاعتزاز بالنفس في دنيا الكد والكفاح. وهو خير من الدروشة عارية الرأس، وتحويل الزجاج إلى صخر. تقدير الأمم بيد الأفراد. ولو ضاع الدين من يد الأمة الحرة لحشر المسلم. المعركة معركة الروح والجسد معا. فقد هيجت المدنية وحوشها. وتعتمد على ثبات المسلم. وإبليس يعتمد على آلات أوروبا. تكفي فراسة المؤمن لتقدير الأمم. الإخلاص في العمل شيمة الأسلاف. ولا عجب في أن يتحول الملوك إلى فقراء. إن شرط الأصل في حوارهم مع الصورة ألا يختفي عن نظره، ويفقد ذاته. والموت الأبدي للأمم المستعبدة. والظالم ميت في الدنيا. ولا ينجي العقل من الأصنام بعد أن صار العارف والعالم والعامة جميعاً عبيداً لها. القلب هو طريق الخلاص⁽²⁾.

يوجز إقبال في وصف «حال الأمة» نظراً لأنه عبر عنه من قبل في «الشكوى والجواب» و«الأتين والحنين». وهو دائم التذكير به. فالشاعر والفيلسوف كلاهما يبدآن من الواقع. يعبر عنه الشاعر بالخيال والصورة، والفيلسوف بالعقل والمنطق.

2 - النظام السياسي الإسلامي

الإسلام مثل أعلى أخلاقي وسياسي⁽³⁾. ويمكن دراسة ذلك من خلال وجهات نظر ثلاث: المعلم والشارع والطالب النقدي. ويفضل إقبال الطالب النقدي. يريد التعبير عن الوحي بلغة العلم الطبيعي والإنساني. وهي لغة العصر الحديث. ويبدو أن هذا المنهج هو المنهج التاريخي الذي تابعه من الاستشراق التقليدي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. إذ يضع الإسلام في إطار تاريخ الأديان المقارن مع البوذية والمسيحية والزرادشتية. ففي مشكلة الشر مثلاً لا تقول البوذية بوجود الألم في الطبيعة والإنسان لأنه كفرد شر. وفي المسيحية توجه الخطيئة في الطبيعة وأثرها قاتل ومصيري في الإنسان. وفي الزرادشتية يوجد صراع

(1) أرمنغان حجاز، ص 516 - 518.

(2) أرمنغان حجاز، ص 518 - 520.

في الطبيعة. والإنسان خليط من قوى متصارعة. وهو حر في أن يختار قوى الخير التي ستنتصر في النهاية. وفي البوذية ليس الألم عاملاً جوهرياً في بناء العالم. والتشاؤم نتيجة البيئة الاجتماعية المعادية. وهي نظرة قريبة من الإسلام الذي يضع الخير والشر في الإنسان، ويعطيه العقل للتمييز، والحرية للاختيار. الإسلام قوة وتقدم اجتماعي. والإنسان خال من الألم والخبيثة أو الصراع. وهنا يقترب الإسلام من جان جاك روسو، مؤسس الفكر السياسي الحديث. فروسو هو العدو الأول للتسلط في السياسة كما كان لوثر العدو الأول للتسلط في الدين. وقد أكد الإسلام على قيمة الفرد والشخصية الإنسانية، متواصلاً مع البوذية والمسيحية. والفردية مع الجماعية تنتج المساواة بين البشر. فالبشر مجموعة من الأحرار المتساويين. وهناك من عملوا ذلك بالفعل مثل: كرومويل، فولتير، الأمير عبد القادر الجزائري. تلك قوة الإسلام التي جعلته ينتشر كهداية وليس بالسيف في جنوب شرق آسيا وفي أفريقيا. الإسلام دين سلام وإصلاح في الأرض، وليس دين عدوان وفساد. لذلك كان أنسب نظام للأمة هو النظام الديمقراطي. الخليفة ليس معصوماً ويخضع لنفس القانون. وهو مختار من الناس. ويُخلع إذا ما خرق القانون. الديمقراطية مثل الإسلام الأعلى. والفردية الجماعية مثل أعلى آخر⁽¹⁾. ومن ثم يقوم الدستور الإسلامي على مبدئين: الأول، الحاكمية لشرعية الله والسيادة لها. والإمام ليس معيناً من الله بل مباحاً من الناس. والثاني، المساواة المطلقة بين أعضاء الجماعة. فلا توجد أرستقراطية. ولا يعترف بنظام الطبقات أو العشائر أو الأسر⁽²⁾. الفكر السياسي في الإسلام لا يعرف الوراثة كنظام سياسي. والنظام الإسلامي يقوم على مساواة المسلمين جميعاً أمام القانون، وعدم الفصل بين الدين والدولة⁽³⁾.

ويصف إقبال تطور النظام السياسي الإسلامي على عدة مراحل: الأولى الملكية الانتخابية، فالشعب ينتخب الخليفة وبياعه. وصفات الخليفة البدنية والنفسية والذهنية تجعله كامل الأوصاف. وقد يخلف الأب الابن كما حدث في الدولة الأموية. المسجد هو المؤسسة السياسية الأولى. وقد صاغ الماوردي مفهوم

(1) الفردية الجماعية Corporate Individuality.

(2) وهو ما عرف في الهند باسم Cast - System.

العقد بين الحاكم والمحكوم. ويساعد الخليفة الوزير بصرف النظر عن دينه، وحكام الأقاليم الذين يعينون الوزراء وقاضي القضاة ورجال الدولة، وقواد الجيش، وقاضي القضاة ورئيس مجلس القضاء الأعلى. ثم وضع الخوارج أسس الحكم الجمهوري. على ثلاثة مبادئ: بيعة الإمام، حكم المسلمين أنفسهم بأنفسهم في حالة غياب الإمام، عيش الناس بلا إمام. وكان هناك سببان للنشاط السياسي في الإسلام. الأول، عدم اتفاق فكرة البيعة مع الفرس والمغول. والثاني حياة الفتح عند المسلمين الأوائل.

وفي تخطيط لمحاضرة عن «المجتمع الإسلامي» يضع إقبال النقاط الثلاث الآتية⁽¹⁾:

أ - البنية العامة للمجتمع الإسلامي: وتقوم على مفهوم خاص للوطنية التي لا تقوم على اللغة أو البلد أو المصلحة الاقتصادية التي تكوّن عناصر الوطنية. بل هي اشتراك جماعة في تصور واحد للعالم، والمشاركة في نفس الموروث الثقافي. ولا تخاف الأوطان من العقلانية ولكنها بالنسبة للجماعة الإسلامية هي عدو خطير لأنها تقضي على المبادئ التي تقوم عليها الجماعة والتي تجعل وجودها مشروعاً. فالعقلانية تحليل. ومن ثم تهدد بتفكك الوحدة الاجتماعية التي تقوم على الوحدة الدينية. صحيح يمكن للجماعة أن تتعامل مع العقلانية على أرضيتها الخاصة. والعقيدة التي توحد الأمة لها أساس وجودي، وليس أساساً عقلياً. ومن ثم فلا فائدة من تحويل الدين إلى نسق عقلي تأملي لأن موضوع الدين ليس الفكر بل الحياة. غايته بناء نظام اجتماعي لنمو الحياة تدريجياً. الدين في حد ذاته ميتافيزيقيا. ولا يقوم على سمو جماعة على أخرى مثل «ألمانيا فوق الجميع». الجماعة الإسلامية تقوم على فكرة وليس على عرق أو لون.

ب - تجانس الثقافة الإسلامية: وتنبع من وحدة الإيمان الديني ووحدة مراحل الوحي ووحدة الجنس البشري. فالحضارة الإسلامية نتاج تفاعل عديد من الشعوب الآرية والسامية، جامعة بين الرقة والصلابة، نعومة الأم ورجولة الأب. وغزو المسلمين الفرس أعطتهم ما أعطت اليونان بغزوها الزمان.

ج - التواصل في الشخصية الإسلامية: فحياة الشعوب تتطور طبقاً لقانون محدد. في المجتمع البدائي يتم الصراع من أجل البقاء اعتماداً على قوى الإنسان العضلية أكثر من العقلية. ويكون الإنسان الشجاع البطل هو النموذج. فإذا ما قضى الصراع تتحول الحياة العضلية إلى طابع الحياة المشتركة، والتمتع بالحياة والحرية والكرم والصحة الخيرة والتمتع بمباهج الحياة⁽¹⁾. ثم يظهر الطابع الثالث بالسيطرة على الذات كمثل أعلى وتصور جاد للحياة. وهو طابع المجتمع الإسلامي في الهند. يمثل طيمور النوع الأول، وجيهانجير الثاني، وألامجير الثالث.

لم يهتم إقبال فقط بالفكر السياسي بل شارك في الممارسة السياسية لحل قضية الاستعمار في الهند، وحل مشكلة الصراع بين المسلمين والهندوس. ففي الخطاب الرئاسي الذي ألقاه إقبال في «الجلسة السنوية في الجامعة الإسلامية لكل الهند» يعلن فيه أن الإسلام نظرة أخلاقية ينبع منها نظام سياسي ورؤية حضارية⁽²⁾. لا يوجد به كنيسة تعطي لمارتن لوثر الحق في الثورة عليها ضد نظامها الأخلاقي وتسلطها السياسي⁽³⁾. لوثر رمز ضد التسلط الديني، روسو ضد التسلط السياسي. في حين أنه في الإسلام، الله والعالم، الروح والمادة، الروحي والزمني، (وليس الكنيسة والدولة لأن الإسلام ليس به كنيسة) وحدة عضوية واحدة. لا يحتاج الإسلام إلى لوثر لأن مبادئ البروتستانتية فيه مثل الصلة المباشرة بين الإنسان والله، وحرية الاعتقاد. وقد اختارت اللجنة رئيسها. وهو يتفاهل بالإسلام كقوة تحرير للإنسان من حدوده الجغرافية. ويرى أهمية الدين في حياة الفرد والدولة، وأن الإسلام نفسه مصير. فالإسلام ليس مسألة شخصية كالمسيحية بل مسألة فردية وجماعية. أحياناً تختفي الأنانية تحت غطاء الوطنية. وهي رؤية ضيقة محدودة بالطبقة أو القبيلة. وقد أكد نهرو أهمية الروح الجماعية⁽⁴⁾. وهي ضرورة لبناء الهند ككل متجانس. يكون المسلمون في ولاية البنجاب 56٪. وهم في الجيش بنسبة

(1) طابع الحياة المشتركة Convivial Type .

(2) وقد ألقى الخطاب في الالاباد في 29/12/1930 - 161 . Th. & Ref., pp.

(3) من الفلاسفة والمفكرين والمصلحين والسياسيين مارتن لوثر هو الأكثر ذكراً في الخطاب ثم نهرو ثم السلطان أكبر ثم رينان وجناح. لوثر (5)، أكبر، نهرو (3)، رينان (2)، فسك (1). وفي تقرير سيمون عن وضع المسلمين في الهند (6)، وشاستري (2)، وبعض الساسة الإنجليز.

(4) الروح الجماعية Communalism .

54٪. وقد طالب المسلمون بدولة إسلامية مستقلة في الهند في شمال غرب الهند. وليس في ذلك أي خشية للهنود من وجود دول دينية فيها من دولة وطنية أو قومية مستقلة. والإسلام يتجاوز الأوطان والقوميات. والبريطانيون وراء التقسيم لإضعاف الهند طبقاً لقاعدة «فرّق تسد» باسم الفيدرالية. والخوف من العلاقة الحميمة بين الهند الهندية والاستعمار البريطاني على حساب المسلمين وإعطاء الهندوس ولايات أكثر من المسلمين، وخلق ولاية نزاع بين الاثنین كما حدث في كشمير، وكذلك إثارة مشكلة الدفاع عن الهند، مهمة من؟ يُخشى من التحام مسلمي الهند مع المسلمين خارجها، وبالتالي تقوية المسلمين على حساب الهندوس، والاستقلال بالبلاد لحساب المسلمين. إن مشكلة الهند ما بين الوطنيات وليس الوطني⁽¹⁾. والإسلام قادر على أن يحفظ للهند تعدديته. فطعام غير المسلمين حل للمسلمين. والزواج في الإسلام مباح بين المسلمين وغير المسلمين. ووجود ما يقرب من سبعين مليوناً من المسلمين (وهم الآن أزيد من مائة مليون) في الهند يعتبر إضافة لها، وليس خصماً منها. وإن بعث فرد مثل بعث أمة.

والإمامة اليوم تحولت إلى سلطة، والقيادة إلى تسلط، والريادة إلى قهر، والمثل الأعلى إلى مصلحة شخصية. أئمة العصر يبعثون على السأم. موتى يدفعون إلى الموت. متخلفون يجعلونك تبحث عن الكمال بعيداً عنهم. سيوف للمنايا تشحذ على مسن الفقر. مفتنون بأنفسهم حولوا شعوبهم إلى سبايا⁽²⁾.

ويدعو إقبال إلى التوقف عن انتظار المهدي، تجسيد القوة، بل إلى إيجاده⁽³⁾.

(1) ما بين الوطنيات Inter - national.

(2) أنسألني الإمامة ما مداها؟
 حباك الله مثلي بالخفايا
 إمام العصر حقاً من تراه
 فتسأم ما تشاهد في البرايا
 بمرآة الممات يريك وجه
 الحبيب فتحتوي عيش الدنيا
 ويشعرك التخلف عن كمال
 فينفح فيك مشبوب السجاي
 يمر عليك من فقر مسنا
 فيطبع منك سيفاً للمنايا
 فتون الملة البيضا إمام
 كأن المسلمين به سبايا

ضرب الكلم، ص33.

3 - النظام الاقتصادي الإسلامي

يتناول إقبال بعض المسائل الاقتصادية خاصة الميزانية نظراً لأنه كان من قادة المسلمين ورئيساً للجنة «كشمير لكل الهند». وقد تناول هذه المسائل الاقتصادية في خطابات أمام المجلس التشريعي للبنجاب. ويبدو إقبال أشبه بوزير للمالية وليس الشاعر أو الفيلسوف. ويذكر أرقاماً وتوصيات⁽¹⁾.

وفي خطبة أخرى عن اقتراح طلب تخفيض منحة الحكومة للتعليم، يدافع إقبال عن أهمية التعليم وكيف أنه يمس كل الهند، هنودا ومسلمين وسيخاً، رأسماليين وعمالاً. وطلب تخفيض ميزانية التعليم هو ما تريده بريطانيا كحكومة أجنبية لا يهتمها تعليم المواطنين حتى لا يثوروا ضدها. فالتعليم خطوة نحو الاستقلال. ولا فرق بين الحكومة الأجنبية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية كسلطة للقهر. كما يدافع إقبال عن التعليم الإجباري. فالتعليم كالماء والهواء بلغتنا، حق للمواطنين جميعاً، وليس ميزة للبعض على حساب البعض الآخر⁽²⁾.

كما تناول إقبال مسائل الحكم والإدارة والوظائف العامة. ففي خطاب له يقترح تأجيل النظر في الاضطرابات المحلية بشأن المساواة في التعيين في الوظائف الحكومية. فالبعض له النصيب الأوفى منها، بينما يُحرم البعض الآخر تماماً. والإدارة تذكر اسم الله باللسان، وعينها على ممتلكات الناس. ويجعل البعض الصحافة مسؤولة عن ذلك. والبعض الآخر يجعل التصويت في الانتخابات هو المسؤول. وهناك دعوات كثيرة من أجل وحدة الجماعة الإقليمية ونزع روح الحقد بين الطوائف⁽³⁾.

وفي خطاب آخر خاص بشغل الوظائف عن طريق المنافسة الحرة، يرى إقبال أنها مثالية بريئة غير واقعية. فالمنافسة الحرة يصعب تطبيقها في الهند لتأصل

(1) Budget Speech, in the Panjab Legislative Council, 1927 - 8 (5th March 1927) Th. Ref., pp. 310 - 2.

(2) Speech on the cut motion on Government's demand for grant under education delivered on the 10 th March, 1927, Ibid., pp. 313 - 5.

(3) Speech, on the adjournment motion regarding communal riots delivered on the 18 th July, 1927 Th. & Ref., pp. 316 - 8.

الفوارق العرقية والطائفية. والدليل على ذلك ما يحدث في امتحانات الجامعة ومسابقات الوظائف التي تتعدد بالفرق الطائفية والعرقية للمتقدمين والممتحنين. والوطنية أيضاً مثالية نظراً لعدم تأصيلها في الهند في مواجهة الطائفة والعرق. لا يكفي إذن مبدأ المنافسة أو المسابقة إن لم يُقرن بالاختيار أو التعيين لحفظ نسب الطوائف والأعراق في الوظائف العامة بما في ذلك طائفة المنبوذين⁽¹⁾. الوطنية والإنسانية دعوتان مثاليتان في ظروف المجتمع الهندي الحالي⁽²⁾.

ويتناول إقبال موضوع الضرائب على الأراضي الزراعية ويتساءل عن حق الدولة في ملكية الأرض أم أنها ملكية الأفراد؟⁽³⁾. والحقيقة أن الهند لم تعرف ملكية الدولة للأرض نظراً لاتساع الرقعة، ووجود حكومات الولايات، وملايين الفلاحين المعدمين. وفرض نظام ضريبي على دخول الأراضي الزراعية قد يكون مجحفاً بالنسبة لصغار الملاك، بالإضافة إلى تهرب كبار الملاك. يقوم أي نظام ضريبي على أساس العدل طبقاً للدخل الفردي، ونظام الضريبة التصاعدي. ويمكن للدولة أن تلجأ إلى نظم أخرى لزيادة دخلها غير فرض الضرائب مثل تخفيض المصروفات على الإدارة، تخفيض الضرائب على محدودي الدخل وزيادتها على مرتفعي الدخل، تقليل حجم المصاريف على خطط التنمية التي لم تحقق أي عائد. المهم ألا يتحمل المستهلك العبأ الأكبر. وقد قامت الثورة في روسيا بسبب اضطهاد الفلاحين من أصحاب الأراضي. يكفي الفلاح دخله كي يقيم أوده هو وعائلته.

وفي خطاب أمام المجلس التشريعي للبنجاب عن الميزانية، ينقد إقبال بيان وزير المالية المفعم بالتفاؤل الكاذب كما هو الحال في الخطابات الرسمية. والحقيقة أنه لأول مرة لم تساهم حكومة الهند في زيادة الميزانية إلا زيادة ضئيلة

(1) المنبوذين The Untouchable.

(2) Speech, on resolution regarding filling of posts by open competitive examination delivered on 19 th July, 1927, Ibid., pp. 319 - 23.

(3) Speech, on the resolution regarding application of the principles of assessment of income - tax to the assessment of land revenue delivered on the 23 rd February, 1928, Th. & Ref., pp. 326 - 32.

عن طريق رفع الدمغات والطوابع. كما حدثت زيادة في الري وفي عدد الفلاحين المسجونين. وترجع زيادة الري إلى زيادة الأمطار. أما زيادة الفلاحين المسجونين لأن مدة عقوبة سرقة أقل المواشي سنتين. كما صرف القليل على التعليم وعلى الخدمات العامة مثل بناء الطرق والمباني العامة. وأصبح المجتمع الهندي قسمان: دائن ومدين. وينصح إقبال بجعل الضرائب لا مركزية حتى تستفيد بها الأقاليم. كما ينصح بتخفيض الرواتب العالية، وشراء المعدات والآلات من أرخص الأسواق⁽¹⁾. وفي خطاب آخر يعطي إقبال تفصيلات أكثر بالأرقام في مناقشة بيان وزير المالية. ويبين العجز في الميزانية ومشكلة البطالة ونقص الصادرات. ويقترح بدائل ثلاثة: إما الإبقاء على النظام الحالي وما يتضمنه من عجز وجوع الملايين والديون أو البطالة أو التخلص من النظام الحالي كلية حيث المصروفات أكثر من الإيرادات. ويمكن الاعتماد على صناعة النسيج والأحذية لزيادة الدخل. وهذا يحتم زيادة الدعم للتعليم⁽²⁾.

ويجمع إقبال بين الموضوعات الاقتصادية القديمة والمشاكل المالية الحالية. فلا يعطي الخراج إلا لأولي الأمر⁽³⁾. وهو تصور قديم للاقتصاد يعادل الضرائب حالياً والمصادر المالية للدولة. ومع ذلك لا يعتبر إقبال صاحب نظرية في السياسة أو في الاقتصاد. هو شاعر أولاً وفيلسوف ثانياً.

4 - الوطنية والقومية والعالمية

ويتعرض إقبال لأسس الأمة: الوطنية والقومية والعالمية. وهي بلغة عصرنا: الوطن والعروبة والإسلام. وهي الدوائر الثلاث التي يوجد فيها المسلم المعاصر والتي تشترك في مركز واحد ثم تتسع الدوائر من الصغرى وهو الوطن إلى المتوسطة وهي القومية إلى الكبرى وهي العالمية.

(1) Budget Speech, in the Punjab Legislative Council, 1929 - 30 (4 th March, 1929) Th. & Ref., pp. 333 - 6.

(2) Budget Speech, in the Punjab Legislative Council, 1930 - 1 (7 th March, 1930) Ibid., pp. 337 - 41.

(3) وأقول لك يا عالي المقام
لأولي الأمر ومنكم شأنهم
لسوي اثنين الخراج كالحرام
في الكتاب قوله برهانهم
جاويد نامه، ص292.

أ - الوطنية: هي من وضع الغرب ومكره ولورداته أي مفكره لربط الروح بالتراب، وتفتتت الأمة إلى مصر والشام والعراق واليمن، وفارس وتركيا والحبشة. الدين هو بعث القلب الطاهر من الأرض. هو التوحيد بلا حدود. صحيح أن الإنسان من ماء وطين أي الوطن ولكنه أيضاً روح أي الدين. والإنسان يثور على ظلام الأرض ولا يرضى إلا بالصقور⁽¹⁾.

نشأت الوطنية في الغرب. وتحول الغربيون من الدين إلى السياسة، ومن الأخوة الإنسانية إلى القومية. وتركوا دين عيسى. وعجز الأساقفة عن الدفاع عنه. ووضع الدهري مبادئه بدلاً من دين عيسى. أخذ الغرب الشيطان بدلاً من الله وزعيمهم في ذلك ضد هذا الفلورنسي صاحب «الأمير» ميكيافيللي الذي عبد الوثن، القوة والإمارة والدولة. جعل الغاية تبرر الوسيلة. واستعمله الحكام للتسلط على رقاب الناس. أضاع الحق والعدل والفضيلة إلى الباطل والظلم والإمارة. حول الملك إلى إله، والدين إلى صنم، والقيبح إلى حسن، والضرر إلى نفع، والحيلة إلى غاية⁽²⁾. نشأت الوطنية في الغرب بديلاً عن الدين. وانتهى دين عيسى.

- (1) مكر لورد الغرب كم أعيا الفطن
ما هو الدين؟ القيام من ثرى
«الله هو» من قالها قولاً يجود
يا حكيم الروح تسمو عن جهات
من ظلام الأرض حر قد يثور
قبضة الطين تسميها الوطن
بين أوطان وقوم نسبة
جاويد نامه، ص 195 - 196.

من يخطب على المنبر قائلاً بأن الملة قائمة على الوطن
كم هو جاهل بمقام محمد العربي
عليك أن تصل بنفسك إلى النبي فإن الدين كله
فإن لم تصل إليه فكل هذا يعد من أعمال أبي لهب
أرمغان حجاز، ص 544 - 545.

- (2) منصب الدين حواه الساسة
دين عيسى بطلت قصته
عجز الأسقف عن تقديره
قوم عيسى حقروا بيعته
مؤق الدهري ثوب المذهب
ذا الفلورنسي عبد الوثن
فتمت في الغرب هذي الآفة
وخبت في دوره شعلته
حادث الألام عن تدبيره
أبطلوا في سوقهم سكته
ومن الشيطان قد وافي نبي
كحله أودى بنور الأعين

واستسلم القساوسة للسلطة. ومزق الدهري كيان الأمة.

ويشكو الأفغاني من الأحوال الحاضرة. فقد انتصرت الأمة سابقا. وقامت بفتوحاتها. واليوم عمتها أفكار الوطنية والقومية والشيوعية. وضاع منها روح الدين⁽¹⁾.

ظهر الإسلام كاحتجاج ضد عبادة الأصنام. والوطنية ما هي إلا شكل رقيق من أشكال الوثنية، تأليه موضوع مادي كما يتضح ذلك من الأغاني الوطنية للشعوب. ولا يسمح الإسلام بأي صورة من الصور. وما قضي الإسلام عليه لا يمكن أن يعاد كأساس لجماعة سياسية. ولقد ازدهر الرسول، ومات خارج موطنه. وقد يكون لذلك دلالة صوفية⁽²⁾.

الوطن ليس أساساً للأمة⁽³⁾. فالأوطان والأقوام تقطع الأرحام والأخوة والبشر⁽⁴⁾. الوطن في ذهن إقبال هو الدولة القومية في الغرب، وليس الوطن بمعنى

= خط للأملاك سفرا منكرا
مزق الحق بحد القلم
آزر العصر، بدا تزويره
جعل الملك إلهه دينه
جعل النفع عيار الذم
صارت الحيلة فنا محكما
خطة للوهن فينا حيكها
أرمد الناس بهذي الحكمة
الأسرار والرموز، ص 106 - 107.

(1) أمة قد دوخت كل الأمم
وتموت الروح من ضعف اليقين
جاويد نامه، ص 195.

(2) St. Ref., pp. 26 - 7.

(3) أتري الأوطان أصل الأمم
إنما الأنساب فخر السفهاء
الأسرار والرموز، ص 88.

(4) قطعوا الأرحام بين الإخوة
قدسوا الأوطان إعجابا بها
أنكر الإنسان وجه الإخوة
ذهب الإنسان روحا وانقضى
السابق، ص 105 - 106، المقدمة، ص 50.

ويذور الحرب فينا بذرا
فطرة تؤثر عيش الظلم
خطة بدعا جلا تفكيره
كل قبح ناله تحسينه
حينما خر لهذا الصنم
ونما الباطل مما علما
في طريق الدهر ألقى حسكا
إذ دعا التزوير بالمصلحة

فيها فكر الدين والأوطان عم
بأسها من قوة الدين المبين

تعبد الأرض بها كالصنم؟
حكمتها في الجسم، والجسم هباء

صيروا الأوطان أسس الأمة
قسموا الإنسان أسرابا بها
وانتهت قصة الإنسانية
بقيت أقوامه وهو مضى

الولاء للأوطان والحنين إليها كما ذرف الرسول الدمع وهو يغادر مكة أثناء الهجرة منها. هو الوطن الذي نشأت بسببه حركات الاستقلال الوطني. ولا يوجد تعارض بين الوطن وهو محل الولادة، والقومية أي اللغة التي تتحدث الأقوام بها، والأخوة الإسلامية التي تجمع الشعوب والقبائل. لذلك وحدثت الحركة السلفية المعاصرة عند الأفغاني غلال الفاسي وحسن البنا بين الوطنية والعروبة والإسلام في ثلاث دوائر متداخلة، صغرى ووسطى وكبرى، وكما عبر عن ذلك القادة الوطنيون المحدثون مثل عبد الناصر في «فلسفة الثورة».

الأمة الإسلامية مؤسسة على التوحيد فلا تحدها الأمكنة. التوحيد لا موطن له. وإشعاعه لا حدود له. الأمة لا ترتبط بالهند أو الروم. الإسلام هو أرض المسلمين. والوطن مكان للسكن وليس للاعتقاد. الإنسان في الزمان وليس في المكان. الأرض في الدنيا والمسلم في الدين. القلب لا تحده أرض. ويهجر المسلم الدار، من أرض إلى أرض كما هاجر الرسول والصحابه والأئمة⁽¹⁾. الأرض للمسلم مسجداً، كل الأرض وليس رقعة منها تحاط بسياج. تلك قوة الإسلام والأخوة الإسلامية التي يهابها الأعداء. إذا اعتدوا على جزء من الأمة هبت الأمة كلها شرقاً وغرباً، متجاوزة حدود الدولة الوطنية⁽²⁾. فلماذا التمسك بالقطرة واليم محيط؟ ولماذا الاقتصار على الزهرة والروض فسيح؟ ولماذا الرضا بشعاع

(1) قلبنا الخفاق يأبي موطننا
ليس من هند وروم قلبنا
من على الأفلاك فيه رفعة
كان في الدنيا وفيها ما سكن
لست أدري ما حماء والوطن
قد رأى في أرضنا دنيا لنا
الأسرار والرموز، ص 102 - 103.

(2) لا تحدد الأرض قلب المسلم
ليس للمسلم في الأرض عطن
حضل القلب ففي وسعته
أمة ملء الذنئ قد أسسا
صارت الأرض لدينا مسجدا
ذلك المحمود في الذكر الحكيم
تفزغ الأعداء من هيبته
السابق، ص 104.

الشمس والشمس في القلب؟ والحدث ليس له مكان في البحر بل يسبح في كل البحار. التوحيد تحرر من كل الجهات. وينتشر في كل الجهات. وشذى الورد لا يحدده حدود. فلماذا ترك التوحيد، والوقوف في خدعة العصر الجديد؟⁽¹⁾.

والأمة المحمدية ليست لها حدود زمانية أو مكانية. الزمن يتغير من موسم إلى موسم. أما الزمان فباق في دوراته الفصلية. الشرق والغرب مستمران إلى الأبد. الدهر ثابت، والأمم تترى عليه. يغادر الصديق وتبقى الصداقة. وينقضي الأفراد وتبقى الأمة. ينشأ الفرد من الطين القليل وتولد الأمة في قلوب العظماء. عمر الفرد عقود من الزمان. وعمر الأمة دهور من السنين. حياة الفرد روح في البدن. وحياة الأمة في تاريخها. موت الفرد بنهاية حياته، وموت الأمة باختفاء مقصدها وغايتها⁽²⁾. يموت الأفراد كما تموت الأمم. وأمة الإسلام لا تموت لأنها باقية منذ

(1) فلماذا أرض أهليه هجر؟
حجب القصاص معنى القصة
هجرة شرع حياة المسلم
إنها التسيار نحو الوُسعة
أهجر الزهرة أجل الروضة
شرف الشمس مسير مطلق
لا تكن نهرا من السحب يمد
اقصدن تسخير كل العالم
لا يقيدك مقام في الورد
كل من حُرر من ذل الجهات
ترك الورد شذاه فسرى
يا أسيرا قد ثوى في روضة
سيرون نفسك حرا كالصبا
احذرن من خدعة العصر الجديد
الأسرار والرموز، ص 104 - 105.

أتراه خشية الأعداء فر؟
غلطوا في فهم معنى الهجرة
هجرة سر ثبات المسلم
ولأجل اليم ترك القطرة
إن هذا الخسر ربح الكثرة
فيه من فوق البرايا شفق
وكن البحر، عابا لا يحد
لترى سلطان أهل العالم
وكن الحوت يسبح الأبحرا
فلك يُزهر من كل الجهات
في فسيح المرح عطرا نشرا
عندليبها هائما في وردة
ثم عائق كل أزهار الربى
التباس النهج حاذر يا رشيد

(2) ثابت في الدهر تقدير الأمم
يسفر الجمل وتبقى الصحبة
ينشأ الفرد من الطين القليل
نفس الأمة يحصى بالمئين
وحياة الفرد روح في بدن
موت فرد نصب ورد للحياة

من مسير الغد سيار القدم
يرحل الفرد وتبقى الأمة
تولد الأمة من قلب جليل
ويعيش الفرد عشرات سنين
وحياة الشعب في حفظ السنن
موت قوم ترك قصد للحياه

عهد الذر الأول. لديها الذكر. وهو محفوظ لديها لآخر الزمان. إذا انطفأ المصباح، فالنور باق⁽¹⁾.

تذهب الأمم وتأتي غيرها. والأمة الإسلامية تنهض وتسقط، تصحو وتنام، تستيقظ وتغفل، ولكنها باقية في التاريخ. أمم اليونان والرومان والفرس والمصريين أي حضاراتهم قامت واندثرت. وقامت حضارة الإسلام وبعثت، طالما أن التوحيد في قلبها، والأذان في سمعها، وعشق الكون في وجدانها، ولا إله في كيانها⁽²⁾.

الأمة الإسلامية أمة واحدة تربطها رابطة الأخوة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وليست القومية الهندية أو الفارسية أو حتى العربية بالمعنى القومي الأوربي وليس بالمعنى الإسلامي حيث العروبة هي اللسان، المسلم ذات فردة. الأمة ذات مشتركة. وهي ليست مجرد إحصاء كمي لعدد المسلمين بل الروح الذي يسري فيها⁽³⁾. وكل الشعوب تتهم المسلمين بالتعصب. والحقيقة أن ما يُسمى بالتعصب له ما يبرره. وباستعارة صورة من علم الحياة يشبه التعصب مبدأ التفرد الذي يحافظ على

(1) كممات الفرد تفنى الأمم
أمة الإسلام تأسى أجلا
لا تخاف الموت هذي الأمة
دام ذكر ما أقام الذاکر
ذلك المصباح أنى يُطفأ
أمة الحق إلى الحق تنيب

الأسرار والرموز، ص 108 - 109، المقدمة، ص 50.

(2) ذهب الروم وفض الموكب
كأس ساسان من الغم دم
وعنت مصر لدهر عرم
وأذان الحق فينا خلدا
إن للكون من العشق حياة
أحيت العشق قلوب تسعر

السابق، ص 110.

(3) إلى عصبات العرب ما أنا منتهم
فقد علمتني الذات تحليق نافر
بعينك أني كافر غير مسلم
فدينك تعداد لأنفاس محجم
تبدلت فالتبديل في الشرع حكمة
ضرب الكلم، المدخل، ص ع / 52.

ولا أنا هندي ولا أنا أعجمي
يمر على الدارين غير محوم
وأنت بعيني كافر غير مسلم
وديني إحراق لأنفاس مقدم
فليس يطيق الطيب شرعة ضيغم

المجموعة. فكل أشكال الحياة أنواع من التعصب حفاظاً على الحياة الجماعية. لا يتحرك الإنجليزي إذا ما نقد دينه. ويتعصب إذا ما فقد حضارته أو وطنه أو سلوك شعبه في أي نشاط. والسبب في ذلك أن قوميته لا تستند إلى الدين بل إلى الجغرافيا. لذلك يثور ويتعصب إذا نقد وطنه. أما بالنسبة للمسلمين فالقومية فكرة دون أي أساس مادي. هو تصور للعالم. فإذا ما أثارهم أحد تعصبوا لتصورهم للعالم أي لثقافتهم كما يثور الإنجليزي إذا تم النيل من حضارته. التعصب وطنية للدين. والوطنية تعصب للوطن⁽¹⁾.

الدين للوطن إرضاء للواحد الديان وليس للأجنبي، قلباً وجيوباً وعقولاً⁽²⁾. فكرة الوطنية ولا شك عامل صحي لنمو الجماعات ولكن قد يُغالى فيها. والمغلاة فيها تقيل العناصر الإنسانية العامة في الفن والأدب⁽³⁾.

وإذا كان إقبال يرفض الوطنية كأيدولوجية سياسية محدودة الأفق مثل القومية والرأسمالية والشيوعية إلا أنه يرفض خيانة الوطن. ويخصص سياحته في فلك زحل في «جاويد نامه» إلى الأرواح الخبيثة التي غدرت بالوطن، ولم تقبلها حتى جهنم⁽⁴⁾. للأحرار إمامهم. وكل حر يبوؤه المقام. ثم يظهر الخائن في البنغال والدكن، عار على الدين والوطن. يزهق أرواح الأحرار ويشي بهم. يبعث اليأس من نيل المراد. ويشيع في البلاد والفساد⁽⁵⁾. خلع الخائن جسمه ولبس جسماً آخر. تقرب إلى الكنائس وألف الأديرة. حول دينه إلى متجر، وليس رداء عتتر وحيدر (علي بن أبي طالب). كل ذلك لنيل أغراض الدنيا. مع أن القدماء ما سجدوا لمغانم الدنيا. يبدو حزناً على الدين وهو في الباطن من الملحدين. ولا يضيره قتل

St. Ref., pp. 23 - 5. (1)

(2) فالدين إرضاء الدخيل وليس
فقلوبهم وجيوبهم وعقولهم
لأجنبي تقرب وتفان
يا أمم الشرق، ص343.

St. Ref., p. 95. (3)

(4) جاويد نامه، ص273 - 278.

(5) إن شيطانين فيه يسكنان
ذاك في البنغال هذا في الدكن
أبغضا في اليأس من نيل المراد
جاويد نامه، ص273 - 274.

أزهق الروح لقوم قاتلان
وهما للدين عار والوطن
الفساد قد أشاعا في البلاد

المسلم. ويبث سم الثعبان في الحي كما يبث الفرق والشقاق في القوم. وينشر الفساد في البلاد⁽¹⁾.

وفي خطاب آخر عبر إقبال عن تخوفه من التيار المادي الملحد الذي يسود العالم. أما الوطنية فهي فضيلة طبيعية لها رصيدها في الحياة الأخلاقية للإنسان⁽²⁾. وقد قام غاندي مثل نهرو وإقبال من أجل مساواة جميع الهنود أمام القانون، وإقامة فيدرالية في الهند تحفظ لجميع الطوائف حقوقها. نشأ غاندي في منطقة الجوجرات حول بومباي حيث تقطنها أغلبية مسلمة. وقد اتفق الجميع على مبادئ ثلاثة: حق الشباب في الانتخاب، عدم وجود تمثيل خاص للطوائف خاصة المنبوذين، المطالبة بالاستقلال التام⁽³⁾.

ب - القومية: ويسأل إقبال عن الصراع الحالي بين الدين والقومية وإلى أين ينتهي؟ ويجيب الرومي أن الأشياء الزائفة لا قيمة لها أثناء الليل. ودليل الذهب الصحيح أنه يشرق بالنهار⁽⁴⁾.

(1) إن قيد الجسم عنه قد خلع
تارة كان ألوفاً للكنائس
دينه ما كان غير المتعجر
إنه عن كل هذا لا يحيد
وقديماً لسوى هذا سجد
وعلى الدين لنا يبدو حزينا
جعفر الأمة هذي من قتل
باسم، ما شاق يوماً خله
الشقاق بثه في قومه
الفساد في بلاد حين يظهر
جعفر من روحه ربي أغثنا
السابق، ص 276 - 277.

(2) ألفي الخطاب في لاهور في 1932/3/21، Th. & Ref., pp. 195 - 219.

(3) Ibid., pp. 195 - 206.

(4) قال: إن الدين والقومية اليوم صراع
أتت هل تدري بماذا ينتهي هذا النزاع؟
قال: ما في الليل للزائف والمحض عيار
ودليل الذهب الخالص إشراق النهار
جناح جبريل، ص 524 - 525.

ويتأرجح إقبال بين طريق أوروبا وطريق الرومي، ولكنه يختار في النهاية طريق الرومي. فالاعتصام بحبل الحسن في الليل أفضل من الضياع في وضح النهار. والبصيرة أفضل من البصر. لقد احتار العصر كله في هذه الثنائية الجديدة، الأنا أم الآخر؟ الإسلام أم أوروبا؟ ولكن الأنا أفضل. هو طريق حرية الأحرار. ولو كان مظلماً فإن شرر الرومي ينيره⁽¹⁾.

ويضرب المثل بالأمة الألمانية للقومية في اقتصاد الطبيعة. لكل أمة وظيفة حددت لها. ووظيفة الأمة الألمانية تنظيم المعرفة الإنسانية. وقد بدأ الألمان مشروعاً تجارياً آخر يعطيهم إمبراطورية، ولكنهم سيعانون من فقدان المثل الأعلى الأول إلى روح التجارة الثاني⁽²⁾. يوجد المثل الأعلى الروحي للأمة الألمانية في «فاوست» لجوته وليس في الكتب التي ألفها صياد الجليل. والألمان على وعي بذلك⁽³⁾. فالقومية الألمانية تنزع نحو الإنسانية.

ج - العالمية: ويشكو إقبال إلى عصبية الأمم الظلم الواقع على الشعوب، وإجبار الفلاح على بيع أرضه بسعر مذل. ومع ذلك، يتشكك في إمكانية القيام بمسؤولياتها⁽⁴⁾. أنشأها الرئيس ولسون، وأعجب بها برجسون أشد الإعجاب كمنظمة دولية تعبر عن السلام، ولكن مصيرها إلى الزوال. موتها محتوم. وتستطيع أن تعيش «عجوز أوروبا» على رقي إبليس أياماً آخر⁽⁵⁾. ويسمى إقبال أحياناً «جمعية الأمم». لقد حاول بؤساء الأرض وضع سنن لتفادي الحروب، إلا أن

(1) أنا لقافلة الرومي متبع
هب عصرنا مثنوياً آخر فلقد
طريق حرية الأحرار مظلمة
السابق، ص 534.

(2) St. Ref., p. 32.

(3) Ibid., p. 66.

(4) إن مررت بجنيف يا صبا
بيع فلاح وتلك الأرض بيعت
جاويد نامه، ص 291.

(5) مسكينة منذ زمان تحتضر
وموتها محتم لكنما
عجوز أوروبا يجوز عيشها
ضرب الكلم، ص 111.

بلغي العصبية عني ما نقل
وأناس، ولهم سعر مذل
لافاه مقولي بسبب الخبر
يدعو القسوس أن يزول ذا الخطر
على رقي إبليس أياماً آخر

نباشي القبور أسسوا شركة لتقسيمها⁽¹⁾. مازال النظام الدولي في حاجة إلى منظمة أو هيئة تقوم على العدل، وعدم المحاباة للقوي على الضعيف، وللغني على الفقير. تخدم مصالح البشرية جميعها، وليس مصالح الغرب وحده، وسيطرة الدول الكبرى عليه. وهو ما يُشاهد هذه الأيام بالمطالبة بإصلاح منظمة الأمم المتحدة.

5 - القاديانية والبابية

تأخذ القاديانية وتسمى أيضاً الأحمدية حيزاً كبيراً من فكر إقبال الديني والسياسي مدافعاً عنها ضد اضطهاد الأغلبية الإسلامية لها في الهند وخارجها بالرغم من صوفيتها. وهو الناقد للتصوف، وتأييد الاستعمار البريطاني لها، وهو المناهض للاستعمار. كان نهرو أصدق حدساً من إقبال في التنبيه على مخاطرها على الإسلام والوطن. ففي مقال له عن «القاديانية والمسلمون السلفيون» (الأرثوذكس) يبين أهمية الخلاف بين الفريقين⁽²⁾. ويأخذ إقبال موقف التلميذ في مادتي تاريخ العالم والدين المقارن مع أن الأمر لا يتعلق فقط بالعلم بل أيضاً بالسياسة. ويعتبر إقبال أن الهند طالما أعطت ديانات لجماعات متعددة. ويعتمد على فكرة الغائية. وهي من أهم الأفكار في الحضارة الإنسانية خاصة الحضارة السحرية كما سماها اشبنجلر مثل الزرادشتية واليهودية والمسيحية اليهودية والكلدانية والصابئة. وقد ظهرت في الإسلام المعاصر حركتان البهائية والقاديانية. الأولى إسلامية صرفة، والثانية تمثلت عناصر خارجية معادية للإسلام. وهي حركة مشابهة لحركة «الصدوقين» Zaddiks في اليهودية. وأشهر زعمائها بعل شيم توف. تؤمن بالمهدية. رفض إقبال إخضاعها بالقوة. ودفع عن نفسه هذا الاتهام. ويطلب الهند والمسلمين بالتسامح معهم باعتبارهم يمثلون ديناً مثل باقي الأديان.

وفي «رد على أسئلة باندت جواهر لال نهرو»، يعيد إقبال الدفاع عن القاديانية (الأحمدية) والبهائية في إيران⁽³⁾. ويتهم إقبال الحركة الوطنية الهندية

(1) بؤساء الأرض راموا سننا
وسمعنا أن نباشي القبور
لتزول الحرب في هذه العصور
شركة شادوا لتقسيم القبور

رسالة الشرق، ص329.

(2) Qadianis and Orthodox Muslims, Th. Ref., pp. 247 - 56.

(3) Reply to Questions raised by Pandit Jawahar Lal Nehru, Th. & Ref., pp. 257 - 90.

بزعامه نهرو بأن مثاليته السياسية قتلت إحساسها بالواقع، وأنها أصبحت متعصبة ضد حق تقرير المصير لسكان شمال غرب الهند، وأنها هي المسؤولة عن اضطهاد الهويات الثقافية في البلاد والتي من تفاعلها تستطيع الهند أن تصبح ثرية ذات ثقافة صلبة. كما أن القاديانية بدأت تخاف يقظة الحركة الوطنية الهندية لوضع أسس جديدة للأمة غير الأمة التي وضعها الرسول. ويحذر إقبال الهند من قوى التفكك والانحلال تحت دعوى الإصلاح. ويقارن بين طرد اسبينوزا من الرابطة اليهودية وطرد الأحمدية من الرابطة الإسلامية. وشتان ما بين طرد الفكر الحر من جماعة متفلسفة وطرد جماعة خارجة على الأمة عقائدياً وسياسياً. ليست القضية في الحالتين نقد وحدة الوجود بل هي القضية السياسية: رفض اسبينوزا العهد أو الميثاق الأبدي وشعب الله المختار في العقائد اليهودية، وتأسيس فرقة صوفية روحية لا سياسية تقوم على استمرار النبوة. ويطالب إقبال بالتعامل مع الفرقتين الجديدتين البهائية والقاديانية بروح التسامح وتأخذ منهما موقف الفلاسفة وعدم تقديمهما إلى محاكم التفتيش! ويرفض استشهاد نهرو بالكاردينال نيومان، وقبول حكمه على الإسلام. ويعتذر عن الفرقتين بأن المسلمين لم يقدروا جيداً مفهوم الغائية مع أنها دليل على وجود الله. ويعني به تحقق النبوة في الولاية، مع أنه سبق أن شرح معنى خاتم النبوة في «تجديد التفكير الدين في الإسلام». وجعل له فصلاً خاصاً عن «مبدأ الحركة في الإسلام». ويعني به الاجتهاد وليس الولاية. وأحياناً يطلق على الغائية اسم «بروز» وهو ما سماه محمود طه «الرسالة الثانية». ويحاول الاعتذار بالتصوف خاصة بابن عربي في «الفتوحات». وقد ظهرت هذه الحركات كلها في آسيا لسيادة التصوف الهندي. بل إنه يحتج ببطولة السلطان تيبو في مقاومة الاستعمار البريطاني، وكأن التصوف والإشراق أحد وسائل مقاومته وليس تشبته. ويعتذر بموقف روسيا الشامخ مع البابية لأن التصوف ليس خطراً على الاحتلال الروسي للجمهوريات الإسلامية. بل إنه يعتذر للفرقتين شعوبياً. فالأحمدية «خليط غريب من التصوف السامي والآري» مع إحياء روحي لا يكتفي بتطهير الحياة الداخلة للفرد و فقط طبقاً لمبادئ للتصوف الإسلامي القديم بل بإشباع توقع الجماهير للمهدي المنتظر وذلك بالتبعية المطلقة له. بل يذهب إقبال بعيداً عندما يرى الأحمدية هي التي مهدت لظهور سعد زغلول ومصطفى كامل ورضا شاه، كما مهدوا من قبل للسيد أحمد خان والسيد جمال الدين الأفغاني. ويعيب على

نهرو إعجابه بأتاتورك. ويجعل المادية في مقابل الروحية ويبين خطر المادية على الدين. لقد ظهرت البهائية في إيران والقاديانية في الهند وكلاهما اتجاء اسماعيلي بالرغم من اعتراض نهرو عليهما ومدى تمثيلهما للإسلام الصحيح.

وكتب إقبال ملحقاً لمجلة أخرى لنفس الغرض: الدفاع عن استمرار الوحي الشفاهي في القديانية واعتبارها من الحركات التجديدية⁽¹⁾. وجريدة «النور» من مجلاتها، واسمها دال عليها. يستعمل إقبال ابن خلدون لتبرير تواصل التاريخ. ويحيل إلى السيوطي والبخاري ومسلم فيما يتعلق بالمهدي المنتظر. بل يستعمل الفلسفة الغربية كالعادة. ويستشهد بامرسون الرومانسي عن إمكانية الإلهام. ويحيل إلى «تجديد التفكير الديني في الإسلام» وإلى كتاب كان ينوي كتابته وهو «مقدمة لدراسة القرآن». بل إنه يعتمد على تصنيف اشبنجلر الإسلام على أنه دين السحر. ومن ثم تدخل فيه القديانية والبهائية بسهولة باعتبارهما نزعتين اشراقيتين.

ظل إقبال يدافع عن القاديانية في الهند والبهائية في إيران ليس فقط في دراسات مطولة بل أيضاً في رسائل إلى الصحف والمجلات⁽²⁾. ويبين أنها لم تخرج على العقيدة الإسلامية، مع أن الموضوع ليس إيماناً بل سياسة. ولا يرى غضاضة في اعتبار بهاء الله نفسه نبياً بعد محمد. لذلك يُروج له الغرب. ومعبده الرئيسي في حيفا، في فلسطين المحتلة التي أصبحت حالياً إسرائيل. ويرى إقبال أن التجديد في الإسلام ضروري. والأحمدية والقاديانية مذهبان تجديديان! وبالرغم من تفرقة القاديانية بين الدين والمجتمع أو الدين والسياسة إلا أنها حريصة على البقاء داخل الإسلام السياسي.

وأرسل إقبال رسالة إلى نهرو رداً على رسالته بشأن الموقف السياسي للأحمدية. بين فيها إقبال الأساس الديني للأحمدية في الوحي! ولم يشأ أن يعطي الأسباب التاريخية لنشأتها. وقد فرح مسلمو البنجاب بخطاب نهرو الذي يتشكك فيه في نوايا الأحمدية السياسية على عكس موقف إقبال المتعاطف معها. ويعتذر إقبال أنه غير متخصص في علم العقائد (بالرغم من كتابته «تجديد التفكير الديني

Rejoinder to "The Light", Th. & Ref., pp. 295 - 300. (1)

A letter to the statesman, Th. & Ref., pp. 291 - 4. (2)

في الإسلام»، ولكنه يريد أن يضع نفسه على نفس مستوى الأحمديّة. كانت النية صادقة. ولأول مرة وبصراحة تامة يصرح إقبال لنهرو بأن الأحمديّة خونة للإسلام وللهند. ويسأل في خطابه لنهرو عن اقتراحه إنشاء اتحاد للحرية المدنيّة⁽¹⁾.

والعجيب تعاطف إقبال مع البايّة (المرزا علي محمد الباب الشيرازي المولود عام 1820) والبهائية التي أسسها بهاء الله أحد حواريه، والدفاع عن الفرقتين ضد اضطهاد المسلمين لهم على عكس كشف نهرو لهما بأنهما لا يمثلان الإسلام، وبأنهما من أنصار الاستعمار البريطاني. ويخصص آخر فقرة في الخاتمة لها ويصفها بأنها حركة عالمية مسرفة في نزوعها الإنساني دون اهتمام بالوطن. ولا زالت تسيطر على الفكر الإيراني الحديث. ويؤثر طابعها الصوفي ونزوعها العملي تأثيراً غير مباشر على التغيرات السياسية في إيران⁽²⁾.

6 - كشمير وفلسطين

وبالرغم من حركات التحرر الوطني من الاستعمار إلا أن كشمير مازالت محتلة. تسري النار في أرضها لتغطي على الريح فيختلط اللون الأحمر بشدة الريح⁽³⁾. يطول في البحر صراع الموج حتى ولو ظل المسلمون على الشاطئ في اجتماع. يضرب الكشميري الأحجار في عرض الطريق كي يزيل الجبل العتيق. ترضع الأمم ألف فتى، وتعلمه المقاومة من أجل كشمير. لم يجد أمامه إلا العنف. فالمسلم لا يعيش على الشط بل يغوص في قلب البحر. لا يقف أمام الجبال كمانع بل يحطم الصخر⁽⁴⁾. هو الذي وهب الحياة للشرق. فربما هبط آدم فيها من الجنة

Letter to Pandit Jawahar Lal Nehru dated 21 st June, 1936, Th. & Ref., (1) pp. 306 - 7.

(2) تطور الفكر الفلسفي، ص 134 - 142/135.

(3) أرضنا كشمير منها أصلهم

إن حسبت الأرض تخلو من شر

أصل تلك النار أين؟ ليت شعري

في الجبال عندنا خفق لريح

جاويد نامه، ص 293 - 294.

(4) طال في البحر بنا عنف الصراع

وابننا أي ذلك النهر القديم

لو حوانا البر يوما في اجتماع

منه في الوادي وفي السفح الهزيم

لأنها تشبهها. وقد تعوض سعادة الأرض عن سعادة السماء. صوته جرس للقوافل حتى لا تتخلى عن كشمير. لم يدب اليأس في قلوب الكشميريين. مازال في قلبه حجر وليس ثلجا. لقد بُعث الشعب الكشميري من القبور، يتأوه من الظلم. وليس أمامه إلا المقاومة وإضرار النار. فكم من الشعوب أحرقتها الطغاة؟ الاستعمار في كشمير أدهى من حبات تدمره الأنفاس. والشعوب كما تبني تدمر. وجرح القلب وإهانة الكرامة يؤدي إلى الموت. تلك مهمة الشعر، إنشاد الألحان للتحريك والتأثير والتجديد⁽¹⁾. ويدعو إقبال الكشميري لتحرير وطنه. هو زهر الصحارى الذي يضرم النار في قلوب الناس⁽²⁾.

كشمير هي إيران الصغير. هو اليوم بلد خاضع وفقير. وحين يخاف رجل الحق السلطان والأمير تخرج الأهات المحرقة من صدر الأفلاك. الفلاح العجوز على سفح الجبل حزين. ينعى قسوة الأيام. فقد اختفى المجاهدون، العقول النيرة

كي يزيل شأفة الطود العتيق
أرضعته ألف أم ثم شب
لم يجد عند سوانا المصدر
في الطريق حظ ما صحرا يماثل؟
يا مديح السبح في مَجّ الزيد
يسعد الموجة جزر بعد مد
ذلك الشرق الحياة من وهبت

ولكشمير أراك غير أمل
تحت ثلج لم يصير جمر رمادا
كيف قام الشعب من جوف القبور
أخضرا أحرق وأحرق ما يبس
أحرقتها نار قلب الأشقياء
وهو بالأنفاس محتوم الخراب
والشعوب قد بنى أو دمرا
لم تجد في هذه الدنيا ضربا
ردد الألحان في الجنات ردد

في قلوب للأناسي، هذه النار اضرم
وإذا لم تقتنع بالقول ذا الكون اشطرن

يضرب الأحجار في عرض الطريق
من فتى في كل أرض قد غلب
إنه بالعنف أبدى المحشرا
ما الصواب عيشنا في حد ساحل
إن إلف الشط موت للأبد
الحياة السير في غور ونجد
أنت في وجه الحياة من قرأت

جاويد نامه، ص 294.

(1) إن منك الصوت أجراس القوافل
في الصدور لم يمت يأس فؤادا
قف تمهل لترى من غير صور
وتأوه يا فتى لا تبتئس
كم بلاد تحت أفلاك السماء
إن هذا الملك أو هي من حباب
إنما الشعر المصير قدرا
أنت إن جرحت هاتيك القلوبا
جدد التحريك والتأثير جدد

السابق، ص 294 - 295.

(2) أنت يا زهر الصحارى، قل أحقت احترافا
كنت في قلب لهيبا، ولهيبا في دماء

السابق، ص 296.

والأيادي العاملة. فليتمهل الإله في يوم الجزاء حتى تثور الشعوب المغلوبة، ويتطهر ضمير الإنسان، ويشع مصباح الأمل. فما الذي ذهب بالنشوة والنشاط من العيون الكشميرية السوداء؟⁽¹⁾.

وقد أعطى إقبال بعض التصريحات حول كشمير عندما استقال كرئيس للجنة «كشمير كل الهند»، نظراً لغياب أي دستور لها، وإعطاء الرئيس سلطة مطلقة. وهو حل مؤقت، بالإضافة إلى عدم اعتراض الأحمدية باللجنة وإثارتها بعض الشكوك حول مستقبلها على نقيض موقف مجموع مسلمي الهند⁽²⁾. وأعطى تصريحاً آخر بمناسبة رفضه تنصيبه رئيساً لجمعية «طريق كشمير» نظراً لأنه مازال رئيس لجنة «كشمير كل الهند». وقد روج القاديانيون للصحافة قبوله لهذا المنصب الجديد. وبالرغم من دخولهم في الهيئة السياسية الإسلامية إلا أنهم يريدون بث الفرقة فيها، وعدم اعترافهم بالمسلمين غير القاديانيين في كشمير. والخشية أن تقوم الجمعية الجديدة التي دعا إليها القاديانيون على أسس طائفية⁽³⁾.

وفي تصريح حول الاضطرابات في كشمير يبين إقبال للكشميريين أن بريطانيا هو العدو الرئيسي وليس الهندوس، وأن هدف بريطانيا هو «فرق تسد»، وضرب المسلمين بالهندوس، والهندوس بالمسلمين. ويدعو إلى الوحدة بينهم وإلا عملت القوى المضادة ضد مصالحهم. كما يدعو إلى وحدة المسلمين. يكفيهم حزب سياسي واحد يمثلهم بدلاً من أحزاب متفرقة⁽⁴⁾. وفي تصريح حول الإصلاحات الإدارية في كشمير، يبين إقبال ضرورة بناء الثقة بين الحكومة والشعب. فقد صيغت الإصلاحات الإدارية له. ومشاركته فيها جزء منها. فالحكومة ليست غريبة عليه، بل تنبع منه⁽⁵⁾.

(1) أرمان حجاز، ص 535 - 537.

(2) Statement, on his resignation of the office of President of All - India Kashmir Committee issued on the 20 th June, 1933, Th. & Ref., pp. 300 - 3.

(3) Statement. on his rejection of the offer of Presidentship of Tehrik - i - Kashmir issued on the 2 nd October, 1933, Ibid., pp. 304 - 5.

(4) Statement, on the disturbances in Kashmir, issued on the 7 th of June 1933, Th. & Ref., pp. 356 - 7.

(5) Statement, on the administration reform in Kashmir, Issued on the 3 rd August, 1933, Ibid., p. 358.

ويخصص إقبال جزءاً من خطابه الرئاسي الذي ألقاه في المجلس السنوي للمؤتمر الإسلامي لكل الهند لقضية كشمير⁽¹⁾. ويبين تاريخها الإسلامي، وكيف أنها إحدى الولايات الإسلامية ذات الأغلبية المسلمة. ومؤامرات الغرب لفصل كشمير عن التجمعات الإسلامية، وضمها إلى الولايات الهندية. ويقترح إقبال لحل المشكلة توضيحها في ذهن بعض القيادات الإسلامية، وجمع المال وتكوين رصيد وطني لمساعدة كشمير، وتكوين جماعات من الشبان للتوعية بالمشكلة، وتكوين معاهد مشتركة للرجال والنساء لدراسة القضية، وتكوين جماعة من العلماء والقانونيين من الداخل والخارج على حد سواء.

ويحمل إقبال هموم الأمة ليس فقط في الهند بل أيضاً في أفغانستان. ولم يرها وهي محتلة الآن بعد الغزو الأمريكي. وينادي نادرشاه ملك الأفغان كي يعود لإنقاذ أمة الأفغان من آلامها وجراحها⁽²⁾. وفي «وصية خوش حال خان» يعيد إقبال مناجاته للأفغان. ويطلبهم بشد أزر بعضهم بعضاً. يتمتعون بفتيان صيادين، يرمون شباكهم في السماء لصيد النجوم كرياضة الشجعان. فهم ليسوا أقل من المغول شجاعة. ويطلب ملك الأفغان أن يدفن فوق الجبال. لا تصفعه ريح ولا تمر عليه خيل. يكفي الحجر أن يكون خامداً تحت أكوام الرماد. ولو مرت فوقه ريح كان ذلك حديث الناس. ويضيء قبر تيمورلنك. وتحدث روحه بأن باب الله مازال مفتوحاً وإن سدته الأيام. فأحفاد طوران قادرون على استعادة مجد القدماء⁽³⁾.

(1) ألقى في لاهور في 1932/3/21، Th. & Ref., pp. 206 - 19.

(2) وعسى نادر يأتي ليرى هذي الحقائق
 عله يفسل بالدمع جراحات الشقائق
 جناح جبريل، ص538.

(3) يا أمة الأفغان شدوا بعضكم
 ما شاهدت عيناى أجمل منظرا
 يرمون في بحر السماء شباكهم
 ليسوا أقل من المغول شجاعة
 أنا خوش حال أحب قبرا إن أمت
 لا ريح تصفعه بنقع حامل
 ما تبقي غير جمر هامد
 أي ريح فوقه لو عصفت
 وإذا مرقد تيمورلنك قد
 قال لي: يا أيها الباكي أنا
 بعضا وكونوا سادة الأفغان
 كجمال صياديكم الفتیان
 صيد النجوم رياضة الشجعان
 ليسوا بأدنى منهم في شان
 فوق الجبال ممرد البنيان
 مرت عليه خيول مغلستان
 يتخفى تحت أكوام الرماد
 جعلت منه حديثا للعباد
 بدد الليل بسيف من ضياء
 روح تيمورلنك فاسمع ما أقول =

تحتل أفغانستان مكاناً بارزاً في فكر إقبال بعد كشمير. إذ إن لها حدوداً مفتوحة مع كل الجمهوريات الإسلامية في أواسط آسيا. هي قلب آسيا كما أن مصر هي قلب الوطن العربي. ففي تصريح حول مشروع الجامعة الأفغانية يبين إقبال أن أفغانستان المتعلمة صديقة للهند. والتعليم عامل موحد بين الشعبين. هناك وعي يتبلور لدى الشعب في حاجة إلى مزيد من الاستنارة بالاعتماد على التجربة الهندية. لم ينتج التعليم العلماني الخالص نتائج جيدة خاصة في البلدان الإسلامية. لا يوجد نظام مطلق للتعليم. بل هو مرتبط بحاجة كل بلد⁽¹⁾. وفي تصريح آخر حول ظروف أفغانستان، أنها بلد آمن على الأرواح والممتلكات في وقت تشهد فيه البلاد موجة من العصيان. يؤدي الوزراء واجباتهم خير أداء. لا فرق بين رجال الدين والشباب والعمال في أداء الواجب. وتقوم أفغانستان الآن بتجديد نظم التعلم العام بحيث تتماشى مع البلدان المجاورة. فقد خصص قصر لمبنى الجامعة. ويتطور التعليم العالي في الطب والهندسة. وتربط الطرق بروسيا من أجل ربط وسط آسيا بوسط أوروبا. وتدل النهضة الحالية لأفغانستان على بداية نهضة شاملة⁽²⁾. مستقبل أفغانستان أن حكم التاريخ هو أن الدول المتاخمة لدول أخرى لم تستطع أن تكون وحدات سياسية كبرى. هكذا كان الأمر مع سوريا، دولة تخوم بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية. لذلك من الصعب التنبؤ بمستقبل أفغانستان⁽³⁾.

وكما اهتم إقبال باستقلال كشمير وأفغانستان كذلك اهتم باستقلال تركستان تحت الاحتلال الصيني. ففي تصريح له حول العصيان في تركستان الصينية يبين كيف أن تركستان واقعة تحت الاحتلال الصيني والروسي. نشأ الغضب في تركستان الصينية بسبب تعيين قضاة صينيين في المقاطعة نظراً لأن 99٪ من سكانها مسلمون.

= إن باب الله مفتوح وإن
أنت من أبناء طوران وإن
سدت الأيام أبواب التتر
فرقت أبناء طوران البشر
جناح جبريل، ص 540.

(1) Statement, on the proposed Afghan University, published on the 19 th October, 1933, Th. & Ref., pp. 359 - 6.

(2) Statement, on the conditions in Afghanistan, issued on the 6 th November, 1933, Ibid., pp. 361 - 2.

(3) ST. Ref., p. 36.

سبب العصيان إذن ليس التعصب الديني بل كان سبباً اجتماعياً اقتصادياً. ربما ما زال العالم يفكر بطريقة العرق. وهو أخطر ما يهدد البشرية. خاصة في آسيا. وقد استطاع الإسلام أن يقضي على هذه النزعات العرقية بانتشاره في ربوع آسيا، وتجنب ما حدث في أوروبا من سيادة النزعات العرقية. ويقترح إقبال استقلال المسلمين في تركستان. وموقف الصين من تركستان هو نفس موقف الهند من كشمير⁽¹⁾.

وكما قسمت بريطانيا الهند بين هندوس ومسلمين كذلك قسمت فلسطين بين عرب ويهود. وأقامت الحكم العنصري في جنوب أفريقيا في نفس العام 1948. وفي تصريح عن التقرير الذي يوصي بتقسيم فلسطين، يعبر إقبال عن إحساسه بظلم العرب. صحيح أن بريطانيا وعدت العرب بالعدل. وترك البرلمان البريطاني موضوع التقسيم مفتوحاً. ويرجو إقبال أن ينطبق قرار البرلمان ليس فقط على فلسطين بل على كل أرجاء العالم الإسلامي. يقصد كشمير وربما جنوب أفريقيا. المشكلة إسلامية حقاً. ففي ضوء تاريخ إسرائيل لم تعد فلسطين يهودية قبل دخول عمر إليها منذ وقت طويل أكثر من 1300 عام. وقد تشتتوا بإرادتهم في كل أنحاء المعمورة كما بين ذلك الأستاذ هوكنجز Hockings. ودونت كتبهم المقدسة خارج فلسطين. ولم تكن فلسطين أبداً مشكلة مسيحية. بل إن بعض النقاد يشككون في وجود بطرس الراهب بالرغم من محاولات الصليبيين جعل فلسطين مشكلة مسيحية. وقد انتهت هذه المحاولات بانتصار صلاح الدين. فلسطين إذن مشكلة إسلامية خالصة.

وقد كشف التقرير الملكي عن خفايا السياسة البريطانية. وكان الوعد بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين مجرد آلية. والحقيقة أن بريطانيا أرادت وطناً قومياً لها وسط أراضي المسلمين. ولم يحل ذلك المشكلة البريطانية في المتوسط بل بدأت المشاكل للاستعمار البريطاني. وبيع الأراضي المقدسة بما في ذلك مسجد عمر بالإضافة إلى الأحكام العرفية مع اللجوء إلى كرمهم يدل على إفلاس سياسي أكثر من تحقيق خطة سياسية. فإعطاء اليهود أراضي غنية، والعرب أراضي

(1) Statement, on the rebellion in Chinese Turkestan, Published on the 16 th May, 1933, Th. & Ref., pp. 352 - 5.

صحراوية يتنافى مع العدل والحكمة. هي قسمة ضيزى باسم بريطانيا العظمى التي وعدت العرب بالحرية والوحدة.

هذا درس من فلسطين لكل الشعوب الآسيوية يؤدي إلى الوحدة الفورية بين العرب والأتراك ضد سياسة عزل تركيا عن باقي العالم الإسلامي بحجة ابتعاد تركيا عن الإسلام، وهي فرية كبيرة. ومن يجهل الشريعة الإسلامية يصبح ضحيتها. لن ينس العرب التجربة التركية وامتحان الأتراك. وليتذكر العرب دائماً أنهم لن يستعيدوا فلسطين اعتماداً على ملوكهم بل على ضميرهم الخاص. والقرار خاص بهم بعد فهم دقيق للوضع وبمبادرة خاصة بهم. إن اللحظة الحاضرة هي أيضاً لحظة اختبار لباقي الدول الإسلامية في آسيا. فبعد إلغاء الخلافة ظهرت أول مشكلة دولية خطيرة ذات أبعاد دينية وسياسية تواجهها القوى التاريخية. بل إن المشكلة الفلسطينية قد تهدد وجودها كأعضاء في المؤسسة الإنجليزية الفرنسية التي تسمى «عصبة الأمم» واستكشاف الوسائل العملية لتكوين جامعة الشعوب الشرقية⁽¹⁾.

لم يحمل إقبال هموم الأمة الإسلامية في كشمير وأفغانستان وتركستان وفلسطين بل أيضاً في فارس وتركيا. لم يكن الهدف تاريخياً خالصاً بل كان أيضاً الربط بالعصر الحاضر خاصة في فارس، ومنح الشاه دستوراً للفرس، وظهور تركيا الفتاة كقوة أساسية في النضال السياسي⁽²⁾.

7 - الاستشراق

ما زال الاستشراق يطل برأسه في دراسات إقبال الإنجليزية عندما يتكلم عن المحمديين ويقصد المسلمين، والمحمدية ويعني الإسلام أسوة بالمستشرقين الذين يشتقون اسم الدين من اسم مؤسسه مثل الكونفوشيوسية من كونفوشيوس، والبوذية من بوذا، والزرادشتية من زرادشت، وليس من الفعل الأول في الدين مثل «الإسلام» من «سلم»⁽³⁾.

(1) Statement, on the Report recommendation partition of Palestine, Punjab Muslim League, 27 th July, 1937, Th. & Ref., pp. 369 - 72.

(2) Th. & Ref., p. 75.

(3) Th. & Ref., pp. 39 - 41/43, 50 - 52/54.

ويستعمل إقبال في دراساته النظرية في الفلسفة السياسية المنهج التاريخي السائد في عصره والذي كان سائداً في الغرب في القرن التاسع عشر وتحجر ووقع في النزعة التاريخية⁽¹⁾. فإذا ما درس التفكير السياسي في الإسلام فإنه يبدأ بما كان سائداً في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام حتى ظهور الإسلام. ثم تتابع المراحل التاريخية طبقاً للمراحل المعروفة من الدولة الأموية والدولة العباسية إلى العصر الحاضر⁽²⁾.

ويستشهد بأقوال المستشرقين مثل توماس أرنولد Th. Arnold، واعترافه بانتشار الإسلام سلماً أكثر منه حرباً خاصة في جنوب شرق آسيا وأفريقيا⁽³⁾. كما يستشهد بفون كريمر Von Kremer بعد معرفة العرب بنظام الوراثة في الحكم⁽⁴⁾. ويستشهد بدوزي Dozy وحكمه على الفرس بأنهم لا يعرفون البيعة، وأنهم مستعدون لتأليه الإمام⁽⁵⁾. ويستشهد بفنسك Wensinck على أن الإسلام عليه أن يواجه الصعوبات التي واجهتها المسيحية بالنسبة لعلاقة الدين والسياسة⁽⁶⁾. ويستشهد بقول رينان إن الإنسان ليس عبداً لعرقه أو لدينه أو بمجرى أنهاره أو باتجاه جباله المحيطة به. بل إن الإنسان بعقله الراجح وقلبه الدافئ يخلق وعياً أخلاقياً يسمى الأمة⁽⁷⁾. ويعتمد على قوله إن الإسلام قد يفقد يوماً ما توجهه الأخلاقي والعقلي لجزء كبير من العالم⁽⁸⁾. ويستشهد بقول هرجونبي Hurgrounje على تطور الشريعة وكيف كفر كل اتجاه الآخر كدليل على ما يفعله المسلمون الآن ضد القاديانية والبهائية. مع أنه لم يحدث تكفير بين المذاهب الفقهية بل بين الفرق الكلامية⁽⁹⁾. ويعتمد على بعض علماء الاجتماع والأجناس ومؤرخي الأديان.

(1) النزعة التاريخية. Historicism.

(2) Political Thought in Islam, Th. & Ref., pp. 56 - 75.

(3) Th. & Ref., p. 47.

(4) Ibid., p. 56.

(5) Ibid., p. 75.

(6) Ibid., p. 165.

(7) Ibid., p. 167 - 8.

(8) Ibid., p. 377.

(9) Ibid., p. 265.

الخاتمة

بعض الملاحظات النقدية

1 - جوهرية الذات: الذاتية هي محور فلسفة إقبال⁽¹⁾. لذلك كان «الذات» و«الذات المشتركة» الباب الأول «الذاتية» بفصليه أكبر الأبواب. هو الخيط الناظم لحبات العقد كلها. كل الموضوعات الأخرى في أبوابها وفصولها تجليات للذاتية. وهي رد فعل على أوضاع المسلمين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. كانت أفغانستان تابعة للإنجليز. يدفعون لأميرها منحة سنوية في مقابل فرض وصياتهم على البلاد. وتركستان خاضعة لروسيا. وإيران متخلفة تحكمها التقاليد القديمة. اتجهت إلى مجالس العزاء وإقامة المراثي دون العمل والكفاح والجهاد. وهو ما نبه عليه الخميني بعد ذلك في «جهاد النفس»⁽²⁾. وفرضت روسيا سيطرتها على شمال إيران بموجب معاهدة 1907 في مقابل فرض إنجلترا سيطرتها على جنوبه. وتركيا التي وصلت إلى أبواب فينا مدحورة حتى وصلت جيوش البلغار إلى القسطنطينية ومن قبلها روسيا. والعلماء يقبعون وراء المحافظة القديمة. واحتل الإنجليز مصر في 1882. وامتدوا إلى السودان، ونش قبر المهدي. وكانت فرنسا قد سيطرت على الجزائر منذ 1830. ثم احتلت تونس والمغرب وسوريا ولبنان. واحتلت إيطاليا ليبيا. واحتلت إنجلترا العراق والأردن والخليج واليمن. حاول جمال الدين الأفغاني إيقاف المسلمين قبل إقبال، وتصدر الإسلام في مواجهة الاستعمار في الخارج، والقهر والتخلف في الداخل. وكان حال مسلمي الهند أسوأ من حال المسلمين العرب. فقد احتلت إنجلترا الهند. ونشرت الأفكار المميتة في

(1) سمير عبد الحميد إبراهيم، مقدمة الأسرار والرموز، ص 2 - 9.

(2) الإمام الخميني: جهاد النفس أي الجهاد الأكبر، القاهرة، 1980.

روح المسلمين بعد أن ضيقوا علمهم في الرزق، واستولوا على أراضيهم. وأشعلوا نار الفتنة بين المسلمين والهندوس بعد تأسيس حزب المؤتمر. كان لدى المسلمين مدرستان، عليكره لتخريج موظفين للإمارة المدنية، وديوباند لتخريج علماء محافظين. أما الأمراء فقد انشغلوا باللهو عن مصالح الأمة. وقرض الشعراء الشعر التقليدي الميت. وتأسس عام 1906 حزب الرابطة الإسلامية أو الجامعة الإسلامية. لم يكن الهدف إذكاء روح الحرية عند المسلمين بل مطالبة الإنجليز ببعض الحقوق ضد السيطرة الهندوسية مع الوفاء لبريطانيا. ثم تغير الموقف عام 1911 بعد إلغاء تقسيم البنغال عام 1912. وفي هذه الظروف كتب إقبال مثنوي «أسرار النفس».

ومع ذلك يمكن القول بأن إقبال دفع مفهوم «جوهرية الذات» وكأنها ماهية مسبقة ثابتة دائماً. هو الله نفسه. فالذات Khudi من نفس الاشتقاق لله Khuda. الذات جوهر غير متعين، وعي خالص، لا فرق بين الذات الإلهية والذات الإنسانية⁽¹⁾.

2 - الثنائيات التقليدية: هناك ثنائيات تقليدية شائعة مثل ثنائية العلم والدين كما هو الحال عند برجسون، برودة العلم وحيوية الدين، عجز العلم عن الاقتراب من عالم الروح، وقدرة الدين على النفاذ إليه⁽²⁾. إن لم يكتمل العلم بالدين فإنه لا يصبح علماً. وخطورة ذلك هو أخذ نتائج العلم وتوفيق عقائد الدين ونصوصها عليها وكما هو الحال في التفسير العلمي للقرآن على مدى قرن من الزمان⁽³⁾. وثنائية العقل والوحي أو العقل والقلب أو العقل والعشق وإعطاء الطرف الثاني الأولوية على الطرف الأول هي الثنائية التقليدية بين علوم النظر وعلوم الذوق، بين الحكمة والتصوف بالرغم من تقدم الحكمة نحو الإشراق، والتصوف نحو الفلسفة

(1) من العقيدة إلى الثورة، ج2، التوحيد.

(2) العلم يخلق إبراهيم موتته
هذي الحياة وهذا الكون ما بُدلا
ما يُحسن المرُجُ تريبب الزهور إذا
العلم إن لم يُضف نجوى الكلم إلى
إذا تراه نديم القلب والنظر
ما محدث وقديم قول ذي بصر
لم يشترك نسمات الطل في الزهر
رأي الحكيم فما في العلم من قدر

ضرب الكلم، ص16.

(3) منذ طنطاوي جوهرى في أوائل القرن العشرين حتى زغلول النجار في القرن الواحد والعشرين.

الإلهية. والتقابل بين الكفر والإيمان تقابل تقليدي من علم أصول الدين. أقرب إلى موقف الخوارج حيث لا واسطة بينهما لدى الفاسق أو المنافق. وقد يكون عمل الكافر أفضل من نفاق المؤمن. فالمحك هو العمل لا النظر.

3 - التصوف السلبي: وإقبال ضد التصوف ومع التصوف، ضد تصوف الفناء ومع تصوف البقاء، ضد تصوف العبادات ومع تصوف المعاملات، ضد تصوف الآخرة ومع تصوف الدنيا. فإذا تخلى العرب والعجم عن الرسالة يبقى الصوفية الأقدر على حملها⁽¹⁾. كل مصطلحاته من الصوفية، المقامات والأحوال والعشق والمحبة والقلب والنفس والوجود والفناء والبقاء والرضا... إلخ. هذا الموقف المشتبه من التصوف هو الذي جعل إقبال يقبل بعض عناصر التصوف السلبي مثل الفقر بالرغم من محاولة تحويله إلى مقام إيجابي في «الفقر الغيور». وبالرغم من نقد إقبال لبعض المقامات والأحوال السلبية مثل الرضا والتوكل إلا أنه يقبل بعض الجوانب السلبية التي ليس عليها دليل مثل الخضر والمعجزات، حقيقة لا رواية، والحقيقة المحمدية التي يؤلّه فيها محمد كما ألّه النصاري المسيح. وبالرغم من نقده القضاء والقدر والتوكل إلا أنه ضد الأخذ بالأسباب اعتماداً على التوكل، خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الخلف. وبالرغم من نقد إقبال لفقر الهند على باب المساجد للتسول إلا أنه يدافع عن الفقر في أمة بها بون شاسع بين الأغنياء والفقراء.

ويقترّب إقبال من «الحقيقة المحمدية» عند الصوفية في مناجاته له وتسميته الإسلام باسمه ونداء روحه «أي روح محمد»⁽²⁾. وهو تأليه محمد وإخراجه خارج الزمان والمكان، ومشاركته لله في بعض صفات مثل الخلق والسرمدية. في حين أن القرآن يجعل محمد مجرد إنسان يوحى إليه. هو ابن امرأة تأكل القديد، ويمشي في الأسواق. هو كائن إنساني يولد ويموت، يأكل ويشرب، يصوم ويفطر، يناجي ربه ويأتي النساء. هو رسول الله وخاتم النبيين، أداة لإيصال الوحي من الله إلى الناس كما أوصله جبريل من الله إلى الرسول. وقد حذر

Persian Psalms. P. 69.

(1)

(2) فبتين لنا الأسرار روح محمد حفيظ لآي، ياله، أين يذهب؟

ضرب الكلم، ص32.

الرسول من إطرائه كما أطرت النصراري عيسي بن مريم. وعندما أنكر عمر أن الرسول قد مات ذكره أبو بكر بآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ * أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ * . وتختلط الشكوى بالمدح النبوي بالطريقة التقليدية عند العامة أو بتصور الحقيقة المحمدية عند الصوفية، لا فرق بين محمد الإنساني و محمد الإلهي، بين محمد الشخصي و محمد الكوني، بين محمد الرسول و محمد المعشوق. يخاطب الشاعر المصطفى، ويحادثه بضمير المخاطب المفرد، وجهاً لوجه دون واقع يجمع بينهما. الحقيقة المحمدية خلط بين الرسول والرسالة وتفخيم دور الرسول على دور الرسالة، وتحويل الوسيلة، وهو الرسول، إلى غاية وهي الرسالة. مع أن الرسول مجرد بشر، مثل باقي البشر ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ .

والعجيب أن تنتهي رموز نفي الذات بشكوى الشاعر إلى من أرسل رحمة للعالمين. وهو شكل أدبي مثل الدعاء. كلاهما مناقضان لفلسفة العمل. فالشكوى مذلة، والدعاء ضعف. وأساليب الشكر والشكوى لا تتفق مع فلسفة الذاتية، وأقرب إلى مواجيد الصوفية. فالشكر من العبد الجهول الذي وصل إلى سر الغيب، وأعطى هيام قلب قرّب البعيد، والشكوى من أنه موجود بأرض العبيد التي تطيب نفوسها بالرق. فالشكر مقام من مقامات الصوفية يتنافى مع أداء الواجب كما هو في المثل العامي «لا شكر على واجب». والرق ليس موضوعاً للشكوى بل للتغير الاجتماعي والسياسي⁽¹⁾.

ويبدو أن العشق والحياة والشوق والطاقة هي تعبيرات شعرية لموضوع تقليدي محافظ هو الإيمان أو القلب. يدعو إقبال الله أن يجعل عشقه قرين العمل. العشق هو العلم الأسمى وهو جوهر الدين. كما يدعو أن يهبه الله اليقين بدلاً من الشك الذي أمضى فيه سنين كما دعا الخيام والغزالي من قبل. كما يدعو الله أن

(1) لك الحمد إني عبد جهول
منحت القلوب هياماً جديداً
ومن حر شدوي يرى في الخريف
ولكن خلقت بأرض بها
ولكن وُصّلت بسر الغيوب
أثرت البعيد به والقريب
طروباً بصحبته العندليب
نفوس العبيد برق تطيب

يميته في الحجاز مهبط الوحي، ومسكن المصطفى أرض الإيمان، وليس أرض الأصنام، أرض المقام. فنعلم هذا الوطن⁽¹⁾.

4 - الانبهار بالقديم: وبالرغم من نقد إقبال للتراث القديم، الكلامي والفلسفي والصوفي والفقهي إلا أنه من أكبر المدافعين عن الأصالة والقديم ضد الجديد. ويدافع عن التقليد في زمن الانحطاط، فيزداد الانحطاط. ولا يُقام تجديد إلا بالاجتهاد وإعمال العقل. ويدعو إلى التقليد في زمن الانحطاط، والتخلي عن الاجتهاد. وهو مبدأ الحركة في الإسلام. ولا يقابل الانحطاط إلا التقدم، وشرط التقدم إعمال العقل. ولا شأن للقياس، أحد أشكال الاجتهاد، بالمنطق الأرسطي الذي عرفه الشافعي واطع علم الأصول. فقد عاش الشافعي في القرن الثاني (ت 204هـ) وعصر الترجمة لم يكن قد انتهى بعد أو عند أبي حنيفة وإبراهيم النخعي (ت 204هـ) وعصر أرسطو وقد توفي 150هـ⁽²⁾. ينبهر إقبال بالقديم وهو غير عالم به على نحو دقيق وباستعمال منهج الأثر والتأثر الأثير عند المستشرقين.

ويرفض الحسن والقبح العقليين عند المعتزلة. الأشياء حسنة وقبيحة لأن الله

يجعلن عشقي قرينَ العمل
ونصيبا شئت من علم ودين
واجعلن قطر ربيعي دررا
وهو في رأسي مقيم لا يبين
ومن الحكمة في الريب رهين
لم يُنره ليلي شعاع من شفق
إثذنن أذكر هذا الأملا
كيف مثلي مثل هذا بأمل
كل ما أبغيه موتي في الحجاز
كيف لي عيش ببيت الصنم
أن يكون الدير مثوى للرفات
إن أقم في ذا الحمى من لحدي
حبذا ثوب تراه مسكنا
أيها العشاق! ذا نعم الوطن
قد رأيت البدا فانظر ما الختام

(1) أسألن الله رب العرش لي
رب قد أنعمت بالروح الحزين
فاجعلن في الفعل حظي أوفرا
في إسار الشك أمضيت سنين
أحرقن نلت من علم اليقين
لم يلخ في ليل عمري نور حق
يا من القلب سواء أغفلا
سيرتي ما ضار فيها العمل
يا رحيمًا بك للناس مفاز
هجر غير الله شأن المسلم
حسرة المسلم أن ضمّ الممات
وبل يومي، وهنيئًا لغدي
حبذا أرض ثراها موطننا
دار حبي وملبكي والسكن
أيها الدهر انظرن هذا السلام

الأسرار والرموز، ص 149 - 154.

(2) حنين بن اسحق (ت 264هـ)، اسحق بن حنين (ت 299هـ)، ثابت بن قرة (ت 288هـ)، قسطا بن لوقا (ت 300هـ)، أبو بشر متى بن يونس (ت 328هـ)، يحيى بن عدي (ت 364هـ).

أمر بها أو نهى عنها، وليست في ذاتها. ويتهم العقلانية الغربية بالتفتيت والتفكيك باسم التحليل مع أن السبر والتقسيم أي رصد العلل وتحليلها هو أحد مناهج «التعليل» في علم الأصول.

والرسول قادر على إجراء المعجزات. ونموذجها عصى موسى التي تفجر الماء من الصخر، والإسراء والمعراج لمحمد. فالمعجزة تدل على القدرة والسيطرة على قوانين الطبيعة.

ويقول إقبال بالحاكمية وبأن الإنسان خليفة الله في الأرض، نفس دعوى المودودي المعاصر له. فالحاكمية لله لا للأيدولوجية ولا للقومية ولا للوطنية. والأخوة الإسلامية تجب الأيدولوجيات والقوميات والنزعات الوطنية. مع أن الله لا يحكم. وليس له ما يمثله على الأرض. الإمامة عقد وبيعة واختيار بإجماع الأصوليين، لا تعيين ولا وراثة.

والشريعة الإسلامية عند إقبال إلهية كما هو الحال عند السلفيين المحافظين مع أنها شريعة «وضعية» كما قرر الشاطبي في «الموافقات». لها ركائزها في «أحكام الوضع» الخمسة: السبب، والشرط، والمانع، والعزيمة والرخصة، والصحة والبطلان. فكل فعل له سبب. وتوفر له شروط. وتزول عنه الموانع، يتم بالحد الأعلى أو بالحد الأدنى. ويتحقق بالنية وليس لمجرد استيفاء الشكل. لا يعني «الحد» فقط المعنى الحرفي وهو «التجاوز» بل يعني أيضاً جرس الإنذار حين الخروج على حكم العقل وقانون الطبيعة وإلا تحولت الحدود إلى خرق لقوانين العقل والطبيعة على حد سواء. والشريعة اليهودية ألواح نزلت من السماء، وليست قوانين أخلاقية هبطت على قلب موسى كما فسر إسبينوزا.

ويدافع إقبال عن الأحمدية القاديانية والبابية بدعوى حرية الفكر والرأي، وهو الذي يدافع عن التقليد وقت الانحطاط. يبدو أن إقبال خضع للحملات الغربية دفاعاً عن هذه الادعاءات المذهبية المعاصرة التي تخرج من فرق الشيعة عامة والإسماعيلية خاصة. وتنحو بالإسلام نحواً صوفياً عالمياً يتجاوز حدود الأوطان كادعاءات الماسونية. وإقبال ضد التصوف. ومثلها البهائية. ويقوم مؤسسوها على ادعاء النبوة أو الولاية أو الإلهام الخاص. يؤيدها الغرب لأنها تسقط ركن الجهاد في الإسلام بدعوة المحبة العامة لكل البشر بما في ذلك المستعمرين والصهاينة.

لذلك كان مركز البهائية الرئيسي في حيفا. وتضغط الدوائر الغربية لجعل البهائية ديناً رسمياً معترفاً به في البطاقات القومية في حين أن الحركات الإصلاحية كلها تتجاوز الفرقة المذهبية العقائدية والفقهيّة لتوحيد الأمة والعود إلى الإسلام الأول.

وبالرغم من الذاتية ودعوة إقبال للعمل والنشاط ضد التصوف والكسل، إلا أنه ما زال يؤمن بالمهدي، المخلص، الرسول الجديد القادر على إنقاذ الأمة. وإقبال الشاعر قبل المهدي. كلاهما يوقظ الأمة من سباتها. وهو ما لاحظته ابن خلدون أيضاً في أن العرب لا يفلحون إلا بصبغة نبوة أو ولاية. وهو ما يتنافى مع قدرة الشعوب على الحركة، والجماعة على الفعل لصالح انتظار البطل الذي قد لا يأتي. وقد يكون الخلاص في الحاضر دون انتظار المستقبل، بالفعل الجماعي وليس بالفعل الفردي.

ويعظم إقبال الحجاز والعرب ومكة والكعبة. يبجل العرب لأنهم حملة الرسالة، والحجاز لأنها مهدها، ومكة لأنها كعبة المسلمين⁽¹⁾. في حين أن التوحيد لديه غير مرتبط بزمان أو مكان. وقد حملت شعوب أخرى رسالة الإسلام في آسيا وأفريقيا. والعروبة ليست عرقاً أو مكاناً أو مدناً أو شعوباً بل لغة. فكل من تكلم العربية فهو عربي. وبيت الله الحرام هو أول بيت وضع للناس بمكة. يدل على التوحيد، والتوجه نحو قبلة واحدة، واجتماع الأمة كلها في مكان واحد وزمان واحد لدراسة حال الأمة وإعلان البراءة من أعدائها.

5 - رفض الغرب: وبالرغم من أن إقبال من كبار المصلحين إلا أن موقفه من الغرب أقرب إلى الرفض منه إلى القبول. صحيح أنه يرفض الحدائث على المنوال الغربي إلا أن المحافظين يعتمدون على هذا الموقف المعادي للغرب للدفاع عن الذات القديم. يمكن نقد الغرب في إطاره النظري، ورد مذاهبه الفكرية والاجتماعية والسياسية إلى الظروف التي نشأت فيها. ويمكن تحويل الغرب من كونه مصدراً للعلم كي يصبح موضوعاً للعلم وتأسيس علم «الاستغراب». وإذا كان الغرب قد أصبح مصدراً للثقافة الإسلامية المعاصرة منذ أكثر من ثلاثة قرون وتفاعل مع الثقافة الإسلامية القديمة وإنتاج فكر إسلامي حديث فإنه لا يمكن

رفضه أو استبعاده وإلا سار الإنسان ضد منطق التاريخ. ويرفض إقبال كل مظاهر الحداثة في الغرب باعتبارها ضد الدين ومعادية له. والحداثة تجربة تنموية أصيلة في نظرية المعرفة والسلوك وأقرب إلى الاتجاه الإسلامي في الاعتماد على العقل والسيطرة على قوانين الطبيعة.

وفي نفس الوقت يمدح إقبال المصلحين الأتراك لأنهم جمعوا بين الوافد والموروث، بين الغرب والشرق في رؤية جديدة كما فعل أصحاب «التنظيمات» دون الوقوع في نموذج أتاتورك، القطيعة مع الموروث وتقليد الوافد.

وقد استلهم الشاعر الوطني التركي العظيم ضيا آراءه من أوجست كومت بالنسبة للعلمانية والحداثة. وقد لاحظ هوبز أن من يكرر أفكاره ويتعود عليها فإنه لن يكون قادراً على الإبداع فيما بعد. ومن ثم وجب التفاعل مع الأفكار المغايرة، واستلهم ثقافات أخرى لتطوير الثقافة الذاتية. والأمة الإسلامية اليوم تمر بنفس الفترة التي مرت بها أوربا أثناء الإصلاح الديني عند مارتن لوتر. وقد كانت حركة سياسية في جوهرها لإحلال الأخلاق القومية محل الأخلاق المسيحية الشاملة. ثم تحولت القومية والوطنية فيما بعد إلى نزعات عنصرية⁽¹⁾. ويستشهد بأوجست كومت على الجماعة الإسلامية بلا حدود عرقية أو جغرافية أو لغوية بقوله إن الدين يضم كل أبعاد الوجود الإنساني. وتاريخه جزء من تأريخه.

وتنتسب الاشتراكية الملحدة الحديثة لهيجل. أخذت نفس حرارة الدين وحميته⁽²⁾. وهي مادية صريحة تفسر الظواهر الدينية تفسيراً مادياً. ويعتبر بعض علماء الفزيولوجيا كبار المتدينين مثل جورج فوكس G. Fox من مرضى الأعصاب وأن الرسول كان «متهوساً». في حين أخرج يونج ظواهر التدين من علم النفس التحليلي إلا أنه لم يلتزم بمذهبه. واعتبرها تعبيراً عن البنية النفسية الشعورية واللاشعورية.

وبالرغم من عداة إقبال للغرب إلا أنه لقي الدكتاتور الإيطالي موسوليني الذي أراد إحياء الأمجاد الرومانية الاستعمارية القديمة تحت ذريعة نهضة الأمة وإحياء

(1) تجديد، ص 182 - 188.

(2) السابق، ص 216 - 217.

عظمتها. وهناك فرق بين الأمة التي تقوم على أوامر الأخوة مثل الأمة الإسلامية والأمة التي تقوم على نقاء العنصر مثل الفاشية والنازية والصهيونية.

ويصدر إقبال أحكاماً على الفلسفة الغربية تتسم بعدم الدقة والرفض المبدئي باسم الإسلام أو الإيمان واتهام المذاهب الغربية بالكفر والإلحاد والمادية. فالعلم الغربي كفر أو يؤدي إلى الكفر لأنه يفسر الظواهر بعلمها المادية فحسب. في حين أن تحليل العلل أساس القياس في علم أصول الفقه. والعلمانية ضد الدين لأنها تفصل بين الدين والدولة في حين أنها فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية، الكنيسة عن الدولة وليس الدين عن الحياة. ومقاصد الشريعة ابتداء وهي الضروريات الخمس، الحفاظ على الحياة والعقل والقيمة والعرض أي الكرامة والمال أي الثروة الوطنية تتجاوز الفصل الزائف بين الدين والعلمانية. فحقوق الإنسان وحقوق الشعوب تتجاوز هذا الفصل التعسفي.

6 - الاستشراق: ربما خضع إقبال لآثار التيارات العنصرية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر عند رينان وجوتيه وتفرقتهما بين العقلية السامية والعقلية الآرية. وكرد فعل على تمجيد المستشرقين الآرية ونقد السامية يحدث عند إقبال رد الفعل المضاد بتفضيل السامية على الآرية⁽¹⁾. طبيعة الجنس الآري تقوم على الفلسفة في حين تقوم طبيعة الجنس السامي أي العربي على العمل. يعبر الفكر الآري عن وحدة الوجود في حين يعبر الفكر السامي عن التوحيد. لذلك مال الفكر الآري في الهند وإيران إلى القول بوحدة الوجود وأن الذات مجرد زيف. والدول الأوربية تقول بالذات منذ ديكرت وهي آرية. ويقول بعض الصوفية المسلمين بوحدة الوجود وهم ساميون. وتظهر الشعوبية أحياناً في تفسير وحدة الحضارة الإسلامية بأنها تخصيب متبادل بين الأفكار السامية والأفكار الآرية. تجمع بين رقة ونعومة الأم الآرية ورجولة الأب السامي⁽²⁾. والفلسفة الإيرانية هي الأب قبل الإسلام ثم أخذت شكلاً جديداً بعده.

7 - الاشتباه في فكر إقبال: وبالرغم من الجوانب التقدمية في فكر إقبال

(1) سمير عبد الحميد: الأسرار والرموز، المقدمة، ص13.

Muslim community, Th. Ref., p. 379.

(2)

خاصة في شعره مثل الذاتية والفعل والحرية إلا أن بعض الجوانب التقليدية مازالت فيه. لذلك انقسم أنصاره إلى فريقين. الأول، يدفع بالاتجاهات الإصلاحية التقدمية إلى الأمام. والثاني، يجر إقبال إلى الاتجاهات التقليدية للمحافظة. فالإيمان هو الحل، وذكر الله المستمر هي نقطة البداية، والتصوف هو الطريق للمحافظة على الشخصية، والإسلام هو أفضل الديانات، والشريعة أسمى الشرائع. ولا فرق بين الشعر والخطابة. والوعظ والإرشاد. يعرف إقبال الحقيقة مسبقاً ويحاول الاستدلال على صحتها بالبرهان أو التعبير عنها شعراً بالصورة الفنية المستقاة من الطبيعة الحية من النبات والحيوان والطيور. والإنسان هو المؤمن وليس المواطن أو القومي. والمؤمن وحده هو العالمي نظراً لعالمية الإيمان والأخوة الإسلامية. ووضع المرأة في المنزل لتربية الأولاد وليس المرأة العاملة. ويرفض إقبال التسوية في الدية بين المسلم وغير المسلم كما هو الحال في المدارس التقليدية في الفقه في مقابل مدارس أخرى قديمة وحديثة تسوي في القصاص بين القاتل والمقتول بصرف النظر عن الدين (المسلم وغير المسلم) أو الجنس (الذكر والأنثى) أو الوضع الاجتماعي (الحر والعبد). وفي الفنون ينقد إقبال فن السينما ويعتبرها تمويه الصورة واستبدال الحقيقة بها. والتصوير الفني في القرآن والشعر هو أيضاً استعمال للصورة عن طريق التخيل من أجل التأثير في الناس. ويمدح إقبال الملك فاروق بمناسبة توليه العرش عام 1936. ويقرض له الشعر كما يفعل الشعراء الأقدمون في مدح السلاطين. وقد أنعمت ملكة بريطانيا عليه بلقب «سير». فأصبح «سير محمد إقبال».

المصادر والمراجع

1 - دواوين الشعر

- الديوان الأول. صلصلة الجرس، (بانكا درا). إعداد سيد عبد الماجد الغوري، ج1، مؤسسة محمد إقبال الإسلامية (الهند)، دار ابن كثير، دمشق، بيروت (د.ت).
- الديوان الثاني. الأسرار والرموز. أسرار إثبات الذات ورموز نفي الذات، أسرار خودي ورموز خودي. نقله إلى العربية شعرا الدكتور عبد الوهاب عزام (د.ت).
- الديوان الثالث. رسالة الشرق، (بيام مشرق). نقله إلى العربية الدكتور عبد الوهاب عزام (د.ت).
- الديوان الرابع. زبور العجم. نقله إلى العربية شعرا الدكتور حسين مجيب المصري (د.ت).
- الديوان الخامس. جناح جبريل. (بال جبريل) نقله من الأردوية إلى الفرنسية نثرا السيد ميرزا سعيد ظفر شاغتي والسيدة سوزان بوساك ثم نقله من الفرنسية إلى العربية نثرا الأستاذ عبد المعين الملوحي. ثم صاغه بالعربية شعرا الأستاذ زهير ظاظا.
- الديوان السادس. ضرب الكليم. إعداد سيد عبد الماجد الغوري. نقله إلى العربية شعرا الدكتور عبد الوهاب عزام.
- الديوان السابع. رسالة الخلود (جاويدنامة). نقله إلى العربية شعرا الدكتور حسين مجيب المصري. وله ترجمة أخرى نثرا من الدكتور محمد السعيد جمال الدين (د.ت).
- الديوان الثامن. والآن... ماذا نصنع؟ يا أمم الشرق. نقله إلى العربية الأستاذ أحمد الغازي، وصاغه بالعربية شعرا الشيخ صاوي شعلان المصري.
- ديوان هدية الحجاز. (أرمغان حجاز) نقله إلى الفارسية شعرا الدكتور حسين مجيب المصري. وله ترجمة وتحليل للديوان مع دراسة عن عصره وفكره وأدبه تأليف الأستاذ سمير عبد الحميد إبراهيم، المكتبة العلمية ومطبعتها اليك رود، لاهور، باكستان 1976.
- درر من شعر إقبال، شاعر الإسلام وفيلسوفه. نقله إلى العربية نظما الأنسة أميرة نور الدين داود، مطبعة المعارف، بغداد 1951م.

- Persian Psalms. Zabari-I-'Ajam, parts I, II, translated into English verse from the Persian by Arthur J. Arberry, Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazar, Lahore, 1948.
- The Renaissance of Islam. Iqbal's Tulu-e-Islam, rendered into English by Abdur-Rahman Tariq and Aziz Ahmed Sheikh, Pan-Islamic publications, National House, Lahore, 1966.
- The Guide. Iqbal's Khizr-e-Raah, rendered into English by Tariq and Aziz, Pan-Islamic publications, National House, Lahore, 1965.
- The New Rose Garden of Mystery and the Book of slaves. versified english translation of Iqbal's Gulshan-i-Raz-i-Jadid and Bandagi Namah by Hadi Hussain, Introduction by S.A. Vahid, Sh. Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazar, Lahore, 1969.
- The Secrets of The Self, translated from the original Persian with introduction and notes by Reynold A. Nicholson, Litt. D., LI. D., Sh. Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazar, Lahore, 1969.
- Complaint and Answer. Translation by A.J. Arberry, Sh. Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazar, Lahore, 1971.
- A Message from The East. A selective verse rendering of Iqbal's Payam-i-Mashriq by M. Hadi Hussain, Iqbal Academy, Pakistan, Karachi, 1971.

2 - المؤلفات النثرية

- تجديد التفكير الديني في الإسلام. ترجمة عباس محمود. راجع مقدمته والفصل الأول منه المرحوم عبد العزيز المراغي. وراجع بقية الكتاب الدكتور مهدي علام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة. 1952 ط 2، 1968.
- تطور الفكر الفلسفي في إيران، إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية. ترجمة أ.د. حسن محمد الشافعي، أ.د. محمد السعيد جمال الدين، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة 1409هـ - 1989م. العنوان الأصلي للكتاب .Development of Metaphysics in Persia
- *Thought & Reflections of Iqbal*, edited with notes by Sayed Abdul Vahid, SH. Muhammad Ashraf, Kashmiri Bazaar, Lahore, Pakistan, May, 1964.
- *Letters and Writings of Iqbal* edited and compiled by B. A. Dar, Iqbal Academy, Karachi, November, 1967.
- *Letters of Iqbal to Jinnah*, Allama Iqbal's views on the political future of Muslim India, SH. Mohammad Ashraf, Kashmiri Bazaar, Lahore, Reprinted, 1968.

المحتويات

5	الاهداء
7	مقدمة
7	1 - تصدير
10	2 - الموضوع والمنهج
12	3 - الترجمات الحالية
16	4 - أعمال إقبال
17	5 - التبويب

الباب الأول الذاتية

21	الفصل الأول: الذات
21	1 - مقدمة: «أسرار النفس»
24	2 - الذاتية الحقيقية الوجودية الأولى
26	أ - يقظة الذات
28	ب - إمكانية الذات
32	ج - وحدانية الذات
33	3 - الوعي الذاتي
33	أ - استقلال الوعي الذاتي
37	ب - الذات الكونية
39	ج - الذات الإلهية
41	4 - العقل والقلب
41	أ - حدود العقل
50	ب - رحابة القلب

- 5 - العلم والعشق 52
- أ - العلم الحي والعلم المدوّن 54
- ب - العشق والشوق 58
- ج - الجنون 64
- د - الحب 66
- 6 - حرية الاختيار 68
- أ - الإنسان حر 68
- ب - وهم القضاء والقدر 74
- ج - الحرية الذاتية 81
- 7 - الإبداع 84
- 8 - المقاصد والآمال 88
- 9 - ضعف الذات ونفيها 95
- أ - ضعف الذات 95
- ب - نفي الذات 99
- 10 - مراحل تربية الذات 101
- أ - الطاعة 101
- ب - ضبط النفس 102
- ج - النيابة الإلهية 104
- 11 - الذات بين المثل والواقع 110
- أ - الحياة كفاح 111
- ب - الذات عمل 118
- ج - العالم ميدان للفاعل 123
- 12 - الزمان والخلود 125
- أ - الزمان الشعوري 125
- ب - خلود الزمان 127
- الفصل الثاني: الذات المشتركة (الأمة) 131
- 1 - انبثاق العالم من الذاتية 131

- 2 - إثبات الذات سابق على إثبات الآخر 137
- 3 - الفرد والأمة 139
- 4 - تربية الأمة بالنبوة 143
- 5 - أركان الأمة: التوحيد والرسالة 144
- أ - التوحيد 144
- ب - الرسالة 154
- 6 - انتظام الأمة بالشريعة 157
- 7 - التقليد والاجتهاد 161
- 8 - حاجة الأمة إلى مركز محسوس (البيت الحرام) 163
- 9 - بقاء النوع الإنساني بالأمومة 164
- 10 - توسيع حياة الأمة لتسخير قوى العالم 166

الباب الثاني جدل الذات

- الفصل الأول: إثبات الذات (التأويل) 171
- 1 - التجربة والنص 171
- 2 - الذات والنص 173
- أ - إثبات الذات 173
- ب - الاحساس بالذات 174
- ج - تربية الذات 174
- د - تكميل الذات 174
- هـ - ثمرة تكميل الذات 175
- و - التمييز بين الأسرار والرموز 176
- 3 - اللفظ والصورة 176
- 4 - البيت والآية 178
- 5 - القصة الدينية 185
- 6 - القصة الخيالية 191
- الفصل الثاني: نفي الذات 195
- 1 - التصوف السلبي 195

202	2 - وحدة الوجود
204	3 - الفناء
208	4 - عبادة الأصنام
214	5 - المسجد والدير
219	6 - العزلة والرهينة
225	7 - إمامة العالم
227	8 - المصلح والدرويش
230	9 - فلسفة العمل
232	10 - الزهد
233	11 - الفقر
234	أ - الفقر والحرية
238	ب - الفقر والملك
240	ج - الفقر الغيور
244	د - القلندر
247	12 - المقامات والأحوال

الباب الثالث الشكوى والأنين

253	الفصل الأول: الشكوى والجواب
253	1 - صلصلة الجرس
256	2 - حيلة العاجزين
257	3 - الشكوى لمن؟
263	4 - موضوع الشكوى: العصر الحاضر
273	5 - جواب الشكوى
279	الفصل الثاني: الأنين والحنين
279	1 - جناح جبريل
282	2 - مصدر الأنين
286	3 - منابع الحنين

- 294 4 - الحنين إلى الماضي
- 298 5 - الحنين إلى الأوطان
- 298 أ - مكة والحجاز
- 299 ب - قرطبة والأندلس
- 303 ج - الشام وفلسطين
- 305 6 - من الماضي إلى الحاضر

الباب الرابع السقوط والنهوض

- 313 الفصل الأول: أسباب السقوط
- 313 1 - «ضرب الكليم» و«رسالة الخلود»
- 313 أ - ضرب الكليم
- 314 ب - جاويد نامه
- 317 2 - موقف الذات
- 323 3 - القدرية والمهدية
- 327 4 - القهر الداخلي والاستعمار الخارجي
- 330 5 - ما هو الحل؟
- 337 الفصل الثاني: عوامل النهوض
- 337 1 - نهوض الحضارات
- 338 2 - الفكر بين المثال والواقع
- 340 3 - علوم النظر
- 345 4 - علوم الذوق
- 351 5 - علوم التربية
- 351 أ - مناهج التعليم: من النقل إلى الإبداع
- 356 ب - المدرسة: من المهنة إلى الرسالة
- 361 6 - الجمال والفن
- 361 أ - الجمال والجلال
- 363 ب - الفن للحياة

- 365 ج - الفنون
- 372 7 - المرأة الجميلة

الباب الخامس الذات المضادة

- 379 الفصل الأول: الغرب والتغريب
- 379 1 - رسالة المشرق
- 381 2 - الموت في الروح
- 386 3 - السفور
- 389 4 - عبادة المال والقوة
- 398 5 - الانبهار بالغرب
- 403 6 - تقليد الغرب
- 411 الفصل الثاني: الغرب والشرق
- 411 1 - الشعراء بين الشرق والغرب
- 416 2 - الفلاسفة بين الشرق والغرب
- 423 3 - الصور المتبادلة بين الشرق والغرب
- 434 4 - استعمار الغرب للشرق
- 441 5 - تحرر الشرق من الغرب
- 448 6 - من ربح الغرب إلى ربح الشرق
- 448 أ - انهيار الغرب
- 450 ب - نهضة الشرق

الباب السادس التراث والتجديد

- 457 الفصل الأول: التراث الفلسفي القديم
- 457 1 - «زبور العجم»
- 461 2 - تطور الفكر الفلسفي
- 463 3 - الاستشراق
- 468 4 - الشعبية الفارسية

472	5 - مراحل الفكر الفلسفي
475	6 - الفلسفة الغربية كوسيلة للتحديث
483	الفصل الثاني: تجديد التفكير الديني
483	1 - تجديد التفكير الديني في الإسلام
484	أ - خصائص الفكر الإسلامي
485	ب - الاستشراق مستمر
487	2 - الفلسفة والدين
487	أ - العقل والإيمان
488	ب - الكلام والتصوف
489	ج - البراهين على وجود الله
490	د - الذات والصفات
492	هـ - الحرية وخلود النفس
494	و - الدين والتقدم
495	ز - الاجتهاد ومبدأ الحركة
501	3 - الفلسفة الحديثة
502	أ - المنهج التجريبي
503	ب - الإيمان الفلسفي
509	ج - الإيمان الصوفي
510	د - الإيمان العلمي

الباب السابع الدولة الأمة

517	الفصل الأول: نظام الدولة
517	1 - موضوع السياسة
520	2 - الدين والدولة
521	3 - الملكية والجمهورية
524	4 - الديمقراطية وحق الشعب
528	5 - الرأسمالية والاشتراكية

- 532 6 - العنصرية والاستعمار
- 537 الفصل الثاني: حال الأمة
- 537 1 - الأمة الإسلامية
- 538 2 - النظام السياسي الإسلامي
- 540 أ - البنية العامة للمجتمع الإسلامي
- 540 ب - تجانس الثقافة الإسلامية
- 541 ج - التواصل في الشخصية الإسلامية
- 543 3 - النظام الاقتصادي الإسلامي
- 545 4 - الوطنية والقومية والعالمية
- 546 أ - الوطنية
- 552 ب - القومية
- 553 ج - العالمية
- 554 5 - القاديانية والباية
- 557 6 - كشمير وفلسطين
- 563 7 - الاستشراق
- 565 الخاتمة
- 565 1 - جوهرية الذات
- 566 2 - الثنائيات التقليدية
- 567 3 - التصوف السلبي
- 569 4 - الانبهار القديم
- 571 5 - رفض الغرب
- 573 6 - الاستشراق
- 573 7 - الاشتباه في فكر إقبال
- 575 المصادر والمراجع

يتبع الأعمال العلمية، بالعربية:

- حوار المشرق والمغرب، (بالاشتراك)، القاهرة، 1990.
- مُقدِّمة في علم الاستغراب، القاهرة، 1991.
- هموم الفكر والوطن، (جزءان)، الإسكندرية، 1997.
- جمال الدين الأفغاني، 1998.
- الدين والثقافة والسياسة في الوطن العربي، 1998.
- حوار الأجيال، 1998.
- من النقل إلى الإبداع، (تسعة أجزاء)، 2000 - 2002.
- فتيته: فيلسوف المقاومة، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003.
- ط2، الجمعية الفلسفية المصرية، القاهرة، 2003.
- من النص إلى الواقع: محاولة لإعادة بناء علم أصول الفقه، (جزءان)، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2004.
- من مانهاتن إلى بغداد، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004.
- من الفناء إلى البقاء، (جزءان)، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2009.

الأعمال العلمية، بالإنكليزية:

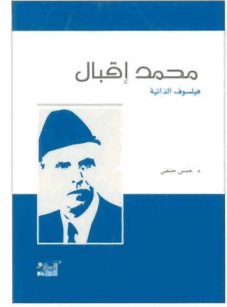
- الحوار الديني والثورة، القاهرة، 1977.
- الإسلام في العصر الحديث، (جزءان)، القاهرة، 1995.

الأعمال العلمية، بالفرنسية:

- مناهج التأويل، باريس-القاهرة، 1965.
- تأويل الظاهريات، باريس-القاهرة، 1966.
- ظاهريات التأويل، باريس-القاهرة، 1966.

محمد إقبال

فيلسوف الذاتية



لأول مرة يصدر كتاب شامل عن الفيلسوف محمد إقبال اعتماداً على شعره ونثره من أجل مشاركة القارئ في تذوق الشعر. وبالرغم من انقضاء ما يقرب من سبعين عاماً على وفاته إلا أن موقفه بالنسبة للأوضاع الحالية للأمة الإسلامية مازال دالاً ومعاصراً. يعرض فلسفته في الذاتية: الذات الفرد، والذات المشتركة أي الأمة. وجدل الذات: إثباتها (التأويل) ضد نفيها. والشكوى والأنين: الشكوى والجواب، والأنين والحنين. والسقوط والنهوض: أسباب السقوط وعوامل النهوض. والذات المضادة: الغرب والتغريب، والغرب والشرق. والتراث والتجديد: التراث الفلسفي القديم، وتجديد التفكير الديني. وأخيراً الدولة والأمة: نظام الدولة، وحال الأمة.

ISBN 9959-29-415-9



9

789959 294 159

موضوع الكتاب فلسفة

موقعنا على الإنترنت
www.oaabooks.com